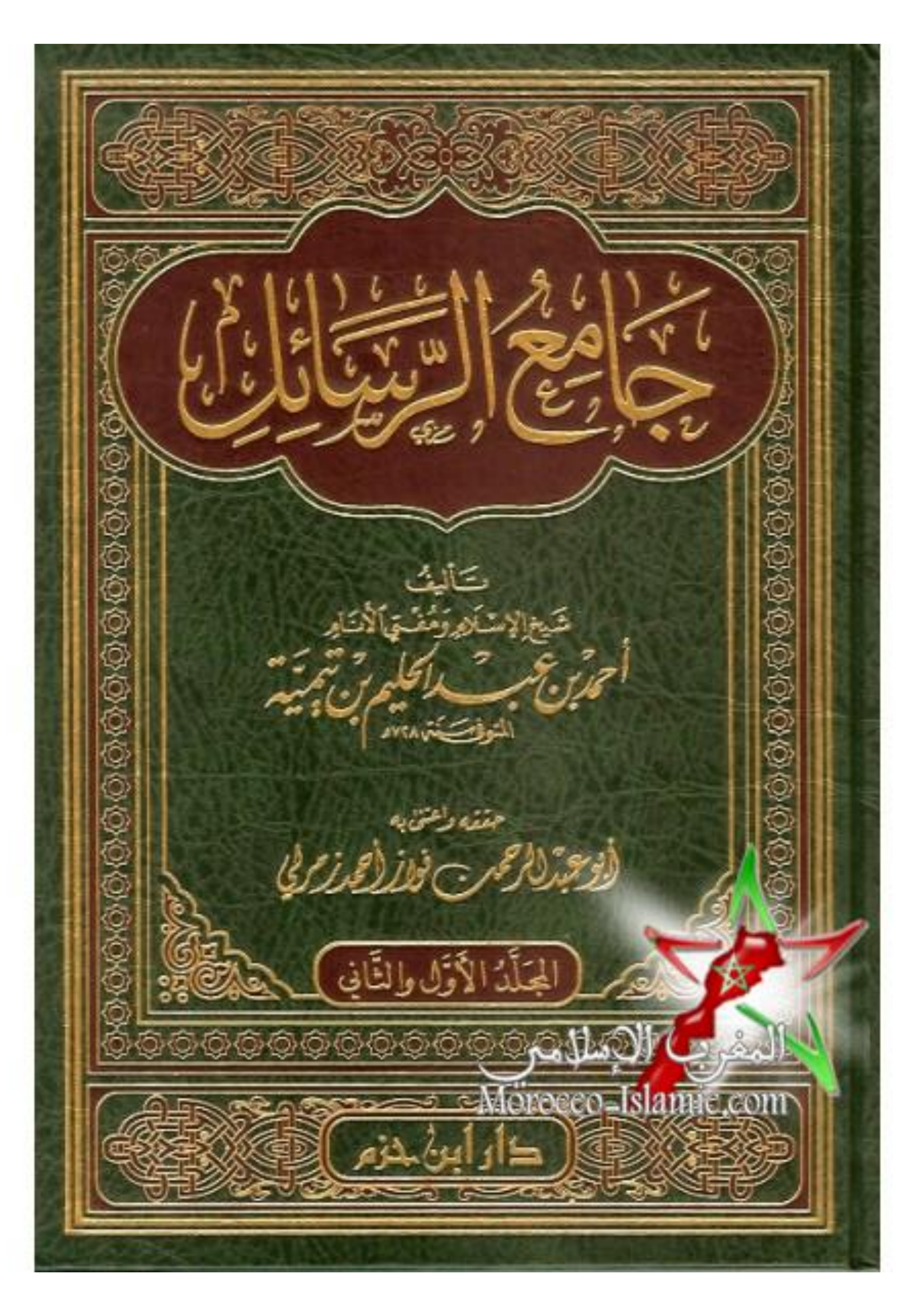

جامع الرسائل
تأليف
شيخ الإسلام ومفتي الأنام
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية
المتوفى سنة ٧٢٨هـ
حققه واعتنى به
أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي
المجلد الأول والثاني
دار ابن حزم

مكتبة ابن تيمية
القسم الأول - المؤلفات



لابن تيمية

أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم

تحقيق
الدكتور محمد رشاد سالم

الناشر
دار المدني
للنشر والتوزيع - جدة ت ٦٤٣٢٣٦٢

مكتبة ابن تيمية

القسم الأول - المؤلفات

٢



جامع الرسائل

لابن تيمية

أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم

المجموعة الأولى

تحقيق

الدكتور محمد رشاد سالم

الناشر

دار المدني

للنشر والتوزيع - جدة ت ٦٤٣٢٣٦٢

رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى

ظ ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، وبه القوة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآلهِ أجمعين وسلمَ تسليما .

﴿ فصـــل ﴾

في قنوت الأشياء لله عز وجل، وإسلامها، وسجودها له، وتسبيحها له .

القنوت في القرآن

فإن هذه الأربعة قد ذكرها الله تعالى في القرآن . قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة البقرة ١١٦ ، ١١٧] ، وقال تعالى في سورة الروم : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [سورة الروم : ٢٦، ٢٧] .

الإسلام

وأما الإسلام فقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] .

السجود

وأما السجود فقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ[1] ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ

---

(١) في الأصل : (تتفيؤ) ، وهي قراءة أبي عمرو ، وبهذه القراءة جاءت في سائر المواضع .

سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨ ، ٤٩] .
وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] .

التسبيح

وأما التسبيح فقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٤٤] ،وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة الصف : ١] ، [سورة الحشر : ١] فى موضعين، و : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ والْأَرْضِ ﴾ [سورة الحديد : ١] ، و : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة الجمعة : ١] ، [سورة التغابن : ١] فى موضعين، نخمس سور افتتحت بذكر تسبيح ما فى السموات وما فى الأرض له ؛ وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ [سورة البقرة : ١١٦] فهو نظير قوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [سورة مريم : ٨٨ ـ ٩٥] . وقد قال تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يونس : ٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦-٢٩] .

* * *

ص ٢٠
القنوت فى اللغة

والقنوت فى اللغة /دوام الطاعة ، والمصلِّى إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت فى ذلك كلِّه ؛ قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [سورة الزمر : ٩] ، فجعله قانتا فى حال السجود والقيام .

وفى الحديث الصحيح : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الصلاة أفضل ؟ فقال : طول القنوت »[1] . ولم يرد به طول القيام فقط ، بل طول القيام والركوع والسجود ، كما كانت صلاة النبى صلى الله عليه وسلم ، كانت معتدلة إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾[سورة النحل: ١٢٠]، وقال تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [سورة النساء : ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ ﴾ [سورة التحريم : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٥] ، وسمى إطالة القيام فى الصلاة قنوتاً لأنه يطيل فيه الطاعة ، ولو صلّى قاعداً لقنت وهو قاعد ، وكذلك إذا صلّى على جنب قنت وهو على جنب ، والقيام قبل الركوع يُسمى أيضاً قنوتاً .

---

(١) هو حديث جابر رضى الله عنه فى : مسلم ٢/١٧٥ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣ / ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٣٩١ ؛ الترمذى (بشرح ابن العربى) ٢ / ١٧٨ - ١٧٩ (أبواب الصلاة ، باب ما جاء فى طول القيام فى الصلاة) ؛ النسائى (بشرح السيوطى) ٥/٥٨ (كتاب الزكاة ، باب جهد المقل) .

قال ابن قتيبة[١] : « لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة ، لأن جميع الخلال: من الصلاة ، والقيام فيها ، والدعاء وغير ذلك يكون عنها[٢] » .

وقال أبو الفرج[٣] : « قال الزجاج[٤] : القنوت هو فى اللغة بمعنيين : أحدهما القيام ، والثانى الطاعة . والمشهور فى اللغة والاستعمال أن القنوت الدعاء فى القيام ، فالقانت : القائمُ بأمر الله ، ويجوز أن يقع فى جميع الطاعات ، لأنه وإن لم يكن قياماً على الرجْلين فهو قيام بالنية » .

قلت : هذا ضعيف ، لا يُعرف فى اللغة أن مجرد القيام يسمى قنوتاً ، والرجل يقوم ماشياً وقائماً فى أمور ولا يُسَمَّى قانتا ، وهو فى الصلاة يسمى قانتاً لكونه مطيعاً عابداً ، ولو قنت قاعداً ونائماً سُمِّيَ قانتاً . وقوله تعالى : ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٨] يدل على أنه ليس هو القيام ، وإنما هو صفة فى القيام يكون بها القائم قانتا ، وهذه الصفة تكون فى السجود أيضاً ، كما قال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً ﴾ .

---

(١) فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » (تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر) ، ص ٣٥٠ . وهذه العبارة هى آخر كلامه الذى استغرق صفحة كاملة ، وقال هناك : « ولا أرى أصل هذا الحرف إلا الطاعة ، لأن جميع هذه الخلال . . . الخ » .

(٢) عنها : فى الأصل فيها ، وفى الهامش كتبت كلمة « عنها » وعليها حرف (خ) أى فى نسخة أخرى . وأثبتها عن تأويل مشكل القرآن .

(٣) المقصود بأبى الفرج : عبد الرحمن بن على بن الجوزى ، الإمام العلامة المتوفى سنة ٥٩٧ ، ومن كتبه « زاد المسير فى علم التفسير » (ومنه نسخة خطية) وتيسير البيان فى علم القرآن ، قال ابن رجب : مجلد ، وكتاب المغنى فى التفسير قال ابن رجب : أحد وثمانون جزءاً. انظر ترجمته ومصنفاته فى : وفيات الأعيان ٢/٣٢١–٣٢٢ ؛ تاريخ ابن الوردى ٢/١١٨؛ الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١ / ٣٩٩ – ٤٣٣ ؛ الكامل لابن الأثير (ط. الحلبى) ١٠/٢٢٨ ، ١٢/٦٧ ؛ الأعلام للزركلى ٤/٨٩ – ٩٠ .

(٤) هو إبراهيم بن السرى بن سهل ، أبو اسحاق الزجاج ، النحوى اللغوى ، المتوفى سنة ٣١١ . ومن كتبه الهامة « معانى القرآن » ومنه نسخة خطية . انظر ترجمته ومصنفاته فى : وفيات الأعيان ١/٣١–٣٣ (وفيه : إبراهيم بن محمد) ؛ معجم الأدباء ١/١٣٠–١٥١؛ إنباه الرواة ١/١٥٩–١٦٦ (وانظر فى التعليق مراجع أخرى فى ترجمته) ؛ الأعلام ١/٣٣.

فقول القائل : إن المشهور فى اللغة أنه الدعاء فى القيام ، إنما أخذه من كون هذا المعنى شاع فى اصطلاح الفقهاء إذا تكلموا فى القنوت فى الصلاة ، وهذا عُرف خاص . ومع هذا فالفقهاء يذكرون القنوت سواء صلى قائما أو قاعدا أو مضطجعا ، لكن لما كان الفرض ليس يصحُّ أن يصلِّيَه إلا قائما ، وصلاة القاعد على النصف من صلاة القائم ، صار القنوت فى القيام أكثرَ وأشهرَ ، وإلا فلفظ « القنوت » فى القرآن واللغة ليس مشهوراً فى هذا المعنى ، بل ولا أُرِيدَ به هذا المعنى ، ولا هو أيضاً مشتركا ، بل اللفظ بمعنى الطاعة أو الطاعة الدائمة ، ولهذا يفسره المفسرون بذلك .

القنوت عند ابن تيمية هو الطاعة

ظ ٢٠

/ وقد رُوى فى ذلك حديث مرفوع رواه ابن أبى حاتم من النسخة المصرية التى يروى منها الترمذى وغيره من حديث ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، أن درَّاجاً أبا السَّمح حدثه : عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل حرف فى القرآن يُذكر فيه القنوت فهو الطاعة »[1] .

---

(١) هذا الحديث رواه أحمد فى مسنده ٣/٧٥ (ط . الحلبى) ونصه فيه : حدثنا عبد الله حدثنى أبى ثنا حسن (وهو ابن موسى الأشيب) حدثنا ابن لهيعة ثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » .

وروى الطبرى الحديث مرتين عن ابن لهيعة ، وسند الأولى إليه : حدثنا الربيع بن سليمان قال حدثنا أسد بن موسى قال حدثنا ابن لهيعة . وسند الثانية إليه : حدثنى المثنى ، قال حدثنا إسحاق ، قال حدثنا محمد بن حرب قال حدثنا ابن لهيعة .

وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى تعليقه (تفسير الطبرى ٥/٢٣١ ، ط . المعارف) : « وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ : ٣٢٠ ، وقال : رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط . وفى إسناد أحمد وأبى يعلى ابن لهيعة وهو ضعيف » قال الشيخ أحمد شاكر : « وابن لهيعة ليس بضعيف كما قلنا فيما مضى : ٢٩٤١ » (انظر تفسير الطبرى ٣/٤٩٧) .

وفى تفسير ابن أبى طلحة[١] عن ابن عباس : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ ﴾ [سورة النساء : ٣٤] : « مطيعات » .

قال ابن أبى حاتم : وروى عن مجاهد وعكرمة وأبى مالك وعطاء وقتادة والسُّدى مثل ذلك .

وروى عن مقاتل بن حيان قال : « مطيعاتٍ لله ولأزواجهن فى المعروف » .

وروى عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتُ ﴾ قال : « يعنى المطيعين والمطيعات » .

قال : وروى عن قتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم مثل ذلك . وروى بإسناده عن أبى العالية فى قوله : ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ [سورة آل عمران : ٤٣] قال: اركدى لربك . وعن الأوزاعى قال : « ركدت فى محرابها قائمةً وراكعةً وساجدةً حتى نزل ماء الأصفر فى قدميها » .

وعن الحسن أنه سئل عن قوله : ﴿ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي ﴾ قال : « يقول : اعبدى لربك » .

وعن ليث عن مجاهد قال : « كانت تقوم حتى تتورم قدماها »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن أبى حاتم : « تقدم تفسير القانت فى غير موضع القانت الذى يطيع الله ورسوله » .

وروى عن أحمد بن سنان ، عن عبد الرحمن بن مهدى ، عن سفيان ، عن فراس ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : « القانت الذى يطيع الله ورسوله » .

---

(١) هو على بن أبى طلحة . قال ابن سعد (الطبقات ٧ / ٤٥٨) : « روى التفسير عن ابن عباس ، رواه عنه معاوية بن صالح » . وانظر الجرح والتعديل ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٩١ . وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر تفسير الطبرى ٢ / ٥٢٧ ـ ٥٢٨ .

(٢) انظر تفسير الطبرى (ط . المعارف) ٦/٤٠١ ـ ٤٠٣ .

فهذا تفسير السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم لألفاظ القنوت في القرآن[1] .

﴿ فصـــل ﴾

وكذلك فسَّروا القنوت في قوله : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١١٦] ، لـكن تَنَوَّع كلامُهم في طاعة المخلوقات كلها لما رأوا أن من الجن والإنس من يعصى أمر الله الذى بعث به رسلَه ، فذكر كل واحد نوعاً من القنوت الذى يعُم المخلوقات .

رواية ابن أبي حاتم أوجه تفسير لفظ القنوت

قال ابن أبي حاتم : « اختلف في قوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ على أوجه » . وروى بإسناده الحديث المرفوع : « كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » .

الوجه الأول الطاعة

وروى عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : قانتون ، قال : مطيعون . يقول : طاعة الـكافر في سجوده سجود ظله وهو كاره .

وأيضا عن شريك ، عن خصيف ، عن مجاهد : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ قال : مطيعون ، كن إنساناً فـكان ، وقال : كن حماراً فـكان . ففسَّرها مجاهد بالسجود طوعا وكرها ، وفسَّر الـكره بسجوده ظلِّه ، وفسَّرها أيضا بطاعة أمره الـكونى ، وهو قوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَـكُونُ ﴾ [سورة يس : ٨٢] وهذا الأمر الـكونى لايخرج عنه أحد .

---

(١) فسر الطبرى لفظ « القنوت » بمايوافق تفسير ابن تيمية ، وأورد الآثار عن السلف في ذلك . انظر التفسير (ط . المعارف) ٢/٥٣٨ ـ ٥٤٠ ، ٥/ ٢٢٨ ـ ٢٣٧ (وخاصة ص ٢٣٦ ـ٢٣٧ حيث ذكر الطبرى القول الذى يرجحه في تأويل القنوت وهوالطاعة) ، ٦/ ٢٦٤ـ٢٦٥ ،٤٠١ـ ٤٠٤ ، ٨/٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامات التى / لايجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر »[1].

ص ٢١

وهذان الوجهان ذكرهما ابن الانبارى[2]، مع ذكره وجهاً آخر : أنها خاصة . قال أبو الفرج : « فإن قيل : كيف عمَّ بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع ؟ ففيه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن يكون ظاهرها العموم ومعناها معنى الخصوص ، والمعنى : كل أهل الطاعة له قانتون . والثانى : أن الكفَّار تسجد ظلالهم لله بالغدو والآصال والعشيَّات فنسب القنوت إليهم بذلك . والثالث : أن كل مخلوق قانت له بأثر صُنْعِهِ فيه وجَرْيِ أحكامه عليه ، فذلك دليل على إلٰه كوَّنه ؛ ذكرهن ابن الأنبارى » .

الوجه الثانى الصلاة

قال ابن أبى حاتم : الوجه الثانى : حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا أسباط ، عن مطرِّف ، عن عطية ، عن ابن عباس ، قال : قانتون : مصلُّون » .

---

(١) فى الموطأ ٢/ ٩٥٠ (كتاب الشعر ، باب ما يؤمر به من التعوذ) : « وحدثنى عن مالك عن يحي بن سعيد أنه قال: أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة ، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه . فقال له جبريل : أفلا أعلمك كلمات تقولهن ، إذا قلتهن طفئت شعلته وخرلفيه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى . فقال جبريل : فقل أعوذ بوجه الله الكريم ، وبكلمات الله التامات اللاتى لايجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر مايعرج فيها ، وشر ما ذرأ فى الأرض ، وشر مايخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار ، إلا طارقا يطرق بخير يارحمن » .

وورد الحديث مرسلا أيضا عن كعب الأحبار بعده بقليل ٢/٩٥١ ـ ٩٥٢ .

وجاء التعوذ بكلمات الله التامات بصيغ أخرى فى أحاديث صحيحة كما فى البخارى ومسلم وغيرهما . وانظر تعليقنا على الحديث فى منهاج السنة ٢/٢٩٢ ـ ٢٩٣ . وانظر أيضا الأذكار للنووى ، ص ١٢١ .

(٢) أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبى سعيد الأنبارى ، النحوى اللغوى الأديب المتوفى سنة ٥٧٧ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٢/ ٣٢٠ ؛ فوات الوفيات ١/٥٤٧ ؛ شذرات الذهب ٤/٢٥٨ ـ ٢٥٩ ؛ إنباه الرواة ٢/١٦٩ ـ ١٧١ (وانظر التعليق) ؛ الأعلام ٤/١٠٤ .

قلت : وهذا من جنس وصفها بالسجـود له والتسبيح ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] . لـكن قد يُقال : فالصلاة صلاة المخلوقات والمؤمنين ، ولم يُرد أن الكافرين يصلون فتكون الآية خاصة . ولهذا حُـكى عن ابن عباس أنه قال : هى خاصة .

الوجه الثالث الإقرار بالعبودية

قال: « والوجه الثالث، ثم روى بالإسناد المروى عن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة : كل له قانتون ، قال : مقرُّون[1] بالعبودية. قال : وروى عن أبى مالك نحوه » .

قلت : وهذا إخبار عمَّا فُطروا عليه من الإقرار بأن الله ربهم كما قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ الآية [سورة الأعراف : ١٧٢] . فإن هذه الآية بيّنة فى إقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بالمعرفة التى فطروا عليها[2] : أنَّ الله ربهم. وقال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة »[3] .

وطائفة من العلماء جعلوا هذا الإقرار لما استخرجوا من صلب آدم وأنه أنطقهم وأشهدهم ، لـكن هذا لم يثبت به خبر صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والآية لاتدل عليه .

---

(١) فى الأصل : مقردون ، وهو تحريف .
وفى تفسير الطبرى : (٥٣٩/٢) : « حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا يحي بن واضح ، قال : حدثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة : كل له قانتون : كل مقر له بالعبودية » .

(٢) فى الأصل : عليه .

(٣) ورد هذا الحديث بتمامه فى « منهاج السنة » ٢٣٤/٢ ـ ٢٣٥ ، وتـكلمت عليه طويلا هناك وذكرت مكانه فى البخارى ومسلم وسنن أبى داود وجامع الترمذى والموطأ وصحيح ابن حبان والمسند وغيرها فارجع إليه .

وإنما الذى جاءت به الأحاديث المعروفة أنه استخرجهم وأراهم لآدم، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار منهم، فعُرفوا من يومئذ. هذا فيه مأثور من حديث أبى هريرة، رواه الترمذى وغيره بإسناد جيد[١]. وهو أيضاً من حديث عمر بن الخطاب الذى رواه أهل السنن ومالك فى الموطأ[٢]، وهو يصلح للاعتضاد.

وأما إنطاقهم وإشهادهم فروى عن بعض السلف، وقد روى عن أُبَىّ[٣] وابن عباس، وبعضهم رواه مرفوعا من طريق ابن عباس وغيره. وروى ذلك الحاكم فى صحيحه، لكن هذا ضعيف[٤]. وللحاكم مثل هذا، يروى أحاديث

---

(١) انظر الترمذى (بشرح ابن العربى) ١١/٩٦-٢٠٠ (كتاب التفسير، سورة الأعراف) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ».

(٢) الحديث فى : سنن أبى داود ٤/٣١٢-٣١٣ (كتاب السنة، باب فى القدر) ؛ الموطأ ٢/٨٩٨-٨٩٩ (كتاب القدر، باب النهى عن القول بالقدر) ؛ الترمذى (بشرح ابن العربى) ١١ / ١٩٤ - ١٩٦ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم فى هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلا مجهولا ».

(٣) روى الطبرى فى تفسيره أثرين موقوفين على أبى بن كعب رضى الله عنه، الأول فى تفسير قوله تعالى : (وأيدهم بروح منه) [سورة النساء : ١٧١] . انظر : التفسير (ط. المعارف) ٩/٤٢١-٤٢٢ . والثانى فى تفسير هذه الآية من سورة الأعراف. انظر : التفسير ١٣ / ٢٣٨ - ٢٣٩ . وقد صحح الأستاذ محمود شاكر إسناده وأشار إلى رواية عبد الله بن أحمد بن حنبل له فى زياداته على مسند أبيه (انظر المسند - ط. الحلبى - ٥/١٣٥) وإلى نقل الهيثمى له فى مجمع الزوائد ٧/٢٥ وإلى رواية الحاكم له فى المستدرك (٢ / ٣٢٣) مطولا. كما ذكر أن ممن رواه : الآجرى فى كتاب الشريعة، ص ٢٠٧ ؛ ابن عبد البر فى التمهيد، ص ٣٠٧، ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٦٣-٢٦٤ فى الطبعة التى أرجع إليها) ؛ الدر المنثور للسيوطى ٣ / ١٤٢ .

(٤) وردت آثار عديدة تذكر إنطاق الله لبنى آدم وإشهادهم على أنفسهم أكثرها موقوف وبعضها مرفوع. وحديث ابن عباس المرفوع رواه أحمد فى مسنده (٤/١٥١ - رقم ٢٤٥٥) ونصه : « حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير - يعنى ابن حازم، عن كلثوم ابن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعنى عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا : (قال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا =

موضوعة فى صحيحه مثل حديث زريب بن برثملى وهامة بن الهيم(١) وغير ذلك ، وبسط هذا له موضع آخر .

= عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) .

وأورد الطبرى فى تفسيره ١٣/٢٢٢ ـ ٢٥٠ كثيرا من الآثار الواردة فى هذا الصدد منها حديث ابن عباس المرفوع (رقم ١٥٣٣٨) وأحاديث أخرى موقوفة عليه (منها الأرقام ١٥٣٣٩ ـ ١٥٣٤٣ ، ١٥٣٤٧ ـ ١٥٣٥٠ ، ١٥٣٦٠ ـ ١٥٣٦٢) ومنها حديث عبد الله بن عمرو المرفوع (رقم ١٥٣٥٤) .

وقد صحح الشيخ أحمد شاكر رحمه الله حديث ابن عباس المرفوع فى تعليقه على المسند وتكلم عليه (ارجع إلى التعليق) ووافقه الأستاذ محمود شاكر على ذلك وتكلم على سائر الآثار كلاما مفصلا وبين طرقها ومواضع ورودها فى كتب السنة وصحح بعضها وضعف بعضها الآخر فارجع إلى تعليقاته .

وأشير هنا إلى رأى الطبرى الذى قال بعد أن أورد جميع الآثار فى تفسير هذه الآية أن الوجه الأول فى تأويلها هو الذى يقول أن الله خاطب ذرية آدم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. فقال لهم هو وملائكته: شهدنا عليكم .. إلخ . والوجه الثانى هو أن ذلك خبر من الله عن قيل بعض بنى آدم لبعض حين أشهد الله بعضهم على بعض . وقال أصحاب هذا الوجه : معنى قوله : وأشهدهم على أنفسهم : وأشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك .

قال الطبرى : إن الوجه الأول أولى بالصواب لو صح ، ولكنه لم يعلم صحيحا . ثم قال : « وإن لم يكن ذلك عنه صحيحا ، فالظاهر يدل على أنه خبر من الله عن قيل بنى آدم بعضهم لبعض ، لأنه جل ثناؤه قال : (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)، فكأنه قيل : فقال الذين شهدوا على المقرين حين أقروا فقالوا بلى : ـ شهدنا عليكم بما أقررتم على أنفسكم ، كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . وانظر أيضا ما ذهب إليه ابن كثير فى تفسيره ٢/٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

وقد تكلم ابن تيميه عن هذه الآية وعن حديث : كل مولود يولد الفطرة ، كلاما مسهبا استغرق معظم الجزء الأخير من كتاب « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » ، وهو الجزء الذى ما زال مخطوطا فى المكتبة التيمورية بدار الكتب (رقم ١٨٢ عقائد) .

(١) حديث زريب بن برثملى رواه ابن عراق الكنانى فى « تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة » ١/٢٣٩ ـ ٢٤٠ عن ابن عمر رضى الله عنه وأوله : « كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص وهو بالقادسية أن سرح نضلة بن جعونة إلى حلوان » وفيه أن نضلة سمع مخاطبا يخاطبه من الجبل فسأله من يكون وهل هو ملك أم ساكن من الجن أم طائف من عباد الله « فانفلق الجبل عن هامة كالرحا أبيض الرأس واللحية عليه طمران من صوف فقال السلام عليكم ورحمة الله. قلنا : وعليكم السلام ورحمة الله ، من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا زريب بن برثملا وصى العبد الصالح عيسى بن مريم ، أسكننى هذا الجبل ودعا لى بطول البقاء ... =

لكن كون الخلق مفطورين[1] على الإقرار بالخالق أمر دل عليه الكتاب والسنة ، وهو معروف بدلائل العقول ، كما قد بُسط فى مواضع/ وبُيِّن أن الإقرار بالخالق فطرى ضرورى فى جِبِلَّات الناس . لكن من الناس من فسدت فطرته فاحتاج إلى دواء ، بمنزلة السفسطة التى تعرض لكثير من الناس فى كثير من المعارف الضرورية ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع . ظ ٢٠

وهؤلاء يحتاجون إلى النظر ، وهذا الذى عليه جمهور الناس : أن أصل المعرفة قد يقع ضروريًا فطريًا ، وقد يُحتاج فيه إلى النظر والاستدلال .

وكثير من أهل الكلام يقول : إنه لايجوز أن تقع[2] المعرفة ضرورية بل لاتقع إلا بنظر وكسب ، قالوا : لأنها لو وقعت ضرورة لارتفع التكليف والامتحان . ومنهم من ادَّعى انتفاء ذلك فى الواقع ، وهذا ضعيف لأن الامتحان والتكليف الذى جاءت به الرسل كان بأن يعبدوا الله وحده لايشركون به ؛ إلى هذا دعا عامة الرسل ، ومن كان من الناس جاحداً دَعَوْه إلى الاعتراف

= إلخ . وروى الحديث السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة » ١/١٧٧-١٨٢ من وجوه عدة وتكلم عنه طويلا ومما ذكره : « قال الخطيب : روى الراسى هذا الحديث المنكر ، وابن لهيعة يدلس عن ضعفاء وسليمان بن أحمد ضعيف » .

وأما حديث هامة بن الهيم فرواه ابن عراق فى المرجع السابق ١/٢٣٨ - ٢٣٩ عن ابن عمر : « بينما نحن قعود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبل من جبال تهامة إذ أقبل شيخ فى يده عصا فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد عليه السلام ، فقال : نغمة الجن وهمهمتهم من أنت ؟ قال : أنا هامة بن الهيم بن لاقيس بن إبليس . قال : وليس بينك وبين إبليس إلا أبوان ؟ قال : نعم .. إلخ » .

وروى الحديث السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة » ١/١٧٤ - ١٧٥ من وجهين وقال: « موضوع . إسحاق بن بشر الكاهلى كذاب وضاع بالاتفاق . وأبو سلمة يروى عن الثقات ما ليس من حديثهم لا يجوز الاحتجاج به . قال العقيلى : وكلا الإسنادين غير ثابت وليس للحديث أصل . قلت : وكذا قال فى « الميزان » هو باطل بالإسنادين » .

ولم أجد الحديثين فى « مستدرك » الحاكم .

(١) فى الأصل : مفطورون .

(٢) فى الأصل : أن يقع .

بالصانع: كفرعون ونحوه، مع أنه كان فى الباطن عارفاً و إنما جحد ظلما وعلوا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤]، وقال له موسى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ [سورة الإسراء : ١٠٢] .

وخاتم الرسل دعا الناس إلى الشهادتين ، فقال: « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[1]. وقال لمعاذ فى الحديث الصحيح : «إنك تأتى قوماً أهل كتاب ، فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فإن هم أطاعوا لك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فى فقرائهم »[2] .

ولهذا قالت الرسل لقومهم ما أخبر الله تعالى به فى قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة إبراهيم : ٩ ـ ١١].

---

(١) قال السيوطى فى « الجامع الصغير » : « متفق عليه رواه الأربعة عن أبى هريرة وهو متواتر » : والحديث مروى بمعناه عن عدد من الصحابة ، وانظر : البخارى ١ / ١٠ (كتاب الإيمان ، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة . . . إلخ) ، ٩/ ١٥ (كتاب استتابة المرتدين والمعاندين ، باب قتل من أبى قبول الفرائض)؛ مسلم ١/ ٣٩ (كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

(٢) الحديث بمعناه فى : البخارى ٢ / ١١٩ (كتاب الزكاة ، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة) ؛ مسلم ١/ ٣٧ ـ ٣٨ (كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه) .

وأيضاً ، فإن المعارف لابد أن تنتهى إلى مقدمات ضرورية ، وهم لا يؤمرون بتحصيل الحاصل ، بل يؤمرون بالعمل بموجبها وبعلوم أخرى يكتسبونها بها .

وأيضاً ، فإن أكثر الناس غافلون عمّا فُطروا عليه من العلم ، فيُذَكَّرون بالعلم الذى فُطروا عليه ، وأصل الإقرار من هذا الباب ، ولهذا توصف الرسل بأنهم يذكِّرون ، ويصف الله تعالى آياته بأنها تذكرة وتبصرة ، كما فى قوله : (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) [سورة قٓ : ٨] .

فإذا كان من المعارف ماهو ضرورى بالاتفاق ، ولم يكن ذلك مانعاً من الأمر والنهى : إما بتذكرة وإما بالاستدلال ، فيؤمر الناس تارة بالتذكرة وتارة بالتبصرة، ثم يؤمر الناس أن يُقرُّوا بما علموه ويشهدوا به فلا يعاندوه ولا يجحدوه ، / وأكثر الكفار جحدوا ما علموه . ص ٢٢

والاعتراف بالحق الذى يُعلم والشهادة به والخضوع لصاحبه لا بد منه فى الإيمان ، وإبليس وفرعون وغيرهما كفروا للعناد والاستكبار ، كما ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه .

ولكن الجهمية لما ظنت أن مجرد معرفة القلب هى الإيمان ، أرادوا أن يجعلوا ذلك مكتسباً ، وزعموا أن من كفّره الشرع كإبليس وفرعون لم يكن فى قلبه من الإقرار شىء ، كما زعموا أنه يمكن أن يقوم بقلب العبد إيمان تام مع كونه يعادى الله ورسوله ، ويسبّ الله ورسوله فى الظاهر من غير إكراه[1] ،

---

(١) يقول الأشعرى فى « مقالات الإسلاميين » ١/١٩٧-١٩٨ : « وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به ، وهذا قول يحكى عن جهم بن صفوان. وزعمت الجهمية أن الإنسان إذا أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه أنه لا يكفر بجحده ، وأن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه ، وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا فى القلب دون غيره من الجوارح » .

وأما ابن حزم فيقول فى « الفصل فى الملل والنحل » ٤/٢٠٤ أن غلاة المرجئة طائفتان وأن الثانية هى : « الطائفة القائلة إن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام وعبد الصليب وأعلن =

ولهذا كفَّر وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة من قال بقولهم[١] ، كما هو مبسوط فى مواضعه[٢].

والمقصود هنا بيان قول من قال من السلف كعكرمة وأبى مالك : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ : أى مقرُّون له بالعبودية .

الوجه الرابع القيام يوم القيامة

قال ابن أبى حاتم : والوجه الرابع ، ثم روى بإسناده المعروف عن الربيع ابن أنس : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ قال : كل له قائم يوم القيامة[٣].

الوجه الخامس قول الإخلاص

والخامس : ثم روى بإسناده من حديث عبد الله بن المبارك عن شريك عن سالم عن سعيد بن جبير : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ : بقول الإخلاص[٤].

قلت : وهذا إن أراد به اعترافهم بأنه ربهم وأنهم إذا اضطروا دعوا الله

= التثليث فى دار الإسلام ومات على ذلك فهو كامل الإيمان عند الله عز وجل ولى لله عز وجل من أهل الجنة ، وهذا قول أبى محرز جهم بن صفوان السمرقندى مولى بنى راسب كاتب الحارث بن سريج التميمى أيام قيامه على نصر بن سيار بخراسان » .

وقد تتلمذ الجهم على الجعد بن درهم كما اتصل بمقاتل بن سليمان من المرجئة ، وقتل مع الحارث بن سريج بمرو سنة ١٢٨ هـ .

وانظر أيضاً عنه وعن فرقته وآرائهم : مقالات الأشعرى ١/٢١٣ ، ٣١٤ ؛ الملل والنحل ١/٧٩ — ٨١ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٨ — ١٢٩ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦٣ — ٦٤ ؛ الخطط للمقريزى ٢/٣٤٩ ، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٧ ؛ البدء والتاريخ ٥/١٤٦؛ ميزان الاعتدال ١/١٩٧ ؛ لسان الميزان ٢/١٤٢ — ١٤٣ ؛ الأعلام ٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(١) انظر رسالة الرد على الجهمية والزنادقة للامام أحمد بن حنبل (ضمن مجموعة شذرات البلاتين) ، ص ١٤ وما بعدها.

(٢) انظر مثلا : التسعينية (ضمن مجموع الفتاوى ، ج ٥) ، ص ٣١ ـ ٤٠ .

(٣) قال الطبرى فى تفسيره ٢/٥٣٩ (ط . المعارف) : « وقال آخرون بما حدثنى به المثنى قال : حدثنا إسحاق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه عن الربيع : قوله: (كل له قانتون) ، قال : كل له قائم يوم القيامة » .

(٤) ذكر الطبرى فى تفسيره ٦/٤٠٣ (ط . المعارف) فى تأويل قوله تعالى : (يامريم اقنتى لربك) الآية [سورة آل عمران : ٤٣] ما يلى : « وقال آخرون : معناه : أخلصى لربك . ذكر من قال ذلك : حدثنى المثنى قال : حدثنا الحمانى ، قال : حدثنا ابن المبارك ، عن شريك ، عن سعيد : (يا مريم اقنتى لربك) ، قال : أخلصى لربك » .

مخلصين له الدين ، فهو من جنس قول عكرمة ، وإلا فالإخلاص الذى أمروا به ، وهو أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، إنما قام به المؤمنون،وهذا إنما يكون على قول من يزعم أن الآية خاصة ، ولم يذكر ابن أبى حاتم هذا صريحاً عن أحد من السلف إلا أن يتأول على ذلك قول ابن عباس أو قول سعيد .

أقوال المفسرين

هذا ولم يذكر أبو الفرج هذا عن أحد من السلف ، لم يذكره إلا فيما تقدم عن ابن الأنبارى ، بل قال : « وللمفسرين فى المراد بالقنوت ههنا ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الطاعة ، قاله ابن عباس وابن جبير ومجاهد وقتادة . والثانى : الإقرار بالعبادة ، قاله عكرمة والسُّدى . والثالث: القيام ، قاله الحسن والربيع» .

قال : « وفى معنى القيام قولان : أحدهما : أنه القيام له بالشهادة بالعبودية، والثانى : أنه القيام بين يديه يوم القيامة » .

لكن طائفة من المفسرين ذكروا عن المفسرين قولين كالثعلبى والبغوى وغيرهما . قالوا : واللفظ للبغوى[1] : « ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ : قال مجاهد وعطاء والسُّدى: مطيعون. وقال عكرمة ومقاتل : مقرُّون بالعبودية. وقال ابن كيسان: قائمون بالشهادة ، وأصل القنوت القيام ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : أفضل الصلاة طول القنوت » .

هل القنوت خاص أم عام ؟

قال : « واختلفوا فى حكم الآية ، فذهب جماعة إلى أن حكم الآية خاص . قال مقاتل : هو راجع إلى عُزَيْر والمسيح والملائكة . وعن ابن عباس أنه قال : هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الناس » .

قال : «وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام فى جميع الخلق ، لأن [لفظ] الكل[2] يقتضى الإحاطة بالشىء بحيث لا يشذ منه شىء . ثم سلكوا فى الكفار طريقين ، قال مجاهد: تسجد ظلالهم لله عز وجل على كره منهم، قال تعالى : ﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ

(١) فى تفسيره معالم التنزيل (بذيل تفسير ابن كثير : ط . المنار) ١/٢٩٣ ـ ٢٩٤ .
(٢) فى الأصل : لأن الكل . وما أثبته عن تفسير البغوى .

وَالْآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] ، وقال السدى : هذا يوم القيامة ، دليله : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ ﴾ [سورة طه : ١١١] ، وقيل : قانتون : مذلّلون مسخَّرون لما خلقوا له » .

تعليق ابن تيمية

قلت : من قال بالخصوص فإنه قد ينظر إلى سبب الآية ، وهو أنهم قالوا: اتخذ الله ولدا . وهذا إنما قالوه فى الملائكة والأنبياء كالمسيح والعُزَيْر ، فبيَّن سبحانه أن الذين قيل فيهم إنه اتخذهم أولادا هم عباد قانتون له ، كما ذكر فى الأنبياء : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦-٢٨] ، فإن الضمير فى قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ عائد على المشركين ، وهم إنما قالوا ذلك فى الملائكة ، وأما المسيح وعُزَيْر فإنما قال ذلك فيهما أهل الكتاب ، وسياق الآية يبين ذلك فإنه قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٦-٢٦] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ، وقوله : ﴿ لَهْواً ﴾ قد فُسِّر بالولد والمرأة وفُسِّر باللعب ، فإن هذه الآية نظير قوله : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ الآية [الدخان : ٣٨، ٣٩] ، ونظير قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية [سورة ص : ٢٧] ، ونظير قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [سورة الحجر : ٨٥] ، ومثله قوله تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ﴾ الآية [سورة المؤمنون : ١١٥] .

فقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[سورة الأنبياء : ١٦]

فنزّه نفسه أن يكون فعله كفعل اللاعب العابث الذى لا يقصد غاية محمودة يريد سوق الوسائل إليها ، فإن هذا فعل الجاد الذى يجىء بالحق ، كما قال إبراهيم لما آتاه الله رشده من قبل التوراة والقرآن : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٢-٥٦] ، فهو لما قال ما قال : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الآية : ٥٥] ، فالذى يأتى بالحق خلاف اللاعب ، فإنه يقصد أن يخبر بصدق ويأمر بما ينفع ، وهو العدل ، بخلاف اللاعب العابث فإنه ليس مقصوده هذا ، بل اللهو واللعب .

ولهذا قد يُشتم الإنسان على وجه اللعب ويفعل به أفعال منكرة فلا ينكر ذلك كما ينكره من الجاد المحق ، ولهذا كان عامة اللهو باطلا ليس له منفعة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبة امرأته فإنهن من الحق»[1] . / فالحق ضد الباطل ، واللهو باطل ، ولهذا تنزّه سبحانه عن أن يخلقهما باطلا . ص ٢٣

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ فاللاعب صاحب باطل لا صاحب حق . ولهذا لما دخل عمر على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده الأسود بن سريع ينشده فأسكته مرتين أو ثلاثا ، قال : « من هذا الذى تسكتنى له ؟ قال : هذا رجل لا يحب الباطل»[2] ، فإن عمر كان لا يحبه ولا يصبر على صاحبه ، والنبى

---

(١) هو جزء من حديث رواه النسائى (بشرح السيوطى) ٦ / ٢٢٢ - ٢٢٣ (كتاب الخيل ، باب تأديب الرجل فرسه) عن عقبة بن عامر وأوله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ... » وفيه : « وليس اللهو إلا فى ثلاثة : تأديب الرجل فرسه وملاعبته امرأته ورميه بقوسه ونبله ، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها ، أو قال : كفر بها » .

(٢) هذا الحديث مروى بمعناه فى المسند ٣ / ٤٣٥ ؛ المستدرك للحاكم ٣ / ٦١٥ =

صلى الله عليه وسلم كان أحلم وأصبر من عمر ، فهو أيضا لا يحب الباطل ، لكنه يصبر ويحتمل منه ما لم يكن محرما ، ولكن هو لا منفعة فيه لفاعله فإذا فعله احتمله عليه ؛ فهذا بيان قول من فسّر اللاعب بالعابث وله نظائر .

والذين فسّروا بالولد والزوجة قالوا ذلك لأن من المشركين من جعل لله ولداً وصاحبة ، وقالوا : إنه ضاهى الحق ، وهم يسمون المرأة لهوا والولد لهواً ، وقال ابن قتيبة[1] : «أصل اللهو الجماع وكُنِّىَ عنه [باللهو][2] كما كُنِّىَ عنه بالسر» .

والنبى صلى الله عليه وسلم قد جعل ملاعبة الرجل امرأته من اللهو الذى ليس بباطل ، والربُّ تعالى منزَّه عن اللعب مطلقا ، فإن الذى يلاعب امرأته إنما يفعل ذلك[3] ذلك لحاجته إلى المرأة ، وحكمة ذلك بقاء النسل ، والله تعالى منزَّه عن الولادة ، فتضمنت هذه الآية تنزيهه عن الخلق عبثاً لا لحكمة ، فإن ذلك لعب وعبث ، وتضمنت تنزيهه عن أن يتخذ ما يُلهى به كالمرأة والولد ، ولهذا بيّن بعد ذلك أنه إنما خلق ذلك بالحق وأنه منزَّه عن الأولاد ، وقال : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ ، واللهو كله باطل فى حق الله تعالى ، وإن كان بعضه من الحق فى حق العباد .

وهو سبحانه وتعالى قال : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ ، فإن مايلهو به اللاهى يكون عنده لايكون بعيداً عنه ، ونحن

= وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ؛ المحب الطبرى فى الرياض النضرة (ط . الحلبى) ١ / ٢٧٣ ؛ مجمع الزوائد ٩/٦٦ . ورويت قطعة من هذا الحديث فى : المسند (ط . الحلبى) ٤ / ٢٤ ؛ الإصابة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البر فى ترجمة الأسود بن سريع ؛ طبقات ابن سعد ٧/٤٢ .

(١) فى « تأويل مشكل القرآن » ص ١٢٤ .

(٢) باللهو : زيادة من تأويل مشكل القرآن .

(٣) فى الأصل : إنما جعل ذلك .

خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فكيف يكون هذا لعباً ؟ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] ؛ ثم رد على من أشرك به ؛ ثم حكى قول المشركين الذين قالوا اتخذ الرحمن ولداً ، قال سبحانه : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٩] .

فهذه صفة الملائكة ، والمسيح والعُزَيْر ونحوهما أيضاً هم[1] بهذه الصفة فإنهم عباد مكرمون ، قال تعالى عن المسيح : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [سورة الزخرف : ٥٩] ، وقال : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [سورة النساء : ١٧٢] .

فلما قال تعالى ـ في البقرة ـ : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ ، والذين قالوا اتخذ الله ولداً جعلوه إما من الملائكة وإما من الآدميين كالمسيح والعُزَيْر . فقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ يبين أن هؤلاء الذين قيل فيهم إنهم أولاد هم عباد له مطيعون كما ذُكر في « الأنبياء » وغيرها ، وكما قال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٥٦ ، ٥٧ فبيَّن أن هؤلاء المعبودين هم يعبدون الله تعالى . ومثله قوله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ

(١) في الأصل : هو

آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [سورة الإسراء : ٤٢] على أصح القولين .

القنوت عند ابن تيمية عام

فهذا مأخذ من جعل الآية خاصة . لكن يُقال: الآية لفظها عام ، والعموم مقصود منها ، كما هو مقصود من قوله سبحانه : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ثم قال : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ . فلما كان قوله : ﴿ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ عامًّا[1] تبين أن الجميع مملوك له ، والمملوك لا يكون ولداً ، وتبين[2] أيضاً أن كلهم له قانتون مطيعون عابدون ، والعابد المطيع لا يكون إلا مملوكاً ، لا يكون ولداً .

وأيضاً فإنه قد ذكر القنوت في سورة « الروم » مجرَّداً عن الولد ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [سورة الروم : ٢٥] ، ثم قال : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الروم : ٢٦ ، ٢٧] ، فبين أن له ما في السماوات والأرض وأن كلا له قانتون ، وتخصيص هذا بمن قيل إنه ولدٌ فاسد ظاهر الفساد ، وكذلك تخصيصه بالمؤمنين ، فإن هذا مذكور لبيان عموم الملك والاقتدار وخضوع المخلوقات كلها له ، فلو خُصَّ به المؤمنون لكان ذلك عكس المقصود .

وهو مثل قوله : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] ، فهو سبحانه يدعوهم إلى

(١) في الأصل : عام .
(٢) في الأصل : بين .

يدعوهم إلى دين الإسلام ، ويبين أن كل ما فى السماوات والأرض مسلم لله : إما طوعا وإما كرهاً ؛ و إذا كان لابد من أحدهما فالإسلام له طوعاً هو الذى ينفع العبد ، فلا يجوز أن يتخذ غير هذا الدين ديناً ، فإنه ذكر هذا فى تقرير أن كل دين سوى الإسلام باطل فقال : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ ، وذكر بعد ذلك مايصير به العبد مسلماً مؤمناً فقال : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٨٤، ٨٥] : ذكر عبادة الله وحده والإيمان برسله كلهم ، كما ذكر فى سورة البقرة ، قال أبو العالية : قوله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الحجر : ٩٢ ، ٩٣] قال: خصلتان يُسأل عنهما كل أحد : ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟[1] وكذلك ذكر سجود من فى السماوات والأرض له طوعاً وكرهاً ؟ والسجود هو الخضوع وهو القنوت .

وأيضا / فإذا كانت الصيغة عامة لم يجز أن يراد بها الخصوص إلا مع ما يُبيّن ذلك ، فأما إذا جُرِّدت عن المخصصات فإنها لاتكون إلا عامة ، والآية عامة عموماً مجرداً - بل مؤكداً - بما يدل على العموم . وأما تخصيص المؤمنين فهذا يكون إذا مُدحوا بذلك أو ذُكر جزاء الآخرة ، وليس المقصود هنا مدح المؤمنين بطاعته ، وإنما المقصود بيان قدرته وملكه وخضوع كل شىء له ، وأنه مع هذا وهذا يمتنع أن يكون له ولد مع خضوع كل شىء له وقنوته له . ويقال فى الركوع من التسبيح المأثور فيه : سبحان من تواضع كل شىء لعظمته ، سبحان من ذل كل شىء لعزته ، سبحان من استسلم كل شىء لقدرته .

ص ٢٤

(١) هذا الأثر بمعنى حديث رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم. انظر :الدرالمنثور ١٠٦/٤ . وأخرجه الطبرى عن أبى العالية فى تفسيره ٤٦/١٤ (ط. بولاق) .

أنواع القنوت الذى يعم المخلوقات

وعلى هذا فالقنوت الذى يعم المخلوقات أنواع :

الأول

أحدها: طاعة كل شىء لمشيئته وقدرته وخلقه ، فإنه لايخرج شىء عن مشيئته وقدرته وملكه ، بل هو مُدَبَّر مُعبَّد مربوب مقهور ، ولو تخيل إليه فى نفسه أنه لا ربّ له ، وأنه يقدر أن يخرج عن ملك الرب ، فهذا من جنس ما يتخيل للسكران ، والنائم المأسور المقهور ، والمجنون المربوط بالأقياد والسلاسل ، بل نفوذ مشيئة الرب وقدرته فى المستكبرين عن عبادته أعظم من نفوذ أمر الآسر فى أسيره ، والسيد فى مملوكه ، وقيِّم المارستان فى المجنون بكثيرٍ كثير .

هذا متوجه على قول أهل السنة الذين يقولون : لا يكون فى ملكه إلا ما يشاء ، فليس لأحد خروج عن القدر المقدور ، ولا يتجاوز ما خُطَّ له فى اللوح المسطور ؛ بخلاف قول القدرية ، فإن العصاة على قولهم خرجوا عن مشيئة وقدرته وحكمه وسلطانه وخلقه ، فليسوا قانتين لا لأمره الشرعى ولا لأمره القدرى الكونى ؛ وأما أهل السنة فيقولون إنهم قانتون لمشيئته وحكمه وأمره الكونى كما تقدم .

وعلى هذا الوجه فالقانت قد لا يشعر بقنوته ، فإن المراد بقنوته كونه مُدبَّرا مصرَّفا تحت مشيئة الرب من غير امتناع منه بوجه من الوجوه ، وهذا شامل للجمادات والحيوانات وكل شىء . قال تعالى : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [سورة هود : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة يس : ٨٣] .

الثانى

النوع الثانى من القنوت : هو ما يشعر به القانت ، وهو اعترافهم كلهم بأنهم مخلوقون مربوبون وأنه ربهم ، كما تقدم .

الثالث

الثالث : أنهم يضطرون إليه وقت حوائجهم فيسألونه ويخضعون له ، وإن كانوا إذا أجابهم أعرضوا عنه . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ٱلضُّرُّ

دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ [سورةيونس : ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٦٧] . وهو أخبر أنهم كلهم قانتون ، فإذا قنتوا له فدعوه وتضرعوا / إليه عند حاجتهم كانوا قانتين له ، وإن كان إذا كشف الضر عنهم نسوا ما كانوا يدعون إليه وجعلوا له أنداداً .

ظ ٢٤

الرابع

الرابع : أنهم كلهم لابد لهم من القنوت والطاعة فى كثير من أوامره ، وإن عصوه فى البعض ، وإن كانوا لا يقصدون بذلك طاعته ، بل يُسلمون له ويسجدون طوعاً وكرها . وذلك أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب بالعدل ، فلا صلاح لأهل الأرض فى شىء من أمورهم إلا به ، ولا يستطيع أحد أن يعيش فى العالم مع خروجه عن جميع أنواعه ، بل لابد من دخوله فى شىء من أنواع العدل ، حتى قطاع الطريق لابد لهم فيما بينهم من قانون يتفقون عليه ، ولو أراد واحد منهم أن يأخذ المال كله لم يمكنوه ، وأظلم الناس وأقدرهم لا يمكنه فعل كل ما يريد ، بل لابد من أعوان يريد أرضاءهم ومن أعداء يخاف تسلطهم ، ففى قلبه رغبة ورهبة تلجئه إلى أن يلتزم من العدل الذى أمر الله تعالى به مالا يريده فيُسلمَ لله ويقنت له وإن كان كارها . وهو سبحانه قال : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ ، والقنوت العام يراد به الخضوع والاستسلام والانقياد ، وإن كان فى الباطن كارها ، كطاعة المنافقين : هم خاضعون للمؤمنين مطيعون لهم فى الظاهر ، وإن كانوا يكرهون هذه الطاعة

الخامس

الخامس : خضوعهم لجزائه لهم فى الدنيا والآخرة ، كما ذكر من ذكرأنهم قانتون يوم القيامة ، وهوسبحانه قد يجزى الناس فى الدنيا فيهلكهم و ينتقم منهم ،

كما أهلك قوم نوح وعاداً وثموداً وفرعون فكانوا خاضعين منقادين لجزائه وعقابه قانتين له كرها .

والجزاء يكون فى الدنيا وفى البرزخ وفى الآخرة ، وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت ، وهو قائم بالقسط ، والجميع مستسلمون لحكمه ، قانتون له فى جزائهم على أعمالهم ، والمصائب التى يصيبهم فى الدنيا جزاء لهم . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

فهذه خمسة أنواع : قنوتهم لخلقه وحكمه وأمره قدراً ، واعترافهم بربوبيته ، واضطرارهم إلى مسألته والرغبة إليه ، ودخولهم فيما يأمر به وإن كانوا كارهين ، وجزاؤهم على أعمالهم . ودخولهم فيما يأمر به مع الكراهة يدخل فيه المنافق والمعطى للجزية عن يدٍ وهو صاغر ، والذى يسلم أولا رغبة ورهبة ، فالقنوت شامل داخل للجميع ، لكن المؤمن يقنت له طوعا وغيره يقنت له كرها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

﴿ فصــــل ﴾

الكلام عن السجود

والسجود من جنس القنوت ، فإن السجود الشامل لجميع المخلوقات هو المتضمن لغاية الخضوع والذل ، وكل مخلوق فقد تواضع / لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته ، ولا يجب أن يكون سجود كل شىء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ، ووضع جبهة فى رأس مدور على التراب ، فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان ، ومن الأمم من يركع ولا يسجد ، وذلك سجودها

ص ٢٥

كما قال تعالى : ﴿ أُدْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [سورة البقرة : ٥٨] ، و إنما قيل ادخلوه رُكَّعاً . ومنهم من يسجد على جنب كاليهود ، فالسجود اسم جنس ، ولكن لما شاع(١) سجود الآدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن أن هذا هو سجود كل أحد كما فى لفظ « القنوت » .

وكذلك لفظ « الصلاة » لما كان المسلمون يصلون الصلاة المعروفة ، صار يظن من يظن أن كل من صلى فهكذا يصلى ، حتى صار بعض أهل الكتاب ينفرون من قولنا : إن الله يصلى ، وينزهونه عن ذلك ، فإنهم لم يعرفوا من لفظ «الصلاة» إلا دعاء المصلى لغيره وخضوعه له ، ولا ريب أن الله منزه عن ذلك ، لكن ليست هذه صلاته سبحانه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

وهو سبحانه قد ذكر سجود الظل فى غير موضع كقوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِلهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلاَلُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] ، ومعلوم أن الظل إذا سجد لم يسجد على سبعة أعضاء : يضع رأسه ويديه ثم يرفع رأسه ويديه ، بل سجوده ذله وخضوعه .

تفسير قوله تعالى: (وادخلوا الباب سجدا) الآية

وقد سمى الله تعالى المنحنى ساجدا وإن لم يصل إلى الأرض فى قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٥٨] ، وفى الأعراف : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ

---

(١) فى الأصل : ولكن لما ساغ .. الخ .

الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦١] .
فهنا لما أمرهم بالسكنى ، وهي المقام ، قال : ﴿ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ ولم يحتج أن يقال : رغداً ، فإن الساكن المقيم مطمئن ، وهناك قال : ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ قال : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ ، فبين أنهم يأكلون رغداً فيتهنَّون[1] لا يخافون الخروج . وبسط الكلام في البقرة وذكر الدخول لأنه قبل السكنى . ولهذا قال : ﴿رَغَداً﴾ ، وقال : ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ وقال : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٥٩] .

وقدَّم السجود لأنه أهم . وقد اختلفوا في هذا السجود ، فقيل : هو الركوع ، كما روى ابن أبي حاتم من وجهين ثابتين عن سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ قال : « رُكَّعاً من باب صغير ، فدخلوا من قِبَلِ أستاههم ، وقالوا : حنطة»[2] . وقيل : «بل هو السجود بالأرض»[3] . ثم قيل ما رواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس ، قال : « سُجَّدا ، قال : كان سجود أحدهم على خده» . وروى عن وهب بن منبِّه قال : «إذا دخلتموه فاسجدوا شكرا لله » فكأن صاحب هذا القول جعل السجود بعد الدخول ، ومن قال بهذا أو قال بأنهم أمروا بالركوع فهو يقول : دخولهم وهم سجد بالأرض فيه

(١) يتهنون : مخفف يتهنأون . في اللسان : هنأت الطعام أي تهنأت به ... وفي المثل : تهنأ فلان بكذا وتمرأ وتسمن وتزين بمعنى واحد . . . وأكلنا من هذا الطعام حتى هنئنا منه أي شبعنا . . . وكل أمر يأتيك من غير تعب فهو هنيء .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢ / ١٠٤ (الآثار ١٠٠٦ ـ ١٠٠٨) ، ١١٣ ـ ١١٤ (الآثار ١٠٢٤ ، ١٠٢٥) ؛ الدر المنثور ١ / ٧١ ؛ ابن كثير ١ / ٩٩ .

(٣) انظر تفسير الطبري ٢ / ١١٥ (الأثر ١٠٣٢) .

ظ ٢٥ صعوبة / وقد يؤذى أحدهم ولكن هو ممكن ، فإن الإنسان يمكنه حال السجود أن يزحف إذا كانت الأرض لا تؤذيه .

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه : « قال لهم : ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم و يقولون حبة فى شعرة »[١] .

فهذا هو الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم وقد قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما فى ذلك أقوالا تخالف هذا ، فقال خصيف عن عكرمة عن ابن عباس : « فدخلوا على شق » . وروى السدى عن أبى سعد الأزدى[٢] عن أبى الكنود عن ابن مسعود : « فدخلوا مقنعى رؤوسهم »[٣] .

قال ابن أبى حاتم : اختلف التابعون فروى عن مجاهد نحو قول عكرمة عن ابن عباس وروى عن السدى نحو ما روى عن ابن مسعود وعن مقاتل أنهم دخلوا منكفئين[٤] وأما القول[٥] فقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : حبة فى شعره ، وإذا ثقبت الحبة وأدخلت فيها الشعرة فإنه يقال : حبة فى

---

(١) الحديث بمعناه فى : البخارى ٦ / ١٨ ــ ١٩ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) ؛ مسلم ٨ / ٢٣٧ ــ ٢٣٨ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) ؛ الترمذى (بشرح ابن العربى) ١١ / ٧٧ ــ ٧٩ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٥ / ٢٤٣ (رقم ٨٠٩٥) ، وقال المعلق رحمه الله : « وهو فى جامع المسانيد والسنن ٧ / ٣٩٠ » . وتكلم ابن كثير عن الحديث بالتفصيل فى تفسيره ١ / ٩٩ . وانظر : تفسير الطبرى ٢ / ١١٢ ــ ١١٣ (وكلام الشيخ أحمد شاكر فى التعليق) ؛ الدر المنثور ١ / ٧١ .

(٢) فى تفسير الطبرى ١ / ١١٣ : « عن أبى سعيد » وهو أبو سعد الأزدى الكوفى قارىء الأزد . قال ابن حجر فى « تقريب التهذيب » ٢ / ٢٤٦ : ويقال أبو سعيد .

(٣) جاء هذا القول فى تفسير الطبرى ٢ / ١١٤ ــ ١١٥ فى أثرين الأول عن ابن عباس والثانى عن عكرمة ؛ وفى الدر المنثور ١ / ٧١ عن ابن مسعود .

(٤) فى الأصل رسمت الكلمة « ملتفتين » ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته . وعلى الكلمة إشارة إلى الهامش حيث كتبت كلة «منكبين» وعليها حرف « خ » إشارة إلى نسخة أخرى .

(٥) أى : وأما قولهم .

شعرة ، ويقال : شعرة فى حبة، وهذا معنى مارواه السُّدى عن مُرَّة عن ابن مسعود أنه قال : إنهم قالوا : هطى سمقاثاأزبه مزبا » وهى بالعربية : حبة حنطة حمراء مثقوبة فيهاشعرة سوداء[١]، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾. وكذلك رواه السدى عن أبى سعد الأزدى ، عن أبى الكنود ، عن ابن مسعود ، وهذا موافق لما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم . لكن النبى صلى الله عليه وسلم إنما تكلم بالعربية ، وهذا اللفظ أخذه ابن مسعود عن أهل الكتاب ؛ وهذا أصح من قول ابن عباس أنهم قالوا : حنطة ، مع أن هذا مروى عن غير واحد .

قال ابن أبى حاتم : ورُوى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والضحاك والحسن والربيع ويحيى بن رافع نحو ذلك ، لكن قد يقال : الحبة هى الحنطة ، وهم لم يقولوا بالعربية بل بلسانهم ، وهم إذا قالوا بلسانهم مامعناه : حبة حنطة : جاز أن يقال : حنطة . وحديث ابن مسعود وقد ذكر أنهم قالوا : حبة حنطة ، فلا يكون فى القول خلاف .

وأبو الفرج ذكر خمسة أقوال وهى ترجع إلى هذا . ذكر الحديث المرفوع ، والثانى حنطة ، والثالث أنهم قالوا : حبة حنطة حمراء فيها شعرة سوداء ــ قاله ابن مسعود ، والرابع كذلك إلا أنهم قالوا مثقوبة ــ قاله السدى عن أشياخه .

قلت : كلاهما رواه السدى عن ابن مسعود وهما قول واحد .

قال : والخامس أنهم قالوا : استقلاباً ، قاله أبو صالح .

---

(١) فى الأصل رسمت العبارة العبرية تطن سمعاثا ارنه مزبا . وسترد كلمة سمقاثا بعد قليل مرة أخرى. وقد ورد هذا الأثر فى تفسير الطبرى ٢ / ١١٤ (رقم ١٠٢٩) ؛ ابن كثير ١/ ٩٩ ؛ الدر المنثور ١ / ٧١ .وانظر تفسير القرطبى ١ / ٤١١ ؛ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ، ص . ٥ .

قلت: هذا الذى ذكره ابن مسعود بلسانهم «سمقاثا»[١] وقد فسره بذلك.

قال : الأقوال كلها واحدة بخلاف صفة الدخول ، فإن الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم ، وفى لفظ : على أوراكهم ، والمعنى واحد ، ومانقل خلاف هذا فإنما أُخذ عن أهل الكتاب ، وقد كان يؤخذ عنهم الحق والباطل . وقول ابن مسعود : مقنعى رؤوسهم ، لا يناقض الزحف على أستاههم. وابن عباس قال: يزحفون على أستاههم ، كالمرفوع ، وقال: قيل: ادخلوا ركعاً ، فلو جزمنا أن هذا/مأخوذ عن النبى صلى الله عليه وسلم لجزمنا بأن الله أمرهم بالركوع ، لكن ظاهر القرآن هو السجود ، والسجود المطلق هو السجود المعروف ، وكون الباب جُعل صغيراً إنما يكون لمن يُكره على الدخول منه ليحتاج أن ينحنى ، وهؤلاء قُصدت طاعتهم فأمروا بالخضوع لله والاستغفار ، فدخولهم سجداً هو خضوع لله وقولهم : حطه ، أى احطط عنا خطايانا ، هو استغفارهم ، كما أخبر الله تعالى أن داود خرَّ راكعاً وأناب[٢] ، وكما شرع للمسلمين أن يستغفروا فى سجودهم .

ص ٢٦

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى سجوده : «اللهم اغفرلى ذنبى كله ، دِقَّه وجِلَّه ، أوله وآخره ، علانيته وسرَّه »[٣]. وكان أيضاً يقول : «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك»[٤]. وكان يقول فى

---

(١) فى الأصل سماثا وعليها إشارة إلى الهامش حيث كتب « سمقاثا » وعليها حرف « خ » أى فى نسخة أخرى .

(٢) إشاره إلى الآية ٢٣ من سورة ص : (... وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) .

(٣) الحديث فى : مسلم ٢/ ٥٠ (كتاب الصلاة ، باب مايقال فى الركوع والسجود) .

(٤)الحديث فى مسلم ٢/ ٥١ (الكتاب والباب السابقان) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : اللهم أعوذ برضاك من سخطك .. الحديث » .

ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلى ؛ يتأول القرآن[١].
وثبت فى الصحيح لمسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء »[٢]. وفى الصحيح أيضاً لمسلم عن ابن عباس قال : كشف النبى صلى الله عليه وسلم الستارة والناس صفوف خلف أبى بكر فقال : « يا أيها الناس إنه لم يبق من مبشِّرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أوتُرَى له،ألا و إنى نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً . فأما الركوع فعظِّموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم »[٣] .

فى هذين الحديثين أنه خص السجود بالأمر بالدعاء فيه . ولهذا كان من أهل العلم من يكره الدعاء فى الركوع دون السجود .

وحينئذ فأمْرُهم بالاستغفار وقولهم حِطَّة فى السجود أشبه ، فلم يثبت لنا إلى الآن أن الركوع يُسمِّى سجوداً بخلاف العكس ، فإنه قال فى حق داود :﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [سورة صٓ : ٢٤] . وقد ثبت بالنص الصحيح واتفاق الناس أن داود سجد ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « سجدها داود توبة ونحن نسجدها شكراً »[٤] . وفى صحيح مسلم عنه عن ابن عباس قال : « نبيكم ممن أُمِرَ أن يَقْتَدِيَ به، سجدها داود فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٥] . وفى صحيح

(١) الحديث فى : البخارى ٢/١٥٩ (كتاب الصلاة ، باب التسبيح والدعاء فى السجود)؛ مسلم ٢ / ٥٠ .
(٢) الحديث فى مسلم ٢ / ٤٩ ـ ٥٠ .
(٣) الحديث فى مسلم ٢ / ٤٨ وفيه .. فقال : أيها الناس (كتاب الصلاة ، باب النهى عن قراءة القرآن فى الركوع والسجود) .
(٤) قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية من سورة صٓ بعد أن أورد الحديث : « تفرد بروايته النسائى ورجال إسناده كلهم ثقات » .
(٥) الحديث فى البخارى ٤ / ١٦١ (كتاب الأنبياء ، باب واذكر عبدنا داود) ، ٦ / ١٢٤ (كتاب التفسير ، سورة صٓ) : نصه : « عن مجاهد قلت لابن عباس : أسجد فى ص ؟ فقرأ : (ومن ذريته داود وسليمان) حتى أتى (فبهداهم اقتده) فقال : نبيكم صلى الله =

مسلم عنه أيضاً قال : «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها»[١] وفى الترمذى وغيره عن ابن عباس قال : « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودى ، فسمعتها وهى تقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجراً ، وضع عنى بها وزراً ، واجعلها لى عندك ذخراً ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود ؛ فقرأ النبى صلى الله عليه وسلم سجدة ص ثم سجد ، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل من قول الشجرة »[٢] .

والآثار عن السلف متواترة بأن داود سجد ، فكل ساجد راكعٌ، وليس كل راكع ساجداً ، فإنه إذا سجد من قيام انحنى انحناء الراكع وزاد فإنه يصير ساجداً ،ولو صلَّى قاعداً أيضاً انحنى انحناءالركوعوزاد فإنهيصير ساجداً ، فالساجد راكع وزيادة ، فلهذا جاز أن يُسمَّى راكعاً وأن يُجعل الركوع نوعين : ركوعاً خفيفاً ،/ وركوعاً تاماً ، فالقيام هو السجود ، بخلاف لفظ السجود فإنه إنما يستعمل فى غاية الذل والخضوع ، وهذه حال الساجد لا الراكع .

ظ ٢٦

= عليه وسلم ممن أمر أن يقتدى بهم» . ولم يذكر النابلسى فى ذخائر المواريث ٢/٧٠ أنه فى غير البخارى ؛ وقال الشوكانى فى نيل الأوطار ٣ / ١٢٠ إن ابن خزيمة رواه.

(١) الحديث فى: البخارى٢/ ٤٠ (كتاب الجمعة ، باب ماجاء فى سجود القرآن وسنتها) : « عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ص ليس من عزائم السجود وقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يسجد فيها » . وهو مروى فيه أيضا ٤ / ١٦١ (كتاب الأنبياء ، باب واذكر عبدنا داود) . وقال النابلسى فى « ذخائر المواريث » ٢ / ٤٩ : إن الحديث فى البخارى فى الموضعين السابقين وفى سنن أبى داود فى الصلاة عن موسى بن إسماعيل وفى الترمذى فيه عن ابن أبى عمر وفى النسائى فيه عن إبراهيم بن الحسن المقسمى . ولم يذكر أنه فى مسلم . وقد ورد الحديث فى المسند (ط . المعارف) ٤ / ١٨٠ (رقم ٢٥٢١) ، ٥/١٣١ (رقم ٣٨٧) ولم يذكر المعلق رحمه الله أنه فى مسلم ، وكذا الشوكانى فى نيل الأوطار ٣ / ١١٩ .

(٢) ذكر الحديث ابن كثير فى تفسيره وقال : « رواه الترمذى عن قتيبة ، وابن ماجة عن أبى بكر بن خلاد ، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس نحوه ، وقال الترمذى :غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » . والحديث فى : الترمذى (بشرح ابن العربى) ٣/ ٦٠ (كتاب الصلاة ، باب ما يقول فى سجود القرآن) ؛ سنن ابن ماجة ١/ ٣٣٤ (كتاب إقامة الصلاة ، باب سجود القرآن) .

لـكن ليس من شرط السجود مطلقاً أن يصل إلى الأرض ، فقد ثبت فى الأحاديث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى على راحلته قِبَلَ أى وجه توجَّهتْ به ، ويُوتر عليها ، غير أنه لا يصلى عليها المكتوبة[1] .

وقد اتفق المسلمون على أن المسافر الراكب يتطوع على راحلته ويجعل سجوده أخفض من ركوعه وإن كان لا يسجد على مستقَرّ ، وكذلك الخائف ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٩] يصلى إلى القبلة وإلى غير القبلة ، ويومىء بالركوع والسجود ولا يصل إلى الأرض .

فعُلم أن الهيئة المأمور بها فى السجود على الأرض وعلى سبعة أعضاء هى أكمل سجود ابن آدم ، وله سجود لا يسجد فيه على الأرض ولا على سبعة ، بل يخفض فيه رأسه أكثر من خفض الركوع ، ولهذا كان عند جمهور العلماء لو ركع فى سجود التلاوة بدلا عن السجود لم يُجْزِه ، ولـكن إذا كانت السجدة فى آخر السورة فله أن يفعل كما ذكره ابن مسعود أنه يكتفى بسجود الصلاة فإنه ليس بينه وبينه إلا الركوع ، وهذا ظاهر مذهب أحمد ومذهب أبى حنيفة وغيرهما ، لـكن قيل : إنه جعل الركوع مكان السجود ، والصحيح أنه إنما جعل سجود الصلاة هو المجزىء كما لو قرأ ، فإن الركوع عمل فيه فلم يجعل فصلاً ، لاسيما وهو مقدمة للسجود ، ومن الناس من قال فى قصة داود إنه خرّ ساجداً بعد ما كان راكعاً . وذكر أن الحسين بن الفضل قال لأبى عبد الله بن طاهر عن قوله : ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ [سورة ص : ٢٤] ، هل يقال للراكع : خرّ ؟ قال : لا ، ومعناه نخرّ بعد ما كان راكعاً ، أى سجد .

---

(١) انظر ما ذكره الشوكانى فى نيل الأوطار : باب صلاه الفرض على الراحلة إلا لعذر ٢ / ١٤٨ - ١٥٠ ؛ باب تطوع المسافر على مركوبه حيث توجه به ٢ / ١٨٢ - ١٨٣ ؛ باب أن الوتر سنة مؤكدة وأنه جائز على الراحلة ٣ / ٣٥ - ٣٧ .

وهذا قول ضعيف ، والقرآن إنما فيه : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ لم يقل : خر بعد ما كان راكعاً ، ولا كان داود حين تحاكموا إليه راكعاً ، بل كان قاعداً معتدلاً أو قائماً فخرّ ساجداً ، وسؤال ابن طاهر إنما يتوجه إذا أريد بالركوع انحناء القائم كركوع الصلاة ، وهذا لا يقال فيه خَرّ .

والمراد هنا السجود بالسنّة واتفاق العلماء ، فالمراد خَرّ ساجداً ، وسمّاه ركوعاً لأن كل ساجد راكع لا سيما إذا كان قائماً ، وسجود التلاوة من قيام أفضل ، ولعل داود سجد من قيام ، وقيل : خر راكعاً ليبين أن سجوده كان من قيام وهو أكمل ، ولفظ « خَرّ » يدل على أنه وصل إلى الأرض فجمع له معنى السجود والركوع ، والسجود عبادة تُفعل مجردة عن الصلاة كسجود الشجرة وسجود داود وسجود التلاوة والشكر وسجود الآيات[1] وغير ذلك ، وهل يشترط له شروط الصلاة ؟ على قولين ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر أنه قال: « كنت فى المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : يا أبا ذر تدرى أين تذهب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى الله عز وجل فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد / قيل لها : ارجعى من حيث جئت ، فترجع إلى مطلعها فذلك مستقرها . ثم قرأ : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [سورة يس : ٣٨]»[2] .

ص ٢٧

---

(١) فى سنن أبى داود ١/٤٢٥ (كتاب الصلاة ، باب السجود عند الآيات) : « عن عكرمة قال : قيل لابن عباس : ماتت فلانة ، بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فخر ساجداً ، فقيل له : تسجد هذه الساعة ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم آية فاسجدوا ، وأى آية أعظم من ذهاب أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ؟ » .

(٢) الحديث بمعناه فى : البخارى ٩ / ١٢٥ (كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء) ؛ مسلم ١ / ٩٦ (كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان) ؛ وانظر الدر المنثور ٥ / ٢٦٣ .

فقدأخبر فى هذا الحديث الصحيح بسجود الشمس إذا غربت واستئذانها ، وكذلك قال أبو العالية وغيره . قال أبو العالية : مافى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه . ومعلوم أن الشمس لاتزال فى الفلك كما أخبر الله تعالى بقوله :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة الأنبياء :٣٣] فهى لاتزال تسبح فى الفلك ، وهى تسجد لله وتستأذنه كل ليلة كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فهى تسجد سجوداً يناسبها ، وتخضع له وتخشع ، كما يخضع ويخشع كل ساجد من الملائكة والجن والإنس .

وكذلك قوله:﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [سورة الدخان: ٢٩]. بكاء كل شىء بحسبه، قد يكون خشية لله ، وقد يكون حزناً على فراق المؤمن.

روى ابن أبى حاتم ، عن ابن وهب ، أخبرنى عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال : عمرو ، يعنى ابن دينار : إنى ليلةً أطوف بالبيت ، إذ سمعت حنين رجل بين الأستار والكعبة وبكاءه وتضرعه ، فوقفت لأعرفه ، فذهب ليل وجاء ليل وهو كذلك حتى كاد يسفر فانكشف الستور عنه ، فإذا هو طاووس رضى الله عنه ، فقال : من هذا ، عمرو ؟ ! قلت : نعم أمتع الله بك ، قال : متى وقفت ههنا ؟ ، قال : قلت : منذ طويل . قال : ما أوقفك ؟ قلت : سمعت بكاءك . فقال : أعجبك بكائى[1] ؟ ، قلت : نعم ، قال : وطلع القمر فى حرف أبى قُبَيْس[2] . قال : ورب هذه البِنيَّة[3] إن هذا القمر ليبكى من

(١) « أعجبك بكائى » من « أعجبه الأمر : حمله على العجب منه ، وكسبه التعجب » انظر اللسان (عجب) .

(٢) فى معجم البلدان : « أبو قبيس بلفظ التصغير ، كأنه تصغير قبس النار ، وهو اسم الجبل المشرف على مكة . . . قيل : سمى باسم رجل من مذحج كان يكنى أبا قبيس لأنه أول من بنى فيه قبة . . . وهو أحد الأخشبين» . وانظر أيضا : معجم ما استعجم ٣ / ١٠٤٠ ؛ الجبال والأمكنة والمياه للزمخشرى ، ص ٧ ، ط . النجف ، ١٣٨١ / ١٩٦٢ .

(٣) فى اللسان : « والبنية ــ على فعيلة ــ الكعبة لشرفها إذ هى أشرف مبنى . . . وكانت تدعى بنية إبراهيم لأنه بناها ، وقد كثر قسمهم برب هذه البنية » .

خشية الله ولاذنب له ، ولا يُسأل عما عمل ولا يجازَى به ، فعجبتَ أن بكيتُ من خشية الله وأنا صاحب الذنوب ، وهذا القمر يبكى من خشية الله ، وقرأ ابن زيد : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ [سورة الحج : ١٨] قال : فلم يستثن من هؤلاء أحداً حتى جاء ابن آدم استثناه فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] ، قال : والذى كان هو أحق بالشكر هو أكفرهم ، ثم قرأ : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨] قال : وكذلك اختلفوا فى دينهم كما اختلف الأولون [١] .

السجود فى اللغة

ولفظ « السجود » يستعمل فى اللغة لخضوع الجامدات وغيرها ، كالبيت المعروف :

بِجَيْشٍ تَضِلُّ الْبُلْقُ فِى حَجَرَاتِهِ ... تَرَى الْأُكْمَ فِيه سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ [٢]

---

(١) انظر لهذا الخبر والذى قبله : الدر المنثور ٤/٣٤٨ .

(٢) فى الأصل : بجيش تظل . والتصويب من المصادر المذكورة بعد . والبيت لزيد الخيل ، والرواية فيه مختلفة فهى تارة : بجمع ، وتارة : بجيش ، وفى الشطر الثانى : ترى الأكم منه ، وفى رواية : فيها ، وفى ثالثة : منها . قال الأستاذ محمود محمد شاكر فى تعليقه (تفسير الطبرى ٢/١٠٤) أن البيت فى : « الكامل ١/٣٥٨ ، والمعانى الكبير : ٨٩٠ ، والأضداد لابن الأنبارى : ٢٥٦ ، وحماسة ابن الشجرى : ١٩ ، ومجموعة المعانى : ١٩٢ وغيرها .

والباء فى قوله « بجمع » متعلقة ببيت سالف هو :

بنى عامرٍ هل تعرفونَ إذا غدَا ... أبو مِكْنَفٍ قد شَدَّ عقْدَ الدَّوَابِرِ ؟

والبلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين ، والحجرات جمع حجرة (بفتح فسكون) الناحية . والأكم (بضم فسكون ، وأصلها بضمتين) جمع إكام ، جمع أكمة ، وهى تل يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجاره . قال ابن قتيبة فى المعانى الكبير : يقول : إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل . يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر » . وورد البيت مرة ثانية فى التفسير ٢ / ٢٤٢ (وانظر التعليق) .

قال ابن قتيبة[١] : «حجراته جوانبه ، يريد أن حوافر الخيل قد بلغت الأكم ووطئتها حتى خشعت وانخفضت» .

قال ابن عطية فى قوله : ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [سورة النحل : ٤٨] : وقالت فرقة منهم الطبرى [٢] عبّر عن الخضوع والطاعة وميلان الظلال ودورانها [٣] بالسجود ، كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض على وجه الخضوع : ساجد ، / ومنه قول الشاعر :

ظ ٢٧

وكلتاهُما خرّتْ وأسْجدَ رأسُها كما سَجَدَتْ نصرانةٌ لم تَحنَّفِ [٤]

﴿فصـــل﴾

وإذا كان كذلك فالله سبحانه ذكر فى الرعد قوله : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد : ١٥] فعمّ فى هذه الآية ولم يستثن ، وقسّم السجود إلى طوع وكره . وقال فى الحج : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ والشَّجَرُ والدَّوَابُّ وكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [سورة الحج : ١٨] .

وفى هذا «الكثير» قولان : أحدهما أنه لم يسجد فلهذا حقّ عليه العذاب ، كما تقدم عن طاووس ، وهو قول الفرّاء وغيره . والثانى : أنه سجد وحق عليه العذاب ، فإنه ليس هو السجود المأمور به .

---

(١) فى «تأويل مشكل القرآن» ص ٢٣٢ (ط . عيسى الحلبى) وليس فيه عبارة : «حجراته جوانبه» وفيه : «قدتقلمت الأكم» . وانظر تعليق الأستاذ السيد أحمد صقر .

(٢) انظر تفسير الطبرى (بولاق) ١٤ / ٧٩ .

(٣) فى الأصل : الظل ودورانها .

(٤) قال الاستاذ محمود محمد شاكر (تفسير الطبرى ٢/١٤٤) أن البيت لأبى الأخزر الحمانى ، وذكر أنه فى سيبويه ٢ / ٢٩ ، ١٠٤ ، واللسان (حنف) . وقال فى شرحه : «يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء ، فشبه رأس الناقة فى طأطأتها برأس النصرانية إذ طأطأته فى صلاتها . وأسجد الرجل : طأطأ رأسه وخفضه وانحنى» .

قال أبو الفرج : « وفى قوله : ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ قولان : أحدهما : أنهم الكفار وهم يسجدون ، وسجودهم سجود ظلهم ، قاله مقاتل . والثانى : أنهم لايسجدون ، والمعنى : وكثير من الناس أبى السجود ويحق عليه العذاب لتركه السجود ، هذا قول الفرّاء » .

قلت : ذا قول الأكثرين ، وقد ذكر البغوى[1] فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الآية ـ قال: «قال مجاهد: سجودها تحول ظلالها ، وقال أبو العالية : ما فى السماء نجم ولا شمس ولاقمر إلا يقع ساجدا حين يغيب ثم لاينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه » . قال : « وقيل : سجودها بمعنى الطاعة ، فإنه مامن جماد إلا وهو مطيع لله خاشع له[2] مسبح له ، كما أخبر الله عز وجل عن السماوات والأرض : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [سورة فصلت:١١] . وقال فى وصف الحجارة : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة : ٧٤] ، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء:٤٤] .

قال : « وهذا مذهب حسن موافق لقول أهل السنة » .

قلت : قد تقدم قول الطبرى وغيره بهذا القول ، فإذا كان السجود فى هذه الآية ليس عامًا وهو هناك عام ، كان السجود المطلق هو سجود الطَّوْع . فهذه المذكورات تسجد تطوعاً هى وكثير من الناس ، والكثير الذى حقّ عليه العذاب إنما يسجد كرهاً ، وحينئذ فالكثير الذى حق عليه العذاب لم يقل فيه إنه يسجد ولا نفى عنه كل سجود ، بل تخصيص من سواه بالذكر يدل

---

(١) فى تفسيره ٥ / ٥٦٢ .
(٢) فى تفسير البغوى : خاشع لله .

على أنه ليس مثله ، وحينئذ فإذا لم يسجد طائعاً حصل فائدة التخصيص وهو مع ذلك يسجد كارهاً ، فكلا القولين صحيح . وكذلك قال طائفة من المفسرين ـ واللفظ للبغوى ـ قالوا ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ بكفرهم [1] وتركهم السجود ، وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله تعالى .

وقال فى سورة النحل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨ ـ ٥٠] قال : فلفظ « دابة » / إن لم يتناول بنى آدم ، فالإبل تسجد طوعاً ، وإن تناول بنى آدم فسجودهم طوعاً وكرهاً . (ص ٢٨)

﴿ فصـــل ﴾

والذين فسروا السجود بالخضوع والانقياد لهم فى سجودها قولان ، أحدهما : أنه كونها مصنوعة مخلوقة منقادة لمشيئة الله واختياره ، كما قالوا فى تسبيحها مثل ذلك ، وأنه شهادتها ودلالتها على الخالق . قال أبو الفرج فى قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] : الساجدون على ضربين : أحدهما : من يعقل فسجوده عبادة . والثانى : من لا يعقل فسجوده بيان أثر الصنعة فيه والخضوع الذى يدل على أنه مخلوق ، هذا قول جماعة من العلماء واحتجوا بالبيت المتقدم :

* ترى الأكم فيه سجداً للحوافر *

قال : وأما الشمس والقمر والكواكب فألحقها جماعة بمن يعقل ، قال

---

(١) فى تفسير البغوى ٥ / ٥٦٣ « وهم الكفار لكفرهم » .

أبو العاليه : سجودها حقيقة مامنها غارب إلا خرّ ساجداً بين يدى الله عز وجل ثم لا ينصرف حتى يؤذن له . قال : ويشهد لقول أبى العاليه حديث أبى ذر ، وذكره . قال : وأما النبات والشجر فلا يخلو سجوده من أربعة أشياء ،أحدها: أن يكون سجوداً لانعلمه ، وهذا إذا قلنا بردعه فيهما[1] . والثانى : أنه تفيؤ ظلاله . والثالث : بيان الصنعة فيه . والرابع : الانقياد لما سخر له .

قلت : الثالث والرابع من نمط واحد وهو كالمتقدم ، وأما السجود الذى لانعلمه فهو كما ذكره البغوى وقال البغوى أيضاً فى قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ ﴾ [سورة البقرة : ٧٤] فإن قيل : الحجر لايفهم فكيف يخشى ؟! ، قيل : الله يفهمها ويلهمها فتخشى بإلهامه . قال : ومذهب أهل السنة أن لله علماً فى الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لايقف عليه غيره ، ولها صلاة وتسبيح وخشية كما قال عز وجل : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وتَسْبِيحَهُ ﴾ ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ ﴾ . الآية ، فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله تعالى ، وذكر الحديث الصحيح عن جابر بن سَمُرَةَ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، وإنى لأعرفه الآن[2] ، وذكر حديث حنين الجذع ، وطرقه صحاح مشهورة[3] . وروى عن السدى ،

---

(١) بردعه فيهما : كذا بالأصل .

(٢) الحديث فى مسلم ٧ / ٥٨ ـ ٥٩ (كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة) . وذكره الطبرى فى تفسيره ٢ / ٢٤١ / (ط. المعارف) (وانظر التعليق) . وهو فى مسند جابر بن سمرة رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٥ / ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٥ ؛ مسند الدارمى ١ / ١٢ .

(٣) روى البخارى فى صحيحه ٥ / ١٩٥ (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام) عن ابن عمر رضى الله عنهما : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه » ورواه من طرق أخرى عنه وعن جابر =

عن أبي عبّاد بن [أبي] يزيد[١] عن علي قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في نواحيها خارجا من مكة بين الجبال والشجر، فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال: السلام عليك يارسول الله[٢]. وقال: قال مجاهد: لاينزل حجر من أعلى إلى أسفل إلا من خشية الله. ويشهد لما قلنا قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحشر: ٢١].

قلت: وأما تفسير سجودها وتسبيحها بنفوذ مشيئة الرب وقدرته فيهما ودلالتها على الصانع فقط فالاقتصار على هذا باطل، فإن هذا وصف لازم دائم لها لايكون في وقت دون وقت، وهو مثل كونها مخلوقة محتاجة فقيرة إلى الله تعالى، وعلى هذا فالمخلوقات كلها لاتزال ساجدة مسبِّحة، وليس المراد هذا فإنه قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [سورة ص: ١٨]، وقال: ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص: ١٩]، وقال: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور: ٤١]، فقد أخبر سبحانه وتعالى عنه أنه يعلم ذلك، ودلالتها على الرب يعلمه عموم الناس.

وأيضا فقد أخبر الله تعالى في القرآن من كلام الهدهد والنمل، وأن سليمان

= رضي الله عنهما. والحديث مروي في سنن الترمذي (بشرح ابن العربي) ١٣ / ١١١ (كتاب المناقب، باب حدثنا عباد بن يعقوب الكوفي) وعن أنس بن مالك وأبي وجابر وغيرهم. وهو في المسند (ط. المعارف) عن ابن عباس وأنس وابن عمر رضي الله عنهم. انظر الأرقام ٢٢٣٦، ٢٢٣٧، ٢٤٠٠، ٢٤٠١، ٢٤٣٠–٢٤٣٢، ٥٨٨٦. وانظر تفسير الطبري ٢ / ٢٤١؛ البداية والنهاية ٦/١٢٥ – ١٣٢؛ فتح الباري ٦ / ٤٤٣.

(١) في الأصل: عباد بن يزيد. والتصويب من سنن الترمذي. وذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب ٥ / ١٠٩. وقال روى عن علي وفيه إسماعيل السدي. وروى له الترمذي حديثا واحدا واستغربه.

(٢) الحديث بمعناه في: الترمذي (بشرح ابن العربي) ١٣ / ١١١ (كتاب المناقب، باب حدثنا عباد بن يعقوب الكوفي) وقال: «هذا حديث غريب. وقال: عن عباد بن أبي يزيد»؛ سنن الدارمي ١ / ١٢.

عُلِّم منطق الطير بما يدل على الاختصاص ، وهذا فى الحيوان .

وأيضاً فإنه جعل الجميع يسجد ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذابُ ﴾ [سورةالحج:١٨] وهذا المعنى يشترك فيه جميع المخلوقات دائما ، وهو وصف لازم لكل مخلوق : لا يزال مفتقراً إلى الخالق ، ولا يزال دالاً عليه ، ولايزال منقاداً لما يشاء الرب .

وأيضاً فإنه قسم السجود إلى طوع وكره ، وانفعالها لمشيئة الرب وقدرته لا ينقسم إلى طوع وكره ، ولا يوصف ذلك بطوع منها ولا كره ، فإن دليل فعل الرب فيها ، ليس هو فعل منها ألبتة .

والقرآن يدل على أن السجود والتسبيح أفعال لهذه المخلوقات ، وكون الرب خالقاً لها إنما هو كونها مخلوقة للرب ليس فيه نسبة أمر إليها ، يبين ذلك أنه خصّ الظل بالسجود بالغدو والآصال ، والظل ـ متى كان وحيث كان ـ مخلوق مربوب ، والله تعالى جعل الظلمات والنور ، والقول الذى ذكره البغوى أقرب من القول الذى ذكره أبو الفرج ، وهو سبحانه تارة يجعلها آيات له ، وتارة يجعلها ساجدة مسبحة ، وهذا نوع غير هذا .

وعلى هـذا القول : الجميع واحد ، ليس فى كونها ساجدة مسبِّحة إلا كونُها آيةً دالة وشاهدة للخالق تعالى بصفاته لكونها مفعولة له ، وهذا معنى ثابت فى المخلوقات كلها لازم لها ، وهى آيات للرب بهذا الاعتبار ، وهى شواهد ودلائل وآيات بهذا الاعتبار ، لكن ذاك معنى آخر كما يفرّق بين كون الإنسان مخلوقاً وبين كونه عابداً لله ، فهذا غير هذا ، هذا يتعلق بربوبية الرب له ، وهذا يتعلق بتألهه وعبادته للرب .

والبيت الذى استشهدوا به وهو قوله :

* ترى الأُكم فيها سُجّدًا للحوافِرِ *

فإنما ذكر سجود الأكم للحوافر ، وذلك خضوعها وانخفاضها لها ، فهذا خضوع جماد لجماد ، ولا يلزم أن يكون سائرُ أنواع الخضوع مثلَ هذا ، وإنما يشترك فى نوع الخضوع ، وليس خضوعُ المخلوقات للخالق مثلَ هذا ، وإن قيل : هو انفعالها لمشيئته وقدرته ، بل ذاك نوع أبلغ من هذا ، فلا يجب أن يكون سجودها بغير خضوع منها وطاعة ، ولكن هذا البيت يقتضى أنه لايجب أن يكون سجودُ كلِّ شىء وضعَ رأسه بالأرض ، وهذا حق ، بل هو خضوع للرب يناسب حاله ، وقد قيل لسهل بن عبد الله : أيسجد القلب ؟ قال : نعم ، سجدة لايرفع رأسه منها أبداً . وأهل الجنة فى الجنة قد أُلْهِمُوا التسبيح كما ألهموا النَّفَس فى الدنيا ، وكما يلهم أهل الدنيا النَّفَسَ وهم خاضعون للرب مطيعون له ، وليس هناك سجود بوضع رأس فى الأرض ، فهذا أُمر به فى الدنيا لحاجة النفس إليه فى خضوعها لله تعالى ، فلا تكون خاضعةً إلا به ، بخلاف حالها فى الجنة فإنها قد زكت وصلحت .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما(١) .

---

(١) كتب أسفل هذا الكلام : « بلغ مقابلة » .



رسالة في لفظ السُّنَّة في القرآن



٦٤ ط

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، وعليه التكلان

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين وسلم تسليما .

ما بعد ، فهذا :

﴿ فصل ﴾

لفظ السنن في مواضع من القرآن

اعلم أنه قد ذكر الله تعالى لفظ سننه في مواضع من كتابه فقال تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ [سورة الإسراء : ٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٨] ، وقال تعالى في آخر السورة : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [سورة الأحزاب : ٦١ ، ٦٢] .

وقال : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ [سورة فاطر : ٤٣] .

وقال : ﴿ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة غافر : ٨٥] .

وقال : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [سورة الفتح : ٢٢ ، ٢٣] .

وقال تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٧][1] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الكهف : ٥٥] .

سنته نصرة أوليائه وإهانة أعدائه

فهذه كلها تتعلق بأوليائه : كمطيعيه وعصاته ، كالمؤمنين والكافرين ؛ فسنته فى هؤلاء إكرامهم ، وسنته فى هؤلاء إهانتهم وعقوبتهم .

الآية الأولى

فأما الأولى[2] فإنها تتعلق بالرسل لأنه لا حرج عليهم فيما فرض الله تعالى لهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [سورة التحريم : ٢] ، والمفروض هنا مباح مقدر محدود مثل إباحة زوجة المُتَبَنَّى بعد أن قضى منها وطراً وطلقها ، لا بأن تُؤخذ[3] منه بغير اختياره ، وقد قال تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [سورة الأحزاب : ٥٠] ، أى أوحينا وحرّمنا قبلُ .

وهنا المراد به سنته فى رسله : أنه أباح لهم الأزواج وغيرها ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [سورة الرعد: ٣٨] ، وأنه لا حرج عليهم فى ذلك ، فلم يكن محمدٌ صلَّى الله عليه وسلم بِدْعاً من الرسل ، ولم يقل هنا : ولن تجد لسنتنا تبديلا ، فإنه لا نبى بعد محمد .

الأربعة البواقى:

والأربعة البواقى تتضمن عقوبة الكفّار والمنافقين ، فالأولى[4] : قوله :

---

(١) الآية بتمامها : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرضِ فانظروا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذِّبينَ ﴾ .

(٢) فى الأصل : الأول . والكلام هنا عن الآية ٣٨ سورة الأحزاب .

(٣) فى الأصل : يؤخذ .

(٤) فى الأصل : فالأول . والإشارة فيما يلى من الكلام إلى الآية ٧٦ من سورة الإسراء وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهى التى تسبق آية ٧٧ من سورة الإسراء التى ذكرها أولا .

الأولى إنهم لو استفزُّوه فأخرجوه لم يلبثوا خلفه إلا قليلا كسنة من أرسل قبله من الرسل ؛ فإما أن يُقال : وقع هذا الإخراج بالهجرة ولم يلبثوا خلفه إلا قليلا ، وهو ما أصابهم يوم بدر ، وإما أن يقال : لم يقع .

الثانية والثانية : قوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ الآية [سورة الأحزاب : ٦٠] [١] ، كما أصاب من قبلهم من أهل الكتاب ، فإن الله أخرجهم ، فإن لم ينته غِيُّ[٢] هؤلاء ، بل أظهروا الكفر كما أظهره أولئك ـ أخرجناهم كما أخرجناهم / بخلاف ما إذا كتموه . ص ٦٥

وهذه السنة تتضمن أن كل من جاور الرسول صلى الله عليه وسلم متى أظهر مخالفته مكَّن الله الرسول من إخراجه . وهذه فى أهل العَهْدِ والمنافقين ، وقد يقال : هى لهم مع المؤمنين أبداً .

الثالثة والثالثة : فى أهل المكر السيىء ، وأن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا على أعدائهم وينتقم منهم . وقال هنا : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[٣] .

الرابعة والرابعة : فى حال الكفار مع المؤمنين[٤] .

---

(١) الآية بتمامها : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمُرْجِفُونَ فى المدينةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بهم ثم لا يُجَاوِرُونَكَ فيها إلا قليلا ﴾ .

(٢) الكلمة فى الأصل مطموسة وكذا استظهرتها .

(٣) الكلام يتضح هنا إذا أوردنا الآيتين ٤٢ ، ٤٣ من سورة فاطر بتمامهما . يقول تعالى: ﴿ وأقسموا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِن إحدى الأمم فلما جاءهم نذيرٌ ما زادهم إلا نفورا * استكباراً فى الأرضِ ومَكْرَ السَّيِّءِ ولا يَحِيقُ المكرُ السيء إلا بأَهْلِهِ فهل ينظرونَ إلا سنةَ الأولينَ فلن تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلاً ولن تجدَ لسنةِ اللهِ تحويلا ﴾ .

(٤) السنة الرابعة هى التى ذكر أمثلة لها الآيات : ٨٥ من سورة غافر ؛ ٢٢ ، ٢٣ من سورة الفتح ؛ ١٣٧ من سورة آل عمران ؛ ٥٥ من سورة الكهف .

السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية ينقضها الله إذا شاء

وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وليست هى السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته فى الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات ، فإن هذه السنة ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحِكَم : كما حبس الشمس على يوشع ، وكما شقَّ القمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكما ملأ السماء بالشهب ، وكما أحيا الموتى غير مرة ، وكما جعل العصا حيَّةً ، وكما أنبع الماء من الصخرة بعصا ، وكما أنبع الماء من بين أصابع الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر بعض هذه الآيات السهروردى فى المنقول فى « الألواح العمادية » وفى « المبدأ والمعاد »[1] محتجًّا بها على ما يقوله هو وأمثاله من المتفلسفة : أن العالم لم يزل ولا يزال هكذا ، بناء على أن هذه سنة الربِّ عز وجل وعادته وهى لا تبديل [لها][2] ، إذ كان عندهم ليس فاعلاً بمشيئته واختياره ، بل موجب بذاته .

فيقال لهم : احتجاجكم على هذا بالقرآن فى غاية الفساد ، فإن القرآن يصرح بنقيض مذهبكم فى جميع المواضع ، وقد عُلم بالاضطرار أن ما يقولونه مخالف لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاحتجاجكم بهذا أفسد من احتجاج النصارى على أن محمداً شهد بأن دينهم بعد النسخ والتبديل حق بآيات من القرآن حرَّفوها عن مواضعها ، قد تكلمنا عليها فى « الجواب الصحيح لمن بدَّل

(١) فى الأصل : « فى الألواح العادية فى المبدأ والمعاد » . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته ، فإن للسهروردى كتابا عنوانه « الألواح العمادية » فى العلوم الحكمية ومصطلحاتها (وقد ألفه إجابة لطلب الملك عماد الدين قره أرسلان بن داود) ، وآخر بعنوان « المبدأ والمعاد » .

انظر ما ذكره الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى فى مقالة : آثار السهروردى المقتول ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ، مايو سنة ١٩٥١ م وانظر له أيضاً : التعليق على مقالة « السهروردى » فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) لها : زيادة يقتضيها السياق .

دين المسيح »[١] فإن النصارى وإن كانوا كفاراً بتبديل الكتاب الأول وتكذيب الثانى ، فهم خير منكم من وجوه كثيرة ، فإنهم يقولون بالأصول الكلية التى اتفقت عليها الرسل ، وإن كانوا حرّفوا بعض ذلك ، كالإيمان بأن الله خالق كل شىء ، وأنه بكل شىء عليم وعلى كل شىء قدير ، والإيمان بملائكته ورسله واليوم الآخر والجنة والنار وغير ذلك مما تكذّبون أنتم به .

الأدلة على ذلك

وأما بيان الدلالة فمن وجوه :

الأول

أحدها : أن يُقال : العادات الطبيعية ليس للربّ فيها سنة لازمة ، فإنه قد عُرف بالدلائل اليقينية أن الشمس والقمر والكواكب مخلوقة بعد أن لم تكن ، فهذا تبديل وقع . وقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ ﴾ [سورة إبراهيم : ٤٨] .

الثانى

وأيضاً ، فقد عُرف انتقاض عامة العادات ، فالعادة فى بنى آدم ألاّ يُخلقوا إلا من أبوين ، وقد خُلق المسيح من أم ، وحوّاء من أب ، وآدم من غير أم ولا أب ، / وإحياء الموتى متواتر مرات مُتعدّدة[٢] ، وكذلك تكثير الطعام والشراب لغير واحد من الأنبياء والصالحين عليهم السلام .

ظ ٦٥

الثالث

وأيضا ، فعندكم تغيّرات وقعت فى العالم كالطوفانات الكبار فيها تغيير العادة .

وهذا خلاف عادته التى وعد بها وأخبر أنها لا تتغير لنصرة أوليائه وإهانة أعدائه ، فإن هذا عُلم بخبره وحكمته .

أما خبره فإنه أخبر بذلك ووعد به ، وهو الصادق الذى لا يخلف الميعاد ،

---

(١) كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » ، ويسمى أحيانا « الرد على النصارى » يقع فى ٤ أجزاء ، وقد طبع بمطبعة النيل سنة ١٣٢٣ / ١٩٠٥ ، وطبع مرة ثانية بمطبعة المدنى سنة ١٣٧٩/١٩٥٩ .

(٢) فى الأصل : معددة .

وهذا يوافق طرق جميع طوائف أهل الملل ، ويقولون : مقتضى حكمته أن يكون العاقبة والنصر لأوليائه دون أعدائه ، كما قد بُسط ذلك فى مواضع .

وأما الأمور الطبيعية فإما أن تقع بمحض المشيئة على قولٍ ، وإما أن تقع بحسب الحكمة والمصلحة على قول . وعلى كلا التقديرين فتبديلها وتحويلها ليس ممتنعاً كما فى نسخ الشرائع وتبديل آيةٍ بآيةٍ ، فإنّه إن علّق الآية بمحض المشيئة فهو يفعل ما يشاء ، وإن علقها بالحكمة مع المشيئة ، فالحكمة تقتضى[(١)] تبديل بعض ما فى العالم ، كما وقع كثير من ذلك فى الماضى وسيقع فى المستقبل ؛ فعُلم أن هذه السنن دينيات لا طبيعيات .

ولكن فى قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ حُجة للجمهور القائلين بالحكمة ، فإن أصحاب المشيئة المجردة يجوِّزون نقض كل عادة ، ولكن يقولون : إنما نعلم ما يكون بالخبر .

سنته تعالى مطردة فى الدينيات والطبيعيات

وقوله تعالى : ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ دليلٌ على أن هذا من مقتضى حكمته ، وأنه يقضى فى الأمور المتماثلة بقضاء متماثل لا بقضاء مخالف[(٢)] ، فإذا كان قد نصر المؤمنين لأنهم مؤمنون كان هذا موجباً لنصرهم حيث وجد هذا الوصف ، بخلاف ما إذا عَصَوْا ونقضوا إيمانهم كيوم أُحُد فإن الذنب كان لهم ، ولهذا قال : ﴿ ولَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ فعمَّ كل سنة له ، وهو يعمُّ سنته فى خلقه وأمره ، فى الطبيعيات والدينيات .

نقض العادة لاختصاص معين

لكن الشأن أن تُعرف[(٣)] سنته ، وحقيقة هذا أنه إذا نقض العادة فإنما ينقضها لاختصاص تلك[(٤)] الحال بوصف امتازت به عن غيره ، فلم تكن سنته

---

(١) فى الأصل : يقتضى .
(٢) فى الأصل : وأنه يقضى فى الأمور المتماثلة مقضى متماثل لا يقضى مخالف
(٣) فى الأصل : يعرف ، وهو جائز .
(٤) فى الأصل : ذلك .

مع ذلك ، والاختصاص بسنته مع عدمه ، كما نقول إذا خُصَّت العلة لفوات شرط أو وجود مانع ، وكما نقول[1] فى الاستحسان الصحيح ، وهو تخصيص بعض أفراد العام بحكمٍ يختص به لامتيازه عن نظائره بوصف يختص به .

السنة هى العادة

والسُّنَّةُ هى العادة فى الأشياء المتماثلة ، و « سُنّة » هنا تجرى على «سَنَة» ، هذا فى الاشتقاق الأكبر ، و « السَّنَةُ » من هذا الباب ، سواء كان أصله « سَنْوَة » أو « سَنْهَة » وهما لغتان فى السَّنة[2] .

و « السنن » و « أسنان المشط » ونحو ذلك بلفظ « السُّنَّة » يدل على التماثل ، فإنه سبحانه إذا حكم فى الأمور المتماثلة بحكم / فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول ، بل هو سبحانه لا يُفَوِّت بين المتماثلَيْن ، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل ؛ وهذا القول أشبه بأصول الجمهور القائلين بالحكمة فى الخلق والأمر ، وأنه سبحانه يسوِّى بين المتماثلَيْن ويفرِّق بين المختلفَيْن ، كما دلّ القرآن على هذا فى مواضع كقوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [سورة القلم : ٣٥] .

ص ٦٦

ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرةً لنا ، ولولا القياس واطّراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها . والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشىء حكم نظيره ، كالأمثال المضروبة فى القرآن ، وهى كثيرة .

وذكر لفظ التبديل والتحويل كقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [سورة الإسراء : ٥٦] ، فالتبديل أن تُبدِّل بخلافه ، والتحويل أن تُحوِّل من محلٍ إلى محل[3] ،

---

(١) فى الأصل : وكما يقول .

(٢) فى الأصل : « وسنة هذا تجرى على سنة هذا فى الاشتقاق الأكبر والسنة من هذا الباب سواء كان أصله سنوه أو سنهة وهى لغتان فى السنة » . وأرجو أن يكون ما أثبته مبيناً للمقصود .

(٣) فى الأصل : عمل .

مثل استفزازه من الأرض ليخرجوه فإنهم لايلبثون خلفه إلا قليلا ، ولا تتحول هذه السنة بأن يكون هو المخرَج وهم اللابثون ، بل متى أخرجوه خرجوا خلفه ، ولو مكث لكان هذا استصحاب حالٍ ، بخلاف ظهور الكفَّار فإنه كان تبديلا لظهور المؤمنين وظهور الكفَّار إذ كان لابد من أحدهما .

وأمّا أهل المكر السَّيِّئ والكفَّار فهى سنة تبديل ، لابد لهم من العقوبة لايُبدَّلون بها غيرها ولاتتحول[1] عنهم إلى المؤمنين ، وهو وعيد لأهل المكر السيىء أنه لايحيق إلا بأهله ولن يتبدَّلوا به خيراً : يتضمن نفيًا وإثباتًا ، فلهذا نَفَى عنه التبديل والتحويل .

﴿ فصـــل ﴾

والقرآن قد دلَّ على هذا الأصل فى مواضع كقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٤٧] ، وقوله : ﴿ وَكَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [سورة هود : ١٠٢] ، وقوله : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ ﴾ [سورة القمر : ٤٣] . ومنه قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة يوسف : ١١١] ، وقوله:﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴾ [سورة آل عمران : ١٣] إلى قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣] .

﴿ فصـــل ﴾

وقد أخبر سبحانه أنه تارة يعاقبهم عَقِبَ السرَّاء وتارة يعاقبهم عقب

(١) فى الأصل : ولا يتحول .

الضرّاء إذا لم يتضرعوا، فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى قوله : ﴿مُبْلِسُونَ﴾ [سورة المؤمنون : ٧٦ ـ ٧٧]
فهنا أخبر أنهم بالعذاب الأدنى مااستكانوا وما تضرعوا حتى أخذهم بالإهلاك
كما قال : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة السجدة:٢١] ، وقال : ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾
[سورة التوبة : ١٢٦] ، والضمير يكون عائداً على الذين لايؤمنون بالآخرة .

وقال فى سورة الأنعام : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾إلى قوله ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[سورة الأنعام:٤٢ ـ ٤٥] .
فهذه نظيرها فى الأعراف فى قوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ الآيات
[سورة الأعراف : ٩٤ـ٩٥] ، فقد ذمهم أنهم لم يتضرعوا لمّا أخذهم بالبأساء
والضرّاء / فإنه بعد هذا بدّل الحالة السيئة بالحالة الحسنة فلم يطيعوا فأخذهم ظ ٦٦
بالعذاب بغتةً ، فهنا أخذهم أولاً بالضراء ليضّرّعوا فلم يتضرعوا ، فابتلاهم الله
بالسرّاء ليطيعوا فلم يطيعوا ، فأخذهم بالعذاب . وهذا كقوله تعالى :
﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[سورة الأعراف:١٦٨] ،
فهؤلاء ابتلوا بالضرّاء أولاً ثم بالسراء ثانيا[1] . وقد أخبر أنه ما أرسل فى قريةٍ
من نبيٍّ إلا كانوا هكذا .

(١) فكرة ابن تيمية هنا لا تتضح تماما إلا إذا ذكرنا الآيات بتمامها ، ففى سورة الأنعام : (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون * فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمدلله رب العالمين) . وفى سورة الأعراف : (وماأرسلنافى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون * ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهملايشعرون) .

وهذا كما ذكره سبحانه فى حال قوم فرعون وغيرهم ، وهذا ذمّ لمن لم يستقم لافى الضراء ولافى السرّاء ، لادعَا بالضرّاء ولا بالسرّاء ، ولا تضرّع فى الضرّاء ، ولاشكر ولا آمن فى السرّاء ؛ ابتلاهم بالحسنات : وهى النعم ، والسيئات : وهى المصائب ، فما أطاعوا لافى هذا ولا فى هذا .

وأما آية المؤمنين فأمراؤهم[1] لم يستكينوا ولم يتضرعوا حتى فَتَح عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون . وهؤلاء قد يكون تقدم لهم ابتلاء بالحسنات أولا ، فإنه قال فى أول الكلام : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥١] إلى قوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ [الآية : ٦٤] إلى قوله : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ [الآيتان : ٧٥ ، ٧٦] .

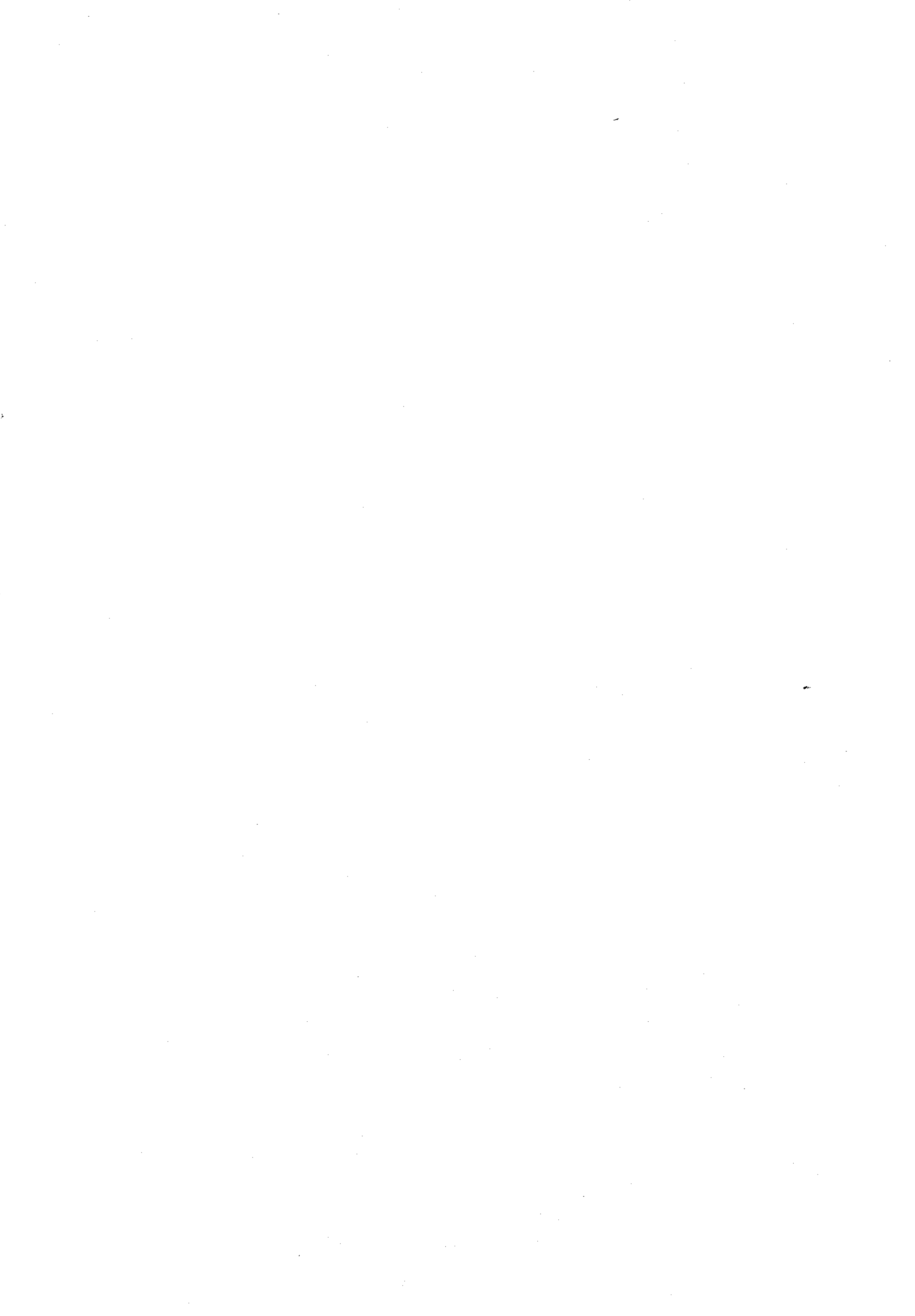
فهؤلاء كانوا فى حالةٍ حسنةٍ فلما[2] لم يتقوه أخذ مترفيهم بالعذاب ، ثم أخذهم بالعذاب ليتضرعوا ، فلما لم يتضرعوا[3] ابتلاهم بالحسنات أولا ، فلما لم يتّقوه استحقوا العذاب ؛ فيُعتبر الفرق بين هؤلاء وهؤلاء .

آخره ، والحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين وسلّم تسليما .

---

(١) فى الأصل : فأمرائهم .
(٢) فى الأصل : فما .
(٣) فى الأصل : فلم يتضرعوا .

رسالة في قصة شعيب عليه السلام



ص ١

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أما بعد ، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصة شعيب النبي صلى الله عليه وسلم فى غير موضع من كتابه وإرساله إلى أهل مدين ، وقال فى موضع آخر : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ١٧٦] ، فأكثر الناس يقولون : إنهم أهل مدين ، ومن الناس من يجعلها قصتين .

شيخ مدين لم يكن شعيباً

وذكر فى قصة موسى أنه : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ الآية [سورة القصص : ٢٣] إلى آخر القصة . فموسى عليه السلام قضى أكمل الأجلين ، ولم يُذكر عن هذا الشيخ أنه كان شعيباً ولا أنه كان نبيًّا ، ولا عند أهل الكتابين أنه كان نبيًّا ، ولا نُقل[1] عن أحد من الصحابة أن هذا الشيخ الذى صاهر موسى كان شعيباً النبي : لا عن ابن عباس ولا غيره ، بل المنقول عن الصحابة أنه لم يكن هو شعيب .

قال سُنَيْد بن داود شيخ البخارى فى تفسيره[2] بإسناده عن ابن عباس

---

(١) فى الأصل : ولا يقل ، وهو تحريف .

(٢) أبو على سنيد (الحسين) بن داود المصيصى المحتسب الحافظ . قال الذهبى فى تذكرة الحفاظ : « اسمه الحسين كان أحد أوعية العلم ... مات سنيد سنة ست وعشرين ومائتين . وقفت على تفسيره » . وانظر ترجمة سنيد فى : تذكرة الحفاظ ٢/٤٥٩–٤٦٠ ؛ ميزان الاعتدال ٢/٢٣٦ ؛ تقريب التهذيب ١/٣٣٥ .

قال : اسمه يثرى . قال حجّاج[1] وقال غيره : يثرون . وعن شعيب الجبائى[2] أنه قال : اسم الجاريتين ليّا وصَفُوره[3] . وامرأة موسى صَفُوره ابنة يثرون كاهن مدين ، والكاهن الحبر . وفى رواية عن ابن عباس أن اسمه يثرون أو يثرى .

وقال ابن جرير[4] : اسم إحدى[5] الجاريتين ليّا ، ويقال : شرفا ، والأخرى صفورة . وقال أيضاً : وأما أبوهما فمختلف فى اسمه ، فقال بعضهم : اسمه يثرون . وقال ابن مسعود : الذى استأجر موسى ابن أخى شعيب يثرون . وقال أبو عبيدة : هو يثرون ابن أخى شعيب النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال آخرون : اسمه يثرى . وهو منقول عن ابن عباس .

وقال الحسن : يقولون : هو شعيب النبى ، لا ، ولكنه سيد أهل الماء يومئذ.

قال ابن جرير : « وهذا لايُدرك علمه إلا بخبر عن معصوم ، ولا خبر فى ذلك »[6] .

---

(١) هو أبو محمد حجاج بن محمد الأعور المتوفى سنة ٢٠٦ . قال ابن سعد : « وكان ثقة صدوقا إن شاء الله ، وكان قد تغير فى آخر عمره حين رجع إلى بغداد » . انظر ترجمته فى : طبقات ابن سعد ٧/٣٣٣ ، ٤٨٩ ؛ الجرح والتعديل ج ١ ، ق ٢ ، ص١٦٦ .

(٢) رسم الاسم فى الأصل : « شعيب الحبايى » . وهو شعيب الجبائى ، وكذا ورد اسمه فى : تفسير الطبرى (ط . بولاق) ٢٠ / ٢٩ ؛ تفسير ابن كثير ٣ / ٣٨٥ ؛ العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل ١/٦٩ ــ ٧٢ . وقال عنه ابن أبى حاتم (الجرح والتعديل ج ٢ ، ق ١ ، ص ٣٥٣) : « يمانى يروى عن الكتب . روى عنه سلمة بن وهرام ، سمعت أبى يقول ذلك . قال أبو محمد : هو شعيب بن الأسود » .

(٣) صفوره : كذا فى الأصل ، والذى فى تفسير الطبرى ٢٠ / ٣٩ ، ٤٠ ؛ وفى تفسير ابن كثير ٣ / ٣٨٥ ؛ وفى الدر المنثور ٥ / ١٢٥ : « صفورا » . وأورد السيوطى فى الدر المنثور ٥/١٢٦ رواية أخرى جاء فيها : صفيرا .

(٤) انظر تفسير الطبرى (ط . بولاق) ٢٠/٣٩ ، ٤٠ .

(٥) فى الأصل : أحد .

(٦) الذى فى تفسير الطبرى ٢٠ / ٤٠ : « وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر ، ولاخبر بذلك تجب حجته » .

وقيل : اسمه أثرون[1] .

فهذه كتب التفسير التي تروى بالأسانيد المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين لم يذكر فيها عن أحد أنه شعيب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقلوا بالأسانيد الثابتة عن الحسن البصري أنه قال : « يقولون إنه شعيب وليس بشعيب ، ولكنه سيد الماء يومئذ »[2] .

فالحسن يذكر أنه شعيب عمّن لايعرف ، ويرد عليهم ذلك ، ويقول : ليس هو شعيب .

وإن كان الثعلبي قد ذكر أنه شعيب فلا يُلتفت إلى قوله ، فإنه ينقل الغث والسمين . فمن جزم بأنه شعيب النبي فقد قال ماليس له به علم وما لم ينقل / عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ولا عمّن يُحتج بقوله من علماء المسلمين ، وخالف فى ذلك ماثبت عن ابن عباس والحسن البصري ، مع مخالفته أيضا لأهل الكتابين فإنهم متفقون على أنه ليس هو شعيب النبي ، فإن مافى التوراة التي عند اليهود والإنجيل الذى عند النصارى أن اسمه يثرون ، وليس لشعيب النبي عندهم ذكر فى التوراة . ظ ٧٩

كان شعيب عربيا وموسى عبرانياً

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن شعيباً كان عربيًّا ، بل قد رُوى عن أبي ذر مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ـ رواه أبو حاتم وغيره ـ أن شعيباً كان عربيًّا ، وكذلك هود وصالح ، وموسى كان عبرانيا ، فلم يكن يعرف لسانه[3] ،

---

(١) فى الدر المنثور ٥/١٢٦ : « وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة قال : كان صاحب موسى عليه السلام أثرون ابن أخي شعيب عليه السلام » .

(٢) قال السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ١٢٦ : « وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضى الله عنه قال : يقول ناس إنه شعيب وليس بشعيب ولكن سيد الماء يومئذ » . وأخرجه الطبرى فى تفسيره ٢٠/٤٠ .

(٣) فى الأصل : بلسانه .

وظاهر القرآن يدل على مخاطبة موسى للمرأتين وأبيهما بغير ترجمان .

وإنما شبهة من ظن ذلك أنه وجد فى القرآن قصة شعيب و إرساله إلى أهل مدين ، ووجد فى القرآن مجىء موسى إلى مدين ومصاهرته لهذا ، فظن أنه هو .

والقرآن يدل أن الله أهلك قوم شعيب بالظُّلَّة ، فحينئذ لم يبق فى مدين من قوم شعيب أحد ، وشعيب لايقيم بقريه ليس بها أحد . وقد ذكروا أن الأنبياء كانوا إذا هلكت أممهم ذهبوا إلى مكة فأقاموا بها إلى الموت ، كما ذُكر أن قبر شعيب بمكة ، وقبر هود بمكة ، وكذلك غيرهما .

وموسى لما جاء إلى مدين كانت معمورة بهذا الشيخ الذى صاهره ، ولم يكن هؤلاء قوم شعيب المذكورين[1] فى القرآن ، بل ومن قال : إنه كان ابن أخى شعيب أو ابن عمه لم ينقل ذلك عن ثبت ، والنقل الثابت عن ابن عباس لايعارض بمثل قول هؤلاء .

وما يذكرونه فى عصا موسى ، وأن شعيباً أعطاه إياها ، وقيل : أعطاه إياها هذا الشيخ ، وقيل : جبريل . وكل ذلك لا يثبت .

وعن أبى بكر ـ أظنه الهذلى ـ قال : سألت عكرمة عن عصا موسى ، قال : هى عصا خرج بها آدم من الجنة ، ثم قبضها بعد ذلك جبريل فلقى بها موسى ليلاً فدفعها إليه .

وقال السُّدى فى تفسيره المعروف : أمر أبو المرأتين ابنته أن يأتى موسى بعصا ، وكانت تلك العصا عصا استودعها مَلَكٌ فى صورة رجل ، إلى آخر القصة ، استودعه إياها مَلَكٌ فى سورة رجل ، وأن حماه[2] خاصمه ، وحكَّما بينهما رجلاً ،

---

(١) فى الأصل : المذكورون ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : حموه، وهو خطأ .

وأن موسى أطاق حملها دون حميه(١) ، وذكر عن موسى أنه أحق بالوفاء من حميه(١) .

ولو كان هذا هو شعيبا النبي لم ينازع موسى ، ولم يندم على إعطائه إياها ، ولم يحاكمه . ولم يكن موسى قبل أن يُنبَّأ أحق بالوفاء منه ، فإن شعيباً كان نبيًّا / وموسى لم يكن نبيًّا ؛ فلم يكن موسى قبل أن يُنَبَّأ أكمل من نبي ، وما ذكره زيد من أنه كان يعرف أن موسى نبي : إن كان ثابتاً ، فالأحبار والرهبان كانت عندهم علامات الأنبياء ، وكانوا يخبرون بأخبارهم قبل أن يبعثوا ، والله سبحانه أعلم .

ص ٨٠

﴿ فصـــــل ﴾

وأما شِياع(٢) كون حمى(٣) موسى شعيباً النبي عند كثير من الناس الذين لا خبرة لهم بحقائق العلم ودلائله وطرقه السمعية والعقلية ، فهذا مما لا يغتر به عاقل، فإن غاية مثل ذلك أن يكون منقولاً عن بعض المنتسبين إلى العلم ، وقد خالفه غيره من أهل العلم . وقول العالم الذى يخالفه نظيره ليس حجة ، بل يجب رد ما تنازعا فيه إلى الأدلة .

ومثال ذلك ما ذكره بعضهم ، أو كثير منهم ، من أن الرسل المذكورين فى سورة يٓس هم من حواريي المسيح عليه السلام ، وأن حبيب النجار آمن بهم. وهذا أمر باطل عند أجلَّاء علماء المسلمين وعند أهل الكتاب ، فإن الله قد أخبر عن هذه القرية التى جاءها المرسلون أنه قد أهلك أهلها فقال تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [الآية : ٢٩] .

---

(١) فى الأصل فى الموضعين : حموه ، وهو خطأ .

(٢) فى اللسان : « شاع الشيب شيعا وشياعا (بكسر الشين) وشيعانا وشيوعا وشيعوعة ومشيعا : ظهر وتفرق » .

(٣) فى الأصل : حمو ، وهو خطأ .

وأنطاكية لما جاءها اثنان من الحواريين بعد رفع المسيح آمنوا بهما ، وهى أول مدينة اتبعت المسيح ، ولم يهلكهم الله بعد المسيح باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، فكيف يجوز أن يُقال : هؤلاء هم رسل المسيح ؟ !

وأيضاً ، فإن الذين أتوْهم كانا اثنين من الحواريين ، وأهل الكتاب معترفون بذلك ، ولم يكن حبيب النجار موجوداً حينئذ ، بل هؤلاء رسل أرسلهم الله قبل المسيح ، وأهلك أهل تلك القرية ـ وقد قيل : إنها أنطاكية ـ وآمن حبيب بأولئك الرسل . ثم بعد هذا عمرت أنطاكية وجاءتهم رسل المسيح بعد ذلك .

والحواريون ليسوا رسل الله عند المسلمين ، بل هم رسل المسيح ، كالصحابة الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم يرسلهم إلى الملوك . ومن زعم أن هؤلاء حواريون[1] فقد جعل للنصارى حجة لا يُحسِن أن يجيب عنها ، وقد بسطنا ذلك فى « الرد على النصارى » وبيّنا أن الحواريين لم يكونوا رسلاً ، فإن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل إبراهيم وموسى ، وقد يفضّلونهم على إبراهيم وموسى ، وهذا كفر عند المسلمين ، وقد بينا ضلال النصارى فى ذلك .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

---

(١) فى الأصل : حواريين ، وهو خطأ .

رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان



ظ ١١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

﴿ فصل ﴾

تفسير السورة إجمالا

الآيتان : ١، ٢

اعلم أن سورة « هل أتى على الإنسان » سورة عجيبة الشأن من سور القرآن على اختصارها ، فإن الله سبحانه ابتدأها بذكر كيفية خلق الإنسان من النطفة ذات الأمشاج والأخلاط التى لم يزل بقدرته ولطفه وحكمته يصرِّفه عليها أطواراً ، وينقله من حال إلى حال ، إلى أن تمت خلقته وكملت صورته ، فأخرجه إنساناً سويًّا ، سميعاً بصيراً[1] ، ثم لما تكامل تمييزه وإدراكه هداه طريقى الخير والشر ، والهدى والضلال ، وأنه بعد هذه الهداية إما أن يشكر ربَّه وإما أن يكفره[2] . ثم ذكر مآل أهل الشكر والكفر ، وما أعدَّ لهؤلاء وهؤلاء ، وبدأ أولاً بذكر عاقبة أهل الكفر ، ثم عاقبة أهل الشكر[3] ، وفى آخر السورة ذكر أولاً أهل الرحمة ثم أهل العذاب[4] ، فبدأ السورة بأول أحوال الإنسان ــ وهى النطفة ــ وختمها بآخر أحواله ــ وهى كونه من

الآية الثالثة

---

(١) وهذا متضمن فى الآية الأولى والثانية وهو قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) .

(٢) فى الآية الثالثه : (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا) .

(٣) فى قوله تعالى : (إنا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا * إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) [الآيات : ٤ ــ ٦] .

(٤) فى قوله تعالى : (يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما) [الآية ٣١] .

الآية الرابعة

أهل الرحمة أوالعذاب ـ ووسَّطها بأعمال الفريقين ، فذكر أعمال أهل العذاب مجملة في قوله : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ ﴾ [سورة الإنسان : ٤] ، وأعمال أهل الرحمة مفصَّلةً وجزاءهم مفصَّلاً .

فتضمنت السورة خلق الإنسان وهدايته ، ومبدأه وتوسطه ونهايته ، وتضمنت المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر : وهما القدرة والشرع ، وتضمنت إثبات السبب وكون العبد فاعلا مريداً حقيقةً ، وأن فاعليته ومشيئته إنما هي بمشيئة الله ، ففيها الرد على طائفتين : القدرية والجبرية ، وفيها ذكر أقسام بني آدم كلهم ، فإنهم إما أهل شمالٍ ـ وهم الكفَّار ـ أوأهل يمين : وهم[1] نوعان : أبرار ومقرَّبون،

الآية الخامسة

وذكر سبحانه أن شراب الأبرار يُمزج من شراب عباده المقربين لأنهم مزجوا أعمالهم ، ويشربه المقرَّبون صِرفاً خالصاً كما أخلصوا أعمالهم ، وجعل سبحانه شراب المقربين من الكافور الذى فيه من التبريد والقوة ما يناسب برد اليقين وقوته لما حصل لقلوبهم ووصل إليها في الدنيا ، مع ما في ذلك من مقابلته للسعير .

وأخبر سبحانه أن لهم شراباً آخر ممزوجاً من الزنجبيل[2] لما فيه من طيب الرائحة ولذة الطعم ، والحرارة التى توجب تغيير برد الكافور وإذابة الفضلات وتطهير الأجواف ، ولهذا وصفه سبحانه بكونه شراباً طهوراً ـ أى أى مطهراً لبطونهم[3] .

فوصفهم سبحانه بجمال الظاهر والباطن ، كما قال : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الآية ١١] ، فالنضرة جمال وجوههم ، والسرور / جمال قلوبهم ، كما قال : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [سورة المطففين : ٢٤] .

ص ١١١

---

(١) في الأصل : وهما .
(٢) في قوله تعالى : (ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا) [الآية ١٧] .
(٣) في الآية ٢١ : (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) .

وقريب من هذا قول امرأة العزيز فى يوسف : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٢] ، فأخبرت بجمال ظاهره حين أشارت إليه بالخروج عليهن ثم ضمت إلى ذلك إخبارها بأن باطنه أجمل من ظاهره : بأنى روادته فأبى إلا العفة والحياء والاستعصام .

ثم ذكر سبحانه من أعمال الأبرار ماينبّه سامعه على جمعهم لأعمال البر كلها ، فذكر سبحانه وفاءهم بالنذر ، وخوفهم من ربهم ، وإطعامهم الطعام على محبتهم له ، وإخلاصهم لربهم فى طاعتهم[1] .

الآية السابعة

وذكر سبحانه الوفاء بالنذر وهو أضعف الواجبات ، فإن العبد هو الذى أوجبه على نفسه بالتزامه ، فهو دون ما أوجبه الله سبحانه عليه ، فإذا [وفى][2] لله بأضعف الواجبَيْن الذى التزمه هو ، فهو بأن يوفى بالواجب الأعظم الذى أوجبه الله عليه أولى وأخرى .

ومن هٰهنا قال من قال من المفسرين : المقرَّبون يوفون بطاعة الله ويقومون بحقه عليهم[3] ؛ وذلك أن العبد إذا نذر لله طاعةً فوفى بها فإنما يفعل ذلك لكونها صارت حقًّا لله يجب الوفاء بها ، وهذا موجود فى حقوقه كلها ، فهى فى ذلك سواء .

ثم أخبر عنهم بأنهم يخافون اليوم العسير القمطرير[4] ، وهو يوم القيامة .

---

(١) فى قوله تعالى : (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيراً * ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكورا) [الآيات : ٧-٩] .

(٢) وفى : ساقطة من الأصل .

(٣) فى الدر المنثور للسيوطى ٦/٢٩٨ . « وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة : يوفون بالنذر ، قال : كانوا يوفون بطاعة الله من الصلاة والزكاة والحج والعمرة وما افترض عليهم فسماهم الله الأبرار لذلك .

(٤) وهو قوله تعالى: (إنا نخاف من ربنا يوماً عبوسا قمطريرا) [الآية ١٠] .

فني ضمن هـذا الخوف إيمانهم باليوم الآخر ، وكفهم عن المعاصى التى تضرهم فى ذلك اليوم ، وقيامهم بالطاعات التى ينفعهم فعلها ويضرهم تركها فى ذلك اليوم .

الآية الثامنة

ثم أخبر عنهم بإطعام الطعام على محبتهم له ، وذلك يدل على نفاسته عندهم وحاجتهم إليه ، وما كان كذلك فالنفوس به أشح ، والقلوب به أعلق ، واليد له أمسك ، فإذا بذلوه فى هذه الحال ، فهم لما سواه من حقوق العباد أبذل .

فذكر من حقوق العباد بذل قوت النفس على نفاسته وشدة الحاجة منبهاً على الوفاء بما دونه ، كما ذكر من حقوقه الوفاء بالنذر منبها على الوفاء بما هو فوقه وأوجب منه ، ونبَّه بقوله : ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [الآية : ٨] أنه لولا أن الله سبحانه أحب إليهم منه لما آثروه على ما يحبونه ، فآثروا المحبوب الأعلى على الأدنى .

الآية التاسعة

ثم ذكر أن مصرف طعامهم إلى المسكين واليتيم والأسير الذين لا قوة لهم ينصرونهم بها ، ولا مال لهم يكافئونهم به ، ولا أهل ولا عشيرة يتوقعون[1] منهم مكافأتهم كما يقصده أهل الدنيا والمعاوضون بإنفاقهم وإطعامهم .

ثم أخبر عنهم أنهم إنما فعلوا ذلك لوجه الله ، وأنهم لا يريدون ممَّن أطعموه عوضاً من أموالهم ولا ثناء عليهم بألسنتهم ، كما يريده من لا إخلاص له بإحسانه إلى / الناس من معاوضتهم أو الشُّكور منهم ؛ فتضمن ذلك المحبة والإخلاص والإحسان .

ظ ١١١

الآية العاشرة

ثم أخبر سبحانه عنهم بما صدقهم عليه قبل أن يقولوه حيث قالوا : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الآية ١٠] فصدقهم قبل قولهم ،

---

(١) فى الأصل : يتوقعوا .

إذ يقول تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الآية : ٧]، ثم أخبر سبحانه بأنه وقاهم شر ما يخافونه ولقّاهم فوق ما كانوا يأملونه.

الآية : ١١

الآيات : ١٢ ـ ٢٠

وذكر سبحانه أصناف النعيم الذى حَيَّاهُمْ به[1] من المساكن والملابس والمجالس والثمار والشراب والخدم والنعيم والملك الكبير[2] .

ولما كان فى الصبر من حبس النفس والخشونة التى تلحق الظاهر والباطن من التعب والنصب والحرارة ما فيه كان الجزاء عليه بالجنة التى فيها السعة ، والحرير الذى فيه اللين والنعومة ، والاتكاء الذى يتضمن الراحة ، والظلال المنافية للحر .

الآية : ٢١

ثم ذكر سبحانه لون ملابس [الأبرار][3] وأنها ثياب سندسٍ خضرٍ وإستبرق ، وحليتَهم وأنها أساور من فضة ، فهذه زينة ظواهرهم . ثم ذكر زينة بواطنهم ، وهو الشراب الطهور ، وهو بمعنى التطهير[4] .

فإن قيل : فلم اقتصر من آنيتهم وحليتهم على الفضة دون الذهب ؟ ومعلوم أن الجنان جنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما .

قيل : سياق هذه الآيات إنما هو فى وصف الأبرار ونعيمهم مفصَّلا دون تفصيل جزاء المقربين ، فإنه سبحانه إنما أشار إليه أشارة تنبِّه على ما سكت عنه ، وهو أن شراب الأبرار يمزج من شرابهم .

فالسورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التفصيل . وذلك ـ والله أعلم ـ

---

(١) حياهم به : كذا بالأصل ولهاوجه ، وأخشى أن تكون : حباهم به .

(٢) فى الآيات : ١٢ ـ ٢٠ .

(٣) الأبرار : زدتها ليستقيم الكلام .

(٤) فى قوله تعالى : (عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهوراً) [الآية ٢١] .

لأنهم أعمّ من المقرَّبين وأكثر منهم . ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنهم ثُلَّةٌ من الأوَّلين وثلة من الآخرين[١] ، وعن المقرّبين السابقين بأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين[٢] .

وأيضاً فإن فى ذكر جزاء الأبرار تنبيهاً على أن جزاء المقرّبين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وأيضاً ، فإنه سبحانه ذكر أهل الكفر وأهل الشكر . وأهل الشكر نوعان: أبرار أهل يمين ، ومقرّبون سابقون ، وكل مقرّب سابق فهو من الأبرار ، ولا ينعكس . فاسم الأبرار والمقربين كاسم الإسلام والإيمان أحدهما أعم من الآخر.

الآية : ٢٢

وأيضاً ، فإنه سبحانه أخبر أن هذا جزاء سعيهم المشكور[٣] ، وكل من الأبرار والمقربين سعيهم مشكور ، فذكر سبحانه السعى المشكور والسعى المسخوط

ص ١١٢

الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

ثم ذكَّر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بما أنعم / عليه من تنزيل القرآن عليه ، وأمره بأن يصبر لحكمه[٤] ، وهو[٥] يَعمُّ الحكم الدينى الذى أمره به فى نفسه وأمره بتبليغه ، والحكم الكونى الذى يجرى عليه من ربِّه ، فإنه سبحانه امتحن عباده وابتلاهم بأمره ونهيه ، وهو حكمه الدينى ، وابتلاهم بقضائه وقدره ، وهو حكمه الكونى ، وفرض عليهم الصبر على كل واحدٍ من الحكمين ، وإن

---

(١) هذه إشارة إلى الآيات ١١ ــ ١٤ من سورة الواقعة .

(٢) وهى إشارة إلى الآيات ٣٨ ــ ٤٠ من سورة الواقعة .

(٣) وذلك فى قوله تعالى : (إن هــذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) [الآية ٢٢] .

(٤) وذلك فى الآيتين ٢٣ ، ٢٤ : (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا * فاصبر لحكم ربك) .

(٥) فى الأصل : وهم .

كان الحكم الدينى فى هذه الآية أظهر إرادة ، وأنه أمرٌ بالصبر على تبليغه والقيام بحقوقه .

ولما كان صبره عليه لايتم إلا بمخالفته لمن دعاه إلى خلافه من كل آثم أو كفور ، نهاه عن طاعة هذا وهذا ، وأتى بحرف « أو » دون « الواو » ليدل على أنه منهى عن طاعة أيهما كان : إما هذا و إما هذا[١] ، فكأنه قيل له : لاتطع أحدهما ، وهو أعم فى النهى من كونه منهيًّا[٢] عن طاعتهما ، فإنه لوقيل له : لاتطعهما ، أو لاتطع آثماً وكفوراً لم يكن صريحاً فى النهى عن طاعة كل منهما بمفرده .

الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

ولمَّا كان لاسبيل إلى الصبر إلا بتعويض القلب بشىء هو أحب إليه من فوات مايصبر على فوته أمره بأن يذكر ربَّه سبحانه بكرة وأصيلا ـ فإن ذكره أعظم العون على تحمل مشاق الصبر ـ وأن يصبر لربه بالليل فيكون قيامه بالليل عوناً على ماهو بصدده بالنهار[٣] ، ومادةً لقوته ظاهراً وباطناً ، ولنعيمه عاجلاً وآجلا .

الآية : ٢٧

ثم أخبر سبحانه عمَّا يمنع العبد من إيثار مافيه سعادته فى الدنيا والآخرة ، وهو حب العاجلة وإيثارها على الآخرة تقديماً لداعى الحس على داعى العقل[٤] .

الآية : ٢٨

ثم ذكر سبحانه خلقهم وإحكامه وإتقانه بما شدَّ من أسرهم[٥] ، وهو ائتلاف الأعضاء والمفاصل والأوصال وما بينها[٦] من الرباطات وشد بعضها

---

(١) وذلك فى بقية آية ٢٤ : (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) .
(٢) فى الأصل : منهى .
(٣) فى قوله تعالى : (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا * ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) [الآيتان : ٢٥ ، ٢٦] .
(٤) قال تعالى : (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) [الآية ٢٧] .
(٥) وذلك فى أول آية ٢٨ : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) .
(٦) فى الأصل : وما بينهما .

ببعض ، وحقيقته [١] القوة ، ومنه قول الشاعر :

من كل مُجْتَنِبٍ شديدٍ أَسْرُهُ   سَلِسِ القِيادِ تَخَالُهُ مختالا [٢]

ولا يكون ذلك إلا فيما له شد ورباط ، ومنه الإسار ، وهو الحبل الذى يُشد به الأسير .

ثم أخبر سبحانه أنه قادر على أن يبدِّل أمثالهم بعد موتهم ، وأنه إذا شاء ذلك فعله [٣] . و « إذا » للمُحَقق ، فهذا التبديل واقع لامحالة ، فهو الإعادة التى هى مثل البداءة .

هذا هو معنى الآية ، ومن قال غير ذلك لم يصب معناها ، ولا توحشك لفظة « المثل » ، فإن المعاد مِثْلٌ للمبدوء و إن كان هو بعينه ، فهو مُعادٌ ، أو هو مثله من جهة المغايرة بين كونه مبدءًا ومعاداً .وهذا كالدار إذا تهدمت وأعيدت بعينها فهى الأولى ، وكذلك الصلاة المعادة هى الأولى وهى مثلها .

---

(١) فى الأصل : وحقيقية ـ بتشديد الياء الثانية ـ والوجه ما أثبت لأن الضمير فى قوله « حقيقته » عائد على الأسر .

(٢) البيت للأخطل فى ديوانه ، ص ٤٦ (ط . بيروت ، ١٨٩١) ؛ وتفسير الطبرى ٢٩ / ١٣٩ . وهو من قصيدته التى مطلعها :

كذبتك عينُك أم رأيتَ بوَاسطٍ   غلسَ الظّلام من الرّباب خيالا

وقبل بيت الشاهد :

أَبَنِي كُلَيْبٍ إن عَمَّيَّ اللذا   قتلا الملوكَ وفكّكا الأغلالا

وأخوهما السفّاح ظمَّأَ خيلَه   حتى وردْنَ جِبَى الكُلاَبِ نِهالا

يخرجن من ثُغرِ الكُلابِ عليهمُ   خَببَ السِّباعِ تبادر الأوشالا

من كل مجتنب ... .

قال شارح الديوان : « مجتنب : مفتعل من الجنيبة ، وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل ، فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل . وأسره : خلقه ، ومنه قوله جل وعز : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) ومختال : كان فيه اختيالا من فرحه ونشاطه » .

(٣) وذلك فى باقى آية ٢٨ : (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا)

ظ ١١٢

وقد نطق القرآن بأنه سبحانه/ يعيدهم و يعيد أمثالهم إذ شاء ، وكلاهما واحد فقال : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٥] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [سورة الروم : ٢٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة يس : ٨١]، وقال إنَّا لقادرون: ﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الواقعة : ٦١ ، ٦٢]

فهذا كله معاد الأبدان ، وقد صرح سبحانه بأنه خلق جديد فى موضعين من كتابه[١] . وهذا الخلق الجديد هو « المثل » .

الآية : ٢٩

ثم ختم سبحانه السورة بالشرع والقدر كما افتتحها بالخلق والهداية ، فقال: ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [الآية ٢٩] ، فهذا شرعه ومحل أمره ونهيه ؛ ثم قال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الاية ٣٠] ، فهذا قضاؤه وقدره ؛ ثم ذكر الاسمين المُوجبَيْن للتخصيص وهما اسم : العليم الحكيم[٢] .

الآية الثلاثون

وقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ، فأخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيئته ، ومع هذا فلا يوجب ذلك حصول الفعل منهم ، إذ أكثر مافيه أنه جعلهم شائين ، ولا يقع الفعل إلا حين يشاؤه منهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [سورة المدثر: ٥٥، ٥٦] وقال : ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [سورة التكوير: ٢٨ ، ٢٩] ، ومع هذا فلا يقع الفعل منهم حتى يريد من نفسه إعانتهم وتوفيقهم.

فهنا أربع إرادات : إرادة البيان ، وإرادة المشيئة ، وإرادة الفعل ، وإرادة الإعانة ، والله أعلم .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما.

(١) لعله يقصد الآية ١٩ من سورة إبراهيم والآية ١٦ من سورة فاطر ونص كل منهما : (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) .

(٢) وهو فى باقى الآية ٣٠ : (إن الله كان عليما حكيما) .



رِسَالة فِي قوله تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاة﴾



﴿ فصــــل ﴾

قال الله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةَ ﴾ [سورة البقرة : ٧٥] . ٤٥

قال على بن أبى طالب : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا انقطع الرأس بَارَ الجسد ، ألا لا إيمان لمن لاصبر له » .(١)

فالصبر على أداء الواجبات واجب ، ولهذا قرنه بالصلاة فى أكثر من خمسين موضعاً ، فمن كان لايصلى من جميع الناس - رجالهم ونسائهم - فإنه يؤمر ، فإن امتنع عوقب(٢) بإجماع المسلمين . ثم أكثرهم يوجبون قتل تارك الصلاة ، وهل يقتل كافراً مرتدًّا أو فاسقاً ؟ على قولين فى مذهب أحمد وغيره . والمنقول عن أكثر السلف يقتضى كفره ، وهذا مع الإقرار بالوجوب ، فأما [مع] جحود الوجوب(٣) فهو كافر بالاتفاق .

ومن ذلك تعاهد مساجد المسلمين وأئمتهم ، وأمرهم بأن يصلوا بهم صلاة النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى » رواه البخارى(٤) . وصلَّى مرةً بأصحابه على طرف المنبر وقال : إنما فعلت هذا لتأتموا بى ولتعلموا صلاتى .

فعلى إمام الصلاة أن يصلِّى بالناس صلاةً كاملة ، لايقتصر على مايجوز للمنفرد

---

(١) جاء فى « شرح نهج البلاغة » لابن أبى الحديد (ط . المعارف) ١/٣٢٤ : « من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : ... وعليكم بالصبر ، فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فكما لا خير فى جسد لا رأس له ، لا خير فى إيمان لا صبر معه » .

(٢) فى الأصل : عوقبوا .

(٣) فى الأصل: فأما جحود الوجوب .

(٤) هذا جزء من حديث رواه البخارى فى صحيحه ١/١٢٤ (كتاب الصلاة ، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة . . الخ) وأوله : « حدثنا مالك : أتينا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون . . الخ» ، ورواه مرة أخرى ٩/٨٦ - ٨٧ (كتاب خبر الواحد ، باب ما جاء فى إجازة خبر الواحد . . الخ) وروى الحديث عن مالك بن الحويرث أحمد فى مسنده (ط . الحلبى) ٥/٥٣ .

الاقتصار عليه إلا لعذر ، وكذلك على إمامهم فى الحج وأميرهم فى الحرب . ألا ترى الوكيل والولى فى البيع والشراء عليه أن يتصرف لموكله ولموليه على الوجه الأصلح له فى ماله ، وهو فى مال نفسه يفوت[على]نفسه[1] ماشاء ، فأمر الدين أهم ، ومتى اهتمت[2] الولاة بإصلاح دين الناس صلح الدين للطائفتين و الدنيا، وإلا اضطربت الأمور عليهم جميعاً .

وملاك ذلك حسن النية للرعية ، وإخلاص الدين كله لله عز وجل ، والتوكل عليه ، فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة ، كما أمرنا أن نقول فى صلاتنا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فهاتان الكلمتان[3] قد قيل إنهما تجمعان معانى الكتب المنزلة من السماء .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان مرة فى غزاة فقال : « يامالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين » فجعلت الرءوس تندر عن كواهلها[4] .

وقد ذكر ذلك فى غير موضع من كتابه كقوله عز وجل : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [سورة هود : ١٢٣] ، وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [سورة هود : ٨٨] ، [سورة الشورى : ١٠]. وكان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح أضحيته قال : « منك وإليك »[5] .

---

(١) فى الأصل : يفوت نفسه .

(٢) فى الأصل : اهمت .

(٣) فى الأصل : فهاتان الكلمتين .

(٤) ندر الشيء يندر ندوراً سقط . وفى الدر المنثور ١/ ١٤: «وأخرج أبو القاسم البغوى والماوردى معاً فى معرفة الصحابة ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الدلائل عن أنس بن مالك عن أبى طلحة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة فلق العدو ، فسمعته يقول : يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين . قال : فلقد رأيت الرجال تصدع ، تضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها » .

(٥) أخرج أبو داود فى سننه ٣ / ١٢٦ عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ذبح يوم الذبح كبشين أقرنين وأن مما قاله عند ذلك : « اللهم منك ولك عن محمد وأمته » . وانظر جامع الأصول ٤ / ١٤٨ - ١٤٩ .

وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن ، والإحسان إلى الناس بالنفع والمال الذى هو الزكاة ، والصبر / على أذى الخلق وغيره من النوائب . فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية ، و إذا عرف الإنسان ما يدخل فى هذه الأسماء الجامعة عرف [ما] يدخل فى الصلاة[١] من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، وفى الزكاة [من][٢] الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع : من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل معروف صدقة »[٣] ، فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة .

ط ٢٠٥

ففى الصحيح عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قدّمه ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئاً قدّمه ، وينظر أمامه فيستقبل النار ، فمن استطاع منكم أن يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة »[٤] .

وفى السنن « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه

---

(١) فى الأصل : إذا عرف الإنسان ... عرف يدخل فى الصلاة .. الخ .

(٢) من : ليست فى الأصل .

(٣) الحديث عن جابر فى البخارى ٨/١١ (كتاب الأدب ، باب كل معروف صدقة) ؛ وعن حذيفة فى : مسلم ٣/٨٢ (كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) .

(٤) الحديث فى البخارى ٨/١١٢ (كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب) ؛ مسلم ٣/٨٦ (كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار) ؛ سنن ابن ماجة ١/٦٦ (المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية) ، ص ٥٩٠ (كتاب الزكاة ، باب فضل الصدقة) .

طلق »[١] . وفى رواية : « ووجهك إليه منبسط ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى » .

وفى الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية [سورة هود : ٩ ـ ١١] .

وقال الحسن البصرى : « إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من بطنان العرش[٢] : ألا ليقم مَنْ أَجْرُه على الله ؛ فلا يقوم إلا من عفا وأصلح » .

وليس من حسن النية للرعية والإحسان إليهم أن يُفعل مايهوونه ويُترك مايكرهونه[٣] . قال تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [سورة المؤمنون : ٧١] . وقال لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [سورة الحجرات : ٧] .

---

(١) الحديث عن أبى ذر رضى الله عنه فى: مسلم ٨/٣٧ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء) ؛ وهو عن جابر رضى الله عنه فى سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ٨/١٤٦ ـ ١٤٧ (كتاب البر والصلة ، باب ما جاء فى طلاقة الوجه وحسن البشر) وفيه : « وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك » . وقال الترمذى : « وفى الباب عن أبى ذر » وقال : « هذا حديث حسن » .

(٢) فى لسان العرب (بطن) . « وفى الحديث : ينادى مناد من بطنان العرش ، أى من وسطه ، وقيل : من أصله ، وقيل : البطنان جمع بطن وهو الغامض من الأرض ، يريد : من دواخل العرش » .

(٣) فى الأصل : أنه تفعل ما يهوونه ويتركون ما يكرهونه .

رسالة في تحقيق التوكل



س ٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما . أما بعد ، فهذا :

﴿ فصل فى التوكل ﴾

التوكل عند طائفة مجرد عبادة لايحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة

قد ظن طائفة ممن تكلم فى أعمال القلوب أن التوكل لايحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرّة ، بل ما كان مقدَّراً بدون التوكل فهو مقدّر مع التوكل ، ولكن التوكل عبادة يُثاب عليها من جنس الرضا بالقضاء ، وذكر ذلك أبو عبدالله بن بطَّة فيما صنَّفه فى هذا الباب[1] . وقول هؤلاء يشبه قول من قال: إن الدعاء لايحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة ، بل هو عبادة يُثاب عليها كرمى الجمار ، وآخرون يقولون : بل الدعاء علامة وأمارة ، ويقولون ذلك فى جميع العبادات ، وهذا قول من ينفى الأسباب فى الخلق والأمر ويقول : إن الله يفعل عندها لابها ، وهو قول طائفة من متكلمى أهل الإثبات للقدر كالأشعرى وغيره ، وهو قول طائفة من الفقهاء والصوفية .

---

(١) هو أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبرى المعروف بابن بطة ، ولد سنة ٣٠٤ وتوفى سنة ٣٨٧ ، من كبار فقهاء الحنابلة والمحدثين ومن أهم مصنفاته : الإبانه الكبرى والإبانة الصغرى . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابله ٢ / ١٤٤ ـ ١٥٣ ؛ شذرات الذهب ٣ / ١٢٢ـ ١٢٤ ؛ الأعلام ٤ / ٣٥٤ .

ولعل الإشارة هنا إلى كتاب « الإبانة الكبرى » إذ أن المجلد الثانى منه يحتوى على أربعة أجزاء فى القدر . انظر تعليق الأستاذ فؤاد سيد على ترجمة ابن بطة فى العبر للذهبى ٣ / ٣٥ ؛ وانظر فهرس الخزانة التيمورية ٣/٤ (مطبعة دار الكتب المصرية ،١٣٦٩/١٩٥٠).

وأصل هذه البدعة من قول جهم ، فإنه كان غالياً[1] فى نفى الصفات وفى الجبر ، فجعل من تمام توحيد الذات نفى الصفات ، ومن تمام توحيد الأفعال نفى الأسباب ، حتى أنكر تأثير قدرة العبد ، بل نفى كونه قادراً ، وأنكر الحكمة والرحمة ، وكان يخرج إلى الجذمى فيقول : أرحم الراحمين يفعل كل هذا ؟ ! يعنى أنه يفعل بمحض المشيئة بلا رحمة ، وقوله فى القدر قد يقرب إليه الأشعرى ومن وافقه من الطوائف .

والذى عليه السلف والأئمة والفقهاء والجمهور وكثير من أهل الكلام إثبات الأسباب ، كما دلّ على ذلك الكتاب والسنة مع دلالة الحس والعقل ، والكلام على هؤلاء مبسوط فى مواضع أخر .

التوكل عند الجمهور يجلب المنفعة ويدفع المضرة وهو سبب عند الأكثرين

والمقصود هنا الكلام على التوكل ، فإن الذى عليه الجمهور أن المتوكل يحصل له بتوكله من جلب المنفعة ودفع المضرة مالا يحصل لغيره ، وكذلك الداعى ؛ والقرآن يدل على ذلك فى مواضع كثيرة . ثم هو سبب عند الأكثرين ، وعلامة عند من ينفى الأسباب ، قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [سورة الطلاق : ٢ ، ٣] ، والحَسْبُ الكافى فبين أنه كافٍ مَنْ توكل عليه ، وفى الدعاء : ياحَسْبَ المتوكل ، فلا يُقال : هو حسب غير المتوكل كما هو حسب المتوكل ، لأنه علّق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط ، فيمتنع فى مثل ذلك أن يكون وجود الشرط كعدمه ، ولأنه رتّب الحكم على الوصف المناسب له ، فعُلِم أن توكله هو سبب كونه حسباً له ، ولأنه ذكر ذلك فى سياق الترغيب فى التوكل كما رغّب فى التقوى ، فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية

ظ ٧٤

توكل المؤمن على الله هو سبب كونه حسباً له

---

(١) فى الأصل : غالبا .

ما لا يحصل لغيره لم يكن ذلك مرغبًا فى التوكل ، كما جعل التقوى سبباً للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب . وقد قال تعالى : ﴿ الذِينَ قَالَ لهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٣] ، فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكيل لمّا توكلوا عليه بقولهم : حسبنا الله ، أى كافينا الله : لا يستحق المدح إن لم يجلب لمن توكل عليه منفعة ويدفع عنه مضرة ، والله خير من توكل العباد عليه ، فهو نعم الوكيل : يجلب لهم كل خير ويدفع عنهم[١] كل شر .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [سورة المزمل : ٨ ، ٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [سورة الإسراء : ٢] فأمر أن يُتخذ وكيلا ، ونهى أن يُتخذ من دونه وكيلا ، لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد ، والوكالة الجائزة أن يُوَكِّل الإنسان فى فعل يقدر عليه ، فيحصل للموكِّل بذلك بعض مطلوبه ، فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلا الله ، وذلك الذى يوكِّله لا يفعل شيئاً إلا بمشيئة الله عز وجل وقدرته ، فليس له أن يتوكل عليه وإن وكَّله ، بل يعتمد على الله فى تيسير ما وكَّله فيه ، فلو كان الذى يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره ، أو يحصل بلا توكل ، لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلا أنفع من اتخاذ الخالق وكيلا ، وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنفال : ٦٤] ، أى الله كافيك وكافى من اتبعك من

---

(١) فى الأصل : لهم .

ص ٧٥ المؤمنين ، فلو كانت كفايته / للمؤمنين المتّبعين للرسول ـ سواء اتبعوه أو لم يتبعوه ـ لم يكن للإيمان واتباع الرسول ثمّ [أثر][1] فى هذه الكفاية، ولا كان لتخصصهم بذلك معنى ، وكان هذا نظير أن يقال : هو خالقك وخالق من اتّبعك من المؤمنين ، ومعلوم أن المراد خلاف ذلك .

وإذا كان الحسب معنى[2] يختص به بعض الناس ، علم أن قول المتوكل : حسبي الله ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [سورة الطلاق : ٣] أمر مختص لامشترك ، وأن التوكل سبب ذلك الاختصاص، والله تعالى إذا وعد على العمل بوعد أو خصّ أهله بكرامة ، فلابد أن يكون بين وجود ذلك العمل وعدمه فرق فى حصول تلك الكرامة ، وإن كان قد يحصل نظيرها بسبب آخر ، فقد يكفى الله بعض من لم يتوكل عليه كالأطفال، لكن لابد أن يكون للمتوكل أثر فى حصول الكفاية الحاصلة للمتوكلين ، فلا يكون ما يحصل من الكفاية بالتوكل حاصلا مطلقا وإن عدم التوكل ، وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤] ، فعقّب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهى تفيد السبب ، فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل ، وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل .

التوكل سبب نعمة الله وفضله

وفى الأثر : من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، فلو كان التوكل لايجلب منفعة ولا يدفع مضرة لم يكن المتوكل أقوى من غيره .

---

(١) كلمة (أثر) ليست فى الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٢) كلمة « معنى » لم يظهر منها غير الحروف الثلاثة الأخيرة ، ورجحت أن تكون كما أثبت

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [سورة الأحزاب : ١ ـ ٣] .

وقال فى أثناء السورة : ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الآية ٤٨] .

فأمره سبحانه بتقواه واتباع ما يوحى إليه وأمره بالتوكل ، كما جمع بين هذين الأصلين فى غير موضع كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود : ١٢٣] وقوله : ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل : ٨ ، ٩] ، وقوله تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود : ٨٨] ، وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] ، وقوله تعالى : ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [سورة الرعد : ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [سورة الطلاق : ٢ ، ٣] .

ظ ٧٥ وقوله تعالى فى الفاتحة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وعلم القرآن جمع فى الفاتحة ، وعلم الفاتحة فى هذين الأصلين : عبادة الله والتوكل عليه .

و إذا أفرد لفظ العبادة دخل فيه التوكل ، فإنه من عبادة الله تعالى كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [سورة البقرة : ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦] ، وإذا قرن به التوكل كان مأموراً به بخصوصه .

وهذا كلفظ الإسلام والإيمان والعمل ، ولفظ الصلاة مع العبادة ومع اتباع

الـكتاب ، ولفظ الفحشاء والبغى مع المنـكر ، ونظائر ذلك متعددة

فـكون اللفظ عند تجرده وإفراده يتناول أنواعاً ، وقد يُعطف بعض تلك الأنواع عليه فيـكون مأموراً به بخصوصه ، ثم قد يُقال : إذا عُطف لم يدخل فى المعطوف عليه ، وقد يُقال : بل أُمر به خاصًّا وعامًّا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَلاَئِـكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [سورة البقرة : ٩٨] ، وإذا كان الله أمره بالتوكل على الله ، ثم قال : ﴿ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ [سورة الأحزاب:٣] عُلم أن الله وكيل كاف لمن توكل عليه ، كما يقال فى الخطبة والدعاء : الحمد لله كافى من توكل عليه .

وإذا كان كفى به وكيلا فهذا مختص به سبحانه ، ليس غيره من الموجودات كفى به وكيلا ، فإن من يتخذ وكيلاً من المخلوقين غايته أن يفعل بعض الأمور ، وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله له ، وهو عاجز عن أكثر المطالب .

فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه كفى به وكيلا ، عُلم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لايحتاج معه إلى غيره فى جلب المنافع ودفع المضار ، إذ لو تبقى شر لم يكن كفى به وكيلا . وهذا يقتضى بطلان ظن من ظن[1] أن المتوكل عليه لا يحصل له بتوكله عليه جلب منفعة ولا دفع مضرة ، بل يجرى عليه من القضايا ما كان يجرى لو لم يتوكل عليه .

والذين ظنوا هذا أصل شبهتهم أنهم لما أثبتوا أن الله إذا قضى شيئا فلابد أن يكون ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن ما سبق به علمه فهو كائن لامحالة ، صاروا يظنون ما يوجد بسبب يوجد بدونه ، وما يوجد مع عدم المانع يوجد مع المانع .

---

(١) فى الأصل : وهذا يقتضى قول ظن لمن ظن ، وهى بينة التحريف .

وهذا غلط عظيم ضل فيه طوائف . طائفة قالت : لا حاجة إلى الأعمال المأمور بها ، فإن من خُلق للجنة فهو يدخلها وإن لم يؤمن ، ومن خُلق للنار فهو يدخلها و إن آمن .

وهذه الشبهة سئل عنها النبي صلى الله عليه وسلم لما قال : « ما منكم من أحدٍ إلا وقد عُلِمَ مقعده من الجنة والنار . قالوا : أوَلا / ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا ، اعملوا فكل مُيَسَّر لما خلق له ؛ أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فسييسر إلى عمل أهل الشقاء »[1] .

ص ٧٦

الأسباب ـ ومنها التوكل ـ من قدر الله

وهذا المعنى قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الصحيح فى مواضع تبيين أن ما سبق به الكتاب سُبق بالأسباب التى تفضى إليه ، فالسعادة سُبقت بأن صاحبها يُستعمل فيما يصير به سعيداً ، والشقاوة سبقت بأن صاحبها يُستعمل فيما يصير به شقيا ، فالقدر يتضمن الغاية وسببها ، لم يتضمن غاية بلا سبب ، كما تضمن أن هذا يُولد له بأن يتزوج و يطأ المرأة ، وهذا ينبت أرضه بأن يزرع ويسقى الزرع وأمثال ذلك .

وكذلك فى السنن أنه قيل له : «يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها ورُقى نسترقيها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا ؟[2] فقال : هى من قدر الله»[3] ،

---

(١) هذا الحديث مروى مع اختلاف فى اللفظ عن على رضى الله عنه فى أكثر كتب السنة وفى عدة مواضع. انظر مثلا : البخارى ٨/١٢٣ ـ ١٢٤ (كتاب القدر ، باب وكان أمر الله قدراً مقدورا) ؛ مسلم ٨/٤٦ (كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه . . الخ) ؛ سنن أبى داود ٤ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨ (كتاب السنة ، باب القدر) ؛ المسند (ط . المعارف) الأرقام : ٦٢١ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١١١٠ ، ١١٨١ ، ١٣٤٨ ، وانظر مفتاح كنوز السنة : القدر .

(٢) فى الأصل : هل ترد من قدر الله فينا ، وأكثر الروايات التى رأيتها فيها : . . من قدر الله شيئا .

(٣) الحديث مروى عن أبى خزامة رضى الله عنه فى سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ٨/٢٢٤ (كتاب الطب ، باب ما جاء فى الرقى والأدوية) وقال الترمذى : هذا حديث =

بيّن أن الأسباب التى تُدفع بها المكاره هى من قدر الله ، ليس القدر مجرد دفع المكروه بلا سبب .

وكذلك قول من قال : إن الدعاء لا يؤثر شيئا والتوكل لا يؤثر شيئا هو من هذا الجنس ، لكن إنكار ما أُمر به من الأعمال كفر ظاهر ، بخلاف تأثير التوكل[١] ، لكن الأصل واحد ، وهو النظر إلى المقدور مجرّداً عن أسبابه ولوازمه . ومن هذا الباب أن المقتول يموت بأجَله عند عامة المسلمين ، إلا فرقة من القدرية قالوا إن القاتل قطع أجله ، ثم تكلم الجمهور : لو لم يقتل ؟ فقال : بعضهم : كان يموت لأن الأجل قد فرغ ، وقال بعضهم : لا يموت لانتفاء السبب .

وكلا القولين قد قاله من ينتسب إلى السنة ، وكلاهما خطأ ، فإن القدر سبق بأنه يموت فبهذا السبب لا بغيره ، فإذا قُدِّر انتفاء هذا السبب كان فرض خلاف ما فى المقدور ، ولو كان المقدور أنه لايموت بهذا السبب أمكن أن يكون المقدَّر أنه يموت بغيره ، وأمكن أن يكون المقدر أنه لا يموت ، فالجزم بأحدهما جهل ، فما تعددت أسبابه لم يُجزم بعدمه عند عدم بعضها ، ولو لم يُجزم بثبوته إن لم يعرف له سبب آخر ، بخلاف ما ليس له إلا سبب واحد ، مثل دخول النار فإنه لا يدخلها إلا من عصى ، فإذا قُدِّر أنه لم يعص لم يدخلها .

نصر الله مع التوكل عليه

ظ ٧٦

قال تعالى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٩ ، ١٦٠] ، فأمره إذا عزم أن

= حسن صحيح ، ٨/٣١٥ (كتاب القدر ، باب ماجاء لاترد الرقى ولا الدواء من قدر الله شيئا) ؛ سنن ابن ماجه ٢ / ١١٣٧ (كتاب الطب ، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣ / ٤٢١ .

(١) فى الأصل : المتوكل .

يتوكل على الله ، فلو كان المتوكل لا يعينه على مثل ما عزم عليه لم يكن به عند العزم فائدة ، يبين سبحانه أنه هو الناصر دون غيره فقال : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فنهى عن التوكل على غيره ، وأمر بالتوكل عليه ليحصل للمتوكل عليه النصر الذى لا يقدر عليه غيره ، وإلا فالمتوكل على غيره يطلب منه النصر ، فإن كان ذلك المطلوب لا يحصل منه لم يكن لذكر انفراده بالنصر معنى ، فإنه على هذا القول نَصْرُه لمن توكل عليه كنصره لمن لم يتوكل عليه ، وهذا يناقض مقصود الآية ، بل عند هؤلاء قد ينصر من يتوكل على غيره ولا ينصر من توكل عليه ! فكيف يأمر بالتوكل عليه دون غيره مقرونا بقوله: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهِ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [سورة الزمر : ٣٦] ، إلى قوله : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٨] ، فبيَّن أن الله يكفى عبده : الذى يعبده ، الذى هو من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، الذين هم من عباده المخلصين ، الذين هم من عباد الرحمن ، الذين يمشون على الأرض هَوْناً ، الذين هم من عباد الله الذين يشربون من عين يفجِّرونها تفجيرا .

ومثل هذا قوله: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [سورة الإسراء : ١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [سورة الجن : ١٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [سورة البقرة : ٢٣] ونظائر ذلك متعددة ، ثم أمره بقوله : ﴿ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

توكل المرسلين يدفع عنهم شر أعدائهم

وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [سورة يونس : ٧١] .

وكذلك قال عن هود لما قال لقومه : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة هود : ٥٤ ـ ٥٦] ، فهذا من كلام المرسلين مما يبين أنه بتوكله على الله يدفع شرهم عنه .

فنوح يقول : ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ، فدعاهم إذا استعظموا ما يفعله كارهين له أن يجتمعوا ثم يفعلوا به ما يريدونه من الإهلاك ، وقال تعالى : ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فلولا أن[1] تحقيقه هذه الكلمة ، وهو توكله على الله ، يدفع ما تحداهم به ودعاهم إليه تعجيزاً لهم من مناجزته ، لكان قد طلب منهم أن يهلكوه ، وهذا لا يجوز ، وهذا طلب تعجيز لهم ، فدل على أنه بتوكله على الله يعجزهم عما تحداهم به .

وكذلك هود يُشهد الله وإياهم أنه بريء مما يشركونه بالله ، ثم يتحداهم ويعجزهم بقوله : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى

---

(١) في الأصل : أنه .

الله رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابة إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ ، بيّن أنه توكّل على من أخذ بنواصى الأنفس و بسائر الدواب ، فهو يدفعكم عنى لأنى متوكل عليه ، ولو كان وجود التوكل كعدمه فى هذا لكان قد أغراهم بالإيقاع به ، ولم يكن لذكر توكله فائدة ، إذ كان حقيقة الأمر عند هؤلاء أنه لا فرق بين من توكل ومن لم يتوكل فى وصول العذاب عليه ، وهم كانوا أكثر وأقوى منه ، فكانوا يهلكونه لولا قوته بتوكله عليه ، فإن التوكل إن لم يعطه قوة فهم أقوى منه ، وهو لو قال بأن الله مولاى وناصرى ونحو ذلك لعُلم أنه [قاله] مخبراً[1] ، فالله يدفعهم عنه ، وإنما يدفعهم لإيمانه وتقواه ، ولأنه عبده ورسوله .

والله تعالى مع رسله وأوليائه ، فإذا كان بسبب الإيمان والتقوى يدفع الله عن المؤمنين المتقين كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [سورة الحج : ٣٨] ، عُلم أن العبد تقوم به أعمال باطنة وظاهرة يجلب بها المنفعة ويدفع بها المضرة ، فالتوكل من أعظم ذلك ، وعُلم أن من ظن أن المقدور من المنافع والمضار ليس معلقًا بالأسباب بل يحصل بدونها فهو غلط .

غلط من أنكر الأسباب أو جعلها مجرد أمارة وعلامة

وكذلك قول من جعل ذلك مجرد أمارة وعلامة ، لاقتران هذا بهذا فى غير موضع من القرآن فى خلقه وأمره ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٧] ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [سورة الحاقة : ٢٤] ، وقوله تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة السجدة: ١٧][3] .

---

(١) فى الأصل : لعلم أنه مخبرا .

(٢) فى الأصل : سبب .

(٣) فى الأصل : (جزاء بما كنتم تعملون) وهو سهو من الناسخ أو المؤلف .

ظ ٧٧ / وأنكر تعالى على من ظن وجود الأسباب كعدمها فى قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [سورة القلم : ٣٥] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [سورة ص : ٢٨] ، وأمثال ذلك .

وهؤلاء الذين يقولون بالجبر قالوا بالأمر والنهى : حقيقته أنه إعلام بوقوع العذاب بالمعاصى بمحض المشيئه لا لسبب ولا لحكمة ، فقلبوا حقيقة الأمر[1] والنهى إلى الجبر ، كما أبطلوا الأسباب والحِكَم وأبطلوا قُدَر العباد ، وهم وإن كانوا يردون على القدرية ، ويذكرون من تناقضهم ما يبين به فساد قول القدرية ، فردوا باطلا بباطل ، وقابلوا بدعة ببدعة ، كرد اليهود على النصارى ، والنصارى على اليهود مقالتهم فى المسيح ، وكلا المقالتين باطلة ، وكذلك تقابل الخوارج والشيعة فى علىّ ، كلاهما باطل على باطل ، ونظائره متعددة .

﴿ فصل ﴾

فرض الله الدعاء على العباد لافتقارهم إلى هدايته

وإن ما[2] فرض عليه من الدعاء الراتب الذى يتكرر [فى] الصلوات[3] ، بل الركعات ، فرضها ونفلها ، هو الدعاء الذى تضمنته أم القرآن ، وهو قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، لأن كل عبد فهو مضطر دائما إلى مقصود هذا الدعاء ، وهو هداية الصراط المستقيم ، فإنه لا نجاة من العذاب إلا بهذه الهداية ، ولا وصول

---

(١) فى الأصل : الآية ، وهو تحريف .
(٢) رسمت فى الأصل : وإنما ، موصولة .
(٣) فى الأصل : من الدعاء الراتب التى يتكرر الصلوات .

إلى السعادة إلا به ، فمن فاته هذا الهدى فهو إما من المغضوب عليهم وإما من الضالين .

وهذا الاهتداء لا يحصل إلا بهدى الله ، فمن يهده[1] الله فهو المهتدى ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [سورة الكهف : ١٧] . وهذه الآية مما يتبين بها فساد مذهب القدرية الذين يزعمون أن العبد لا يفتقر فى حصول هذا الاهتداء إلى الله ، بل كل عبد عندهم معه ما يحصل به الاهتداء ، والكلام عليهم مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أن كل عبد فهو مفتقر دائماً إلى حصول هذه الهداية . وأما سؤال من يقول : فقد هداهم إلى الإيمان فلا حاجة إلى الهدى ، وجواب من يجيب بأن المطلوب دوام الهدى ، فكلام من لم يعرف حقيقة حال الأسباب وما أمر به ، فإن الصراط المستقيم أن تفعل فى كل وقت ما أُمرت به فى ذلك الوقت من علم وعمل ولا تفعل ما نهيت عنه ، وهذا يحتاج إليه فى كل وقت/: إلى أن يعلم ما أمر به فى ذلك الوقت وما نهى عنه ، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور ، وكراهة جازمة لترك المحظور . وهذا[2] العلم المفصَّل والإرادة المفصَّلة لا يتصور أن تحصل للعبد فى وقت واحد ، بل فى كل وقت يحتاج أن يجعل الله فى قلبه من العلوم والإرادات ما يُهدى به فى ذلك الوقت . نعم حصل له هدى مجمل ، فإن القرآن حق ، ودين الإسلام حق ، والرسول ونحو ذلك ، ولكن هذا الهدى المجمل لا يعينه إن لم يحصل له هدى مفصل فى كل ما يأتيه و يدبِّره من الجزئيات التى يحار فى كثير منها أكثر عقول الخلق ، ويغلب الهوى أكثر الخلق لغلبة الشبهات والشهوات على النفوس .

ص ٧٨

(١) فى الأصل : فمن يهديه .
(٢) فى الأصل : وهذه .

والإنسان خلق ظلوماً جهولا ، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى مايهواه من الشر ، فيحتاج دائما إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل فى محبته و بغضه ، ورضاه وغضبه ، وفعله و تركه ، و إعطائه ومنعه ، و كل ما يقوله و يعمله يحتاج فيه إلى عدل ينافى ظلمه ، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصَّل والعدل المفصَّل ، وإلا كان فيه من الجهل والظلم مايخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال تعالى لنبيه بعد صلح الحديبية و بيعة الرضوان : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً * وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزاً ﴾ [سورة الفتح : ١-٣] ، فأخبر أنه فعل هذا ليهديه صراطاً مستقيما ، فإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟ .

والصراط المستقيم قد فُسِّر بالقرآن ، والإسلام ، وطريق العبودية ، وكل هذا حق ، فهوموصوف بهذا وبغيره ، فحاجته إلى هذه الهداية ضرورية فى سعادته ونجاته ، بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر ، فإن الله يرزقه ، وإذا انقطع رزقه مات ، والموت لابد منه ، فإن كان من أهل الهداية كان سعيدا ، وإن كان بعد الموت ، وكان الموت موصلا له إلى السعادة الدائمة الأبدية ، فيكون رحمة فى حقه وكذلك النصر إذا قُدِّر أنه قُهر وغُلب حتى قتل ، فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيداً ، وكان القتل من تمام نعمة الله عليه . فتبين أن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق ، بل لا نسبة بينهما ، فلهذا كان هذا الدعاء هو المفروض عليهم .

وأيضا ، فإن الدعاء يتضمن الرزق والنصر، لأنه إذا هُدِيَ الصراط المستقيم كان من المتقين ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، وكان ممن ينصر الله ورسوله ، ومن نصر الله نصره وكان من جند الله ، وجند الله هم الغالبون ، فالهدى التام يتضمن حصول أعظم مايحصل به الرزق والنصر .

رسالة في تحقيق الشكر



﴿ فصـــل ﴾

يتعلـــق بالشكر(١)

الجبرة والقدرية والملاحدة لا يحمدون الله ولا يشكرونه

اعلم أن أهل البدع القدرية من الجهمية المجبرة والقدرية النافية لا يحمدون الله ولا يشكرونه كما أنهم لا يعبدونه ، وأما أهل الإلحاد من المتفلسفة والباطنية فهم أبعد عن حمده وشكره .

مقالة المجبرة

وذلك أن المجبرة حقيقة قولهم أنه ليس برحيم ولا مُنعم ، بل ولا إله يستحق أن يُعبد ويُحب ، بل صدور الإحسان عنه كصدور الإساءة ، وإنما هو يفعل بمحض مشيئة ترجِّح الشيء على مثله لا لمرجِّح ، وكل الممكنات عندهم متماثلة ، فلا فرق بين أن يريد رحمة الخلق ونفعهم والإحسان إليهم ، أو يريد فسادهم وهلاكهم وإضرارهم ؛ يقولون : هذا كله عنده سواء .

ومعلوم أن الإنعام إنما يكون إنعاماً إذا قَصد به المُنعِم نفع المنعَم عليه دون إضراره ، وأما إذا قصد الأمرين ، فهذا ليس جعله منعماً مصلحاً بأولى من جعله معتدياً مفسداً ، كمن بيده سيف يضرب به صديق الإنسان تارة وعدوه أخرى ، أو معه دراهم يقوّى بها تارة ويقوِّيه بها تارة(٢) ، فهذا ليس كونه محسناً إليه بأولى من كونه ضارًّا له ومحسناً إلى عدوه .

مقالة القدرية النافية

وأما النافية فعندهم أن هذا كله واجب عليه : البيان ، وخلق القدرة ، وإزاحة العلل ، والجزاء . ومن فعل الواجب الذى يستحقه غيره عليه لم يستحق الشكر المطلق .

---

(١) يتعلق بالشكر : زيادة فى (ع) .

(٢) الكلام فيه اختصار والمقصود : يقوى بها صديقه تارة ويقوى بها عدوه تارة .

وأيضا ، إنعامه بالهدى على المؤمنين [١] والكفار سواء ، فشكر المؤمنين له على الهدى كشكر الكفّار عليه ، إذ لم ينعم على المؤمنين [١] بنفس الهدى بل هم اهتدوا بقدرتهم ومشيئتهم ، وإذن كان إنعامه على النوعين سواء ، ولكن هؤلاء هم الذين فعلوا ما يسعدون به .

مقالة المتفلسفة

والمتفلسفة : أرسطو وأتباعه – عندهم أنه لا يفعل شيئاً ولا يريد شيئاً ولا يعلم شيئاً ولا يخلق شيئاً ، فعلى أى شىء يُشكر ، أم على أى [٢] شىء يُحمد ويُعبد ؟ !

مقالة باطنية الشيعة والتصوفة

والباطنية : باطنية الشيعة والمتصوفة كابن سبعين [٣] وابن عربى [٤] – هم فى الباطن كذلك ، بل يقولون : الوجود واحد : وجود المخلوق هو وجود الخالق ، فيجب أن يكون كل موجود عابداً لنفسه شاكراً لنفسه حامداً لنفسه .

مقالة ابن عربى

وابن عربى يجعل الأعيان ثابته فى العدم ، وقد صرّح بأن الله لم يُعْطِ أحداً شيئاً ، وأن جميع ما للعباد فهو منهم لا منه ، وهو مفتقر إليهم لظهور وجوده فى أعيانهم ، وهم مفتقرون إليه لكون أعيانهم ظهرت فى وجوده ؛ فالربُّ إن ظهر

(١ – ١) : ساقط من (ك) .

(٢) أى : ساقطة من (ع) .

(٣) أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر المعروف بابن سبعين ، ولد سنة ٦١٣ وتوفى سنة ٦٦٩ . انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ٥ / ٣٢٩ – ٣٣٠ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١ / ١٧٧ ؛ لسان الميزان ٣/٣٩٢ ؛ فوات الوفيات ١/٥١٦ – ٥١٨ ؛ نفح الطيب ٢ / ٣٩٥ – ٤٠٦ ؛ الأعلام ٤ / ٥١ .

(٤) أبو بكر محي الدين محمد بن على بن محمد الحاتمى الطائى الأندلسى المعروف بابن عربى أو ابن العربى . ولد بمرسية بالأندلس سنة ٥٦٠ وتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ . انظر ترجمته ومصنفاته فى : نفح الطيب ٢ / ٣٦١ – ٣٨٤ ؛ شذرات الذهب ٥ / ١٩٠ – ٢٠٢ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١ / ١٦٣ ؛ ميزان الاعتدال ٣ / ٦٥٩ – ٦٦٠ ؛ لسان الميزان ٥/٣١١ – ٣١٥ ؛ فوات الوفيات ٣/٤٧٨ – ٤٨٢ ؛ إبراهيم بن عبدالله القارىء : مناقب ابن عربى ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٥٩ ؛ الأعلام ٧/١٧٠ – ١٧١ .

فهو العبد ، والعبد إن بطن فهو الرب[(١)] . ولهذا قال : لا تحمد ولا تشكر إلا نفسك ، فما فى أحد من الله شىء ، ولا فى أحد من نفسه شىء[(٢)] . ولهذا قال : إنه يستحيل من العبد أن يدعوَه لأنه يشهد أحدية العين ، / فالداعى هو المدعو ، فكيف يدعو نفسه ؟[(٣)] وزعم أن هذا هو خلاصة غاية الغاية ، فما بعد هذا شىء . وقال : فلا تطمع أن ترقى فى أعلى من هذه الدرج ، فما ثَمَّ شىء أصلا ، وإن هذا إنما يعرفه خلاصة خلاصة خاصة الخاصة من أهل الله .

ص ١٣٧

فصرَّح بأنه ليس بعد وجود المخلوقات وجود يَخْلُق ويرزق ويُعبد . ولهذا كان صاحبه القاضى يقول :

ما الأمر إلا نسقٌ واحدٌ ما فيه من حمدٍ ولا ذمٍّ
وإنما العادةُ قد خصَّصت والطبعُ والشارعُ بالحكمِ[(٤)]

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ

---

(١) انظر مثلا ما يذكره فى « فصوص الحكم » ١ / ٧٧ : « فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، فهو عين ماظهر ، وهو عين مابطن فى حال ظهوره، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من يبطن عنه ، فهو ظاهر لنفسه باطن عنه ، وهو المسمى أبا سعيد الخراز وغير ذلك من أسماء المحدثات . . الخ » .

(٢) انظر مثلا ما يذكره فى المرجع السابق ١ / ٨٣ : « فلا تحمد إلا نفسك ولا تذم إلا نفسك ، وما يبقى للحق إلا حمد إفاضة الوجود لأن ذلك له لا لك ، فأنت غذاؤه بالأحكام وهو غذاؤك بالوجود . .الخ» . وانظر كذلك ١/٩٦ : «فما أعطاه الخير سواه ، ولا أعطاه ضد الخير غيره ، بل هو منعم ذاته ومعذبها ، فلا يذمن إلا نفسه ولا يحمدن إلا نفسه . . وليس وجود إلا وجود الحق بصور أحوال ماهى عليه الممكنات فى أنفسها وأعيانها » .

(٣) انظر مثلا المرجع السابق ١٨٣/١ : «قال تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوه الداع إذا دعان) إذ لا يكون مجيباً إلا إذا كان من يدعوه ، وإن كان عين الداعى عين المجيب ، فلا خلاف فى اختلاف الصور ... الخ » .

(٤) أورد ابن تيمية هذين البيتين فى مواضع من رسائله ولم أتبين من كلامه من هو قائلهما . انظر : مجموعة الرسائل والمسائل ١ / ١٧٨ ـ ١٧٩ (وفيها : والشارع فى الحكم).وقارن ذلك بما فى نفس المجموعة ٤ / ٢٣ ؛ مجموع فتاوى شيخ الإسلام (ط . الرياض) ٢ / ٩٩ .

﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ﴾ الآية [سورة النحل: ٥٣، ٥٤] إلى قوله سبحانه : ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الآية : ٥٧] . وهذه الآيات كما تناولت ذم الذين جعلوا له شريكا وولداً ، فتناولها لذم هؤلاء الملاحدة أعظم .

كفر باطنية المتصوفة أعظم من كفر الفلاسفة

فإن القائلين بقدم العالم وأنه معلول جعلوه كله والدلالة[1] قديماً أزليًا معه ، وهذا أعظم من قول أولئك . والذين لم يجعلوه معلولا له قالوا : إنه قديم معه واجب الوجود[2] مماثل له ، بل وجعلوا الفلك هو الذى[3] تحدث عنه الحوادث ، لكن حركته للشبه به[4] . وهذا أعظم من كل شركٍ فى العالم ، ومن شرك المجوس والحرنانيين ، فإن أولئك وإن جعلوا معه قديماً : إما الظلمة — وهى إبليس — عند المجوس ، وإما النفس والهيولى عند الحرنانيين ، فهم يقولون : إنه أحدث العالم ، وأنه ركّبه من النفس والهيولى القديمَيْن ، وركّبه من أجزاء النور والظلمة[5] .

ولهذا ذكر محمد بن كعب[6] وغيره عن المجوس والصابئة أنهم قالوا عن الله : لولا أولياؤه لذل . فأنزل الله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ [سورة الإسراء : ١١١][7] ، فإنهم يجعلونه محتاجاً إلى من يعاونه إذ كان

---

(١) والدلالة : كذا فى النسختين .

(٢) الوجود : ساقطة من (ك) .

(٣) عبارة « هو الذى » : ساقطة من (ك) .

(٤) ع : كتشبيه به ؛ ك : لتشبيه به .

(٥) انظر مقالة المجوس والحرنانيين فى : الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ١ / ٣٤ ومابعدها ؛ الملل والنحل للشهرستانى ١ / ٢١٠ ومابعدها ، ٢ / ٥٢ — ٦١ .

(٦) قال ابن حجر فى « تقريب التهذيب » ٢ / ٢٠٣ : « محمد بن كعب بن سليم بن أسد ، أبو حمزة القرظى المدنى ، وكان قد نزل الكوفة مدة ، ثقة عالم ، من الثالثة ، ولد سنة أربعين على الصحيح . . مات محمد سنة عشرين (ومائة) وقيل قبل ذلك » .

(٧) أخرج الطبرى فى تفسيره (ط . بولاق) ١٥ / ١٢٦ : « .. عن القرظى أنه كان يقول فى هذه الآية : (الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) الآية . قال : إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً . وقالت العرب لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك . وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله لذل الله . فأنزل الله : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل) وكبره أنت يامحمد على مايقولون تكبيراً » .

مغلوباً من وجهٍ مع القدماء معه ، كما هو غالبٌ من وجهٍ .

وكفر أولئك أعظم ، فإنهم لم يجعلوا له تأثيراً فى الفلك ولا تصرفاً بوجه من الوجوه ، فهؤلاء تنقّصوه وسلبوه الربوبية والإلهية أعظم من أولئك ، وجعلوه مع الفلك مغلوباً من كل وجهٍ لا يقدر أن يفعل فيه شيئاً ، وكقول عبدة الأوثان : هو أجلُّ من أن نعبده بل نعبد الوسائط ، وهو أجلُّ من أن يبعث بشراً رسولا ؛ فجحدوا توحيده ورسالته على وجه التعظيم له . وكذلك المجوس الثنوية أثبتوا الظلمة تنزيهاً له عن فعل الشر ، والحَرْنَانِيُّون أثبتوا معه النفس والهيولى قديمَيْن تنزيهاً له عن إحداث العالم بلا سبب ؛ فالأمم كلهم يعظِّمونه ، لكن تعظيما يستلزم شبهةً وسبَّةً .

كل ما بالخلق من نعمة فمن الله

والمقصود هنا قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [سورة النحل : ٥٣]، وقوله عز وجل : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية : ١٣] (١) ، فالأمر ضد ما قاله هؤلاء الملاحدة : ابن عربى ونحوه ــ حيث قالوا : ما فى أحد من الله شيء . فيقال لهم : بل كل ما بالخلق من نعمة فمن الله وحده .

ظ ١٣٧

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من قال إذا أصبح : اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ، فقد أدى شكر ذلك [اليوم] ، ومن قال إذا أمسى : اللهم ما أمسى بى من نعمة أو بأحد من خلقك ، فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ، فقد أدَّى شكر تلك الليلة » رواه أبو داود وغيره (٢) .

(١) فى (ع) كتبت كلمة « السموات » فى الآية ثم شطبت ولم تكتب عبارة « وما فى » بعدها ، و (ك) لم يكتب الناسخ عبارة « السموات وما فى » كلها ، مما يرجح أن نسخة (ك) نقلت عن (ع) أو أنهما نقلتا عن نسخة ثالثة .

(٢) اليوم : ساقطة من النسختين . والحديث مع اختلاف فى اللفظ عن عبدالله بن غنام البياضى رضى الله عنه فى سنن أبى داود ٤/٤٣٥ (كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح) وهو فى الأذكار للنووى ، ص ٧٤ (ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٧١/١٩٥٢) وقال إن إسناده جيد .

فكل ما بالخلق من النعم فمنه وحده لا شريك له ، ولهذا هو سبحانه يجمع بين الشكر والتوحيد ، فني الصلاة أول الفاتحة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وأوسطها : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . والخُطَب وكل أمرٍ ذى بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم[1]. وعن ابن عباس : إذا قلت : لا إله إلا الله ، فقل : الحمد لله ، فإن الله يقول : ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة غافر : ٦٥][2] .

وفى حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يصبح : الحمد لله ربِّى لا أشرك به شيئاً ، أشهد أن لا إله إلا الله ، ظلَّ تُغفر له ذنوبه حتى يمسى ، ومن قالها حين يُمسى غُفرت له[3] ذنوبه حتى يصبح » . رواه أبان المحاربى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كما ذكره ابن عبد البر وغيره[4] .

فالحمد أول الأمر : كل أمر ذى بالٍ لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم ، والتوحيد نهايته . ولهذا كان النصف من الفاتحة الذى هو لله أوله[5] حمد وآخره توحيد : إياك نعبد .

والحمد رأس الشكر ، فالحامد يشكره أولا على نعمه[6] ، ثم يعبده وحده ، فإن العبد أول ما يعرف ما يحصل له من النعمة ، مثل خلقه حيًّا ، وخلق طرق العلم : السمع والبصر والعقل .

---

(١) فى النسختين : والخطب كل أمر .. الخ . وكأن ابن تيمية قد جمع بين معنى أحاديث فى الباب رواها أبو داود وابن ماجة والترمذى . انظر الأذكار للنووى ، ص ٢٤٩ .

(٢) ذكر هذا الأثر بمعناه السيوطى فى الدر المنثور ٥/٣٥٧ وقال أخرجه ابن جرير وابن المنذر والحاكم ــ وصححه ــ وابن مردويه والبيهقى فى « الأسماء والصفات » .

(٣) له : ساقطة من (ع) .

(٤) ذكر ابن عبد البر الحديث فى ترجمة أبان المحاربى رضى عنه الله فى « الاستيعاب » ١ / ٤٨ (بذيل الإصابة ، ط . التجارية ، ١٣٥٨ / ١٩٣٩) . وذكره ابن السنى فى « عمل اليوم والليلة » ، ص ٢١ (ط. حيدرآباد) وفيهما : ما من مسلم يقول إذا أصبح . . الخ .

(٥) فى النسختين : أول ، وهو تحريف . (٦) ع : على نعمة .

وقد تنازع الناس فى أول ما أنعم الله على العبد ، فقيل : هو خلقه حيًّا أو خلق الحياة ؛ كما قال ذلك من قاله من المعتزلة . وقيل : بل إدراك اللذات ونيل الشهوات ، كما يقوله الأشعرى ومن وافقه من الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره ، كالقاضى أبى يعلى فى أحد قوليه . ومن أصحاب أحمد وغيرهم من قال : بل أولها هو الإيمان ، ولم يجعل ما قبل الإيمان نعمة بناء على أن[1] تلك لا تصير نعماً إلا بالإيمان ، وأن الكافر ليس عليه نعمة . وهذا أحد قولى الأشعرى وأحد القولين لمتأخرى أصحاب أحمد وغيرهم كأبى الفرج .

نعمة الله على الكفار وغيرهم ولكن نعمته المطلقة على المؤمنين

والصحيح أن نعمة الله على كل أحد : على الكفّار وغيرهم ، لكن النعمة المطلقة التامة هى على الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين الذين أُمرنا أن نقول فى صلاتنا : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فإن جُعلت « غير » صفة لا استثناء فيها لم يدخل المغضوب عليهم ولا الضالون فى المنعَم عليهم ، وإن جعلت استثناء فقد دخلوا فى المنعَم عليهم ، لكن رجَّحوا الأول فقالوا ـ واللفظ للبغوى ـ « : غير ههنا بمعنى[2] لا ، ولا[3] بمعنى غير ، ولذلك[4] جاز العطف [عليها][5] ، / كما يُقال : فلان غير محسن ولا مجمل ، فإذا كان « غير » بمعنى « سوى » فلا يجوز العطف عليها بلا . لا يجوز فى الكلام : عندى سوى عبد الله ولا زيد[6] . وقد رُوى عن عمر أنه قرأ[7] : صراط من أنعمت عليهم غير

ص ١٣٨

(١) أن : ساقطة من (ع) .
(٢) بمعنى : ساقطة من (ك) .
(٣) فى النسختين « لا » والتصويب من تفسير البغوى ١ / ٥٤ .
(٤) ك : وكذلك .
(٥) عليها : ساقطة من النسختين وزدتها من تفسير البغوى .
(٦) المنقول عن البغوى إلى هذا الموضع هو نص كلام الكوفيين . انظر معانى القرآن للفراء ١ / ٨ ، ط . دار الكتب ، ١٣٧٤/١٩٥٥ .
(٧) فى تفسير البغوى : وقرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

المغضوب عليهم وغير الضالين » .

وهذا قد ذكره غير واحد من أهل العربية ومثّلوه بقول القائل : إنّى لأمر بالصادق غير الكاذب . قالوا : و « غير » هنا صفة ليست للاستثناء ، وأصل « غير » أن تكون صفة ، وهى فى الآية صفة ، ولهذا خُفضت كأنه قيل : صراط المنعم عليهم المغايرين لهؤلاء وهؤلاء .

فهذه هى النعمة المطلقة التامة ، والقرآن مملوء من ذكر نعمه على الكفّار . وقد قال تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨] ، فالحياة نعمة ، وإدراك اللذات نعمة . وأما الإيمان فهو أعظم النعم ، وبه تتم النعم .

فالإنسان بِجِبِلَّته يطلب ما يوافقه ويتنعَّم به ـ من الغذاء وغيره ـ على هذا فُطِر ، فيعرف النعمة ، فيعرف[1] المنعم ، فيشكره . فلهذا كان الحمد هو الابتداء ، فإن شعوره بنفسه وبما يحتاج إليه و يتنعم به قبل شعوره بكل شىء ، وهو[2] من حين خرج من بطن أمه شعر باللبن الذى يحتاج إليه ويتنعم به وبما يخرج منه وهو الثدى ، فلهذا تعرّف الله إليه[3] بالنعم ليشكره ، وشكره ابتداء معرفته بالله ، فإذا عرف الله أحبه فعبده وتنعم بعبادته وحده لاشريك له ، وعرف مافى التألّه له من اللذة العظيمة التى لا يعدلها لذة ؛ فلهذا كان التوحيد نهايته ؛ أوله الحمد ، وآخره إياك نعبد .

وكذلك فى الجنة ، كما فى صحيح مسلم عن صهيب عن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) ك : فيعرف النعم ويعرف .. الخ.
(٢) ك : كل شىء هو .. الخ .
(٣) إليه : ساقطة من (ك) .

أنه قال : « إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ نادى منادٍ : يا أهل الجنة إن لـكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ماهو ؟ ألم يبيّض وجوهنا و يدخلنا الجنة ويُجِرْنا من النار ؟ قال : فيُـكشف الحجاب فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزياده »[١] . فالنظر إليه أكمل اللذات وآخرها ، كما قال : « فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه» . ولهذا قيل : أطيب مافى الدنيا معرفته ، وأطيب مافى الآخرة مشاهدته .

وعبادته وحده بمحبته وقصد رؤيته هو لأهل السنة الذين يقرُّون بإلاهيته وحكمته ، وأنه يستحق المحبة ، وأن يكون هو أحب إلى العبد من كل شىء .

الجهمية والمعتزلة ينكرون محبته تعالى ويقرون بوجوب الشكر

وأما الجهمية والمعتزلة فينـكرون محبته وحقيقة إلاهيته ، وعلى قولهم تمتنع عبادته . لـكن المعتزلة تقر بالنعمة ووجوب الشكر[٢] وعلى هذا بنَوْا دينهم ؛ وغاية الواجبات هى الشكر ؛ ولهذا قالوا : الشكر يجب عقلا . وأما العبادة والمحبة فلم يعرفوها ولم يصلوا إليها بل أنـكروها .

وأما الجهمية المجبرة : لاهذا ولا هذا ، لـكن يعترفون بقدرته وأنه يفعل مايشاء . ولهذا كانوا فى الواجبات وترك المحرمات/أبعد من المعتزلة ، فإنهم مرجئة مجبرة فلا يجزمون بالوعيد ـ وهذا نصف الحرف الباعث على العمل ، ويقولون بالجبر ـ وهذا نصف الاعتراف بحق الله على العبد ووجوب شكره ، فتضعف دواعيهم من جهة الخوف ومن جهة الشكر ، لايشكرون نعمه الماضية ،

ظ ١٣٨

(١) الحديث فى مسلم ١/١١٢ (كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى) مع اختلاف فى لفظه عما ذكره ابن تيمية . وهو أيضا فى : سنن ابن ماجه ١ / ٦٧ (المقدمة ، باب فيما أنـكرت الجهمية) ؛ جامع الترمذى (بشرح ابن العربى) ١٠/١٨ ـ ١٩ (أبواب صفة الجنة ، باب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى) .

(٢) فى الأصل فى النسختين : تقر بالنعمة وجوب الشكر .

الجهمية المجبرة يضعف شكرهم وخوفهم ويقوى رجاؤهم

ولا يخافون عقوبته المستقبلة . ولكن لما آمن من آمن منهم بالرسل صار عندهم خوفٌ ما ورجاء وصاروا يُوجِبون الشكر شرعاً ، وعندهم داعى الرجاء ، فالرجاء عندهم أغلب من الخوف ، وهو أحد المعنيين فى تسميتهم مرجئة . قيل: إنه من الرجاء ، أى يجعلون الناس رَاجين ، فهم مُرْجِيَة لا مُخَيِّفة . لكن الصحيح أنهم مرجئة بالهمز من الإرجاء ، لكن يشارك الرجاء فى الاشتقاق الأكبر(١) .

المؤمن يخاف الله ويرجوه ويحبه

ولهذا قيل : « من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجىء ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى(٢) ، ومن عبده بالحب فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والحب فهو مؤمن موحّد »

وذلك أن الحب الذى ليس معه رجاء ولا خوف يبعث النفس على اتباع هواها ؛ وصاحبه إنما يحب فى الحقيقة نفسه ؛ وقد اتخذ إلاهه هواه ، فلهذا كان زنديقاً . ومن هنا دخلت الملاحدة الباطنية كالقائلين بوحدة الوجود ، فإن هؤلاء سلوكهم عن هوى ومحبة فقط ، ليس معه رجاء ولا خوف ، ولهذا يتنوعون(٣)

القائلون بوحدة الوجود يحبون بدون خوف أو رجاء

---

(١) قال الشهرستانى فى « الملل والنحل » ١/١٢٥ : « الإرجاء على معنيين : أحدهما بمعنى التأخير ، كما فى قوله تعالى : قالوا أرجه وأخاه ، أى : أمهله وأخره . والثانى : إعطاء الرجاء . أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد . وأما بالمعنى الثانى فظاهر ، فإنهم كانوا يقولون : لا تضر مع الإيمان معصية كالا تنفع مع الكفر طاعة » .

(٢) فى « اللباب فى تهذيب الأنساب » لابن الأثير ١ / ٢٩٤ : « الحرورى بفتح الحاء وضم الراء وسكون الواو وفى آخرها راء ثانية ، هذه النسبة إلى حروراء ، وهو موضع على ميلين من الكوفة كان أول اجتماع الخوارج به فنسبوا إليه » . وانظر « معجم البلدان » لياقوت : مادة « حروراء » .

(٣) يتنوعون : كذا فى النسختين ، ولعل الصواب : يبتدعون .

فهم من الذين قال الله فيهم : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [سورة الجاثية : ٢٣] . ولهذا يجوِّزون الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية ومابعدها إلى قوله : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣٠-٣٢] .

وهم فى الحقيقة ينكرون محبة الله ، ولـكن يقولون : الحـكمة هى التشبه به . ولهذا كان ابن عربى يجعل الولى هو المتشبِّه به فى التخلق بأسمائه ، و ينـكر اللذة بالمشاهدة والخطاب ، و يقول : ما التذ عارف قط بالمشاهدة ؛ لأنها على أصله مشاهدة وجود مطلق ولا لذه فيها .

ووقع بينه و بين شهاب الدين السهروردى[1] منازعة : هل حين يتجلى[2] لهم يخاطبهم ؟ فأثبت شهاب الدين ذلك ، كما جاءت به الآثار . وأنـكر ذلك ابن‌عربى وقال : مسكين هذا السهروردى ، نحن نقول له عن تجلى الذات ، وهو يقول عن تجلى الصفات[3] .

---

(١) كلام ابن تيمية هنا عن : شهاب الدين أبى حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن‌عمويه، وهو غيرشهاب الدين السهروردى المقتول. من شيوخ الصوفية ومن فقهاء الشافعية ومن أشهر كتبه « عوارف المعارف » ولد سنة ٥٣٩ وتوفى سنة ٦٣٢ . انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٥/١٤٣ - ١٤٤ ؛ وفيات الأعيان ٣/١١٩-١٢٠ ؛ شذرات الذهب ٥/١٥٣- ١٥٥ ؛ مرآة الجنان لليافعى ٤ / ٧٩ - ٨٢ ؛ تاريخ ابن الوردى ٢ / ١٦١ ؛ البداية والنهاية ١٣/١٤٣ ، ١٨٣؛ النجوم الزاهرة ٦ / ٢٨٣ - ٢٨٤ ؛ معجم‌البلدان:سهرورد؛ الأعلام ٥ / ٢٢٣ .

(٢) فى الأصل : يتلى ، ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته ، وانظر قوله بعد قليل : فيستحيل عند تجليها خطاب .

(٣) لم أجد هذه القصة فيما بين يدى من مراجع ، ولـكن ذكر المقرى فى نفح الطيب ٢ / ٣٨٢ ما يلى : « وذكر الإمام سيدى عبد الله بن سعد اليافعى اليمنى فى « الإرشاد » أنه‌اجتمع مع الشهاب السهروردى فأطرق كل‌واحد منهما ساعة ، ثم افترقا من‌غير‌كلام ، فقيل للشيخ ابن عربى : ما تقول فى السهروردى ؟ فقال : مملوء سنة من قرنه إلى قدمه . وقيل للسهروردى : ما تقول فى الشيخ محيى الدين ؟ فقال : بحر الحقائق » . وذكر الشيخ ابراهيم ابن عبد الله القارىء فى كتابه « مناقب ابن عربى » (ص ٢٩) قصة مماثلة . وانظر مرآة الجنان لليافعى ٤ / ١٠٠ .

وهذا بناء على أصله الفاسد ، وهو أن الذات وجود مطلق لا تقوم به صفات : لا كلام ولا غيره فيستحيل عند تجليها خطاب .

وشهاب الدين كان أتبع للسنة والشرع منه ، ولهذا كان صاحبهما ابن حمويه[١] يقول : « ابن عربى بحر لا تكدِّره الدلاء ، ولكن نور المتابعة المحمدية على وجه الشيخ شهاب الدين شىء آخر »[٢] . لكنه كان ضعيف الإثبات للصفات والعلو لما فيه من التجهم الأشعرى[٣] . وكان يقول عن الرب : لا إشارة ولا تعيين .

ص ١٣٩ وهؤلاء مخانيث / الجهمية ، وابن عربى من ذكورهم . فهم يستطيلون على من دخل معهم فى التجهم . وإنما يقهرهم[٤] أهل السنة المثبتون العارفون بما جاء به الرسول وبمخالفتهم له وببطلان ماينافض السنة من المعقولات الفاسدة . ولم يكن السهروردى من هؤلاء ؛ وكذلك الحريرى[٥] قال : « كنت أثبت المحبة أولا ، ثم رأيت أن المحبة ما تكون إلا من غير لغير[٦] ، وما ثمَّ غير » .

---

(١) سعد الدين محمد بن عبد الله بن حمويه الحموى ، زاهد متصوف ، توفى سنة ٦٥٢ . انظر ترجمته فى : النجوم الزاهرة ٧ / ٣١ .

(٢) فى « مناقب ابن عربى » ص ٢٩ – ٣٠ أن ابن حمويه « لما رجع من الشام إلى بلاده سأله أشراف أترابه وخواص أصحابه : من تركت بالشام من العلماء ؟ قال رضى الله عنه : تركت بها بحراً زخاراً لا قعر له ولا ساحل . يعنى الشيخ محي الدين رضى الله عنه » .

(٣) ك : لما فيه من التجهم وكان الأشعرى يقول عن الرب .. الخ ، وهو خطأ . وفى (ع) : لما فيه من التجهم ، وتحت كلمة التجهم ، كتبت كلمة « الأشعرى » وعليها علامة الصحة . والمعنى : أن فى السهروردى تجهما مثل تجهم بعض الأشاعرة الذين تأثروا بالجهمية فى مسائل منها ميلهم إلى الجبر ونفى بعض الصفات . ولا يجوز أن تكون العبارة التالية من قول الأشعرى بل هى من قول السهروردى .

(٤) ك : يقرهم ، وهو تحريف ظاهر .

(٥) أبو الحسن على بن الحسين بن المنصور الحريرى ، صوفى من القائلين بوحدة الوجود وممن يظهر الزندقة ويستهزىء بأوامر الشرع ونواهيه وينتهك المحرمات ، توفى سنة ٦٤٥ . انظر ترجمته فى : فوات الوفيات ٢ / ٨٨ – ٩٤ ؛ النجوم الزاهرة ٦ / ٣٥٩ ، ٣٦٠ ؛ الأعلام ٥ / ٩٠ .

(٦) ع : لعين .

فهؤلاء منتهاهم إنكار المحبة التى يستحقها الرب ، ولهذا لايتابعون رسوله ، ولا يجاهدون فى سبيله ، والله وصف [المؤمنين][١] بهذا و بهذا؛ فمحبة هؤلاء تجر إلى الزندقة .

وأيضا ، فقد يقولون : إن المحب لا تضره الذنوب ، وصنَّف ابن حمويه فى ذلك مصنَّفاً بناه على ما يُقال : إذا أحب الله عبداً لا تضره الذنوب . وهذا إذا قاله المحق فقصده أنه لا يتركه مصرًّا عليها بل يتوب عليه منها فلا تضره ، فأَخَذَه هؤلاء وقالوا : إن الذنوب لا تضر المحبوبين ، وأحدهم يقول عن نفسه : إنه محجوب فلا تضره الذنوب . فصاروا مثل اليهود والنصارى الذين قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [سورة المائدة: ١٨] ، فصار فيهم زندقة من هذا الوجه ومن غيره .

بيان مقالة أهل السنة

وقد قال تعالى عن يوسف : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [سورة النساء : ١٢٣] . وسيد المحبِّين المحبوبين خاتم الرسل وقد قال : « إنى أعلمكم بالله وأشدكم خشية له »[٢] .

وهو سبحانه لايحب إلا الحسنات ولا يحب السيئات ، وهو يحب المتقين والمحسنين والصابرين والتوَّابين والمتطهرين ، ولايحب كل مختال فخور ولايحب

---

(١) المؤمنين : زدتها لتتضح بها الكلام .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه ٨ / ٢٦ (كتاب الأدب ، باب من لم يواجه الناس بالعتاب) ؛ ومسلم فى صحيحه ٧ / ٩٠ (كتاب الفضائل ، باب علمه صلى الله عليه وسلم بالله تعالى وشدة خشيته) عن عائشة رضى الله عنها قالت (واللفظ للبخارى) : «صنع النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فخطب فحمد الله ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ؛ فإذا أحب عبداً وأذنب كان من التوّابين المتطهرين .

وبعض الناس يقول : الشاب التائب حبيب الله ، والشيخ التائب عتيقه . وليس ذلك ، بل كل من تاب فهو حبيب الله ، سواء كان شيخاً أو شابًّا ، وقد رُوى : أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أويسهم من رحمتى ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب .

وهذا فعله مع عباده : إذا أذنبوا إما أن يتوب عليهم ، وإما أن يبتليهم بما يطهرهم إذا لم يحمل السيئات تخفض درجتهم ، وإن لم يكن هذا ولا هذا انخفضت درجتهم بحسب سيئاتهم عن درجات من ساواهم فى الحسنات وسَلِمَ من تلك السيئات ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [سورة الأنعام : ١٣٢] : لأهل الجنة ولأهل النار درجات من أعمالهم بحسبها ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والعبد هو فقير دائماً إلى الله من كل وجه : من جهة أنه معبودُه وأنه مستعانُه ، فلا يأتى بالنعم إلا هو ، ولا يَصْلُح حال العبد إلا بعبادته . وهو مذنب أيضا ، لابد له من الذنوب ، فهو دائما فقير مذنب ، فيحتاج دائماً إلى الغفور الرحيم /: الغفور الذى يغفر ذنوبه ، والرحيم الذى يرحمه فينعم عليه ويحسن إليه ، فهو دائماً بين إنعام الرب وذنوب نفسه ، كما قال أبو إسماعيل الأنصارى[1] إنه يسير بين مطالعة المنّة ومطالعة عيب النفس والعمل . وكما قال ذلك العارف للحسن البصرى : إنى أصبح بين نعمة وذنب ، فأريد أن أحدث للنعمة شكراً وللذنب استغفارا .

ظ ١٣٩

---

(١) أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن على الهروى الأنصارى ، كان يدعى شيخ الإسلام وكان إمام أهل السنة بهراه ، توفى سنة ٤٨١ . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢/٢٤٧ ـ ٢٤٨ ؛ الذيل لابن رجب ١/ ٥٠ـ ٦٨ ؛ الأعلام ٤/٢٦٧ .

وفى سيد الاستغفار: «أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى»[١]. وفى الحديث الإلهى[٢] : « فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» . وكان يقول فى خطبته : «الحمدلله نستعينه ونستغفره»[٣]. وفى القنوت : «اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك» إلى آخره[٤] . وكان صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع يحمدالله ثم يستغفره فيقول: «ربنا ولك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ماشئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ــ وكلنا لك عبد ــ : لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولاينفع ذا الجد منك الجد . اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرَد . اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس»[٥] .

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه ٨ / ٧١ (كتاب الدعوات ، باب ما يقول إذا أصبح) وفى كتاب « الأدب المفرد » ص ١٦١ (ط . السلفية) (باب سيد الاستغفار). عن شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى » الحديث ، ورواه النووى فى « الأذكار » ص ٧١ .

(٢) وهو الحديث القدسى المروى عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبىصلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .. الحديث ، ورواه مسلم فى صحيحه ٨ / ١٦ ــ ١٨ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم) .

(٣) روى أحمد فى مسنده (ط . المعارف) ٥ / ٢٧١ (رقم ٣٧٢٠) عن عبد الله ابن مسعود رضىالله عنه عنالنبى صلى الله عليه وسلم قال : علمنا خطبة الحاجة : الحمد لله نستعينه ونستغفره . . الحديث . وانظرأرقام : ٣٢٧٥ ، ٣٧٢١ ، ٤١١٥ ، ٤١١٦ . قال المحقق رحمه الله إن الحديث قد رواه الترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم . وانظر الأذكار للنووى ، ص ٢٥٠ ؛ سنن ابن ماجة ١ / ٦٠٩ ، ٦١٠ .

(٤) قال النووى فى «الأذكار» ، ص ٥٨ : « قال أصحابنا : وإن قنت بما جاء عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان حسناً ، وهو أنه قنت فى الصبح بعد الركوع فقال : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ولانكفرك .. الحديث » . وقد أورد الشيخ على المتقى فى كتابه « كنز العمال » الروايات المختلفة عن هذا القنوت . انظر جـ ٨ ص ٤٧ ــ ٥١ ، ط . حيدرآباد ، ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .

(٥) مارواه ابن تيمية فيه جمع بين بعض أحاديث مروية فيما يقال عند رفع الرأس من الركوع. انظر : مسلم ٢ / ٤٦ ــ ٤٨ (كتاب الصلاة ، باب مايقول إذا رفع رأسه من الركوع) ؛ الأذكار للنووى ، ص ٥٢ ــ ٥٣ (باب مايقوله فى رفع رأسه من الركوع وفى اعتداله) .

والاستغفار مقرون بالحمد كما قرن بالتوحيد ، وكما قرن الحمد بالتحميد . وقد جمعت الثلاثة فى مثل كفَّارة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك »[١] .

وكان المقصود أن الجهمية المجبرة لما آمن منهم من آمن بالرسل صار عندهم خوفٌ ما ورجاءٌ ما ، وصاروا يوجبون الشكر شرعاً ، فالداعى عندهم جزء من الشرع . وأما داعى المعتزلة فهو أقوى من داعيهم ، فهم أحسن أعمالا وأعبد وأطوع وأورع ، كأهل السنة والمعرفة : فهم يعبدونه مع الخوف والرجاء والشكر بداعى المحبة ومعرفة الحكمة والإلهية ، وهذه ملة إبراهيم الخليل ؛ فهم فوق هؤلاء كلهم . والله تعالى أعلم .

[٢] آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على محمد وآله وسلم[٢] .

---

(١) الحديث مروى فى سنن أبى داود ٤ / ٣٦٥ ـ ٣٦٦ (كتاب الأدب ، باب فى كفارة المسجد) . وانظر الأذكار ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .
(٢ ـ ٢) : زيادة فى (ع) .

رسالة في معنى كون الرب عادلا وفي تنزهه عن الظلم



ص ٣٩

﴿ قاعـــدة ﴾

فى معنى كون الرب عادلا ، وفى تنزُّهه عن الظلم
وفى إثبات عدله وإحسانه

تأليف شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية ، مما ألفه فى محبسه الأخير بالقلعة بدمشق ، قدَّس الله روحه .

ظ ٣٩

/ بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين .

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين وسلم تسليما .

﴿ فصـــل ﴾ (١)

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله تعالى عدل قائم بالقسط لا يظلم شيئاً ، بل هو منزَّه عن الظلم .

تنازع طوائف المسلمين فى معنى الظلم الذى ينزه الله عنه

ثم لما خاضوا فى القدر تنازعوا فى معنى كونه عدلا فى الظلم الذى هو منزَّه عنه .

مقالة الجهمية والأشاعرة

فقالت طائفة : الظلم ليس بممكن الوجود، بل كل ممكن إذا قُدِّر وجوده منه فإنه عدل ، والظلم هو الممتنع : مثل الجمع بين الضدين وكون الشىء موجوداً معدوما ؛ فإن الظلم : إما التصرف فى ملك الغير ـ وكل ماسواه ملكه ، وإما مخالفة الآمر(٢) الذى تجب طاعته ـ وليس فوق الله تعالى آمر تجب عليه طاعته .

وهؤلاء يقولون : مهما تُصوِّر وجوده وقُدِّر وجوده فهو عدل . وإذا قالوا: كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، فهذا أمر أوهم .

---

(١) فصل : زيادة فى (ع) .
(٢) ع : الأمراء ، وهو تحريف .

وهذا قول المجبرة ، مثل جهم ومن اتبعه ، وهو قول الأشعرى وأمثاله من أهل الكلام ، وقول من وافقهم من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية .

وقد رُوى عن بعض المتقدمين كلمات مطلقه تشبه هذا المذهب ، مثل قول إياس بن معاوية[١] : «ماناظرت بعقلى كله إلا القدرية ، قلت لهم: ما الظلم؟ قالوا: أن تأخذ ما ليس لك . قلت : فلله كل شىء » . ومثل قول أبى الأسود لعمران ابن حصين لما سأله فقال عمران: «أرأيت مايكدح الناس اليوم ويعملون فيه،أشىء قُضِىَ عليهم ومضى من قدر قد سبق ، أوفيما يستقبلون فيماأتاهم به نبيهم فاتخذت به عليهم الحجة ؟ قال: قلت : بل شىء قد قضى عليهم ومضى عليهم . قال : فهل يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزعت من ذلك فزعاشديداً ،وقلت له :إنه ليس شىء إلا وهو خلق الله وملك يده ، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون . فقال : سدَّدك الله ، إنى والله ماسألتك إلا لأحرز عقلك »[٢] .

وهذا قول كثير من أصحاب مالك والشافعى وأحمد ، كالقاضى أبى يعلى[٣]

---

(١) إياس بن معاوية بن قرة المزنى ، أبو واثلة ، يضرب به المثل فى الذكاء . قال ابن سعد : « كان ثقة ، وكان قاضياً على البصرة ، وله أحاديث ، وكان عاقلا من الرجال فطنا» . وقد توفى إياس سنة ١٢٢ . انظر ترجمته فى : طبقات ابن سعد ٧ / ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ؛ وفيات الأعيان ١/٢٢٣ ـ ٢٢٦ ؛ تهذيب التهذيب ١ / ٣٩ ؛ الأعلام للزركلى ١/٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

(٢) هذه المحاورة بين عمران بن حصين رضى الله عنه وبين أبى الأسود الدئلى رواها مسلم فى صحيحه ٨ / ٤٨ ـ ٤٩ (كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمى . . الخ) ، ويذكر عمران بعد هذا الكلام حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم . وبعض ألفاظ الخبر كما رواه ابن تيمية مخالف لما فى مسلم .

(٣) أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء من كبار الحنابلة وعالم عصره فى الأصول والفروع . ولد سنة ٣٨٠ وتوفى سنة ٤٥٨ . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة (لابنه أبى الحسين محمد بن محمد) ٢ / ١٩٣ـ ٢٣٠ ؛ تاريخ بغداد ٢/٢٥٦ ؛ شذرات الذهب ٤/٣٠٦ ـ ٣٠٧ ؛ الوافى بالوفيات ٣ / ٧ ؛ الأعلام ٦ / ٣٣١ .

وأتباعه ، وأبى المعالى الجوينى [١] وأتباعه ، وأبى الوليد الباجى [٢] وأتباعه ،وغيرهم .

مقالة المعتزلة

والقول الثانى : أنه عدل لا يظلم لأنه لم يُرد وجود شىء من الذنوب : لا الكفر ولا الفسوق ولا العصيان ، بل العباد فعلوا ذلك بغير مشيئته كما فعلوه عاصين لأمره ، وهو لم يخلق شيئا من أفعال العباد : لا خيراً ولا شرًّا ، بل هم أحدثوا أفعالهم ، فلما أحدثوا معاصيهم استحقوا العقوبة عليها ، فعاقبهم بأفعالهم ، لم يظلمهم .

ص ٤٠

/ هذا قول القدرية من المعتزله وغيرهم . وهؤلاء عندهم لا يتم تنزيهه عن الظلم إن لم يُجعل غير خالقٍ لشىء من أفعال العباد ، بل ولا قادر على ذلك ، وإن لم يجعل غير شاء لجميع الكائنات ، بل يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء ، إذ المشيئة عندهم بمعنى الأمر .

وهؤلاء والذين قبلهم يتناقضون تناقضاً عظيماً ، ولكل من الطائفتين مباحث ومصنفات فى الرد على الأخرى ، وكل من الطائفتين تسمى الأخرى القدريَّة ، وقد رُوى عن طائفة من التابعين موافقة هؤلاء .

مقالة أهل السنة

والقول الثالث : أن الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، والعدل وضع كل شىء فى موضعه ، وهو سبحانه حَكَمٌ عَدلٌ يضع الأشياء مواضعها ، ولا

---

(١) أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى ويلقب بإمام الحرمين . ولد بنيسابور سنة ٤١٩ وتوفى بها سنة ٤٧٨ . وهو من أعظم أئمة الأشاعرة وقد تتلمذ عليه الغزالى . انظر ترجمته فى : تبيين كذب المفترى لابن عساكر ، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٥ ؛ طبقات الشافعية ٤ / ٢٤٩ـ٢٨٢ ؛ شذرات الذهب ٣/٣٥٨ـ٣٦٢ ؛ وفيات الأعيان ٢/٣٤١ـ٣٤٣ ؛ الأعلام ٤ / ٣٠٦ .

(٢) أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجى ، من كبار علماء المالكية ، ولد بالأندلس سنة ٤٠٣ وتوفى سنة ٤٧٤ . انظر ترجمته فى : الديباج المذهب لابن فرحون ، ص ١٢٠ ـ ١٢٢ ؛ وفيات الأعيان ٢/١٤٢ ـ ١٤٣ ؛ تاريخ ابن الوردى ١/٣٦١ ؛ الأعلام ٣/١٨٦ .

يضع شيئاً إلا فى موضعه الذى يناسبه وتقتضيه الحكمة والعدل ، ولا يفرِّق بين متماثلَين ، ولا يسوِّى بين مختلفين ، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة فيضعها موضعها لما فى ذلك من الحكمة والعدل .

وأما أهل البر والتقوى فلا يعاقبهم ألبتة . قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [سورة القلم : ٣٥ ، ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [سورة ص : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية [سورة الجاثية : ٢١] .

قال أبو بكر بن الأنبارى : الظلم وضع الشىء فى غير موضعه . يقال[١] : ظلم الرجل سِقاءَهُ ، إذا سقا منه قبل أن يخرج زُبْدَه . قال الشاعر :

وصاحبِ صدْقٍ لم تَنَلْنِي شَكَاتُهُ ظلمتُ ، وفى ظَلْمِى له عامِداً أجرُ[٢]

أراد بالصاحب وَطْبَ اللبن[٣] ، وظَلْمُهُ إياه أن يسقيه قبل أن يخرج زُبْدَهْ . والعرب تقول : هو أظلم من حيّةٍ لأنها تأتى الحفرَ الذى لم تحفره فتسكنه . ويقال : قد ظلم الماء الوادى إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى ، ذكر ذلك أبو الفرج . وكذلك قال البغوى : أصل الظلم وضع

---

(١) يقال : رسمت فى الأصل فى النسختين « مقال ».

(٢) البيت فى اللسان مادة : (ظلم) : « لم تربنى شكاته » . وفى مجالس ثعلب ، ص ١٠٦ ؛ والأساس : (ظلم) : « لم تنلنى أذاته » ، وجاء البيت غير منسوب فى هذه المراجع . وفى اللسان (ظلم) : « والظليمة والظليم : اللبن يشرب منه قبل أن يروب ويخرج زبده .. قال (فى شرح البيت) : هذا سقاء سُقى منه قبل أن يخرج زبده ، وظلم وطبه ظلما (بفتح الظاء) إذا سقى منه قبل أن يروب ويخرج زبده » .

(٣) الوطب : سقاء اللبن .

الشيء فى غير موضعه ، وكذلك ذكر غير واحد . قالوا : والعرب تقول : من أشبه أباه فما ظلم ، أى ما وضع الشبه فى غير موضعه .

وهذا الأصل ، وهو عدل الرب ، يتعلق بجميع أنواع العلم والدين ، فإن جميع أفعال الرب ومخلوقاته داخلة فى ذلك ، وكذلك أقواله وشرائعه وكتبه المنزّلة ، وما يدخل فى ذلك من مسائل المبدأ والمعاد ، ومسائل النبوات وآياتهم ، والثواب والعقاب ، ومسائل التعديل والتجوير وغير ذلك ، وهذه الأمور مما خاض فيه جميع الأمم ، كما قد بسط فى مواضع .

وأهل الملل كلهم يقرون بعدله ، لأن الكتب الإلٰهية نطقت بعدله ، وأنه قائم بالقسط ، وأنه لا يظلم الناس مثقال ذرة . / لكن كثير من الناس فى نفسه ضغن من[1] ذلك ، وقد يقوله بلسانه و يعرّض به فى نظمه ونثره ، وهؤلاء أكثر ما يكونون فى المجبرة الذين لا يجعلون العدل قسيماً لظلم ممكن لا يفعله ، بل يقولون : الظلم ممتنع ، و يجوّزون تعذيب الأطفال وغير الأطفال بلا ذنب أصلا ، وأن يخلق خلقاً يعذبهم بالنار أبداً لا لحكمةٍ أصلا ، و يرى أحدهم أنه خلق فيه الذنوب وعذّب بالنار لا لحكمةٍ ولا لرعاية عدل ، فتفيض نفوسهم إذا وقعت منهم الذنوب وأصيبوا بعقوباتها بأقوال يكونون فيها خصماء الله تعالى ، وقد وقع من هذا قطعة فى كلام طائفة من الشيوخ وأهل الكلام ، ليس هذا موضع حكاية أعيانهم .

ظ ٤٠

وما ذكرناه من الأقوال الثلاثة نضبط أصول الناس فيه ، ونبين أن القول الثالث هو الصواب ، و به يتبين أن كل ما يفعله الرب فهو عدل ، وأنه لا يضع

---

(١) فى الأصل فى النسختين رسمت العبارة «ظعن من» وكتب فى الهامش « طعن فى » وفوقها « خ » إشارة إلى نسخة أخرى .

الأشياء فى غير موضعها : فلا يظلم مثقال ذرة ، ولا يجزى أحداً إلا بذنبه ، ولا يخاف أحد ظلماً ولا هضما : لا يُهضم من حسناته ، ولا يُظلم فيزاد عليه فى سيئاته ، لا من سيئات غيره ولا من غيرها ، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(١) ، أى لا يملك ذلك ولا يستحقه ، وإن كان قد يحصل له نفع بفضل الله ورحمته وبدعاء غيره وعمله ، فذاك قد عرف أن الله يرحم كثيراً من الناس من غير جهة عمله ، لكنه ليس له إلا ما سعى . قال الله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ [سورة النجم : ٣٦ ـ ٤١] .

وقوله : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ يقتضى أن المنبأ بذلك يجب عليه تصديق ذلك والإيمان به ، فكان هذا مما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم مُصَدِّقاً لإبراهيم وموسى ، كما قال فى آخر «سَبِّح» : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [سورة الأعلى : ١٨ ، ١٩] .

﴿ فصل ﴾

ومما يبيّن عدل الرب وإحسانه وأن الخير بيديه والشر ليس إليه ، كما كان عليه السلام يثنى على ربه بذلك فى مناجاته له فى دعاء الاستفتاح(٢) ،

---

(١) فى هامش (ع) نقط كلمات ظهر منها : .. .. على قوله تعالى (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) . .

(٢) روى مسلم فى صحيحه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ٢/١٨٥ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه) : « عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض » .... =

وأنه سبحانه لا يظلم مثقال ذرة ، بل مع غاية عدله فهو أرحم الراحمين ، وهو أرحم من الوالدة بولدها ، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح[(١)] ، وهو سبحانه أحكم الحاكمين ، كما قال نوح فى مناجاته : ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٥][(٢)] ، وأن الظلم قد ذكرنا فى غير موضع أن للناس فى تفسيره ثلاثة أقوال : قيل : هو التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، أو مخالفة الآمر الذى تجب طاعته ؛ وكلاهما منتفٍ فى حق الله تعالى . وهذا تفسير المجبرة القدرية من الجهمية وغيرهم/وكثير ممن ينتسب إلى السنة،وهو تفسير الأشعرى وأصحابه ومن وافقهم ، كالقاضى أبى يعلى وأتباعه ، وأبى الفرج ابن الجوزى ، وغيرهم .

ص ٤١

والثانى : أنه إضرار غير مستحق ؛ وهذا أيضاً منتفٍ عن الله تعالى . وهذا تفسير المعتزلة وغيرهم .

وهؤلاء يقولون : لو قَدَّر الذنوب وعذَّب عليها لكان إضراراً غير مستحق ، والله منزّه عنه ؛ وأولئك يقولون : الظلم ممتنع لذاته غير ممكن ولا مقدور ، بل كل ما يمكن فهو عدل غير ظلم ، وإذا عذَّب جميع الخلق بلا

= الحديث وفيه : « لبيك وسعديك والخير كله فى يديك والشر ليس إليك » . وروى أحمد الحديث فى مسنده (ط . المعارف) ٢ / ١٣٤ - ١٣٥ (الأرقام ٨٠٣ - ٨٠٥) . وانظر مشكاة المصابيح للتبريزى ١ / ٢٥٥ - ٢٥٧ (ط . دمشق) ؛ الأذكار للنووى ، ص ٤٣ ،

(١) روى البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى صحيحه ٨/٨ (كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته) : « قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقى ، إذا وجدت صبيا فى السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته . فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم : أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا : لا ، وهى تقدر على أن لا تطرحه . فقال : لله أرحم بعباده من هذه بولدها » . وانظر حديثا آخر بهذا المعنى فى سنن ابن ماجة ٢/١٤٣٦ .

(٢) تمام الآية : (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) .

ذنب أصلاً لم يكن ظلماً عند هؤلاء ، وإذا فعل ما يشاء بمقتضى حكمته وقدرته كان ظلماً عند أولئك ، فإنهم يجعلون ظلمه من جنس ظلم العباد ، وعدله من جنس عدلهم ، وهم مشبِّهة الأفعال .

والسيد إذا ترك مماليكه يظلمون ويفسدون مع قدرته على منعهم كان ظالماً ، (١ وإذا كان قد أمرهم ونهاهم وهو يعلم أنهم يعصونه وهو قادر على منعهم كان ظالماً ١) ، وإذا قال : مقصودى أن أعرِّضهم لثواب الطاعة ولذلك اقتنيتهم — وقد علم أنهم لا يطيعونه — كان سفيهاً ظالماً[٢] . وهم يقولون : إن الرب خلق الخلق وليس مراده إلا أن ينفعهم ، وأمرهم وليس مراده إلا نفعهم بالثواب ، مع علمه أنهم يعصونه ولا ينتفعون .

ولهذا طائفة منهم نفت علمه ، وآخرون قالوا : ما يمكنه أن يجعلهم مطيعين ، وهو قول جمهورهم ، فنفوا قدرته . وإن أثبتوه عالماً قادراً ولم يفعل ما أراده من الخير جعلوه : غير حكيم ، ولا رحيم ، بل ولا عادل .

وأما الطائفة الأخرى فهم معطِّلة فى الأفعال ، كما أن أولئك مشبِّهة الأفعال ، فإنهم يعطلون فعل العبد ويقولون : ليس بفاعل ولا قادر على الفعل ولا له قدرة مؤثرة فى المقدور . وأما الرب فيقولون : خلق ما خلق لا لحكمة أصلاً ، فعطَّلوا حكمته ، وقال : إنه يجوز أن يعذِّب جميع الخلق بلا ذنب ، فعطلوا عدله . والعدل هو فعله ، وهو سبحانه قائم بالقسط ، فمن نفى عدله وحكمته فإما أن ينفى فعله وإما أن يصفه بضد ذلك من الظلم والسفه ؛ كما أن الكلام على الطائفتين فى غير هذا الموضع .

(١ـ١) : ساقط من (ع) .

(٢) هذه الفكرة التى يعرضها ابن تيمية هنا تشبه إلى حد كبير فكرة الأشعرى فى كتابه « الإبانة » ص ٤٨ ، باب الكلام فى الإرادة ، المطبعة المنيرية ، بدون تاريخ .

والصواب القول الثالث : وهو أن الظلم وضع الأشياء فى غير مواضعها ، وكذلك ذكره أبو بكر بن الأنبارى وغيره من أهل اللغة ، وذكروا على ذلك عدة شواهد ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

وحينئذ فليس فى الوجود ظلم من الله سبحانه ، بل قد وضع كل شىء موضعه مع قدرته على أن يفعل خلاف ذلك ، فهو سبحانه يفعل باختياره ومشيئته ، ويستحق الحمد والثناء على أن يعدل ولا يظلم ، خلاف قول المجبرة الذين يقولون : لا يقدر على الظلم ، وقد وافقهم بعض المعتزلة كالنظّام ، لكن الظلم عنده غير الظلم عندهم ، فأولئك يقولون : الظلم هو الممتنع لذاته ، وهذا يقول : هو ممكن لكن لا يقدر عليه . والقدرية النفاة يقولون : ليس فى الوجود ظلم من الله لأنه عندهم / لم يخلق شيئاً من أفعال العباد ولا يقدر على ذلك ، فما نزّهوه عن الظلم إلا بسلبه القدرة وخلقَ كل شىء ، كما أن أولئك ماأثبتوا قدرته وخلقه كل شىء حتى قالوا إنه لاينزّه أن يفعل ما يمكن كتعذيب البُرَآء بلا ذنبٍ ، فأولئك أثبتوا له حمداً بلا ملك ، وهؤلاء أثبتوا له ملكا بلا حمد ، وأهل السنة أثبتوا ما أثبته لنفسه : له الملك والحمد ، فهو على كل شىء قدير ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو خالق كل شىء ، وهو عادل فى كل ماخلقه ، واضعٌ للأشياء مواضعَها ، وهو قادر على أن يظلم ، لكنه سبحانه منزّه عن ذلك لايفعله لأنه السلام القُدُّوس المستحق للتنزية عن السوء ، وهو سبحانه سُبُّوح قدُّوس يسبح له ما فى السماوات والأرض ، وسبحان الله كلمة ـ كما قال ميمون بن مهران[1] : هى كلمة يُعَظَّم بها الربُّ ويُحَاشَى بها من السوء .

ظ ٤١

(١) أبو عمرو ميمون بن مهران من ثقات التابعين ولد سنة ٤٠ وتوفى سنة ١١٧ . انظر ترجمته فى : طبقات ابن سعد ٧ / ٤٧٧ ـ ٤٧٩ ؛ الجرح والتعديل ، حـ ٤ ، ق ١ ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

وكذلك قال ابن عباس وغير واحد من السلف : إنها تنزيه الله من السوء . وقال قتادة فى اسمه « المتكبر » : إنه الذى تكبر عن السوء ؛ وعنه أيضاً : إنه الذى تكبر عن السيئات .

فهو سبحانه منزّه عن فعل القبائح ، لايفعل السوء ولا السيئات ، مع أنه سبحانه خالق كل شىء : أفعال العباد وغيرها . والعبد إذا فعل القبيح المنهىّ عنه كان قد فعل سوءًا وظلماً وقبيحاً وشرًّا ، والرب قد جعله فاعلاً لذلك ، وذلك منه سبحانه عدل وحكمة وصواب ووضع للأشياء مواضعها ، فخلقه سبحانه لما فيه نقص أو عيب للحكمة التى خلقه لها هو محمودٌ عليه ، وهو منه عدل وحكمةٌ وصوابٌ وإن كان فى المخلوق عيباً ، ومثل هذا مفعول فى الفاعلين المخلوقين ، فإن الصانع إذا أخذ الخشبةَ المعوجّةَ والحجرَ الردىّ واللبنةَ الناقصة فوضعها فى موضع يليق بها ويناسبها كان ذلك منه عدلاً واستقامة وصواباً وهو محمود ، وإن كان فى تلك عوجٌ وعيب هى به مذمومة ، ومن أخذ الخبائث فجعلها فى المحلّ الذى يليق بها كان ذلك حكمةً وعدلاً ، وإنما السَّفَهُ والظلم أن يضعها فى غير موضعها ، ومن وضع العمامة على الرأس والنعلين فى الرجلين فقد وضع كل شىء موضعه ، ولم يظلم النعلين إذ هذا محلهما المناسب لهما ، فهو سبحانه لايضع شيئاً إلا موضعه ، فلا يكون إلا عدلا ، ولا يفعل إلا خيراً ، فلا يكون إلا محسناً جواداً رحيما ، وهو سبحانه له الخلق والأمر ، فكما أنه فى أمره لايأمر إلا بأرجح الأمرين ، ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها ، وبتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإذا تعارض أمران رجَّح أحسنهما ، وليس فى الشريعة أمرٌ بفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه ، ولا نهى عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده ، وهو فيما يأمر به قد أراده إرادةً دينيةً شرعيةً وأحبه [1] / ورضِيَه ، فلا يحب ويرضى شيئاً إلا ووجوده خير من عدمه ، ولهذا أمر عباده أن يأخذوا

ص ٤٢

(١) فى النسختين : واجبه ، والصواب ما أثبته وهو الذى يدل عليه السياق .

بأحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، فإن الأحسن هو المأمور [به][1] ، وهو خير من المنهى عنه .

الخير بيديه سبحانه والشر ليس إليه

كذلك هو سبحانه فى خلقه وفعله ، فما أراد أن يخلقه وبفعله كان أن يخلقه ويفعله خيراً من أن لايخلقه ويفعله ، ومالم يرد أن يخلقه و يفعله كان أن لا يخلقه و يفعله خيراً من أن يخلقه ويفعله ، فهو لايفعل إلا الخير ، وهو ماوجوده خير من عدمه ، فـكل ما كان عدمه خيراً من وجوده ، فوجوده شر ، فهو لايفعله ، بل هو منزَّه عنه ، والشر ليس إليه ، فالشر ـ وهوما كان وجوده شرًّا من عدمه ـ ليس إليه ، إذ كان هذا مستحقًّا[2] للعدم لايشاؤه ولا يخلقه ، والمعدوم لايضاف إلى فاعل فليس إليه ، ولـكن الخير بيديه ـ وهوما كان وجوده خيراً من عدمه .

التعليق على قول بعضهم : الخير كله فى الوجود والشر كله فى العدم

ومن الناس من يقول : الخير كله فى الوجود ، والشر كله فى العدم ، والوجود خير ، والشر المحض لايكون إلا معدوماً . وهذا لفظ مجمل ، فإذا أُريد بذلك أن كل ماخلقه الله وأوجده ففيه الخير ووجوده خير من عدمه فهذا صحيح ، وكذلك مالم يخلقه ولم يشأه ، وهو المعدوم الباقى على عدمه ، لاخير فيه ، إذ لو كان فيه خير لفعله سبحانه ، فإنه سبحانه بيده الخير ، فالشر العدمى هو عدم الخير ، لا أن فى العدم شرًّا وجوديًّا[3] . وأما إذا أُريد أن كل ما يُقدَّر وجوده فوجوده خير ، وكل مايقدّر عدمه فعدمه شر فليس بصحيح ، بل من الأشياء ماوجوده شر[4] من عدمه ، ولـكن هذا لايخلقه الرب فيبقى معدوما ، وعدمه خير ، فهذا خير من هذا العدم ، بمعنى أن عدمه خير من وجوده ، إذ كان وجوده فيه ضرر راجح ، وعدم الضرر الراجح خير ، فهو خير عدمى فى العدم ،

---

(١) به : ساقطة من النسختين .

(٢) فى النسختين : مستحق ، وهو خطأ .

(٣) فى النسختين : شر وجودى ، وهو خطأ .

(٤) فى النسختين : شراً ، وهو خطأ .

إذ العدم لا يكون فيه وجود ، فالشر ليس إليه ، وهو ما كان وجوده شرًّا من عدمه ، فإنه لا يخلق هذا ، ومالم يخلقه فإنه ليس إليه ، وكل ما خلقه فوجوده خير من عدمه ، وهو سبحانه بيده الخير ، وذلك الذى وجوده شر من عدمه فإنه سبحانه يدفعه ويمنعه أن يكون مع القيام المقتضى له ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [سورة الحج : ٣٨][1] ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [سورة المائدة : ٦٧] ، ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [سورة الرعد : ١١] ، ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [سورة المؤمنون : ٨٨] .

فدفعه الشرَّ الذى تريده النفوس الشريرة هو من الخير وهو بيديه ، ولو مكّن تلك النفوس لفعلته ، فهو سبحانه لا يمكنها بل يمنعها إذا أرادته ، مع أنها لو خُلِّيت لفعلته ، فهو تارة يمنع الشر بإزالة سببه ومقتضيه ، وتارة يخلق ما يضادّه وينافيه : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٥٣] .

وقول القائل : خير وشر ، أى هذا خير من هذا ، وهذا شر من هذا ، ولهذا غالب استعمال هذين الاسمين كذلك ، كقوله : / ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النمل : ٥٩] ، ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [سورة الفرقان : ٢٤] ، ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [سورة الجمعة : ٩] . ظ ٤٢

---

(١) فى (ك) : (إن الله يدفع عن الذين آمنوا) و « يدفع » قراءه ابن كثير ونافع وأبى عمر ـ انظر « البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة » لعبد الفتاح القاضى ، ط. مصطفى الحلبى ، ١٣٧٥/١٩٥٥ .

وقالت السحرة : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [سورة طه : ٧٣] . وقال : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٦٠] ، وقال يوسف : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ [سورة يوسف : ٧٧] .

وقال حسّان :

فشركما لخيركما الفداء (١)

الخير والشر درجات

فالخير ما كان خيراً من غيره ، والشر ما كان شرًّا من غيره ، والخير والشر درجات . ولهذا قال تعالى لما ذكر أهل الجنة وأهل النار ، قال : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [سورة الأنعام : ١٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٢ ، ١٦٣] وكذلك ذكر تعالى فى الأنعام والأحقاف بعد ذكر الطائفتين(٢) .

ولهذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات الجنة تذهب علوا ، ودرجات النار تذهب سفولا ، فدرجات الجنة كلها فيها النعيم ، وبعضها خير من بعض ، ودرجات النار كلها فيها العذاب ، وبعضها شر من بعض .

---

(١) صدره كما فى الديوان ، ص ٨ (ط . التجارية ، ١٣٤٧ / ١٩٢٩) :

* أتهجوه ولست له بكفء *

والبيت من قصيدة يرد فيها على أبى سفيان الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، وكان قد هجا الرسول صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه . وانظر تفسير الطبرى ١ / ٣٦٨ .

(٢) انظر : سورة الأنعام : ١٦٥ ؛ سورة الأحقاف : ١٩ .

وإذا قيل : إن الله سبحانه هو خالق الخير والشر ، فالمراد ماهو شر من غيره وفيه أذى لبعض الناس ، ولكن خلقه لحكمةٍ ، وماخُلق لحكمةٍ مطلوبةٍ محبوبةٍ فوجوده خير من عدمه ، فلم يخلق شيئاً يكون شرًّا ، أى يكون وجوده شرًّا من عدمه ، لكن يخلق ما هو[1] شر من غيره وغيره خير منه للحكمة المطلوبة، وما فيه أذًى لبعض الناس للحكمة المطلوبة .

لا يعذب الله أحداً إلا بذنبه

وهو سبحانه لايعذّب أحداً إلا بذنبه ، بمقتضى الحكمة والعدل ، وفى تعذيبه أنواع الحكمة والرحمة . وهذا ظاهر فيما يبتلى به المؤمنين فى الدنيا من المصائب التى هى جزاء سيئاتهم ، فإن [فى][2] ذلك من الحكمة والرحمة والعدل ماهو بيّن لمن تأمله ، ولا يُعاقِب أحداً[3] إلا بذنبه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] ، و ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩]، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٣]، فلا يسلبهم إلا إذا غيَّروا ما فى أنفسهم بالمعاصى والذنوب ، فلا يجزى بالسيئات إلا من فعل السيئات ، ولا يُوقع النقم ويسلب النعم إلا من أتى[4] بالسيئات المقتضيه لذلك ، كما فعل بمن خالف رسله من جميع الأمم ، كما قال فى العذاب : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ

---

(١) هو : ساقطة من (ع) .

(٢) فى : ليست فى النسختين وزدتها ليستقيم الكلام .

(٣) فى (ع) : ولا يعاقب (بالبناء للمجهول) أحد ...

(٤) ع : إلا لمن أتى .

بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٢] ثم قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ الآية وما بعدها إلى قوله : ﴿ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٣ ـ ٥٤] فذكر تمثيلاً لزوال النعم عليهم لمَّا كذّبوا بآياته .

ولهذا قال : ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٤] / ، وذكر الأول تمثيلا لعذابهم بعد الموت كما قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٠ ـ ٥٢] ، فقال هنا : ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فإن أخذه يتضمن أخذهم ليصلوا بعد الموت إلى العذاب . ولفظ « الهلاك » يقتضى هلاكهم فى الدنيا وزوال النعمة عنهم ، فذكر هلاكهم بزوال النعم وذكر أخذهم بالنقم كما قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [سورة هود : ١٠٢] .

ص ٤٣

ولفظ « المؤاخذة » من الأخذ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٦] . وقوله : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [سورة البروج : ١٢] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ الآية [سورة الأنعام : ٤٢] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٧٦] فهذا تعذيب لهم فى الدنيا ليتضرعوا إليه وليتوبوا . وذكر هنا أنه أخذهم

بالعذاب ولم يقل بالذنوب ، كأنه ـ والله أعلم ـ ضمّن ذلك معنى جذبناهم إلينا ليُنِيبُوا وليتوبوا . وإذا قال : فأخذهم الله بذنوبهم ، يكون قد أهلكهم فأخذهم إليه بالهلاك ، وبسط هذا له موضع آخر .

الله يفعل الخير والأحسن

والمقصود هنا أن كل ما يفعله الرب ويخلقه فوجوده خير من عدمه ، وهو أيضاً خير من غيره ، أى من موجود غيره يُقدَّر موجوداً بدله ، فكما أن وجوده خير من عدمه فهو أيضاً خير من موجود آخر يُقدَّر مخلوقاً بدله ، كما ذكرنا فيما يأمر به أنَّ فعله خير من تركه وأنه خير من أفعالٍ غيره يشتغل بها عنه كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الجمعة : ٩] .

وقولنا : فعله خير من تركه ، سواء جعل الترك وجوديًّا أو عدميًّا ، والرب تعالى له المثل الأعلى ، وهو أعلى من غيره ، وأحق بالمدح والثناء من كل ما سواه ، وأولى بصفات الكمال ، وأبعد عن صفات النقص ، فمن الممتنع أن يكون المخلوق متصفاً بكمال لا نقص فيه ، والرب لا يتصف إلا بالكمال الذى لا نقص فيه ، وإذا كان يأمر عبده أن يفعل الأحسن والخير فيمتنع أن لا يفعل هو إلا ما هو الأحسن والخير ، فإن فعل الأحسن والخير مدح وكمال لا نقص فيه ، فهو أحق بالمدح والكمال الذى لا نقص فيه من غيره .

قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٥] . وقال : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [سورة الزمر : ١٨] ، ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ

مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة الزمر : ٥٥] ، وقال : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحج : ٧٧] .

ظ ٤٣

وقد قال تعالى فى مدح نفسه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران : ٢٦] . وقال تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [سورة الزمر : ٢٣] فكلامه أحسن الكلام . وقال تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ الآية [سورة السجدة : ٧] فقد أحسن كلَّ شيء خلقه ، وقال : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [سورة النمل : ٨٨] .

وهو سبحانه الرحمن الرحيم ، الغفور الودود ، الجواد الماجد ، وهو سبحانه الأكرم ، الذى علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، وهو أرحم الراحمين وخير الراحمين ، كما قال أيوب : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٨٣] ، وقال لنبيه : ﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١١٨] ، فهو أحق بالرحمة والجود والإحسان من كل أحد .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ ثم قال : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [سورة القصص: ٦٨] فأخبر أنه يخلق مايشاء ويختار .

والاختيار فى لغة القرآن[١] يراد به التفضيل والانتقاء والاصطفاء ، كما قال : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ [سورة طه : ١١-١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا

---

(١) ك : والاختيار فى اللغة القرآن .

بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سورة الدخان : ٣٠] إلى قوله : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الدخان : ٣٢ ، ٣٣] . وقال فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ الآية [سورة الجاثية : ١٦] . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٥] . ومنه فى الحديث : « إن الله اختار من الأيام يوم الجمعة ، ومن الشهور شهر رمضان ، واختار الليالى فاختار ليلة القدر ، واختار الساعات فاختار ساعات الصلوات » رواه ابن عساكر فى كتاب « تشريف يوم الجمعة وتعظيمه »[1] عن كعب الأحبار .

﴿ فصل مختصر ﴾[2]

قال الشيخ رحمه الله فى آخر هذا الفصل من هذه القاعدة :

بيان حقيقة إرادة الله

فإذا أراد سبحانه أن يخلق كان الخلق عقب الإرادة ، والمخلوق عقب التكوين والخلق ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سوره يس : ٨٢] .

والجهمية والمعتزلة لا يقولون بذلك فى الفعل ، بل يقولون : يفعل مع جواز أن لا يفعل . إلى أن قال :

---

(١) أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عساكر ، المحدث الفقيه المؤرخ ، ولد سنة ٤٩٩ ، وتوفى سنة ٥٧١ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٢ / ٤٧١ - ٤٧٣ ؛ تذكرة الحفاظ ٤ / ١٣٢٨ - ١٣٣٤ (وذكر من كتبه : فضل الجمعة أربعة أجزاء) ؛ مقدمة تبيين كذب المفترى ؛ الأعلام ٥ / ٨٢ - ٨٣ .

(٢) فى هامش (ع) : « هذا الفصل مختصر من فصل الاختيار من هذه القاعدة اختصرته لما فى ذلك من الكلام مع المعتزلة والجهمية وغيرهم » .

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا [ذلك][1]ـو بيّنوه للناس ـ وعرفوا أن حدوث الحوادث اليومية المشهودة تدل على أن العالم مخلوق ، وأن له ربًّا خلقه ويُحدث فيه الحوادث . وقد ذكر ذلك الحسن البصرى ، كما رواه أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب « المطر »[2] ، ورواه أبو الشيخ الأصبهانى فى كتاب « العظمة »[3] ، وذكره أبو الفرج بن الجوزى فى « تفسيره » .

قال أبو بكر بن أبى الدنيا : « حدثنى هارون ، حدثنى عفّان ، عن مبارك ابن فضالة قال : سمعت الحسن يقول : كانوا يقولون ـ يعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : الحمد لله الرفيق الذى لو جعل هذا الخلق خلقاً دائماً لا يتصرف لقال الشاكُّ فى الله : لو كان لهذا الخلق ربٌّ لحادثه ، وإن الله قد حادثه بما ترون من الآيات : إنه جاء بضوء طبق ما بين الخافقين ، وجعل فيها معاشاً وسراجاً وهاَّجاً ، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين / وجعل فيها[4] سكناً ونجوماً وقمراً منيراً ، و إذا شاء بنى بناء جعل فيه ص ٤٤

---

(١) ذلك : ليست فى النسختين ، وبها يستقيم الكلام .

(٢) أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبى الدنيا ، الحافظ صاحب التصانيف. ولد سنة ٢٠٨ وتوفى سنة ٢٨١ . وذكر بروكلمان (٣ / ١٣١) من كتبه : « كتاب المطر والرعد والبرق والريح » وقال إن منه نسخة خطية فى كوبريلى رقم ٣٨٨ . انظر : تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٧٧ ـ ٦٧٩ ؛ تاريخ بغداد ١٠ / ٨٩ ـ ٩١ ؛ طبقات الحنابلة ١ / ١٩٢ ـ ١٩٥ ؛ فوات الوفيات ١ / ٤٩٤ ـ ٤٩٥ ؛ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣ / ١٢٩ـ١٣٣ ؛ الأعلام ٤ / ٢٦٠.

(٣) أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصارى ، ويعرف بأبى الشيخ الأصبهانى. قال عنه الذهبى : « حافظ أصبهان ومسند زمانه » . ولد سنة ٢٧٤ وتوفى سنة ٣٦٩ . ومن كتبه كتاب « العظمة » وقد أشار الزركلى إلى وجود نسخة خطية منه . انظر : تذكرة الحفاظ ٣ / ٩٤٥ ـ ٩٤٧ ؛ شذرات الذهب ٣ / ٦٩ ؛ اللباب لابن الأثير ١ / ٥٥ ؛ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (ط . المعارف) ٣ / ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ؛ الأعلام ٤ / ٢٦٤ .

(٤) فى هامش النسختين « فيه » وعليها « خ » إشارة إلى نسخة أخرى .

من المطر والبرق والرعد والصواعق ما شاء ، وإذا شاء صرف ذلك ، وإذا شاء جاء ببرد يقرقف[١] الناس ، وإذا شاء ذهب بذلك وجاء بحرّ يأخذ بأنفاس الناس ، ليعلم الناس أن لهذا الخلق ربًّا يحادثه بما يرون من الآيات ، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة » .

فقد ذكر الحسن عن الصحابة الاستدلال بهذه الحوادث المشهودة على وجود الرب سبحانه المحدِث الفاعل بمشيئته وقدرته ، وبطلان أن يكون موجِباً يقارنه موجَبُه ، فإن ذلك يمتنع محادثته ، أى إحداث الحوادث فيه .

وقولهم : « لو كان هذا الخلق خلقاً دائماً لا يتصرف لقال الشاكُّ فى الله : لو كان لهذا الخلق رب لحادثه » يقتضى أن هذه الحوادث آيات الله ، وأنه رب هذا الخلق ، وأن هذا الخلق محدث لكون غيره يحادثه ، أى يحدث فيه الحوادث ، وماصرّفه غيره وأحدث فيه الحوادث كان مقهوراً مدبّراً ، لم يكن واجباً بنفسه ممتنعاً عن غيره .

وقوله : « لو كان له رب لحادثه » ؛ قد يقال : إنهم أنكروا هذا القول لقولهم : « لقال الشاك فى الله » . وقد يقال : بل هم مصدِّقون بهذه القضية الشرطية ؛ ولكن لو لم تكن الحوادث لكان الله يُعرف دون هذه الحوادث ، فإن معرفته حاصلة بالفطرة والضرورة ، ونفس وجود الإنسان مستلزم[٢] لوجود الرب ، فكان الصانع يُعلم من غير هذه الطريق ، فلهذا يعاب الشاكّ . ويمكن أنهم لم يقصدوا عيبه على هذا التقدير ، بل على هذا التقدير كان الشك موجوداً فى الناس إذ لا دليل على وجوده ، فكانت هذه الآيات مزيلة للشك وموجبة لليقين .

---

(١) فى اللسان : القرقفة : الرعدة ، وقد قرقفه البرد . ويقال : إنى لأقرقف من البرد أى أرعد .

(٢) فى النسختين : مستلزمة .

والأول أشبه بمرادهم وأولى بالحق ، فإنهم قالوا : « لقال الشاكّ في الله » ، فدل على أن هناك من ليس بشاكٍّ في الله ، ولم يقولوا : لشك الناس في الله . وبسط هذا القول في إثبات الصانع له موضع غير هذا .

والمقصود أنه سبحانه وتعالى يخلق بمشيئته واختياره ، وأنه يختار الأحسن ، وأن إرادته ترجِّح الراجح الأحسن ؛ وهذا حقيقة الإرادة ، ولا تعقل إرادة ترجِّح مِثلاً على مِثْل ، ولو قُدِّر وجود مثل هذه الإرادة فتلك أكمل وأفضل ، والخلق متصفون بها ، ويمتنع أن يكون المخلوق[1] أكمل من الخالق ، والمحدث الممكن أكملَ من الواجب القديم ، فوجب أن يكون ما تُوصف به إرادته أكمل مما توصف به إرادة غيره ، فيجب أن يُريد بها ما هو الأولى والأحسن والأفضل . وهو سبحانه يفعل بمشيئته وقدرته ، فالممتنع لا تتعلق به قدرة فلا يُراد ، والممكن الذي يمكن أن يُفعل ويكون مقدوراً ترجِّح الإرادةُ الأفضلَ الأرجحَ منه .

وما يحكى عن الغزالي أنه قال : « ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم ، فإنه لو كان كذلك ولم يخلقه / لكان بخلا يناقض الجود ، أو عجزاً يناقض القدرة »[2] . ط ٤٤

---

(١) في (ع) : أن يكون الخلق ، وقبالتها في الهامش كتبت كلمة « المخلوق » . وأخطأ ناسخ (ك) فكتب العبارة : « ويمتنع المخلوق أن يكون الخلق أكمل من الخالق » .

(٢) أنكر البعض أن تكون هذه العبارة من كلام الغزالي ، مع أن الغزالي نفسه أقر بها وحاول أن يبرر سبب قوله بها فقال في « الإملاء في إشكالات الإحياء » (المطبوع مع الإحياء ، ط. لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٧) : « ومعنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكمل صنعا ، ولو كان ادخره مع القدرة كان ذلك بخلا يناقض الكرم الإلهي وإن لم يكن قادراً عليه كان ذلك عجزاً .. الخ » (انظر ص ٤٩ ـ ٥١) . وانظر مثلا ما يذكره في الإحياء ١٣ / ١٨١ حيث يقول : « . . . بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي ، وكما ينبغي ، وبالقدر الذي ينبغي ، وليس في الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ، ولو كان ، وادخره مع القدرة ، ولم يتفضل بفعله ، لكان بخلا يناقض الجود ، وظلما يناقض العدل ... الخ » . وانظر « الغزالي » للدكتور أحمد فريد رفاعي ٢ / ٧٧ ـ ٨٤ (ط . عيسى الحلبي ، ١٣٥٦ / ١٩٣٧) ؛ الأخلاق عند الغزالي للدكتور زكي مبارك ، ص ٧٩ (ط. التجارية ، بدون تاريخ) .

وقد أنكر عليه طائفة هذا الكلام ، وتفصيله : أن الممكن يُراد به القدور . ولا ريب أن الله سبحانه يقدر على غير هذا العالم ، وعلى إبداع غيره إلى ما لا يتناهى كثرة ، ويقدر على غير ما فعله ، كما قد بيَّنا ذلك فى غير هذا الموضع ، وبُيِّن ذلك فى غير موضع من القرآن .

وقد يُراد به : إنه ما يمكن أحسن منه ولا أكمل منه ؛ فهذا ليس قدحاً فى القدرة ، بل قد أثبت قدرته على غير ما فعله ، لكن قال : ما فعله أحسن وأكمل مما لم يفعله . وهذا وصف له سبحانه بالكرم والجود والإحسان ، وهو سبحانه الأكرم فلا يتصور أكرم منه ، سبحانه وتعالى عمَّا يقول الظالمون علواً كبيراً .

آخره ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما .

رِسَالَة فى دُخول الجَنَّة

هَلْ يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ
أَمْ يَنقضُه قولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لا يدخلُ أحدٌ الجنّةَ بعملِهِ



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على محمد وآله وسلم .

سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية عن قوله تعالى : ﴿ وَنُودُوا أن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٤٣] ، هل يدخل أحد الجنة بعمله ، أم ينقضه قوله صلّى الله عليه وسلم : « لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قيل : ولا أنت ؟ ! قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

﴿ الجواب ﴾

الحمد لله .

المثبت فى القرآن ليس هو المنفى فى السنة

لا مناقضة بين ما جاء به القرآن وما جاءت به السنة ، إذ المثبت فى القرآن ليس هو المنفى فى السنة . والتناقض إنما يكون إذا كان المثبت هو المنفى ؛ وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [سورة الحاقة : ٢٤] ، وقال : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة السجدة : ١٩] ، وقال : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الواقعة : ٢٢-٢٤] . فبيّن بهذه النصوص أن العمل سببٌ للثواب . والباء للسبب ، كما فى مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٧] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [سورة البقرة : ١٦٤] ، ونحو ذلك مما يبيّن به الأسباب .

العمل سبب للثواب

ولا ريب أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة ، والله قدَّر لعبده المؤمن وجوب الجنة بما ييسره له من العمل الصالح ، كما قدَّر دخول النار لمن يدخلها بعمله السيء ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مامنكم من أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار . قالوا : يارسول الله أفلا نتَّكل على الكتاب وندع العمل ؟ قال : لا ، اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له ؛ أما من كان من أهل السعادة فسييسِّره لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسِّره لعمل أهل الشقاوة »[1] ، وقال : « إن الله خلق للجنة أهلا وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم وبعمل أهل الجنة يعملون ، وخلق للنار أهلا وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم وبعمل أهل النار يعملون »[2] .

السبب لا يستقل بالحكم

وإذا عُرِفَ أن « الباء » هنا للسبب فمعلوم أن السبب لا يستقل بالحكم . فمجرد نزول المطر ليس موجباً للنبات ، بل لا بد من أن يخلق الله أموراً أخرى ويدفع عنه الآفات المانعة ، فيربِّيه بالتراب والشمس والريح ، ويدفع عنه ما يفسده ، فالنبات محتاج – مع هذا السبب – إلى فضل من الله أكبر منه .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ ! قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل »

---

(١) سبق ورود هذا الحديث من قبل ، وتكلمت عنه هناك (ص ٩٣ ت ١) . وهو أيضاً فى : البخارى ٢ / ٩٦ (كتاب الجنائز ، باب موعظة المحدث عند القبر) ، ٦ / ١٧٠ – ١٧١ (كتاب التفسير ، باب سورة والليل إذا يغشى) ؛ الترمذى (بشرح ابن العربى) ٨ / ٣٠٠ (كتاب القدر ، باب ما جاء فى الشقاء والسعادة) ؛ سنن ابن ماجة ١ / ٣٠ – ٣١ (المقدمة ، باب فى القدر) .

(٢) الحديث فى : مسلم ٨ / ٥٥ (كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة . . . إلخ) ونصه : « عن عائشة أم المؤمنين : قالت : دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبى من الأنصار فقلت : يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه . قال : أو غير ذلك : يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلا ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » .

فإنه ذكره فى سياق أمره لهم بالإقتصاد . قال : « سدِّدُوا وقاربوا ، واعلموا أن أحدا منكم لن يدخل الجنة بعمله »[١] .

وقال : « إن هذا الدين متينٌ ، وإنه لن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، فسدِّدوا وقاربوا ، واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحة وشىء من الدلجة والقصد / تبلغوا »[٢] .

ظ ١٨٨

ليس جزاء الله على سبيل المعاوضة

فنفى بهذا الحديث ما قد تتوهمه النفوس من أن الجزاء من الله عز وجل على سبيل المعاوضة والمقابلة ، كالمعاوضات التى تكون بين الناس فى الدنيا ؛

---

(١) جاء هذا الحديث عن طرق متعددة وبألفاظ مختلفة فى كتب السنة ، والرواية التى أوردها ابن تيمية هنا تقرب من حديث عائشة رضى الله عنها المتفق عليه ، وهو مروى فى البخارى مرتين : ٨ / ٩٨ ، ٩٨ – ٩٩ (كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل) ؛ مسلم ٨ / ١٤١ (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى) ونصه – واللفظ لمسلم – « عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنها كانت تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يدخل الجنة أحداً عمله . قالوا ، ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة ، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل » .

والحديث متفق عليه أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٨ / ٩٨ (نفس الكتاب والباب) ؛ مسلم ٨ / ١٣٩ (نفس الكتاب والباب) وأوله : « لن ينجى أحداً منكم عمله .. إلخ . وجاء الحديث عن أبى هريرة من طرق متعددة وبألفاظ مختلفة فى : البخارى ٧ / ١٢١ (كتاب الطب ، باب تمنى المريض) ؛ مسلم ٨ / ١٣٩ – ١٤١ (نفس الكتاب والباب) ؛ سنن ابن ماجة ٢ / ١٤٠٥ (كتاب الزهد ، باب التوقى على العمل) ؛ مسند أحمد (ط . المعارف) الأرقام : ٧٢٠٢ ، ٧٤٧٣ ، ٧٥٧٧ . وروى الدارى الحديث فى سننه ٢ / ٣٠٥ – ٣٠٦ (كتاب الرقائق ، باب لا ينجى أحدكم عمله) عن جابر رضى الله عنه . والحديث فى المسند (ط . الحلبى) فى أكثر من عشرين موضعاً . وانظر مفتاح كنوز السنة «الأعمال» .

(٢) فى صحيح البخارى ١ / ١٢ (كتاب الإيمان ، باب الدين يسر) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ، « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوه والروحة وشىء من الدلجة » .

وروى السيوطى فى الجامع الصغير حديثا عن أنس رضى الله عنه : « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق » . قال السيوطى إن هذا الحديث فى المسند وصححه . وروى حديثا آخر عن جابر : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » . قال السيوطى أنه فى مسند البزار وضعفه .

فإن الأجير يعمل لمن استأجره فيعطيه أجره بقدر عمله على طريق المعاوضة ، إن زاد زاد أجرته ، وإن نقص نقص أجرته ، وله عليه أجرة يستحقها كما يستحق البائع الثمن . فنفى صلى الله عليه وسلم أنْ يكون جزاء الله وثوابه على سبيل المعاوضة والمقابلة والمعادلة .

والباء هنا كالباء الداخلة فى المعاوضات ، كما يقال : استأجرت هذا بكذا ، وأخذت أجرتى بعملى .

غلط من توهم ذلك من وجوه

الأول

وكثير من الناس قد يتوهم ما يشبه هذا ، وهذا غلط من وجوه :

أحدها : أن الله تعالى ليس محتاجاً إلى عمل العباد كما يحتاج المخلوق إلى عمل من يستأجره ، بل هو سبحانه كما قال فى الحديث الصحيح : « إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضرِّى فتضرُّونى »[1]

والعباد إنما يعملون لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٦] ، وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [سورة فصلت : ٤٦] ، وقال : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [سورة الزمر : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [سورة النمل : ٤٠] ،

---

(١) هذا جزء من الحديث القدسى فى تحريم الظلم ، وأوله : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » . وفيه « ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » . وقد روى الحديث عن أبى ذر رضى الله عنه : مسلم ٨/١٦–١٨ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم) ؛ سنن ابن ماجه ٢ / ١٤٢٢ (كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة) .

ولابن تيمية رسالة فى شرح هذا الحديث نشرت فى مجموعة الرسائل المنيرية ٣/٢٠٥–٢٤٦ (ط . المطبعة المنيرية ، ١٣٤٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٩٧] .

وأما العباد فإنهم محتاجون إلى من يستعملون لجلب منفعة أو دفع مضرّة ، ويعطونه أجرة نفعه لهم .

الثانى

الثانى : أن الله هو الذى مَنَّ على العامل : بأن خلقه أولاً وأحياه ورزقه ، ثم بأن أرسل إليه الرسل وأنزل إليه الكتب ، ثم بأن يسّر له العمل وحبّب إليه الإيمان وزيّنه فى قلبه ، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان .

والمخلوق إذا عمل لغيره لم يكن المستعمِل هو الخالق لعمل أجيره ، فكيف يُتصوّر أن يكون للعبد على الله عوض وهو خلقَه وأحدثه وأنعم على العبد به ؟! وهل تكون إحدى نعمتيه عوضاً [1] عن نعمته الأخرى وهو ينعم بكلتيهما ؟! [2] .

الثالث

الوجه الثالث : أن عمل العبد لو بلغ ما بلغ ليس هو مما يكون ثواب الله مقابلاً له ومعادلاً حتى يكون عوضاً ، بل أقل أجزاء الثواب يستوجب أضعاف ذلك العمل .

الرابع

الرابع : أن العبد قد يُنعّم ويُمتّع فى الدنيا بما أنعم الله به عليه ، مما يستحق بإزائه [3] أضعاف ذلك العمل إذا طلبت المعادلة والمقابلة . وإذا كان كذلك لم يبالغوا فى الاجتهاد مبالغة من يضرّه الاجتهاد ، كالمُنْبَتّ الذى لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، وزال عنهم العجب ، وشهدوا إحسان الله بالعمل .

---

(١) فى الأصل : عوض .

(٢) فى الأصل : بكليهما .

(٣) فى الأصل : بإزائها .

الخامس

الخامس : أن العباد لا بدّ لهم من سيئات ، ولا بد فى حياتهم من تقصير . فلولا عفو الله لهم عن السيئات ، وتقبّله أحسن ما عملوا ـ لما استحقوا ثواباً .

ص ١٨٩

/ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « من نُوقشَ الحسابَ عُذِّب . قالت عائشة : يارسول الله ، أليس الله يقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ [سورة الانشقاق : ٧ ، ٨] ؟ قال : ذلك العَرْض ، ومن نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب »[(١)] .

ولهذا جاء فى حديث الشفاعة الصحيح إذا طُلبت الشفاعة من أفضل الخلق : آدم ونوح وإبراهيم وموسى ، واعتذر كل منهم بما فعل ـ قال لهم عيسى : « اذهبوا إلى محمد ، عبدٍ غُفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »[(٢)] .

ولهذا قال فى الحديث لما قيل له : ولا أنت يارسول الله ؟ ! قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بعفوه » . فتبين بهذا الحديث أنه لابد من عفو الله وتجاوزه عن العبد ، وإلا فلو ناقشه على عمله لما استحق به الجزاء . قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ [سورة الأحقاف : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٣ـ٣٥] .

---

(١) الحديث مع اختلاف فى الألفاظ فى : البخارى ١ / ٢٨ (كتاب العلم ، باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه) ؛ مسلم ٨ / ١٦٤ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب إثبات الحساب) .

(٢) حديث الشفاعة مروى من وجوه عدة عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة . انظر البخارى ٦ / ٨٤ ـ ٨٥ (كتاب التفسير ، سورة بنى إسرائيل : باب ذرية من حملنا مع نوح) ؛ مسلم ١ / ١٢٣ ـ ١٣٠ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة) ؛ المسند (ط . المعارف) ١ / ١٦١ ـ ١٦٣ (رقم ١٥) . وانظر أيضا : الترغيب والترهيب ٥ / ٣٩٨ـ٤٠٦ ؛ تيسير الوصول ٤ / ١٠٣ ـ ١٠٥ .

وإذا تبين ذلك أفاد هذا الحديث ألا يُعجَب العبد بعمله، بل يشهد نعم الله عليه، وإحسانه إليه فى العمل، وأنه لا يستكثر العمل، فإن عمله لو بلغ ما بلغ، إن لم يرحمه الله ويعف عنه ويتفضّل عليه، لم يستحق به شيئاً، وأنه لا يكلف من العمل ما لا يطيق ظانًّا أنه يزداد بذلك أجره، كما يزداد أجر الأجير الذى يعمل فوق طاقته فإن ذلك يضره، إذ المُنْبَتّ لا أرضاً [1] قطع ولا ظهراً أبقى .

وأحب العمل ما داوم عليه صاحبه، فإن الأعمال بالخواتيم، بخلاف عمل الأُجَرَاء فى الدنيا، فإن الأجرة تتقسّط على المنفعة، فإذا عمل بعض العمل استحق من الأجرة بقدر ما عمل ولو لم يعمل إلا قليلاً . فمن خُتم له بخير استحق الثواب، وكفَّر الله بتوبته سيئاته، ومن خُتم له بكفر أحبطت رِدَّته حسناته . فلهذا كان العمل الذى[داوم][2] عليه صاحبه إلى الموت خيراً ممن أعطى قليلا ثم أكْدَى، وكلَّف نفسه مالا يطيق، كما يفعله كثير من العمال .

فقوله صلى الله عليه وسلم : « سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً منكم لن يدخل الجنة بعمله » ينفى المعاوضه والمقابلة التى يولِّد اعتقادها هذه المفاسد .

وقوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يثبت السبب الموجب لأن يفعله العبد . ولهذا قال بعضهم : « اعمل، وقدِّر أنك لم تعمل » . وقال آخر : « لا بد منك، وبك وحدك لا يجىء شىء » .

لا بد من العمل ومن رجاء رحمة الله

فلا بد من العمل المأمور به، ولا بد من رجاء رحمة الله وعفوه وفضله، وشهود العبد لتقصيره، ولفقره إلى فضل ربه، وإحسان ربه إليه .

وقد قال سفيان بن عيينة : « كانوا يقولون : ينجون من النار بالعفو، ويدخلون الجنة بالرحمة، ويتقاسمون المنازل بالأعمال » .

---

(١) فى الأصل : لا أرضى .

(٢) داوم : ليست فى الأصل، وزدتها ليتضح المعنى .

فنبّه على أن مقادير الدرجات فى الجنه تكون بالأعمال ، وأن نفس الدخول هو بالرحمة . فإن الله قد يدخل الجنه من يُنْشِئه لها فى الدار الآخرة بخلاف النار ، فإنه أقسم أن يملأها من إبليس وأتباعه .

ظ ١٨٩

الله يدخل الجنة بالعمل وبغيره من الأسباب

/ لـكن مع هذا فالعمل الصالح فى الدنيا سبب للدخول والدرجة ، وإن كان الله يدخل الجنة بدون هذا السبب ، كما يدخل الأبناء تبعاً لآبائهم . وليس كل ما يحصل بسبب لا يحصل بدونه ، كالموت الذى يكون بالقتل ويكون بدون القتل ، ومن فهم أن السبب لا يوجب المسبب ، بل لا بد أن يضمّ الله إليه أموراً أخرى ، وأن يدفع عنه آفات كثيرة ، وأنه قد يخلق المسبَّب بدون السبب ـ انفتح له حقيقة الأمر من هذا وغيره . والله تعالى أعلم .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

رسالة في الجواب عمن يقول إن صفات الرب تعالى نسب وإضافات وغير ذلك



(1) سؤال عمّن يقول : إن صفات الرب نسب وإضافات وغير ذلك

ص ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على محمد وآله وسلم تسليما .

أما بعد ، فهذا(1) فصل مختصر من سؤال سُئل عنه شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى .

نص السؤال

مايقول السادة العلماء أئمة الدين – رضى الله عنهم أجمعين – فيمن قال : إن صفات الرب لاتتعدد ولا ينفصل بعضها عن بعض إلا فى مراتب العبارات وموارد الإشارات ، فإذا أضيف علمه إلى الاطلاع على ضمير الصغير والكبير يُقال : بصير ، وإذا ابتدر منه الرزق يُقال : رزّاق ، وإذا أفاض من مكنونات علمه على قلب أحدٍ من الناس بأسرار إلاهيته ودقائق جبروت ربوبيته يقال : متكلم ، وليس بعضه آلة السمع وبعضه آلة البصر وبعضه آلة الكلام ، بل كله بكليَّة ذاته ، لايشغله شىء عن شىء .

فهل هذا القول صواب أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

﴿الجواب﴾

هذه مقالة المتفلسفة والقرامطة والاتحادية

الحمد لله رب العالمين . ليس هذا القول صوابًا ، وإن كان بعضه صوابًا ، بل هذا القول قرع باب الإلحاد ، وتوطئة سبيل الاتحاد ، فإن هذا القول هو قول غُلاة نفاة الصفات الجهمية من متفلسفٍ وقرمطى واتحادى ونحوهم ، وليس

(١ – ١) : زيادة فى (ع) .

هو قول المعتزلة والنجَّارية[١] والضِّرارية[٢] والشيعة ونحوهم ممَّن يقول : القرآن مخلوق ، بل هو شر من قول هؤلاء ، فإن هؤلاء متفقون على أنه خلق فى غيره كلاماً ، وأنه متكلم بذلك الذى خلقه فى غيره ، وأن موسى والملائكة يسمعون ذلك الكلام المخلوق الذى هو كلام الله عند هؤلاء المبتدعة .

قالوا : إنه لايكون متكلما إلا بكلام يقوم به ، وإن الكلام إذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل لالغيره ، كسائر الصفات من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر ونحوه ، فيقال : عالم وقادر وسميع وبصير ونحو ذلك .

رد السلف عليهم

ولهذا قال من قال من السلف : من قال : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا ﴾ [سورة طه : ١٤] مخلوق ، فهو بمنزلة من صدَّق فرعون فى قوله :

---

(١) النجارية هم أتباع أبى عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله النجار ، ولسنا نعرف تاريخ مولده ووفاته ، ولكن ابن النديم يذكر فى الفهرست (ص ٢٥٤) أنه مات بسبب العلة التى أصابته عندما أفحمه النظام فى جدال جرى بينهما ، فيكون بذلك معاصراً للنظام الذى توفى حوالى سنة ٢٣١ على الأرجح . وعلى الرغم من أن الشهرستانى يعده من المجبرة إلا أنه يقول إنه يوافق الصفاتية فى خلق الأعمال ، بل يذكر أنه قال بالكسب على حسب مايثبته الأشعرى من بعده . والنجارية يوافقون المعتزلة فى نفى الصفات وفى القول بأن المعرفة واجبة بالعقل قبل ورود السمع ، ويعدهم الأشعرى من المرجئة ، وينقل الشهرستانى عن الكعبى قوله إن النجار كان يقول إن البارىء تعالى بكل مكان وجوداً لا على معنى العلم والقدرة . انظر : مقالات الإسلاميين ١/١٩٩ - ٢٠٠ ، ٣١٥ - ٣١٦ ؛ الملل والنحل ١/٨١ - ٨٢ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ؛ الحور العين للحميرى ، ص ٢٥٧ ، ٢٦٤ ؛ أصول الدين لابن طاهر ، ص ٣٣٤ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦١ - ٦٢ ؛ الفهرست لابن النديم ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ؛ اللباب لابن الأثير ٣ / ٢١٥ ؛ الأعلام للزركلى ٢ / ٢٧٦ .

(٢) الضرارية هم أتباع ضرار بن عمرو (انظر لسان الميزان ٣ / ٢٠٣) وحفص الفرد (انظر لسان الميزان ٢ / ٣٣٠ - ٣٣١ ؛ الفهرست لابن النديم ، ص ٢٥٥) وهم يشبهون النجارية فى الكثير من أقوالهم ، فهم ينفون الصفات ، ويقولون بخلق الله لأفعال العباد ، ويبطلون القول بالتولد ، ولكنهم ينكرون القول بوجوب المعرفة قبل ورود السمع.

انظر : الملل والنحل ١/ ٨٢ - ٨٣ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٩ - ١٣٠ ؛ أصول الدين لابن طاهر ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦٢ - ٦٣ ؛ مقالات الإسلاميين ١ / ٣١٣ - ٣١٤ ؛ التنبيه والرد للملطى ، ص ٤٣ ؛ الحور العين للحميرى ، ص ١٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ؛ البدء والتاريخ ٥ / ١٤٦ - ١٤٧ ؛ الفصل لابن حزم ٣ / ١٧٣ - ١٧٤ .

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [سورةالنازعات : ٢٤] ، لأنه لو كان قوله : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ﴾ مخلوقاً لـكان كلاماً للمحل الذى خُلق فيه : إما الشجرة وإما الهواء ، فيـكون الشجرة أو الهواء هو القائل : « إننى أنا الله » . ومن جعل هذا ربًّا فهو بمنزلة من جعل فرعون ربًّا ، وإن كان الله خالق ذلك الـكلام فى الشجرة والهواء ، فقد ثبت بالحجة أنه خالق أفعال العباد ، وأنه أنطق كل شىء ، فـكل ناطق فى الوجود هو أنطقه وخلق نطقه ، فيجب أن يكون كل نطق فى الوجود كلامه ، حتى قول فرعون : « أنا ربـكم الأعلى » . وحينئذٍ فلا فرق بين قوله : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾ وبين خلقه على لسان فرعون : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ .

وهذا اللازم تفر منه المعتزلة وغيرهم ، إذ هم لايقرون بأن الله خالق أفعال العباد ، لـكن يلزمهم بالحجة ما يخلقه الله من الـكلام ، مثل : إنطاق الجلود ، وتسبيح الحصى ، وتسليم الحجر عليه عليه السلام ، وشهادة الألسنة / والأيدى والأرجل ، فإن هذا ليس من أفعال العباد ، بل ذلك خلق الله . فيلزمهم أن يقولوا : ذلك كله كلام الله ، وهو باطل ، وهم لايلتزمونه . ظ ٤٥

وإنما التزم مثل هذا الاتحادية والحلولية الذين يقولون : إنه وجود المخلوقات، أو : هو سارٍ فى جميع المخلوقات . كما قال قائلهم :

وكل كلامٍ فى الوجـود كلامه ... سـواء علينا نثره ونظامه(١)

---

(١) البيت لابن عربى وقد ذكره فى الفتوحات المـكية ٤ / ١٤١ ونصه هناك :

ألا كل قول فى الوجود كلامه ... سواء علينـا نثره ونظـامه

والبيت الذى يتلوه :

يعم به أسمـاع كل مكون ... فمنه إليـه بدؤه وختامه

ومن هؤلاء من يفرِّق بين قول الحلاّج وأمثاله : « أنا الحق »[١] ، وبين قول فرعون : « أنا ربكم الأعلى » بأن الحلاَّج وأمثاله قالوا ذلك وهم فانون ، فالحق نطق على ألسنتهم لغيبتهم عن شهود أنفسهم ، وأما فرعون وأمثاله ممن هم فى شهود أنفسهم فقالوه مع رؤيتهم أنفسهم ، وحاصله أن الله تعالى هو الذى نطق على لسان الحلاَّج وأمثاله .

وهذا شر من قول من يقول : القرآن مخلوق خلقه الله فى الهواء ونحوه ، لأن الجماد ليس له نطق يُضاف ، فوجود الكلام فيه شبهه توجب جعله كلاماً لغيره ، أما الإنسان الحى إذا وجد منه مثل هذا الكلام مضافاً إلى نفسه ، وجُعل المتكلم به هو الله ، فهذا صريح بحلول الحق فيه واتحاده به كما تقوله[٢] النصارى فى المسيح .

ومعلوم أن النصارى أكفر من المعتزلة ، ومعلوم بالاضطرار من العقل والدين أن الله لم يتكلم على لسان بشر ، كما يتكلم[٣] الجنى على لسان المصروع ، ولكن يبعث الرسل فيبلغون كلامه ، والمرسِل يقول لرسوله : قل على لسانى كذا ، ويقول : كلامى على لسان رسولى فلان ، أى كلامى الذى بلَّغه عنى .

ومن هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله قال على لسان نبيه : سمع الله لمن حمده ، أى هذا من الكلام الذى بلغه الرسول عن الله ، كما قال تعالى :

---

(١) فى كتاب « أخبار الحلاج » ، ص ١٠٨ (تحقيق ماسينيون وكراوس ، باريس ، ١٩٣٦) : « وقال أحمد بن فاتك : سمعت الحلاج يقول :

أنا الحق والحق للحق حق لابس ذاته فما ثم فرق

(٢) ك : فهذا صريح بحول الحق فيه وإيجاده كما تقوله .. الخ ؛ ع : .. وإيجاده به .. الخ .

(٣) ك : تكلم .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ [سورة الدخان : ٥٧] ، كما يقول المرسِل : قد قلت لكم على لسان رسولى فلان كذا وكذا .

وهذا كما أن القول يضاف إلى الرسول لأنه بلّغه وأدّاه ، فيضاف إلى جبريل تارة وإلى محمد صلى الله عليهما وسلم[1] أخرى ، كما قال فى آية : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الحاقة : ٤٠ـ ٤٢] ، فهذا محمد . وقال فى الآية الأخرى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [سورة التكوير : ١٩ـ٢١] ، فهذا جبريل .

وأما جمهور العلماء من أهل الفقه والحديث والتصوف والكلام فطردوا الدليل وأثبتوا لله صفات فِعليّة تقوم بذاته ، وهذا هو المعلوم الذى دلّ عليه العقل واللغة والشرع .

الناس فى مسألة الصفات ثلاث مراتب

فالناس ثلاث مراتب : منهم من نفى قيام الصفات والأفعال به كالمعتزلة ؛ ومنهم من أثبت قيام الصفات به دون الأفعال كالكُلاَّبية[2] ؛ ومنهم من أقرّ بقيام الصفات والأفعال وهم جمهور الأمة، كما ذكرته الحنفية فى كتبهم ، وكما ذكره

---

(١) ك : صلى الله عليه وسلم .

(٢) أتباع أبى محمد عبد الله بن سعيد بن محمد بن كلاب (بضم الكاف وتشديد اللام) القطان المتوفى بعد سنة ٢٤٠ بقليل . قال عنه ابن حزم إنه شيخ قديم للأشعرية . انظر عنه وعن مذهبه : لسان الميزان ٣ / ٢٩٠ ـ ٢٩١ ؛ طبقات الشافعية ٢ / ٥١ ؛ الفهرست لابن النديم ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ؛ مقالات الإسلاميين ١ / ٣٢٥ ، ٢ / ٥٢ ، ٥٤ ، ١١٨، ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ٢٣١، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ؛ الخطط للمقريزى ٢ / ٣٥٨، ٣٥٩ ؛ نهاية الإقدام ١٨١ ، ٣٠٣ ؛ الملل والنحل ١ / ٨٥ ؛ أصول الدين ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ٢٢٢ ، ٢٥٤ ؛ الفصل لابن حزم ٢/ ١٢٣ ، ٤ / ٢٠٨ ؛ البدء والتاريخ ٥ / ١٥٠ .

البغوى[١] وغيره من أصحاب الشافعى عن أهل السنة ، وكما ذكره أبو إسحاق ابن شاقلا[٢] ، وأبو عبد الله بن حامد[٣] ، والقاضى أبو يعلى فى آخره قوليه /وابنه أبو الحسين[٤] ، وغيرهم[٥] من أصحاب أحمد ، وذكره أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذى عن الصوفية فى كتاب « التعرف فى مذاهب التصوف »[٦] ، وذكره من ذكره من أئمة المالكية ، وذهب إليه طوائف من أهل الكلام من المرجئة[٧] ،

س ٤٦

---

(١) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوى المعروف بالفراء ، الفقيه الشافعى المحدث المفسر توفى سنة ٥١٠ . انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٤ / ٢١٤ - ٢١٧ ؛ وفيات الأعيان ١ / ٤٠٢ ؛ تذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٥٧ ؛ الأعلام للزركلى ٢ / ٢٨٤ .

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شاقلا البزار من فقهاء الحنابلة ومن المحدثين ، توفى سنة ٣٦٩ عن أربع وخمسين سنة . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢ / ١٢٨ - ١٣٩ ؛ العبر للذهبى ٢ / ٣٥١ .

(٣) أبو عبد الله الحسن بن حامد بن على بن مروان البغدادى ، إمام الحنابلة فى زمانه ، من مصنفاته «الجامع» فى مذهب الحنابلة ، و« شرح الخرقى» ، توفى سنة ٤٠٣ . انظر ترجمته فى: طبقات الحنابلة ٢/١٧١-١٧٧ ؛ المنتظم لابن الجوزى ٧/٢٦٣ - ٢٦٤ ؛ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ، س ٥١٩ ؛ النجوم الزاهرة ٤ / ٢٣٢ ؛ الأعلام ٢ / ٢٠١ .

(٤) أبو الحسين محمد بن محمد بن الحسين بن محمد المعروف بابن أبى يعلى وبابن الفراء ، صاحب كتاب « طبقات الحنابلة » ومن فقهاء الحنابلة وعلمائهم . ولد سنة ٤٥١ وتوفى سنة ٥٢٦ . انظر ترجمته فى :الذيل لابن رجب ١ / ١٧٦ - ١٧٨ ؛ الوافى بالوفيات ١/١٥٩ ؛ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ، ص ٥٢٩ ؛ شذرات الذهب ٤ / ٧٩ ؛ الأعلام ٧ / ٢٤٩ .

(٥) ك ، ع : وغيرهما .

(٦) انظر ما ذكره أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠) فى « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، ص ٣٥ - ٣٧ ط . عيسى الحلبى ، ١٣٨٠/١٩٦٠ .

(٧) المرجئة هم الذين كانوا يؤخرون العمل عن الإيمان ، بمعنى أنهم كانوا يجعلون مدار الإيمان على المعرفة بالله والمحبة له والإقرار بوحدانيته ، ولايجعلون هذا الإيمان مرتبطاً بالعمل . وأكثر المرجئة يرون أن الإيمان لا يتبعض ولا يزيد ولا ينقص ، وبعضهم يقول إن أهل القبلة لن يدخلوا النار مهما ارتكبوا من المعاصى . انظر ماسبق أن ذكرته فى شرح معنى « الإرجاء » ص ١١٢ ؛ وانظر : مقالات الإسلاميين ١ / ١٩٧ - ٢١٥ ؛ الملل والنحل ١ / ١٢٥ - ١٣٠ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٢ - ١٢٥ ؛ الفصل لابن حزم ٤ / ٢٠٤ - ٢٠٥ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٥٩ - ٦١ ؛ الحور العين ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ؛ البدء والتاريخ ٥ / ١٤٤ - ١٤٦ ؛ الخطط للمقريزى ٢ / ٣٤٩ - ٣٥٠ .

والشيعة والكرّامية ،[(١)] وذهب إليه جمهور أهل الحديث .

مقالة أهل السنة فى كلام الله

والمقصود هنا أن الجهمية من المعتزلة ونحوهم الذين قالوا : القرآن مخلوق ـ وقد عُرف مقالات السلف فى تكفيرهم وتضليلهم ـ هم خيرٌ قولاً من أصحاب هذا القول المذكور فى السؤال القائلين : « إذا فاض من مكنونات علمه على قلب أحد من الناس بأسرار إلاهيّته ، ودقائق جبروت ربوبيته يُقال : متكلم » ، فإن هذا قول من لا يجعل لله كلاماً قائماً به[(٢)] ، كما يقوله الذين يقولون : إنه خلق كلاماً بائناً منه ، وقد قال الإمام أحمد : « كلام الله من الله ، ليس بائناً منه »[(٣)] والقرآن الذى أنزله هو كلامه لا كلام غيره ، إذ الكلام كلام من قاله[(٤)] مبتدئاً لا كلام من قاله[(٤)] مبلِّغاً مؤدياً .

---

(١) الكرامية هم أتباع أبى عبد الله محمد بن كرام بن عراق بن حزبه السجستانى المتوفى سنة ٢٥٥ ، وهم يوافقون السلف فى إثبات الصفات ، ولكنهم يبالغون فى ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم ، وكذلك هم يوافقون السلف فى إثبات القدر والقول بالحكمة ، ولكنهم يوافقون المعتزلة فى وجوب معرفة الله تعالى بالعقل وفى الحسن والقبح العقليين ، وهم يعدون من المرجئة لقولهم بأن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب . انظر عن ابن كرام والكرامية : لسان الميزان ٥ / ٣٥٣ ـ ٣٥٦ ؛ ميزان الاعتدال ٤ / ٢١ ـ ٢٢ ؛ شذرات الذهب ٢ / ١٢١ ؛ تذكرة الحفاظ ٢ / ٥٣٦ ؛ تاريخ بغداد ٤ / ١١٨ ؛ اللباب لابن الأثير ٣ / ٣٢ ؛ الأعلام ٧ / ٢٣٦ ؛ مقالات الإسلاميين ١ /٢٠٥ ؛ الفصل لابن حزم ٤/٤٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ؛ الملل والنحل ١ / ٩٩ ـ ١٠٤ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٣٠ ـ ١٣٧ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦٥ ـ ٧٠ ؛ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازى ، ص ٦٧ ؛ البدء والتاريخ ٥ / ١٤١ ؛ الخطط للمقريزى ٢ / ٣٤٩ ، ٣٥٧ ؛ Tritton (A. S.) Muslim Theology, pp. 108 - 112, London, 1947.

(٢) فى النسختين : كلاماً لا قائماً به ... ، ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته ، أو تكون العبارة : فإن هذا قول من يجعل لله كلاماً لا قائماً به .

(٣) فى ترجمة الإمام أحمد فى « تاريخ الإسلام للذهبى » (مقدمة المسند ، ط . المعارف ، ص ٧٩) : « وقال الخلال : أخبرنى محمد بن سليمان الجوهرى حدثنا عبدوس بن مالك العطار سمعت أحمد بن حنبل يقول : ... والقرآن كلام الله غير مخلوق ، وإنه من الله ليس ببائن منه ... » .

(٤ ـ ٤) : ساقط من (ك) .

ولهذا قال السلف والأئمة : « القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود » . فقولهم : « منه بدأ » نبَّهوا به على مخالفة الجهمية الذين قالوا : إنه خلقه فى غيره منفصلاً عنه ، فقال أهل السنة : «منه بدأ » : لم يبتدئ من غيره من الموجودات ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [سورة النمل : ٦] ، وقال : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ [سورة السجدة : ١٣] ، وقال : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [سورة هود : ١] ، ولا نجعل لله كلاماً مخلوقاً فى غيره منفصلا عنه ، كما قالته [١] المعتزلة ونحوهم من الجهمية .

فإن هؤلاء وإن كان قولهم من أعظم القول فِرْيةً وضلالاً ، فهو أقل كفراً وضلالاً من قول أهل القول المسئول عنه القائلين : « إذا فاض من مكنون علمه على قلب أحد من الناس » ، فإن هؤلاء لم يجعلوه متكلماً إلا بما جعله فى القلوب من العلم .

مقالة الفلاسفة فى كلام الله

وهذا فى الأصل قول المتفلسفة والصابئة ونحوهم ، الذين لا يجعلون لله كلاماً إلا ما أفاضه على قلوب العباد من العلوم والمعارف ، ويجعلون تكليمه للعباد نوع تعريف يعرِّفهم به الأمور ، ويقولون : إنه تتشكل فى نفس الشىء أشكال نورانية ـ هى ملائكة الله عندهم ـ وأصوات قائمة بنفسه ، هى كلام الله عندهم ، ويزعمون أن تكليم الله لموسى هو من هذا الباب ، إنما هو فيض فاض عليه من العقل الفعّال أو من غيره ، وقد يجعلون العقل الفعّال هو جبريل ، وليس التكليم عندهم مختصًّا [٢] بأحد ، ولكنه يفيض بحسب استعداد النفوس [٣] .

(١) ك : كما قالت .

(٢) فى النسختين : مختص ، وهو خطأ .

(٣) انظر مصداق كلام ابن تيمية عن الفلاسفة فى مؤلفات ابن سينا : رسالة فى القوى الإنسانية ، ص ٦٦ ـ ٧٠ ؛ الإشارات والتنبيهات ٤ / ٨٦١ ـ ٨٩٠ ؛ الشفاء (النفس) ١ / ١٦٣ ـ ١٧٧ ؛ الرسالة العرشية ، ص ١٥ ـ ١٦ ؛ النجاة ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

وعلى قولهم : فجميع الخلق يكلِّمهم تكليما كما كلَّم موسى ، وكل كلام صادق تكلم به ذو نفسٍ صافية فهو كلام الله كما أن القرآن كلام الله ، فيلزمهم أن كل ما تكلم به الأنبياء فَمَنْ دونهم من الخبر الصادق والأمر بالخير هو كلام الله ، وأن ذلك كله من نوع القرآن ، وأن يكون القرآن كلام البشر ، ولا فرق عندهم بين قول البشر وقول الله ، بل يلزمهم أن جميع ما يتكلم به البشر كلام الله ، من أجل أن ذلك يفيض على قلوب البشر ، حتى الكذب والكفر ، فإن جهة الإفاضة واحدة فى الجميع ، / وكل ما يلزم القائلين بأن القرآن مخلوق يلزم هؤلاء وزيادة ، فإن أولئك يجعلونه مخلوقاً خارجاً عن نفس النبى ، وهؤلاء لا [1] يجعلون له محلا إلا نفس النبى . ظ ٤٦

متابعة الغزالى للفلاسفة

وهذا القول هو قول المتفلسفة ، ووقع فيه طوائف من المنتسبين إلى الملل من اليهود والنصارى ، ومن المنتسبين إلى المسلمين ممن خلط الفلسفة بالتصوف ، مثل أهل الكلام المسئول عنه وأمثاله ، ومثل ما وقع لأبى حامد فى كتاب «المضنون به على غير أهله» الأول والثانى ، ونحو ذلك من المصنَّفات مثل «مشكاة الأنوار» و «مسائل النفخ والتسوية» و «كيمياء السعادة» و «جواهر القرآن» [2] ،

---

(١) لا : ساقطة من (ع) .

(٢) يشير ابن تيمية هنا إلى رسائل عدة للغزالى منها « المضنون به على غير أهله » والمضنون الثانى ويسمى « المضنون الصغير » أو « الأجوبة الغزالية فى المسائل الأخروية » وطبعا ضمن مجموعة بالمطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣٠٩ . وطبعا أخيراً ضمن مجموعة « القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى » ، مكتبة الجندى ، القاهرة ، بدون تاريخ . وأما مشكاة الأنوار فطبع مراراً وآخر الطبعات هى طبعة الدار القومية ، ١٣٨٣ / ١٩٦٤ بتحقيق الدكتور أبى العلا عفيفى . وطبع « كيمياء السعادة » أيضاً ضمن مجموعة ، ط . مكتبة الجندى ، بدون تاريخ . وأما « جواهر القرآن » فطبع بالمكتبة التجارية أكثر من مرة ، منها ط . سنة ١٣٥٢/١٩٣٣ . وأما « مسائل النفخ والتسوية » فهى نفس رسالة « المضنون الصغير » (انظر : مؤلفات الغزالى للدكتور عبد الرحمن بدوى ، ص ٣١٨-٣١٩ ، ط . المجلس الأعلى للفنون والآداب ، ١٩٦٠) .

وانظر ما سيذكره ابن تيمية بعد صفحات ، ص ١٦٨ - ١٧٠ . وانظر مثلا : رسالة المضنون به على غير أهله ، ص ٣٢٠ ، وانظر أيضاً رسالة « السبعينية » لابن تيمية ، ضمن المجلد الخامس من مجموعة فتاوى ابن تيمية ، ط . الكردى ، القاهرة ، ١٣٢٩ .

وما يشير إليه أحياناً فى « الإحياء » وغيره ، فإنه كثيراً ما يقع فى كلامه ماهو مأخوذ من كلام الفلاسفة ويخلطه بكلام الصوفية أو عباراتهم ، فيقع فيه كثير من المتصوفة الذين لايميزون بين حقيقة دين الإسلام وبين ما يخالفه من الفلسفة الفاسدة وغيرها ، لا سيما إذا بُنِى على ذلك واتُّبِعَت لوازمُه ، فإنه يفضى إلى قول ابن سبعين وابن عربى صاحب « الفصوص » وأمثالهما ممن يقول بمثل هذا الكلام ، وحقيقة مذهبهم يؤول إلى التعطيل المحض ، وأنه ليس للعالم ربّ مباين له ، بل الخالق هو المخلوق ، والمخلوق هو الخالق .

مقالة ابن عربى فى الفصوص

كما قال صاحب « الفصوص » [1] : « ومن أسمائه الحسنى : العلىّ ؛ عَلَى مَنْ وما ثَمّ إلا هو ؟ ! [2] أو عن ماذا وما هو إلا هو ؟ ! فعلوّه لنفسه ، وهو من حيث الوجود عين الموجودات ، فالمسمَّى محدثات هى العَلِيّة لذاتها وليست إلا هو » .

إلى أن قال[3] : « فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، فهو عين ما ظهر ، وهو عين ما بطن فى حال ظهوره ، وما ثمّ من يراه غيره ، وما ثمّ يَبْطُنُ عنه سواه[4] ، فهو ظاهر لنفسه باطن عنه ، وهو المسمَّى أبو سعيد الخراز[5] وغير ذلك من أسماء المحدثات » .

إلى أن قال[6] : « ومن عرف ما قررناه فى الأعداد ، وأن نفيها عين

---

(١) فى فصوص الحكم ١/٧٦ ، وسنقابل ما ذكره ابن تيمية هنا عليه .

(٢) فى الفصوص بعد هذا الكلام توجد عبارة ليست فى النسختين وهى : « فهو العلى لذاته » .

(٣) فى الفصوص ١/٧٧ . وسبق أن نقلت نص الفصوص فيما تقدم (ص١٠٥ ت١) .

(٤) كلمة « سواه » ليست فى الفصوص .

(٥) فى الفصوص : أبا سعيد الخراز . وأشار الدكتور أبو العلا عفيفى الى أنها فى نسخة أخرى : « أبو سعيد الخراز » .

(٦) فى الفصوص ١/٧٨ .

إثباتها[١] ، علم أن الأمر الخالق المخلوق ، وأن الأمر المخلوق الخالق ، كل ذلك من عين واحدة ، لا بل هو العين الواحدة ، وهو العيون الكثيرة : ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ [سورة الصافات: ١٠٢] فالولد[٢] عين أبيه ، فما رأى يذبح سوى نفسه ، وفداه بذبح عظيم[٣] ، فظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان ، وظهر بصورة ولد[٤] من هو عين الوالد ، ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [سورة النساء : ١] ، فما نكح سوى نفسه » .

إلى أن قال[٥] : « فالعلىُّ لنفسه هو الذى يكون له الكمال الذى يستغرق به جميع الأمور الوجودية والنسب العدمية[٦] سواء كانت محمودة عُرفاً وعقلاً وشرعاً ، أو مذمومة عُرفاً وعقلا وشرعاً ، وليس ذلك لأحد إلا لمسمّى الله خاصة[٧] » .

وقال[٨] : « ألا ترى الحق[٩] يظهر بصفات المحدثات ، وأخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص والذّم[١٠] ؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها / إلى آخرها ، فكلها[١١] حق له ، كما هى صفات المحدثات حق للحق » .

ص ٤٧

---

(١) فى الفصوص بعد ذلك : « علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه ، وإن كان قد تميز الخلق من الخالق . فالأمر الخالق المخلوق ... الخ » .

(٢) فى الفصوص : والولد .

(٣) الإشارة هنا إلى قوله تعالى : ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[سورة الصافات:١٠٧]

(٤) فى الفصوص هذه الزيادة : « بل بحكم ولد» .

(٥) فى الفصوص ١ / ٧٩ .

(٦) فى الفصوص بعد ذلك: «بحيث لا يمكن أن يفوته نعت منها ، وسواء كانت .الخ» .

(٧) فى الفصوص : « وليس ذلك إلا لمسمى الله تعالى خاصة » .

(٨) فى الفصوص ١ / ٨٠ ـ ٨١ .

(٩) فى (ك) ، (ع) : لا يرى الحق ، والمثبت عن « الفصوص » ١ / ٨٠ .

(١٠) والذم : كذا فى النسختين ، وفى الفصوص : وبصفات الذم.

(١١) فى الفصوص : وكلها .

وقال أيضاً [١] : « ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّارًا ﴾ ، [سورة نوح : ٢٢] لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعوِّ، لأنه ما عَدِم إلى [٢] البداية فيُدعى إلى الغاية ، ادعوا إلى الله [٣] ، فهذا عين المكر » .

إلى أن قال [٤] : « فقالوا فى مكرهم : ﴿ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا ﴾ [٥] [سورة نوح : ٢٣] ، فإنهم لو تركوهم تركوا من الحق على قدر ماتركوا من صفات هؤلاء [٦] ، فإن للحق فى كل معبود وجهاً يعرفه من عرفه ويجهله من جهله [٧] ، كما قال فى المحمدين [٨] : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [سورة الإسراء : ٢٣] ، أى حَكَمَ ، فالعالم يعلم من عُبِدَ ، وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية ، فما عُبِدَ غير الله فى كل معبود » .

وقال أيضاً [٩] : « فكان موسى أعلم بالأمر من هارون لأنه علم ماعبده أصحاب العجل ، لعلمه بأن الله قد قضى ألاَّ يُعبَد [١٠] إلا إياه ، وما حكم الله بشيء إلا وقع . فكان عيب [١١] موسى أخاه هارون لِماَ وقع من إنكاره [١٢]

---

(١) فى الفصوص ١ / ٧١ ـ ٧٢ .
(٢) إلى : كذا فى النسختين ، وفى الفصوص : من
(٣) فى الفصوص :ادعوا الله.
(٤) فى الفصوص : ١/٧٢ .
(٥) فى الفصوص : ذكرت الآية إلى آخرها .
(٦) فى الفصوص : «فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ماتركوا من هؤلاء » .
(٧) فى الفصوص : « يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله ».
(٨) فى الفصوص : « المحمديين » .
(٩) فى الفصوص ١/١٩٢ .
(١٠) ك : ألا تعبدوا . والمثبت فى (ع) وفى الفصوص .
(١١) الفصوص : عتب .
(١٢) الفصوص: لما وقع الأمر فى إنكاره .

وعدم اتساعه ، فإن العارف من يرى الحق فى كل شىء ، بل يراه عين كل شىء » .

وقال أيضاً [(١)] : « ولما كان فرعون فى مرتبة التحكم [(٢)] ، وأنه الخليفة بالسيف - وإن جار فى العرف الناموسى - لذلك [(٣)] قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ٢٤] ، أى وإن كان الكل أرباباً بنسبةٍ ما ، فأنا الأعلى منهم بما أُعْطِيته فى الظاهر من الحكم [(٤)] فيكم . ولما علمت السحرة صدقه فيما قال [(٥)] لم ينكروه وأقروا له بذلك ، وقالوا له [(٦)] : إنما تقضى هذه الحياة الدنيا فاقض ما أنت قاض [(٧)] ، فالدولة لك . فصح قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ » .

إلى أمثال ذلك من هذا الكلام الذى يسميه أصحابه مذهب الوحدة ويقولون : إن الوجود واحد ، كما يقوله ابن عربى صاحب « الفتوحات » وابن سبعين وابن الفارض والتلمسانى وأمثالهم - عليهم من الله ما يستحقونه - فإنهم لا يجعلون للخالق سبحانه وجوداً مبايناً لوجود المخلوق ، وهو جامع كل شر فى العالم . ومبدأ ضلالهم من حيث لم يثبتوا للخالق وجوداً مبايناً لوجود المخلوق ، وهم يأخذون من كلام الفلاسفة شيئاً ، ومن الكلام الفاسد من كلام المتصوفة والمتكلمين شيئاً ، ومن كلام القرامطة والباطنية شيئاً ، فيطوفون على أبواب المذاهب ، ويفوزون بأخس المطالب ، ويثنون على ما يذكر من

---

(١) فى الفصوص ١/٢١٠ - ٢١١ .
(٢) الفصوص : « فى منصب التحكم صاحب الوقت » .
(٣) ع (فقط) : كذلك .
(٤) الفصوص : التحكم .
(٥) الفصوص : فى مقاله .
(٦) الفصوص : فقالوا له .
(٧) إشارة إلى آية ٧٢ من سورة طه .

تأثر الغزالى بإخوان الصفا وأمثالهم

التصوف المخلوط بالفلسفة ، كما يوجد فى كلام أبى حامد ونحوه مما هو مأخوذ من رسائل إخوان الصفا وأمثالهم ، ممن يريد أن يجمع بين ماجاءت به الكتب الإلهية والرسل المبلّغون عن الله عز وجل وما تقوله الصابئة المتفلسفون فى العلم الإلهى ، فيذكرون أحاديث موضوعة ، وربما حرّفوا لفظها ، كما يذكرون عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل ، فأقبل ، فقال له : أدبر ، فأدبر ، فقال : وعزّتى وجلالى ماخلقت خلقاً / أكرم علىّ منك ، فبك آخذ وبك أعطى ، وبك الثواب وبك العقاب » .

ط ٤٧

وهذا الحديث موضوع على النبى صلى الله عليه وسلم باتفاق أهل المعرفة بالحديث ، ولفظه : أولَ ماخلق الله العقل قال له : أقبل ، فأقبل . وروى : لما خلق الله العقل قال له : أقبل ، فأقبل[1] . فمعناه أنه خاطبه فى أول أوقات خلقه ، فغيروا لفظه وقالوا : أولُ ما خلق الله العقل ، ليوافق ذلك[2] مذهب المشائين من المتفلسفة أتباع أرسطو القائلين : أول الصادرات عنه العقل .

---

(١) ذكر السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة » ١ / ١٢٩ - ١٣٠ عدة روايات لهذا الحديث وبين اتفاق العلماء على أنها موضوعة . وكذلك اتفق أكثر العلماء على أن الأحاديث الواردة فى فضل العقل كلها موضوعة أو ضعيفة وأن داود بن المحبر أخرجها فى كتاب العقل ونقلها عنه غيره ، وداود هذا كذاب . انظر المقاصد الحسنة للسخاوى ، ص ١١٨ ، ١٣٤ ؛ الموضوعات لعلى القارى ، ص ٢٧ ، ٣٠ ؛ تذكرة الموضوعات للفتنى ، ص ٢٩ - ٣٠ ؛ تنزيه الشريعة لابن عراق ١/٢١٣ ؛ كشف الخفاء للعجلونى ١ / ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ٢٦٣ ؛ الفوائد المجموعة للشوكانى ، ص ٤٧٦ ؛ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ١ /١١ (ط. دمشق ، ١٣٧٩/١٩٥٩) .

وتكلم الذهبى فى ميزان الاعتدال ٢ / ٢٠ عن داود بن المحبر فقال : « داود بن المحبر ابن قحذم ، أبو سليمان البصرى ، صاحب « العقل » وليته لم يصنفه .. قال أحمد : لا يدرى ما الحديث ؛ وقال ابن المدينى : ذهب حديثه ، وقال أبو زرعة وغيره : ضعيف ، وقال أبو حاتم : ذاهب الحديث غير ثقة ، وقال الدارقطنى : متروك » .

(٢) ذلك : ساقطة من (ك) .

وقد بسطنا الكلام فى بيان فساد ذلك شرعاً وعقلاً ، وبينا أن بين هؤلاء وبين الرسل من المباينة أعظم مما بين اليهود والنصارى وبين المسلمين ، وأن اليهود والنصارى إذا لم يتفلسفوا كانوا أقرب إلى الحق من هؤلاء ، فإن تفلسف اليهودى والنصرانى كان كفره من جهتين .

وهذه الكتب المضافة إلى أبى حامد ، مثل الكتابين المضنون بهما على غير أهلهما وأمثالهما ، مازال أئمة الدين ينكرون مافيهما من الباطل المخالف للكتاب والسنة . ثم من الناس من يكذب نسبة هذه الكتب إليه ، ومنهم من يقول — وهو أشبه — رجع عن ذلك ، كما ذَكَرَ فى كتب أخرى ذم الفلاسفة وتكفيرهم . وذكر عبد الغافر الفارسى فى « تاريخ نيسابور »[١] أنه استقر أمره على مطالعة البخارى ومسلم ، فكان آخر أمره الرجوع إلى الحديث والسنة[٢] ، والله أعلم .

كلام الغزالى فى كتاب المضنون

فهذا الكلام المذكور فى السؤال يوجد نحوه فى مثل هذه الكتب التى يجعلها أهلها من كتب الحقائق والأسرار ، كما قال صاحب كتاب « المضنون »[٣] : « (فصل) : يتخيل بعض الناس كثرة فى ذات الله تعالى من طريق تعدد الصفات، وقد صح قول من قال فى الصفات : لاهى هو ولاغيره[٤]

---

(١) أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسى ، فارسى الأصل من أهل نيسابور ، ولد سنة ٤٥١ وتوفى سنة ٥٢٩ . قال الذهبي : صاحب « تاريخ نيسابور » ... وكان إماما فى الحديث واللغة والأدب والبلاغة ، عاش ثمانية وسبعين سنة وأكثر الأسفار » . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٢ / ٣٩١ - ٣٩٢ ؛ العبر للذهبي ٤ / ٧٩ ؛ الأعلام ٤ / ١٥٧ .

(٢) يقول عبد الغافر « وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين البخارى ومسلم » . ونقل كلامه السبكى فى طبقاته ٤/١٠٩ .

(٣) فى كتاب « المضنون به على غير أهله » ، ص ٣١١ ، ط . الجندى (مجموعة القصور العوالى).

(٤) فى « المضنون » : لا هو ولا غيره .

وهذا التخيل يقع من توهم التغاير، ولا تغاير فى الصفات. مثال ذلك: أن إنساناً تعلم صورة الكتابة، وله علم بصورة « بسم الله » التى تظهر تلك الصورة على القرطاس، وهذه صفة واحدة، وكمالها أن يكون المعلوم تبعاً لها، فإنه إذا حصل العلم بتلك الكتابة ظهرت الصورة على القرطاس بلا حركة يد وواسطة قلم ومداد.

فهذه الصفة من حيث إن المعلوم انكشف بها يقال له: علم، ومن حيث إن الألفاظ تدل عليها يقال لها: كلام[١]، فإن الكلام عبارة عن مدلول العبارات، ومن حيث إن وجود المعلوم تبع لها يقال لها: القدرة، ولا تغاير ههنا بين العلم والقدرة والكلام، فإن هذه صفة واحدة فى نفسها، ولا تكون هذه الاعتبارات الثلاث واحدة.

وكل من كان أعور لا ينظر إلا بالعين العوراء ولا يرى إلا مطلق الصفة فيقول: هو هو، وإذا التفت إلى الاعتبارات الثلاث يقال[٢]: هى غيره، ومن اعتبر مطلق الصفة مع الاعتبارات فقد نظر بعينين صحيحتين: / اعتقد أنها لا هو ولا غيره.

ع ٨ ص

والكلام فى صفات الله تعالى، وإن كان مناسباً لهذا المثال، فإنه مباين له بوجه آخر. وتفهيم هذه المعانى بالكتابة غير يسير»[٣].

فهذا الكلام من جنس الكلام المذكور فى السؤال، وكلاهما يرجع إلى ما تزعمه المتفلسفة من أن الصفات ترجع إلى العلم إذا أثبتوه.

مقالة ابن حزم

وقد يقرب من هؤلاء ابن حزم حيث رد الكلام والسمع والبصر وغير

---

(١) ك: يقال لها الكلام؛ المضنون: يقال لها القدرة كلام؛ والمثبت عن (ع).

(٢) المضنون: فقال.

(٣) المضنون: عسير غير يسير.

ذلك إلى العلم[(١)] مع أنه لا يثبت صفة لله هى العلم ، ويجعل أسماءه الحسنى إنما هى أعلام محضة ، فالحى والعالم والقادر والسميع والبصير ونحوه كلها أسماء أعلام لاتدل على الحياة والعلم والقدرة[(٢)] .

الرد على النفاة

وهذا يؤول إلى قول القرامطة الباطنية ونحوهم نفاة أسماء الله تعالى الذين يقولون : لايقال : حى ولا عالم ولا قادر ؛ وهذا كله من الإلحاد فى أسماء الله وآياته . قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٠] .

وإذا كان من الإلحاد إنكار اسمه « الرحمٰن » كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ ﴾ [سورة الفرقان : ٦٠] ، وقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [سورة الإسراء : ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [سورة الرعد : ٣٠] إلى غير ذلك .

---

(١) يقول ابن حزم فى « الفصل » ٢ / ١٢٤ : « ونحن نقول أنه تعالى لم يزل سميعاً للمسموعات بصيراً بالمبصرات يرى المرئيات ويسمع المسموعات ، ومعنى هذا كله أنه عالم بكل ذلك ، كما قال تعالى : (إننى معكما أسمع وأرى) ، وهذا كله معنى العلم الذى لا يقتضى وجودا لمعلومات لم نزل ... إلخ » .

(٢) يقول ابن حزم فى « الفصل » ٢ / ١٢٨ : « إننا لانفهم من قولنا : قدير وعالم إذا أردنا بذلك الله تعالى ، إلا ما نفهم من قولنا الله فقط ، لأن كل ذلك أسماء أعلام لامشتقة من صفة أصلا . لكن إذا قلنا : الله تعالى بكل شىء عليم ويعلم الغيب ، فإنما يفهم من كل ذلك أن هاهنا له تعالى معلومات ، وأنه لا يخفى عليه شىء ، ولا يفهم منه ألبتة أن له علما هو غيره . وهكذا نقول فى : يقدر ، وفى ذلك كله » .

وانظر : منهاج السنة ٢ / ٤٦٨ (ط . دار العروبة) .

فإذا كان اسمه « الرحمٰن » قد أُنزل فيه ما أُنزل فكيف إنكار سائر الأسماء ، ومعلوم أن اللفظ إذا كان علماً محضاً لم ينكره أحد ، ولو كانت أعلاما لم يفرق بين الرحمٰن والعليم والقدير .

الرد على الغزالى

وما ذكره صاحب كتاب « المضنون » مع المتفلسفة من أن العلم بالممكنات هو المقتضى لوجودها معلوم البطلان بأدنى تأمل . فإن العلم نوعان : علم نظرى وعلم عملى ، فأما النظرى ـ وهو العلم بما لايفعله العالم ، كعلم الله بنفسه ، وكعلمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ـ فهذا ليس مقتضياً لوجود المعلوم بالضرورة واتفاق العقلاء ، وإن كان قد يكون سبباً لبعض الأعمال .

وأما العلم العملى كعلم الله بمخلوقاته ، وكعلمنا بمفعولاتنا ، فهذا العلم وحده ليس موجباً لوجود المعلوم بلا قدرة ولا إرادة وعمل ، فإنَّا إذا تصورنا مانريد فعله لم يكن مجرد تصورنا ما نريده ولم نقدر عليه لم يكن ، وإذا كنا قادرين على مانتصوره ولا نريده لم يكن ، بل لابد : علمنا به ، وإرادتنا له ، وقدرتنا عليه .

فلو قال قائل : علم الله ليس كعلمنا .

قيل له : وذات الله ليست كذاتنا ، ولاقدرته وإرادته كقدرتنا وإرادتنا .

وهذا السؤال قد بسط الشيخ الكلام عليه وقد اختصر منه . وقال فى وسط الكلام على هذا السؤال :

اثبات ابن تيمية وأهل السنة الماهية لله تعالى

بل لكل موجود حقيقة تخصه يتميز بها عمَّا سواه ويباين بها غيره . وهذه الحقيقة هى حقيقة الربوبية ، وبنفيها[1] ضل الجهمية من المعتزلة والفلاسفة

---

(١) فى النسختين : وبنفسها ، والصواب ما أثبته . وانظر قوله : وهى الماهية التى أثبتها .. الخ ، وقوله بعد قليل : وعلى إثباتها أئمة السنة والجماعة .. الخ .

والقرامطة والاتحادية وأمثالهم ، وهى الماهية التى أثبتها ضرار وأبو حنيفة وغيرهما من الكوفيين[١] ، وخالفهم فى ذلك معتزلة البصرة[٢] ، وعلى إثباتها أئمة السنة[٣] والجماعة من السلف والخلف ، ولهذا ينفون العلم بماهيه الله وكيفيته فيقولون : لا تجرى ماهيته فى مقال ، ولا تخطر كيفيته ببال ؛ ومن نفاها من المنتسبين إلى السنه وغيرهم قال : ليس له ماهية فتجرى فى مقال ، ولا له كيفيه فتخطر ببال .

والأول هو المأثور عن السلف والأئمة ، كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع ، ويدل عليه صريح المعقول وصحيح المنقول ، والله سبحانه أعلم .

---

(١) يقول ابن طاهر فى أصول الدين (ص ٣٣٩) عن ضرار بن عمرو : « وانفرد بأشياء منها قوله : إن الله يرى بحاسة زائدة يرى بها المؤمنون ماهية الإله ، ووصف الله بالماهية كما قال أبو حنيفة وحفص الفرد » . وانظر أيضاً : الملل والنحل ١/٨٢ ؛ مقالات الإسلاميين ١/٣١٤ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦٣ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٣٠ ؛ الحور العين ، ص ١٤٨ . وانظر الفصل لابن حزم ٢/١٧٣ - ١٧٥ حيث عقد فصلا بعنوان : الكلام فى المائية ، قال فى أوله : « ذهب طوائف من المعتزلة إلى أن الله تعالى لا مائية له ، وذهب أهل السنة وضرار بن عمرو إلى أن لله تعالى مائية . قال ضرار : لا يعلمها غيره . قال أبو محمد : والذى نقول به ــ وبالله تعالى التوفيق ــ أن له مائيةهى إنيته نفسها . الخ » .

(٢) فى « البدء والتاريخ » لمطهر بن طاهر المقدسى ٥ / ١٤٣ : « وأما البصريون فإنهم الذين أصلوا هذا المذهب مثل واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبى الهذيل بن العلاف وأبى إسحاق النظام » . وانظر « فلسفة المعتزلة » للدكتور ألبير نصرى نادر ١ / ٧-١٢ ، ط . الأسكندرية ، ١٩٥٠ .

(٣) فى (ك) : أئمة السلف ؛ وفى (ع) لم يظهر من الكلمة ما بعد حرف السين ، ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته .



رسالة في تحقيق مسألة علم الله



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

﴿ فصل فى مسألة العلم ﴾

ف هذه المسألة ثلاثة أقوال :

الناس المنتسبون إلى الإسلام فى علم الله باعتبار تعلقه بالمستقبل على ثلاثة أقوال :

الأول

أحدها : أنه يعلم المستقبلات بعلم قديم لازم لذاته، ولا يتجدد له عند وجود المعلومات نعت ولا صفة ، وإنما يتجدد مجرد التعلق بين العلم والمعلوم . وهذا قول طائفة من الصفاتية من الكُلاَّبيه والأشعرية ومن وافقهم من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعى وأبى حنيفة ، وهو قول طوائف من المعتزلة وغيرهم من نفاة الصفات ، لكن هؤلاء يقولون : يعلم المستقبلات ، ويتجدد التعلق بين العالم والمعلوم ، لا بين العلم والمعلوم .

وقد تنازع الأولون : هل له علم واحد أو علوم متعددة ؟ على قولين . والأول قول الأشعرى وأكثر أصحابه ، والقاضى أبى يعلى وأتباعه ، ونحو هؤلاء. والثانى قول أبى [سهل] الصُّعْلُوكى [1] .

الثانى

والقول الثانى : أنه لا يعلم المحدثات إلا بعد حدوثها . وهذا أصل قول القدرية الذين يقولون : لم يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها ، وأن الأمر أُنُفٌ :

---

(١) فى الأصل : أبى الصعلوكى . واشتهر من الأشاعرة أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكى وابنه أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكى ، ورجحت أن يكون المقصود هو الأول . ولد سنة ٢٩٦ وتوفى سنة ٣٦٩ ، وكان من فقهاء الشافعية ، عالما أديبا مفسرا . انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٢ / ١٦١ ـ ١٦٤ ؛ وفيات الأعيان ٣ / ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ؛ تبيين كذب المفترى ، ص ١٨٣ ـ ١٨٨ ؛ الوافى بالوفيات ٣ / ١٢٤ ؛ الأعلام ٧ / ٢٠ .

لم يسبق القدر بشقاوة ولاسعادة ، وهم غلاة القدرية الذين حدثوا فى زمان ابن عمر وتبرّأ منهم[١] . وقد نص الأئمة كمالك والشافعى وأحمد على تكفير قائل هذه المقالة .

لكن القدرية صرّحوا بنفى العلم السابق والقدر الماضى فى أفعال العباد المأمور بها والمنهىّ عنها ، وما يتعلق بذلك من الشقاوة والسعادة . ثم منهم من اقتصر على نفى العلم بذلك خاصة ، وقال : إنه قدَّر الحوادث وعَلِمَها إلا هذا ، لأن الأمر والنهى مع هذا العلم يتناقض عنده ، بخلاف مالا أمر فيه ولا نهى .

ومنهم من قال ذلك فى عموم المقدَّرات ، وقد حُكى نحو هذا القول عن عمرو بن عبيد[٢] وأمثاله .وقد قيل:إنه رجع عن ذلك قبل إنكاره لأن تكون ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [سورة المسد : ١] ، و ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ

(١) يشير ابن تيمية إلى مقدمة حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى رواه مسلم فى أول كتاب الإيمان من صحيحه ١ / ٢٨ ولفظه : « عن يحى بن يعمر قال : كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر ، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبى ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ؛ فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلى ، فقلت : أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم ـ وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف . قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم برءاء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر » .

قال ابن الأثير فى « جامع الأصول » ١ / ١٢٨ أن الحديث رواه مسلم والنسائى والترمذى وأبى داود وذكر رواياته المختلفة ١ / ١٢٨ ـ ١٣٦ .

(٢) أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب مولى آل عرادة بن يربوع بن مالك ، وكان من سبى كابل . ولد سنة ٨٠ وعاش فى البصرة وصاحب واصل بن عطاء وتزوج أخته وصار من أئمة المعتزلة ، وكانت وفاته سنة ١٤٤ . انظر ترجمته ومقالته فى : وفيات الأعيان ٣/١٣٠ ـ ١٣٣ ؛ المنية والأمل لابن المرتضى ، ص ٢٢ ـ ٢٤ ؛ شذرات الذهب ١/٢١٠ ـ ٢١١ ؛ تاريخ بغداد ١٢ / ١٦٦ ـ ١٨٨ ؛ مروج الذهب للمسعودى ٣ / ٣١٤ ؛ الحور العين ، ص ١١١ ـ ١١٢ ؛ ميزان الاعتدال ٣ / ٢٧٣ ـ ٢٨٠ ؛ الأعلام ٥ / ٢٥٢ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٧٢ ـ ٧٣ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٤٢ .

وَحِيداً ﴾ [سورة المدثر: ١١] ، ونحو ذلك فى اللوح المحفوظ ، وأمثال ذلك .

الثالث

والقول الثالث : أنه يعلمها قبل حدوثها ، ويعلمها بعلم آخر حين وجودها. وهذا قد حكاه المتكلمون كأبى المعالى عن جهم ، فقالوا : إنه ذهب إلى إثبات علوم حادثة لله تعالى ، وقال : البارىء عالم لنفسه ، وقد كان فى الأزل عالماً بنفسه وبما سيكون ، فإذا خلق العالم ،وتجددت المعلومات ــ أحدث لنفسه علوماً بها يعلم المعلومات الحادثة ، ثم العلوم تتعاقب حسب تعاقب المعلومات فى وقوعها متقدمة عليها ، أى العلوم متقدمة على الحوادث . وذكروا أنه قال : إنها فى غير محل ، نظير ما قالت المعتزلة / البصرية فى الإرادة[1] .

ص ٢٤٣

وهذا القول ، وإن كان قد احتُجَّ عليه بما فى القرآن من قوله :﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ فتلك النصوص لا تدل على هذا القول .

فإن هذا القول مضمونه تجدد علم قبل الحدوث ، والذى فى القرآن إنما ذكروا دلالته على مابعد الوجود ، وهذان قولان متغايران . وإنما يحتج عليه بمثل قوله فى حديث : أبرص وأقرع وأعمى : « بدا لله أن يبتليهم »[2] . وليس

---

(١) قال أبو المعالى الجوينى فى كتابه « الإرشاد » ص ٩٦ (ط. الخانجى ١٣٦٩ / ١٩٥٠) : « ذهب جهم إلى إثبات علوم حادثة للرب ، تعالى عن قول المبطلين ، وزعم أن المعلومات إذا تجددت أحدث البارى سبحانه وتعالى علوماً متجددة بها يعلم المعلومات الحادثة ، ثم العلوم تتعاقب حسب تعاقب المعلومات فى وقوعها متقدمة عليها . . . وسبيل الرد عليه فى مدارك العقل يدانى سبيل الرد على البصريين فى اعتقادهم الإرادات الحادثة الثابتة ــ على زعمهم ــ لله تعالى فى غير محال » .

وانظر : نهاية الإقدام للشهرستانى ، ص ٢١٥ .

(٢) الحديث متفق عليه عن أبى هريرة رضى عنه ، وهو فى البخارى ٤ / ١٧١ ــ ١٧٢ (كتاب الأنبياء ، حديث أبرص وأعمى وأقرع فى بنى إسرائيل) وأوله : « . . . أخبرنى عبد الرحمن بن أبى عمرة أن أبا هريرة رضى الله عنه حدثه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا . . . الحديث » . وهو فى مسلم ٨ / ٢١٣ ــ ٢١٤ (أول كتاب الزهد والرقائق) وفيه : « . . . فأراد أن يبتليهم . . » .

هذا بَدَاء[1] يخالف العلم القديم ، كما قاله بعض غلاة الرافضة[2] . وكذلك أبو الحسين البصرى[3] قال بإثبات علوم متجددة فى ذات الله بحسب تجدد المعلومات[4]، وكذلك أبو البركات صاحب « المعتبر » ، الإمام فى الفلسفة[5]،

---

(١) فى الأصل : بدا (وعلى الباء فتحة وعلى الدال سكون) ، ولعله خطأ من الناسخ .

(٢) قال الشهرستانى فى الملل والنحل ١ / ١٣٢ ـ ١٣٣ عن مذهب المختارية الشيعة الكيسانية وهم أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى : « فمن مذهب المختار أنه يجوز البداء على الله تعالى . والبداء له معان : البداء فى العلم ، وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، ولا أظن عاقلا يعتقد هذا الاعتقاد ؛ والبداء فى الإرادة ، وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ؛ والبداء فى الأمر ، وهو أن يأمر بشىء آخر بعده بخلاف ذلك . ومن لم يجوز النسخ ظن أن الأوامر المختلفة فى الأوقات المختلفة متناسخة . وإنما صار المختار الى اختيار القول بالبداء لأنه كان يدعى علم ما يحدث له من الأحوال : إما بوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال : قد بدا لربكم . وكان لا يفرق بين النسخ والبداء ؛ قال : إذا جاز النسخ فى الأحكام جاز البداء فى الأخبار » (انظر أيضا عن قول المختار بالبداء : الفرق بين الفرق ، ص ٢٦) .

وتابع المختار فى هذا القول كل الكيسانية وكثير من الإمامية الاثنى عشرية ، وقد عقد الكلينى فى كتابه « أصول الكافى » ١ / ١٤٦ ـ ١٤٩ (ط. طهران ، ١٣٨١) فصلا عن « البداء » أورد فيه آثار الشيعة وأدلتهم على هذا الاعتقاد .

وانظر عن البداء عند الشيعة أيضا : فرق الشيعة للنوبختى ، ص ٨٥ ـ ٨٦ ؛ التبصير فى الدين ، ص ١٨ ، ٢٠ ؛ دائرة المعارف الإسلامية مقالة « البداء » لجولدتسيهر .

(٣) أبو الحسين محمد بن على الطيب البصرى ، من متأخرى المعتزلة ومن أئمتهم ، توفى سنة ٤٣٦ . انظر ترجمته ومذهبه فى : وفيات الأعيان ٣ / ٤٠١ ـ ٤٠٢ ؛ شذرات الذهب ٣/٢٥٩ ؛ تاريخ بغداد ٣/١٠٠ ؛ لسان الميزان ٥/٥٩٨ ؛ الملل والنحل ١/٧٨ ؛ نهاية الإقدام ، ص ١٥١ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ٢٢١ ، ٢٥٧ ؛ منهاج السنة (ط. دار العروبة) ١/٢٧٩ ـ ٢٨٠، ٢/٩١، ٢١٣ .

(٤) قال الشهرستانى فى نهاية الإقدام ، ص ٢٢١ : « وقد مال أبو الحسين البصرى الى مذهب هشام بعض الميل حتى قضى بتجدد أحوال البارى تعالى عند تجدد الكائنات مع أنه من نفاة الأحوال غير أنه جعل وجوه التعلقات أحوالا إضافية للذات العالمية » .

(٥) أبو البركات هبة الله بن على بن ملكا ، طبيب وفيلسوف ، كان يهوديا وأسلم ، يعرف بأوحد الزمان وبفيلسوف العراقين ، من أهم كتبه « المعتبر فى الحكمة » طبع بحيدرآباد سنة ١٣٥٧ ، وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فقيل سنة ٤٥٧ وقيل غير ذلك . انظر ترجمته فى : أخبار الحكماء لابن القفطى ٣٤٣ ـ ٣٤٦ ؛ طبقات الأطباء =

قال بتجدد علوم وإرادات له ، وذكر أن إلهيته لهذا العالم لاتصح إلا مع هذا القول[١] . وكذلك أبو عبد الله الرازى يميل إلى هـذا القول فى « المطالب العالية »[٢] وغيرها .

وأما السمع والبصر والكلام فقد ذكر الحارث المحاسبى[٣] عن أهل السنة فى تجدد ذلك عند وجود المسموع المرئى قولين .

والقول بسمع و بصر قديم يتعلق بهاعند وجودها قول ابن كُلَّاب وأتباعه والأشعرى ، والقول بتجدد الإدراك مع قدم الصفة قول طوائف كثيرة كالكرَّاميَّة وطوائف سواهم ، والقول بثبوت الإدراك قبل حدوثها وبعد وجودها قول السَّالميَّة كأبى الحسن بن سالم وأبى طالب المكى[٤] .

= لابن أبى أصيبعة ٣ / ٢٩٦ ـ ٣٠٠ ؛ تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقى ، ص ١٥٢ ـ ١٥٤ ؛ نكت الهميان للصفدى ، ص ٣٠٤ ؛ الأعلام ٩ / ٦٣ . وانظر مقالة السيد سليمان الندوى عنه وعن كتاب المعتبر فى آخر الجزء الثالث من المعتبر ، ص ٢٣٠ ـ ٢٥٢ .

(١) تكلم ابن ملكا عن الآراء المختلفة فى مسألة علم الله وناقشها بالتفصل فى المعتبر ٣/٦٩ ـ ٩٩ وذكر رأيه فى أثناء ذلك . وانظر مثلا قوله ٣/٧٦ : « فأما القول بإيجاب الغيرية فيه بإدراك الأغيار والكثرة بكثرة المدركات فجوابه المحقق أنه لا يتكثر بذلك تكثرا فى إضافاته ومناسباته وتلك مما لا تعيد الكثرة على هويته وذاته » .

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى البكرى ، فخر الدين الرازى ، ويعرف بابن خطيب الرى ، ولد سنة ٥٤٤ وتوفى سنة ٦٠٦ . من أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب الأشعرى بالفلسفة والاعتزال ، ومن كتبه « المطالب العالية » وهو ما زال مخطوطا . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٣/٣٨١ ـ ٣٨٥ ؛ شذرات الذهب ٥/٢١ ؛ طبقات الشافعية ٥/٣٣ ـ ٤٠ ؛ لسان الميزان ٤/٤٢٦ ـ ٤٢٩ ؛ الأعلام ٧/٢٠٣ .

(٣) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، من شيوخ الصوفية ، توفى ببغداد سنة ٢٤٣ . انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية للسلمى ، ص ٥٦ ـ ٦٠ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١/٦٤ ؛ طبقات الشافعية ٢/٣٧ ـ ٤٢ ؛ شذرات الذهب ٢/١٠٣ ؛ ميزان الاعتدال ١/٤٣٠ ـ ٤٣١ ؛ الخلاصة للخزرجى ، ص ٥٧ ؛ الأعلام ٢/١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٤) السالمية هم أتباع أبى عبد الله محمد بن أحمد بن سالم (المتوفى سنة ٢٩٧) وابنه الحسن أحمد بن محمد بن سالم (المتوفى سنة ٣٥٠) . وقد تتلمذ سالم بن محمد على سهل بن عبد الله =

والطوائف الثلاثة تنتسب إلى أئمة السنة كالإمام أحمد ، وفى أصحابه من قال بالأول ، ومنهم من قال بالثانى ، والسالمية تنتسب إليه .

وكذلك الإرادة والمشيئة فيها للصفاتية ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ليست إلا قديمة[١] ، وهو قول ابن كُلَّاب والأشعرى وأتباعهما .

الثانى : أنها ليست إلا حادثة ؛ والفرق بين هذا وبين قول المعتزلة البصرية أن المعتزلة يقولون بحدوثها لا فى محل ، لامتناع كونه[٢] محلاً للحوادث عندهم ، وهؤلاء يقولون تقوم بذاته كما يقوم الكلام بذاته .

والثالث : أنها قديمة وحادثة ، وهو قول طوائف من الكرّامية وأهل الحديث والصوفية وغيرهم ، وكذلك يقول هؤلاء إنه يوصف بأنه متكلم فى الأزل ، وأنه يتكلم إذا شاء ، كما صرّح بذلك الأئمة كالإمام أحمد وغيره .

لكن فى تحقيق ذلك نزاع بين المتأخرين . فقيل : القديم هو القدرة على الكلام كما قالت الكرّامية . وقيل : بل القولان متضادان ، كما ذكر أبو بكر عبد العزيز[٣] وعبد الله بن حامد عن أصحاب أحمد .

= التسترى . ومن أشهر رجال السالمية أبو طالب المكى صاحب كتاب « قوت القلوب » المتوفى سنة ٣٨٦ . ويجمع السالمية فى مذهبهم بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة مع ميل إلى التشبيه ونزعة صوفية اتحادية . انظر : شذرات الذهب ٣/٣٦ ؛ اللمع السراج ، ص ٤٧٢ـ ٤٧٦ ، القاهرة ١٩٦٠ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٤١٤ـ٤١٦ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٥٨ ، ٢٠٢ ؛ مقالة « السالمية » فى دائرة المعارف الإسلامية لماسينيون .

(١) فى الأصل : أنها ليست الإرادة إلا قديمة .

(٢) فى الأصل : لامتناع قوله ، وهو تحريف.

(٣) أبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد ، المعروف بغلام الخلال ، من أئمة الحنابلة ، توفى سنة ٣٠٣ من أهم مصنفاته « الشافى » و « المقنع » انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢ / ١١٩ ـ ١٢٢ .

فأما إثبات علمه وتقديره للحوادث قبل كونها ، ففى القرآن والحديث والآثار مالا يكاد يُحصر ، بل كل ما أخبر الله به قبل كونه فقد علمه قبل كونه، وهو سبحانه يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وقد أخبر بذلك ، والنزاع فى هذا مع غلاة القدرية ونحوهم .

وأما المستقبل فمثل قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾[سورة البقرة: ٢٤٢] ، وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ الآية [سورة البقرة : ٢١٤ ، آل عمران : ١٤٢] ، وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ الآية [سورة التوبة : ١٦] ، وقوله : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٣] ، وقوله : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ١١] ، وقوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [سورة محمد : ٣١] .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .



رِسَالة في الجواب عَن سُؤَال عَن الحلاّج هل كان صِدِّيقًا أو زِنْدِيقًا



نص السؤال

مايقول السادة العلماء رضى الله عنهم فى الحلاج الحسين بن منصور : هل كان صدِّيقا أو زنديقا ؟ وهل كان وليًا لله متقيًا له ، أم كان له حال رحمانى ، أو من أهل السحر والخزعبلات ؟ وهل قتل على الزندقة بمحضر من علماء المسلمين ، أو قتل مظلوما ؟ أفتونا مأجورين .

الجواب

فأجاب شيخ الإسلام أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية ، قدَّس الله روحه .

الحمد لله رب العالمين .

الحلاج كان زنديقا

الحلاج قتل على الزندقة[1] التى ثبتت عليه بإقراره وبغير إقراره ، والأمر الذى ثبت عليه مما يوجب القتل باتفاق المسلمين ، ومن قال : إنه قُتل بغير حق فهو إما منافق ملحد ، وإما جاهل ضالّ .

والذى قُتل به ما استفاض عنه من أنواع الكفر ، وبعضه يوجب قتله ، فضلا عن جميعه ، ولم يكن من أولياء الله المتقين ، بل كان له عبادات ورياضات ومجاهدات بعضها شيطانى ، وبعضها نفسانى ، وبعضها موافق[1] للشريعة من وجه دون وجه ، فلبس الحق بالباطل .

بعض أخبار الحلاج

وكان قد ذهب إلى بلاد الهند وتعلم أنواعاً من السحر[3] ، وصنَّف كتاباً

---

(١) وكان قتله سنة ٣٠٩ .

(٢) فى الأصل : موافقاً ، وهو خطأ .

(٣) قال ابن الجوزى فى ترجمة الحلاج فى كتابه « المنتظم » ٦ / ١٦٠ ـ ١٦١ : «وطاف البلاد وقصد الهند وخراسان وماوراء النهر وتركستان» . ثم قال (٦/١٦١): «... سمعت على بن أحمد الحاسب يقول : سمعت والدى يقول : وجهنى المعتضد إلى الهند ، وكان معى فى السفينة رجل يعرف بالحسين بن منصور ، فلما خرجنا من المركب قلت له : فى أى شىء جئت إلى هاهنا ؟ قال : جئت لأتعلم السحر وأدعو الخلق إلى الله » . وانظر : روضات الجنات ، ص ٢٢٥ .

فى السحر معروفا ، وهو موجود إلى اليوم ، وكانت له أقوال شيطانية ومخاريق بهتانية .

وقد جمع العلماء أخباره فى كتب كثيرة أرَّخوها الذين كانوا فى زمنه ، والذين نقلوا عنهم مثل ابن على الخُطَبِى[١] ذكره فى تاريخ بغداد ، والحافظ أبو بكر الخطيب ذكر له ترجمة كبيرة فى « تاريخ بغداد »[٢] ، وأبو يوسف القزوينى صنَّف مجلداً فى أخباره[٣] ، وأبو الفرج بن الجوزى له فيه مصنف سمَّاه « رفع اللّجاج فى أخبار الحلاّج[٤] ، وبسط ذكره فى تاريخه[٥] .

وذكر أبو عبد الرحمن السلمى فى «طبقات الصوفية» أن كثيراً من المشايخ ذموه وأنكروا عليه ولم يعدُّوه من مشايخ الطريق وأكثرهم حط عليه[٦] ،

---

(١) فى الأصل : أبى على الحطى . وجاء فى مجموع فتاوى شيخ الإسلام (ط . الرياض) ٣ / ٤٨٣ : « وكما ذكر إسماعيل بن على الحطى فى « تاريخ بغداد » وقد شهد قتله » . وهو أبو محمد إسماعيل بن على بن إسماعيل الخطبى (نسبة إلى الخطب وإنشائها) مؤرخ أديب صنف تاريخا كبيراً ، ولد سنة ٢٦٩ وتوفى سنة ٣٥٠ . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢ / ١١٨ ـ ١١٩ ؛ العبر ٢/ ٢٨٦؛ اللباب ١ / ٣٧٩ ؛ الأعلام ١ / ٣١٦ .

(٢) فى الجزء الثامن ، ص ١١٢ ـ ١٤١ .

(٣) أبو يوسف عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزوينى ، شيخ المعتزلة فى عصره وكان زيديا ، ولد سنة ٣٩٣ وتوفى ٨٨ : . له تفسير يبلغ ثلاثمائة مجلد ، ولم أجد فيما بين يدى من المراجع ذكرا لكتابه عن الحلاج . انظر ترجمته فى: النجوم الزاهرة ٥/١٦٥ ؛ دول الإسلام للذهبى ٢ / ١٣ ؛ لسان الميزان ٤/١١ ـ ١٢ ؛ طبقات المفسرين للسيوطى ، ص ١٩ ؛ العبر للذهبى ٣ / ٣٢١ ؛ الأعلام ٤/١٣١ .

(٤) ذكر ابن الجوزى فى « المنتظم » ٦ / ١٦٢ : « وقد جمعت أخباره فى كتاب سميته القاطع لمحال اللجاج القاطع بمحال الحجاج » . وقال ابن رجب فى « الذيل على طبقات الحنابلة » ١ / ٤١٨ أن من مصنفات ابن الجوزى : « القاطع لمحال اللجاج بمحال الحجاج ، جزء » .

(٥) فى « المنتظم » ٦/١٦٠ ـ ١٦٤ .

(٦) ترجم السلمى للحلاج فى كتابه « طبقات الصوفية » ، ص ٣٠٧ ـ ٣١١ ، وقال عنه : « والمشايخ فى أمره مختلفون . رده أكثر المشايخ ونفوه وأبوا أن يكون له قدم فى التصوف ، وقبله من جلتهم ...إلخ » . وانظر روضات الجنات . ص٢٣٦ .

ومن ذمَّه وحطَّ عليه أبو القاسم الجُنَيْد[١] ، ولم يقتل فى حياة الجنيد ، بل قتل بعد موت الجنيد ، فإن الجنيد توفى سنة ثمان وتسعين ومائتين[٢] / والحلاج قتل سنة بضع وثلاثمائة .

ظ١٢٤

وقدموا به إلى بغداد راكباً على جمل يُنادى عليه : هذا داعى القرامطة ، وأقام فى الحبس مدة حتى وُجد من كلامه الكفر والزندقة واعترف به ، مثل أنه ذكر فى كتاب له : من فاته الحج فإنه يبنى فى داره بيتاً ويطوف به كما يُتطوف بالبيت ، ويتصدق على ثلاثين يتيماً بصدقة ذكرها ، وقد أجزأه ذلك عن الحج . فقالوا له : أنت قلت هذا ؟ قال : نعم . فقالوا له : ومن أين لك هذا ؟ قال : ذكره الحسن البصرى فى كتاب « الصلاة » . فقال له القاضى أبو عمر : تكذب يازنديق ، أنا قرأت هذا الكتاب وليس هذا فيه . فطلب منهم الوزير أن يشهدوا بما سمعوه ، ويفتوا بما يجب عليه ، فاتفقوا على وجوب قتله[٣] .

(١) فى كتاب « أخبار الحلاج » لعلى بن أنجب الساعى (ط . باريس ، ١٩٣٦) ص ٣٨ : «عن أبى محمد الجسرى قال : رأيت الجنيد ينكر على الحلاج ، وكذلك عمرو ابن عثمان المكى وأبو يعقوب النهرجورى وعلى بن سهل الأصبهانى ومحمد بن داود الأصبهانى.. إلخ » . وفى نفس الكتاب ، ص ٩٢ : « وقال أحمد بن يولس : كنا فى ضيافة ببغداد فأطال الجنيد اللسان فى الحلاج ونسبه إلى السحر والشعبذة والنيرنج ... إلخ » . وفى روضات الجنات » ص ٢٢٥ أن الحلاج صحب فى شبابه الجنيد فى بغداد ثم سافر مدة من الزمن ولما رجع إلى بغداد قصد إلى الجنيد وسأله عن مسألة فلم يجبه ، وقال له : أنت مدع فى سؤالك، فتكدر منه الحلاج . وانظر أيضاً ، ص ٢٣٤ . وذكر اليافعى كلاما مشابها فى « مرآة الجنان » ٢/٢٥٩ . وانظر أيضا : الفرق بين الفرق ، ص ١٥٨ .

(٢) أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزار ، ويقال له أحيانا القواريرى ، من شيوخ الصوفية ، توفى سنة ٢٩٧ وقيل سنة ٢٩٨ . انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية للسلمى ، ص ١٥٥ ـ ١٦٣ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١ / ٧٢ ـ ٧٤ ؛ المنتظم لابن الجوزى ٦/١٠٥ـ١٠٦ ؛ تاريخ بغداد ٧ / ٢٤١ ـ ٢٤٩ ؛ الأعلام ٢ / ١٣٧ ـ ١٣٨ . وانظر ما ذكره الخوانسارى فى « روضات الجنات » حيث يقول : « وعن بعض كتب التواريخ أن شيخه الجنيد أيضاً كتب فى الاستشهاد عليه أن الرجل فى ظاهر حاله يستحق القتل . وعن بعضها التنظر فى ذلك لكون وفاة الجنيد قبل وقت قتله بكثير ، وفيه نظر لاحتمال كون صدور ذلك منه أيام تغيره عليه كما عرفته من قبل » .

(٣) انظر خبر مقتله هذا فى : المنتظم ٦ /١٦٢ ؛ الكامل لابن الأثير ٨ / ٤٠ ؛ تاريخ بغداد ٨ / ١٣٨ ـ ١٣٩ ؛ البداية والنهاية ١١ / ١٤١ ؛ روضات الجنات ، ص٢٣٥ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١/١٤ ـ ١٥ .

لـكن العلماء لهم قولان فى الزنديق إذا أظهر التوبة ، هل تُقبل توبته فلا يُقتل ، أم يقتل لأنه لا يُعلم صدقه ، فإنه مازال يظهر ذلك ؟ فأفتى طائفة بأنه يُستتاب فلا يُقتل ، وأفتى الأكثرون بأنه يقتل وإن أظهر التوبة ، فإنه إن كان صادقاً فى توبته نفعه ذلك عند الله وقُتل فى الدنيا ، وكان الحدّ تطهيراً له ، كما لو تاب الزانى والسارق ونحوهما بعد أن يُرفعوا إلى الأمام ، فإنه لابد من إقامة الحد عليهم ، فإنهم إن كانوا صادقين كان قتلهم كفارة لهم ، ومن كان كاذباً فى التوبة كان قتله عقوبة له .

فإن كان الحلاج وقت قتله تاب فى الباطن فإن الله ينفعه بتلك التوبة ، وإن كان كاذباً فإنه قُتل كافراً ، ولما قُتل لم يظهر له وقت القتل شىء من الـكرامات ، وكل من ذكر أن دمه كتب على الأرض اسم الله[١] ، أو أن دجلة انقطع ماؤها ، أو غير ذلك[٢] فإنه كاذب ، وهذه الأمور لايحكيها إلا جاهل أو منافق ، وإنما وضعها الزنادقة وأعداء الإسلام ، حتى يقول قائلهم : إن شرع محمد بن عبد الله يقتل أولياء الله حين يسمعون[٣] أمثال هذه الهذيانات ، وإلا فقد قُتل أنبياء كثيرون وقُتل من أصحابهم وأصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم والتابعين وغيرهم من الصالحين من لا يحصى عددهم إلا الله ، قُتلوا بسيوف الفجّار والـكفّار والظلمة وغيرهم ولم يكتب دم أحدهم اسم الله ، والدم أيضا نجس فلا يجوز أن يكتب اسم الله تعالى ؛ فهل الحلاج خير من هؤلاء ، ودمه أطهر من دمائهم ؟ ! . .

---

(١) ذكر هذا الخبر : المناوى فى « الكواكب الدرارى » ٢ / ٢٥ ؛ الخوانسارى فى روضات الجنات ، ص ٢٣٥ . وانظر : الحلاج شهيد التصوف الإسلامى لطه عبد الباقى سرور ، ص ١٩٠ ، القاهرة ، ١٩٦١ .

(٢) الذى فى « وفيات الأعيان » ١ / ٤٠٧ : « واتفق أن دجلة زادت فى تلك السنة زيادة وافرة ، فادعى أصحابه أن ذلك بسبب إلقاء رماده فيها » . وانظر : البداية والنهاية ١١ / ١٤٣ ؛ روضات الجنات ، ص ٢٣٥ .

(٣) فى الأصل : يسمعوا ، وهو خطأ .

وقد جزع وقت القتل وأظهر التوبة والسنّة فلم يُقبل ذلك منه(١) ، ولو عاش افتتن به كثير من الجهّال ، لأنه كان صاحب خزعبلات بُهتانية وأحوال شيطانية ، ولهذا إنما يعظِّمه من يعظِّم الأحوال الشيطانية والنفسانية والبهتانية .

وأما أولياء الله العالمون بحال الحلاج فليس منهم واحد يعظِّمه ، ولهذا لم يذكره القشيرى فى مشايخ رسالته ، وإن كان قد ذكر من كلامه كلمات استحسنها(٢) .

وكان الشيخ أبو يعقوب النهرجورى قد زوَّجه بابنته فلما اطّلع على زندقته نزعها منه(٣) . وكان عمرو بن عثمان يذكر أنه كافر ، ويقول : كنت معه فسمع قارئاً يقرأ القرآن يقال : أقدر أن أصنِّف مثل هذا القرآن ، أو نحو هذا الكلام(٤) .

---

(١) فى : وفيات الأعيان ٤٠٧/١ ؛ تاريخ بغداد ١٣٩/٨ ؛ مرآة الجنان لليافعى ٢٥٩/٢ ؛ روضات الجنات ، ص ٢٣٥ : أن الحلاج قال للعلماء الذين أفتوا بقتله : « ظهرى حمى ، ودمى حرام ، وما يحل لكم أن تتقولوا على بما يبيحه ، وأنا اعتقادى الإسلام ، ومذهبى السنة ... ولى كتب فى السنة موجودة فى الوراقين ، فالله الله فى دمى .. الخ » .

(٢) قال الشعرانى فى ترجمة الحلاج (الطبقات الكبرى ١ / ٩٢) : « وقد أشار القشيرى إلى تزكيته حيث ذكر عقيدته مع عقائد أهل السنة أول الكتاب فتحالباب حسن الظن به ، ثم ذكره فى أواخر الرجال لأجل ما قيل فيه » . ويذكر القشيرى فى رسالته ، ص ٦ : « وقال الحسين بن منصور : من عرف الحقيقة فى التوحيد سقط عنه لم وكيف » .

(٣) فى : المنتظم ١٦٢/٦ ؛ تاريخ بغداد ١٢١/٨ ؛ البداية والنهاية ١٣٥/١١ ؛ العبر للذهبى ١٤٠/٢ : « قال أبو زرعة : وسمعت أبا يعقوب الأقطع يقول : زوجت ابنتى من الحسين بن منصور الحلاج لما رأيت من حسن طريقته ، فبان لى بعد مدة يسيرة أنه ساحر محتال خبيث كافر » . ولم أجد من يسمى بأبى يعقوب الأقطع ولكنى وجدت أبا يعقوب النهرجورى وأبا الخير الأقطع . وانظر طبقات الصوفية ص ٣٧٠ ، ٣٧٨ .

(٤) يذكر ابن حجر فى « لسان الميزان » ٣١٤/٢ : « قال محمد بن يحيى الرازى ، سمعت عمرو بن يحيى المكى يلعن الحلاج ويقول : لو قدرت عليه أقتله بيدى . قلت : إيش الذى وجد الشيخ عليه ؟ قال : قرأت آية من كتاب الله فقال : يمكنى أن أؤلف مثله أو أتكلم به . حكاها القشيرى فى الرسالة » . وذكرت القصة منسوبة إلى عمرو بن عثمان المكى فى : المنتظم ١٦٢/٦ ؛ تاريخ بغداد ١٢١/٨ ؛ البداية والنهاية ١١ / ١٣٥ ؛ الفرق بين الفرق . ص ١٥٨ ؛ العبر للذهبى ١٤٠/٢ .

وكان يظهر عند كل قوم مايستجلبهم به إلى تعظيمه ، فيظهر عند أهل السنة أنه سنيّ ، وعند أهل الشيعة أنه شيعيّ ، ويلبس لباسَ الزهاد تارة ، ولباسَ الأجناد تارة(١) .

وكان من مخاريقه أنه يبعث بعض أصحابه إلى مكان فى البريّة يخبىء فيه شيئاً من الفاكهة والحلوى ، ثم يجىء بجماعة من أهل الدنيا إلى قريب من ذلك المكان فيقول لهم : ما تشتهون أن آتيكم به من هذه البريّة ؟ فيشتهى أحدهم فاكهة أو حلاوة فيقول : / امكثوا . ثم يذهب إلى ذلك المكان ويأتى بما خُبِّىء أو ببعضه ، فيظن الحاضرون أن هذه كرامة له(٢) .

ص ١٢٥

وكان صاحب سيمياء وشياطين تخدمه أحيانا ، كانوا معه على جبل أبى قُبَيْس فطلبوا منه حلاوة ، فذهب إلى مكان قريب منهم وجاء بصحن حلوى ، فكشفوا الأمر فوجدوا ذلك قد سُرق من دكان حلاوى باليمن ، حمله شيطان من تلك البقعة(٣) .

أخبار أخرى من بعض أصحاب الأحوال الشيطانية

ومثل هذا يحدث كثيراً لغير الحلاج ممّن له حال شيطانى ، ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء فى زماننا وغير زماننا ، مثل شخص هو الآن بدمشق كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق ، فيجىء من الهواء إلى طاقة البيت الذى فيه الناس فيدخل وهم يرونه ، ويجىء بالليل إلى باب الصغير(٤) فيعبر منه هو ورفيقه وهو من أفجر الناس .

---

(١) انظر : المنتظم ٦/١٦١ ؛ البداية والنهاية ١١/١٣٧ .

(٢) انظر : المنتظم ٦/١٦١ وانظر قصة مماثلة فى البداية والنهاية ١١/١٣٧ . وانظر من مخاريقه أيضا مارواه الباقلانى فى كتابه « البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات » (ط . بيروت ، ١٩٥٨) ص ٧٦ .

(٣) روى هذه القصة الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ٨/١٢٥ – ١٢٦ . ورواها ابن أنجب الساعى فى « أخبار الحلاج » ص ٤٠ – ٤١ عن أبى يعقوب النهرجورى ولكنه زاد بأن الحلاج أرسل إلى الحلوانى ثمن الحلوى بعد أن فقدت من دكانه .

(٤) « لمدينة دمشق ستة أبواب : باب الجابية وباب الصغير ... الخ » (مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ، ص ١٠٦ ، ط . ليدن ، ١٣٠٢)

وآخر كان بالشَّوْبَك[١] من قرية يقال لها الشاهدة يطير فى الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه ، وكان شيطانه يحمله ، وكان يقطع الطريق ؛ وأكثرهم شيوخ الشر ، يُقال لأحدهم البَوْشى[٢] أبى الجيب[٣] ينصبون له خركاه فى ليلة مظلمة ويصنعون خبزا على سبيل القربات ، فلا يذكرون الله ولا يكون عندهم من يذكر الله ولا كتاب فيه ذكر الله ، ثم يصعد ذلك البَوْشى فى الهواء وهم يرونه ويسمعون خطابه للشيطان وخطاب الشيطان له ، ومن ضحك أو سرق من الخبز ضربه الدف ولا يرون من يضرب به . ثم إن الشيطان يخبرهم ببعض ما يسألونه عنه ، ويأمرهم بأن يقرِّبوا له بقراً وخيلا وغير ذلك[٤] ، وأن يخنقوها خنقاً ولا يذكرون اسم الله عليها، فإذا فعلوا قضى حاجتهم .

وشيخ آخر أخبرنى نفسه أنه كان يزنى بالنساء ويتلوط بالصبيان الذين يُقال لهم « الحوارات » ، وكان يقول : يأتينى كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوان فيقول لى : فلان ابن فلان نذر لك نذراً وغداً نأتيك به ، وأنا قضيت حاجته لأجلك ، فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر ، ويكاشفه هذا الشيخ الكافر .

قال : وكنت إذا طُلب منى تغيير مثل اللَّاذَن[٥] أقول حتى أغيب عن عقلى وإذا باللاذن فى يدى أو فى فمى ، وأنا لا أدرى من وضعه . قال : وكنت أمشى وبين يدى عمود أسود عليه نور .

---

(١) فى معجم البلدان : « الشوبك قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك » .

(٢) فى « القاموس» مادة « بوش » : « البوشى (بفتح فسكون) الفقير المعيل وهو من خان الناس ودهمائهم ، ويضم » .

(٣) فى الأصل : أبى المحسب ، غير منقوطة .

(٤) فى الأصل : وخيلا وغيرهم وغير ذلك .

(٥) فى المعجم الوسيط : « اللاذن جنس جنبة من الفصيلة اللاذنية يستخرج منه صمغ راتينجى يعلك ويستعمل عطرا ودواء » . وانظر : القاموس المحيط .

فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلّي ويصوم ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود وذهب التغيير فلا يأتى بلاذن ولا غيره .

وشيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس ، فيأتى أهل ذلك المصروع إلى الشيخ يطلبون منه إبراءه ، فيرسل إلى أتباعه فيفارقون ذلك المصروع ، ويعطون ذلك الشيخ دراهم كثيرة . وكان أحياناً تأتيه الجن بدراهم وطعام تسرقه من الناس ، حتى أن بعض الناس كان له تين فى كوارة فيطلب الشيخ من شياطينه تيناً فيحضرونه له ، فيطلب أصحاب الكوارة التين فوجدوه قد ذهب .

وآخر كان مشتغلاً بالعلم والقراءة فجاءته الشياطين أغوته وقالوا له : نحن نُسقط عنك الصلاة ونحضر لك ما تريد . فكانوا يأتونه بالحلوى أو الفاكهة ، حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه ، وأعطى أهل الحلاوة ثمن حلاوتهم التى أكلها ذلك المفتون بالشيطان .

فكل من خرج عن الكتاب والسنة وكان له حال من مكاشفة أو تأثير فإنه صاحب حال نفسانى أوشيطانى ، وإن لم يكن له حال بل هو يتشبّه بأصحاب الأحوال فهو صاحب حال[1] بهتانى . وعامة أصحاب الأحوال الشيطانية يجمعون بين الحال الشيطانى والحال البهتانى ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢] . ظ ١٢٥

والحلاج كان من أئمة هؤلاء ، أهلِ الحال الشيطانى والحال البهتانى ، وهؤلاء طوائف كثيرة . فأئمة هؤلاء هم شيوخ المشركين الذين يعبدون الأصنام ، مثل الكهّان والسحرة الذين كانوا للعرب المشركين ، ومثل الكهان والسحرة الذين هم بأرض الهند والترك وغيرهم . ومن هؤلاء من إذا مات لهم ميت يعتقدون أنه يجيء بعد الموت يكلمهم ويقضى ديونه ويرد ودائعه ويوصيهم بوصايا ، فإنهم

(١) فى الأصل : محال ، ولها وجه . وما أثبته موافق للسياق .

تأتيهم تلك الصورة التى كانت فى الحياة ، وهو شيطان تمثّل فى صورته فيظنونه إياه .

وكثير ممن يستغيث بالمشايخ فيقول : يا سيدى فلان ، أو : يا شيخ فلان اقض حاجتى ، فيرى صورة ذلك الشيخ يخاطبه ويقول : أنا أقضى حاجتك ، أو طيّب قلبك ، فيقضى حاجته أو يدفع عنه عدوه ، ويكون ذلك شيطاناً قد تمثّل فى صورته لمّا أشرك بالله فدعا غيره .

وأنا أعرف من هذا وقائع متعددة ، حتى أن طائفة من أصحابى ذكروا أنهم استغاثوا بى فى شدائد أصابتهم ، أحدهم كان خائفاً من الأرمن ، والآخر كان خائفاً من التتر ، فذكر كل منهم أنه لمّا استغاث بى رآنى فى الهواء وقد دفعت عنه عدوه ، فأخبرتهم أنى لم أشعر بهذا ، ولا دفعت عنكم شيئاً ، وإنما هذا شيطان تمثّل لأحدهم فأغواه لما أشرك بالله تعالى .

وهكذا جرى لغير واحد من أصحابنا المشايخ مع أصحابهم ، يستغيث أحدهم بالشيخ فيرى الشيخ قد جاء وقضى حاجته ، ويقول ذلك الشيخ : إنى لم أعلم بهذا ، فيتبين أن ذلك كان شيطاناً .

وقد قلت لبعض أصحابنا لما ذكر لى أنه استغاث باثنين كان يعتقدها وأنهما أتياه فى الهواء وقالا له : طيّب قلبك نحن ندفع عنك هؤلاء ونفعل ونصنع . قلت له : فهل كان من ذلك شىء[1] ؟ فقال : لا . فكان هذا مما دلّه على أنهما شيطانان ، فإن الشياطين وإن كانوا يخبرون الإنسان بقضية أو قصة فيها صدق فإنهم يكذبون أضعاف ذلك ، كما كانت الجن يخبرون الكهّان .

ولهذا من اعتمد على مكاشفته التى هى من أخبار الجن كان كذبه أكثر من صدقه . كشيخ كان يُقال له الشياح توّبناه وجدّدنا إسلامه ، كان له قرين

---

(١) فى الأصل : شيئاً ، وهو خطأ .

من الجن يقال له « عنتر » يخبره بأشياء فيصدق تارة ويكذب تارة ، فلما ذكرت له : إنك تعبد شيطاناً من دون الله ، اعترف بأنه يقول له : يا عنتر لا سبحانك إنك إله قذر ، وتاب من ذلك فى قصة مشهورة .

وقد قتل سيف الشرع من قتل من هؤلاء ، مثل الشخص الذى قتلناه سنة خمس عشرة ، وكان له قرين يأتيه ويكاشفه فيصدق تارة ويكذب تارة ، وكان قد انقاد له طائفة من المنسوبين إلى أهل العلم والرئاسة فيكاشفهم حتى كشف الله أمره ، وذلك أن القرين كان تارة يقول : أنا رسول الله ، ويذكر أشياء تنافى حال الرسول ، فشُهد عليه أنه قال : إن الرسول يأتينى ويقول لى كذا وكذا ، من الأمور التى يكفر من أضافها إلى الرسول . فذكرت لولاة الأمور أن هذا من جنس الكهّان ، وأن الذى يراه شيطان[1] ، ولهذا لا يأتيه فى الصورة المعروفة للنبى صلى الله عليه وسلم بل يأتيه فى صورة منكرة ، ويذكر عنه أنه يخضع له ويبيح له أن يتناول المنكر وأموراً أخرى، وكان كثير من الناس يظنون نه كاذب فيما يخبر به من الرؤية ، ولم يكن كاذباً فى أنه رأى تلك الصورة ، لكن كان كافراً فى اعتقاده أن ذلك رسول الله ، ومثل هذا كثير .

ولهذا تحصل لهم تنزُّلات شيطانية بحسب ما فعلوه من مراد الشيطان ، فكلما / بعدوا عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وطريق المؤمنين قربوا من الشيطان ، فيطيرون فى الهواء والشيطان طار بهم ، ومنهم من يصرع الحاضرين وشياطينه صرعتهم ، ومنهم من يحضر طعاماً وإداماً ويملأ[2] الإبريق ماء من الهواء ، والشياطين فعلت ذلك ، فيحسب الجاهلون أن هذه كرامات أولياء الله المتقين ، وإنما هى من جنس أحوال السحرة والكهنة وأمثالهم .

س ١٢٦

---

(١) فى الأصل : شيطاناً ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : وملأ .

ومن لم يميِّز بين الأحوال الرحمانية والنفسانية اشتبه عليه الحق بالباطل ، ومن لم ينوِّر الله قلبه بحقائق الإيمان واتِّباع القرآن لم يعرف طريق المحق من المبطل ، والتبس عليه الأمر والحال ، كما التبس على الناس حال مسيلمة صاحب اليمامة وغيره من الكذّابين فى زعمهم أنهم أنبياء وإنما هم كذّابون .

إخبار النبى صلى الله عليه وسلم عن الدجالين والدجال الكبير

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يكون فيكم ثلاثون دجّالون كذّابون كلهم يزعم أنه رسول الله »[1] .

وأعظم الدجاجلة فتنة الدجال الكبير الذى يقتله عيسى بن مريم[2] ، فإنه ما خَلَق الله من لدن آدم إلى قيام الساعة أعظم من فتنته ، وأمر المسلمين أن يستعيذوا من فتنته فى صلاتهم[3] . وقد ثبت أنه يقول للسماء : أمطرى ،

---

(١) روى مسلم فى صحيحه ١٨٩/٨ (كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل . . الخ) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله » . رواه أحمد فى مسنده (ط . المعارف) ٢١٨/١٢ (رقم ٧٢٢٧) . وهو جزء من حديث رواه البخارى فى صحيحه ٢٠٠/٤ (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام) ، ومن حديث آخر طويل ٥٩/٩ (كتاب الفتن ، باب حدثنا مسدد .. الخ) (وقال النبهانى فى الفتح الكبير ٣٣٥/٣ أنه فى سنن أبى داود وسنن الترمذى) . وروى ابن عمر رضى الله عنه حديثاً بنفس المعنى فى المسند (ط . المعارف) الأرقام : ٥٦٩٤ ، ٥٦٩٥ ، ٥٨٠٨ ، ٥٩٨٥ .

وذكر النبهانى (فى نفس الصفحة السابقة) حديثا آخر عن ثوبان بنفس المعنى قال إنه فى سنن الترمذى وفى مستدرك الحاكم .

(٢) خبر قتل المسيح صلى الله عليه وسلم للدجال رواه مسلم فى صحيحه فى ثلاثة مواضع من كتاب الفتن ١٧٤/٨ ـ ١٧٥ (باب فى فتح القسطنطينية .. الخ) ، ١٩٨/٨ (باب ذكر الدجال وصفته وما معه) ، ٢٠١/٨ (باب فى خروج الدجال) . والخبر فى سنن أبى داود والترمذى وابن ماجة والمسند .

(٣) التعوذ من شر فتنة المسيح الدجال بعد التشهد الأخير ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، جاء فى أحاديث عن عدد من الصحابة فى صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى . انظر الأذكار للنووى ، ص ٦٤ ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٥٤/١٤ ـ ٢٥٥ (رقم ٧٨٥٧) ١١٣/١٥ ـ ١١٤ (رقم ٧٩٥١) .

فتمطر ، وللأرض : أنبتى فتنبت[١] ، وأنه يقتل رجلاً مؤمنا ثم يقول : قم ، فيقوم ، فيقول : أنا ربك ، فيقول له : كذبت بل أنت الأعور الكذاب الذى أخبرنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ما ازددت فيك إلا بصيرة . فيقتله مرتين ويريد أن يقتلة فى الثالثة فلا يُسلَّط عليه ، وهو يدعى الإلٰهية[٢] .

وقد بيَّن له النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث علامات تنافى مايدعيه،أحدها : أنه أعور وإن ربكم ليس بأعور . والثانية : أنه مكتوب بين عينيه « كافر » يقرأه كل مؤمن قارىء وغير قارىء[٣] . والثالثة : قوله : « واعلموا أن أحدكم لا يرى ربه حتى يموت »[٤] .

فهذا هو الدجّال الكبير ، ودونه دجاجلة : منهم من يدّعى النبوة ، ومنهم من يكذب بغير ادعاء النبوة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : «يكون فى آخر الزمان

---

(١) فى حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه الذى رواه مسلم فى صحيحه ١٩٧/٨ (كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عن الدجال : « . . . فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت . . الخ » .

(٢) هذا الخبر جزء من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه وهو فى : البخارى ٢٢/٣ (كتاب فضائل المدينة ، باب لا يدخل الدجال المدينة) ؛ مسلم ١٩٩/٨ (كتاب الفتن ، باب فى صفة الدجال وتحريم المدينة عليه .. الخ) .

(٣) وردت أحاديث كثيرة فى صفة الدجال وفى أنه أعور وأنه مكتوب بين عينيه كافر . انظر مثلا حديث أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٩ / ٦٠ (كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال) ؛ مسلم ١٩٥/٨ (كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه) .

(٤) هذه العبارة جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه ١٩٣/٨ (كتاب الفتن ، باب ذكر ابن صياد) ورواه الدارمى فى كتاب « الرد على الجهمية » ص ٥١ . ووردت هذه العبارة فى حديث آخر طويل عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه فى سنن ابن ماجة ٣٦/٢ (كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال) . وهى جزء من حديث رواه أحمد عن عبادة بن الصامت فى المسند (ط. الحلبى) ٣٢٤/٥ وفى كتاب « السنة » ، ص ١٣٨ (ط. السلفية ، مكة ، ١٣٤٩) . وأورد فى نفس الكتاب (ص ١٣٨ ـ ١٣٩) حديث أبى أمامة ، كما أورده ابن خزيمة فى كتاب التوحيد ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

دجّالون كذابون يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم» [١] .

كان الحلاج دجالا ووجب قتله

فالحلاج كان من الدجاجلة بلا ريب ، ولكن إذا قيل : هل تاب قبل الموت أم لا ؟ قال[٢] : الله أعلم ، فلا يقول ما ليس له به علم ؛ ولكن ظهر عنه من الأقوال والأعمال ما أوجب كفره وقتله باتفاق المسلمين ، والله أعلم .

---

(١) الحديث مع اختلاف فى اللفظ عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ١/٩ (المقدمة باب فى الضعفاء والكذابين) .

(٢) قال : كذا بالأصل ، وسياق الكلام يدل على أن المقصود : قال المجيب .



رِسَالَة في الرَّدّ على ابن عَرَبي في دعوىٰ إيمان فرعَونْ



ص ١٣٧ هذا سؤال أجاب عنه الشيخ الإمام العلاّمة الأوحد ، شيخ الإسلام ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم ابن محمد بن تيمية الحرّانى .

ظ ١٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

و به التوفيق

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وسلم .

نص السؤال

ما تقول السادة العلماء رضى الله عنهم فى قول فرعون عند الغرق : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٩٠] هل فيه دليل على إيمانه وإسلامه ؟ وما يجب على من يقول: إنه مات مؤمناً والحالة هذه ؟

الجواب

﴿ الجواب ﴾

الحمد لله .

كفر فرعون ، وموته كافراً ، وكونه من أهل النار هو مما عُلم بالاضطرار من دين المسلمين ، بل ومن دين اليهود والنصارى ، فإن أهل الملل الثلاثة متفقون على أنه من أعظم الخلق كفراً ، ولهذا لم يذكر الله تعالى فى القرآن قصة كافر كما ذكر قصته فى بسطها وتثنيتها ، ولا ذكر عن كافر من الكفر أعظم مما ذكر من كفره واجترائه وكونه[1] أشد الناس عذاباً يوم القيامة .

فرعون من أعظم الخلق كفراً

ولهذا كان المسلمون متفقين[2] على أن من توقَّف فى كفره ، وكونه من

(١) فى الأصل : وقومه ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : متفقون . وهو خطأ .

أهل النار فإنه يجب أن يُستتاب ، فإن تاب وإلا قُتل كافراً مرتدًّا ، فضلا عمَّن يقول إنه مات مؤمناً .

والشك فى كفره أو نفيُه أعظم منه فى كفر أبى لهب ونحوه ، وأعظم من ذلك فى أبى جهل وعقبة بن أبى مُعَيْط والنضر بن الحارث ونحوهم ممَّن تواتر كفرهم ولم يذكر باسمه فى القرآن ، وإنما ذكر ما ذكر من أعمالهم ، ولهذا لم يظهر عن أحد بالتصريح بأنه مات مؤمنا إلا عمَّن فيه من النفاق والزندقة أو التقليد للزنادقة والمنافقين ماهو أعظم من ذلك ، كالاتحادية الذين يقولون : إن وجود الخالق [هو] وجود الخلق[1] ، حتى يصرِّحون بأن يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً وغيرها من الأصنام هى وجودها وجود الله ، وأنها عُبدت بحق[2] ، وكذلك العجل عُبد بحق ، وأن موسى أنكر على هارون من نهيه عن عبادة العجل[3] ، وأن فرعون كان صادقا فى قوله : أنا ربكم الأعلى ، وأنه عين الحق[4] وأن العبد إذا دعا الله تعالى فعين الداعى عين المجيب ، وأن العالم هويته ، ليس وراء العالم وجود أصلا[5] .

لا يصرح بموته مؤمناً إلا من فيه نفاق وزندقة كالاتحادية

ص ١٣٨

ومعلوم أن هذا بعينه هو / حقيقة قول فرعون الذى قال : ﴿ يَا هَامَانُ

---

(١) فى الأصل : إن وجود الخالق ووجود المخلوق . وانظر مقدمة فصوص الحكم للدكتور أبى العلا عفيفى ، ص ٢٤ ـ ٢٨ . وانظر قول ابن عربى فى الفصوص ١ / ٧٩ :

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا ... وليس خلقا بذاك الوجه فاذكروا
من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته ... وليس يدريه إلا من له بصر
جمع وفرق فإن العين واحدة ... وهى الكثيرة لاتبقى ولا تذر

(٢) فى الأصل : وأنها عبد بحق. وانظر ماسبق ص ١٦٦ حيث ذكر ابن تيمية نص الفصوص ١ / ٧٢ .

(٣) انظر ما سبق ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ، وانظر الفصوص ١ / ١٩٢ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ١٦٧ ، والفصوص ١ / ٢١٠ ـ ٢١١ .

(٥) انظر ما سبق ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ، ١٦٤ ـ ١٦٦ .

ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [سورة غافر : ٣٥، ٣٦] .

ولقد خاطبت بعض الفضلاء مرة بحقيقة مذهبهم ، وأنه حقيقة قول فرعون فذكر لى رئيس من رؤسائهم أنه لما دعاه إلى هذا القول وبيَّنه قال : قلت له : هذا قول فرعون . فقال له : ونحن على قول فرعون ؛ وما كنت أظن أنهم يُقِرُّون أو يعترفون بأنهم على قول فرعون . قال : إنما قلت ذلك استدلالاً ، فلما قال ذلك ، قلت له : مع إقرار الخصم لايُحتاج إلى بيِّنة .

تفضيل الاتحادية الولى على النبى والرسول

وهم مع هذا الكفر والتَّعطيل الذى هو شرٌّ من قول اليهود والنصارى ، يدَّعون أن هذا العلم ليس إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء الذى يدَّعونه ، وأن خاتم الأنبياء إنما يرى هذا العلم من مشكاة خاتم الأولياء ، وأن خاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملَك الذى يوحى به إلى خاتم الأنبياء ، وهو فى الشرع مع موافقته له فى الظاهر مشكاة [له] فى الباطن(١) ، ولا يحتاج أن يكون متبعا للرسول لا فى الظاهر ولا فى الباطن(٢) .

وهذا ــ مع أنه من أقبح الكفر وأخبثه ــ فهو من أفسد الأشياء فى العقل ، كما يُقال لمن قال : « نخرَّ عليهم السقف من تحتهم » : لاعقل ولا قرآن ؛

---

(١) فى الأصل : مرآة فى الباطن ، ورجحت أن يكون الصواب ماأثبته .

(٢) انظر الفصوص ١/ ٦١ ــ ٦٤ ، وانظر قول ابن عربى ١ / ٦٢ : « : . وهذا هو أعلى عالم بالله ، وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ، ولايراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى الخاتم ، حتى أن الرسل لا يرونه ــ متى رأوه ــ إلا من مشكاة خاتم الأولياء » . ثم انظر ما ذكره بعد ذلك ١/٦٣ : « ... فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين فيكمل الحائط . والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل فى الظاهر ــ وهو موضع اللبنة الفضة ، وهو ظاهره ومايتبعه فيه من الأحكام . . . وهو موضع اللبنة الذهبية فى الباطن ، فإنه أخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول » .

لأن الخرور لايكون من أسفل ، وكذلك الاستفادة ، إنما يستفيد المتأخر من المتقدم .

ثم خاتم الأولياء الذين يدعونهم ، ضلالهم فيه من وجوه ، حيث ظنوا أن للأولياء خاتماً ، وأن يكون أفضلهم قياساً على خاتم الأنبياء ، ولم يعلموا أن أفضل الأولياء من هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وهم السالقون من الأولياء لا الآخرون ، إذ فضل الأولياء على قدر اتّباعهم للأنبياء واستفادتهم منهم علماً وعملاً .

وهؤلاء الملاحدة يدّعون أن الولى يأخذ من الله بلا واسطة ، والنبى يأخذ بواسطة ، وهذا جهل منهم ، فإن الولى عليه أن يتّبع النبى ، ويعرضَ كلّ ما له من محادثةٍ و إلهامٍ على ماجاء به النبى، فإن وافقه وإلا ردّه ، إذ ليس هو بمعصوم فيما يقضى له .

وقد يلبسون على بعض الناس بدعواهم أن ولاية النبى أفضل من نبوته[1] ، وهذا مع أنه ضلال فليس هو مقصودهم ، فهم مع ضلالهم فيما ظنوه من خاتم الأولياء ومرتبته يختلفون فى عينه بحسب الظن وما تهوى الأنفس[2] ،

---

(١) انظر فصوص الحكم ١ / ١٣٤ - ١٣٧ وانظر قول ابن عربى ١ / ١٣٥ : « فإذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو ولى وعارف ، ولهذا مقامه من حيث هو عالم أتم وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع . فإذا سمعت أحداً من أهل الله يقول أو ينقل إليك عنه أنه قال : الولاية أعلى من النبوة فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه . أو يقول : إن الولى فوق النبي والرسول فإنه يعنى بذلك فى شخص واحد : وهو أن الرسول عليه السلام - من حيث هو ولى - أتم من حيث هو نبى ورسول ، لا أن الولى التابع له أعلى منه . . » .

(٢) يزعم ابن عربى أنه هو خاتم الأولياء - وخاتم الأولياء عنده أفضل من خاتم الرسل - فيقول :

أنا ختم الولاية دون شك لورث الهاشمى مع المسيح

وانظر « التصوف الثورة الروحية فى الإسلام » للدكتور أبى العلا عفيفى (ط. المعارف ١٩٦٣) ص ٣١٢ - ٣١٤ . وانظر الفتوحات ٢ / ٤٩ (ط . الحلبى) .

لتنازعهم فى تعيين القطب الفرد الغوث الجامع[1] ، ونحو ذلك من/المراتب التى يدّعونها ، وهى/ معلومة البطلان بالشرع والعقل . ثم يتنازعون فى عين الموصوف بها ، وهذا باب واسع .

ظ ١٣٨

والمقصود هنا أن هؤلاء الاتحادية من أتباع صاحب « فصوص الحكم » وصاحب « الفتوحات المكية » ونحوهم ، هم الذين يعظّمون فرعون ، و يدّعون أنه مات مؤمناً ، وأن تغريقه كان بمنزلة غُسل الكافر إذا أسلم ، و يقولون : ليس فى القرآن ما يدل على كفره ، و يحتجُّون على إيمانه بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٩٠] .

بطلان حجتهم على إيمان فرعون

وتمام القصة تبين ضلالهم ، فإنه قال سبحانه : ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة يونس : ٩١] ، وهذا استفهام إنكار وذمّ ، ولو كان إيمانه صحيحاً مقبولا لما قيل له ذلك .

وقد قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [سورة يونس : ٨٨] .

---

(١) فى رسالة اصطلاحات الصوفية لابن عربى (طبعت مع التعريفات للجرجانى ، ط . مصطفى الحلبى ، ومع رسائل ابن عربى ، ط . حيدرآباد ، وهى واردة فى الفتوحات) : « القطب ــ وهو الغوث ــ عبارة عن الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان ، وهو على قلب إسرافيل عليه السلام » . وزاد الجرجانى فى التعريفات : « أعطاه (الله) الطلسم » . وأما الغوث فعرفه ابن عربى : « هو واحد فى كل الزمان بعينه إلا أنه إذا كان الوقت يعطى الالتجاء إلى عنايته » . وقال الجرجانى : « هو القطب حينما يلتجأ إليه ولا يسمى فى غير ذلك الوقت غوثا » .

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [سورة يونس : ٨٩] ، فاستجاب الله دعوة موسى وهارون ، فإن موسى كان يدعو ، وهارون يؤمّن أن فرعون وملأه لايؤمنون حتى يروا العذاب الأليم .

وقد قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة غافر : ٨٢ ـ ٨٥] ، فأخبر سبحانه وتعالى أن الكفار لم يك ينفعهم إيمانهم حين رأوا البأس ، وأخبر أن هذه سنته التى قد خلت فى عباده ، ليبين أن هذه عادته سبحانه فى المستقدمين والمستأخرين ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [سورة النساء : . ١٨]

ثم إنه سبحانه وتعالى قال بعد قوله : ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [سورة يونس : ٩١ ـ ٩٢] ، فجعله الله تعالى عبرة وعلامة لمن يكون بعده من الأمم لينظروا عاقبة من كفر بالله تعالى ، ولهذا ذكر الله تعالى الاعتبار بقصة فرعون وقومه فى غير موضع .

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ

ص ١٣٩

تبَّع كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [سورة ق : ١٢ ـ ١٤] ، فأخبر سبحانه أن كل واحد من هؤلاء المذكورين ، فرعون وغيره ، كذّب الرسل كلهم ، إذ لم يؤمنوا ببعضٍ ويكفروا ببعض كاليهود والنصارى ، بل كذّبوا الجميع ، وهذا أعظم أنواع الكفر ، فكل من كذب رسولاً فقد كفر ، ومن لم يصدقه ولم يكذبه فقد كفر ؛ فكل مكذِّب للرسول كافرٌ به ، وليس كل كافر مكذباً به ، إذ قد يكون شاكاً في رسالته ، أو عالما بصدقه لكنه يحمله الحسد أو الكبر على ألا يصدق ، وقد يكون مشتغلا بهواه عن استماع رسالته والإصغاء إليه ؛ فمن وصف بالكفر الخاص الأشدّ ، كيف لا يدخل في الكفر ؟ !

ولكن ضلالهم في هذا نظير ضلالهم في قوله :

مقام النُّبـوَّة في برزخٍ فُوَيْقَ الرسولِ ودونَ الولي(١)

وقد علم أن كل رسول نبي ، وكل نبي وليّ ، ولا ينعكس .

وقال سبحانه تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [سورة ص : ١٢ ـ ١٤] . وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [سورة الحاقة : ٩ ، ١٠] .

---

(١) لم أعثر على هذا البيت ولكن وجدت بيتا بمعناه في كتاب « لطائف الأسرار » لابن عربي (تحقيق أحمد زكي عطية وطه عبد الباقي سرور ، دار الفكر العربي ، ١٣٨٠ / ١٩٦١) ص ٤٩ ونصه :

سماء النبوة في برزخ دوين الولي وفوق الرسول

وفي الفتوحات المكية ٢ / ٢٥٢ يقول :

بين الولاية والرسالة برزخ فيه النبوة حكمها لا يجهل

وانظر الفتوحات ٢ / ٥٢ ـ ٥٣ .

ثم إن الله تعالى أخبر عن فرعون بأعظم أنواع الكفر : من جحود الخالق ، ودعواه الإلهية ، وتكذيب من يقرّ بالخالق سبحانه ، ومن تكذيب الرسول ووصفه بالجنون والسحر وغير ذلك . ومن المعلوم بالاضطرار أن الكفار العرب الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم - مثل أبي جهل وذريته - لم يكونوا يجحدون الصانع ، ولا يدّعون لأنفسهم الإلهية ، بل كانوا يشركون بالله ويكذّبون رسوله .

وفرعون كان أعظم كفرا من هؤلاء ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة غافر : ٢٣ - ٢٨] ، إلى قوله : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٦ ، ٣٧] . ظ ١٣٩

أخبر الله سبحانه وتعالى أن فرعون ومن ذكر معه قال إن موسى ساحر كذّاب ، وهذا من أعظم أنواع الكفر .

ثم أخبر الله [أنه][1] أمر بقتل أولاد الذين آمنوا معه لينفروا عن

---

(١) أنه : زيادة يستقيم بها السياق .

الإيمان معه كيداً لموسى . قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٧] ،فدلّ على أنهم من الكافرين الذين كيدهم فى تباب ، فوصفهم بالتكذيب وبالكفر جميعاً ، وإن كان التكذيب مشتملاً مستلزماً الكفر ، كما أن الرسالة مستلزمة للنبوة ، والنبوة مستلزمة للولاية .

ثم أخبر عن فرعون أنه طلب قتل موسى وقال : ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ ، وهذا تنبيه على أنه لم يكن مقرًّا بربه ، ولهذا قال فى تمام الكلام : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [سورة القصص : ٣٨] ، وهذا جحد صريح لإلٰه العالمين ، وهى الكلمة الأولى .

ثم قال بعد ذلك لما ذكره [١] الله تعالى بقوله : ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [سورة النازعات : ٢١ ـ ٢٤] ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ [سورة النازعات : ٢٥ ـ ٢٦] . قال كثير من العلماء : أى نكال الكلمة الآخرة ، ونكال الكلمة الأولى ، فنكّل الله تعالى [به] [٢] على الكلمتين باعترافه ، وجعل ذلك عبرة لمن يخشى . ولو كان هذا ممن لم يعاقب على ما تقدم من كفره ، ولم يكن عقابه عبرة ، بل من آمن غفر الله له ماسلف ، ولم يذكره بكفرٍ ولا بذمٍّ أصلاً ، بل يمدحه على إيمانه ، ويثنى عليه كما أثنى على من آمن بالرسل ، وأخبر أنه نجّاهم .

وفرعون هو أكثر الكفار ذكراً فى القرآن ، وهو لايذكره سبحانه إلا

---

(١) الكلمة فى الأصل مطموسة وكذا استظهرتها .
(٢) فى الأصل : فنكامه الله تعالى ، وهو تحريف .

بالذمّ والتقبيح واللعن ، ولم يذكره بخير قط .

وهؤلاء الملاحدة المنافقون يزعمون أنه مات طاهراً مطهّراً ليس فيه شيء من الخبث ، بل يزعمون أن السحرة صدّقوه فى قوله : ماعلمت لكم من إله غيرى ، وأنه صح قوله : أنا ربكم الأعلى ، وأنه كان عين الحق .

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن جحوده لرب العالمين . قال لما قال له موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٠٤ ، ١٠٥] ، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٢٣ـ٢٩][1] ، فتوعد موسى بالسجن إن اتخذ إلٰهاً غيره . ص ١٤٠

وهؤلاء مع تنظيمهم لفرعون يشاركون فى حقيقة كفره ، وإن كانوا مفارقين له من جهة أخرى ، فإن عندهم : ما ثَمّ موجودٌ غير الله أصلاً ، ولا يمكن أحد[2] أن يتخذ إلٰهاً غيره ، لأنه أىّ شىء عبد العابدُ من الأوثان والأصنام والشياطين ، فليست عندهم غير الله أصلا . وهل يُقال هى الله ؟ لهم فى ذلك قولان .

---

(١) فى الأصل لم تذكر الآيات كاملة .
(٢) فى الأصل : أحداً .

إخبار الله عن عذاب فرعون فى الآخرة

وإخباره سبحانه وتعالى عن تكذيب فرعون وغير ذلك من أنواع كفره كثير فى القرآن ، وكذلك إخباره عن عذابه فى الآخرة . فإن هؤلاء الملاحدة يزعمون أنه ليس فى القرآن آية تدل على عذابه ، ويقولون إنما قال سبحانه : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ [سورة هود : ٩٨] ، قالوا : فأخبر أنه يوردهم ، ولم يذكر أنه دخل معهم . قالوا : وقد قال : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [سورة غافر : ٤٦] ، فإنما يدخل النارَ آلُ فرعون لا فرعون .

وهذا من أعظم جهلهم وضلالهم ، فإنه حيث ذكر فى الكتاب والسنة آل فلان كان فلان داخلاً فيهم ، كقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٣٣] ، وقوله : ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ [سورة القمر : ٣٤] ، وقوله : ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾ [سورة الصافات : ١٣٠] . وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهمّ صلِّ على آل أبى أوْفى »[1] ، وقوله : « لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود »[2] .

---

(١) الحديث متفق عليه عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه فى : البخارى ٢/١٢٩ (كتاب الزكاة ، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة) ونصه فيه : « عن عبد الله بن أبى أوفى قال كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : اللهم صل على آل فلان ، فأتاه أبى بصدقة ، فقال : اللهم صل على آل أبى أوفى » . والحديث فى : مسلم ٣/١٢١ (كتاب الزكاة ، باب الدعاء لمن أتى بصدقة) ؛ التاريخ الكبير للبخارى ٣ / ٢٤ ؛ الإصابة لابن حجر ٢ / ٤٩٥ (ط . التجارية ، ١٣٥٨ / ١٩٣٩) .

(٢) الحديث متفق عليه . رواه البخارى ٦/١٩٥ (كتاب فضائل القرآن ، باب حسن الصوت بالقراءة) ونصه : « عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : ياأبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود » . وهو فى مسلم ٢ /١٩٢-١٩٣ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن) ؛ الإصابة ٢/٣٥٢ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [سورة البقرة : ٤٩] ، ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ [سورة آل عمران : ١١] ، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [سورة القمر : ٤١ ـ ٤٢] .

وقوله : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [سورة غافر : ٤٦] متناولٌ له ولهم باتفاق المسلمين ، وبالعلم الضرورى من دين المسلمين .

وهذا بعد قوله تعالى حكاية عن مؤمن [من] آل فرعون (١) يكتم إيمانه : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ [سورة غافر : ٢٨] ، والذى طلب قتله هو فرعون ، فقال المؤمن بعد ذلك : ﴿ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ﴾ [سورة غافر : ٤١ ـ ٤٢] ، والداعى إلى الكفر هو كافر كفراً مغلّظاً ، فهذا فيه .

ووصفهم أيضاً بالكفر إلى قوله : ﴿ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَامَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ ظ ١٤٠ [سورة غافر : ٤٥ ـ ٤٦] ، فأخبر أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب . ثم قال : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا

---

(١) فى الأصل : عن مؤمن آل فرعون .

كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [سورة غافر : ٤٧ – ٤٨]
ومعلوم أن فرعون هو أعظم الذين استكبروا ، ثم هامان وقارون ، وأن قومهم كانوا لهم تبعاً ، وفرعون هو متبوعهم الأعظم الذى قال : ما علمت لكم من إله غيرى ، وقال : أنا ربكم الأعلى .

وقد قال : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [سورة القصص : ٣٩ – ٤٢] .

وهذا تصريح بأنه نبذه وقومه فى اليمّ عقوبةَ الذى هو الكفر ، وأنه أتبعه وقومه فى الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين هو وقومه جميعاً ، وهذا موافق لقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فى هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [سورة هود : ٩٦ – ٩٩] .

فأخبر سبحانه أنهم اتبعو أمره ، وأنه يقدمهم لأنه إمامهم ، فيكون قادماً لهم لا سائقاً لهم ، وأنه يوردهم النار . فإذا كان التابع قد ورد النار فمعلوم أن القادم الذى يقدمه وهو متبوعه ورد قبله ، ولهذا قال بعد ذلك : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [سورة القصص : ٤٢] .

والتابع والمتبوع كما قال الله تعالى في تلك السورة عن فرعون وقومه : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [سورة هود : ٩٩] .

والكلام في هذا مبسوط ، لم تحتمل هذه الورقة إلا هذا ، والله أعلم .

والحمد لله وحده ، وصلوات الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ،

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تم وكمل .

رسالة في التوبة



ص ٧٠

﴿ فصـــل ﴾ [١]

قال الإمام العلامة شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية رحمه الله :

بعض آيات التوبة فى القرآن

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يَهْدِه الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِل فلا هادى [له] [٢] . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحقِّ ليُظهرَهُ على الدِّين كلِّه ، وكفى بالله شهيداً . صلى الله عليه وعلى آله وسلّم تسليماً .

قال الله تعالى : ﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [سورة هود : ١ ـ ٣] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن

(١) فى أول الصفحة كتب العنوان الآتى : سبب البقاء فى الجنة وهو الصلاة .
(٢) له : ساقطة من الأصل .

يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ الآيات [سورة الزمر : ٥٣ ـ ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ الآية [سورة التحريم : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُون لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة التوبة : ١١٧، ١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة البقرة : ٣٥ ـ ٣٧] .

وقال تعالى فى السورة الأخرى : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٢ ، ٢٣] .

ظ ٧٠

وقال تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [سورة طه : ١٢١ ، ١٢٢] .

وقال تعالى عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ الآية [سورة نوح : ١٠ ، ١١] .

وقال عن نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٧] ، وعن هود : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [سورة هود : ٥٢] ، وعن صالح : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [سورة هود : ٦١] ، وكذلك قال شعيب : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [سورة هود : ٩٠] . وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [سورة إبراهيم : ٤١] ، وقال : ﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [سورة الشعراء : ٨٢] ، وقال : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة البقرة : ١٢٨] ، وقال عن موسى عليه السلام : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة القصص : ١٥ ، ١٦] ، وقال موسى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥١] ، وقال موسى : ﴿ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٣] .

وقال تعالى لموسى : ﴿ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة النمل : ١٠ ، ١١] ، وقال موسى : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ الآية [سورة الأعراف : ١٥٥ ـ ١٥٧] .

وقال لخاتم الرسل : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [سورة محمد : ١٩] ، وقال : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [سورة الفتح : ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٢] .

وقال : ﴿ حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة غافر : ١ ـ ٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [سورة الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَي اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سوره التوبة : ١٠٢ ـ ١٠٦] .

بعض الأحاديث في التوبة

وفى صحيح مسلم عن أبى بُرْدَةَ عن الأغرِّ عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا أيها الناسُ توبوا إلى اللهِ ، فإنى أتوب إليه فى اليوم

مائة مرة »[١] . وعن أبى بردة عن الأغر المزنى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليُغَانُ على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة »[٢] . وقال : « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »[٣] . وقال : « إن اللهَ تعالى يبسط يده بالليلِ ليتوبَ مُسىءُ النهار ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ ليتوبَ مسىءُ الليلِ حتى تطلعَ الشمسُ من مَغْرِبِها »[٤] . وقال : « من تاب قبلَ أنْ تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها تاب الله عليه »[٥] . وقال : « للهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه مِنْ أحدِكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأَيِسَ منها ، فأَتى شجرة فاضطجع فى ظلِّها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده ،

---

(١) الحديث فى مسلم ٨/٧٢ ـ ٧٣ (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه) ونصه : « .. عن أبى بردة قال سمعت الأغر ـ وكان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ـ يحدث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة » . وفى نسخة : « . . فى اليوم مائة مرة » .

(٢) الحديث فى مسلم ٨/٧٢ (نفس الكتاب والباب) ؛ سنن أبى داود ٢/١١٣ (كتاب الوتر ، باب فى الاستغفار) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٤/٢١١ .

(٣) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٨/٦٧ (كتاب الدعوات ، باب استغفار النبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم والليلة) ؛ سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ١٢ / ١٤٤ ، (كتاب التفسير ، سورة محمد) ؛ المسند . (ط . الحلبى) ٢ / ٢٨٢ ، ٣٤١ .

(٤) الحديث عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى : مسلم ٨/٩٩ـ ١٠٠ (كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة) ؛ المسند (ط .الحلبى) ٤/٣٩٥ ؛ الترغيب والترهيب للمنذرى ٥/٤٩ وقال : رواه مسلم والنسائى .

(٥) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٨/٧٣ (كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٤/١٢٩ (رقم ٧٦٩٧) ، (ط . الحلبى) ٢/٣٩٥ ، ٤٢٧ ، ٤٩٥ .

فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدَّة الفرح »[١] .

وهذا الحديث متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه ابن مسعود ، والبراء بن عازب ، والنُّعمان بن بشير ، وأبو هريرة ، وأنس بن مالك[٢] . ففى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للهُ أفرحُ بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دَوِّيَّة مَهْلَكَةٍ[٣] ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه وزادُه وما يُصلحه ، فأضلَّها ، فخرج فى طلبها ، حتى إذا أدركه الموت ولم يجدها قال : أرجع إلى مكانى الذى أضللتُها فيه فأموت فيه . فأتى مكانه فغلبته عينُه ، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه »[٤] . وفى السنن أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كلّ بنى آدمَ خطّاء ، وخير الخطائين التوّابون »[٥] . وقال : « إن العبد إذا أذنب

---

(١) الحديث بهذا اللفظ مروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى مسلم ٨/٩٣ (كتاب التوبة ، باب فى الحض على التوبة والفرح بها) . وانظر : جامع الأصول لابن الأثير ٣/٦٦ .

(٢) انظر : جامع الأصول ٣/٦٣ - ٦٧ .

(٣) قال الشيخ أحمد شاكر فى شرحه للحديث : المسند (ط . المعارف) ٥/٢٢٥ : « دوية : بفتح الدال وتشديد الواو المكسورة وتشديد الياء المفتوحة ، قال ابن الأثير : الدو : الصحراء ، والدوية منسوبة إليها ، وقد تبدل من إحدى الواوين ألف فيقال : داوية على غير قياس ، نحو طائى فى النسب إلى طى . مهلكة : بفتح الميم واللام : أى موضع الهلاك ، أو الهلاك نفسه ، وتفتح لامها وتكسر ، وهما أيضا المفازة ، قاله ابن الأثير . ونقل الحافظ فى الفتح أن فى بعض نسخ البخارى : بضم الميم وكسر اللام من الرباعى ، أى تهلك هى من يحصل فيها » . وانظر : النهاية فى غريب الحديث : مادة « دوا » ومادة « هلك » .

(٤) الحديث فى : البخارى ٨/٦٧ - ٦٨ (كتاب الدعوات ، باب التوبة) ؛ مسلم ٨/٩٢ (كتاب التوبة ، باب فى الحض على التوبة والفرح بها) ؛ المسند (ط . المعارف) ٥/٢٢٥ - ٢٢٦ (رقم ٣٦٢٧) .

(٥) الحديث مروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : الترمذى (بشرح ابن العربى) =

نُكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلكم الرَّانُ الذى ذكر الله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة المطففين : ١٤] »[(١)].

وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ [سورة النجم : ٣٢] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن تغفرِ اللهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وأىُّ عَبْدٍ لك لا أَلَمَّا »[(٢)]

ظ ٧١

وعن ابن عمر قال : إن كنا لنعد / لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول : « رب اغفرلى وتب علىّ إنك أنت التواب الغفور » مائة مرة . رواه أحمد والترمذى وقال : حديث صحيح[(٣)].

= ٩/٣٠٨ (أبواب صفة القيامة ، باب المؤمن يستثقل ذنوبه والتوبة) ؛ سنن ابن ماجة ٢/١٤٢٠ (رقم ٤٢٥١) ؛ سنن الدارمى ٢ / ٣٠٣ ؛ المستدرك للحاكم ٤/٢٤٤ . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وانظر : جامع الأصول ٣/٧٠ ؛ الترغيب والترهيب ٥ / ٥٢ .

(١) رواه المنذرى بألفاظ مقاربة فى الترغيب والترهيب ٣/١٢٩ ، ٥/٥٣ ، وقال : « رواه الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه والحاكم ــ واللفظ له ــ من طريقين قال فى أحدهما : صحيح على شرط مسلم . ولفظ ابن حبان وغيره : إن العبد إذا أخطأ خطيئة ينكت فى قلبه نكته ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقلت ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، الحديث » . والحديث فى سنن ابن ماجة ٢ / ١٤١٨ (كتاب الزهد ، باب ذكر الذنوب) .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ١٢ / ١٧٢ ــ ١٧٣ (كتاب التفسير ، سورة النجم) ونصه : « حدثنا أحمد بن عثمان البصرى حدثنا أبو عاصم عن زكريا ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفرجما وأى عبد لك ما ألما

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق » . وانظر : الدر المنثور للسيوطى ٦/١٢٧ .

(٣) الحديث فى : سنن أبى داود ٢/١١٣ (كتاب الوتر ، باب فى الاستغفار) ؛ المسند (ط . المعارف) ٦/٣٢٨ (رقم ٤٧٢٦) وانظر أرقام : ٥٣٥٤ ، ٥٥٦٤ ؛ سنن ابن ماجة ٢/١٢٥٣ (كتاب الأدب ، باب الاستغفار) .

﴿ فصـــل ﴾

التوبة نوعان : واجبة ومستحبة .

التوبة نوعان واجبة ومستحبة

فالواجبة هى التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور . وهذه واجبة على جميع المكلفين ، كما أمرهم الله بذلك فى كتابه وعلى ألسنة رسله .

الواجبة من ترك مأمور أو فعل محظور

والمستحبة هى التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات . فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقرّبين . ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين : إما الكافرين وإما الفاسقين . قال الله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة الواقعة : ٧ ـ ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [سورة الواقعة : ٨٨ ـ ٩٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [سورة فاطر : ٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [سورة الإنسان : ٣ ـ ٦] ، وقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ

والمستحبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات

كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [سورة المطففين : ٧ ـ ٢٨] ، قال ابن عباس : تمزج لأصحاب اليمين مزجاً ، ويشرب بها المقرَّبون صِرْفاً .

والتوبة رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه . فالتوبة المشروعة هى الرجوع إلى الله ، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال ، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم ، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهى عنها ، فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله ، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به ، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه ، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع ، وإما مغضوباً عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته .

التوبة من ترك الحسنات أهم من التوبة من فعل السيئات

ص ٧٢

وقد أمر / الله عباده المؤمنين أن يدعوه فى كل صلاة بقوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ . ولهذا نزَّه الله نبيه عن هذين ، فقال تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [سورة النجم : ١ ـ ٤] ، فالضال الذى لا يعلم الحق ، بل يظن أنه على الحق وهو جاهل به ، كما عليه النصارى . قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] .

والغاوى الذى يتبع هواه وشهواته مع علمه بأن ذلك خلاف الحق ، كما

عليه اليهود . قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف ١٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ الآية [سورة الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦] .

الغى والضلال يجمعان جميع السيئات

وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغيّ فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن »[1] . فإن الغيّ والضلال يجمع جميع سيئات بنى آدم ، فإن الإنسان كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢] ، فبظلمه يكون غاوياً ، وبجهله يكون ضالاً ، وكثيرا مايجمع بين الأمرين فيكون ضالاً فى شيء غاويا فى شيء آخر ، إذْ هو ظلوم جهول ، ويعاقب على كل من الذنبين بالآخر ، كما قال : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ [سورة البقرة : ١٠] ، وكما قال : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف : ٥] .

كما يثاب المؤمن على الحسنة بحسنة أخرى ، فإذا عمل بعلمه ورّثه الله علم مالم يعلم ، وإذا عمل بحسنة دعته إلى حسنة أخرى . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ

---

(١) الحديث عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٤ / ٤٢٠ من طريقين ، ولفظ الأولى : « حديثنا عبدالله ، حدثنى أبى ، ثنا يونس ، ثنا أبو الأشهب ، عن على بن الحكم ، عن أبى برزة الأسلمى ـ قال أبو الأشهب : لا أعلمه إلا عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن مما أخشى عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن » . وفى الطريق الثانية (نفس الصفحة) : « .. عن أبى برزة عن النبى صلى الله عليه وسلم : إن مما أخشى ... ومضلات الهوى » . ورواه الهيثمى فى الزوائد ٧/٣٠٥ـ٣٠٦ وقال : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [سورة مريم : ٧٦] ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [سورة العنكبوت : ٦٩] ، وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [سورة النساء ٦٦-٦٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٨ ، ٢٩] .

ظ ٧٢ وهو صلى الله عليه وسلم ذكر شهوات الغيّ فى / البطون والفروج ، كما فى الصحيح أنه قال : « من تكفل لى بما بين لحييه وما بين رجليه تكفلت له بالجنة »[1] . فإن هذا يعلم عامة الناس أنه من الذنوب ، لكن يفعلونه اتباعاً لشهواتهم .

---

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ولكن روى البخارى الحديث بألفاظ أخرى فى موضعين من صحيحه الأول ٨ / ١٠٠ (كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان) عن سهل بن سعد رضى الله عنه ونصه : « من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » ، والثانى ٨ / ١٦٤ (كتاب المحاربين ، باب فضل من ترك الفواحش) عن سهل أيضا وأوله : « من توكل لى . . الخ » . وذكر المنذرى فى الترغيب والترهيب ٤ / ٦١ - ٦٢ عدة روايات للحديث عن سهل بن سعد وعن أبى هريرة وعن أبى رافع وأبى موسى رضى الله عنهم وذكر أنه قد رواه البخارى والترمذى والطبرانى وأبو يعلى . وشرح المنذرى الحديث فقال : « المراد بما بين لحييه : اللسان ، وبما بين رجليه : الفرج ، واللحيان : هما عظم الحنك » . والحديث عن سهل رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٥ / ٣٣٣ وأوله : « من توكل لى . . الخ » . وذكر النبهانى فى « الفتح الكبير » ٣ / ٢٤٦ أن الحديث رواه ابن حبان والحاكم أيضا . وهو فى سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ٩/٢٤٨ (كتاب الزهد ، باب ما جاء فى حفظ اللسان) بلفظ : « من يتكفل لى . . . أتكفل . . الخ » .

وأما مضلات الفتن ، فأن يُفتَنَ العبدُ فيضلَّ عن سبيل الله وهو يحسب أنه مهتد ، كما قال : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٣٦ ، ٣٧] ، وقال : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [سورة فاطر : ٨] ، وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٧] ، وقال : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [سورة الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤] .

ولهذا تأوَّل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية فيمن يتعبد بغير شريعة الله التي بعث بها رسوله ، من المشركين وأهل الكتاب كالرهبان ، وفي أهل الأهواء من هذه الأمة كالخوارج الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، وقال فيهم : « يَحْقِرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يَمْرُقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة . أينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » [(١)] . وذلك لأن هؤلاء خرجوا عن سنة رسول

---

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ولكن جاء الحديث في البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرتين تتضمنان أكثر الألفاظ الواردة هنا ، الأولى ٤/ ٢٠٠ (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة) ولفظها : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة — وهو رجل من بني تميم — فقال : يارسول الله : اعدل . فقال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل . فقال عمر : يارسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه . فقال : دعه ، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لايجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . . الخ الحديث » . والرواية الثانية ٤ / ٢٠٠ — ٢٠١ ونصها : « يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، يمرقون من الإسلام =

الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين حتى كفّروا من خالفهم مثل عثمان وعلى وسائر من تولاهما من المؤمنين ، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم : « يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان »[1] .

وإذا اجتمع شهوات الغيّ ومضلات الفتن قوى البلاء ، وصار صاحبه مغضوبا عليه ضالاً . وهذا يكون كثيراً ، بسبب حب الرئاسة ، والعُلوِّ فى الأرض ، كحال فرعون . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص : ٤] ، فوصفه بالعُلوّ فى الأرض والفساد . وقال فى آخر السورة : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة القصص : ٨٣] ، ولهذا قال فى حق فرعون : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ [سورة غافر : ٣٧] .

وذلك أن حب الرئاسة شهوة خفية ، كما قال شدّاد بن أوسٍ رضى الله

= كما يمرق السهم من الرمية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة » .

وجاء الحديث عن الخوارج فى البخارى فى مواضع أخرى ، وأفرد لهم مسلم أبوابا فى صحيحة ٣ / ١٠٩ ـ ١١٧ (كتاب الزكاة : باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، وباب التحريض على قتل الخوارج ، وباب الخوارج شر الخلق والخليقة) . كما وردت الأحاديث عنهم فى سنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والدارى وفى المسند فى مواضع . وانظر مسند أبى سعيد الخدرى (ط . الحلبى) ٣ / ٣٣ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٣ . وانظر جامع الأصول لابن الأثير ١٠ / ٤٣٢ ـ ٤٤٢ ؛ مفتاح كنوز السنة : الخوارج .

(١) هذا جزء من حديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه رواه البخارى ٤/١٣٧ (كتاب الأنبياء ، باب قول الله عزوجل : وأما عاد فأهلكوا .. الآية) ؛ ومسلم ٣/١١٠ (كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم) ؛ أبو داود ٤ / ٣٣٥ (كتاب السنة ، باب فى قتال الخوارج) .

عنه : « يابغايا العرب ! يا بغايا العرب ! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية» . قيل / لأبى داود السجستانى : ما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة [1] . وحبُّكَ الشيء يُعمِي ويُصِمّ ، فيبقى حب ذلك يزيِّن له ما يهواه ، مما فيه علو نفسه ، ويبغِّض إليه ضد ذلك ، حتى يجتمع فيه الاستكبار ، والاختيال ، والحسد الذى فيه بغض نعمة الله على عباده ، لا سيما من مناظره .

ص ٧٣

والكبر والحسد هما داءان أهلكا الأوَّلين والآخرين ، وهما أعظم الذنوب التى بها عُصِيَ الله أولاً . فإن إبليس استكبر وحسد آدم ، وكذلك ابن آدم الذى قتل أخاه حسد أخاه . ولهذا كان الكبر ينافى الإسلام ، كما أن الشرك ينافى الإسلام . فإن الإسلام هو الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك به ، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر ، كحال فرعون وملإه . ولذلك

---

(١) لم أجد هذا الأثر بهذا اللفظ ، ولكن أورد أحمد فى مسنده (ط . الحلبى) ٤ / ١٢٣ ـ ١٢٤ حديثا عن شداد بن أوس رضى الله عن النبى صلى الله عليه وسلم جاء فيه : « . . . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية . قال : قلت : يارسول الله ، أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : نعم ، أما أنهم لايعبدون شمساً ولا قمراً ، ولا حجراً ولا وثنا ، ولكن يراءون بأعمالهم . والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه » . وجاء الحديث عن شداد مرة أخرى يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم بألفاظ مختلفة ٤ / ١٢٥ ـ ١٢٦ . وروى الحديث بألفاظ مختلفة عن شداد رضى الله عنه ابن ماجة فى سننه ٢ / ١٤٠٦ (كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة) . وذكر المنذرى فى الترغيب والترهيب ١ / ٣٣ ـ ٣٥ عدة روايات للحديث وقال إن الحديث رواه أحمد والبيهقى والحاكم وابن ماجة وتكلم على رواياته المختلفة

كما ذكر بعد ذلك ٤ / ٥٠ حديثا عن عبدالله زيد لفظه : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يابابغايا العرب يابابغايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الزنا والشهوة الخفية » ثم قال : « رواه الطبرانى بإسنادين أحدهما صحيح ، وقد قيده بعض الحفاظ : الريا ، بالراء والياء » .

وانظر مشكاة المصابيح للتبريزى ٢ / ٦٨٦ .

قال لهم موسى : ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّى آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الدخان : ١٩] ، وقال تعالى عن فرعون : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة القصص : ٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة النمل: ١٤] .

ومن أسلم وجهه لله حنيفاً فهو المسلم الذى على ملة إبراهيم الذى قال له ربه : أسْلِمْ ، قال : أسلمتُ لربِّ العالمين .

وهذ الإسلام هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم ، كما وصف الله به فى كتابه نوحاً وإبراهيم وموسى و يوسف وسليمان وغيرهم من النبيين ، مثل قول موسى لقومه : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٨٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ [سورة المائدة : ٤٤] ، وقال نوح عليه السلام : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٧٢] .

وقال يوسف : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾[سورة يوسف:١٠١] وقالت بلقيس : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة النمل : ٤٤] .

البغى فى شهوات الرئاسة والكبر والعلو

وليس البغىّ مختصا بشهوات البطون والفروج فقط ، بل هو فى شهوات البطون والفروج وشهوات الرئاسة والكبر والعلوّ وغير ذلك . فهو اتّباع

الهوى وإن لم يعتقد أنه هوى ، بخلاف الضالّ ، فإنه يحسب أنه يحسن صنعا ؛ ولهذا كان إبليس أوّلَ الغاوين ، كما قال : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦، ١٧] ، وقال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [سورة القصص: ٦٢ ، ٦٣] .

وقد قال تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ [سورة الشعراء : ٩٤ ، ٩٥] .

وإنما فى الحديث مايخاف على هذه الأمة من الغىّ ، وهو شهوات الغىّ فى البطون والفروج . فأما الغىّ الذى هو / الاستكبار عن اتباع الحق ، فذاك أصل الكفر ، فصاحبه ليس من هذه الأمة ، كإبليس وفرعون وغيرها . وأما غىّ شهوات البطون والفروج ، فذاك يكون لأهل الإيمان ثم يتوبون ، كما قال : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٢١ ، ١٢٢] .

ظ ٧٣

وفى السنن والمسند من حديث ليث بن سعد ، عن يزيد بن الهاد ، عن عمرو ، عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

« إن إبليس قال لربه عز وجل : بعزتك وجلالك لا أبرح أغْوِى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال له ربه عز وجل : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى » (١) .

﴿ فصـــل ﴾

وجميع ما يتوب العبد منه ، سواء كان فعلاً أو تركاً ، قد لا يكون كان عالما بأنه ينبغى التوبة منه ، وقد يكون كان عالماً بذلك . فإن الإنسان كثيراً ما يكون غير عالم بوجوب الشىء أو قبحه ، ثم يتبين له فيما بعد وجوبُه أوقبحه . وقد يكون عالماً بوجوبه أو قبحه، ويتركه أو يفعله لضعف المقتضى لفعل الواجب ، أو قوة المقتضى لفعل القبيح. لكن هذا لا يكاد يقع إلا مع ضعف العلم بوجوبه وقبحه ، وإلا فإذا كمل العلم استلزم الإرادة الجازمة فى الطرفين ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [سورة النساء : ١٧].

العصيان يقع مع ضعف العلم

قال أبو العالية : قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب(٢) .

---

(١) الحديث بهذا اللفظ عن أبى سعيد رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٣/٢٩ .

(٢) روى ابن جرير فى تفسيره ٨ / ٨٩ (ط . المعارف) عن أبى العالية : أنه كان يحدث : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : كل ذنب أصابه العبد فهو بجهالة . وذكره السيوطى فى الدر المنثور ٢/١٣٠ ، وقال : أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر .

وأما بقية الأثر فرواها بمعناها ابن جرير فى تفسيره ٨ / ٩٤ ـ ٩٥ عن الضحاك وعكرمة وابن زيد وغيرهم . وانظر : الدر المنثور ، نفس الصفحة .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام : ٥٤] .

والمؤمن لايزال يخرج من الظلمات إلى النور ، ويزداد هدى ، فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك ، فيتوب مما تركه وفعله . والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنوب ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا أذنب نُكِتت فى قلبه نُكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلك الرّان الذى قال الله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة المطففين : ١٤] »[(١)] .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « إنه ليُغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة »[(٢)] .

التوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات

والتوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات ، فإن من ترك واجباً أو فعل قبيحاً يعتقد وجوبه وقبحه ، كان ذلك الاعتقاد داعياً له إلى فعل الواجب ومانعاً من فعل القبيح ، فلا يكون فى فعله وتركه ثابت الدواعى والصوارف ، بل تكون دواعيه / وصوارفه متعارضة . ولهذا يكون الغالب على هذا التلوّم ، وتكون نفسهم لوّامة ، تارة يؤدون الواجب وتارة يتركونه ؛ وتارة يتركون القبيح ، وتارة يفعلونه ، كما تجده فى كثير من فسّاق القبلة الذين يؤدون الحقوق تارة ويمنعونها أخرى ، ويفعلون السيئات تارة ويتركونها

ص ٧٤

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٢٦ ت ١ .
(٢) انظر ما سبق ، ص ٢٢٤ ت ٢ .

أخرى ، لتعارُض الإرادات في قلوبهم ، إذ معهم أصل الإيمان الذى يأمر بفعل الواجب وينهى عن فعل القبيح ، ومعهم من الشبهات والشهوات ما يدعوهم إلى خلاف ذلك .

وأما ما فعله الإنسان مع اعتقاد وجوبه ، وتركه مع اعتقاد تحريمه ، فهذا يكون ثابت الدواعى والصوارف ، أعظمَ من الأول بكثير . وهذا تحتاج توبته[1] إلى صلاح اعتقاده أولا وبيان الحق . وهذا قد يكون أصعب من الأول ، إذ ليس معه داع إلى أن يترك اعتقاده ، كما كان مع الأول داع إلى أن يترك مراده . وقد يكون أسهل إذا كان له غرض فيما يخالف موجب الاعتقاد ، مثل الآصار والأغلال التى على أهل الكتاب ، وإذلال المسلمين لهم ، وأخذ الجزية منهم ، مع مخالفة المسلمين له ؛ فهذا قد يكون داعياً إلى أن ينظر فى اعتقاده : هل هو حق أو باطل حتى يتبين له الحق ، وقد يكون أيضا مرغباً له فى اعتقادٍ يخرج به من هذا البلاء .

الاعتقاد والإرادة يتعاونان

وكذلك قهر المسلمين لعدوهم بالأسر يدعوهم إلى النظر فى محاسن الإسلام . فللرغبة والرهبة تأثير عظيم فى معاونة الاعتقاد ، كما للاعتقاد تأثير عظيم فى الفعل والترك . فكل واحد من العلم والعمل ، من الاعتقاد والإرادة ، يتعاونان . فالعلم والاعتقاد يدعو إلى العمل بموجبه ، والإرادة رغبة ورهبة ، والعمل بموجبها يؤيد النظر والعلم الموافق لتلك الإرادة والعمل ، كما يقال : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم .

وفى القرآن شواهد هذا متعددة ، فى مثل قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً * وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٦-٦٨] .

---

(١) فى الأصل تحتاج إليه توبته . . الخ .

وفى قوله : ﴿ اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحديد : ٢٨] ، وغير ذلك .

فإذا كان الإنسان معاقَباً على الاعتقاد كما يُعاقَب الكفار على كفرهم، كانت التوبة منه ظاهرةً ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة المائدة : ٧٣ ، ٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٥] . ط ٧٤

فأما الاعتقاد المغفور : كالخطأ والنسيان الذى لا يؤاخذ الله به هذه الأمه ، كما فى قوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [سورة البقرة :٢٨٦] . وقد ثبت فى الصحيح أن الله قد فعل ذلك[١] . وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم: « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »[٢] . فهذا

(١) انظر الكلام عن هذا الحديث برواياته المتعددة فى تفسير الطبرى (ط . المعارف ٦ / ١٠٣-١٠٥ ، ١٤٢ - ١٤٦ . وانظر الحديث بمعناه فى : مسلم ١ / ٨٠-٨١ (كتاب الإيمان ، باب بيان قوله تعالى : وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه) ؛ المسند (ط. المعارف) ٣ / ٣٤١ - ٣٤٢ (رقم ٢٠٧٠) ٥ / ٣٠ - ٣١ (رقم ٣٠٧١) ؛ سنن الترمذى ١١١ / ١١٢ - ١١٣ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) .

(٢) الحديث عن عمرو بن العاص رضى الله عنه فى : البخارى ٩ / ١٠٨ (كتاب الاعتصام ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ) ؛ مسلم ٥ / ١٣١ - ١٣٢ (كتاب الأقضية ، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ). ولفظ الحديث فيهما : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » . وجاء الحديث بلفظ آخر عن عبد الله بن عمرو عن أبيه رضى الله عنهما فى المسند (ط. المعارف) ١١/٣٩-٤٠ (رقم ٦٧٥٥) وفى مسند عمرو (ط. الحلبى) ٤ / ٢٠٥ . وقال الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه ١١ / ٤١ : ورواه الدارقطنى (ص ٥١٠) والحاكم (٤ : ٨٨) .

قد يقال فى مثله : إن قيل إنه يُتاب منه فكيف يتاب مما لاذم فيه ولا عقاب ؟
وإن قيل : لا يتاب منه فكيف لا يرجع الإنسان إلى الحق إذا تبين له ؟

وجواب ذلك أنه يتاب منه كما يتاب من غيره ، لأن صاحبه قد ترك ما هو مأمور به فى نفس الأمر من العلم وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح ، إما لعجزه عن بلوغه وإما لتقصيره فى طلبه .

وأيضا ، فإنه قد فعل من الاعتقاد وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح ما هو منهى عنه فى نفس الأمر ، لكن سقط عنه النهى لعدم قدرته على معرفة قبحه . والتكليف مشروط بالتمكن من العلم والقدرة ، فلا يُكَلَّف العاجز عن العلم ما هو عاجز عنه ، والناسى والمخطىء كذلك . لكن إذا تجدد له قدرة على العلم صار مأموراً بطلبه ، وإذا تجدد له العلم صار مأموراً حينئذ باتباعه . وصار فى هذه الحال مذموماً على ترك ما يقدر عليه من طلب العلم الواجب ، وعلى ترك اتّباع ما تبين له من العلم .

وأيضا ، فما دام غير مستيقن للحق فهو مأمور بطلب العلم الذى يبين له الحق . والمعتقد المخطىء لا يكون مستيقناً قط ، فإن العلم واليقين يجده الإنسان من نفسه كما يجد سائر إدراكاته وحركاته ، مثلما يجد سمعه وبصره وشمه وذوقه ، فهو إذا رأى الشىء يقينا يعلم أنه رآه ، وإذا علمه يقيناً يعلم أنه علمه . وأما إذا لم يكن مستيقناً فإنه لا يجد ما يجده العالم ، كما إذا لم يستيقن رؤيته لم يجد ما يجده الرائى ، وإنما يكون عنده[1] ظن ونوع إرادة توجب إعتقاده .

---

(١) فى الأصل : عند .

هذا هو الذى يجده بنو آدم فى نفوسهم كما قال سبحانه : ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [سورة النجم : ٢٣] . وإذا كان الإنسان مأمورا بطلب العلم الذى يحتاج إليه بحسب إمكانه ، وهو إذا لم يجد العلم اليقينى يعلم أنه لم يجد العلم فهو مأمور بالطلب والاجتهاد ، فإن تَرَكَ ما أُمر به كان مستحقًّا للذم والعقاب على ذلك . فإذا تبين له الحق وعَلِمَه ، وعلم أنه كان جاهلا به معتقداً غير الحق كان تائبا ، بمعنى أنه رجع من الباطل إلى الحق ، وإن كان الله قد عفى عنه ما رجع عنه لعجزه إذ ذاك ، وكان أيضاً تائباً مما حصل فيه أولا من تفريط فى طلب الحق ، فكثير من خطأ بنى آدم من تفريطهم فى طلب الحق لا من العجز التام . وكان أيضاً تائباً من اتّباع هواه أولاً بغير هدى من الله ، فإن أكثر ما يحمل الإنسان على اتّباع الظن المخطىء هو هواه ، كما قال تعالى : ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾ . وليس توبة هذا وحاله كحال من كان عاجزا عن الفعل ثم قدر عليه كالمريض الذى لا يطيق القيام إذا قدر عليه بعد ذلك ، وكالخائف إذا أَمِن ، وكالمصلى بتيمُّم ، ونحو هؤلاء .

ص ٧٥

وذلك أن هؤلاء إذا كانت إرادتهم للفعل المأمور به على وجهة الكمال ثابتةً فى قلوبهم ، وقد عملوا ما يقدرون عليه من المراد ، وإنما تركوا تمامه لعجزهم ـ كان لهم مثل ثواب الفاعل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه عن أبى موسى : « إذا مرض العبد أو سافر كُتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم »(١) . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم

(١) الحديث عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى : البخارى ٤ / ٥٧ (كتاب الجهاد ، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل فى الإقامة) ولفظه : « إذا مرض العبد أو =

قال : « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر »[(١)] .

وقد قال تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة النساء : ٩٥] ، فهؤلاء لهم علم بالمأمور به الكامل ، واعتقاد الأمر به ، وإرادة فعله بحسب الإمكان ، وهذا كله من أدائهم للمأمور به ، فإذا تجددت لهم قدرة لم يتجدد رغبة فى الفعل الكامل ، وإنما يتجدد العمل بتلك الرغبة المتقدمة، وإن كان لابد لهذا الفعل من إرادة تخصه ، ولم يكن هؤلاء مأمورين بذلك إلا فى هذه الحال فقط ، كما تؤمر المرأة بالصلاة عند انقضاء الحيض ، وكما يؤمر الصبى بما يجب عليه عند بلوغه ، وكما يؤمر المزكِّى بالزكاة بعد ملك النصاب والحوْل ، والمصلِّى بالصَّلاة بعد دخول الوقت .

وأما الناسى والمخطىء فإنه لم يكن قد أتى بالعلم والاعتقاد والإرادة ، فلا يثاب على هذه الأمور التى لم تكن له ، بل يكون الذى حصل له ذلك أفضلَ منه بها ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٩] ، فنفى المساواة بين الذى يعلم والذى لا يعلم مطلقاً ، لم يستثن المعذور كما استثنى فى تفضيل المجاهد على القاعد المعذور .

وكذلك سائر ما فى القرآن من نحو هذا ، كقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى

= سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا » . وهو فى مسند أبى موسى (ط . الحلبى) ٤ / ٤١٨ مع اختلاف يسير فى اللفظ .

(١) الحديث مع اختلاف فى اللفظ عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٤/٢٦ (كتاب الجهاد ، باب من حبسه العذر عن الغزو) ؛ وعن جابر رضى الله عنه فى : مسلم ٦ / ٤٩ (كتاب الإماره ، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر) ولفظ مسلم كلفظ لحديث هنا إلا أن فيه: حبسهم المرض .

الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلاَ الْأَمْوَاتُ ﴾ [سورة فاطر : ١٩ - ٢٢]، وقوله : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ [سورة هود : ٢٤] ، وقوله : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [سورة الأنعام : ١٢٢] .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » ، لم يجعل أجر العاجز على إصابة الصواب مع اجتهاده كأجر القادر عليه ، كما جعل للمريض والمسافر مثل ثواب الصحيح المقيم ، كما جعل المعذور من القاعدين عن الجهاد الذى تمت رغبته/ بمنزلة المجاهد ، فإن الأصل هو القلب ، والبدن تابع . فالمستويان فى عمل القلب إذا فعل كل منهما بقدر بدنه متماثلان ، بخلاف المتفاضلَيْن فى عمل القلب : علمه وإرادته وما يتبع ذلك ، فإنهما لا يتماثلان . ولهذا يُعاقب العبد على ما تركه من الإيمان بقلبه .

ظ ٧٥

وإن قيل : إن ذلك تكليف ما لا يطاق ، ولا يعاقب على ما عجز عنه بدنه باتفاق المسلمين ، فهو يعاقب على ترك ما أُمر بإرادته وفعله وإن كانت نفسه لا تريده ولا تحبه ، وليس هو معاقباً على ترك ما عجز عنه بدنه ، كجهاد المقعد والأعمى ونحوهما . ونفسه إنما لا تعلم الحق الذى بعث الله به رسله و [لا] تريده لتفريطه وتعديه ، إذ آيات ذلك الحق ظاهره [١] وهو محبوب ، وقد خلق الله كل مولود على الفطرة التى تتضمن القوة على معرفة

(١) العبارة فى الأصل مضطربة كما يلى : « ونفسة إنما لا تعلم الحق الذى بعث الله به رسله وتريده لتفريطه وتعديه إذا تاب ذلك الحق ظاهرة . . إلخ » . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

هذا الحق وعلى محبته ، ولـكن غيّر فطرته بما يقلّده عن غيره ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبوه يهوِّدانه وينصِّرانه ويُمَجِّسانه ، كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟! »[1] . وإذا كان قد خُلق على الصحة والسلامة ، فهو يستحق العقوبة على ما غـيَّره من خلق الله بتفريطه وعدوانه ، لا تِّباعه الظنّ وما تهوى الأنفس .

وقد بعث الله الرسل مبشِّرين ومنذّرين ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] ، وهذا مما يظهر به الفرق بين المجتهد المخطىء والناسى من هذه الأمة فى المسائل الخبرية والعملية ، و بين المخطىء من الـكفّار والمشركين وأهل الـكتاب الذى بلغته الرسالة ، إذا قيل إنه غير معاند للحق ، فإن ذاك لا يكون خطؤه إلا لتفريطه وعدوانه ، لا يُتصور أن يجتهد فيـكون مخطئاً فى الإيمان بالرسول ، بل متى اجتهد — والاجتهـاد استفراغ الوُسع فى طلب العلم بذلك — كان مصيباً للعلم به بلا ريب .

فإن دلائل ما جاء به الرسول ودواعيه فى نهاية الـكمال والتمام الذى يشمل كل من بلغته ، ولا يترك أحد قط اتِّباع الرسول إلا لتفريط وعدوان فيستحق العقاب ، بخلاف كثير من تفصيل ما جاء به ، فإنه قد يعزب علمه عن كثير

---

(١) ذكرت من قبل (ص ١١ ت ٣) أن هذا الحـديث جـاء بتمامه فى منهاج السنة ٢ / ٢٣٤ ـ ٢٣٥ حيث تكلمت عن طرقه وموضعه فى الصحاح ، وحيث نقلت عن النووى شرحه للحديث (شرح مسلم ١٦ / ٢٠٩) وفيه : « (جمعاء) بالمد ، أى مجتمعة الأعضاء ، سليمة من نقص ، لا يوجد فيها (جدعاء) بالمد ، وهى مقطوعة الأذن أوغيرهامن الأعضاء . ومعناه أن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها ، وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها » .

من خواصّ الأمة وعوامِّها ، بحيث لا يكونون فى ترك معرفته لا مقصِّرين ولا مفرِّطين فلا يعاقبون بتركه ، مع أنهم قد آمنوا به إيماناً مجملا فى إيمانهم بما جاء به الرسل ، فهم آمنوا به مجملا ومعهم أصول الايمان به ، كما أن الفاسق معه[1] الدواعى لفعل المأمور وترك المحظور .

فلهذا كان المخطىء بالتأويل من هذه الأمة ، والفاسق بالفعل مع صحة الاعتقاد ، كل منهما محسناً من وجه مسيئاً من وجه ، وليس واحد منهما كالكفَّار من المشركين وأهل الكتاب ، وإن كانوا فى ذلك على درجات متفاوتة ، بل كل منهما ليس تاركا لما أُمِر به من الاعتقاد والعمل مطلقا / ولا فاعلا لضده مطلقاً ، بل المتأول قد آمن إيمانا عاما بكل ما جاء به الرسول ، واستسلم لكل ما أمره به . وهذا الإيمان والإسلام يتناول ما جهله ، ويدعوه إلى الإيمان والإسلام المفصَّل إذا علمه ، لكن عارض ذلك مِنْ جهله وظلمه لنفسه ما قد يكون مغفوراً له وقد يكون معذَّباً به . (س ٧٦)

ولذلك الفاجر بالعمل معه من الإيمان بقبح الفعل وبغضه ما هو [داع له إلى][2] فعل الأصل المأمور به وداعٍ له إلى تركه ، لكن عارض ذلك من هواه ما منع كمال طاعته ، بخلاف المكذِّب للرسول صلى الله عليه وسلم والكافر به ، فإنه لم يصدِّق بالحق ولم يستسلم له لا جملةً ولا تفصيلاً ، لكن قد يكون ما اتّبعه من ظنه وهواه موجباً لبعض ما جاء به الرسول ومانعاً له من النظر فيه بحيث لا يستطيع مع ذلك أن يسمع به ، فهذا واقع ، كما قال سبحانه : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ [سورة الكهف : ١٠٠، ١٠١] ،

---

(١) فى الأصل : مع .

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ [سورة هود : ١٨ - ٢٠] .

لكن عدم هذه الاستطاعة كان بتفريطه وعدوانه ، ومن كان تركه للمأمور بذنبٍ منه ، أو ضرورتُه إلى المحظور بذنب منه - لم يكن ذلك مانعاً من ذمِّه وعقابه ، ومن هذا قوله سبحانه : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [سورة الأنعام: ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٨٨] ، وقال : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [سورة النساء : ١٥٥] .

وبهذا يظهر ضعف قول طائفة من المتكلمين الذين يقولون : الخطأ والإثم يتلازمان . ثم منهم من يقول : كل مجتهد فى المسائل العملية مصيب ؛ كما يقوله كثير من المعتزلة والأشعرية . ومنهم من يقول : بل فيها مخطىء ، والمخطىء آثم ، كما يقوله المريسى وغيره [١] ؛ وذلك أنهم اعتقدوا أنه حيث يكون مخطئاً يكون تاركاً لما وجب عليه .

---

(١) يقول الآمدى - من أئمة متأخرى الأشاعرة - فى كتابه « الإحكام فى أصول الأحكام » (ط . المعارف ، ١٣٣٢ / ١٩١٤) ٤ / ٢٤٤ : « واتفق أهل الحق من المسلمين على أن الإثم محطوط عن المجتهدين فى الأحكام الشرعية ، وذهب بشر المريسى وابن علية وأبو بكر الأصم ونفاة القياس - كالظاهرية والإمامية - إلى أنه ما من مسألة إلا والحق فيها متعين ، وعليه دليل قاطع ، فمن أخطأه فهو آثم غير كافر ولا فاسق » .

ثم قال الأولون : فإذا لم يكن تاركا للمأمور به ، فلا يكون لله فى المسألة حكم معيّن ، أو لا يكون الحكم المنصوص حكماً فى حقه إذا لم يتمكن من معرفته .

وقال الآخرون : بل إذا كان مخطئا يكون تاركا للمأمور به فيكون آثما .

والتحقيق أنه مأمور به أمراً مطلقا ، لكن شرط الإثم بمنزلة التمكن من معرفته ، فإذا لم يتمكن من معرفته لا يكون شرط الإثم موجوداً فيه . ولكن ذلك لا ينفى أن يكون هو المأمور به ، وهو الذى يحبُّهُ الله ويرضاه ، ويُثيب فاعله إذا فعله . وإنما سقط عن بعض العباد لفوات الشرط فى حقه خاصة ، وحينئذ فيكون النزاع فى بعض المواضع نزاعا لفظيا .

ولهذا اختلف العلماء : هل هو مصيب فى اجتهاده وإن كان مخطئا فى نفس الأمر ؟ أو هو مخطئ فى اجتهاده وفى نفس الأمر ؟ على قولين ذكرهما القاضى روايتين عن أحمد . وذلك أن الخطأ فى الاجتهاد قد يعنى به القصور والتقصير ، وقد لا يعنى به إلا التقصير ، إذ العاجز عن معرفة الحكم الذى لله عاجز قاصر ، ليس بمقصِّر ولا مفرِّط فيما بَعُدَ عليه . فإذا قال : أخطأ فى اجتهاده ، أراد أخطأ فى استدلاله ، بمعنى أنه لم يستدلّ بالدليل الذى يوصله إلى نفس الحق ، ولا ريب أنه أخطأ هذا الاستدلال الموصل له إلى الحق ، إذ لو أصابه لأصاب / الحق ، لكنه لم يكن قادراً على هذا الاستدلال فلا يعاقب على تركه . ظ ٧٦

ومن قال : لم يخطىء فى اجتهاده ، أراد أنه لم يخطىء فيما قدر عليه من الاجتهاد ، بل فعله على وجهه ، لكن لم يكن مقدوره من الاجتهاد كافياً فى إدراك المطلوب فى نفس الأمر .

ومثل هذا النزاع أن يُقال : هل فعل ما أمر به أو لم يفعل ما أمر به ؟ فالمأمور به فى نفس الأمر لم يفعله ، وأما المأمور به فى حقه من العمل الممكن فقد فعله . ولذلك إذا اشتبهت أخته بأجنبية ، هل يقال : الحرام ـ فى نفس الأمر ـ واحدةٌ ، أم الاثنتان محرمتان ؟ على القولين بهذا الاعتبار .

﴿ فصــــل ﴾

التوبة من الحسنات لاتجوز عند أحد من المسلمين

فأما التوبة من الحسنات فلا تجوز عند أحد من المسلمين ، بل من تاب من الحسنات ، مع علمه بأنه تاب من الحسنات ، فهو إما كافر وإما فاسق . وإن لم يعلم أنه تاب من الحسنات فهو جاهل ضالّ . وذلك أن الحسنات هى الإيمان والعمل الصالح ، فالتوبة من الإيمان هى الرجوع عنه ، والرجوع عنه رِدَّةٌ ؛ وذلك كفر . والتوبة من الأعمال الصالحة رجوع عمّا أمر الله به ، وذلك فسوق أو معصية .

والله تعالى حبّب إلى المؤمنين الإيمان ، وكرّهَ إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيان . فكل حسنة يفعلها العبد إما واجبة وإما مستحبة . والتوبة تتضمن النّدم على مامضى ، والعزمَ على أن لا يعود إلى مثله فى المستقبل . والندم يتضمن ثلاثة أشياء : اعتقاد قبح ما ندم عليه ، وبغضه وكراهته ، وألمٌ يلحقه عليه . فمن اعتقد قبح ما أمر الله به أمرَ إيجاب أو استحباب ، أو أبغض ذلك وكرهه بحيث يتألّم على فعله ، ويتأذّى بوجوده ، ففيه من النفاق بحسب ذلك . وهو إما نفاق أكبر يخرجه من أصل الإيمان ، وإما نفاق أصغر يخرجه من كماله الواجب عليه . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ٢٨] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا

مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] . وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [سورة الإسراء : ٨٢] .

بل إذا علم العبد أن هذا الفعل قد أمره الله به وأحبه ، فاعتقد هو أن ذلك ليس مما أمر الله به وأبغضه وكرهه ، فهو كافر بلا ريب . فمثل هذه التوبة عن الحسنات هي ردة محضة عن الإيمان وكفر بالإيمان : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥] .

فإطلاق القول بأن الحسنات يُتاب منها هو كفر يجب أن يُستتاب صاحبه ، إذ معناه أنه يؤمر بالرجوع عن الحسنات ، واعتقادُ أن الرجوع عن الحسنات يقرّب إلى الله ، وهذا كفر بلا ريب . ثم إن هذه التوبة متناقضة ممتنعة في نفسها ، فإن التائب من الحسنات إن اعتقد أن هذه التوبة / حسنة ، فعليه أن يتوب منها ، فتكون باطلة ، فلا يكون قد تاب من الحسنات . وإن اعتقد أنها سيئة كان مقرًّا بأن هذه التوبة محرمة ، فقد التزم أحد أمرين : إما أنه لم يتب من الحسنات ، أو تاب توبة محرمة . وهذا اشتبه عليه حال السابقين المقرَّبين الذين يتوبون من ترك المستحبات ، أو فعل المكروهات غير المحرمات ، فظن أنهم تابوا مما فعلوه من الحسنات وتركوه من المحرمات ، فإنهم لو تابوا من ذلك لكانوا مرتدين [إما][1] عن أصل الإيمان وإما عن كماله . وإنما هي توبة عما تركوه من مستحب وفعلوه من مكروه ، مثل أن يكون العبد يصلي صلاة مجزئة غير كاملة ، فتبلغه صلاة النبي صلى الله عليه وسلم المستحبةُ ، فيصلي كصلاته ، ويندم على ما كان يفعله من الصلاة الناقصة .

ص ٧٧

---

(١) إما : زيادة يقتضيها السياق .

فهو لا يتوب مما فعله من الحسن ، وإنما يتوب مما تركه من الحسن ، ولهذا ينسب نفسه إلى التفريط بما أضاعه من الحسنات . وكذلك إذا سمع فضائل الأعمال المستحبة وما وعد الله لأصحابها من علو الدرجات ، فيندم على ما فرط من ذلك ، ويعزم على فعلها ، فهو توبة مما تركه من الحسنات .

وكذلك لو كان يصبر على المكاره ، مثل الفقر والمرض وخوف العدو ، من غير رضى بذلك ، فبلغه مقام أهل الرضا ، وأنه أعلى من الصبر الذى لا رضا معه ، وأن هؤلاء يستحقون رضوان الله عليهم ، وأن أول من يدعى إلى الجنة الحمّادون الذين يحمدون الله على السرّاء والضرّاء ، وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عباس : « إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، وإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما يُكره خيراً كثيراً »[1] .

فهذا يتوب من ترك الرضا ، لا من نفس ما أُمر به من الصبر ، فإن الصبر يبقى مع الرضا ، لابد من الصبر فى الحالين ، لكن تذهب مرارة الكراهة بالرضا ، وتلك المرارة ليست من الحسنات المأمور بها ، ولا هى داخلة أيضاً فى حد الصبر المأمور به ، بل الصبر قد تكون معه مرارة ، وقد لا تكون .

ومن اعتقد أن الصبر لا يكون إلا مع مرارة ، وأنه ضد الرضا ـ فقد تكلم بعرف بعض المتأخرين ، وليس ذاك عرف الكتاب والسنة ، فإن الله تعالى أمرنا بالصبر وأثنى على أصحابه فى أكثر من تسعين موضعا من كتابه .

---

(١) قال العراقى عن هذا الحديث فى تعليقه على الإحياء ١٢ / ٣٤ : « الترمذى من حديث ابن عباس » ولم أستطع معرفة مكان الحديث .

والله تعالى لا يأمر بما هو مكروه أو ترك الأفضل ، ولا يكون ذلك إلا بفعل الحسن ، لا بترك الأحسن .

وبهذا يعرف قول من قال : « حسنات الأبرار سيئات المقرّبين » . مع أن هذا اللفظ ليس محفوظا عمن قوله حجة ، لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها . وإنما هو كلام[1] وله معنى صحيح ، وقد يحمل على معنى فاسد .

المعنى الصحيح لعبارة حسنات الأبرار سيئات المقربين

أما معناه الصحيح فوجهان :

أحدهما : أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات ، وهذا الاقتصار سيئة فى طريق المقربين . ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين ، فيُحرَم درجاتهم ، وذلك مما يسوء من يريد أن يكون من المقربين . فكل من أحب شيئا وطلبه إذا فاته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك . فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات ، لا يتوبون من نفس الحسنات التى يعمل مثلها الأبرار ، بل يتوبون من الاقتصار عليها . وفرق بين التوبة من فعل الحسن وبين التوبة من ترك الأحسن والاقتصار على الحسن .

الثانى : أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسناً منه ، إما واجبا ، وإما مستحبًا ، لأن ذلك مبلغ / علمه وقدرته . ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك ، بل يؤمر بما هو أعلى منه ، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة .

ص ٧٧

مثال ذلك أن العامى يؤمر بمسألة العلماء المأمونين على الإسلام والرجوع إليهم بحسب قوة إدراكه ، وإن كان فى ذلك تقليد لهم ، إذا لا يؤمر العبد إلا بما يقدر عليه . وأما العلماء القادرون على معرفة الكتاب والسنة والاستدلال

(١) بعد كلمة « كلام » بياض فى الأصل موضع كلمة واحدة .

بهما فلو تركوا ذلك وأتوا بما يؤمر به العامى لكانوا مسيئين بذلك .

وهذا كما يؤمر المريض أن يصلى قائما ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنب . وكما يؤمر المسافر أن يصلى الظهر والعصر والعشاء ركعتين فى السفر ، وهذا لو فعله المقيم لكان مسيئاً تاركا للفرض ، بل فرضه أربع ركعات . فإن المرض والسفر لا ينقص العبد عن كونه مقربا إذا كان ذلك حاله فى الإقامة ، فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » [1] .

بخلاف العلم والجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال والمسابقة إلى الخيرات ، فإن الله يقول : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [سورة المجادلة : ١١] ، ويقول : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [سورة النساء : ٩٥] ، ويقول فى كتابه : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [سورة الحديد : ١٠] ، ويقول : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ *

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٤١ ت ١ .

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ١٩ - ٢٢] .

وكذلك فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تَسُبُّوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مِثْلَ أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه » (١) وقال : « خير القرون القرن الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (٢) .

فالعلم والجهاد كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما يدخل فى ذلك هو واجب على الكفاية من المؤمنين . فمن قام به كان أفضل ممن لم يقم به ، وإذا ترك ذلك مَنْ تَعَيَّنَ عليه كان مذنباً مسيئاً ، فيكون ذلك سيئة له إذا تركه ، وحسنة مفضلة له على غيره إذا فعله . وإن كان القيام بالواجبات بدون ذلك من حسنات من لم يكن قادراً على ذلك . فحسنات هؤلاء الأبرار - وهى الاقتصار على ذلك - سيئات أولئك المقربين .

---

(١) الحديث فى : البخارى ٥ / ٨ (كتاب أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذا خليلا) ؛ مسلم ٧ / ١٨٨ (كتاب فضائل الصحابة ، باب تحريم سب الصحابة) . وهو فى : سنن أبى داود ٤/٢٩٧ - ٢٩٨ (كتاب السنة ، باب فى النهى عن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣/١١ ، ٥٤ ، ٦٣ - ٦٤ . والحديث مروى بمعناه عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم (نفس الموضع) ؛ سنن ابن ماجة ١ / ٥٧ (المقدمة ، باب فى فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وفى اللسان : المد ضرب من المكاييل وهو ربع صاع ، وهو قدر مد النبى صلى الله عليه وسلم ، والصاع خمسة أرطال . وقال النووى (شرح مسلم ١٦ / ٩٣) : « وقال أهل اللغة النصيف : النصف . . . ومعناه لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ ثوابه فى ذلك ثواب نفقة أحد أصحابى مدا ولا نصف مد » .

(٢) انظر : البخارى ٥/٢ - ٣ (كتاب أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، باب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم) ؛ مسلم ٧ / ١٨٤ - ١٨٦ (كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) . وقد تكلمت عن هذا الحديث وعن رواته وطرقه ومواضعه فى الصحاح بالتفصيل فى « منهاج السنة » ٢/٢٤ (ت ١) .

وكذلك السابقون الأولون من هذه الأمة فيما فعلوه من الجهاد والهجرة لو تركوا ذلك واقتصروا على ما دونه كان ذلك من أعظم سيئاتهم . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استُنفِرْتُم فانفروا »[1] كان الاقتصار على مجرد ذلك من حسنات الأبرار الذين ليسوا من أولئك السابقين .

وكذلك المرسلون لهم مأمورات لو تركوها كان ذلك سيئات ، وإن كان فعل ما دونها حسنات لغيرهم ممن لم يؤمر بذلك ، إلى نظائر ذلك مما يؤمر فيه العبد بفعل لم يؤمر به من هو دونه ، فيكون ترك ذلك سيئة فى حقه ، وهو من المقربين إذا فعله ، ويكون فعل ما دون ذلك حسنات لمن دونه .

وذلك أن الإنسان يفضل على غيره إما بفعل مستحب فى حقهما ، وإما بما يؤمر به أحدهما دون الآخر فيفعله ، وتخصيصه / بفعله قد يكون لقدرته وقد يكون لامتحانه بسببه ، كمن له والدان فإنه يؤمر ببرِّهما ويكون بذلك أفضل ممن لم يعمل مثل عمله ، كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حق المتصدقين بفضول أموالهم المشاركين لغيرهم فى الأعمال البدنية : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » فهؤلاء المفضَّلون الاقتصار على ما دون هذه الأمور سيئات فى حقهم وحسنات لمن ليس مثلهم فى ذلك .

ص ٧٨

---

(١) جاء هذا الحديث (مع اختلاف فى اللفظ أحياناً) فى : البخارى فى عدة مواضع ، فهو فى ثلاثة مواضع من كتاب الجهاد والسير (جـ٤) : ص ١٥ (باب فضل الجهاد والسير)، ص ٢٣ (باب وجوب النفير) ، ص ٧٥ (باب لا هجرة بعد الفتح) . وهو أيضا فى : ٤ / ١٠٤ (كتاب الجزية ، باب إثم الغادر للبر والفاجر) ، ٥ / ٥٧ (كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة) ، ٥ / ١٥٢ (كتاب المغازى ، باب وقال اللث) . والحديث فى مسلم ٦ / ٢٧ - ٢٨ (كتاب الإمارة ، باب المبايعة بعد فتح مكة) ؛ المسند (ط . المعارف) ٣ / ٣٠٧ - ٣٠٨ (رقم ١٩٩١ - وانظر التعليق) ، ٤ / ١٢٧ (رقم ٢٣٩٦) ، ٣٢١ (رقم ٢٨٩٨) - وانظر التعليقات وهو فى سنن النسائى (بشرح السيوطى) ٧ / ١٤٦ (كتاب البيع ، باب ذكر الاختلاف فى انقطاع الهجرة).

فهذان الوجهان كلاهما معنى صحيح لقول القائل : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

المعنى الفاسد للعبارة

وأما المعنى الفاسد فأن يظنَّ الظَّانُّ أن الحسنات التى أمر الله بها أمرا عامًّا يدخل فيه الأبرار ويكون سيئاتٍ للمقربين ، مثل من يظن أن الصلوات الخمس ومحبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين لله ونحو ذلك هى سيئات فى حق المقربين . فهذا قول فاسد غلا فيه قوم من الزنادقة المنافقين المنتسبين إلى العلماء والعُبَّاد ، فزعموا أنهم يصلون إلى مقام المقربين الذى لا يؤمرون فيه بما يؤمر به عموم المؤمنين من الواجبات ، ولا يحرم عليهم ما يحرم على عموم المؤمنين من المحرمات ، كالزنا والخمر والميسر .

وكذلك زعم قوم فى أحوال القلوب التى يؤمر بها جميع المؤمنين أن المقربين لا تكون هذه حسنات فى حقهم .

وكلا هذين من أخبث الأقوال وأفسدها .

وإنما قلنا : إن التائب من الحسنات ـ إن علم أنها حسنات ـ وتاب منها فقد أذنب إما بكفر أو فسوقٍ أو معصيةٍ ، وإن لم يعلم أنها حسناتٌ فهو ضالٌّ جاهل ، لأنه إذا تاب مما يسمى حسنة ، وكان حسنة فى الشريعة حقيقة قد أمر الله بها ، فهو راجع عن طاعة الله التى هى طاعته وهى حسنة . والرجوع عن طاعة الله ودينه لا يخرج عن أن يكون رِدَّةً عن أصل الدين فيكون كفراً مغلَّظًا ، وإما عن كماله . هذا لو كان الرجوع بنفس الترك ، فإن ترك الإيمان كفر ، وترك الواجبات إما فسق وإما معصية ، وترك المستحبَّات المتطوعة يؤخِّر درجته . هذا إذا كان تركا محضاً ، فأما إذا اعتقد مع ذلك أن الحسنات التى يحبها الله ورسوله مما يُتاب منها بحيث يندم العبد عليها ، فيعتقد أن تركها خيرٌ من فعلها ، أو أنها ليست مأموراً بها ، أو أنها لا تقرب إلى الله أو لا تنفع

عنده ، أو أبغضها وكرهها ، ورجع عنها وتألّم من فعلها متديّناً بذلك ـ فهذا كافر مرتدّ تجب استتابته بلا نزاع بين العلماء . وهذا هو مسمى التوبة . فعُلم أن القول بأن الحسنات يتاب منها كفر محض .

وأما إن لم يعلم أنها حسنات ، بل تاب مما كان يسميه ـ أو غيره ـ حسنات ، أو كان حسنةً فى الشريعة ولم يعلم العبد أنه حسنة بل ظن أنه سيئة ، أو كان سيئة منهيًّا عنها ، واعتقد المرء أنه حسنة مأمور بها ـ فهو ضالّ جاهل ، وهذا عليه أن يتوب من هذا الاعتقاد والعمل الذى كان يعتقد أنه حسنة ، كما يتوب كل ضالّ من الكفار وأهلِ الأهواء المشركين وأهل الكتاب ، والمبتدعةِ كالخوارج والروافض والقدرية والجهمية وغيرهم . فإن هؤلاء يتوبون مما كانوا يظنونه حسنات ، لا يتوبون مما هو فى الشريعة حسنات ، ولا يطلقون القول إنا نتوب من الحسنات ، ولا أن التوبة من الحسنات فعل المقربين ، ولا أن التوبة من الحسنات مشروع للسابقين ، ولا أن الذى تبنا منه كان حسنات . ولكن يقولون : نتوب مما كنا نظن أنه حسنات وليس بحسنات ؛ كما قيل :

إِذَا مَحَاسِنِيَ اللاتِى أُدِلُّ بِهَا
كانَت ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أعْتَذِرُ[1]

وكذلك يتوب المرء مما يعده حسنات له وهو مقصر فى فعله ، أو خائف من تقصيره فى فعله ، كما قال تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ

---

(١) البيت للبحترى من قصيدة يمدح بها على بن مر الأرمنى أولها :

فى الشيب زجر له لو كان ينزجر وبالغ منه لولا أنه حجر

(الديوان ٢/٤٣)

وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦٠] . وقد روى عن عائشة أنها قالت : يارسول الله : أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف ؟ فقال : « لا يابنتَ الصديق . ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدّق ويخاف ألاّ يُقْبَلَ منه »[1] .

وهذا لأن الله تعالى يقول فى كتابه : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٧] ، أى من الذين يتقونه فى العمل .

والتقوى فى العمل بشيئين : أحدهما إخلاصه لله ، وهو أن يريد به وجه الله لا يشرك بعبادة ربه أحداً . والثانى : أن يكون مما أمره الله به وأحبه ، فيكون موافقاً للشريعة ، لا من الدين الذى شرعه من لم يأذن الله له ، وهذا كما قال الفضيل بن عياض فى قوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (سورة هود : ٧) قال : أخلصُه وأصوبه . وذلك أن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنّة .

فالسعيد يخاف فى أعماله أن لا يكون صادقا فى إخلاصه الدينَ لله ، أو أن لا تكون موافقه لما أمر الله به على لسان رسوله . ولهذا كان السلف يخافون النفاق على أنفسهم ، فذكر البخارى عن أبى العالية قال : « أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كلهم يخاف النفاق على نفسه »[2] . ولهذا كانوا يستثنون فيقول أحدهم : أنا مؤمن إن شاء الله ، ومثل هؤلاء يستغفرون الله مما علموه أو لم يعلموه من التقصير والتعدّى ويتوبون من ذلك .

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجة ٢ / ١٤٠٤ ؛ الدر المنثور ٥/١١ .

(٢) فى صحيح البخارى ١ / ١٤ (كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر) : « وقال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل » .

وهذا مشروع للأنبياء والمؤمنين . كان النبى صلى الله عليه وسلم يستغفر بعد الصلاة ثلاثا[١] . وقال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧] . قالوا : كانوا يُحْيُون الليلَ صلاةً ، ثم يقعدون فى السَّحَر يستغفرون ، فيختمون قيام الليل بالاستغفار . وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٨ ، ١٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

فإن قيل : قد قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور : ٣١] ، وفى المؤمنين من لاذنب له ، فيكون أمره بالتوبة أمراً بالتوبة من الحسنات ، وكذلك توبة الأنبياء وهم معصومون ؟

لم تأت الشريعة بالتوبة من الحسنات

قيل : هذا من أعظم الفرية ، لم تأت الشريعة بالتوبة من الحسنات ، وهى ماأمر به من طاعته وطاعة أنبيائه . وليس فى المؤمنين إلا من له ذنبٌ من تَرْك مأمورٍ أو فعْلٍ محظورٍ ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطّائين التوابون »[٢] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ

---

(١) فى صحيح مسلم ٢/٩٤ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته) : ... عن ثوبان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا ، وقال : « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام » ـ قال الوليد : فقلت للأوزاعى : كيف الاستغفار ؟ قال : تقول : استغفر الله، أستغفر الله

(٢) انظر ما سبق ، ص ٢٢٥ ت ٥ .

الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٣ ـ ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [سورة الأحقاف : ١٦] .

أصل هذه المقالة هو دعوى العصمة فى المؤمنين

وأصل هذه المقالة ، وهو دعوى العصمة فى المؤمنين وما يشبه ذلك ، هو من أقوال الغالية من النصارى وغالية هذه الأمة ، وابتدعها فى الملّتين منافقوها.

غلو النصارى فى هذه الدعوى

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [سورة النساء : ١٧١] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

ص ٧٩

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ

أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَٰهاً وَاحِداً لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

وقد روى فى حديث عدى بن حاتم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قلت يا رسول الله : ما عبدوهم . قال : « أحلُّوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرَّموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، فتلك عبادتهم إياهم »[١] .

وهذا الغلو الذى فى النصارى حتى اتخذوا المسيح وأمه إلٰهين من دون الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ــ قد ذكروا أن أول من ابتدعه لهم بولص الذى كان يهوديا فأسلم واتَّبع المسيح نفاقاً ليلبس على النصارى دينهم، فأحدث لهم مقالات غالية ، وكثرت البدع فى النصارى : فى اعتقاداتهم وعباداتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [سورة الحديد : ٢٧] .

غلو الشيعة فى دعوى العصمة

وكذلك أول ما ابتدعت مقالة الغالية فى الإسلام من جهة بعض من كان قد دخل فى الإسلام وانتحل التشيع . وقيل: أول من أظهر ذلك عبد الله بن سبأ الذى كان يهوديا فأسلم ، وكان ممن أقام الفتنة على عثمان ، ثم أظهر موالاة علىّ . وهو من ابتدع الغلو فى علىّ[٢] ، حتى ظهر فى زمانه من ادّعى فيه الإلٰهية

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ١١ / ٢٣٨ ــ ٢٣٩ (كتاب التفسير ، سورة التوبة) ولفظه : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنق صليب من ذهب ، فقال : يا عدى اطرح عنك هذا الوثن . وسمعته يقرأ فى سورة براءة : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال : أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ،وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » .

(٢) انظر ما ذكرته عن عبد الله بن سبأ والسبئية فى « منهاج السنة » ١/ ١٤ــ١٥ (ت ٦) ، ٢٢٠ (ت ١) . وانظر : فرق الشيعة للنوبختى (ط . النجف ، ١٣٧٩ / =

وسجدوا له لما خرج من باب مسجد كندة ، فأمر علىّ رضى الله عنه بتحريقهم بالنار بعد أن أجَّلهم ثلاثه أيام[(١)] . وفى الصحيح أن ابن عباس بلغه أن عليًّا حرق زنادقة فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يُعَذَّب بعذاب الله ، ولضربت رقابهم بالسيف ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم: « من بدل دينه فاقتلوه »[(٢)] . قالوا : وهم هؤلاء ، وقد رووا قصتهم مستوفاة . ورووا أنه أظهر أيضاً سب أبى بكر وعمر حتى طلب علىّ أن يقتله فهرب منه[(٣)] . ولما بلغ عليا أن أقواماً يفضِّلونه على أبى بكر وعمر قال : « لأوتَى بأحد يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته حدَّ المفترى » تحقيقاً لما رواه البخارى فى صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه : من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أبو بكر . قال : ثم من ؟ قال : ثم عمر . وقد روى ذلك عن على من نحو ثمانين طريقاً ، وهو متواتر عنه[(٤)] . وروى هذا المعنى عنه من

= ١٩٥٩) ، ص ٤٣ ـ ٤٤ ؛ مقالات الإسلاميين ١ / ٨٥ ـ ٨٦ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٧١ ـ ٧٢ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٤٣ ـ ١٤٥ ؛ الملل والنحل ١/١٥٥ـ١٥٦ ؛ الخطط للمقريزى ٢ / ٣٥٦ ـ ٣٥٧ ؛ الفصل لابن حزم ٤ / ١٨٦ ؛ البدء والتاريخ ٥ / ١٢٥ ، ١٢٦ ؛ الحور العين للحميرى ، ص ١٥٤ ؛ لسان الميزان ٣ / ٢٨٩ ـ٢٩٠؛ رجال الطوسى (ط . النجف ١٣٨١ / ١٩٦١) ص ٥١ ؛ الأعلام ٤ / ٢٢٠ ؛ مرتضى العسكرى : عبد الله بن سبأ ، ط . ثانية ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٣٨١ .

(١) انظر خبر هذه الواقعة فى أكثر المراجع المذكورة فى التعليق السابق ، وانظر منهاج السنة ١ / ٢١٩ .

(٢) الحديث عن ابن عباس رضى الله عنه فى : البخارى ٩ / ١٥ (كتاب استتابة المرتدين ، باب حكم المرتد والمرتدة) ؛ سنن أبى داود ٤ / ١٨٠ (كتاب الحدود ، باب الحكم فيمن ارتد) ؛ سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ٦ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣ (كتاب الحدود ، باب ماجاء فى المرتد) ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ٧/١٠٤ (كتاب تحريم الدم ، باب الحكم فى المرتد) ؛ سنن ابن ماجة ٢ / ٨٤٨ (كتاب الحدود ، باب المرتد عن دينه) ؛ المسند (ط . المعارف) الأرقام : ١٨٧١ ، ١٩٠١ ، ٢٥٥١ ، ٢٥٥٢ .

(٣) المقصود هنا عبد الله بن سبأ وفرقته ، وانظر لسان الميزان ٣ / ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٤) تكلمت عن هذا الخبر موقوفا ومرفوعا فى منهاج السنة ١ / ٧ ، ٢٢٠ ، ٢ / =

وجوه مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كما رواه الترمذى[١]، ورواه الدارقطنى فى كتاب «ثناء الصحابة على القرابة وثناء القرابة على الصحابة»[٢].

وحينئذ ابتُدِعَ القول بأن عليًا إمام منصوص على إمامته، وابتدع أيضا القول بأنه معصوم أعظم مما يعتقده المؤمنون فى عصمة الأنبياء، بل ابتدع القول بنبوته، وحدث بإزاء هؤلاء من اعتقد كفره وردّته واستحلّ قتله على ذلك من الخوارج، ومَن اعتقد فسقه أو ظلمه من الأموية وبعض أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم[٣]، ومن لم يعتقد إمامته ولا إمامة غيره فى زمانه، أو جعل إمامته وإمامة غيره سواء مع اعتقاده فضله وسابقته[٤]. فهؤلاء الثلاثة حدثت بإزاء تلك الثلاثة: فالغالية والرافضة والمفضِّلة، بإزاء المكفِّرة والمفسِّقة والمتوقِّفة عن اختصاصه بالإمامة إذ ذاك.

= ٥١ وذكرت فى الموضع الأخير مكانه فى صحيح البخارى وفى سنن أبى داود وسنن ابن ماجة وبينت أنه ورد فى مسند أحمد (ط. المعارف) ٢٤ مرة وذكرت أرقامه فيه.

(١) فى سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ١٣/١٣٢ (كتاب المناقب، باب فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما كليهما): «عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ما خلا النبيين والمرسلين، لا تخبرهما ياعلى». وذكر السيوطى فى الجامع الصغير ٢/١٠ (ط. مصطفى الحلبى، ١٣٥٨/١٣٥٩) حديثا آخر رواه ابن عساكر عن على والزبير معا عن النبى صلى الله عليه وسلم ونصه: «خير أمتى بعدى أبو بكر وعمر» وحسن السيوطى الحديث. وانظر سنن ابن ماجة ١/٣٨ - ٣٩ (المقدمة، باب فى فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم).

(٢) الدارقطنى هو أبو الحسن على بن عمر بن أحمد بن مهدى، البغدادى، الحافظ الشهير صاحب السنن، ولد بدار القطن (من أحياء بغداد) سنة ٣٠٦ وتوفى سنة ٣٨٥. انظر ترجمته فى: تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٩١ - ٩٩٥؛ وفيات الأعيان ٢/ ٤٥٩-٤٦٠؛ تاريخ بغداد ١٢/ ٣٤ - ٤٠؛ طبقات الشافعية ٢/ ٣١٠ - ٣١٢؛ المنتظم لابن الجوزى ٧/ ١٨٣ - ١٨٤؛ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣/ ٢١٠ - ٢١١ (وذكر من كتبه المخطوطة فى الظاهرية: فضائل الصحابة)؛ الأعلام ٥/ ١٣٠.

(٣) انظر ماذكره ابن طاهر فى أصول الدين، ص ٢٨٦-٢٨٧ فى إمامة على رضى الله عنه، ص ٢٨٩ - ٢٩٢؛ مقالات الإسلاميين ٢/ ١٢٦ - ١٣٠.

(٤) انظر مقالات الإسلاميين ٢/ ١٢٢ - ١٣٤؛ أصول الدين، ص ٢٧١-٢٧٢ -

ثم القائلون بأنه إمام منصوص عليه معصوم تفرقوا فى الإمامة بعده تفرقا كثيرا مشهورا فى كتب المقالات ، منهم الاثناعشرية الذين يقولون بأن الإمامة انتقلت بالنص من واحد إلى واحد إلى المنتظر محمد بن الحسن ، الذى يزعمون أنه دخل سرداب سامراء سنة ستين ومائتين وهو / طفل له سنتان أو ثلاث ، وأكثر ما قيل خمس . ويزعمون مع ذلك أنه إمام معصوم ، يعلم كل شىء من أمر الدين ، و يجب الإيمان به على كل أحد ، ولا يصح إيمان أحد إلا بالإيمان به . ومع هذا فله اليوم أكثر من أربعمئة وأربعين سنة لم يعرف له عينٌ ولا أثر ، ولا سمع له أحد بما يعتمد عليه من الخبر .

ظ ٧٩

وأهل المعرفة بالنسب يقولون : إن الحسن بن على العسكرى والده لم يكن له نسل ولا عقب ، واتفق العقلاء على أنه لم يدخل السرداب أحد ، وأجمع أهل العلم بالشريعة على ما دل عليه الكتاب والسنة أن هذا لو كان موجوداً لكان من أطفال المسلمين الذين يجب الحجر عليهم فى أنفسهم وأموالهم حتى يبلغ ويؤنس منه الرشد ، كما قال تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُوا ﴾ [سورة النساء : ٦] .

وقد بسطنا القول فى بيان فساد هذا فى ذكر ما خاطبنا به الشيعة قبل هذا ، ثم فى كتابنا الكبير المسمى بمنهاج أهل السنة النبوية فى نقض كلام الشيع والقدرية[١] .

ومن الرافضة من يزعم أن الإمام بعد علىّ أو بعد الحسين هو ابن على محمد

---

(١) انظر مثلا فى خبر محمد بن الحسن المهدى المنتظر عند الشيعة منهاج السنة (ط . دار العروبة) ١ / ٢٨ - ٢٩ (وانظر التعليقات) ، ٥٧ - ٦٠ ، (ط . بولاق)٢/١٣١- ١٣٤ .

ابن الحنفية[١] وهم الكَيْسانية[٢] ، ومنهم طوائف كثيرة ليس هذا موضعها ، إذ ليس فى نحل الأمة أكثر تفرقاً واختلافاً منهم ، فإن أول من ابتدع مقالتهم كان منافقاً زنديقاً ، لم يك مؤمناً ، ثم انتشرت فى أقوام لم يعرفوا أخبار [المسلمين الأوائل][٣] ولم يقصدوا الزندقة .

والمقصود هنا أن هؤلاء هم أول من أظهر القول بأن فى المؤمنين من لاذنب له كما قال هذا السائل ، وادَّعوا عصمة الأئمة الاثنى عشر حتى عن الخطأ فى الاجتهاد ، وعن نسيان العلم ، وعن عدم معرفة شىء من العلم ، فقالوا إنهم يعلمون كل شىء ، وادَّعوا عصمتهم من صغير الذنوب وكبيرها وغير ذلك ، وادعوا ذلك فى الأنبياء أيضاً لأنهم أفضل من الأئمة .

غلو الصوفية

ولم يقل هذا فى الأمة غيرهم على هذا الوجه . لكن ظهر فى صنفين من الأمة بعضُ بدعتهم : طائفة من النُّسَّاك والعُبَّاد يزعمون فى بعض المشايخ أو فيمن يقولون إنه ولىّ الله أنه لا يذنب ، وربما عيّنوا بعض المشايخ وزعموا أنه لم يكن لأحدهم ذنب . وربما قال بعضهم : النبى معصوم ، والولىّ محفوظ .

ومن غالية هؤلاء من يعتقد فى بعض المشايخ من الإلٰهية والنبوة ما اعتقدته

---

(١) أبو القاسم محمد بن على بن أبى طالب ويعرف بابن الحنفية نسبة إلى أمه وقد توفى سنة ٨١ على الأرجح . انظر ترجمته فى : طبقات ابن سعد ٥ / ٩١ - ١١٦ ؛ الجرح والتعديل جـ ٤ ، ق ١ ، ص ٢٦ ؛ تهذيب الأسماء واللغات ، ق ١ ، جـ ١ ، ص٨٨-٨٩ ؛ وفيات الأعيان ٣ / ٣١٠ - ٣١٣ ؛ شذرات الذهب ١ / ٨٨ - ٩٠ .

(٢) قال الأشعرى (المقالات ١ / ٨٩ - ٩٠) عن الكيسانية : «وهى إحدى عشرة فرقة ، وإنما سموا كيسانية لأن المختار الذى خرج وطلب بدم الحسين بن على ودعا إلى محمد بن الحنفية كان يقال له كيسان . ويقال إنه مولى لعلى بن أبى طالب رضوان الله عليه» . وانظر عن الكيسانية وفرقها : المقالات ١ / ٨٩ - ٩٥ ؛ الملل والنحل ١ / ١٣١ - ١٣٧ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٢٦ - ٣٤ ؛ التبصير فى الدين ، ص ١٨ - ٢٠ ؛ الحور العين ، ص ١٥٧ - ١٥٩ ؛ الخطط للمقريزى ٢ / ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٣) فى الأصل بعد كلمة « أخبار » بياض ، ولعل مازدته يوفى بالمعنى المقصود .

الغالية فى علىّ ، و يزعم أن الشيخ يخلق و يرزق و يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار ، ويعبده و يدعوه كما يعبد الله ، و يقول : كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان فإنى لا أريده ، ويذبح الذبائح باسمه ، ويصلى و يسجد إلى جهة قبره ، و يستغيث به فى الحاجات كما يُستغاث بالله تعالى .

فأما ضلال هذه الغالية فشرك واضح قد بيناه فى غير هذا الموضع ، فإنه لا تجوز عبادة أحد دون الله ، ولا التوكل عليه والاستعانة به ، ودعاؤه ومسألته كما يُدعى الله ويُسأل الله .

قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [سورة الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَلا فى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سورة سبأ : ٢٢ ، ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ * قُل لِلهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [سورة الزمر : ٤٣ ، ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِين ﴾ [سورة الشعراء : ٢١٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [سورة المائدة : ٧٢] .

ص ٨٠

لا عصمة لأحد بعد الرسول

والمقصود هنا ذكر العصمة ، فقد أجمع جميع سلف المسلمين وأئمة الدين من جميع الطوائف أنه ليس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ معصوم ولا محفوظ لا من الذنوب ولا من الخطايا ، بل من الناس من إذا أذنب استغفر وتاب ، وإذا أخطأ تبين له الحق فرجع إليه ، وليس هذا واجباً لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل يجوز أن يموت أفضل الناس بعد الأنبياء وله ذنبٌ يغفره الله ، وقد خفي عليه من دقيق العلم ما لم يعرفه . ولهذا اتفقوا على أنه ما من الناس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

وذهب بعض الناس إلى أن قول أبي بكر وحده حجّة وإن خالفه عمر ، ثم قول عمر حجة وإن خالفه عثمان وعلي . وأما أئمة الإسلام فلا يقولون بهذا ، بل تنازعوا فيما إذا اتفق أبو بكر وعمر على قول ، هل يكون حجّة ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد . والأظهر في الموضعين أن ذلك حجة[1] لقوله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر »[2] ، وقولِه : «إن يطع

---

(١) قال ابن بدران في « المدخل إلى مذهب الإمام أحمد » (ط . المنيرية)ص ١٣٢ : « . . وإذا لم يكن اتفاق الأربعة إجماعاً فقول اثنين منهم أولى بأن لا يكون إجماعا . ونقل عن الإمام أحمد أن اتفاق الخلفاء الأربعة حجة وكذا اتفاق أبي بكر وعمر رضى الله عنهما لحديث : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين . . وحديث : اقتدوا باللذين من بعدي . . . ولو لم تقم الحجة بقولهم لما أمرنا باتباعهم ؛ وهذا القول هو الحق » . وانظر : أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (ط . المنيرية) ٢ / ١٧٦ ، ٤ / ١٠٢ ـ ١٢٩ ؛ ابن حنبل لمحمد أبي زهرة (القاهرة ، ١٣٦٧ / ١٩٤٧) ص ٢٤٤ ـ ٢٥٨ .

(٢) أورد النبهاني في « الفتح الكبير » ١ / ٢١٥ عدة أحاديث تتضمن هذه العبارة عن حذيفة وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم وقال إن هذه الأحاديث جاءت في سنن الترمذي وابن ماجة وفي مسند أحمد وأبي يعلى والطبراني . وانظر : سنن الترمذي ١٣ / ١٢٩ ـ ١٣٠ (كتاب المناقب ، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضى الله عنهما كليهما) ؛ سنن ابن ماجة ١ / ٣٧ (المقدمة ، باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) ؛ المستدرك ٣ / ٧٥ ـ ٧٦ .

القومُ أبا بكرٍ [وعمر] يرشُدُوا»[١]، وقولِه : «لو اتفقتما على شيء لم أخالفكما»[٢] ولقوله : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »[٣] ، وقد قال : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً »[٤] . وقد كانت خلافة علىّ تمام الثلاثين مع الأشهر التى تولاها الحسن رضى الله عنه .

واتفقوا على أنه ليس من شرط ولىّ الله أن لايكون له ذنب أصلاً ، بل أولياء الله تعالى هم الذين قال الله فيهم : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة يونس ٦٢ ، ٦٣] .

---

(١) وعمر : ليست فى الاصل . وهذه العبارة جزء من حديث طويل عرف بحديث الميضأة رواه مسلم فى صحيحة ٢/١٣٨ ـ ١٤٠ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها ، باب قضاء الصلاة الفائته) عن أبى قتادة رضى الله عنه وأوله : «عن أبى قتادة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غدا . . الحديث » وفيه : « ثم قال : أصبح الناس فقدوا نبيهم ، فقال أبوبكر وعمر: رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدكم ، لم يكن ليخلفكم . وقال الناس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أيديكم . فان يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا» . والعبارة الأخيرة من كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، وانظر شرح النووى ٥ / ١٨٨ .

(٢) قال ابن القيم (إعلام الموقعين ٤ / ١٢٢) : « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر وعمر فى شأن تأمير القعقاع بن حكيم والأقرع بن حابس : « لو اتفقتما على شىء لم أخالفكما » . ورجعت إلى حديث الاختلاف بين عمر وأبى بكر رضى الله عنهما وهو الذى نزلت فيه الآية الأولى من سورة الحجرات فى عدة مواضع من البخارى وفى سنن الترمذى والنسائى ولكنى لم أجد هذه العبارة فيه .

(٣) الحديث عن العرباض بن سارية رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٤ / ٢٨٠ ـ ٢٨١ (كتاب السنة ، باب فى لزوم السنة) ؛ سنن الترمذى ١٠ / ١٤٣ ـ ١٤٦ (كتاب العلم ، باب ما جاء فى الأخذ بالسنة) ؛ سنن ابن ماجة ١ / ١٥ ـ ١٦ (المقدمة ، باب فى اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين) .

(٤) الحديث بمعناه عن سفينة رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٤ / ٢٩٣ (كتاب السنة ، باب فى الخلفاء) ؛ سنن الترمذى ٩ / ٧٠ ـ ٧٢ (كتاب الفتن ، باب ما جاء فى الخلافة) ؛ المستدرك للحاكم ٣ / ٧١ .

ولا يخرجون عن التقوى بإتيان ذنب صغير لم يصرّوا عليه ، ولا بإتيان ذنب كبير أو صغير إذا تابوا منه .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٣ ـ ٣٥].

وقال تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً ﴾ [سورة النساء : ٣١]

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [سورة النجم : ٣١ ، ٣٢]

وقال تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ [سورة التوبة : ١١٧ ، ١١٨] .

والفريق الثانى قوم من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتّبعهم ، زعموا أن

الأنبياء عليهم السلام معصومون مما يتاب منه ، وأن أحداً منهم لم يتب عن ذنب ، وحرَّفوا نصوص الكتاب و السنة ، كعادة أهل الأهواء فى تحريف الكلم عن مواضعه ، والإلحاد فى أسماء الله وآياته .

مذهب السلف وأهل السنة هو القول بتوبة الأنبياء

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتَّبعهم على ما أخبر الله به فى كتابه ، وما ثبت عن رسوله ، من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التى تابوا منها ، وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . وعصمتهم هى من أن يُقِرُّوا على الذنوب والخطأ ، فإن مَنْ سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب الخطأ من غير توبة، والأنبياء عليهم السلام يستدركهم الله فيتوب عليهم ويبين لهم ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سورة الحج : ٥٢ ، ٥٣] .

ظ ٨٠

وقد ذكر الله تعالى قصة آدم ونوح وداود وسليمان وموسى وغيرهم، كما تلونا بعض ذلك فيما ذكرناه من توبة الأنبياء واستغفارهم ، كقوله : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [سورة البقرة : ٣٧] .

وقول نوح : ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة هود : ٤٧] .

وقول إبراهيم : ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [سورة إبراهيم : ٤١]

وقوله : ﴿ وَالذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [سورة الشعراء : ٨٢] .

وقوله سبحانه : ﴿ فاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ﴾ [سورة محمد : ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لن نقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِن الغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ والإِشْرَاقِ ﴾ إلى قوله : ﴿ ظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغفِرْلِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ الآية [سورة ص : ١٧ ـ ٣٥] .

اليهود فرطوا فى حق الأنبياء

ولما كان اليهود ضد النصارى حيث قتلوا الأنبياء وكذَّبوهم جحدوا نبوة داود ، وهم لنبوة سليمان أجحد ، وزعموا أنهما كانا حكيمين ، وأن داود كان مسيحاً . وقد نزَّه الله سليمان مما تلته الشياطين على ملكه مما اتبعه السحرة من الصابئة والمشركين ومن اتبعهم من أهل الكتاب والمنتسبين إلى هذه الملة .

والسامرة أعظم جحوداً ، لا يقرون إلا بنبوه موسى خاصة ، ويوشع بعده .

الإسلام هو الصراط المستقيم

والله سبحانه قد هدى الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، كما اختلفت الأمتان فى المسيح ، فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة مريم : ٣٤ ، ٣٥] .

وكذلك المنحرفون من هذه الأمة قد اختلفوا فى علىّ وغيره كما تقدم ، فتجد أحدهم يغلو فى الرجل العالم والعابد ، حتى يعتقد عصمته ، أو يجعله كالأنبياء أو فوقهم ، أو يجعل لهم حظا فى الإلٰهية . وتجد الآخر يقدح فى ذلك ، فربما كفّره أو فسّقه أو أخرجه عن أن يكون من أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون. فالأول يجعل ما صدر منه من اجتهاد وعمل صواباً وإن كان خطأ وذنباً ، والآخر يجعل صدور الذنب والخطأ منه مانعاً من ولايته ووجوب موالاته .

وكلا القولين خطأ موروث عن أهل الكتابين . كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « لتركبنّ سَنَنَ من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقذة حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى وقال: فمن؟! »[1]

---

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ، ولكن روى البخارى ٩ / ١٠٣ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم) ؛ ومسلم ٨/٥٧ ـ ٥٨ (كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم . قلنا : يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال : فمن » . وجاء الحديث بمعناه عن أبى سعيد وأبى هريرة وغيرهما من الصحابة رضوان الله عليهم فى المسند (ط . الحلبى) . وانظر مثلا : ٢ / ٣٢٧ ، ٣٦٧ ، ٤٥٠ ، ٥١١ ، ٥٢٧ ، ٣ / ٨٤ ، ٩٤ . وهو فى سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٢٢ (كتاب الفتن ، باب افتراق الأمم) ؛ سنن الترمذى ٩ / ٢٦ ـ ٢٨ (كتاب الفتن ، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم) .

وانظر : مفتاح كنوز السنة ، مادة « السنة » .

=

وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في أم القرآن أنها أفضل سورة في القرآن وأنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها ، وأنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [سورة الحجر : ٨٧] (١) .

وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى يقول : « قسمت الصلاة بيني و بين عبدي نصفين ، فنصفها لي و نصفها لعبدي ، ولعبدي / ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدني عبدي . فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : أثنى عليّ عبدي . فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجّدني عبدي . فإذا قال : إياك نعبد و إياك نستعين ، قال : هذه الآية بيني و بين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل. فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، قال : فهؤلاء لعبدي ، ولعبدي ما سأل » (٢) .

ص ٨١

وهذه البدع هي وغيرها من البدع لابد أن تنافي كمال الإيمان ، وتقدح في بعض حقائقه ، فإن رأس الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده

= وقال ابن الأثير (النهاية في غريب الحديث مادة : قذذ) : « القذذ ريش السهم واحدتها قذه ، ومنه الحديث : لتركبن . . . أي كما تقدر كل واحدة منهما على قدر صاحبتها وتقطع » .

(١) انظر البخاري ٦ / ٨١ (كتاب التفسير ، سورة الحجر) ، ٦ / ١٨٧ (كتاب فضائل القرآن ، باب فاتحة الكتاب) ؛ الترغيب والترهيب ٣ / ٢٥ ــ ٢٨ .

(٢) جاء هذا الحديث مع اختلاف في اللفظ عن أبي هريرة رضى الله عنه في صحيح مسلم ٢/٩ــ١٠ (كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة .. الخ) وأوله : عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ومن صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداجٌ ــ ثلاثا ــ غير تمام » فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام ؟ فقال : اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : قسمت الصلاة . . . الحديث » . ورواه بمعناه الترمذي في سنة ١١ / ٦٩ ــ ٧١ (كتاب التفسير ، سورة الفاتحة) .

ورسوله . فلابد من إخلاص الدين لله ، حتى لا يكون فى القلب تألّه لغير الله ، فمتى كان فى القلب تألّه لغير الله فذاك شرك يقدح فى تحقيق شهادة أن لا إلٰه إلا الله ولابد من الشهادة بأن محمداً رسول الله ، وذلك يتضمّن تصديقه فى كل ما أخبر ، وطاعتَه فيما أمر به ، ومن ذلك الإيمان بأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبى بعده ، فمتى جعل لغيره نصيباً من خصائص الرسالة والنبوة كان فى ذلك نصيبٌ من الإيمان بنبى بعده ورسولٍ بعده ، كالمؤمنين بنبوة مسيلمة والعنسى وغيرهما من المتنبِّئين الكذّابين ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن بين يدى الساعة ثلاثين دجّالين كذابين كلهم يزعم أنه رسول الله »[1] .

عصمة الأئمة تعنى مضاهاتهم للرسول

فمن أوجب طاعة أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما يأمر به ، وأوجب تصديقه فى كل ما يخبر به ، وأثبت عصمته أو حفظه فى كل ما يأمر به ويخبر من الدين ـ فقد جعل فيه من المكافأة لرسول الله والمضاهأة له فى خصائص الرسالة بحسب ذلك ، سواء جُعل ذلك المضاهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعضَ الصحابة أو بعضَ القرابة أو بعض الأئمة والمشايخ أو الأمراء من الملوك وغيرهم .

وقد قال الله فى كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [سورة النساء : ٥٩] .

فغاية المطاع بإذن الله أن يكون من أولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم من العلماء والأمراء ومن يدخل فى ذلك من المشايخ والملوك وكل متبوع ؛ فإن الله تعالى أمر بطاعتهم مع طاعة رسوله ، كما قال : ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ، فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر ، ليبين أن طاعتهم فيما

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٩٢ ت ١ .

كان طاعة للرسول أيضا ، إذ اندراج طاعة الرسول فى طاعة الله أمر معلوم ؛ فلم يكن تكرير لفظ الطاعة فيه مؤذناً بالفرق ، بخلاف ما لو قيل: أطيعوا الرسول وأطيعوا أولى الأمر منكم ، فإنه قد يوهم طاعة كل منهما على حياله .

وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال : « إنما الطاعة فى المعروف » [١] ، وقال : « لا طاعه لمخلوق فى معصية الخالق » [٢] ، وقال : « على المرء المسلم الطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » [٣] .

ولهذا قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ فلم يأمر عند التنازع إلا بالرد إلى الله والرسول دون الرد

---

(١) هذه العبارة جزء من حديث متفق عليه عن على رضى الله عنه . انظر : البخارى ٩ / ٦٣ (كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للامام ما لم تكن معصية) ؛ مسلم ٦/١٥ (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية) . ولفظ الحديث : « عن على رضى‌الله عنه قال : بعث النبى صلى الله عليه وسلم سرية وأمر عليهم رجلا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه ، فغضب عليهم وقال: أليس قد أمر النبى صلى‌الله عليه وسلم أن تطيعونى؟ قالوا : بلى . قال : عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها . فجمعوا حطباً فأوقدوا نارا ، فلما هموا بالدخول ، فقام ينظر بعضهم إلى بعض . قال بعضهم : إنما تبعنا النبى صلى الله عليه وسلم فراراً من النار أفندخلها ؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه . فذكر للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : لو دخلوها ماخرجوا منها أبداً ، إنما الطاعة فى المعروف » .

(٢) أورده التبريزى فى مشكاه المصابيح ٢ / ٣٢٣ عن النواس بن سمعان . وقال : « رواه فى شرح السنة » وذكر الشيخ ناصر الدين الألبانى فى تعليقه أنه حديث صحيح وجاء فى المسند فى (ط . الحلبى) ٥/٦٦ بلفظ : «لاطاعة لمخلوق فى معصية الله تبارك وتعالى».وجاء بمعناه المسند (ط . الحلبى) ٤ / ٤٣٢ ، ٥ / ٦٦ ـ ٦٧ ؛ المستدرك للحاكم ٣ / ٤٤٣ . وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٣) الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما فى : البخارى ٩ / ٦٣ (نفس الكتاب والباب) . وهو بمعناه مع اختلاف فى اللفظ فى : البخارى ٤ / ٤٩ ـ ٥٠ ؛ سنن الترمذى ٧/٢٠٢ (كتاب الجهاد ، باب ما جاء لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق) .

إلى أولى الأمر ، ولهذا كان أولو الأمر إذا اجتمعوا لا يجتمعون على ضلالة ، فإذا تنازعوا فالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله لا إلى غير ذلك من عالم أو أمير ومن يدخل فى ذلك من المشايخ والملوك وغيرهم ، ولو كان غير الرسول معصوما أو محفوظا فيما يأمر به ويخبر به لكان ممن[1] يُرَدّ إليه مواقع النزاع ، كما يرده القائلون بإمام معصوم إليه ، وكما جرت عادة كثير من الأتباع أن يردّوا ما تنازعوا فيه إلى الإمام والقدوة الذى يقلدونه .

ومعلوم أن علماء الطوائف ومقتصديهم لا يرون هذا الرد واجبا على الإطلاق ، لكن قد يفعلون ذلك لأنه لا طريق لهم إلى معرفة الحق واتباعه إلا ذلك لعجزهم عما سوى ذلك ، فيكونون معذورين . وقد يفعلون ذلك اتباعا لهواهم فى محبتهم لذلك الشخص و بغضهم لنظرائه[2] فيكونون غير معذورين ، ولكن من اعتقد من هؤلاء فى متبوعه أنه معصوم ، أو أنه محفوظ عن / الذنوب والخطأ فى الاجتهاد ، فذلك مردود عليه بلا نزاع بين أهل العلم والإيمان . ظ ٨١

الغلو فى البشر يؤدى إلى الشرك

ولهذا إنما يقول ذلك غلاة الطوائف الذين يغلب عليهم اتباع الظن وما تهوى الأنفس ، وقد غلب على أحدهم جهله وظلمه . وكما أن الغلو فى غير الرسول صلى الله عليه وسلم فيه قدح فى منصب الرسول وما خصّه الله به ، وهو أحد أصلى الإسلام ، فكذلك الغلو فى غير الله فيه قدح فيما يجب لله من الألوهية وفيما يستحقه من صفاته . فمن غلا فى البشر أو غيرهم فجعلهم شركاء فى الألوهية أو الربوبية فقد عدل بربه وأشرك به وجعل له ندًّا ، ومن زعم أن الله ذم أحداً من البشر أو عاقبه على ما فعله ، ولم يكن ذلك ذنباً ، فقد قدح فيما أخبر الله به وما وجب له من حكمته وعدله . فالجاهل يريد تنزيه الصحابة

---

(١) فى الأصل : من .

(٢) فى الأصل : وبغضهم له على نظرائه .

أو العلماء أو المشايخ من شيء لا يضيرهم ولا يضرهم ثبوته فيقدح فى الرسول أو فى الله تعالى ، ويريد تنزيه الأنبياء عما لا يضرهم ثبوته ، بل هو رفع درجة لهم ، فيقدح فى الربوبية . فتدبر هذا فإنه نافع .

بطلان القول بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب

والقائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ليس لهم حجة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولا لهم إمام من سلف الأمة وأئمتها ، وإنما مبدأ قولهم من أهل الأهواء كالروافض والمعتزلة ، وحجتهم آراء ضعيفة من جنس قول الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم الذين قال الله فيهم : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [سورة الحج : ٥٣] .

وعمدة من وافقهم من الفقهاء أن الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فى أفعاله مشروع ، ولولا ذلك ماجاز الاقتداء به . وهذا ضعيف ، فإنه قد تقدم أنهم لا يُقرُّون ، بل لابد من التوبة والبيان . والاقتداء إنما يكون بما استقر عليه الأمر ، فأما المنسوخ والمنهيّ عنه والمتوب منه فلا قدوة فيه بالاتفاق . فإذا كانت الأقوال المنسوخة لا قدوة فيها ، فالأفعال التى لم يقر عليها أولى بذلك .

تفصيل مذهب أهل السنة فى ذلك

وأما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة والجماعة القائلين بما دل عليه الكتاب والسنة من توبة الأنبياء من الذنوب ، فقد ذكرنا من آيات القرآن مافيه دلالات على ذلك .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو : « اللهم اغفرلى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفرلى جدِّى وهزلى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى . اللهم اغفرلى ماقدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ،

وأما أنت أعلم به منى . أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير »[١] .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى استفتاح الصلاة : « اللهم أنت الملك لا شريك لك ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ، فاغفرلى ذنوبى جميعا فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لايهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها فإنه لايصرف عنى سيئها إلا أنت » قال : ثم يكون من آخر ما يقول[٢] بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت »[٣] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة ، فقلت : بأبى وأمى يارسول الله ، إسكاتك بين التكبير والقراءة ماتقول ؟ قال : « أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقِّنى من الخطايا كما

---

(١) الحديث فى : البخارى ٨/٨٤ ـ ٨٥ (كتاب الدعوات ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت) ؛ مسلم ٨ / ٨١ (كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل) .

(٢) فى الأصل : يكون ، والتصويب من صحيح مسلم .

(٣) هذا جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه ٢ / ١٨٥ ـ ١٨٦ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه) وأوله :.. عن على بن أبى طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهت وجهى للذى فطر السماوات . . . اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ... الحديث » . وهو فى المسند (ط . المعارف) ٢/١٠٠ ـ ١٠١ (رقم ٧٢٩) ومع اختلاف فى اللفظ ٢/١٣٤ ـ ١٣٥ (الأرقام : ٨٠٣ ـ ٨٠٥) .

يُنَقَّى الثوب الأبيض من الدنس . اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبَرَد»[1] .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى » يتأول القرآن[2] .

وفى الصحيح أيضاً عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى سجوده : « اللهم اغفرلى ذنبى كله ، دقه وجله ، وأوله وآخره ، وعلانيته وسره ، وقليله وكثيره »[3] .

وقد تقدم قوله فى الحديث الصحيح : « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »[4] ، وقوله : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة »[5] ، وقوله : « إنه ليُغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة »[6] . وتقدم أيضاً أنهم كانوا يعدون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول : « رب اغفرلى وتب علىّ إنك أنت التواب الغفور » مائة مرة[7] .

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا إذا قفل من غزو أو حج أو عُمرة يكبِّر على كل شرف من الأرض ثلاث

---

(١) الحديث فى: البخارى ١ / ١٤٥ (كتاب الأذان ، باب ما يقول بعد التكبير) ؛ مسلم ٢ / ٩٨ – ٩٩ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة) .

(٢) الحديث فى : البخارى ١/١٥٩ (كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء فى السجود) ؛ مسلم ٢ / ٥٠ (كتاب الصلاة ، باب ما يقال فى الركوع والسجود) .

(٣) الحديث فى مسلم ٢ / ٥٠ (نفس الكتاب والباب) .

(٤) انظر ما تقدم ، ص ٢٢٤ ، ت ٣ .

(٥) انظر ماتقدم ، ص ٢٢٣ – ٢٢٤ ، ت ١ .

(٦) انظر ما تقدم ، ص ٢٢٤ ، ت ٢ .

(٧) انظر ما تقدم ، ص ٢٢٦ ، ت ٣ .

تكبيرات ثم يقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده »[1] .

وفى السنن عن عليّ أنه أتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله فى الركاب قال : « بسم الله » ، فلما استوى على ظهرها قال : « الحمد الله ، سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مُقْرِنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » ثم قال : « الحمد لله ـ ثلاثا ـ سبحانك إنى ظلمت نفسى فاغفرلى فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت» ثم ضحك ، فقيل : من أى شيء ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت ثم ضحك ، فقلت : من أى شيء ضحكت يارسول الله ؟ فقال : « إن ربك ليعجب من عبده إذا قال رب اغفرلى ذنوبى، يقول : يعلم أن الذنوب لا يغفرها أحد غيرى »[2] .

---

(١) الحديث فى : البخارى ٨ / ٨٢ (كتاب الدعوات ، باب الدعاء إذا أراد سفراً أو رجع) ؛ مسلم ٤ / ١٠٥ (كتاب الحج ، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره). وهو فى المسند (ط . المعارف) الأرقام : ٤٤٩٦ ، ٤٥٦٩ ، ٤٦٣٦ ، ٤٧٩٧ ، ٤٩٦٠ ، ٥٢٩٥ .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ١٣ / ٦ ـ ٧ (كتاب الدعاء ، باب ما يقول إذا ركب الناقة) وقال الترمذى : « وفى الباب عن ابن عمر رضى الله عنهما . قال : هذا حديث حسن صحيح » .



فصل في أنَّ دينَ الأنبياءِ واحدٌ



﴿فصـــل﴾

قوله صلى الله عليه وسلم : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد »[1]

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [سورة المؤمنون : ٥١ ، ٥٢] : أى ملتكم ملة واحدة ، كقوله : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [سورة الزخرف : ٢٢ ، ٢٣] : أى على ملة وقال : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية [سورة الشورى : ١٣] .

فدين الأنبياء واحد ، وهو دين الإسلام ، لأن بعض الشرائع تتنوع ، فقد يشرع فى وقت أمراً لحكمة ثم يشرع فى وقت آخر أمراً آخر لحكمة ، كما شرع فى أول الإسلام الصلاة إلى بيت المقدس ، ثم نسخ ذلك وأمر بالصلاة إلى الكعبة ، فتنوعت الشريعة والدين واحد ، وكان استقبال الشام / من ذلك   ص ٢٠٦

---

(١) ذكر ابن تيمية الحديث بتمامه فى الجواب الصحيح ١/٥ (ط . المدنى) فقال : « ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : إنا معشر الأنبياء ديننا واحد ، وأنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبى » . ولم أجد الحديث بهذا اللفظ ولكن روى البخارى فى صحيحه ٤ / ١٦٧ (كتاب الأنبياء ، باب واذكر فى الكتاب مريم) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا والآخرة والأنبياء أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد » . وروى حديثا آخر يقاربه فى اللفظ فى نفس الصفحة وروى مسلم ٧ / ٩٦ (كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام) الحديث عن أبى هريرة بألفاظ مقاربة من ثلاثة طرق . والحديث بمعناه فى سنن أبى داود ٤ / ٣٠٢ (كتاب السنة ، باب فى التخيير بين الأنبياء) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢ / ٣١٩ ، ٤٠٦ ، ٤٣٧ ، ٤٦٣ ، ٤٨٢ ، ٥٤١ ؛ ترتيب مسند الطيالسى ٢/٨٤ .

الوقت من دين الإسلام ، وكذلك السبت لموسى من دين الإسلام ، ثم لما صار دين الإسلام هو الناسخ وهو الصلاة إلى الكعبة ، فمن تمسك بالمنسوخ فليس على دين الإسلام ، ولا هو من الأنبياء .

ومن ترك شرع الأنبياء وابتدع شرعاً فشرعه باطل لايجوز اتّباعه ، كما قال : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [سورة الشورى : ٢١] ؛ ولهذا كفرت اليهود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع منسوخ .

والله أوجب على جميع الخلق أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله ، ومحمد خاتم الرسل ، فعلى جميع الخلق اتباعه واتباع ماشرعه من الدين ، هو ما أتى به من الكتاب والسنة[١] .

---

(١) تكلم ابن تيمية عن هذا الموضوع : أن دين الأنبياء واحد هو دين الإسلام ، فى عدة مواضع من كتبه . انظر مثلا : الجواب الصحيح (ط . المدنى) ١ / ٢ ـ ١٣ ؛ الرد على المنطقيين (ط . بومباى ١٣٦٨ / ١٩٤٩) ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٣ ؛ اقتضاء الصراط المستقيم (ط . السنة المحمدية ١٣٦٩/١٩٥٠) ، ص ٤٥٠ ـ ٤٥٦ .

فصل في الدليل على فضل العرب

﴿ فصـــل ﴾

الدليل على فضل العرب مارواه الترمذى عن العباس بن عبد المطلب قال : « قلت : يا رسول الله إن قريشاً جلسوا يتذاكرون أحسابهم بينهم ، فجعلوا مثلك كمثل نخلة فى كُبوة من الأرض . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقهم ، ثم خيَّر القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، ثم خيَّر البيوت فجعلنى فى خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » . قال الترمذى : هذا حديث حسن [1] .

والـكِبا بالـكسر والقصر ، والـكُبة الـكناسة [2] . والمعنى أن النخـلة طيبة فى نفسها ، و إن كان أصلها ليس بذاك .

وعن سلمان قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا سلمان لا تبغضنى فتفارق دينك . قلت : يا رسول الله وكيف أبغضك وبك هدانى الله ؟ قال : تبغض العرب فتبغضنى » . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب [3] .

وروى أبو جعفر الحافظ الـكوفى عن ابن عباس قال : قال رسول الله

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ١٣ / ٩٥ ـ ٩٦ (كتاب المناقب ، باب فى فضل النبي صلى الله عليه وسلم) إلا أن فيه : « . . . من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل فجعلنى من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم .. . الحديث » .

(٢) قال ابن العربي فى شرح الحديث ١٣ / ٩٨ : « الـكبوة بضم الـكاف وفتحها يقال على المزبلة ويقال على الربوة والمراد ههنا الربوة . وقال شمر : لم نسمع الـكبوة ولـكنا سمعنا الـكبا ـ بكسر الـكاف ـ والـكبوة ـ بضمها وتخفيف الباء ـ وهى الـكناسة والتراب الذى يكنس من البيت » .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ١٣ / ٢٨١ (كتاب المناقب ، باب فى فضل العرب) إلا أن فيه : وبك هدانا الله. والحديث فى المسند (ط. المعارف) ٣ / ٢٢٣ ـ ٢٢٤ (رقم ١٧٨٨) ، وأورده العراقى فى القرب فى محبة العرب (ط. الإسكندرية ١٣٨١/١٩٦١) ص ١٠٠ وانظر تعليق المحقق ؛ والطيالسى ؛ فى مسنده ، انظر ترتيب مسند الطيالسى ٢/٢٠٠ ؛ والحاكم فى المستدرك ٤ / ٨٦ .

صلى الله عليه وسلم : « أحِبُّوا العرب لثلاث : لأنى عربى ، والقرآن عربى ، ولسان أهل الجنة عربى » . قال الحافظ السلفى : هذا حديث حسن ؛ فما أدرى أراد حسن إسناده على طريقة المحدثين ، أو حسن متنه على الاصطلاح العام ، وأبو الفرج بن الجوزى ذكره فى « الموضوعات » ؟ ! [(١)] .

وقال سلمان : « يا معشر العرب لِتفْضيل رسول الله إياكم لا ننكح نساءكم ولا نؤمكم فى الصلاة » ، وإسناده جيد [(٢)] ، رواه محمد بن أبى عمر العَدَنى [(٣)] ، وسعيد فى « سننه » [(٤)] .

---

(١) الحديث فى المستدرك للحاكم ٤/٨٧ . والحديث رواه الطبرانى فى المعجم الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان والعقيلى فى الضعفاء . وله شاهد من حديث أبى هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى » .

وقد اختلف فى حديث ابن عباس وأكثر العلماء على أنه ضعيف أو موضوع . وانظر ماذكر عنه وعن حديث أبى هريرة فى : اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ، ص ١٥٨ ؛ كشف الخفاء للعجلونى ١ / ٥٤ ؛ اللآلىء المصنوعة للسيوطى ١ / ٤٤٢ ؛ الفوائد المجموعة للشوكانى ، ص ٤١٣ ؛ تنزيه الشريعة لا بن عراق ٢/٣٠-٣١ ؛ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة لناصر الدين الألبانى ، المجلد الأول جـ ٢ ، ص ٥٦ ــ ٦٠ (ط دمشق ، ١٣٨٢) القرب فى محبة العرب للعراقى ، ص ٩٦ ــ ٩٧ ؛ مشكاة المصابيح ٣ /٢١٦ ؛ المقاصد الحسنة للسخاوى ، ص ٢٢ ــ ٢٣ ، تمييز الطيب من الخبيث لابن الديبع ، ص ٧ .

(٢) ذكره ابن تيمية فى اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ١٥٨ ــ ١٥٩ وقال إن أبابكر البزار ممن رواه أيضا .

(٣) قال ابن حجر فى تقريب التهذيب ، ص ٢١٨ : « محمد بن يحيى بن أبى عمر العدنى نزيل مكة ، ويقال إن أبا عمر كنيته يحيى ، صنف المسند ، وكان لازم ابن عيينة ، لكن قال أبو حاتم : كانت فيه غفلة ، من العاشرة ، مات قبل سنة ثلاث وأربعين » . والعدنى نسبة إلى عدن ، وقد توفى سنة ٢٤٣ . وانظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ٢ / ٥٠١ ؛ الجرح والتعديل ، حـ ٤ ، ق ١ ، ص ١٢٤ ؛ اللباب لابن الأثير ٢ / ١٢٦ .

(٤) أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة المروزى ويقال الطالقانى ثم البلخى صاحب السنن . توفى بمكة سنة ٢٢٧ . انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ٢ / ٤١٦ ،الجرح والتعديل جـ ٢ ، ق ١ ، ص ٦٨ ؛ طبقات ابن سعد ٥ / ٥٠٢ .

ولما وضع عمر الديوان للعطاء كتب الناس على قدر أنسابهم فبدأ بالأقرب فالأقرب إلى رسول الله ، فلما انقضت العرب ذكر العجم . هكذا كان الديوان على [عهد] [1] الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وخلفاء بنى العباس ، إلى أن تغير الأمر بعد ذلك ؛ والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة أصحها ما ذكرناه .

سبب ما اختص به العرب من الفضل

وسبب ما اختصوا به من الفضل ـ والله أعلم ـ ما جعل الله لهم من العقول والألسنة والأخلاق والأعمال ، وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع أو العمل الصالح ، والعلم له مبدأ : وهو قوة العقل الذى هو الفهم والحفظ ، وتمام : وهو قوة المنطق الذى هو البيان والعبارة . فالعرب هم أفهم وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة ، ولسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعانى .

وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق ، وهى الغرائز المخلوقة فى النفس . فغرائزهم أطوع من غرائز غيرهم ، فهم أقرب إلى السخاء والحلم والشجاعة والوفاء من غيرهم ، ولكن حازوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطّلة عن فعله ، ليس عندهم علم منزل ولا شريعة مأثورة ولا اشتغلوا ببعض العلوم ، بخلاف غيرهم فإنهم كانت بين أظهرهم الكتب المنزّلة وأقوال الأنبياء فضلُّوا لضعف عقولهم وخبث غرائزهم .

وإنما كان علم العرب ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب، أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم ، أو ما احتاجوا إليه فى دنياهم من الأنواء والنجوم والحروب . فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى تلقّوه عنه بعد مجاهدة شديدة ، ونقلهم الله عن تلك العادات الجاهلية التى كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها ، فلما تلقَّوْا عنه ذلك الهدى زالت تلك الربون عن قلوبهم ، فقبلوا هذا الهدى العظيم ، وأخذوه بتلك الفطرة الجيدة ، فاجتمع لهم الكمال بالقوة

---

(١) عهد : ساقطة من الأصل .

المخلوقة فيهم ، والكمال الذى أنزله الله إليهم ، بمنزله أرض طيبة فى نفسها لكن هى معطّلة عن الحرث ، أوقد نبت فيها شجر العضاه والعوسج ، وصارت مأوى الخنازير والسباع ، فإذا طهرت عن ذلك المؤذى من الشجر وغيره من الدواب ، وازدرع فيها أفضل الحبوب أو الثمار جاء فيها من الحب والثمر مالا يوصف مثله .

فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله سوى الأنبياء ، وصار أفضل الناس بعدهم من اتبعهم بإحسان ـ رضى الله عنهم ـ إلى يوم القيامة من العرب والعجم[1] .

والله سبحانه أعلم . والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين وسلم تسليما[2] .

---

(١) تكلم ابن تيمية عن فضل العرب بمزيد من التفصيل فى « اقتضاء الصراط المستقيم » ص ١٤٨ ـ ١٦٢ .

(٢) بعد هذا السطر فى آخر الرسالة كتب ما يلى :

إذا المرء لم يرض ما أمكنه ... ولم يأت من أمره أحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره ... سيضحك يوما ويبكى سنه

لشيخ الإسلام .

صحح تصح لك الأمور جميع ... إياك عن طرق الهداة تضيع
وامح واثبت ما تحقق يافتى ... إياك عن طرق الهدى تضيع
لا تصحبن الأرذلين فإنهم ... يوم التغابن حبلهم مقطوع

الفهارس



فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	ص	س
		٤٢	٧ـ٨
	٧٥	٨١	٢
	٨٨	٢٤٦	١٠ـ١١
	٩٨	٩٢	٥
	١١٦	٤	١٥
		٩	٤ـ٥
			٨
			١٣
		١٧	٤
			٦
			٨
			٢٤
		١٨	١٢
		٢٢	١٤ـ١٥
			١٦ـ١٧
		٢٣	٤ـ٦
		٢٦	١٨
	١١٦ـ١١٧	٣	٦ـ٨
	١٢٨	٢٢١ـ٢٢٢	٢٠ـ١
	١٦٤	١٤٥	١٨
	١٩٨،١٩٩	٢٥٨	٤ـ٧
	٢١٤	١٨٣	٧
	٢٢٢	٢٢٣	١
	٢٣٨	٦	٩ـ١٠

السورة	الآية	ص	س
	٥٣	١٣٤	١٢_١٣
	٥٣،٥٤	١٣٥	٢_٣
	٥٤	١٣٥	٥
	٦٤	٨٩	٢٠_٢١
التوبة	٥	٢٣٩	٩_١١
	١٦	١٨٣	٨_٩
	١٩_٢٢	٢٥٢_٢٥٣	١٦_١(ص٢٥٣)
	٣٠،٣١	٢٥٩_٢٦٠	١٩_٢(ص٢٦٠)
	٣١	٢٦٠	٢٠_٢١
	١٠٢_١٠٦	٢٢٣	٩_١٧
	١١٧،١١٨	٢٢٠	٩_١٤
		٢٦٨	١٤_١٩
	١٢٤،١٢٥	٢٤٨_٢٤٩	٢٠_٣(ص٢٤٩)
	١٢٦	٥٧	٥_٦
يونس	١٢	٢٥_٢٦	٢٢_١(ص٢٦)
	٦٢،٦٣	٢٦٧	٧_٨
	٦٨	٤	٢٠_٢٢
	٧١	٩٦	١_٣
			١١_١٣
			١٥
	٧٢	٢٣٤	١٣_١٤
	٨٤	٢٣٤	١٠
	٨٨	٢٠٧	١٣_١٥
	٨٩	٢٠٨	١

السورة	الآية	ص	س
	٤٨	٥٣	٩ـ١٠
الحجر	٣٩ ، ٤٠	٢٣٥	٥ـ٦
	٨٥	١٩	٢١ـ٢٢
	٨٧	٢٧٢	٤ـ٥
	٩٢ ، ٩٣	٢٤	١١
النحل	٤٨	٢٨	١٢ـ١٤
		٣٩	٣
	٤٨ ، ٤٩	٣ـ٤	١٧ـ٢(ص٤)
	٤٨ـ٥٠	٤١	٥ـ٨
	٥٣	١٠٧	١٠
		١٣٢	١٢ـ١٣
	٥٣ ، ٥٤	١٠٥ـ١٠٦	١٢ـ١(ص١٠٦)
	٥٧	١٠٦	٢
	١٢٠	٥	١١
الإسراء	١	٩٥	١٨
	٢	٨٩	١١ـ١٢
	١٥	٢٤٤	٧ـ٨
	٢٣	١٦٦	٧ـ٨
	٤٢	٢٢ـ٢٣	٢٢ـ١(ص٢٣)
	٤٤	٤	٦ـ٨
		٤٠	١٢ـ١٣
		٤٢	١١
	٥٦	٥٥	١٨ـ١٨
	٥٦ ، ٥٧	٢٢	١٨ـ٢١

السورة	الآية	ص	س
		٢٦٥	٨ـ١١
	٦٧	٢٦	٢ـ٤
	٧٦	٥٠	٢٢ـ٢٣
	٧٧	٤٩	٧
	٨٢	٢٤٩	٤ـ٥
	١٠٢	١٥	٣ـ٤
	١١٠	١٧١	١٠
	١١١	١٠٦	١٣
			٢٥
			٢٧ـ٢٨
الكهف	١٧	٩٩	٤
	٥٥	٥٠	٢ـ٣
	١٠٠،١٠١	٢٤٥	١٩ـ٢٠
	١٠٣،١٠٤	٢٣١	٧ـ٩
مريم	٣٤،٣٥	٢٧١	٣ـ٤
	٧٦	٢٣٠	٢
	٨٨ـ٩٥	٤	١٦ـ٢٠
طه	١١ـ١٣	١٣٧	١٨ـ١٩
	١٤	١٥٦	٨ـ٩
		١٥٧	١ـ٢
			٨
	٤٦	١٧١	١٦
	٧٣	١٣٣	١
	١١١	١٩	٢

السورة	الآية	ص	س
	١٢١،١٢٢	٢٢١	٥ـ٦
		٢٣٥	١٧
الأنبياء	١٦	١٩	١٦
			٢٤
	١٦ـ٢٦	١٩	٧ـ٩
	١٧	١٩	١٧
		٢١	١٥ـ١٦
	١٨	٢١	١٣
		٢٢	١ـ٢
	١٩،٢٠	٢٢	٣ـ٤
	٢٦ـ٢٨	١٩	٧ـ٩
	٢٦ـ٢٩	٥	١ـ٢
		٢٢	٦ـ٩
	٣٣	٣٧	٤ـ٥
	٣٥	٧٧	٣
	٥٢ـ٥٦	٢٠	٣ـ٦
	٥٥	٢٠	٧
	٨٣	١٣٧	١١
	٨٧،٨٨	٢٧٠	٥ـ٨
الحج	١٨	٤	٣ـ٥
		٣٨	٣ـ٤
		٣٩	١١ـ١٣
		٤٠	
			٥ـ٦

السورة	الآية	ص	س
		٤١	٣
		٤٢	١٤_١٣
		٤٤	٣_٢
	٣٨	٩٧	١٠
		١٣٢	٥
			١٩
	٥٣،٥٢	٢٦٩	١٣_١٠
	٥٣	٢٧٦	٩_٨
	٧٧	١٣٧	٢_١
المؤمنون	٥٢،٥١	٢٨٣	٤_٣
	٧٦_٥١	٥٨	١٣_٧
	٦٠	٢٥٧_٢٥٦	١٨-١(ص٢٥٧)
	٧١	٨٤	١٢_١١
	٧٦	١٣٥	٢٠_١٩
	٧٧_٧٦	٥٧	٢_١
	٨٨	١٣٢	٨_٧
	١١٥	١٩	٢٣
	١١٨	١٣٧	١٣_١٢
النور	٣١	٢٢٠	٧
		٢٥٨	١١_١٠
	٤١	٤	٤١_١٣
		١١	٣_٢
		٢٨	١٠_٨
		٤٢	١٢

السورة	الآية	ص	س
		٤٣	١٣
الفرقان	٢٤	١٣٢	١٦_١٧
	٦٠	٧١	٨_٩
الشعراء	٢٣_٢٩	٢١٢	٨_١٤
	٨٣	٢٢١	١٩
	٩٤،٩٥	٢٣٥	١١_١٢
	١٧٦	٦١	٥
	٢١٣	٢٦٥	١٩_٢٠
	٢٢١،٢٢٢	١٩٤	١٦_١٧
النمل	٦	١٦٢	٤_٥
	١٠،١١	٢٢٢	٨_٩
	١٤	١٥	٢
		٢٣٤	٤_٥
	٤٠	١٤٨	١٥_١٦
	٤٤	٢٣٤	١٧
	٥٩	١٣٢	١٥_١٦
	٨٨	١٣٧	٧_٨
القصص	٤	١٣٢	٧_٩
	١٥_١٦	٢٢٢	٢_٤
	٢٣	٦١	٧_٨
	٣٨	٢١١	٧
	٣٩	٢٣٤	٢_٣
	٣٩_٤٢	٢١٥	٥_٩
	٤٢	٢١٥	١٩_٢٠

سورة	الآية	ص	س
الفتح	٢،١	٢٢٢	٢٠-٢١
	١-٣	١٠٠	٦-٨
	٢٢، ٢٣	٤٩	١٧-١٩
الحجرات	٧	٨٤	١٣-١٤
ق	٨	١٦	٦
	١٢-١٤	٢٠٨-٢٠٩	٢١-١(ص٢٠٩)
الذاريات	٥٦	٩١	١٩
	١-٤	٢٢٨	١٥-١٦
	٢٣	٢٤١	١-٢
			١١-١٢
	٣١،٣٢	٢٦٨	٩-١٣
	٣٢	٢٢٦	٤
			٢٢-٢٣
	٣٦	١٢٦	١١
	٣٦-٤١	١٢٦	٨-١٠
القمر	٣٤	٢١٣	١١
	٤١، ٤٢	٢١٤	٣-٤
	٤٣	٥٦	١٣-١٤
الواقعة	٧-١٢	٢٢٧	٨-١٠
	٢٢-٢٤	١٤٥	١٤-١٥
	٦١، ٦٢	٧٧	٦-٧
	٨٨-٩٤	٢٢٧	١١-١٤
الحديد	١	٤	٩-١٠
	١٠	٢٥٢	١٣-١٥

السورة	الآية	ص	س
	٩،١٠	٢٠٩	١٥_١٦
	٢٤	٩٧	١٦_١٧
		١٤٥	١٢
	٤٠_٤٢	١٥٩	٤_٦
نوح	١٠،١١	٢٢١	٧_٨
	٢٢	١٦٦	١
	٢٣	١٦٦	٤_٥
الجن	١٩	٩٥	١٩
المزمل	٨،٩	٨٩	٩_١٠
		٩١	٨_٩
المدثر	١١	١٧٨_١٧٩	١٠_١ (ص١٧٩)
	٥٥،٥٦	٧٧	١٧_١٨
الإنسان	١،٢	٦٩	١٤_١٦
	٣	٦٩	١٧
	٣_٦	٢٢٧	١٦_١٩
	٤	٧٠	٢٠
	٤-٦	٦٩	١٨_١٩
	٧	٧٣	١
	٧_٩	٧١	١٨_٢٠
	٨	٧٢	٩
	١٠	٧١	٢٥
		٧٢	١٩_٢٠
	١١	٧٠	١٨_١٩
	١٧	٧٠	٢٢

السورة	الآية	ص	س
	٢١	٧٠	٢٣
		٧٣	٢٢ـ٢٣
	٢٢	٧٤	١٩
	٢٣، ٢٤	٧٤	٢١ـ٢٢
	٢٤	٧٥	١٧
	٢٥، ٢٦	٧٥	١٩ـ٢٠
	٢٧	٧٥	٢١
	٢٨	٧٥	٢٢
		٧٦	٢٥
	٢٩	٧٧	١٢
	٣٠	٧٧	١٣
			١٥
			١٦
	٣١	٦٩	٢١
النازعات	٢١ـ٢٤	٢١١	٩ـ١٠
	٢٤	١٥٧	١
			٩
		١٦٧	٤ـ٥
			٩
	٢٥، ٢٦	٢١١	١١ـ١٢
التكوير	١٩ـ٢١	١٥٩	٧ـ٨
	٢٨، ٢٩	٧٧	١٩
المطففين	٧ـ٢٨	٢٢٧ـ٢٢٨	٢٠ـ٢(ص٢٢٨)
	١٤	٢٢٦	٢ـ٣

السورة	الآية	ص	س
		٢٣٧	٩
	٢٤	٧٠	٢
الانشقاق	٨،٧	١٥٠	٤ـ٥
البروج	١٢	١٣٥	١٦ـ١٧
الأعلى	١٨ ، ١٩	١٢٦	١٣ـ١٤
النصر	١ـ٣	٢٥٨	٨ـ٩
المسد	١	١٨٨	١٠

فهرس الأحاديث النبوية *

---

* الكلام على هذه الأحاديث في التعليقات المشار إلى أرقامها .

** ت = تعليق .

الحــــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
٨ ـ « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد ... » ـ الحديث عن « الزيادة » وهى النظر إليه تعالى فى الجنة .	صهيب	١١٠-١١١	١٨-٤	(١)
٩ ـ إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ... » .	أبو موسى الأشعرى	٢٤١ ٢٥٢	١٧-١٩ ٦-٧	(١)
١٠ ـ « اعلموا أن أحدكم لا يرى ربه حتى يموت » ـ عبارة وردت فى أحاديث فيها الكلام عن صفة الدجال .	عبد الله بن عمر وغيره	١٩٨	٧-٨	(٤)
١١ ـ « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » ـ أوله: أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن ... » وفيه : « فقال جبريل : فقل : أعوذ بوجه الله الكريم ، وبكلمات الله التامات اللاتى لا يجاوزهن بر ولا فاجر... » وانظر الحديث رقم ٥١ .	مرسل عن يحيى ابن سعيد	١٠	١-٢	(١)
١٢ ـ « اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر » .	حذيفة وأبو الدرداء وابن مسعود	٢٦٦	١٢-١٣	(٢)
١٣ ـ « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .	أبو هريرة	٣٣	٢-٣	(٢)
١٤ ـ « أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب » وأوله: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسكت بين التكبير والقراءة إسكاته .. » .	أبو هريرة	٢٧٧-٢٧٨	١١-١	(١)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
١٥ ـ « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ... » .	أبو موسى الأشعرى	٢٧٦-٢٧٧	١٩-٢	(١)
١٦ ـ « اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دقه وجله ... » ـ دعاء فى السجود .	أبو هريرة	٣٢	١٣-١٤	(٣)
١٧ ـ « اللهم اكتب لى بها عندك أجرا ، وضع عنى بها وزرا ... » ـ دعاء فى السجود .	ابن عباس	٣٤	١-٧	(٢)
١٨ ـ « اللهم أنت الملك لا شريك لك ... » ـ وأوله : « وجهت وجهى للذى فطر ... » وانظر رقم ٥٩ ، ١١٨	على بن أبى طالب	٢٧٧	٣-١٠	(٣)
١٩ ـ « اللهم إنا نستعينك ونستهديك » ـ فى القنوت .	عمر بن الخطاب	١١٧	٣-٤	(٤)
٢٠ ـ « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك .. » دعاء فى السجود .	عائشة	٣٢	١٤-١٦	(٤)
٢١ ـ « اللهم صلى على آل أبى أوفى .. » .	عبد الله بن أبى أوفى	٢١٣	١٣-١٤	(١)
٢٢ ـ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ... » .	جماعة من الصحابة	١٥	٥-٧	(١)
٢٣ ـ « أنا عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى » .	أبو هريرة	٢٨٨	٩-١٠	(١)
٢٤ ـ « إن إبليس قال لربه عز وجل : بعزتك وجلالك ... » .	أبو سعيد الخدرى	٢٣٥-٢٣٦	٢٠-٣	(١)
٢٥ ـ « إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغى ... » .	أبو برزة الأسلمى	٢٢٩	٩-١٠	(١)
٢٦ ـ « إن استطعت أن تعمل لله بالرضا ... » .	ابن عباس	٢٥٠	٨-١٠	(١)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
٢٧ ـ « إن بين يدى الساعة ثلاثين دجالين ... » ـ وانظر رقم ٩٤	أبو هريرة وابن عمر	٢٧٣	٧ـ٨	(١)
٢٨ ـ « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .	أبو هريرة	١٤٧	٢٥ـ٢٧	(٢)
٢٩ ـ « إن العبد إذا أذنب نكتت فى قلبه نكتة سوداء .. » .	أبو هريرة	٢٢٥ـ٢٢٦	١١ـ٣	(١)
٣٠ ـ « إن الله اختار من الأيام يوم الجمعة ... » .	مرسل عن كعب الأحبار	١٣٨	٦ـ٩	(١)
٣١ ـ « إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقهم ... » .	العباس بن عبد المطلب	٢٨٧	١ـ٧	(١)، (٢)
٣٢ـ « إن الله خلق للجنة أهلا وخلقها لهم .. » ـ وفى مسلم : « .. وخلقهم لها .. » .	عائشة	١٤٦	٧ـ٩	(٢)
٣٣ ـ « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ... » .	أبو موسى الأشعرى	٢٢٤	٤ـ٥	(٤)
٣٤ ـ « إن الله عز وجل خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه ... » .	أبو هريرة وعمر ابن الخطاب	١٢	١ـ٤	(١)، (٢)
٣٥ ـ « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ... » ـ وانظر رقم ٨٨ .	عقبة بن عامر	٢٠	١٢ـ١٣	(١)
٣٦ ـ « إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ... »	أنس وجابر	٢٤١ـ٢٤٢	١٩ـ٢	(١)
٣٧ ـ « إن تغفر اللهم تغفر جما ... » .	ابن عباس	٢٢٦	٤ـ٦	(٢)
٣٨ ـ « إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى ... » .	أبو هريرة	١٧٩	١٢ـ١٣	(٢)

الحـــــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
٣٩ ـ « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ... » .	جابر	١٤٧	٢٩ـ٣١	(٢)
٤٠ ـ « إن هذا الدبن متين فأوغلوا فيه برفق » .	أنس	١٤٧	٢٨، ٢٩	(٢)
٤١ ـ « .. إن يطع القوم أبا بكر وعمر يرشدوا » .	أبو قتادة	٢٦٦ـ٢٦٧	١٣ـ١	(١)
٤٢ ـ «..إنك تأتى قوماً أهل كتاب...».	ابن عباس	١٥	٧ـ١١	(٢)
٤٣ ـ « إنكم لن تبلغوا نفعى . . . » ـ حديث قدسى أوله : « ياعبادى إنى حرمت الظلم .. » ولفظ الحديث هنا : « ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى ... الخ ». وانظر الحديث رقم ٧٨ .	أبو ذر	١٤٨	٩ـ١٠	(١)
٤٤ ـ « إنما الطاعة فى المعروف » وأوله : « لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا ، إنما الطاعة . . » .	على	٢٧٤	٤ـ٧	(٣)
٤٥ ـ « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد » . ولفظ الحديث فى البخارى : « أنا أولى الناس بعيسى .. الخ » .	أبو هريرة	٢٨٣	٢	(١)
٤٦ ـ « .. إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله ... » .	الأغرّ المزنى	٢٢٤	١ـ٢	(٢)
		٢٧٨	١٠ـ١١	(٦)
٤٧ ـ « إنى أعلمكم بالله وأشدكم خشية له .. » وأوله : واللفظ للبخارى ـ «مابال	عائشة	١١٥	١٤ـ١٥	(٢)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه فوالله إنى لأعلمهم ... » .				
٤٨ ـ « إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ ... » .	جابر بن سمرة	٤٢	١٥ـ١٧	(٢)
٤٩ ـ « أول ما خلق الله العقل . . . » ـ حديث موضوع .		١٦٨	٤ـ١١	(١)
(ب)				
٥٠ ـ «بسم الله» ـ وأوله عن على أنه أتى بدابة ليركبها ... قال «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت ... » .	على	٢٧٩	٤ـ١١	(٢)
٥١ ـ « بلى » أول الحديث رقم ١١ . . . أعوذ بكلمات الله ...	مرسل عن يحيى ابن سعيد	١٠	١ـ٢	(١)
(ت)				
٥٢ ـ التعوذ من شر فتنة المسيح الدجال بعد التشهد الأخير .	جماعة من الصحابة	١٩٧	٨ـ٩	(٣)
(ح)				
٥٣ ـ « الحمد لله نستعينه و نستغفره . . » ـ من خطبة الحاجة .	ابن مسعود	١١٧	٣	(٣)
٥٤ ـ حديث حنين الجذع : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه » .	ابن عمر	٤٢	١٧	(٣)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
(خ)				
٥٥ ـ « خصلتان يسأل عنهما كل أحد ... أوله : قال أبو العالية : «قوله:(فوربك لنسألنهم أجمعين ...) .. الخ » ـ أثر بمعنى حديث مروى عن أنس .	أثر عن أبى العالية	٢٤	٩-١٢	(١)
٥٦ ـ « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكا » .	سفينة	٢٦٧	٤	(٤)
٥٧ ـ « خير أمتى بعدى أبو بكر وعمر » .	على والزبير	٢٦٢	١٦-١٩	(١)
٥٨ ـ « خير القرون القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ... » .	جماعة من الصحابة	٢٥٣	٤-٥	(٢)
٥٩ ـ « والخير كله فى يديك والشر ليس إليك » من حديث دعاء الاستفتاح وأوله : « وجهت وجهى للذى فطر السماوات ... ». وانظر رقم ١٨ ، ١١٨.	على	١٢٦	١٦-١٧	(٢)
(د)				
٦٠ ـ الدجال الكبير ـ بعض أخباره . وانظر رقم : ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .	جماعة من الصحابة	١٩٧-١٩٨	١٧(ص١٩٧)ـ٨(ص١٩٨)	(١،٢)
(ر)				
٦١ ـ « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها» انظر الحديث رقم ٧٢.	ابن عباس	٣٣ــ٣٤	١٦ ـ ١	(١)
٦٢ ـ « رب اغفرلى وتب علىَّ إنك أنت التواب الغفور » .	ابن عمر	٢٢٦	٧-٩	(٣)
		٢٧٨	١١-١٣	(٧)

الحـــــديث	الصحابي الراوى	ص	س	ت
٦٣ ـ قوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال تعالى : قدفعلت»	أبو هريرة وابن عباس	٢٣٩	١٣ـ١٤	(١)
٦٤ ـ « ربنا ولك الحمد ملء السماوات » ـ الحديث فيما يقال بعد رفع الرأس من الركوع .	جماعة من الصحابة	١١٧	٤ـ٩	(٥)
(ز)				
٦٥ ـ حديث زريب بن برثملى وهامة ابن الهيم ـ حديث موضوع .	نسب إلى ابن عمر	١٢ــ١٣	٧ــ٢	(١)
(س)				
٦٦ ـ « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلى » ـ كان صلى الله عليه وسلم يقولها فى ركوعه وسجوده يتأول القرآن .	عائشة	٣٢ــ٣٣ ٢٧٨	١٦ــ١ ٢ ـ ٤	(١) (٢)
٦٧ ـ سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت . . . » ـ الحديث فى كفارة المجلس .	جماعة من الصحابة	١١٨	٢ ـ ٣	(١)
٦٨ ـ « سجدها داود توبة ونحن نسجدها شكراً » ـ السجود فى آية ٢٤ من صورة صٓ ، وانظر الحديث رقم ١١٥ .	ابن عباس	٣٣	١٣ــ١٥	(٤)
٦٩ ـ سجود الآيات ـ وفيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتم آية فاسجدوا . . » الخ .	ابن عباس	٣٦	١٠	(١)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	ص	ت
٧٠ ـ « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت . . . أبوءلك بنعمتك على وأبوء بذنبى » ـ وانظر الحديث رقم ٣.	شدّاد بن أوس	١١٧	١	(١)
(ش)				
٧١ ـ حديث الشفاعة .	جماعة من الصحابة	١٥٠	٧ـ٩	(٢)
(ص)				
٧٢ ـ « صٓ ليس من عزائم السجود وقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يسجد فيها » ـ وانظر الحديث رقم ٦١ .	ابن عباس	٣٣ـ٣٤	١٦ـ١	(١)
٧٣ ـ أحاديث صفة الدجال الكبير : أنه أعور ، وأنه مكتوب بين عينيه كافر ... الخ ـ وانظر الحديث رقم ٦٠ .	أنس	١٩٨	٥ـ٧	(٣)
٧٤ ـ صلّوا كما رأيتمونى أصلى » . وأوله : حدثنا مالك : أتينا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون... الخ .	مالك بن الحويرث	٨١	١١ـ١٣	(٤)
(ط)				
٧٥ ـ « طول القنوت » ـ وأوله : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الصلاة أفضل ؟ فقال : طول القنوت » .	جابر	٥	٧ـ٨	(١)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
(ع)				
٧٦ ـ « على المرء المسلم السمع والطاعة . . . »	ابن عمر	٢٧٤	٥—٧	(٣)
٧٧ ـ « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . . . »	العرباض بن سارية	٢٦٧	٢—٣	(٣)
(ف)				
٧٨ ـ « . . فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غيرذلك . . . » ـ جزء من الحديث القدسى فى تحريم الظلم ، وأوله : « ياعبادى إنى حرمت ... » وانظر الحديث رقم ٤٣ .	أبو ذر	١١٧	١—٣	(٢)
(ق)				
٧٩ ـ « قال الله لهم : ادخلوا الباب سجداً . . . » .	أبوهريرة	٣٠	٣—٥	(١)
٨٠ ـ « قالوا : هطى سمقاثا . . . » ـ أثر موافق لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .	ابن مسعود	٣٠—٣١	١٢—٣	(١)
٨١ ـ «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين . . . »	أبو هريرة	٢٧٢	٦—١٢	(٢)

الحـــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
(ك)				
٨٢ ـ كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى على راحلته قِبَلَ أى وجه توجهت به ويوتر عليها ، غير أنه لا يصلى عليها المكتوبة.	جماعة من الصحابة	٣٥	١ ـ ٣	(١)
٨٣ ـ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال : اللهم أنت السلام .. الخ .	ثوبان	٢٥٨	١ ـ ٢	(١)
٨٤ ـ كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا فى نواحيها . . . فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال : السلام عليك يارسول الله .	على بن أبى طالب	٤٢ ـ ٤٣	١٧ ـ ٣	(٢)
٨٥ ـ « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » (وبنفس المعنى استحباب ابتداء كل خطبة بحمد الله) .	أبو هريرة	١٠٨	٣ ـ ٤	(١)
٨٦ ـ « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .	أنس	٢٢٥	١٠ ـ ١١	(٥)
		٢٥٨	١٥ ـ ١٦	(٢)
٨٧ ـ « كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة »	أبو سعيد الخدرى	٧	١٢ ـ ١٣	(١)
		٩	٩ ـ ١٠	
٨٨ ـ « كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل . . . » وانظر الحديث رقم ٣٥ .	عقبة بن عامر	٢٠	١٢ ـ ١٣	(١)
٨٩ ـ « كل معروف صدقة » .	جابر	٨٣	٧ ـ ٨	(٣)

الحـــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
٩٠ ـ « كل مولود يولد على الفطرة ...»	جماعة من الصحابة	١١	١٣	(٣)
		٢٤٤	١ ـ ٤	(١)
(ل)				
٩١ ـ « لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . . » ـ وأوله : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة . . . » الخ .	ابن عمر	٢٧٨ـ٢٧٩	١٤ ـ ٣	(١)
٩٢ ـ « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .	أبو ذر	٨٣ ـ ٨٤	١٥ ـ ١	(١)
٩٣ ـ « لا تسبوا أصحابى. . . »	أبو سعيد الخدرى وأبو هريرة	٢٥٣	٢ ـ ٤	(١)
٩٤ ـ « لا تقوم الساعة حتى يكون فيكم ثلاثون دجالون . . . » ـ وانظر الحديث رقم ٢٧ .	أبو هريرة وابن عمر وثوبان	١٩٧	٥ ـ ٦	(١)
٩٥ ـ « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »	النواس بن سمعان	٢٧٤	٥	(٢)
٩٦ ـ « لا هجرة بعد الفتح . . . »	ابن عباس وعائشة	٢٥٤	٢ ـ ٤	(١)
٩٧ ـ « لا يابنت الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلى . . . » وهو إجابة عن معنى الآية رقم ٦٠ من سورة « المؤمنون » .	عائشة	٢٥٧	١ ـ ٤	(١)
٩٨ ـ « لتركبن سنن من كان قبلكم . . » . لفظ البخارى ومسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم . . . » .	جماعة من الصحابة	٢٧١	١٢ ـ ١٤	(١)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
٩٩ ـ « لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود » ـ ولفظ البخارى : « يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً . . . »	أبو موسى الأشعرى	٢١٣	١٣ ـ ١٤	(٢)
١٠٠ ـ « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » ـ وأوله : « قدم على النبى صلى الله عليه وسلم سبى . . » وفيه : « أترون هذه طارحة ولدها فى النار . . . الخ »	عمر بن الخطاب	١٢٧	١ ـ ٣	(١)
١٠١ ـ « لله أشد فرحا بتوبة عبده حين	جماعة من الصحابة	٢٢٤ ـ ٢٢٥	٥ ـ ٩	
يتوب إليه . . »			١ ـ ٢	(١)
١٠٢ ـ « لله أفرح بتوبة أحدكم من رجل	جماعة من الصحابة	٢٢٥	٣ ـ ١٠	(٢)
خرج . . . » ـ متواتر روى بمعناه هو				(٣)
والحديث السابق عن عدد من الصحابة				(٤)
١٠٣ ـ «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله..» ـ	عائشة وأبو هريرة	١٤٥	٥ ـ ٦	
أوله : سددوا وقاربوا وأبشروا . . .	وجابر	١٤٦ ـ ١٤٧	١٤ ـ ٢	(١، ٢)
١٠٤ ـ « لو اتفقتما على شىء لم أخالفكما » .		٢٦٧	١	(٢)
(م)				
١٠٥ ـ « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان . . . » .	عدى بن حاتم	٨٣	١٠ ـ ١٤	(٤)
١٠٦ ـ « ما منكم من أحد إلا وقد علم	على بن أبى طالب	٩٣	٤ ـ ٩	(١)
مقعده من الجنة والنار . . » وفى رواية : « . . . إلا وقد كتب . . . » .		١٤٦	٣ ـ ٧	(١)

الحـــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
١٠٧ ـ « من بدّل دينه فاقتلوه » .	ابن عباس	٢٦١	٢ ـ ٥	(٢)
١٠٨ ـ « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » .	أبو هريرة	٢٢٤	٥ ـ ٦	(٥)
١٠٩ ـ « من تكفل لى بما بين لحييه وما بين رجليه . . . » ـ وفى رواية : « من يضمن لى . . . » وفى أخرى : « من توكل لى . . . » .	جماعة من الصحابة	٢٣٠	١١ ـ ١٣	(١)
١١٠ ـ « من خير الناس بعد رسول الله ... » ـ خبر روى موقوفا ومرفوعا .	على بن أبى طالب	٢٦١	٧ ـ ١١	(٤)
١١١ ـ « من قال إذا أصبح : اللهم ما أصبح بى من نعمة . . . » .	عبد الله بن غنام	١٠٧	١٥ ـ ١٩	(٢)
١١٢ ـ « من قال حين يصبح : الحمد لله ربى لا أشرك به شيئا . . . » .	أبان المحاربى	١٠٨	٧ ـ ١٠	(٤)
١١٣ ـ « من نوقش الحساب عذب ... »	عائشة	١٥٠	٣ ـ ٦	(١)
١١٤ ـ « منك وإليك » ـ أوله : كان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح أضحيته قال : ... » الخ ـ وفى رواية : اللهم منك ولك عن محمد وأمته » .	جابر	٨٢	١٤ ـ ١٥	(٥)
(ن)				
١١٥ ـ « نبيكم ممن أمر أن يقتدى به ، سجدها داود فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » ـ وانظر الحديث رقم ٦٨ .	ابن عباس	٣٣	١٥ ـ ١٦	(٥)

الحــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
(هـ)				
١١٦ ـ « هذا رجل لا يحب الباطل » ـ وأوله : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت . . . » .	الأسود بن سريع	٢٠	١٦ ـ ١٨	(٢)
١١٧ ـ « هى من قدر الله » ـ وفيه : « يارسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها . . . هل ترد من قدر الله شيئاً . . » .	أبو خزامة	٩٣	١٥ ـ ١٦	(٣)
(و)				
١١٨ ـ « وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض . . . » ـ الحديث فى دعاء الاستفتاح ـ وانظر الحديث رقم ١٨ والحديث رقم ٥٩ .	على بن أبى طالب	١٢٦	١٦ ـ ١٧	(٢)
١١٩ ـ « يا أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة . . . » وأوله : كشف النبي صلى الله عليه وسلم الستارة . . . الخ .	ابن عباس	٣٣	٣ ـ ٨	(٣)
١٢٠ ـ « يا أبا ذر تدرى أين تذهب الشمس ؟ . . . » .	أبو ذر	٣٦	١٢ ـ ١٦	(٢)
١٢١ ـ « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » . وفى رواية « . . إلى ربكم . . » .	ابن عمر	٢٢٣ـ٢٢٤	١٨ ـ ١	(١)
		٢٧٨	٩ ـ ١٠	(١)

الحـــــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
١٢٢ ـ « يابغايا العرب ، يابغايا العرب ، إن أخوف ما أخاف عليكم الزنا والشهوة الخفية » وفى لفظ : الرياء .	عبد الله بن زيد وبمعناه عن شداد ابن أوس	٢٣٢ ـ ٢٣٣	١٤ ـ ٣	(١)
١٢٣ ـ « ياسلمان لا تبغضنى فتفارق دينك . . . » .	سلمان	٢٨٧	١٠ ـ ١٢	(٣)
١٢٤ ـ « يامالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين » وأوله : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة . . . » .	أبو طلحة	٨٢	١٠ ـ ١١	(٤)
١٢٥ ـ « يامعشر العرب لتفضيل رسول الله إياكم . . . » .	سلمان	٢٨٨	٥ ـ ٧	(٢) (٣) (٤)
١٢٦ ـ يأمر (الدجال) السماء فتمطر والأرض فتنبت ـ الحديث فى صفة الدجال وأوله : « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة » وانظر الحديث رقم ٥٩ .	النواس بن سمعان	١٩٧ـ١٩٨	٩ ـ ١	(١)
١٢٧ ـ « . . . يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم . . . » حديث الخوارج وأوله : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما . . . » .	أبو سعيد الخدرى	٢٣١	١٢ ـ ١٦	(١)
١٢٨ ـ يقتل الدجال رجلا مؤمنا ثم يقول: قم ـ الحديث فى صفة الدجال وأوله : «حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما . . . » وانظر الحديث رقم ٥٩ .	أبو سعيد الخدرى	١٩٨	١ ـ ٤	(٢)

الحــــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
١٢٩ ـ يقتل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام الدجال ـ خبر مروى فى أكثر من حديث ، وانظر الحديث رقم ٥٩ .	جماعة من الصحابة	١٩٧	٧	(٢)
١٣٠ ـ « يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان » ـ جزء من حديث الخوارج السابق ، وانظر رقم ١٢٧ .	أبو سعيد الخدرى	٢٣٢	٢ ـ ٤	(١)
١٣١ ـ « يكون فى آخر الزمان دجالون كذابون يحدثونكم . . . »	أبو هريرة	١٩٨-١٩٩	١٠ ـ ١	(١)

فهرس الشعر واللغة

(ا) الشعر

صدر البيت	عجزه	بحره	عدد الأبيات	قائله	ص	س	ت
أتهجوه	الفداء	وافر	١	حسّان بن ثابت	١٣٣	٧	(١)
وصاحب	أجرُ	طويل	١	—	١٢٤	١٢	(٢)
إذا	أعتذرُ	بسيط	١	البحترى	٢٥٦	١٥، ١٦	(١)
بجيشٍ	للحوافرِ	طويل	١	زيد الخيل	٣٨	١٣	(٢)
					٤١	١٩	
					٤٤	٢٢	
وكلتاهما	تحنّفِ	طويل	١	أبو الأخرز الحمانى	٣٩	٧	(٤)
من	مختالا	بسيط	١	الأخطل	٧٦	٢	(٢)
مقام	الولِى	متقارب	١	ابن عربى	٢٠٩	١٠	(١)
ما	ذمٍّ	منسرح	٢		١٠٥	١٠، ١١	(٤)
إن	ألمّا	رجز	٢		٢٢٦	٦	(٢)
وكل	ونظامُهُ	طويل	١	ابن عربى	١٥٧	١٧	(١)

(ب) اللغـــة



فهرس الأعلام*

(*) الأرقام التى بين الأقواس تشير إلى الصفحات التى ترجمت فيها للأعلام .

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ن)

(هـ)

(و)

فهرس القبائل والفرق والطوائف

(ب)

(ت)

(ث)

(ش)

(ص)

(ض)

(ظ)

(ع)

(ن)

(ى)

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس المصطلحات والبحوث الفرعية(*)

(ا)

(ت)

---

* هذا الفهرس يتضمن بعض المصطلحات والبحوث التى لم يشر إليها فى فهرس الموضوعات .

الصفحة

(ح)

(ص)

(ع)

(ق)

فهرس الكتب

فهرس مراجع التحقيق

(أ)

الإبانة عن أصول الديانة ، لأبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ، ط. المنيرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

ابن حنبل ، للشيخ محمد أبى زهرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٣٦٧/١٩٤٧ .

الإحكام فى أصول الأحكام ، لسيف الدين على بن أبى على بن محمد الآمدى ، ط. المعارف ، القاهرة ، ١٣٣٢/١٩١٤ .

إحياء علوم الدين ، لأبى حامد الغزالى ، ط . لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٦ — ١٣٥٧ .

أخبار الحكماء = تاريخ الحكماء .

أخبار الحلاج ، لعلى بن أنجب الساعى ، تحقيق ماسينيون وكراوس ، باريس ، ١٩٣٦ .

الأخلاق عند الغزالى ، د . زكى مبارك ، ط . دار الكتاب العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ، لمحيي الدين أبى زكريا يحيي بن شرف النووى ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٧١/١٩٥٢ .

الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد ، لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجوينى ، تحقيق د . محمد يوسف موسى والأستاذ على عبد المنعم عبد الحميد ، ط . الخانجى ، القاهرة ، ١٣٦٩/ ١٩٥٠ .

الاستيعاب فى أسماء الأصحاب ، لأبى عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمرى القرطبى ، بذيل الإصابة لابن حجر ، ط . المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٣٥٨/١٩٣٩ .

الإشارات والتنبيهات ، لأبى على الحسين بن عبدالله بن سينا ، تحقيق د . سليمان دنيا ، ط . المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٧ – ١٩٦٠ .

الإصابة فى تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلانى ، ط . التجارية ، القاهرة ، ١٣٥٨/١٩٣٩ .

أصول الدين ، لعبد القاهر بن طاهر البغدادى ، استانبول ، ١٣٤٦/١٩٢٨ .

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، لفخر الدين الرازى ، تحقيق د. على سامى النشار ، ط . النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٣٥٦/١٩٣٨ .

الأعلام ، لخير الدين الزركلى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٧٣ - ١٣٧٨/١٩٥٤ — ١٩٥٩ .

إعلام الموقعين عن رب العالمين ، لأبى عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية ، ط . المنيرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، لابن تيمية ، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٦٩/١٩٥٠ .

أقسام العلوم العقلية ، لابن سينا ، ضمن تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ، ط . أمين هندية ، القاهرة ، ١٣٦٦/١٩٠٨ .

إنباه الرواة على أنباه النحاة ، لأبى الحسن على بن يوسف القفطى ، تحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل إبراهيم ، ط . دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٦٩/١٩٥٠ .

(ب)

البدء والتاريخ ، لمطهر بن طاهر المقدسى ، ط . باريس ، ١٨٩٩ — ١٩١٩ .

البداية والنهاية فى التاريخ ، لإسماعيل بن عمر بن كثير ، ط . السعادة ، القاهرة ، ١٣٥١/١٩٣٢ .

البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة ، لعبد الفتاح القاضى ، ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٧٥/١٩٥٥ .

البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانات والسحر والنارنجات ، للباقلانى ، ط . بيروت ، ١٩٥٨ .

(ت)

تاريخ ابن الوردى ، لعمر بن الوردى ، القاهرة ، ١٢٨٥ .

تاريخ الأدب العربى ، لكارل بروكلمان ، ترجمة د . عبد الحليم النجار ، ط . المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

تاريخ بغداد ، للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى ، القاهرة ، ١٣٤٩ / ١٩٣١ .

تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء لعلى ابن يوسف القفطى) ، ط . ليبزج ، ألمانيا ، ١٩٠٣ .

تاريخ حكماء الإسلام ، لظهير الدين على بن زيد البيهقى ، تحقيق الأستاذ محمد كرد على . ط . المجمع العلمى العربى ، دمشق ، ١٣٦٥/١٩٤٦ .

التاريخ الكبير ، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ، ط . حيدر آباد ، ١٣٦١ .

تأويل مشكل القرآن ، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٧٣/١٩٥٤ .

التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، لأبى المظفر الإسفرايينى ، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، القاهرة ١٣٥٩/١٩٤٠ .

تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ، لعلى بن الحسن ابن عساكر ، ط . القدسى ، دمشق ، ١٣٤٧ .

تجريد التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد ، لأبى عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمرى القرطبى ، ط . القدسى ، القاهرة ، ١٣٥٠ .

تذكرة الحفاظ ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ، الطبعة الثالثة ، حيدر آباد ، ١٣٧٥/١٩٥٥ .

تذكرة الموضوعات ، لمحمد طاهر بن على الفتنى ، ط . المنيرية ، القاهرة ، ١٣٤٣ .

ترتيب مسند الطيالسى (منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود) ، للأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا ، القاهرة ، ١٣٧٢ .

الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، لعبد العظيم بن عبد القوى المنذرى ، تحقيق مصطفى محمد عمارة ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٣٣/١٣٥٢.

التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ، للدكتور أبى العلا عفيفى ، ط . المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ .

التعرف لمذهب أهل التصوف ، لأبى بكر محمد الكلاباذى ، تحقيق د . عبد الحليم محمود ، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦٠/١٣٨٠ .

التعريفات ، لعلى بن محمد الجرجانى (مع رسالة اصطلاحات الصوفية لابن عربى)، ط . مصطفى الحلبى ، ١٩٣٨/١٣٥٧ .

تفسير البغوى (معالم التنزيل) بذيل تفسير ابن كثير ، ط . المنار ، القاهرة .

تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل آى القرآن) لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ، ط . المعارف ، القاهرة .

تفسير الطبرى ، ط . بولاق ، القاهرة ، ١٣٢٣ .

تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ، ط . عيسى الحلبى ، ١٩٥٨/١٣٧٨ .

تفسير القرآن العظيم ، لأبى الفداء إسماعيل بن كثير ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٤٨/١٣٦٧ .

تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، ط . دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٥٢/١٣٧٢ .

تقريب التهذيب ، لأحمد بن على بن حجر العسقلانى ، تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، ط . دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٠/١٣٨٠ .

تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث ، لابن الديبع الشيبانى ، ط . محمد صبيح ، القاهرة ، ١٣٤٧ .

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، لأبى الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى ، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، ط . عزت العطار ، القاهرة ، ١٩٤٩/١٣٦٨ .

تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ، لأبى الحسن على بن محمد بن عراق الكنانى ، تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، مكتبة القاهرة ، القاهرة ، ١٣٧٨ .

تهذيب الأسماء واللغات ، لأبى زكريا محي الدين بن شرف النووى ، ط . المنيرية ، بدون تاريخ .

تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلانى ، ط . حيدر آباد ، ١٣٢٥–١٣٢٧ .

التوحيد وإثبات صفات الرب، لأبى بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، ط. المنيرية ، القاهرة ، ١٣٥٣ .

تيسير الوصول إلى جامع الأصول ، لعبد الرحمن بن على بن الديبع الشيبانى ، ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٥٣/١٩٣٤ .

(ج)

جامع الأصول من أحاديث الرسول ، لأبى السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزرى، تصحيح الشيخ محمد حامد الفقى ،ط. السنة المحمدية ، القاهرة ،١٣٦٨/١٩٤٩.

الجامع الصحيح، لمسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى، استانبول ، ١٣٢٩–١٣٣٣.

الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ، لعبدالرحمن بن أبى بكر السيوطى ، ط. مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٥٨/١٩٣٩ .

الجبال والأمكنة والمياه ، للزمخشرى ، ط . النجف ، ١٣٨١/١٩٦٢ .

الجرح والتعديل ، لأبى محمد عبد الرحمن ن أبى حاتم محمد بن إدريس الرازى ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد ، ١٣٧١/١٩٥٢ .

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية ، ط . المدنى ، القاهرة ، ١٣٧٩/١٩٥٩ .

(ح)

الحلاج شهيد التصوف الإسلامى ، للأستاذ طه عبد الباقى سرور ، ط . المكتبة العلمية ، القاهرة ، ١٩٦١ .

الحور العين ، لأبى سعيد نشوان الحميرى ، تحقيق الأستاذ كمال مصطفى ، ط . الخانجى والمثنى ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

(خ)

الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) لتقى الدين أحمد بن على المقريزى ، ط . الأميرية ببولاق ، القاهرة ، ١٢٧٠ .

خلاصة تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، لأحمد بن عبدالله الخزرجى الأنصارى ، ط . الخيرية ، القاهرة ، ١٣٢٢ .

(د)

دائرة المعارف الإسلامية .

الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، لجلال الدين السيوطى ، ط . طهران ، ١٣٧٧ .

دول الإسلام فى التاريخ ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الذهبى ، الطبعة الثانية ، حيدر آباد ، ١٣٦٤ .

الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، لإبراهيم بن على بن محمد بن فرحون المالكى ، ط . مطبعة المعاهد ، القاهرة ، ١٣٥١ .

(ذ)

ذخائر المواريث فى الدلالة على مواضع الحديث ، لعبد الغنى النابلسى ، ط . جمعية النشر والتأليف الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٥٢/١٩٣٤ .

الذيل على طبقات الحنابلة ، لابن رجب الحنبلى ، تحقيق محمد حامد الفقى ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٧٢/١٩٥٢ .

(ر)

رجال الطوسى ، لأبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى ، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم ، ط . الحيدرية ، النجف ، ١٣٨١/١٩٦١ .

الرد على الجهمية ، لأبى سعيد عثمان بن سعيد الدارمى ، تحقيق جوستا ويتستام ، ط . ليدن ، هولندا ، ١٩٦٠ .

الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله ، لأحمد بن حنبل ، تحقيق محمد حامد الفقى ، نشرت فى مجموعة شذرات

البلاتين من طيبات كلمات سلفنا الصالحين ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٦/١٣٧٥ .

الرد على المنطقيين ، لابن تيمية ، تحقيق عبد الصمد شرف الدين ، ط. بومباى، الهند، ١٩٤٩/١٣٦٨ .

الرسالة العرشية ، لابن سينا ، ضمن مجموعة رسائل الشيخ الرئيس ، حيدر آباد ، ١٣٥٤ .

رسالة فى القوى الإنسانية وإدراكاتها ، لابن سينا ، ضمن تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ، الطبعة الأولى ، مطبعة هندية ، القاهرة ، ١٩٠٨/١٣٢٦ .

الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى، ط . محمد صبيح ، القاهرة ، ١٩٤٨/١٣٦٧ .

روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات، لميرزا محمد باقر الموسوى الخوانسارى، الطبعة الثانية (طبع حجر) ، طهران ، ١٣٦٧ .

الرياض النضرة فى مناقب العشرة ، لأبى جعفر أحمد المحب الطبرى، الطبعة الثانية ، نشر الخانجى ، ١٩٥٣/١٣٧٢ .

(س)

سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، ط . دمشق ، ١٩٥٩/١٣٧٩ .

سنن ابن ماجه ، لأبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ، ابن ماجه ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، ط . عيسى الحلبى ، ١٩٥٤/١٣٧٣ .

سنن أبى داود ، لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٣٦٩ - ١٣٧٠ / ١٩٥٠ - ١٩٥١ .

سنن الترمذى ، لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (بشرح ابن العربى) ، ط . المطبعة المصرية بالأزهر ، القاهرة ، ١٩٣١/١٣٥٠ .

سنن الدارمى ، لأبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمى ، ط . دمشق ، ١٣٤٩ .

سنن النسائى ، لأحمد بن شعيب بن على النسائى (بشرح السيوطى) ، ط . التجارية ، القاهرة ، ١٩٣٠/١٣٤٨ .

كتاب « السنة » ، لأحمد بن حنبل ، ط . السلفية ، مكة ، ١٣٤٩ .

(ش)

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلى ، ط . القدسى ، القاهرة ، ١٣٥٠ .

شرح نهج البلاغة ، لعبد الحميد بن أبى الحديد، تحقيق الأستاذ أبى الفضل إبراهيم، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

شرح النووى على صحيح مسلم ، ليحي بن شرف النووى ، ط . المطبعة المصرية بالأزهر ، القاهرة ، ١٩٢٩/١٣٤٧ .

الشريعة ، لأبى محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادى الآجرى ، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٠/١٣٦٩ .

الشفاء ، لابن سينا ، قسم النفس (من الطبيعيات) ، تحقيق يان باكوش ، ط . مطبعة المجمع العلمى التشكوسلوفاكى ، براغ ، ١٩٥٦ .

(ص)

صحيح ابن حبان ، لأبى حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمى ، الجزء الأول ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، ط . المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٢/١٣٧٢ .

صحيح البخارى ، لمحمد بن إسماعيل البخارى ، ط . المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٣١٤ .

(ط)

طبقات الأطباء = عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، لأحمد بن القاسم المعروف بابن أبى أصيبعة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٦/١٣٧٦ .

طبقات الحنابلة ، لابن أبى يعلى ، تحقيق محمد حامد الفقى ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين عبد الوهاب بن على السبكى ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ، ١٣٢٤ .

طبقات الصوفية ، لأبى عبد الرحمن السلمى ، تحقيق الأستاذ نور الدين شريبة ، القاهرة ، ١٩٥٣/١٣٧٢ .

الطبقات الكبرى ، لعبد الوهاب الشعرانى ، طبع مصر ، بدون تاريخ .

الطبقات الكبرى ، لمحمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى ، ط . بيروت ، ١٩٥٧/١٣٧٦ .

طبقات المفسرين ، لجلال الدين السيوطى ، ليدن ،هولندا ، ١٨٣٩ .

(ع)

عبد الله بن سبأ ، لمرتضى العسكرى ، الطبعة الثانية ، ط . دار الكتاب العربى، القاهرة ، ١٣٨١ .

العبر فى خبر من غبر ، للحافظ الذهبى ، ط . الكويت ، ١٩٦٠ .

العلل ومعرفة الرجال ، لأحمد بن حنبل ، ط . أنقره ، تركيا ، ١٩٦٣ .

عمل اليوم والليلة ، لابن السنى ، ط . حيدر آباد ، ١٣١٥ .

(غ)

الغزالى ، للدكتور أحمد فريد رفاعى ، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٣٧/١٣٥٦ .

(ف)

فتح البارى بشرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى ، ط . المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ، ١٣٠٠ .

الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (وهما لجلال الدين السيوطى) ، تأليف يوسف النبهانى ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٣٢/١٣٥١ .

الفتوحات المكية ، لمحى الدين محمد بن على بن عربى ، ط . دار الكتب العربية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٢٩ .

الفرق بين الفرق ، لابن طاهر البغدادى ، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، القاهرة ، ١٣٦٧/١٩٤٨ .

فرق الشيعة ، للحسن بن موسى النوبختى ، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم ، ط . المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٣٧٩/١٩٥٩ .

الفصل فى الملل والأهواء والنحل، لأبى محمد على بن حزم ، ط . المطبعة الأدبية، القاهرة ، ١٣١٧ - ١٣٢١ .

فصوص الحكم ، لابن عربى ، تحقيق الدكتور أبى العلا عفيفى ، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

فلسفة المعتزلة ، للدكتور ألبير نصرى نادر ، ط . الاسكندرية ، ١٩٥٠ .

الفهرست ، لابن النديم ، ط . التجارية ، القاهرة ، ١٣٤٨ .

فهرس الخزانة التيمورية ، ط . دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٦٩/١٩٥٠ .

فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبى، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ط . النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥١ .

الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ، لمحمد بن على الشوكانى ، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيي المعلمى اليمانى ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٨٠/١٩٦٠ .

(ق)

القرب فى محبة العرب ، لزين الدين العراقى ، ط . الاسكندرية ، ١٣٨١/١٩٦١ .

القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى ، لأبى حامد الغزالى ، ط . مكتبة الجندى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(ك)

الكافى ، لأبى جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكلينى ، تحقيق على أكبر الغفارى ، ط . مكتبة الصدوق ، طهران ، ١٣٧٧ - ١٣٨١ .

الكامل (تاريخ) ، لعلى بن محمد بن الأثير الجزرى ، ط . الحلبى ، القاهرة ، ١٣٠٣ .

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، لإسماعيل بن محمد العجلونى ، ط . القدسى ، القاهرة ، ١٣٥١ .

كنز العمال ، لعلى المتقى بن حسام الدين الهندى ، ط. حيدرآباد ، ١٣٨١/١٩٦٠.

الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية لعبد الرءوف المناوى ، القاهرة .

(ل)

اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ، لجلال الدين السيوطى ، ط . المكتبة الحسينية المصرية بالأزهر ، ١٣٥٢.

اللباب فى تهذيب الأنساب ، لعلى بن محمد بن الأثير ، ط . القدسى ، القاهرة ، ١٣٥٧ - ١٣٦٩ .

لسان العرب ، لابن منظور .

لسان الميزان ، لابن حجر العسقلانى ، ط. حيدرآباد ، ١٣٢٩ .

لطائف الأسرار ، لابن عربى ، تحقيق الأستاذين أحمد زكى عطيه وطه سرور ، ط . دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٣٨٠ / ١٩٦١ .

اللمع فى التصوف ، لأبى نصر السراج الطوسى ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

(م)

مجمع الزوائد ، لعلى بن أبى بكر الهيثمى ، ط . القدسى، القاهرة ، ١٣٥٢-١٣٥٣.

مختصر كتاب البلدان ، لابن الفقيه ، ط. ليدن ، ١٣٠٢ .

مجموعة الرسائل والمسائل ، لابن تيمية ، تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا ، ط المنار ، القاهرة ، ١٣٤١ .

مجموعة الرسائل المنيرية ، ط . المنيرية ، القاهرة ، ١٣٤٣ - ١٣٤٦ .

مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ، لابن تيمية ، ط . الرياض .

مجموعة الفتاوى الكبرى ، لابن تيمية ، ط . الكردى ، ١٣٢٩ .

المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ، لابن بدران ، ط . المنيرية ، القاهرة .

مرآة الجنان ، لليافعى ، ط . حيدرآباد ، ١٣٣٧ .

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، لعلى بن الحسين بن على المسعودى ، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثالثة ، ط. التجارية ، القاهرة ، ١٣٧٧/١٩٥٨.

المستدرك ، لأبى عبد الله محمد عبد الله ، الحاكم النيسابورى ، ط . حيدرآباد ، ١٣٣٤ - ١٣٤٢ .

المسند ، لأحمد بن حنبل ، ط . الحلبي ، القاهرة ، ١٣١٣ .

المسند ، لأحمد بن حنبل ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، ط. المعارف ، القاهرة ، ١٣٦٥ - ١٣٧٤ / ١٩٤٦ - ١٩٥٥ .

مشكاة المصابيح ، لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزى ، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، ط . دمشق ، ١٣٨٠ / ١٩٦١ .

المضنون به على غير أهله ، للغزالى _ انظر : القصور العوالى .

معانى القرآن ، للفراء ، ط . دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٧٤ / ١٩٥٥ .

المعتبر فى الحكمة ، لأبى البركات هبة الله بن ملكا ، ط. حيدرآباد ، ١٣٥٧ .

معجم البلدان ، لياقوت .

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، لعبد الله بن عبد العزيز البكرى ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، القاهرة ، ١٣٦٤ / ١٩٥٩ .

المعجم الوسيط ، ط . مجمع اللغة العربية .

مفتاح كنوز السنة ، وضع فنسنك ، ترجمة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى .

المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، لمحمد بن عبد الرحمن السخاوى ، تحقيق عبد الله محمد الصديق ، نشر الخانجى ، القاهرة ، ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، لأبى الحسن الأشعرى ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٣٦٩ / ١٩٥٠ .

الملل والنحل ، لمحمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى ، تحقيق الشيخ محمد ابن فتح الله بدران ، الطبعة الثانية ، نشر الأنجلو ، القاهرة ، ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

مناقب ابن عربى ، لابراهيم بن عبد الله القارىء ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، ط . بيروت ، ١٩٥٩ .

مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، لابن الجوزى ، ط. الخانجى، القاهرة ، ١٣٤٩ .

المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، لابن الجوزى ، ط. حيدرآباد ، ١٣٥٧ .

منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية ، لابن تيمية ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، ١٣٨٢ - ١٣٨٤ / ١٩٦٢ - ١٩٦٤ .

منهاج السنة ، لابن تيمية ، ط. بولاق ، القاهرة ، ١٣٢١ - ١٣٢٢ .

موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، لابن تيمية ، الجزء الرابع ، نسخة خطية بالمكتبة التيمورية (رقم ١٨٢ عقائد) .

الموضوعات ، لعلى القارى ، ط. استانبول ، بدون تاريخ .

الموطأ ، لمالك بن أنس ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، ط. عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٧٠ / ١٩٥١ .

المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل ، لابن المرتضى ، تحقيق توماس أرنولد ، ط. حيدر آباد ، ١٣١٦ .

ميزان الاعتدال ، للذهبى ، ط. مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٥ .

(ن)

النجاة ، لابن سينا ، ط . محيى الدين الكردى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٥٧ / ١٩٣٨ .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغرى بردى ، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، لأحمد بن محمد المقرى ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط. التجارية ، القاهرة ، ١٣٦٧ / ١٩٤٩ .

نكت الهميان فى نكت العميان ، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، تحقيق الأستاذ أحمد زكى ، مطبعة الجمالية ، القاهرة ، ١٣٢٩ / ١٩١١ .

نهاية الإقدام فى علم الكلام ، للشهرستانى ، تحقيق ألفرد جيوم ، لندن ، ١٩٣٤ .

النهاية فى غريب الحديث ، لمجد الدين المبارك بن محمد بن محمد ، ابن الأثير الجزرى ، ط. المطبعة العثمانية ، ١٣١١ .

نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ، للشوكانى ، ط. المنيرية ، القاهرة ، ١٣٤٤ .

(و)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان ، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٧ / ١٩٤٨ .

* * *

Tritton (A. S.) : Muslim Theology, Luzac, London, 1947,

فهرس التصويبات والاستدراكات

ص	س	الخطأ	الصواب
٢٣	السطر الأخير	فهو سبحانه يدعوهم إلى	فهو سبحانه
١٠٦	١٥	إضافة للهامش (١)	ولعل الصواب : الإلٰه
١١٥	٨	محجوب	محجوب (٢)
١١٥	١٨		أضف بعد تعليق رقم ١ تعليق (٢) (٢) لعل الصواب : محبوب
١١٨	١	بالتحميد	بالتحميد (١)
١١٨	٣	وأتوب إليك » (١)	وأتوب إليك » (٢)
١١٨	١٠	وسلم (٢)	وسلم (٣)
١١٨	١١		أضف تعليق رقم (١) بالتحميد : كذا ولعل الصواب بالتنزيه أو بالتسبيح .
١١٨		تعليق (١)	تعليق (٢)
١١٨		تعليق (٢)	تعليق (٣)
١٥٨	٧	يضاف	يضاف إليه
١٧٨	٢٢	وأبى داود	وأبو داود
١٨١	٢٨	وابنه الحسن	وابنه أبى الحسن
١٩٧	٢٢	الفتن ١٧٤/٨ – ١٧٥	الفتن ١٧٥/٨ – ١٧٦
٢٠٣	٩	وإسلامه ؟ وما يجب	وإسلامه ؟ أو هل يوجد فى القرآن أو السنة أو القياس دليل على إيمانه أو إسلامه ؟ وما يجب
٢٠٤	٢٠	(٢) فى الأصل : وأنها عبد بحق . وانظر	(٢) وانظر
٢٠٩	٧	ألا يصدق	ألا يصدقه
٢١١	٢٠	إضافة للهامش رقم (١)	وقد يكون الصواب : ما ذكره .
٢٣٣	١	يا نغايا العرب ! يا بغايا العرب !	ذكر لى الشيخ ناصر الدين الألبانى أن صوابه : « يا نعايا العرب ! ... » وقد أشار إلى ذلك ابن الأثير فى « النهاية » ، والزمخشرى فى « الفائق » وقال : والمعنى يا نعايا العر جئن فهذا وقتكن وزمانكن ، يريد أن العرب قد هلكت .
٢٣٣	٢٢	عبد الله زيد	عبد الله بن زيد
٢٣٩	٢٥	٢٠٥/٤	١٩٨/٤ ، ٢٠٥
٣٥٨	٧	١٣٦ – ١٣٧	١٧٠ – ١٧١

فهرس الموضوعات

الرسـائل

١٠ ـ رسالة فى الجواب عمَّن يقول إن صفات الرب تعالى نسب إضافات وغير ذلك ١٥٣-١٧٣

الفهارس ٢٩١ ــ ٣٨٨

للدكتور محمد رشاد سالم

المؤلفات

١ - المدخل إلى الثقافة الإسلامية الطبعة السادسة دار القلم الكويت ١٤٠٤/١٩٨٤

٢ - مقارنة بين الغزالى وابن تيمية دار القلم الكويت ١٣٩٥/١٩٧٥

فى مجال التحقيق

١ - منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية
الجزء الأول ، ط . دار العروبة ، القاهرة ١٣٨٢/١٩٦٢

٢ - الجزء الثانى ، ط . دار العروبة ، القاهرة ، ١٣٨٤/١٩٦٤

٣ - جامع الرسائل لابن تيمية المجموعة الأولى ، ط . المدنى ، ١٣٨٩/١٩٦٩

٤ - درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٩٠/١٩٧٠

٥ - كتاب الصفدية لابن تيمية ، الجزء الأول ، ط . حنيفة ، الرياض ، ١٩٣٦/١٩٧٦

٦ - درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١١ جزءاً ، ط . مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض ، السعودية ، ١٣٩٩/١٩٧٩ - ١٤٠٣/١٩٨٣

٧ - مسألة فيما إذا كان فى العبد محبة لابن تيمية ضمن كتاب « دراسات عربية وإسلامية » ط . المدنى ، القاهرة ١٤٠٣/١٩٨٢

٨ - الاستقامة لابن تيمية جزءان ؛ ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٤/١٩٨٣

٩ - جامع الرسائل لابن تيمية المجموعة الثانية ، ط . المدنى ، ١٤٠٥/١٩٨٤

تحت الطبع

١ - منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية ، ٩ أجزاء ، ط . مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، السعودية

٢ - كتاب الصفدية لابن تيمية ، الجزء الثانى ، ط . الرئاسة العامة للبحوث العلمية والافتاء والارشاد ، الرياض ، السعودية

الطَبعَة الثَانيَة
١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

مكتبة ابن تيمية
القسم الأول - المؤلفات
٦



لابن تيمية

أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم

المجموعة الثانية

تحقيق
الدكتور محمد رشاد سالم

الناشر
دار المدني
للنشر والتوزيع - جدة ت ٦٤٣٢٣٦٢

الرسالة الأولى

رسالة في الصفات الاختيارية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له . ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله وسلم تسليما] [1] .

/ [2] قال شيخ الإسلام أبو العباس تقى الدين بن تيمية ، قدَّس الله روحه ، ونوَّر ضريحه [2] . ظ ٧٢

فصل

فى الصفات الاختيارية : وهى الأمور التى يتصف بها الرب عز وجل [3] ، فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته : مثل كلامه ، وسمعه ، وبصره ، وإرادته ، ومحبته ، ورضاه ، ورحمته ، وغضبه ، وسخطه . ومثل خلقه وإحسانه ، وعدله . ومثل استوائه ، ومجيئه ، وإتيانه ، ونزوله ، ونحو ذلك من الصفات التى نطق بها الكتاب العزيز [4] ، والسنّة .

مقالة الجهمية والمعتزلة

فالجهمية [5] ، ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم ، يقولون : لا يقوم بذاته شئ من هذه الصفات ، ولا غيرها .

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة فى (ز) = مخطوطة ليبزيج .
(٢ - ٢) : ساقطة من (ز) .
(٣) عز وجل : ليست فى (ز) .
(٤) العزيز : ساقطة من (ز) .
(٥) سبق الكلام على جهم بن صفوان وفرقته الجهمية فيما مضى ١٦/١ (ت ١) .

مقالة الكلابية والسالمية

والكُلاَّبية [١] ، ومن وافقهم من السّالمية [٢] وغيرهم ، يقولون : تقوم [به] [٣] صفات بغير مشيئته وقدرته ، فأما ما يكون بمشيئته وقدرته ، فلا يكون إلا مخلوقا منفصلاً عنه [لا يقوم بذات الرب] [٤] .

مقالة السلف وأهل السنة

وأما السلف وأئمة السنّة والحديث فيقولون [٥] : إنه متصف [٦] بذلك ، كما نطق به الكتاب والسنة ، وهو قول كثير من أهل الكلام والفلسفة – أو أكثرهم – كما [قد] [٧] ذكرنا أقوالهم بألفاظها فى غير هذا الموضع .

صفة الكلام

ومثل هذا « الكلام » فإن السلف وأئمة السنّة والحديث يقولون : [إنه] [٨] يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكلامه ليس بمخلوق ، بل كلامه صفة له قائمة بذاته .

وممن ذكر أن ذلك قول أئمة السنّة : أبو عبد الله بن منده ، وأبو عبد الله ابن حامد ، وأبو بكر عبد العزيز ، وأبو إسماعيل الأنصارى وغيرهم . وكذلك ذكر أبو عمر بن عبد البر نظير هذا فى الاستواء .

وأئمة السنة : كعبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، والبخارى ، وعثمان ابن سعيد الدارمى ، ومن لا يُحصى من الأئمة – وذكره حرب بن إسماعيل الكرمانى ، عن سعيد بن منصور ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن إبراهيم ، وسائر

---

(١) سبق الكلام على الكُلاَّبية وابن كُلاَّب فيما مضى ١٥٩/١ (ت ٢) .

(٢) سبق الكلام على السالمية أتباع محمد بن أحمد بن سالم وابنه أحمد بن محمد بن سالم فيما مضى ١٨١/١ (ت ٤) .

(٣) به : ساقطة من (ك) = مخطوطة الكواكب الدرارى .

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٥) ك : يقولون . والمثبت من (ز) ، (ض) = طبعة فتاوى الرياض ٢١٧/٦ – ٢٦٧

(٦) ز : يتصف .

(٧) قد : زيادة فى (ز) .

(٨) إنه : زيادة فى (ز) .

أهل السنة والحديث – متفقون على أنه يتكلم بمشيئته ، وأنه لم يزل متكلما إذا شاء وكيف شاء .

وقد سمّى الله القرآن حديثا ، وقال [١] : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [سورة الزمر : ٢٣] ، وقال : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً ﴾ [سورة النساء : ٨٧] ، وقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢] .

وقال النبى ﷺ : « إن الله يُحْدِث من أمره ما يشاء » [٢] . وهذا مما احتج به البخارى فى صحيحه ، وفى غير صحيحه [٣] ، واحتج به [أيضا] [٤] غير البخارى كنعيم بن حماد ، وحمَّاد بن زيد .

ومن المشهور عن ا لسلف : أن القرآن العزيز [٥] : كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود .

مقالة الجهمية والمعتزلة فى صفة الكلام

وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون : ليس له كلام قائم بذاته ، بل كلامه مخلوق منفصل عنه [٦] . والمعتزلة يطلقون القول : بأنه يتكلم بمشيئته . ولكن [٧] مرادهم بذلك أنه يخلق كلاماً منفصلاً عنه .

---

(١) ض (فقط) : فقال .

(٢) ز : من شاء ، وهو تحريف .

(٣) الحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه مع اختلاف فى اللفظ فى : البخارى ١٥٢/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : كل يوم هو فى شأن) ؛ سنن النسائى ١٦/٣ – ١٧ (كتاب السهو ، باب الكلام فى الصلاة) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٠٠/٥ (رقم ٣٥٧٥) ، ٣٣٩/٥ – ٣٤٠ (رقم ٣٨٨٥) ، ٢١/٦ (رقم ٣٩٤٤) ، ٩١/٦ (رقم ٤١٤٥) . وتمام الحديث : – وإن مما أحدث أن لا تكلّموا فى الصلاة .

(٤) أيضا : زيادة فى (ز) .

(٥) العزيز : ساقطة من (ز) .

(٦) ك ، ض : كلامه منفصل عنه مخلوق عنه . والمثبت من (ز) .

(٧) ز : لكن .

مقالة الكلابية والسالمية فيها

والكُلاَّبية والسالمية يقولون : إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، بل كلامه قائم بذاته بدون قدرته ومشيئته ، مثل حياته . وهم يقولون : الكلام صفة ذاتٍ ، لا صفة فعلٍ [١] يتعلق بمشيئته وقدرته . وأولئك [٢] يقولون : هو صفة فعلٍ ، لكن الفعل عندهم هو المفعول المخلوق بمشيئته وقدرته .

وأما السلف وأئمة السنة ، وكثير من أهل الكلام : كالهشامية [٣] ، والكرَّامية [٤] ، وأصحاب أبى معاذ التُّوْمَنِى [٥] ، وزهير الأثرى [٦] ، وطوائف غير هؤلاء فيقولون [٧] : إنه صفة ذاتٍ وفعلٍ : هو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاما

---

(١) ز : ليس صفة فعل .

(٢) ك (فقط) : أولئك .

(٣) الهشامية هم أتباع هشام بن الحكم الرافضى من الإمامية ، وتنسب إليه وإلى هشام بن سالم الجواليقى أحيانا من الإمامية المشبهة . انظر عن هذه الفرقة : المقالات ١٠٢/١ - ١٠٥ ؛ الملل والنحل ١٦٤/١ - ١٦٦ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٢٣ - ٢٤ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٩ ، ٣٤ ، ٤١ - ٤٣ ، ٦٧ ، ١٣٩ ؛ تكملة الفهرست لابن النديم ، ص ٧ ؛ الفهرست (ط . فلوجل) ، ص ١٧٥ - ١٧٧ ؛ فهرست الطوسى ، ص ١٧٤ - ١٧٦ ؛ أخبار الرجال للكشى ، ص ١٦٥ - ١٨١ .

(٤) سبق الكلام عليهم وعلى ابن كرام فيما مضى ١٦١/١ (ت ١) .

(٥) أبو معاذ التومنى من أئمة المرجئة ، ورأس فرقة التومنية منها . لم أتمكن من معرفة تاريخ وفاته . انظر فى ترجمته ومذهبه : المقالات للأشعرى ٢٠٤/١ ، ٣٢٦ ، ٢٣٢/٢ ؛ الملل والنحل ١٢٨/١ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ؛ اللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير (ط . القدسى ، ١٣٥٧) ١٨٧/١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، مادة : تومن .

(٦) ك ، ض : وزهير اليامى ؛ ز : وزهير البابى . ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته ، وابن تيمية يقرن بينه وبين أبى معاذ التومنى . انظر مثلا : درء تعارض العقل والنقل ١٩/٢ ، ١٧٤ ، ٢٥٧ ، ٣٣٣ - ٣٣٤ . ولم أعرف من هو زهير الأثرى ، ولكن الأشعرى يتكلم على آرائه بالتفصيل فى المقالات ٣٢٦/١ . ونقل ابن تيمية فى درء ٣٣٢/٢ ، ٢٣٤ عن المقالات رأى كل من أبى معاذ التومنى وزهير الأثرى فى القرآن : « وذكر عن زهير الأثرى أنه كان يقول : إن الله ليس بجسم ولا محدود ... ويزعم أن القرآن كلام الله محدث غير مخلوق ... وكان أبو معاذ التومنى يوافق زهيرا فى أكثر قوله ويخالفه فى القرآن ، ويزعم أن كلام الله : حدث غير محدث ولا مخلوق ، وهو قائم بالله لا فى مكان » (انظر المقالات ٣٢٦/١ وانظر أيضا ٢٣٢/٢) .

(٧) ض (فقط) : يقولون .

قائما بذاته . وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم ، فكل حيّ [١] وُصف بالكلام : كالملائكة ، والبشر ، والجن وغيرهم : فكلامهم لابد أن يقوم / بأنفسهم ، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم .

ص ٧٣

والكلام صفة كمال ، لا صفة نقص ، ومن تكلم بمشيئته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته ، فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق ؟!

ولكن الجهمية والمعتزلة بنوا على أصلهم من أن الرب لا يقوم به صفة ، لأن ذلك – بزعمهم – يستلزم التجسيم والتشبيه الممتنع ، إذ الصفة عرض ، والعرض لا يقوم إلا بجسم .

والكُلاَّبية يقولون : هو متصف بالصفات التى ليس له عليها قدره ، ولا تكون بمشيئته . فأما ما يكون بمشيئته فإنه حادث ، والرب تعالى [٢] لا تقوم به الحوادث . ويترجمون [٣] الصفات الاختيارية بمسألة حلول الحوادث ؛ فإنه إذا كَلَّمَ موسى بن عمران بمشيئته وقدرته ، وناداه حين أتاه بقدرته ومشيئته ، كان ذلك النداء والكلام حادثا .

قالوا : فلو اتصف الرب [٤] به لقامت به الحوادث . قالوا : ولو قامت به الحوادث لم يخل منها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث . قالوا : ولأن كونه قابلا لتلك الصفة إن كان [٥] من لوازم ذاته كان قابلا لها فى الأزل ، فيلزم جواز وجودها فى الأزل ، والحوادث لا تكون فى الأزل ، فإن ذلك يقتضى وجود حوادث لا أول لها ، وذلك محال لوجوه قد ذكرت فى غير هذا الموضع .

---

(١) ز : وكل حيّ ؛ ض : فكل من . والمثبت من (ك) .

(٢) تعالى : ليست فى (ز) .

(٣) ك : ويزحمون ؛ ز : ويترحمون ؛ ض : ويسمون . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) الرب : ساقطة من (ز) .

(٥) إن كان : كذا فى (ك) ، (ز) . وفى (ض) : إن كانت .

قالوا : وبذلك استدللنا على حدوث الأجسام ، وبه عرفنا حدوث العالم ، وبذلك أثبتنا وجود الصانع وصدق رسله ، فلو قدحنا فى ذلك [1] لزم القدح فى أصول الإيمان والتوحيد .

وإن لم يكن من لوازم ذاته صار قابلا لها بعد أن لم يكن قابلا ، فيكون قابلا لتلك القابلية [2] ، فيلزم التسلسل الممتنع ، وقد بسطنا القول على عامة ما ذكروه فى هذا الباب وبيّنا فساده وتناقضه على وجهٍ لا تبقى فيه شبهة لمن فهم هذا الباب .

مقالة الرازى

وفضلاؤهم [3] المتأخرون ، كالرازى والآمدى والطوسى [4] والحلّى [5] وغيرهم ، معترفون بأنه ليس لهم حجة عقلية على نفى ذلك ، بل ذكر الرازى وأتباعه أن هذا القول يلزم جميع الطوائف ، ونصره فى آخر كتبه « كالمطالب العالية » – وهو من أكبر كتبه الكلامية [وخالف بذلك قوله فى أجل ما صنّفه فى

---

(١) ك ، ض : تلك . والمثبت من (ز) .

(٢) ك ، ض : لتلك الصفة . والمثبت من (ز) .

(٣) ك : وفضلاهم وهم ؛ ض : وفضلاؤهم وهم . والمثبت من (ز) .

(٤) يقصد ابن تيمية بالطوسى هنا نصير الدين الطوسى . وهو أبو جعفر – أو أبو عبد الله – محمد ابن محمد الحسن نصير الدين الطوسى ، ويعرف بالمحقق وبالخواجة . ولد بطوس سنة ٥٩٧ وتوفى ببغداد سنة ٦٧٢ . انظر ترجمته فى : روضات الجنات ، ص ٥٧٨ – ٥٨٣ ؛ فوات الوفيات ٢/٣٠٧ – ٣١٢ ؛ شذرات الذهب ٥/٣٣٩ – ٣٤٠ ؛ البداية والنهاية ١٣/٢٦٧ – ٢٦٨ ؛ تاريخ ابن الوردى ٢/٢٢٣ ؛ الأعلام للزركلى ٧/٢٥٧ – ٢٥٨ .

(٥) يقصد ابن تيمية بالحلى ابن المطهر الحلى . وهو جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف بن على بن المطهر الحلى ، المشهور عند الشيعة بالعلاّمة . ولد سنة ٦٤٨ وتوفى سنة ٧٢٦ . انظر ترجمته فى : روضات الجنات ، ص ١٧٢ ؛ تاريخ ابن الوردى ٢/٢٧٩ ؛ مرآة الجنان لليافعى ٤/٢٧٦ ؛ النجوم الزاهرة ٩/٢٦٧ ؛ البداية والنهاية ١٤/١٢٥ ؛ لسان الميزان ٢/٣١٧ – ٣١٨ ؛ الدرر الكامنة ٢/٧١ ؛ الأعلام للزركلى ٢/٢٤٤ . وانظر ما ذكرته عنه وعن نصير الدين الطوسى فى مقدمة الجزء الأول من كتاب « منهاج السنة » .

الكلام وهو كتابه] [١] الذى [٢] سماه « نهاية العقول فى دراية الأصول » ، ولما [٣] عرف فساد قول النفاة لم يعتمد على ذلك فى مسألة القرآن ، فإن عمدتهم فى مسألة القرآن إذا قالوا : لم يتكلم بمشيئته وقدرته ، قالوا : لأن ذلك يستلزم حلول الحوادث ، فلما عرف فساد هذا الأصل لم يعتمد على ذلك فى مسألة القرآن ، فإن عمدتهم عليه ، بل استدل بإجماع مركّب ، وهو دليل ضعيف إلى الغاية [٤] ، لكن [٥] لم يكن عنده فى نصر قول الكُلاَّبية غيره ، وهذا مما يبين أنه وأمثاله تبين لهم [٦] فساد قول الكلابية .

مقالة الآمدى

وكذلك الآمدى ذكر فى « أبكار الأفكار » ما يبطل قولهم ، وذكر أنه لا جواب عنه . وقد بسطت [٧] هذه الأمور فى مواضع [٨] ، وهذا معروف عند عامة العلماء [٩] ، حتى الحلّى بن المطهر ذكر فى كتبه أن القول بنفى حلول الحوادث لا دليل عليه ، فالمنازع جاهل بالعقل والشرع .

مقالة الجوينى

وكذلك من قبل هؤلاء ، كأبى المعالى وذويه ، إنما عمدتهم أن الكرَّامية [١٠] قالوا ذلك وتناقضوا ، فيبينون تناقض الكرَّامية ، ويظنون أنهم إذا بيَّنوا تناقض

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى كل النسخ وزدته ليستقيم الكلام ، لأن ابن تيمية تكلم أولا على « المطالب العالية » وهو الذى يذكر دائما أنه آخر ما ألفه الرازى وفيه رجع عن آرائه التى ذكرها فى كتبه السابقة وأهمها « نهاية العقول » . وانظر : « درء تعارض العقل والنقل » ٣٢٥/١ – ٣٢٧ ، ٣٧٩ ، ٣٢٤/٢ – ٣٢٧ .

(٢) ك (فقط) : التى ، وهو تحريف .

(٣) فى النسخ الثلاث : لما . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٤) ك : غاية .

(٥) ك ، ض : لأنه .

(٦) ك ، ض : له .

(٧) ك : كشفت .

(٨) انظر مثلا : درء تعارض العقل والنقل ٣١/٣ – ٦٧ .

(٩) ز : الفضلاء .

(١٠) انظر ما ذكرته عنهم من قبل ١٦١/١ .

الكرامية – وهم منازعوهم [١] – فقد فلجوا [٢] ، ولم يعلموا أن السلف وأئمة السنة / والحديث ، بل مَنْ قَبْل الكرَّامية من الطوائف ، لم يكن يلتفت [٣] إلى الكرَّامية وأمثالهم ، بل تكلموا بذلك قبل أن يُخلق [٤] الكرامية ، فإن ابن كرَّام كان متأخراً بعد أحمد بن حنبل ، فى زمن مسلم بن الحجاج وطبقته وأئمة السنة [٥] ، والمتكلمون تكلموا بهذه قبل هؤلاء ، ومازال السَّلف يقولون بموجب ذلك .

ظ ٧٣

لكن لما ظهرت الجهمية النفاة فى أوائل المائة الثانية [٦] ، بيّن علماء المسلمين ضلالهم وخطأهم ، ثم ظهرت محنة [٧] الجهمية فى أوائل المائة الثالثة ، وامتُحن العلماء : الإمام أحمد وغيره ، فجرّدوا الرد على الجهمية وكشف [٨] ضلالهم ، حتى جرَّد الإمام أحمد الآيات التى فى القرآن ، تدل على بطلان قولهم ، وهى كثيرة جداً ، بل الآيات التى تدل على الصفات الاختيارية التى يسمونها حلول الحوادث كثيرة جداً .

الآيات الدالة على صفة الكلام

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [سورة الأعراف : ١١] فهذا بيِّنٌ فى أنه إنما أمر الملائكة بالسجود بعد خلق آدم ، لم يأمرهم فى الأزل .

---

(١) ز : وهم ينازعونهم .

(٢) ك : فلحوا .

(٣) ض : لم تكن تلتفت ؛ ز : (غير منقوطة) . والمثبت من (ك) .

(٤) ض : تخلق ؛ ك ، ز (غير منقوطة) .

(٥) انظر ما سبق ١٦١/١ .

(٦) ض : الثالثة ، وهو خطأ .

(٧) ك : ثم ظهرت عنه ، ض : ثم ظهر رعنة . والمثبت من (ز) .

(٨) ك : وكيف ، وهو تحريف .

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٩] فإنما قال له [: « كن »] [1] بعد أن خلقه من تراب لا فى الأزل .

وكذلك قوله فى قصة موسى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [سورة النمل : ٨] وقال تعالى [2] : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِن شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة القصص : ٣٠] فهذا بيِّنٌ فى أنه إنما [3] ناداه حين جاء ، لم يكن النداء فى الأزل كما يقول الكلابية ، يقولون : إن النداء قائم بذات الله [4] فى الأزل ، وهو لازم لذاته لم يزل ولا يزال منادياً له ، لكنه لما أتى خلق فيه إدراكاً لما كان موجودا فى الأزل .

ثم من قال منهم : إن الكلام معنى واحد ، منهم من قال : سمع ذلك المعنى بأذنه ، كما يقوله [5] الأشعرى . ومنهم من يقول : بل أُفهم منه ما أُفهم ، كما يقوله القاضى أبو بكر وغيره [6] .

---

(١) كن : ساقطة من (ك) ، (ض) .

(٢) عبارة « وقال تعالى » : ساقطة من (ز) .

(٣) إنما : ساقطة من (ز) .

(٤) ز : الرب .

(٥) ك ، ض : يقول .

(٦) لم أجد للقاضى أبى بكر الباقلانى كلاما بهذا المعنى ، ولكن الشيخ محمد زاهد الكوثرى علق على كلامه فى كتابه « الإنصاف » ص ٨٤ (ت ١) فقال : « وفى شرح المقاصد : (اختصاص موسى عليه السلام بأنه كليم الله تعالى فيه أوجه ... وثالثها : أنه سمع من جهة لكن بصوت غير مكتسب للعباد على ما هو شأن سماعنا ، وحاصله أنه أكرم موسى عليه السلام فأفهمه كلامه بصوت تولى بخلقه من غير كسب لأحد من خلقه . وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدى وأبو إسحاق الإسفراييني » . وانظر : الإرشاد للجوينى ، ص ١٣٣ - ١٣٤ حيث يقول : « كلام الله تعالى مسموع فى إطلاق المسلمين ... ثم السماع لفظة محتملة لا يتحد معناها ، ولا ينفرد مقتضاها ، فقد يراد بها الإدراك ، وقد يراد بها الفهم =

فقيل لهم : عندكم هو معنى واحد لا يتبعّض ولا يتعدد ، فموسى فهم المعنى كله أو بعضه ؟ إن قلتم : كله ، فقد عَلِم عِلْمَ الله كله [١] ، وإن قلتم : بعضه ، فقد تبعّض ، وعندكم لا يتبعّض [٢] .

ومن قال من [٣] أتباع الكُلاَّبيه بأن النداء وغيره من الكلام القديم حروف ، أو حروف [٤] وأصوات لازمة لذات الرب ، كما يقوله [٥] السالمية ومن وافقهم ، يقولون : إنه خلق له إدراكاً لتلك الحروف والأصوات . والقرآن والسنة وكلام السلف قاطبة يقتضى أنه إنما ناداه وناجاه حين أتى ، لم يكن النداء موجوداً قبل ذلك ، فضلا عن أن يكون قديما أزلياً .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٢] [٦] ، وهذا يدل على أنه لما أكلا منها ناداهما ، لم ينادهما قبل ذلك .

= والإحاطة .... فإذا سمى كلام الله تعالى مسموعا فالمعنىّ به كونه مفهوما معلوما عن أصوات مدركة ومسموعة ، والشاهد لذلك من القضايا الشرعية إجماع الأمة على أن الرب تعالى خصص موسى وغيره من المصطفين من الإنس والملائكة بأن أسمعهم كلامه العزيز من غير واسطة . فلو كان السامع لقراءة القارئ مدركا لنفس كلام الله تعالى ، لما كان موسى صلوات الله عليه مخصصا بالتكليم ، وإدراك كلام الله من غير تبليغ مبلغ وإنهاء (لعلها : وإنباء) مرسل » .

(١) كله : ساقطة من (ز) .

(٢) ز : وعندكم لا بعض له .

(٣) من : ساقطة من (ز) .

(٤) أو حروف : ساقطة من (ز) .

(٥) ض : تقوله .

(٦) حرفت الآية فى (ك) ، (ض) إلى : فلما أكلا منها بدت لهما .... إلخ .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة القصص : ٦٥] ، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [سورة القصص : ٦٢] ، فجعل النداء فى يوم معين ، وذلك اليوم حادث كائن بعد أن لم يكن ، وهو حينئذ يناديهم ، لم ينادهم قبل ذلك .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلأَنْعَامِ إِلاَّ ما يُتْلَىٰ عَلَيْكُم غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [سورة المائدة : ١] فبيَّن أنه يحكم فيحلّل ما يريد ويحرّم ما يريد / ويأمر بما يريد ، فجعل التحليل والتحريم والأمر والنهى متعلقا بإرادته . [وهذه أنواع الكلام ، فدل على أنه يأمر بإرادته] [١] وينهى بإرادته ، ويحلل بإرادته ، ويحرم بإرادته .

ص ٧٤

والكُلاَّبية يقولون : ليس شىء من ذلك بإرادته ، بل هو قديم لازم لذاته [٢] ، غير مراد له ولا مقدور . والمعتزلة مع الجهمية يقولون : كل ذلك مخلوق منفصل عنه ، ليس له كلام قائم به ، لا بإرادته ولا بغير إرادته . ومثل هذا كثير فى القرآن العزيز .

فصل

صفة الإرادة

وكذلك فى الإرادة والمحبة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة يٓس : ٨٢] ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة الكهف : ٢٣ - ٢٤] ، وقوله : ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [سورة الفتح : ٢٧] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ ﴾ [سورة الإسراء : ١٦] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ [سورة الرعد : ١١] ، وقوله :

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٢) ك : بل قديمة لازمة لذاته ؛ ض : بل قديم لازم لذاته . والمثبت من (ز) .

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ [سورة الإنسان : ٢٨] ، وقوله : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [سورة الإسراء : ١٦] ، وأمثال ذلك فى القرآن العزيز [١] .

فإن جوازم الفعل المضارع ونواصبه تخلصه للاستقبال ، مثل « إن » و « أن » ، وكذلك « إذا » ظرف لما يستقبل من الزمان . فقوله : « إذا أراد » و « إن شاء [٢] الله » ونحو ذلك يقتضى حصول إرادة مستقبلة ومشيئة [٣] مستقبلة .

صفتا المحبة والرضا

وكذلك فى المحبة والرضا . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] ، فإن هذا يدل على أنهم إذا اتبعوه أحبهم الله ، فإنه جزم قوله [٤] « يحببكم الله » [٥] ، فجَزَمَه جواباً للأمر ، وهو فى معنى الشرط ، فتقديره [٦] : إن تتبعونى يحببكم الله .

ومعلوم أن جواب الشرط والأمر إنما يكون بعده لا قبله ، فمحبة الله لهم إنما تكون بعد اتباعهم للرسول . والمنازعون منهم من يقول : ما ثمّ محبة بل المراد ثوابا مخلوقا ، ومنهم من يقول : بل ثمّ محبة قديمة أزلية : إما الإرادة وإما غيرها . والقرآن يدل على قول السلف وأئمة [٧] السنة المخالف [٨] للقولين .

---

(١) العزيز : ساقطة من (ز) .
(٢) ز : وإن يشأ .
(٣) ك : أو مشيئة .
(٤) قوله : ساقطة من (ز) .
(٥) ك ، ض : يحببكم به . والمثبت من (ز) .
(٦) ز : تقديره .
(٧) ك ، ض : أئمة .
(٨) ك ، ض : المخالفين .

وكذلك قوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ [سورة محمد : ٢٨] ، فإنه يدل على أن أعمالهم أسخطته ، فهى سبب لسخطه ، وسخطه عليهم بعد الأعمال لا قبلها .

وكذلك قوله : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [سورة الزخرف : ٥٥] ، وكذلك قوله : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [سورة الزمر : ٧] علّق الرضا بشكرهم وجعله مجزوما جزاءً له ، وجزاء الشرط لا يكون إلا بعده .

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٢] ، ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٧] ، ﴿وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٤٢] ، ﴿وَيُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ [سورة الصف : ٤] ونحو ذلك ، فإنه يدل على أن المحبة بسبب هذه الأعمال ، وهى جزاء لها ، والجزاء إنما يكون بعد العمل والسبب [١] .

فصل

صفتا السمع والبصر

وكذلك السمع والبصر والنظر . قال الله تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [سورة التوبة : ١٠٥] ، هذا فى حق المنافقين . وقال فى حق التائبين : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة التوبة : ١٠٥] فقوله [٢] : ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ ﴾ دليل على أنه يراها بعد نزول هذه الآية

(١) ك ، ض : والمسبب .

(٢) ك ، ض : وقوله .

الكريمة [(١)] ، والمنازع إما أن ينفى الرؤية وإما أن يثبت رؤية قديمة أزلية [فقط] [(٢)] .

وكذلك قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة يونس : ١٤] ولام « كى » تقتضى أن ما بعدها متأخر عن المعلول ، فنظره كيف يعملون هو بعد أن جعلهم خلائف .

ظ ٧٤ وكذلك ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [سورة المجادله : ١] ، أخبر أنه يسمع تحاورهما حين كانت تجادل وتشتكى إلى الله .

وقال النبى ﷺ : « إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده ، فقولوا : ربنا ولك الحمد ، يسمع الله لكم » [(٣)] فجعل سمعه لنا [(٤)] جزءًا وجواباً للحمد ، فيكون ذلك بعد الحمد ، والسمع يتضمن مع سمع القول قبوله وإجابته .

ومنه قول الخليل : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٩] ، وكذلك قوله : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨١] ، وقوله لموسى [وهارون] [(٥)] : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [سورة طه : ٤٦] .

---

(١) الكريمة : ساقطة من (ز) .

(٢) فقط : ساقطة من (ك) ، (ض) .

(٣) هذا جزء من حديث طويل عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه وأوله – وهذه رواية مسلم – : « إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤمكم أحدكم ... » الحديث . وهو فى : مسلم ٣٠٣/١ – ٣٠٥ (كتاب الصلاة ، باب التشهد فى الصلاة) ؛ سنن النسائى ٧٥/٢ – ٧٦ (كتاب الإمامة ، باب مبادرة الإمام) ، ١٩٢/٢ – ١٩٣ (كتاب التطبيق ، باب نوع آخر من التشهد) .

(٤) ز : فجعل يسمع لنا .

(٥) وهارون : زيادة فى (ز) .

والعقل [١] الصريح يدل على ذلك ، فإن المعدوم لا يُرى ولا يسمع بصريح العقل واتفاق العقلاء ، لكن قال من قال من السالمية : إنه يسمع ويرى موجوداً فى علمه لا موجودا بائناً عنه ، ولم يقل [أحد] [٢] : إنه يسمع ويرى بائناً عن الرب . فإذا خلق العباد ، وعملوا وقالوا ، فإما أن نقول : إنه يرى أعمالهم ويسمع أقوالهم [٣] ، وإما لا يرى ولا يسمع . فإن نفى ذلك تعطيل [٤] لهاتين الصفتين ، وتكذيب للقرآن ، وهما صفتا كمال لا نقص فيه ، فمن يسمع ويبصر أكمل ممن لا يسمع ولا يبصر .

والمخلوق يتصف بأنه يسمع ويُبصر ، فيمتنع [٥] اتصاف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق سبحانه وتعالى [٦] ، وقد عاب الله تعالى [٧] من يعبد من لا يسمع ولا يبصر فى غير موضع ، ولأنه حىّ ، والحىّ إذا لم يتصف بالسمع والبصر ، اتصف بضد ذلك : وهو العمى والصمم ، وذلك ممتنع ، وبسط هذا له موضع آخر .

وإنما المقصود هنا أنه إذا كان يسمع ويبصر الأقوال والأعمال بعد أن وُجدت ، فإما أن يقال : إنه تجدد [شئ ، وإما أن يقال : لم يتجدد شئ ، فإن كان لم يتجدد] [٨] ، وكان لا يسمعها ولا يبصرها ، فهو بعد أن خلقها لا يسمعها

---

(١) ك ، ض : والمعقول .
(٢) أحد : ساقطة من (ك) ، (ض) وأثبتها من (ز) .
(٣) ك ، ض : إنه يسمع أقوالهم ويرى أعمالهم .
(٤) ك ، ض : فإن نفى ذلك فهو تعطيل .
(٥) ك : فيمنع .
(٦) سبحانه وتعالى : ليست فى (ز) .
(٧) تعالى : ليست فى (ز) .
(٨) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

ولا يبصرها . وإن تجدد شئ : فإما أن يكون وجوداً أو عدما ، فإن كان عدماً فلم يتجدد شئ ، وإن كان وجوداً : فإما أن يكون قائما بذات الله ، أو قائما بذات غيره [١] . والثانى يستلزم أن يكون ذلك الغير هو الذى يسمع ويرى فتعيّن أن ذلك السمع والرؤية الموجودين قائم بذات الله [٢] ، وهذا لا حيلة فيه .

والكُلاَّبية يقولون فى جميع هذا الباب : المتجدد هو تعلُّق [٣] [تعلَّق] [٤] بين الأمر والمأمور ، وبين الإرادة والمراد ، وبين السمع والبصر والمسموع والمرئى [٥] .

فيقال لهم : هذا التعلق [٦] إما أن يكون وجوداً وإما أن يكون عدما ، فإن كان عدماً فلم يتجدد شئ ، فإن العدم لا شئ وإن كان وجودا بطل قولهم .

وأيضا فحدوث تعلق هو نسبة وإضافة ، من غير حدوث ما يوجب ذلك – ممتنع ، فلا تحدث [٧] نسبة وإضافة إلا بحدوث أمر وجودى يقتضى ذلك ، وطائفة – منهم ابن عقيل – يسمُّون هذه النسب [٨] أحوالا .

والطوائف متفقون على حدوث نسب وإضافات وتعلقات ، لكن حدوث النسب بدون حدوث ما يُوجبها ممتنع ، فلا تكون [٩] نسبة وإضافة إلا تابعة لصفة ثبوتية [١٠] : كالأبوة والبنوة ، والفوقية والتحتية ، والتيامن والتياسر ، فإنها لابد أن تستلزم أموراً ثبوتية [١٠] .

---

(١) ز : وإما أن يقوم بذات غيره .

(٢) ز : الرب .

(٣) ك : معلق .

(٤) تعلَّقَ : زيادة فى (ز) .

(٥) ز : والمرائى ، وهو تحريف .

(٦) ك : التعليق .

(٧) ض : يحدث .

(٨) ك ، ض : النسبة .

(٩) ك ، ض : يكون ؛ ز (غير منقوطة) .

(١٠ – ١٠) : ساقط من (ز) .

أفعال الرب الاختيارية

وكذلك كونه خالقا ورازقا ومحسناً وعادلا ، فإن هذه أفعال فعلها بمشيئته وقدرته ، إذ [١] كان يخلق بمشيئته ، ويرزق بمشيئته ، ويعدل بمشيئته ، ويحسن / بمشيئته . والذى عليه جماهير المسلمين من السلف والخلف : أن الخلق غير المخلوق ، فالخلق فعل الخالق ، والمخلوق مفعوله .

ص ٧٥

ولهذا كان النبى ﷺ يستعيذ بأفعال الرب وصفاته ، كما فى قوله ﷺ [٢] : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك [٣] ، لا أحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » [٣] ، فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه .

وقد استدل أئمة السنن – كأحمد وغيره – على أن كلام الله غير مخلوق بأنه استعاذ به فقال : « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق ، لم يضره شئ حتى يرتحل منه » [٤] فكذلك معافاته ورضاه غير مخلوق [٥] لأنه استعاذ به [٦] والعافية القائمة ببدن العبد مخلوقة ، فإنها نتيجة معافاته .

---

(١) ك : إذا ، وهو تحريف .

(٢) ﷺ : ليست فى (ز) .

(٣ – ٣) : ساقط من (ز) . والحديث عن عائشة رضى الله عنها فى : مسلم ٣٥٢/١ (كتاب الصلاة ، باب ما يقال فى الركوع والسجود) وأوله : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان ، وهو يقول : اللهم أعوذ برضاك ... الحديث .

(٤) الحديث عن خولة بنت حكيم رضى الله عنها – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – فى : مسلم ٢٠٨٠/٤ – ٢٠٨١ (كتاب الذكر والدعاء .. ، باب فى التعوذ من سوء القضاء ....) ؛ سنن الترمذى ١٥٩/٥ – ١٦٠ (كتاب الدعوات ، باب ما جاء ما يقول إذا نزل منزلا) ؛ سنن ابن ماجة ١١٧٤/٢ (كتاب الطب ، باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه) ؛ سنن الدارمى ٢٨٩/٢ (كتاب الاستئذان ، باب ما يقول إذا نزل منزلا) ؛ الموطأ ٩٧٨/٢ (كتاب الاستئذان ، باب ما يؤمر به من الكلام فى السفر) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٧٧/٦ .

(٥) ك ، ض : مخلوقة . والمثبت من (ز) .

(٦) ض : لأنه استعاذ بهما ؛ ك : لا استعاذ به ، وهو تحريف . والمثبت من (ز) .

وإذا كان الخلق فعله والمخلوق مفعوله ، وقد خلق الخلق بمشيئته ، دل على أن الخلق فعل يحصل بمشيئته ويمتنع قيامه بغيره ، فدل على أن أفعاله قائمة بذاته ، مع كونها حاصلة بمشيئته وقدرته .

وقد حكى البخارى إجماع العلماء على الفرق بين الخلق والمخلوق ، وعلى هذا يدل صريح المعقول ، فإنه قد ثبت بالأدلة العقلية والسمعية ، أن كل ما سوى الله تعالى (١) مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن ، وأن الله انفرد بالقدم والأزلية .

وقد قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [سورة السجدة : ٤] ، فهو حين خلق السمٰوات ابتداءً إما أن يحصل منه فعل يكون هو خلقا للسمٰوات والأرض ، وإما أن لا يحصل منه فعل (٢) ، بل وجدت المخلوقات بلا فعلٍ . ومعلوم أنه إذا كان الخالق قبل خلقها ومع خلقها وبعده سواء (٣) ، لم يجز تخصيص خلقها (٤) بوقت دون وقت بلا سبب يوجب التخصيص .

وأيضا فحدوث المخلوق بلا سبب (٥) حادث ممتنع فى بدايه (٦) العقل . وإذا قيل : الإرادة والقدرة [القديمة] (٧) خصصت . قيل : نسبة الإرادة القديمة إلى جميع الأوقات سواء .

وأيضا فلا تُعقل إرادة تخصص (٨) أحد المتماثلين إلا بسبب يوجب التخصيص .

---

(١) تعالى : ليست فى (ز) .
(٢) فى (ك) : كأنها : قول ، وهو تحريف .
(٣) ك ، ض : ومع خلقها سواء وبعده سواء . والمثبت من (ز) .
(٤) ك : لخلقها .
(٥) ز : بدون سبب .
(٦) ك ، ض : بداية .
(٧) القديمة : ساقطة من (ك) ، (ض) .
(٨) ك ، ض : تخصيص . والمثبت من (ز) .

وأيضا فلابد عند وجود المراد من سبب يقتضى حدوثه ، وإلا فلو كان مجرد ما تقدم من الإرادة والقدرة كافيا ، للزم وجوده قبل ذلك ، لأنه مع الإرادة التامة والقدرة التامة يجب وجود المقدور .

وقد احتج من قال : الخلق هو المخلوق ، كأبى الحسن ومن اتّبعه مثل ابن عقيل ، بأن قالوا : لو كان غيره لكان : إما قديماً وإما حادثا ، فإن كان قديماً لزم قدم المخلوق لأنهما متضايفان [١] ، وإن كان حادثا [٢] لزم أن تقوم به الحوادث ، ثم ذلك الخلق يفتقر إلى خلق آخر ويلزم التسلسل .

فأجابهم الجمهور ، كل طائفة على أصلها ، فطائفة [٣] قالت : الخلق قديم وإن كان المخلوق حادثا [٤] ، كما يقول ذلك كثير من أهل المذاهب الأربعة ، وعليه أكثر الحنفية . قال هؤلاء : أنتم تسلّمون لنا أن الإرادة قديمة أزلية والمراد محدَث ، فنحن نقول فى الخلق ما قلتم فى الإرادة .

وقالت طائفة [٥] : بل الخلق حادث فى ذاته ، ولا يفتقر إلى خلق آخر ، بل يحدث بقدرته . وأنتم تقولون : إن المخلوق يحصل بقدرته بعد أن لم يكن [٦] ، فإن [٧] كان المنفصل يحصل بمجرد القدرة ، فالمتصل به أَوْلى . وهذا جواب كثير من الكرّامية والهشامية وغيرهم .

---

(١) ز : متضايقان ، وهو تحريف .
(٢) ز : محدثا .
(٣) ز : وطائفة .
(٤) ز : محدثا .
(٥) ز : وطائفة قالت .
(٦) ك ، ض : تكن ؛ ز (غير منقوطة) . ولعل الصواب ما أثبته .
(٧) ز : فإذا .

ظ ٧٥ وطائفة يقولون : هب / أنه يفتقر إلى فعل قبله ، فلم قلتم : إن ذلك ممتنع ؟ وقولكم [١] هذا تسلسل .

فيقال : هذا ليس تسلسلا [٢] فى الفاعلين والعلل الفاعلة ؛ فإن هذا ممتنع باتفاق العقلاء ، بل هو تسلسل فى الآثار والأفعال ، وهو حصول شئ بعد شئ .

وهذا محل النزاع ، فالسلف يقولون : لم يزل متكلما إذا شاء [وكما شاء] [٣] . وقد قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [سورة الكهف : ١٠٩] فكلمات الله لا نهاية لها ، وهذا تسلسل جائز كالتسلسل فى المستقبل ؛ فإن نعيم الجنة دائم لا نفاد له ، فما من شئ إلا وبعده شئ بلا نهاية [٤] .

فصل

والأفعال نوعان : متعدٍ ولازم . فالمتعدى مثل : الخلق والاعطاء ونحو ذلك . واللازم مثل : الاستواء والنزول والمجئ والإيتان .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [سورة هود : ٧] فذكر الفعلين : المتعدى واللازم ، وكلاهما حاصل بقدرته ومشيئته [٥] ، وهو متصف به ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

---

(١) ك : وقولهم .

(٢) ك : ليس هذا تسلسل ؛ ض : ليس هذا تسلسلا .

(٣) وكما شاء : ساقطة من (ك) ، (ض) . وأثبتها من (ز) .

(٤) ك ، ض : شئ لا نهاية له .

(٥) ض : بمشيئته وقدرته .

الأدلة على هذا الأصل من السنة

والمقصود هنا أن القرآن يدل على هذا الأصل فى أكثر من مائة موضع .
وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها فى هذا الباب ، كما فى الصحيحين عن زيد بن خالد الجهنى [١] أن النبى ﷺ صلَّى بأصحابه صلاة الصبح بالحديبية [٢] على إثر سماء كانت من الليل [٢] ، ثم قال : أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر [بى] [٣] ، فأما من قال : مُطِرْنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطِرْنا بنَوْءِ كذا [ونوء كذا وكذا] [٤] ، فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب » [٥] .

وفى الصحاح [فى] [٦] حديث الشفاعة : يقول [٧] كل من الرسل إذا أتَوْا إليه [٨] « إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله » [٩] فقال كل منهم : إن ربى قد غضب اليوم ، وهو بيان أن الغضب حصل فى ذلك اليوم لا قبله .

---

(١) الجهنى : ساقطة من (ز) .
(٢ - ٢) : ساقط من (ز) .
(٣) بى : ساقطة من (ك) ، (ض) .
(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) .
(٥) بعد كلمة « الكوكب » تكررت عبارة « فقال أتدرون ماذا قال ربكم الليلة » فى (ك) ، (ز) إلا أن العبارة عليها شطب فى (ز) . والحديث – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه فى : البخارى ١٦٥/١ (كتاب الأذان ، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم) ؛ مسلم ٨٣/١ – ٨٤ (كتاب الإيمان ، باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء) ؛ سنن أبى داود ٢١/٤ (كتاب الطب ، باب فى النجوم) ؛ الموطأ ١٩٢/١ (كتاب الاستقساء ، باب الاستبصار بالنجوم) .
(٦) فى : زيادة من (ز) .
(٧) ك ، ض : فيقول .
(٨) عبارة : « إذا أتوا إليه » ساقطة من (ز) والمعنى أن الرسل إذا أتى الناس إليهم بعد كرب يوم القيامة يطلبون من كل رسول أن يشفع إلى الله تعالى يقول كل منهم العبارة التالية .
(٩) حديث الشفاعة حديث طويل مروى عن عدد من الصحابة من وجوه عدة بألفاظ متقاربة . انظر : البخارى ٨٤/٦ – ٨٥ (كتاب التفسير ، سورة بنى اسرائيل : باب ذرية من حملنا مع نوح) ؛ =

وفى الصحيح : « إذا تكلم الله بالوحى ، سمع أهل السموات كجر السلسلة على الصفوان » [(١)] فقوله : « إذا تكلم الله بالوحى سمع » يدل على أنه يتكلم به حين يسمعونه ، وذلك ينفى كونه أزليا . وأيضا فما يكون [(٢)] كجر السلسلة على الصفا يكون [(٣)] شيئا بعد شئ ، والمسبوق بغيره لا يكون أزليا .

وكذلك فى الصحيح : « يقول الله : قَسَمْتُ الصلاة بينى وبين عبدى [نصفين :] [(٤)] نصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى . فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال

= مسلم ١/١٨٠ - ١٨٧ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة) . وهو فى مواضع كثيرة فى الصحيحين وغيرهما . انظر : الترغيب والترهيب للمنذرى ٥/٣٩٨ - ٤٠٦ (ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ١٣٥٢ / ١٩٣٣) ؛ جامع الأصول لابن الأثير ١١/١٢٣ - ١٣٣ (ط . السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٣ / ١٩٥٤) ؛ حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن قيم الجوزية ص ٢٢٣ - ٢٢٧ (تحقيق الأستاذ محمود حسن ربيع ، ط . مكتبة الأزهر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٨) .

(١) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٤/٣٢٥ (كتاب السنة ، باب فى القرآن) ونصه : « إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، حتى إذا أتاهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم . قال : فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول : الحق . فيقولون : الحق ، الحق » . وذكر الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى الحديث فى « صحيح الجامع الصغير » ١/١٧٨ وقال عنه إنه صحيح ، وأنه ورد فى كتاب التوحيد لابن خزيمة وفى كتاب « الأسماء والصفات » للبيهقى . والحديث فى كتاب التوحيد لابن خزيمة ، ص ١٤٥ (بتحقيق الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله ، ط . مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٨٧ / ١٩٦٨) وهو أيضا فى « الأسماء والصفات » ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ (بتحقيق الكوثرى ، ط . السعادة ، القاهرة ، ١٣٥٨) ونبه البيهقى إلى أن الحديث رواه البخارى موقوفا وأبو داود مرفوعا . والحديث فى : البخارى ٩/١٤١ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ولا تنفع الشفاعة عنده ....) وقال : « وقال مسروق عن ابن مسعود : إذا تكلم الله بالوحى .... الحديث » . وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن أبى هريرة ذكره ابن تيمية فى درء تعارض العقل والنقل ٢/٤٣ وتكلمت عليه هناك وذكرت أن البخارى أورده فى ثلاثة مواضع وهو فى سنن الترمذى وابن ماجة .

(٢) ز : ما يكون .

(٣) ز : فيكون .

(٤) نصفين : ساقطة من (ك) .

الله : أثنى على عبدى . فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال الله (١) : مجَّدنى عبدى . فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال الله (١) : هذه الآية بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل . فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال الله (٢) : هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل » (٣) ، فقد أخبر أن العبد إذا قال : الحمد لله ، قال الله : حمدنى [عبدى] (٤) فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله (٥) : أثنى على عبدى .... الحديث .

وفى الصحاح حديث النزول [أنه :] (٦) « ينزل ربنا (٧) كل ليلة حين / يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ » (٨) فهذا قول وفعل فى وقت معين ، وقد ص ٧٦

---

(١) الله : ليست فى (ز) .

(٢) الله : ليست فى (ز) .

(٣) سبق الكلام عن الحديث ٢٧٢/١ (ت ٢) وهو عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٩٦/١ – ٢٩٧ (كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة) ؛ سنن الترمذى ٢٦٩/٤ – ٢٧٠ (كتاب التفسير ، سورة الفاتحة) .

(٤) عبدى : ساقطة من (ك) ، (ض) . وأثبتها من (ز) .

(٥) الله : ليست فى (ز) .

(٦) أنه : زيادة فى (ز) .

(٧) ربنا : ليست فى (ز) .

(٨) الحديث عن أبى هريرة وغيره من الصحابة رضى الله عنهم فى : البخارى ٥٢/٢ – ٥٣ (كتاب التهجد ، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل) ، ٧١/٨ (كتاب الدعوات ، باب الدعاء نصف الليل) ١٤٣/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : يريدون أن يبدّلوا كلام الله) ؛ مسلم ١٧٥/٣ – ١٧٦ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الترغيب فى الدعاء ....) ؛ سنن أبى داود ٤٧/٢ (كتاب الصلاة ، باب أى الليل أفضل) ، ٣١٤/٤ (كتاب السنة ، باب الرد على الجهمية) ؛ المسند (ط . المعارف) الأرقام : ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٣٦٧٣ ، ٣٨٢١ ، ٧٥٠٠ ، ٧٥٨٢ ، ٧٦١١ ، ٧٧٧٩ . وهو أيضا فى مواضع أخرى كثيرة فى المسند ، وهو أيضا فى سنن : الترمذى وابن ماجة والدارمى ومسند الطيالسى (وانظر مفتاح كنوز السنة ، مادة : الدعاء) وأفرد ابن خزيمة فصلا لأحاديث النزول فى كتابه « التوحيد » ص ١٢٥ – ١٣٦ .

اتفق السلف على أن النزول فعل يفعله الرب ، كما قال ذلك الأوزاعى وحمَّاد بن زيد والفضيل بن عياض [(١)] وأحمد بن حنبل وغيرهم .

وأيضا فقد قال ﷺ : « لله أشد أَذَناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن ، من صاحب القَيْنَة إلى قينته » [(٢)] . وفى الحديث الصحيح الآخر [(٣)] : « ما أَذِنَ الله لشىء كأَذَنِهِ لنبى حسن الصوت يتغنَّى [(٤)] بالقرآن يجهر به » [(٥)] .

أَذِنَ [(٦)] يَأْذَنُ أَذَناً : أى استمع [(٧)] يستمع استماعا ، كقوله : ﴿ أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [سورة الانشقاق : ٢] فأخبر أنه يسمع إلى هذا وهذا .

وفى الصحيح : « لا يزال عبدى يتقرّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا

---

(١) عبارة « والفضيل بن عياض » : ساقطة من (ز) .

(٢) الحديث عن فضالة بن عبيد رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ٤٢٥/١ (كتاب إقامة الصلاة ، باب فى حسن الصوت بالقرآن) . أورده الشيخ الألبانى فى « ضعيف الجامع الصغير » ٣/٥ ونقل عن السيوطى أنه فى سنن ابن ماجة وفى صحيح ابن حبان وفى المستدرك للحاكم وفى شعب الإيمان للبيهقى عن فضالة بن عبيد ، وضعفه الألبانى ، ولكن ذكر الأستاذ محمد فؤاد عبد الباق فى تعليقه على سنن ابن ماجة « فى الزوائد : إسناده حسن » وقال : « أَذَنا : بفتحتين ، بمعنى : استماعا » . والحديث عن فضالة أيضا فى : المسند (ط . الحلبى) ١٩/١٦ ، ٢٠ .

(٣) ز : الآخر الصحيح .

(٤) ك : يتغن ؛ ز : يقرأ .

(٥) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ١٩١/٦ (كتاب فضائل القرآن ، باب من لم يتغن بالقرآن) ، ١٥٧/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول النبى ﷺ : الماهر بالقرآن مع الكرام البررة ...) ؛ مسلم ٥٤٥/١ – ٥٤٦ (كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن) ؛ سنن أبى داود ١٠١/٢ (كتاب الوتر ، باب استحباب الترتيل فى القراءة) ؛ سنن النسائى ١٤١/٢ (كتاب الصلاة ، باب التغنى بالقرآن) ؛ المسند (ط . المعارف) ٨٦/١٤ – ٨٨ ، ٢٢٩ .

(٦) ز : قد أذن .

(٧) ك : استمتع ، وهو تحريف .

أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، (١ ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » ١) فأخبر أنه لا يزال يتقرّب بالنوافل بعد الفرائض [حتى يحبه ، و « حتى » حرف غاية ، يدل على أنه يحبه بعد تقربه بالنوافل والفرائض] (٢) .

وفى الصحيحين عنه ﷺ فيما يروى عن ربه تعالى قال : « قال (٣) الله : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، إن (٤) ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملإٍ خير منهم » (٥) وحرف « إن » حرف الشرط ، والجزاء يكون بعد الشرط ، فهذا يبيّن أنه يذكر العبد [بعد أن يذكره العبد] (٦) إن ذكره (٧) فى نفسه [ذكره فى نفسه] (٨) وإن ذكره فى ملإٍ ذكره

(١ - ١) : ساقط من (ز) . والحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأوله : إن الله قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل .... الحديث ، وهذه رواية البخارى . انظر الحديث فى : البخارى ١٠٥/٨ (كتاب الرقاق ، باب التواضع) . وهو عن عائشة رضى الله عنها فى : المسند (ط . الحلبى) ٢٥٦/٦ .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٣) ز : عن ربه عز وجل قال يقول .

(٤) ز : فإن .

(٥) هذا جزء من حديث عن أبى هريرة وأنس فى : البخارى ١٢١/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ويحذركم الله نفسه) ، ١٥٦/٩ (كتاب التوحيد ، باب ذكر النبى ﷺ وروايته عن ربه) ؛ مسلم ٢٠٦٧/٤ - ٢٠٦٨ (كتاب الذكر ، باب فضل الذكر) ، ٢١٠٢/٤ (كتاب التوبة ، باب فى الحض على التوبة) ؛ سنن الترمذى ٢٣٨/٥ - ٢٣٩ (كتاب الدعوات ، باب منه) ؛ سنن ابن ماجة ١٢٥٥/٢ - ١٢٥٦ (كتاب الأدب ، باب فضل العمل) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٥٤/١٣ - ١٥٥ ، (ط . الحلبى) ٤١٣/٢ ، ٤٣٥ ، ٤٠/٣ ، ١٢٢ وفى مواضع أخرى فيه .

(٦) ما بين المعقوفتين فى (ز) فقط .

(٧) ز : إن ذكر .

(٨) ما بين المعقوفتين فى (ز) فقط .

فى ملأ خير منهم . والمنازع يقول : ما زال يذكره أزلا وأبداً . ثم يقول : ذكره وذكر غيره ، وسائر ما يتكلم الله به هو شئ واحد لا يتبعّض ولا يتعدد ، فحقيقة قوله : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ولا يذكر أحداً .

وفى صحيح مسلم فى حديث تعليم الصلاة : « وإذا قال الإمام : سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهم ربنا ولك الحمد ، يسمع الله لكم » (١) فإن الله قال على لسان نبيه : سمع الله لمن حمده ، (٢ فقوله : سمع الله لمن حمده ، لأن الجزاء بعد الشرط ، فقوله : يسمع الله لكم ، مجزوم حُرِّك [بالكسر] (٣) لالتقاء الساكنين ، وهذا يتقضى أنه يسمع بعد أن تحمدوا ٢) .

فصل

مواقف النفاة من مسألة الصفات والرد عليهم

والمنازعون النفاة كذلك منهم من ينفى الصفات مطلقا ، فهذا يكون الكلام معه فى الصفات (٤) مطلقا لا محض (٥) الصفات الاختيارية ، ومنهم من يثبت الصفات ويقول لا : يقوم بذاته شئ بمشيئته وقدرته ، فيقول : إنه لا يتكلم بمشيئته واختياره ، ويقول : لا يرضى ويسخط ، ويحب ويبغض ، ويختار بمشيئته وقدرته ، ويقول : إنه لا يفعل فعلا هو الخلق يخلق به المخلوق ، ولا يقدر عنده على فعل يقوم بذاته ، بل مقدوره لا يكون إلا منفصلا منه ، وهذا موضع تنازع فيه النفاة .

---

(١) سبق الحديث قبل صفحات قليلة .

(٢ – ٢) : فى (ز) بدلا من هذه العبارات جاءت عبارات أخرى فيها تقديم وتأخير هكذا : « فقوله : يسمع الله لكم مجزوم حرك بالكسر لالتقاء الساكنين ، وهذا يقتضى أنه يسمع بعد أن يقولوا : سمع الله لمن حمده ، لأن الجزاء بعد الشرط » .

(٣) بالكسر : ساقطة من (ك) ، (ض) وهى فى (ز) فقط .

(٤) ك (فقط) : الصلاة ، وهو تحريف .

(٥) ز : لا يخص (بدون نقط) .

فقيل : لا يكون مقدوره إلا (١) بائناً عنه ، كما يقوله (٢) الجهمية والكُلاَّبية والمعتزلة . وقيل : لا يكون مقدوره إلا ما يقوم بذاته ، كما يقوله السالمية (٣) والكرامية . والصحيح أن كليهما مقدور (٤) له .

أما الفعل ، فمثل قوله تعالى (٥) : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥] (٦) .

وقوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَى ﴾ [سورة القيامة : ٤٠] .

وقول الحواريين : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ ﴾ [سورة المائدة : ١١٢] .

وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [سورة يس : ٨١] .

وقوله (٧) : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَى ﴾ [سورة الأحقاف : ٣٣] إلى أمثال ذلك / مما يبين أنه يقدر على الأفعال كالإحياء والبعث ونحو ذلك . ظ ٧٦

وأما القدرة على الأعيان ، ففى الصحيح عن أبى مسعود قال : « كنت أضرب غلاما فرآنى النبى ﷺ ، فقال : « اعلم أبا مسعود [اعلم

---

(١) ز : لا ، وهو تحريف .
(٢) ز : تقوله .
(٣) ز : الهشامية .
(٤) ك : كلاهما مقدورا ؛ ز : كلاهما مقدور . والمثبت من (ض) .
(٥) تعالى : ليست فى (ز) .
(٦) ز : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم .
(٧) وقوله : ساقطة من (ز) .

أبا مسعود :] [١] لله أقدر عليك منك على هذا » [٢] [فقوله : لله أقدر عليك منك على هذا] [٣] دليل على أن القدرة تتعلق بالأعيان المنفصلة : قدرة الرب وقدرة العبد .

ومن الناس من يقول : كلاهما يتعلق بالفعل ، كالكرامية . ومنهم من يقول : قدرة الرب تتعلق بالمنفصل ، وأما قدرة العبد فلا تتعلق إلا بفعل فى محلها ، كالأشعرية .

والنصوص تدل على أن كلا القدرتين تتعلق بالمتصل والمنفصل ، فإن الله تعالى أخبر أن العبد يقدر على أفعاله كقوله : ﴿ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن : ١٦] ، وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم من فَتَيَاتِكُم ﴾ [سورة النساء : ٢٥] ، فدل على [٤] أنه منا من يستطيع ذلك ، ومنا من لم يستطع .

وقال النبى ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » أخرجاه فى الصحيحين [٥] .

---

(١) ما بين المعقوفتين فى (ز) فقط .

(٢) الحديث – مع اختلاف فى الألفاظ – عن أبى مسعود البدرى الأنصارى رضى الله عنه فى : مسلم ١٢٨٠/٣ – ١٢٨١ (كتاب الأيمان ، باب صحبة المماليك) ؛ سنن أبى داود ٤٦٢/٤ (كتاب الأدب ، باب فى حق المملوك) ؛ سنن الترمذى ٢٢٥/٣ – ٢٢٦ (كتاب البر والصلة ، باب النهى عن ضرب الخدم وشتمهم) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٢٠/٤ .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) فقط .

(٤) ز : أيمانكم ، يدل على أن ...

(٥) الحديث بهذا اللفظ عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ٣/٧ (كتاب النكاح ، باب من استطاع الباءة فليتزوج) ، وبلفظ أطول وألفاظ مقاربة فى : البخارى ٣/٧ (الكتاب نفسه ، باب من لم يستطع الباءة فليصم) ، ٢٦/٣ (كتاب الصوم ، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة) ؛ مسلم ١٠١٨/٢ – ١٠١٩ (كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لم تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة) ؛ سنن النسائى ١٤١/٤ (كتاب الصيام ، باب ذكر الاختلاف على محمد بن أبى =

وقوله : « إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل » [(١)] .

وقوله فى الحديث الذى فى الصحيح [(٢)] : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » [(٣)] ، وقد أخبر أنه قادر على عبده ، وهؤلاء الذين يقولون : لا تقوم به الأمور الاختيارية عمدتهم أنه لو قامت به الحوادث لم يخل منها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث .

وقد نازعهم الناس فى كلا المقدمتين ، وأصحابهم المتأخرون – كالرازى والآمدى – قدحوا فى المقدمة الأولى فى نفس هذه المسألة ، وقدح الرازى فى المقدمة الثانية فى غير موضع من [(٤)] كتبه ، وقد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع .

= يعقوب) ؛ سنن ابن ماجة ٥٩٢/١ (كتاب النكاح ، باب ما جاء فى فضل النكاح) ؛ سنن الدارمى ١٣٢/٢ (كتاب النكاح ، باب من كان عنده طول فليتزوج) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤١١/١ ، ٤١٢ ، ٢٠٨/٥ ، ٤٩/٦ ، ٥٣ .

(١) قال العراق عن هذا الحديث فى تعليقه على الإحياء ٣٤/١٢ : « الترمذى من حديث ابن عباس » ولم أستطع العثور على الحديث فى سنن الترمذى ولا فى غيره من المراجع ولكن ابن تيمية ذكر الحديث مطولا فى كتاب « الاستقامة » وبقيته « .... فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » . وبينت فى تعليقى على الحديث فى كتاب « الاستقامة » أن الجزء الأخير منه وهو : إن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » هو جزء من حديث ابن عباس رضى الله عنهما الذى أوله : « كنت رديف النبى ﷺ فقال : يا غلام – أو يا غُلَيِّم – ألا أعلمك كلمات .... » الحديث وهو فى المسند (ط . المعارف) ٢٨٦/٤ – ٢٨٨ .

(٢) ز : فى الحديث الصحيح .

(٣) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٩٤/٩ – ٩٥ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) ونصه : « دعونى ما تركتكم ، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » . والحديث مع اختلاف فى الألفاظ فى : مسلم ٩٧٥/٢ (كتاب الحج ، باب فرض الحج مرة فى العمر) ؛ سنن النسائى ٨٣/٥ (كتاب المناسك ، باب وجوب الحج) ؛ سنن ابن ماجة ٣/١ (المقدمة ، اتباع سنة رسول الله ﷺ) .

(٤) من : ساقطة من (ز) .

وقولهم : إنما (١) عرفنا حدوث العالم بهذه الطريق ، وبه أثبتنا الصانع . فيقال (٢) لهم : لا جرم ابتدعتم طريقا لا يوافق السمع ولا العقل ، فالعالمون بالشرع يعرفون أنكم مبتدعون محدثون فى الإسلام ما ليس منه ، والذين يعقلون ما يقولون يعلمون أن العقل يناقض ما قلتم ، وأن ما جعلتموه دليلا على إثبات الصانع لا يدل على إثباته ، [بل] (٣) هو استدلال على نفى الصانع .

وإثبات الصانع حق ، وهذا الحق يلزم من ثبوته إبطال استدلالكم بأن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث .

وأما كون (٤ طريقكم مبتدعة ما سلكها الأنبياء ولا أتباعهم ولا سلف الأمة ، فلأن كل ٤) من يعرف ما جاء به الرسول ، وإن كانت معرفته متوسطة لم يصل فى ذلك إلى الغاية ، يعلم أن الرسول ﷺ (٥) لم يدع الناس فى [معرفة] (٦) الصانع وتوحيده وصدق رسله إلى الاستدلال بثبوت الأعراض وأنها حادثة ولازمة للأجسام ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، لامتناع حوادث لا أول لها ، [بل] يعلم (٧) بالاضطرار أن هذه الطريق لم يتكلم بها الرسول ، ولا دعا إليها أصحابه ، ولا [أصحابه] (٨) تكلموا بها ، ولا دعوا بها الناس .

وهذا يوجب العلم الضرورى من دين الرسول بأنه عند الرسول (٩)

---

(١) ك ، ض : إنا .

(٢) ك ، ض : يقال .

(٣) بل : ساقطة من (ك) .

(٤ - ٤) : ساقط من (ز) .

(٥) ﷺ : ساقطة من (ز) .

(٦) معرفة : ساقطة من (ك) .

(٧) ك ، ض : لا أول لها فعلم .

(٨) أصحابه : زيادة فى (ز) .

(٩) ك : بأنه عبد الرسول ، وهو تحريف . ض : فإن عند الرسول . والمثبت من (ز)

والمؤمنين به أن الله يُعرف ، ويُعرف / توحيده وصدق رسله ، بغير هذه الطريق ، فدل الشرع دلالة ضرورية على أنه لا حاجة إلى هذه الطريق ، ودل ما فيها من مخالفة نصوص الكتاب والسنة على أنها طريق باطلة ، فدل الشرع على أنه لا حاجة إليها وأنها باطلة . ص ٧٧

وأما العقل [١] فقد بسط القول فى جميع ما قيل فيها فى غير هذه المواضع ، وبيّن أن أئمة أصحابها قد يعترفون بفسادها من جهة العقل ، [كما] [٢] يوجد فى كلام أبى حامد والرازى وغيرهما بيان فسادها .

ولما ظهر فسادها للعقل تسلَّط الفلاسفة على سالكيها ، وظنت الفلاسفة أنهم [إذا] [٣] قدحوا فيها فقد قدحوا فى دلالة الشرع ، ظنا منهم أن الشرع جاء بموجبها ، إذ كانوا أجهل بالشرع والعقل من سالكيها ، فسالكوها لا للإسلام نصروا ، ولا لأعدائه كسروا ، بل سلَّطوا الفلاسفة عليهم وعلى الإسلام ، وهذا كله مبسوط فى مواضع .

وإنما المقصود هنا أن يُعرف أن نفيهم للصفات الاختيارية – التى يسمُّونها حلول الحوادث – ليس لهم دليل عقلى عليه ، وحُذَّاقهم يعترفون [٤] بذلك . وأما السمع فلا ريب أنه مملوء بما يناقضه ، والعقل أيضا يدل على نقيضه [٥] من وجوه نبّهنا على بعضها .

ولما لم يكن مع أصحابها حجة لا عقلية ولا سمعية من الكتاب والسنة ، احتال متأخروهم فسلكوا طريقا سمعية ظنوا أنها تنفعهم ، فقالوا : [٦] هذه

---

(١) ك : وأما الفعل ، وهو تحريف .
(٢) كما : ساقطة من (ك) .
(٣) إذا : ساقطة من (ك) .
(٤) ز : معترفون .
(٥) ز : يدل نقيضها ، وهو تحريف .
(٦) ك : تنقضهم فقال ، وهو تحريف .

الصفات إن كانت صفات نقص وجب تنزيه الرب عنها ، وإن كانت صفات [(١)] كمال فقد كان فاقداً [لها] [(٢)] قبل حدوثها ، وعدم الكمال نقص ، فيلزم أن يكون كان ناقصا ، وتنزيهه عن النقص واجب بالإجماع .

الرد على حجة للنفاة من وجوه

وهذه الحجة من أفسد الحجج ، وذلك من وجوه :

الأول

أحدها : أن هؤلاء يقولون : نفى النقص عنه لم يُعلم بالعقل وإنما علم بالإجماع ، وعليه اعتمدوا فى نفى النقص [هنا] [(٣)] ، فيعود [الأمر] إلى [(٤)] احتجاجهم بالإجماع . ومعلوم أن الإجماع لا يحتج به فى موارد النزاع [(٥)] ، فإن المنازع لهم يقول : أنا لم أوافقكم على نفى هذا المعنى ، وإن وافقتكم على إطلاق القول بأن الله منزَّه عن النقص ، فهذا المعنى عندى ليس بنقص ، ولم يدخل فيما [(٦)] سلَّمته لكم ، فإن بيّنتم بالعقل أو بالسمع انتفاءه [(٧)] ، وإلاّ فاحتجاجكم بقولى - مع أنى لم أُرد ذلك - كذب علىَّ ، فإنكم تحتجّون بالإجماع ، والطائفة المثبتة من أهل الإجماع ، وهم لم يسلموا هذا .

الثانى

الثانى : [أن يُقال : لا نسلم] [(٨)] أن عدم هذه الأمور قبل وجودها نقص ، بل لو وُجدت قبل وجودها لكان نقصاً . مثال ذلك : تكليم الله لموسى عليه السلام [(٩)] ونداؤه له ، فنداؤه [(١٠)] حين ناداه صفة كمال ، ولو ناداه قبل أن

---

(١) ز : صفة .
(٢) لها : ساقطة من (ك) فقط .
(٣) هنا : ساقطة من (ك) ، (ض) .
(٤) ك : فيعود إلى ؛ ض : فنعود إلى . والمثبت من (ز) .
(٥) ز : أن الإجماع فى مورد النزاع .
(٦) ك : فيها ، وهو تحريف .
(٧) ز : انتفاوه ، وهو خطأ .
(٨) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .
(٩) عليه السلام : ليست فى (ز) .
(١٠) ز : ومناداته له فنداه .

يجيء لكان ذلك نقصاً ، فكل منها كمال حين وجوده ، ليس بكمال قبل وجوده ، بل وجوده قبل الوقت الذى تقتضى الحكمة وجوده فيه نقص .

الثالث

الثالث : أن يقال : لا نُسلِّم أن [عدم ذلك نقص ، فإن] ما كان (١) حادثا امتنع أن يكون قديما ، وما كان ممتنعا لم يكن عدمه نقصاً ، إنما النقص فوات (٢) ما يمكن من صفات الكمال .

الرابع

الرابع : أن هذا يرد فى كل ما فعله الرب وخلقه ، فيقال : خَلْقُ هذا : إن كان نقصاً فقد اتصف بالنقص ، وإن كان كمالا فقد كان فاقداً له . فإن قلتم : صفات الأفعال عندنا ليست بنقصٍ ولا كمال . قيل : إذا قلتم ذلك أمكن المنازع أن يقول : هذه الحوادث ليست بنقص ولا كمال .

الخامس

الخامس : أن يقال : إذا عُرض على العقل الصريح ذات يمكنها أن تتكلم بقدرتها وتفعل ما تشاء بنفسها (٣) ، وذات لا يمكنها أن / تتكلم بمشيئتها ولا تتصرَّف بنفسها ألبتة ؛ بل هى بمنزلة الزَّمِن الذى لا يمكنه فعل يقوم به باختياره ، قضى العقل الصريح بأن هذه الذات أكمل ، وحينئذ فأنتم الذين (٤) وصفتم الرب بصفة النقص ، والكمال فى اتصافه (٥) بهذه الصفات ، لا فى نفى اتصافه بها .

ظ ٧٧

السادس

السادس : أن يُقال : الحوادث التى يمتنع كون (٦) كل منها أزليا ، ولا يمكن وجودها إلاّ شيئا فشيئا ، إذا قيل : [أيُّما] (٧) أكمل : أن يقدر على

---

(١) ك : لا نسلم أن كل ما كان .... والمثبت من (ز) ، (ض) .
(٢) ك : نوات ، وهو تحريف .
(٣) ز : بنفسه ، وهو خطأ .
(٤) ك : الذى ، وهو تحريف .
(٥) ك : اتصاله ، وهو تحريف .
(٦) ك : يمتنع يكون ؛ ض : يمتنع أن يكون . والمثبت من (ز) .
(٧) أيّما : ساقطة من (ك) .

فعلها شيئا فشيئا أو لا يقدر على ذلك ؟ كان معلوماً ، بصريح العقل ، أن القادر على فعلها شيئا فشيئا أكمل ممن لا يقدر على ذلك . وأنتم تقولون : إن الرب لا يقدر على شئ من هذه الأمور ، وتقولون : إنه يقدر على أمور مباينة له .

ومعلوم أن قدرة القادر على فعله المتصل به قبل قدرته على أمور مباينة له ، فإذا قلتم : لا يقدر على فعل متصل به ، لزم أن لا يقدر على المنفصل . فلزم على قولكم أن لا يقدر على شئ ، ولا أن يفعل شيئا ، فلزم أن لا يكون خالقاً لشئ . وهذا لازم للنفاة لا محيد لهم عنه .

ولهذا قيل : الطريق التى سلكوها فى حدوث العالم وإثبات الصانع يناقض حدوث العالم وإثبات الصانع ، ولا يصح القول بحدوث العالم وإثبات الصانع إلا بإبطالها لا بإثباتها ، فكأن [1] ما اعتمدوا عليه وجعلوه أصولا للدين ودليلاً عليه ، هو فى نفسه باطل شرعاً وعقلاً ، وهو مناقض للدين ومنافٍ له ، [كما أنه مناقض للعقل ومنافٍ له] [2] .

ولهذا كان السلف والأئمة يعيبون كلامهم هذا ويذمونه ، ويقولون : « من طلب العلم بالكلام تزندق » [3] ، كما قال أبو يوسف ، ويُروى عن مالك . ويقول الشافعى : « حكمى فى أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال [4] ، ويُطاف بهم فى العشائر [4] ، ويُقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام » [5] ،

---

(١) ك ، ض ، ز : فكان . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٣) ز : العلم من بالكلام ، وهو تحريف . وهذا النص ذكره الهروى فى كتاب « ذم الكلام » ونقله عنه السيوطى فى كتابه « صون المنطق والكلام » (تحقيق د . على النشار ، د . سعاد عبد الرازق ، ط . ثانية ، القاهرة ، ١٩٧٠) ١/١٠٠ .

(٤ - ٤) : ساقط من (ز) .

(٥) ذكر هذا النص السيوطى ، صون المنطق ١/١٠٦ .

وقال الإمام [١] أحمد بن حنبل : « علماء الكلام زنادقة ، وما ارتدى [٢] أحد بالكلام فأفلح » [٣] .

وقد صدق الأئمة فى ذلك ، فإنهم يبنون أمرهم على كلام مجمل يَرُوج على من لم يعرف حقيقته ، فإذا اعتقد أنه حق تبين [٤] أنه مناقض للكتاب والسنة ، فيبقى [٥] فى قلبه مرض ونفاق ، وريب وشك ، بل طعن فيما جاء به الرسول .

وهذه هى الزندقة ، وهو كلام باطل من جهة العقل ، كما قال بعض السلف [٦] العلم بالكلام هو الجهل ، فهم يظنون أن معهم عقليات وإنما معهم جهليات : ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ واللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [سورة النور : ٣٩] ، هذا هو الجهل المركب ، [لأنهم] [٧] كانوا فى شك وحيرة فهم فى : ﴿ ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [سورة النور : ٤٠] .

أين هؤلاء من نور القرآن والإيمان ؟ قال الله تعالى [٨] : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ

---

(١) الإمام : ساقطة من (ز) .

(٢) ك : وما ابتدأ ، والمثبت من (ز) ، (ض) .

(٣) ذكر ابن الجوزى نصا قريبا من هذا النص فى « تلبيس إبليس » ص ٨٣ . وانظر ص ٨٢ – ٨٣ ؛ وانظر أيضا : درء تعارض العقل والنقل ٢٣٢/١ ، ١٥٨/٧ ، ٢٤٣ – ٢٤٦ .

(٤) ض : وتبين .

(٥) ك : يبقى ؛ ض : بقى . والمثبت من (ز) .

(٦) ز : بعض العلماء .

(٧) لأنهم : ساقطة من (ك) .

(٨) ز : قال تعالى .

ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٣٥] .

فإن قيل : أما كون الكلام والفعل يدخل فى الصفات الاختيارية فظاهر ؛ فإنه يكون بمشيئة الرب وقدرته . وأما الإرادة والمحبة والرضا والغضب ففيه نظر ، فإن [١] نفس الإرادة هى المشيئة ، وهو سبحانه إذا خلق من يحبه – كالخليل – فإنه يحبه ، ويحب المؤمنين ويحبونه .

ص ٧٨ / وكذلك إذا عمل الناس أعمالا يراها [٢] وهذا لازم لابد من ذلك ، فكيف يدخل فى الاختيار ؟

قيل : كل ما كان بعد عدمه فإنما يكون بمشيئة الله وقدرته ، وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فما شاءه [٣] وجب كونه ، وهو يجب بمشيئة [٤] الرب وقدرته ، وما لم يشأه امتنع كونه مع قدرته عليه . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [سورة السجدة : ١٣] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٣] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٢] [٥] .

---

(١) ك : كأن ، وهو تحريف .

(٢) ك : رآها .

(٣) ض : فما شاء .

(٤) ك ، ض : وهو تحت مشيئة .

(٥) فى (ز) اختلف ترتيب الآيات وفى آية سورة البقرة زيادة : من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات .

فكون الشئ واجب الوقوع لكونه قد سبق به القضاء ، وعلم [١] أنه لابد من كونه [لا] [٢] يمتنع أن يكون واقعاً بمشيئته وقدرته ، وإرادته – وإن كانت من لوازم ذاته كحياته وعلمه – فإن إرادته للمستقبلات [٣] هى مسبوقة بإرادته للماضى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة يس : ٨٢] ، وهو إنما أراد هذا الثانى بعد أن أراد قبله ما يقتضى إرادته ، فكان حصول الإرادة اللاحقة بالإرادة السابقة .

والناس قد اضطربوا فى مسألة إرادة الله سبحانه وتعالى [٤] على أقوال متعددة ، ومنهم من نفاها . ورجَّح الرازى هذا فى « مطالبه العالية » [٥] ، لكن – ولله الحمد – نحن قد قررناها [وبيّنّاها] [٦] وبيّنّا فساد الشبه المانعة منها ، وأن ما جاء به الكتاب والسنة هو الحق المحض الذى تدل عليه المعقولات الصريحة ، وأن صريح العقول موافق لصحيح المنقول .

وكنا قد [٧] بيّنّا أولا أنه يمتنع تعارض الأدلة القطعية ، فلا يجوز أن يتعارض دليلان قطعيان ، سواء كانا عقليين أو سمعيين ، أو كان أحدهما عقليا والآخر سمعيا . ثم بيّنّا بعد ذلك أنها متوافقة متناصرة متعاضده ، فالعقل يدل على صحة

---

(١) ك ، ض : على .

(٢) لا : ساقطة من (ك) .

(٣) ز : المستقبلات .

(٤) ز : الله تعالى .

(٥) « المطالب العالية » هو آخر ما ألفه فخر الدين الرازى (انظر ترجمته فيما سبق ١٨١/١) ومنه عدة نسخ خطية فى القاهرة واسانبول ، وانظر ما ذكره عنه : محمد صالح الزركان رحمه الله فى كتابه « فخر الدين الرازى وآراؤه الكلامية والفلسفية ، دار الفكر ، ١٩٨٣/١٣٨٣ » ص ٩٤ – ٩٦ .

(٦) وبيناها : زيادة فى (ز) .

(٧) قد : ساقطة من (ز) .

السمع ، والسمع يبين صحة العقل ، وأن من سلك أحدهما أفضى به إلى الآخر ، وأن الذين يستحقون العذاب هم الذين لا يسمعون ولا يعقلون .

كما قال الله تعالى (١) : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ۞ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سورة الملك : ٨ - ١٠] .

وقال [تعالى] (٢) : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [سورة الحج : ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [سورة ق : ٣٧] .

فقد بيّن القرآن أن من كان يعقل ، أو كان يسمع ، فإنه يكون ناجياً وسعيدا ، ويكون مؤمنا بما جاءت به الرسل . وقد بسطت هذه الأمور فى غير موضع ، والله أعلم .

---

(١) ز : كما قال تعالى .

(٢) تعالى : زيادة فى (ز) .

فصل

فساد حجج النفاة لحلول الحوادث

وفحول النظار : كأبى عبد الله الرازى ، وأبى الحسن الآمدى وغيرهما ذكروا حجج النفاة لحلول الحوادث [١] ، وبيّنوا فسادها [كلها] [٢] فذكروا لهم أربع حجج :

الحجة الأولى

إحداها [٣] : [الحجة] [٤] المشهورة ، وهو أنها لو قامت به لم يخل منها ومن أضدادها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، ومنعوا المقدمة الأولى . والمقدمة الثانية ذكر الرازى وغيره فسادها ، وقد بسط فى غير هذه المواضع .

فساد هذه الحجة

الحجة الثانية

والثانية : أنه لو كان قابلا لها فى الأزل لكان القبول من لوازم ذاته ، فكان [٥] القبول يستدعى إمكان المقبول ، ووجود الحوادث فى الأزل محال ، وهذه أبطلوها هم بالمعارضة بالقدرة : بأنه قادر على إحداث الحوادث ، والقدرة تستدعى إمكان المقدور ، ووجود المقدور – وهو الحوادث – فى الأزل محال .

بطلان هذه الحجة من وجوه

وهذه الحجة / باطلة من وجوه :

ظ ٧٨

الوجه الأول

أحدها : أن يُقال : وجود الحوادث [دائما] [٦] إما أن يكون ممكنا وإما أن يكون ممتنعا [٧] ، فإن كان ممكنا أمكن قبولها والقدرة عليها دائما ، وحينئذ فلا يكون وجود جنسها فى الأزل ممتنعا ، بل يمكن أن يكون جنسها [٨] مقدوراً

---

(١) ك : لحلول الاتحاد ، وهو خطأ .
(٢) كلها : ساقطة من (ك) .
(٣) ك ، ز : أحدها . والمثبت من (ض) .
(٤) الحجة : زيادة فى (ض) .
(٥) ك : وكان .
(٦) دائما : زيادة فى (ز) .
(٧) ك ، ض : إما أن يكون ممتنعا وإما أن يكون ممكنا ، والمثبت من (ز) .
(٨) ز : جنسا .

مقبولا ، وإن كان ممتنعا فقد امتنع وجود حوادث لا تتناهى ، وحينئذ فلا تكون فى الأزل ممكنة : لا مقدورة ولا مقبولة . وحينئذ فلا يلزم [١] من امتناعها [فى الأزل امتناعها] بعد ذلك [٢] ، فإن الحوادث موجودة ؛ فلا يجوز أن يُقال بدوام امتناعها ، وهذا تقسيم حاصر [٣] يبيّن فساد هذه الحجة .

الوجه الثانى

الوجه الثانى : أن يُقال : لا ريب أن الرب تعالى قادر ، فإما أن يُقال : إنه لم يزل قادراً [٤] ، وإما أن يُقال : بل صار قادراً بعد أن لم يكن . فإن قيل : لم يزل قادراً ، وهو الصواب . فيقال : إذا كان لم يزل قادراً ، فإن كان المقدور لم يزل ممكنا ، أمكن دوام وجود الممكنات ، فأمكن دوام وجود الحوادث ، وحينئذ فلا يمتنع كونه قابلا لها فى الأزل .

وإن [٥] قيل : بل كان الفعل ممتنعا ثم صار ممكنا . قيل : هذا جمع بين النقيضين ، فإن القادر لا يكون قادراً على ممتنع ، فكيف يكون قادراً مع [٦] كون المقدور ممتنعا ؟ ثم يُقال : بتقدير إمكان هذا [كما] [٧] قيل : هو قادر فى الأزل على ما يمكن فيما لا يزال ، [قيل :] [٨] وكذلك فى القبول [٩] ، يُقال : هو قابل فى الأزل لما يمكن فيما لا يزال .

---

(١) ك : فلا يلازم ، وهو تحريف .
(٢) ك : فلا يلزم من امتناعها بعد ذلك ؛ ض : فلا يلزم امتناعها بعد ذلك . والمثبت من (ز) .
(٣) ك : حاضر ، وهو تحريف .
(٤) ك ، ض : لم يزل قادرا وهو الصواب . وجاءت عبارة « وهو الصواب » فى (ز) بعد سطر . وهو الصواب الذى أثبته .
(٥) ك ، ض : فإن .
(٦) ك ، ض : على ، وهو خطأ . والمثبت من (ز) .
(٧) كما : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٨) قيل : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٩) ك ، ض : المقبول . والمثبت من (ز) .

الوجه الثالث

الوجه الثالث : [أنه سبحانه] (١) إذا قيل : هو قابل لما فى الأزل (٢) فإنما هو قابل لما هو قادر عليه يمكن وجوده ، فإن ما يكون (٣) ممتنعا لا يدخل تحت القدرة ، فهذا ليس بقابل له .

الوجه الرابع

الرابع : أن يُقال : هو قادر على حدوث ما هو مباين له من المخلوقات . ومعلوم أن قدرة القادر على فعله القائم به أَوْلى من قدرته على المباين له ، وإذا كان الفعل لا مانع منه إلا ما يمتنع (٤) مثله لوجود المقدور المباين ، ثم ثبت أن المقدور المباين هو ممكن وهو قادر عليه ، فالفعل أن (٥) يكون ممكنا مقدوراً أَوْلى .

الحجة الثالثة

إثبات بطلان هذه الحجة

الحجة الثالثة لهم : أنهم قالوا : لو قامت به الحوادث للزم تغيره ، والتغير على الله محال . وأبطلوا هم هذه الحجة – الرازى وغيره – بأن قالوا : ما تريدون بقولكم : لو قامت به [للزم] تغيره (٦) ، أتريدون بالتغير نفس قيامها به أم شئ آخر ؟ فإن أردتم الأول كان المقدّم هو الثانى ، والملزوم هو اللازم ، وهذا لا فائدة فيه ، فإنه يكون تقدير الكلام : لو قامت به الحوادث لقامت به (٧) الحوادث . وهذا كلام لا يفيد .

وإن أردتم بالتغير معنى غير (٨) ذلك فهى ممنوع ، فلا نسلم أنها لو قامت به لزم تغير غير حلول الحوادث (٩) ، فهذا جوابهم .

---

(١) أنه سبحانه : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .

(٢) عبارة « لما فى الأزل » : ساقطة من (ز) ومكانها فيها : « لها » .

(٣) ك ، ض : فأما ما .

(٤) ك ، ض : إلا ما يمنع .

(٥) ز : بأن .

(٦) ك : لو قامت به تغيره ؛ ض : لو قامت به تغير . والمثبت من (ز) .

(٧) به : ساقطة من (ز) .

(٨) غير : ساقطة من (ز) .

(٩) ز : فلا نسلم بها لو قامت لزم تغيره غير حلول الحوادث .

المعنى الصحيح للتغير

وإيضاح ذلك : أن لفظ « التغير » لفظ مجمل ، فالتغير فى اللغة المعروفة [(١)] لا يُراد به مجرد كون المحل قامت به الحوادث ، فإن الناس لا يقولون للشمس والقمر والكواكب إذا تحركت : إنها قد [(٢)] تغيرت ، ولا يقولون للإنسان إذا تكلم ومشى أنه تغير ، ولا يقولون إذا طاف وصلّى وأمر ونهى ورَكب : إنه تغير ، إذا كان ذلك عادته ، بل إنما يقولون : « تغير » ، لمن استحال من صفة إلى صفة ، كالشمس [ما] [(٣)] زال نورها ظاهراً ، لا يقال : إنها تغيرت ، فإذا اصفّرت ، قيل [قد] [(٤)] تغيرت .

وكذلك الإنسان إذا مرض أو تغير [(٥)] جسمه بجوع أو تعب [(٦)] ، قيل : قد تغيّر . وكذلك إذا تغير خلقه ودينه ، / مثل أن يكون فاجراً فيتوب [(٧)] ويصير [(٨)] برًّا ، أو يكون برًّا فينقلب فاجراً ، فإنه يقال : قد تغير .

ص ٧٩

ومنه الحديث [(٩)] : رأيت وجه رسول الله ﷺ متغيرا ، [وهو] لما رأى به [(١٠)] أثر الجوع ، ولم يزل يراه يركع ويسجد [(١١)] ، فلم يسم حركته تغيرا .

---

(١) ك : المعروف .

(٢) قد : ساقطة من (ز) .

(٣) ما : ساقطة من (ك) ، وفى (ض) : إذا .

(٤) قد : ساقطة من (ك) ، (ض) .

(٥) ز : وتغير .

(٦) ز : أو بعت ، وهو تحريف .

(٧) ض : فينقلب .

(٨) ز : فيصير .

(٩) ك ، ض : وفى الحديث .

(١٠) ك ، ض : متغيرا لما رأى منه .

(١١) لم أعرف الحديث المقصود ، ولكن ذكر المنذرى فى « الترغيب والترهيب » ١٥٢/٥ — ١٥٣ (ط . مصطفى الحلبى ١٩٣٣/١٣٥٢) عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ فرأيته متغيرا . فقلت : بأبى أنت وأمى مالى أراك متغيرا ؟ قال : ما دخل جوفى ما يدخل جوف ذات كبد منذ ثلاث ... الحديث . وقال المنذرى : « رواه الطبرانى ، ولا يحضرنى الآن إسناده ، إلا أن شيخنا الحافظ أبا الحسن رحمه الله كان يقول : إسناده جيد » .

وكذلك يقال فلان قد تغير على فلان : إذا صار يبغضه بعد المحبة (١ ، فأما إذا كان ثابتا (٢) على مودته لم يسم هشَّته إليه وخطابه له تغيراً ١) ، وإذا جرى (٣) على عادته فى أقواله وأفعاله فلا يقال إنه قد تغير .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الرعد : ١١] . ومعلوم أنهم إذا كانوا على عادتهم المحمودة : يقولون ويفعلون ما هو خير ، لم يكونوا قد غيروا ما بأنفسهم . فإذا انتقلوا عن ذلك فاستبدلوا بقصد الخير قصد الشر ، وباعتقادهم الحق (٤) اعتقاد الباطل ، قيل : قد غيّروا ما بأنفسهم ، مثل من كان يحب الله ورسوله والدار الآخرة ، فتغيّر قلبه ، وصار لا يحب الله ورسوله والدار الآخرة ، فهذا قد غيّر ما فى نفسه .

وإذا كان هذا معنى التغير ، فالرب تعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال ، منعوتا بنعوت الجلال والإكرام ، وكماله من لوازم ذاته ، فيمتنع أن يزول عنه شئ من صفات كماله ، ويمتنع أن يصير ناقصا بعد كماله .

وهذا الأصل عليه [يدل] (٥) قول السلف وأهل السنة : إنه لم يزل متكلما إذا شاء ، ولم يزل قادراً ، ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال ، ولا يزال كذلك ، فلا يكون متغيراً .

وهذا معنى قول من يقول : « يا مَن يُغيِّر ولا يتغيّر » فإنه يحيل صفات المخلوقات ويسلبها ما كانت متصفة [به] (٦) إذا شاء ، ويعطيها (٧) من صفات الكمال ما لم يكن لها ، وكماله من لوازم ذاته : لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال .

(١ - ١) : ساقط من (ز) .
(٢) ض : فإذا كان ثابتا .
(٣) ز : وإما إذا جرى ...
(٤) ك ، ض : وباعتقاد الحق . والمثبت من (ز) .
(٥) يدل : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٦) به : ساقطة من (ك) .
(٧) ك : ويعطلها . والمثبت من (ز) ، (ض) .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [سورة القصص . ٨٨] . وقال تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [سورة الرحمٰن : ٢٦ ، ٢٧] .

ولكن هؤلاء النفاة هم الذين يلزمهم أن يكون قد تغيّر ، فإنهم يقولون : كان فى الأزل لا يمكنه أن يقول شيئا ، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكان ذلك [١] ممتنعا عليه لا يتمكن منه ، ثم صار الفعل ممكنا يمكنه أن يفعل .

ولهم فى الكلام قولان . فمن أثبت [٢] الكلام المعروف ، وقال : إنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، قال أيضا [٣] : إنه صار الكلام ممكنا له بعد أن كان ممتنعا عليه .

ومن لم يصفه بالكلام المعروف ، بل قال : إنه يتكلم بلا مشيئته وقدرته [٤] ، كما تقوله الكُلاَّبية ، فهؤلاء [٥] أثبتوا كلاما لا يُعقل ولم يسبقهم إليه أحد من المسلمين .

بل كان المسلمون قبلهم على قولين : فالسلف وأهل السنة يقولون : إنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكلامه غير مخلوق . والجهمية يقولون : إنه مخلوق بقدرته ومشيئته . فقال هؤلاء : بل يتكلم بلا مشيئته وقدرته ، وكلامه شئ واحد لازم لذاته ، وهو حرف – أو حروف [٦] – وأصوات أزلية لازمة لذاته ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

---

(١) ز : ولا يتكلم بمشيئته فكان ذلك ...
(٢) ك ، ض : من يثبت . والمثبت من (ز) .
(٣) أيضا : ساقطة من (ض) .
(٤) ض : بلا مشيئة ولا قدرة .
(٥) ز : فهو . وهو تحريف .
(٦) ز : وهو حروف .

والمقصود أن هؤلاء كلهم الذين يمنعون أن [يكون] [١] الرب لم يزل يمكنه أن يفعل ما يشاء [٢] ، ويقولون : ذلك يستلزم وجود حوادث لا تتناهى ، وذلك محال ؛ فهؤلاء يقولون : صار الفعل ممكنا له بعد أن كان ممتنعاً عليه .

وحقيقة قولهم : إنه صار قادراً بعد أن لم يكن قادراً . وهذا حقيقة التغير ، مع أنه لم يحدث سبب يوجب كونه قادراً .

وإذا قالوا : هو فى الأزل قادر على ما لا يزال .

قيل : هذا جمع بين النفى والإثبات ، فهو فى الأزل كان قادراً ، فكان الفعل ممكنا له [٣] أو ممتنعا عليه ؟

إن قلتم : ممكن له ، فقد جوَّزتم دوام كونه فاعلاً ، وأنه قادر / على حوادث لا نهاية لها . ظ ٧٩

وإن قلتم : بل كان ممتنعا . قيل [٤] : القدرة على الممتنع [ممتنعة] [٥] ، فمع كون [٦] الفعل ممتنعا غير ممكن ، لا يكون مقدوراً للقادر ، إنما المقدور هو الممكن لا الممتنع .

فإذا قلتم : أمكنه بعد ذلك . فقد قلتم : إنه أمكنه أن يفعل بعد أن كان لا يمكنه أن يفعل . وهذا صريح فى أنه صار قادراً بعد أن لم يكن ، وهو صريح فى التغير .

---

(١) يكون : ساقطة من (ك) ، (ض) . وأثبتها من (ز) .
(٢) ك ، ض : ما شاء . والمثبت من (ز) .
(٣) ز : وكان الفعل ممكنا له ؛ ض : أفكان القول ممكنا له .
(٤) ك : قبل . وهو تحريف .
(٥) ممتنعة : ساقطة من (ك) ، (ض) . وأثبتها من (ز) .
(٦) ض : مع كون .

فهؤلاء النفاة الذين قالوا : إن المثبتة يلزمهم القول بأنه تغير ، قد بان بطلان قولهم ، وأنهم هم الذين قالوا بما يوجب [١] تغيره .

وإذا قال المنازع [٢] : أنا أريد بكونه تغير [٣] : أنه يتكلم [٤] بمشيئته وقدرته ، وأنه يحب من أطاعه [٥] ، ويفرح بتوبة التائب ، ويأتى يوم القيامة .

قيل : فهب أنك سمَّيت هذا تغيّراً ، فلم قلت : إن هذا ممتنع ؟

فهذا محل النزاع ، كما قال الرازى : « فالمقدم هو التالى » [٦] .

وقد [٧] ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن الله يوصف بالغيرة ، وهى مشتقة من التغير . فقال ﷺ فى الحديث الصحيح : « لا أحد أَغْيَر من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته » [٨] .

---

(١) ض : إنما يوجب ، وهو تحريف . والمثبت من (ك) ، (ز) .

(٢) سبق العبارات التى تبدأ بجملة : « وإذا قال المنازع » كلام فى نسخة (ك) – ونقلته نسخة (ض) – هو فى غير موضعه ، وقد استغرق ثلاثة أسطر . والذى أثبته هو الذى فى نسخة (ز) وهو الصواب ، وسأشير إلى الكلام الذى جاء فى غير موضعه عندما نصل إليه إن شاء الله .

(٣) ض : تغير ، وهو تحريف .

(٤) ك ، ض : تكلم . والمثبت من (ز) .

(٥) ض (فقط) : وأنه يحب منا الطاعة .

(٦) ض (فقط) : هو الثانى ، وهو خطأ .

(٧) ض (فقط) : فقد .

(٨) الحديث عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فى : البخارى ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ولفظه فيه : « يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته يزنى . يا أمة محمد لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » . وجاء الحديث عنها – مطولا ، وأوله : خسفت الشمس فى عهد رسول الله .... الحديث . ومنه : فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله .... » ثم قال : « يا أمة محمد ، والله ما من أحد أغير .... الحديث . وهو – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – فى البخارى ٣٤/٢ (كتاب الكسوف ، باب الصدقة فى الكسوف) ؛ مسلم ٦١٨/٢ (كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف) ؛ سنن النسائى ١٠٨/٣ (كتاب الكسوف ، باب نوع آخر منه (من صلاة الكسوف) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٦٤/٦ .

وقال أيضا : « لا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الرسل وأنزل الكتب [١] ، ولا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » [٢] .

[وفى الحديث الصحيح أيضا لما قال سعد بن عبادة : لو رأيت لَكَاع – يعنى امرأة سعد [٣] – قد تفخّذها رجل لضربته بالسيف] [٤] فقال [٥] : أتعجبون من غيرة سعد ، لأنا أَغْيَر منه ، والله أغير منى » [٦] .

---

(١) ز : من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين . وهى من ألفاظ الحديث .

(٢) الحديث – مع اختلاف فى الألفاظ – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ٥٧/٦ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام ، باب ولا تقربوا الفواحش) ، ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ، ١٢٠/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ويحذركم الله نفسه) ؛ مسلم ٢١١٣/٤ – ٢١١٤ (كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى) ؛ سنن الترمذى ٢٠٠/٥ – ٢٠١ (كتاب الدعوات ، باب حدثنا محمد بن بشار) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٩/٥ – ٢٢٠ ، ٥٦/٦ – ٥٧ ، ٥٩ ؛ سنن الدارمى ١٤٩/٢ (كتاب النكاح ، باب فى الغيرة) .

(٣) فى الأصل (ز) يوجد بياض بعد كلمة امرأة ، ويبدو أنه مكان كلمة محاها الناسخ . وفى « لسان العرب » : « والمرأة لكاع مثل قطام .... وقالوا فى النداء للرجل : يا لُكَعُ ، وللمرأة : يا لَكاع .... وفى حديث سعد بن معاذ : أرأيت إن دخل رجل بيته فرأى لُكاعا قد تفخّذ امرأته ، أيذهب فيحضر أربعة شهداء ؟ » .

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٥) ك ، ض : وقال . والمثبت من (ز) .

(٦) جاء الحديث مطولا ومختصرا مع اختلاف فى الألفاظ عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه فى : البخارى ١٧٣/٨ (كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة ، باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله) ، ١٢٣/٩ – ١٢٤ (كتاب التوحيد ، باب قول النبى ﷺ : لا شخص أغير من الله) ؛ مسلم ١١٣٥/٢ – ١١٣٦ (كتاب اللعان ، الأحاديث ١٤ – ١٧) ؛ سنن الدارمى ١٤٩/٢ (كتاب النكاح ، باب فى الغيرة) .

الحجة الرابعة

(١ **الحجة الرابعة** : قالوا : حلول الحوادث به أُفول ، والخليل قد قال : ﴿ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] . والآفل هو المتحرك الذى تقوم به الحوادث ، فلا يكون إلٰها ١) .

الرد عليها

والجواب : أن قصة الخليل حجة عليهم لا لهم ، وهم المخالفون لإبراهيم ، ولنبيّنا ، ولغيرهما من الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام . وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ • فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ • فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ • إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦ – ٧٩] .

فقد أخبر الله فى كتابه أنه من حين بزغ الكوكب والقمر والشمس ، وإلى حين أفولها ، لم يقل الخليل : لا أحب البازغين ، ولا المتحركين ، ولا المتحولين ، ولا أحب من تقوم به الحركات ولا الحوادث . ولا قال شيئا مما يقوله النفاة ، حتى (٢) أفل الكوكب والشمس والقمر .

والأفول باتفاق أهل اللغة والتفسير ، هو المغِيب (٣) والاحتجاب ، بل هذا معلوم بالاضطرار من لغة العرب التى نزل بها القرآن ، وهو المراد باتفاق العلماء .

(١ – ١) :هذه العبارات جاءت فى (ك) ، (ض) فى غير موضعها حيث أشرت إليها من قبل . والذى أثبته هنا هو الذى فى (ز) ، وهو الصواب .

(٢) ض (فقط) : حين .

(٣) ك ، ض : الغيب .

فلم يقل إبراهيم : لا أحب الآفلين ، حتى [١] أفل وغاب عن الأبصار ، فلم يبق مرئيا ولا مشهودًا ، فحينئذ قال : لا أحب الآفلين . وهذا يقتضى أن كونه متحركا منتقلا تقوم به الحوادث ، بل كونه جسما متحركا تقوم به الحوادث ، لم يكن دليلا عند إبراهيم على نفى محبته .

فإن كان إبراهيم إنما استدل بالأفول على أنه ليس هو رب العالمين كما زعموا ، لزم من ذلك أن يكون ما تقدّم الأفول [٢] من كونه متحركا منتقلا تحله الحوادث ، بل ومن كونه جسما متميزاً ، لم يكن دليلا / عند إبراهيم على أنه ليس رب العالمين ، وحينئذ فيلزم أن تكون قصة إبراهيم حجة على نقيض مطلوبهم ، لا على نفس مطلوبهم [٣] . وهكذا نجد [٤] أهل البدع لا يكادون يحتجون بحجة سمعية ولا عقلية ، إلا وهى عند التأمل [٥] حجة عليهم لا لهم .

ص ٨٠

ولكن إبراهيم لم يقصد بقوله : (هذا ربى) أنه رب العالمين ، ولا كان أحد من قومه يقول [٦] : إنه رب العالمين ، حتى يرد ذلك عليهم [٧] ، بل كانوا مشركين مقرّين بالصانع ، وكانوا يتخذون الكواكب والشمس والقمر أربابا ، يدعونها [٨] من دون الله ، ويبنون لها الهياكل . وقد صُنِّفت [٩] فى مثل مذهبهم كتب ، مثل كتاب

---

(١) ض : حين .
(٢) ك : ما يقوم الأفول ؛ ض : ما يقوم به الأفول . والمثبت من (ز) .
(٣) ك ، ض : لا على تعيين مطلوبهم . والمثبت من (ز) .
(٤) نجد : ساقطة من (ض) .
(٥) ك : عند التأويل .
(٦) ك ، ض : يقولون .
(٧) ض : من تجويز ذلك عليهم ، وهو تحريف .
(٨) ز : يدعونهم .
(٩) ز : صنف .

« السر المكتوم ، فى السحر ومخاطبة النجوم » [١] وغيره من الكتب .

ولهذا قال الخليل : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُم تَعْبُدُونَ ۞ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء ٧٥ – ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] .

ولهذا قال الخليل فى تمام الكلام : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٨ ، ٧٩] . [فقوله : (وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين)] [٢] يبيِّن [٣] أنه إنما يعبد الله وحده ، فله يوجه وجهه ، فإنه [إذا] توجه [٤] قصده إليه تبع [٥] قصده وجهه ، فالوجه موجه [٦] حيث توجه القلب ، فصار قلبه وقصده ووجهه متوجها إلى الله تعالى .

ولهذا قال : (وما أنا من المشركين) لم يذكر أنه أقر بوجود الصانع ، فإن هذا كان معلوماً عند قومه ، لم يكونوا ينازعونه فى وجود فاطر السمٰوات والأرض ،

---

(١) ز : فى مخاطبة النجوم . وقد ذكر هذا الكتاب ابن خلكان (وفيات الأعيان ٣/٣٨١) وابن حجر (لسان الميزان ٤/٤٢٦) والزركلى (الأعلام ٧/٢٠٣) . ومنه نسخ خطية عديدة . انظر ما ذكره بروكلمان فى GAL : GI, 507, SI, 735, 920-924, S.III, 1085 . والأستاذ محمد صالح الزركان فى كتابه « فخر الدين الرازى » ص ١٠٩ – ١١١ ، ط . دار الفكر ، بيروت ، ١٣٨٣/١٩٦٣ .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٣) ك ، ض : بين .

(٤) ك ، ض : .... وجهه إذا توجه .... ؛ ز : فإنه أراد توجه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) ض (فقط) : يتبع .

(٦) ك ، ض : توجه .

وإنما كان النزاع فى عبادة غير الله واتخاذه ربًّا ، وكانوا يعبدون الكواكب السماوية ويتخذون لها أصناما أرضية .

وهذا النوع الثانى من الشرك ، فإن الشرك فى قوم نوح كان أصله من عبادة الصالحين أهل القبور ، ثم صوَّروا تماثيلهم ، فكان شركهم بأهل الأرض ، إذ كان الشيطان إنما يضل الناس بحسب الإمكان ، فكان تزيينه (١) أولا الشرك بالصالحين أيسر عليه .

ثم قوم إبراهيم انتقلوا إلى الشرك بالسماويات ، فالكواكب (٢) وضعوا لها الأصنام بحسب ما رأوه من طبائعها ، يصنعون لكل كوكب [بيتا] وطعاما (٣) وخاتما وبخورا وأقوالا (٤) تناسبه .

وهذا كان قد اشتهر على عهد إبراهيم إمام الحنفاء . ولهذا قال الخليل : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝ أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الصافات : ٨٥ - ٨٧] (٥) . وقال لهم : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تُنْحِتُونَ ۝ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الصافات : ٩٥ ، ٩٦] .

وقصة إبراهيم قد ذكرت فى غير موضع من القرآن مع قومه : إنما فيها نهيهم عن الشرك ، بخلاف قصة موسى مع فرعون ، فإنها ظاهرة فى أن فرعون كان مظهراً لإنكار الخالق وجحوده .

---

(١) ض : ترتيبه . والكلمة غير منقوطة فى (ز) وغير واضحة فى (ك) . ولعل ما أثبته هو الصواب .

(٢) ك ، ض : بالكواكب .

(٣) ك ، ض : لكل كوكب طعاما . والمثبت من (ز) .

(٤) ض : وأموالا .

(٥) جاءت الآية ٨٥ من سورة الصافات محرفة فى (ك) .

وقد ذكر الله عن إبراهيم أنه حاجّ الذى حاجّه فى ربه فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِي وَيمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٨] فهذا قد يقال : إنه كان جاحداً للصانع ، ومع هذا فالقصة ليست صريحة فى ذلك ، بل يدعو الإنسان إلى عبادة نفسه ، وإن كان لا يصرح بإنكار الخالق ، مثل إنكار فرعون .

وبكل حال فقصد إبراهيم إلى أن تكون حجة عليهم أقرب منها إلى أن تكون حجة لهم ، وهذا بيّن ، ولله الحمد ، بل ما ذكره الله عن إبراهيم يدل على أنه كان يثبت ما ينفونه عن الله ، فإن إبراهيم قال : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٩] والمراد أنه [(١)] يستجيب الدعاء ، كما يقول المصلى : سمع الله لمن حمده ، وإنما يسمع [(٢)] الدعاء ويستجيبه بعد / وجوده لا قبل وجوده . ظ ٨٠

كما قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [سورة المجادلة : ١] ، فهى تجادل وتشتكى حال سمع الله تحاورهما [(٣)] ، وهذا يدل على أن سمعه كرؤيته المذكورة فى قوله : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة التوبة : ١٠٥] وقال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة يونس : ١٤] فهذه رؤيه مستقلة ونظر مستقل . وقد تقدم أن المعدوم لا يُرى ولا يُسمع منفصلا عن الرائى السامع باتفاق العقلاء ، فإذا وُجدت الأقوال والأعمال سمعها ورآها [(٤)] .

---

(١) ك ، ض : والمراد به أنه ...

(٢) ك : يستمع .

(٣) ك : تجاورها ، وهو تحريف .

(٤) ز : الأعمال والأقوال رآها وسمعها .

والرؤية والسمع أمر وجودى لابد له من موصوف يتصف به ، فإذا كان هو الذى رآها وسمعها ، امتنع أن يكون غيره هو المتصف بهذا السمع وهذا الرؤية ، وأن تكون قائمة بغيره ، فتعين قيام (١) هذا السمع وهذه الرؤية به ، بعد أن خُلقت الأعمال والأقوال ، وهذا قطعى (٢) لا حيلة فيه .

وقد بُسط الكلام على هذه المسألة ، وما قاله (٣) فيها عامة الطوائف ، فى غير هذا الموضع ، وحُكيت ألفاظ الناس [وحججهم] (٤) بحيث يتقين الإنسان أن النافى ليس معه حجة لا سمعية ولا عقلية ، وأن الأدلة العقلية الصريحة موافقة لمذهب السلف وأهل الحديث (٥) ، وعلى ذلك يدل الكتاب والسنة ، مع الكتب المتقدمة : التوراة والإنجيل والزبور ، فقد اتفق عليها نصوص الأنبياء وأقوال السلف وأئمة العلماء ، ودلت عليها (٦) صرائح المعقولات .

فالمخالف فيها كالمخالف فى أمثالها ممن ليس معه حجة لا سمعية ولا عقلية ، بل هو شبيه بالذين قالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة الملك : ١٠] . قال الله تعالى (٧) : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [سورة الحج : ٤٦] (٨) .

---

(١) ك : مقام ، وهو تحريف .

(٢) ك ، ض : مطعن .

(٣) ك ، ض : وما قال .

(٤) وحججهم : ساقطة من (ك) ، (ض) .

(٥) ز : لمذهب أهل الحديث والسلف .

(٦) ز : عليه .

(٧) ز : وقال تعالى .

(٨) فى (ك) ، (ض) ، (ز) حرفت الآية إلى أو لم يسيروا ....

ولكن هذه المسألة ومسألة الزيارة وغيرهما حدث من المتأخرين فيها شبه .

وأنا وغيرى كنا على مذهب الآباء فى ذلك : نقول فى الأصلين بقول أهل البدع ، فلما تبين لنا ما جاء به الرسول دار الأمر بين أن نتبع ما أنزل الله ، أو نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فكان الواجب هو اتباع الرسول ، وأن لا نكون ممن قيل فيه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [سورة لقمان : ٢١] .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ [سورة الزخرف : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [سورة لقمان : ١٥] .

فالواجب اتّباع الكتاب المنزّل والنبى المرسل ، وسبيل من أناب إلى الله فاتّبع الكتاب والسنة ، كالمهاجرين والأنصار ، دون ما خالف ذلك من دين الآباء وغير الآباء ، والله يهدينا وسائر إخواننا إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم [١] من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

والله سبحانه أنزل القرآن ، وهدى به الخلق ، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور . وأم القرآن هى فاتحة الكتاب ، قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « يقول الله : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين : نصفها لى ، ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل . فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى . فإذا قال : الرحمن / الرحيم ، قال الله [٢] : أثنى علىَّ عبدى . فإذا ص ٨١

(١) ض (فقط) : أنعم الله عليهم .

(٢) ز : قال يقول الله .

قال : مالك يوم الدين . قال الله [١] : مجدَّنى عبدى [وقال مرة : فوَّض إلى عبدى] [٢] . فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين . قال الله [٣] : هذه [٤] بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل . فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . قال : هؤلاء [٥] لعبدى ولعبدى ما سأل » [٦] .

فهذه السورة فيها لله الحمد فى الدنيا [٧] والآخرة ، وفيها للعبد [٨] السؤال ، وفيها لله العبادة له وحده [٩] ، وللعبد [١٠] الاستعانة ، فحق الرب حمده وعبادته وحده ، وهذان [١١] : حمد الرب وتوحيده ، يدور عليهما جميع الدين .

ومسألة الصفات الاختيارية هى من تمام حمده ، فمن لم يقر بها لم يمكنه الإقرار بأن الله محمود ألبتة ، ولا أنه رب العالمين ، فإن الحمد ضد الذم ، والحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة له ، والذم هو الإخبار بمساوئ المذموم مع البُغض له .

---

(١) كلمة « الله » ليست فى (ز) .
(٢) ما بين المعقوفتين زيادة فى (ز) .
(٣) كلمة « الله » ليست فى (ز) .
(٤) ز : هذا .
(٥) ز : هذا .
(٦) سبق الحديث فى هذا الجزء (ص ٢٤ — ٢٥) .
(٧) ك ، ض : فيها لله الحمد فله الحمد فى الدنيا .... والمثبت من (ز) .
(٨) ز : للعبدى ، وهو تحريف .
(٩) ك ، ض : وفيها العبادة لله وحده . والمثبت من (ز) .
(١٠) ز : للعبد .
(١١) ز : وهو أن ، وهو تحريف .

وجماع المساوئ فعل الشر ، كما أن جماع المحاسن فعل الخير ، فإذا كان يفعل الخير بمشيئته وقدرته استحق الحمد ، فمن لم يكن له فعل اختيارى يقوم به ، بل ولا يقدر على ذلك ، لا يكون خالقا ولا ربًّا للعالمين .

[والله تعالى يحمد نفسه بأفعاله ، لقوله : ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الفاتحة : ٢]] (١) ، وقوله : ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [سورة الأنعام : ١] ، ﴿ اَلْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِه الكِتَابَ ﴾ [سورة الكهف : ١] ونحو ذلك ، فإذا لم يكن له فعل يقوم به باختياره امتنع ذلك كله ، فإنه من المعلوم بصريح العقل أنه إذا خلق السمٰوات والأرض فلابد من فعل يصير به (٢) خالقا [لها] (٣) ، وإلا فلو استمر الأمر على حال واحدة ولم (٤) يحدث فعلا ، لكان الأمر على ما كان [عليه] (٥) قبل أن يخلق ، وحينئذ فلم يكن المخلوق موجوداً ، فكذلك يجب أن لا يكون المخلوق موجودا ، إن كان الحال فى المستقبل مثلما كان فى الماضى ، لم يحدث من الرب فعل هو خلق السمٰوات والأرض .

وقد قال تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الكهف : ٥١] . ومعلوم أنهم قد شهدوا نفس المخلوق ، فدل على أن الخلق [الذى] (٦) لم يشهدوه ، وهو تكوينه لهما (٧) وإحداثه لهما (٨) غير المخلوق التالى (٩) .

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .
(٢) به : ساقطة من (ز) .
(٣) لها : زيادة فى (ز) .
(٤) ك ، ض : ... واحدة لم ...
(٥) عليه : ساقطة من (ك) ، (ض) .
(٦) الذى : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٧) ك ، ض : لها .
(٨) ك ، ض ، ز : لها . ولعل الصواب ما أثبته .
(٩) ك ، ض : الباقى .

وأيضا فإنه قال : ﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٤] ، فالخلق لها كان فى ستة أيام ، وهى موجودة بعد الستة [١] ، فالذى اختص بالستة [٢] غير الموجود بعد الستة [٣] .

وكذلك [قال] [٤] : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [سورة الفاتحة : ٣] فإن الرحمن الرحيم هو الذى يرحم العباد [٥] بمشيئته وقدرته ، فإن لم يكن له رحمة إلا نفس الإرادة [٦] القديمة ، أو صفة أخرى قديمة ، لم يكن موصوفا بأنه يرحم من يشاء ويعذب من يشاء .

قال الخليل [٧] : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٢٠ ، ٢١] ، فالرحمة ضد التعذيب ، والتعذيب فعله ، وهو يكون بمشيئته ، وكذلك [٨] الرحمة تكون بمشيئته ، كما قال : ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ . [illegible] ة القديمة اللازمة لذاته ، أو صفة أخرى كذلك [٩] ، ليست بمشيئته ، فلا [illegible] بمشيئته .

وإن قيل ليس بمشيئته إلا المخلوقات المباينة ، لزم أن لا تكون [الرحمة] [١٠]

---

(١) ك ، ض : بعد المشيئة .
(٢) ك ، ض : بالمشيئة .
(٣) ك ، ض : المشيئة .
(٤) قال : ساقطة من (ك) ، (ض) .
(٥) ز : العياد ، وهو تحريف .
(٦) ك ، ض : إرادة ، وهو تحريف .
(٧) عبارة « قال الخليل » : ساقطة من (ز) .
(٨) ك ، ض : كذلك .
(٩) ض : لذاته .
(١٠) الرحمة : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .

صفة للرب بل تكون مخلوقة له ، وهو إنما يتصف بما يقوم به ، لا يتصف بالمخلوقات ، فلا يكون هو الرحمٰن الرحيم .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » وفى رواية : « تسبق غضبى » [(١)] ، وما كان سابقا لما يكون بعده لم يكن / إلا بمشيئة الرب وقدرته . ومن قال ما ثمّ رحمة إلا إرادة قديمة ، أو ما يشبهها ، امتنع أن يكون له غضب مسبوق بها ، فإن الغضب إن فُسِّر بالإرادة فالإرادة لم تسبق نفسها ، وكذلك [إن] [(٢)] فُسِّر بصفة قديمة العين ، فالقديم لا يسبق بعضه بعضا ، وإن فسر بالمخلوقات لم يتصف برحمة ولا غضب .

ظ ٨١

وهو قد فرّق بين غضبه وعقابه بقوله : ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [سورة النساء : ٩٣] ، وقوله : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ آلظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ آلسَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [سورة الفتح : ٦] .

(★ وفى الحديث الذى رواه [عبد الله بن عمرو بن العاص] [(٣)] عن النبى

---

(١) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ١٠٦/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى قوله تعالى : وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) ، ١٥٩/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : بل هو قرآن مجيد) ؛ مسلم ٢١٠٧/٤ - ٢١٠٨ (كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه) ؛ سنن الترمذى ٢٠٩/٥ - ٢١٠ (كتاب الدعوات ، باب ١٠٩) ؛ سنن ابن ماجة ١٤٣٥/٢ (كتاب الزهد ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٣/١٣ ، ٢٤٣ ، ٢٦٥ ، (ط . الحلبى) ٣١٣/٢ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ .

(٢) إن : ساقطة من (ك) ، وأثبتها من (ز) ، (ض) .

(★ - ★) ما بين النجمتين ساقط من (ز) .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ومكانه بياض فيها ، وفى (ض) : رواه الإمام أحمد عن النبى .. إلخ . ولعل الصواب ما أثبته .

ﷺ أنه كان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون » * [(١)] .

ويدل على ذلك قوله : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ [سورة الإسراء : ٥٤] فعلّق الرحمة بالمشيئة ، كما علق التعذيب [بالمشيئة] [(٢)] ، وما تعلَّق بالمشيئة مما يتصف به الرب فهو من الصفات الاختيارية .

وكذلك كونه مالكا ليوم الدين ، يوم [(٣)] يدين العباد بأعمالهم : إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَايَوْمُ ٱلدِّين * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله ﴾ [سورة الانفطار : ١٧ - ١٩] [(٤)] ، فإن الملك هو الذى يتصرف [بالأمر] يأمر فيطاع [(٥)] ، ولهذا إنما يقال : « ملك » لحيٍّ مطاع الأمر [(٦)] ، لا يقال فى الجمادات لصاحبها : « ملك » ، إنما يقال له : « مالك » . ويقال ليعسوب النحل : « ملك النحل » لأنه يأمر فيُطاع ، والمالك القادر على التصرف فى المملوك .

---

(١) الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (وهو عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما) فى : سنن أبى داود ١٧/٤ (كتاب الطب ، باب كيف الرقى) ؛ سنن الترمذى ٢٠٠/٥ (كتاب الدعوات ، باب ٩٦) وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب . وأول الحديث عنده : « إذا فزع أحدكم فى النوم فليقل : أعوذ بكلمات ... الحديث . وهو عنه أيضا فى المسند (ط . المعارف) ٢٢٢/١٠ - ٢٢٣ . والحديث - مع اختلاف يسير فى الألفاظ - عن الوليد بن الوليد رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٥٥٧/٤ ، ٦/٦ . وعن يحيى بن سعيد عن خالد بن الوليد رضى الله عنه فى : الموطأ ٩٥٠/٢ (كتاب الشعر ، باب ما يؤمر به من التعوذ) .

(٢) بالمشيئة : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .

(٣) يوم : ساقطة من (ز) .

(٤) فى (ك) ، (ض) ، (ز) : يوم الدين وما أدراك ما يوم الدين يوم ... إلخ .

(٥) ك ، ض : يتصرف بأمر فيطاع . والمثبت من (ز) .

(٦) ك ، ز : لحى مطيع الأمر . والمثبت من (ض) .

وإذا كان الملك هو الآمر الناهى المطاع ، فإن كان يأمر وينهى بمشيئته كان أمره ونهيه من الصفات الاختيارية ، وبهذا أخبر القرآن . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [سورة المائدة : ١] .

وإن كان لا يأمر وينهى بمشيئته ، بل أمره لازم له حاصل بغير مشيئته ولا قدرته ، لم يكن هذا مالكا أيضا ، بل هذا إلى أن يكون مملوكا [أقرب] (١) ، فإن الله تعالى خلق الإنسان ، وجعل له صفات تلزمه ، كاللون (٢) والطول والعرض والحياة (٣) ، ونحو ذلك ، مما يحصل (٤) لذاته بغير اختياره ، فكان (٥) باعتبار ذلك (٦) مملوكا مخلوقا للرب فقط ، وإنما يكون ملكا إذا كان يأمر وينهى (٧) باختياره فيطاع (٨) ، وإن كان الله خالقا لفعله ولكل شئ .

ولكن المقصود أنه لا يكون ملكا إلا من (٩) يأمر وينهى بمشيئته وقدرته (١٠) ، [فمن نفى الصفات الاختيارية وقال : ليس للرب أمر ونهى يقوم به بمشيئته] (١١) بل من قال : إنه لازم له بغير مشيئته ، أو قال : إنه مخلوق له ، فكلاهما يلزمه أنه لا يكون ملكا .

---

(١) أقرب : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .

(٢) ز : كالقوى .

(٣) ض : والحياء .

(٤) ك : يجعل ، وهو تحريف .

(٥) ك ، ز : كان . والمثبت من (ض) .

(٦) ذلك : غير ظاهرة فى (ز) .

(٧) وينهى : ساقطة من (ز) .

(٨) فيطاع : غير واضحة فى مصورة (ز) .

(٩) إلا من : مطموسة فى (ز) .

(١٠) وقدرته : ساقطة من (ز) .

(١١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) وأثبته من (ز) . وكلمة « أمر » طمست بعض حروفها فى مصورة (ز) .

وإذا لم يمكنه أن يتصرف بمشيئته لم يكن ملكا [١] أيضا ؛ فمن قال : إنه لا يقوم به فعل اختيارى لم يكن عنده فى الحقيقة مالكا لشىء . وإذا اعتبرت سائر القرآن وجدت أنه من لم يقر بالصفات الاختيارية ، لم يقم [٢] بحقيقة الإيمان ولا القرآن .

فهذا يبين أن الفاتحة وغيرها تدل على الصفات الاختيارية . وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [سورة الفاتحة : ٥] فيه إخلاص العبادة لله والاستعانة به ، وأن المؤمنين لا يعبدون إلا الله ولا يستعينون إلا بالله ، فمن دعا غير الله من المخلوقين / أو [٣] استعان بهم ، من أهل القبور أو غيرهم [٤] ، لم يحقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، ولا يحقق ذلك إلا من فرَّق [٥] بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية ، فإن الزيارة الشرعية عبادة لله ، وطاعة لرسوله ، وتوحيد لله ، وإحسان إلى عباده ، وعمل صالح من الزائر يثاب عليه . والزيارة البدعية شرك بالخالق ، وظلم للمخلوقات [٦] ، وظلم النفس .

ص ٨٢

فصاحب الزيارة الشرعية هو الذى يحقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، ألا ترى أن اثنين لو شهدا جنازة ، فقام أحدهما يدعو للميت ، ويقول : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه ، وأكرم نُزله ووسِّع [٧] مدخله ، واغسله بماء وثلج وبَرد ، ونقِّه من الذنوب والخطايا كما يُنقَّى الثوب الأبيض من

---

(١) ك ، ض : مالكا .
(٢) ز : لم يقر .
(٣) أو : ساقط من (ز) .
(٤) ك ، ض : وغيرهم .
(٥) ك : ولا يحقق ذلك الأمر وفرق ... إلخ ، وهو تحريف .
(٦) ك ، ض : للمخلوق .
(٧) ك : وأوسع .

الدنس ، وأبدله داراً خيرًا من داره ، [وجيرانا خيرا من جيرانه] (١) ، وأهلاً خيراً من أهله ، (٢ وأعذه من عذاب النار وعذاب القبر ، وافسح له فى قبره ، ونوِّر له فيه ٢) ، ونحو ذلك من الدعاء له ، وقام الآخر فقال : يا سيدى أشكو إليك ديونى وأعدائى وذنوبى ، وأنا (٣) مستغيث بك ، مستجير بك ، [أجرنى] (٤) ، أغثنى ، ونحو ذلك ، لكان الأول عابداً لله ، ومحسناً (٥) إلى خلقه ، محسنا إلى نفسه بعبادة الله ونفع (٦) عباده ، وهذا الثانى مشركاً [بالله] (٧) مؤذياً ظالماً معتديا على [هذا] (٨) الميت ظالما لنفسه .

فهذا بعض ما بين البدعية والشرعية من الفروق . والمقصود أن صاحب الزيارة الشرعية إذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كان صادقا ، لأنه لم يعبد إلا الله ، ولم يستعن إلا به ، وأما صاحب الزيارة البدعية فإنه عبد غير الله واستعان بغيره .

فهذا بعض ما يبين أن الفاتحة – أم القرآن – اشتملت على بيان المسألتين المتنازع فيهما : مسألة الصفات الاختيارية ، ومسألة الفرق بين الزيارة الشرعية والزياة البدعية . والله تعالى هو المسئول أن يهدينا وسائر إخواننا إلى صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٢ – ٢) : ساقط من (ز) .

(٣) ك ، ض : أنا .

(٤) أجرنى : زيادة فى (ز) .

(٥) ز : محسنا .

(٦) ك ، ض : ونفعه .

(٧) بالله : ليست فى (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .

(٨) هذا : زيادة فى (ز) .

ومما يوضّح ذلك أن النبى ﷺ قال : « إذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى ، فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال أثنى علىّ (١) عبدى ، فإذا قال (٢) : مالك يوم الدين ، قال الله : مجدنى (٣) عبدى » فذكر الحمد والثناء والمجد ، [ثم] (٤) بعد ذلك يقول : إياك نعبد وإياك نستعين إلى آخرها .

هذا فى أول القراءة : فى قيام الصلاة ، ثم فى آخر القيام بعد الركوع يقول : « ربنا ولك الحمد ، (٥ ملء السماء وملء الأرض ، إلى قوله ٥) : أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد – وكلنا لك عبد – : لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » (٦) .

وقوله : « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف : أى هذا الكلام أحق ما قال العبد ، فتبين أن حمد الله والثناء عليه [وتمجيده] (٧) أحق ما قاله العبد ، وفى ضمنه توحيده ، لأنه قال (٨) : « ولك الحمد » أى لك لا لغيرك . وقال فى

---

(١) علىّ : ساقطة من (ز) .
(٢) قال : ساقطة من (ز) .
(٣) ز : قال مجدنى ...
(٤) ثم : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٥ –٥) : ساقط من (ز) .
(٦) الحديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى : مسلم ٣٤٧/١ (كتاب الصلاة ، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع) ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ١٥٦/٢ (كتاب التطبيق ، باب ما يقوله فى قيامه ذلك) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٨٧/٣ . والحديث بألفاظ مقاربة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى مسلم (فى نفس الكتاب والباب السابقين) وعن شعبة بن الحكم فى : مسلم ٣٤٣/١ (كتاب الصلاة ، باب اعتدال أركان الصلاة) . وانظر : الأذكار للنووى ، ص ٥٢ – ٥٣ (باب ما يقوله فى رفع رأسه من الركوع وفى اعتداله) ؛ جامع الأصول لابن الأثير ٣٥/٥ – ٣٦ .
(٧) فى (ز) : والثناء عليه ومجد . ولعل الصواب ما أثبته .
(٨) ك : لا قال ، وهو تحريف . وفى (ض) : إذا قال . والمثبت من (ز) .

آخره : « لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت » وهذا يقتضى انفراده بالعطاء والمنع ، فلا يستعان إلا به ، ولا يطلب إلا منه . ثم قال : « ولا ينفع ذا الجد منك الجد » فبيّن أن الإنسان وإن أُعطى الملك والغنى والرياسة ، فهذا لا ينجيه منك ، إنما ينجيه الإيمان والتقوى . وهذا تحقيق قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) ، وكان هذا الذكر (٢) آخر القيام مناسبا للذكر (٣) أول القيام .

ظ ٨٨ وقوله : « أحق ما قال العبد » يقتضى أن يكون حمد الله أحق / الأقوال بأن يقوله العبد ، وما كان أحق الأقوال كان أفضلها وأوجبها على الإنسان .

ولهذا افترض (٤) الله (٥) على عباده فى كل صلاة أن يفتتحوها بقولهم : (الحمد لله رب العالمين) . وأمرهم أيضا أن يفتتحوا كل خطبة بالحمد لله ، فأمرهم أن يكون [الحمد لله] (٦) مقدَّماً على كل كلام : سواء كان خطاباً للخالق أو خطابا للمخلوق .

ولهذا يقدّم النبى ﷺ الحمد أمام الشفاعة يوم القيامة (٧) . ولهذا أُمرنا

---

(١) عبارة « إياك نستعين » : ليست فى (ز) .

(٢) ك : فكان فى هذا الذكر ؛ ض : فكان هذا الذكر .

(٣) ك ، ض : ... القيام لأنه ذكر ... ، وهو تحريف . والمثبت من (ز) .

(٤) ك : افرض ، وهو تحريف .

(٥) لفظ الجلالة ليس فى (ز) .

(٦) عبارة « الحمد لله » : ساقطة من (ك) ، (ض) وأثبتها من (ز) .

(٧) ز : أمام شاعته (كذا) يوم القيامة . وفى حديث الشفاعة الذى ذكره البخارى فى صحيحه ٨٤/٦ – ٨٥ (كتاب التفسير ، سورة بنى إسرائيل : باب ذرية من حملنا مع نوح) .... « فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فانطلق فآتى تحت العرش ، فأقع ساجداً لربى عز وجل ، ثم يفتح الله علىّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ... الحديث . وجاء حديث الشفاعة فى مواضع كثيرة فى الصحيحين وغيرهما . وانظر ما ذكرته من قبل فى هذا الجزء (ص ٢٥) .

بتقديم الثناء على الله فى التشهد قبل الدعاء [١] . وقال النبى ﷺ : « كل أمر ذى بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » [٢] .

وأول من يُدعى إلى الجنة الحمَّادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء .

---

(١) انظر الأحاديث المختلفة التى جاءت فيما يقال فى التشهد فى : جامع الأصول لابن الأثير ٦/٢٦٤ - ٢٦٩ .

(٢) لم أجد حديثا بهذا اللفظ ، ولكن ذكر السيوطى فى « الجامع الصغير » حديثا عن أبى هريرة رضى الله عنه هو : « كل أمر ذى بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع » وذكر السيوطى أن الحديث قد أخرجه ابن ماجة والبيهقى فى السنن (هـ ، هق) . وأورد الألبانى الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير وزيادته » ٤/١٤٧ . وقال : « ضعيف » . كما أورد الألبانى حديثا آخر أخرجه السيوطى عن أبى هريرة وهو : « كل أمر ذى بال لا يُبدأ فيه بحمد الله ، والصلاة علىّ فهو أقطع أبتر ممحوق من كل بركة » وقال السيوطى : (الرهاوى عن أبى هريرة) . وقال الألبانى (المرجع السابق ٤/١٤٨) : « ضعيف » . وذكر السيوطى هذا الحديث الأخير فى « الجامع الكبير » ١/٦٢٣ وقال : « الديلمى والحافظ عبد القادر بن عبد الله الرهاوى فى الأربعين عن أبى هريرة . وقال الرهاوى : غريب تفرد بذكر الصلاة فيه إسماعيل بن أبى زياد الشامى وهو ضعيف جدا لا يعتد بروايته ولا بزيادته » وذكر السيوطى فى « الجامع الكبير » ١/٦٢٣ حديثا ثالثا هو : « كل كلام لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم » وقال : « هـ (ابن ماجة) ن (النسائى) والعسكرى فى الأمثال عن أبى هريرة » . على أن السيوطى ذكر نفس الحديث فى الجامع الصغير ٢/٩٤ (ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٥٨/١٩٣٩) وقال عنه : « أبو داود) عن أبى هريرة صحـ (صحيح) » . وذكر هذا الحديث الألبانى فى « ضعيف الجامع الصغير وزيادته » ٤/١٥٣ وقال : « ضعيف » . وجاءت كلمة « أجذم » فى « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى » فى أحاديث أخرى ، ولم يذكر « المعجم » الحديث الذى أورده ابن تيمية ولكن أشار إلى حديث آخر صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه هو : « كل خطبة ليس فيها تشهد فهى كاليد الجذماء » وأخرج الحديث أبو داود والترمذى والإمام أحمد فى مسنده وصححه الألبانى (صحيح الجامع الصغير ٤/١٧٢) . وقال النووى فى « الأذكار » (ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٧١/١٩٥٢) ص ٢٤٩ : « روينا فى سنن أبى داود وابن ماجة وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « كل كلام » وفى بعض الروايات « كل أمر لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » وروى « أقطع » وهما بمعنى . هذا حديث حسن . وأجذم : بالجيم والذال المعجمة ، ومعناه : قليل البركة » .

وانظر ما سبق : جامع الرسائل ١/١٠٨ .

وقوله : ﴿ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ : جعله ثناءً . وقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ : جعله تمجيدا . وقوله : ﴿ الحَمْدُ للهِ ﴾ [١] حمدٌ مطلق ، فإن الحمد اسم جنس له كمية [٢] وكيفية ، فالثناء تثنيته [٣] وتكبيره تعظيم كميته [المنفصلة] [٤] ، والمجد هو السعة والعلو ، فهو تعظيم [٥] كيفيته [٦] وقدرة وكميته المتصلة .

وذلك أن هذا وصف له بالملك ، والملك يتضمن القدرة وفعل ما يشاء . والرحمن الرحيم : وصف بالرحمة المتضمنة لإحسانه إلى العباد بمشيئته وقدرته أيضا ، والخير يحصل بالقدرة والإرادة التى [٧] تتضمن الرحمة ، فإذا كان قديرا مريداً للإحسان حصل كل خير ، وإنما يقع النقص لعدم القدرة ، أو لعدم إرادة الخير ، فالرحمن الرحيم الملك قد اتّصف بغاية إرادة الاحسان وغاية القدرة ، وذلك يحصل به [كل خير] [٨] خير الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ مع أنه ملك الدنيا ، لأن يوم الدين لا يدَّعى أحدٌ فيه منازعة ، وهو اليوم الأعظم ، فما [٩] الدنيا فى الآخرة إلا كما يضع أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع [١٠] .

---

(١) كلمة « لله » ليست فى (ز) .
(٢) ك ، ض : اسم جنس والجنس له كمية ...
(٣) ض : كميته . والكلمة فى (ك) غير واضحة .
(٤) ك ، ض : وتكبيرة وتعظيمه كيفيته . والمثبت من (ز) .
(٥) ك ، ض : تعظيم . والمثبت من (ز) .
(٦) ك : كيفيته .
(٧) ز : أى .
(٨) عبارة « كل خير » : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٩) ك : كما ، وهو تحريف .
(١٠) ك : ترجع .

و « الدين » عاقبة أفعال العباد ، وقد يدل بطريق التنبيه – أو بطريق [١] العموم عند بعضهم – على ملك الدنيا ، فيكون له الملك وله الحمد ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة التغابن : ١] ، وذلك يقتضى أنه قادر على أن يرحم ، ورحمته وإحسانه وصف له يحصل بمشيئته ، وهو من الصفات الاختيارية .

وفى الصحيح أن النبى ﷺ كان يعلّم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلّمهم السورة من القرآن ، يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم [٢] ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب [٢] ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر – ويسمّيه باسمه – خير لى فى دينى ودنياى [٣] ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاقدره لى ويسِّره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر [٤] شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان » [٥] .

فسأله بعلمه وقدرته ومن فضله ، وفضله يحصل برحمته . وهذه الصفات هى جماع صفات الكمال ، لكن العلم له عموم التعلق : يتعلق بالخالق والمخلوق ،

---

(١) ك ، ض : وبطريق .
(٢ – ٢) : ساقط من (ز) .
(٣) ودنياى : ليست فى (ز) .
(٤) ز : وإن كنت تعلم أنه ....
(٥) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : البخارى ٥٦/٢ (كتاب التهجد ، باب ما جاء فى التطوع) ، ٨١/٨ (كتاب الدعوات ، باب الدعاء عند الاستخارة) ، ١١٨/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : قل هو القادر) ؛ سنن أبى داود ٨٩/٢ ، ٩٠ (كتاب الوتر ، باب فى الاستخارة) ؛ سنن الترمذى ٢٩٨/١ – ٢٩٩ (كتاب الوتر ، باب ما جاء فى صلاة الاستخارة) ؛ سنن النسائى ٦٦/٦٠ (كتاب النكاح ، باب كيف الاستخارة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٤٤/٣ .

والموجود والمعدوم . وأما القدرة فإنما تتعلق [بالممكن ، والإرادة إنما تتعلق بالموجود المخلوق ، والرحمة أخص منها فإنما تتعلق] [١] بالمخلوق ، وكذلك الملك إنما يكون ملكا على المخلوقات .

فالفاتحة اشتملت على الكمال فى الإرادة ، وهو : الرحمة ، وعلى الكمال فى القدرة ، وهو : مالك يوم الدين . وهذا وهذا إنما يتم بالصفات الاختيارية ، كما تقدم . والله سبحانه وتعالى أعلم [٢] .

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) . وأثبته من (ز) .

(٢) ز : والله أعلم . وبعد هذه العبارة (ز) : والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم . وفى (ك) بعد كلمة « أعلم » : آخر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه .

الرسالة الثانية

شرح كلمات من "فتوح الغيب"

ص ١ / (* هذا كتاب يشتمل على شرح كلمات رويت عن الشيخ الإمام العالم، الناسك الزاهد، عبد القَادر الكيلانى رحمه الله تعالى، فى كتابه المعروف « بفتوح الغيب » وشرحها شيخ الإسلام، ومفتى الشام، الإمام العالم العامل، الزاهد الورع، تقى الدين أبو العباس أحمد، بن عبد الحليم، بن عبد السلام، بن تيمية الحرَّانى، نفع الله به، وأثابه الجنة، وغفر له ولجميع المسلمين، آمين، ومتَّعه الله بالثناء الجميل، والعطاء الجزيل .

ظ ١ / بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، توكلتُ عَلى اللهِ .

قال شيخنا الإمام العلامة شيخُ الإسلام، أبو العباس أحمد، بن عبد الحليم، بن عبد السلام، العالم الربَّانى، والعامل النورانى بن تيميّة الحرَّانى، رَضِى اللهُ عنه وأرضاه *) .

الحمدُ لله [نحمده] ونستعينه [ونستهديه] [1] ونستغفره، ونعوذ باللهِ من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده [2] الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا

(* - *) ما بين النجمتين فى (ز) = (مخطوطة ليبزيج) فقط، ومكان هذا الكلام فى (ض) = مجموع فتاوى الرياض، المطبوع بالرياض (١٠/٤٥٥ - ٥٤٩) : « قال شيخ الإسلام، علامة الزمان، أبو العباس أحمد بن تيمية، قدّس الله روحه، ونوَّر ضريحه » .

(١) فى الأصل (ز) : الحمد لله نستعينه . والمثبت من (ض) .

(٢) ض : من يهد .

هادى له . ونشهد [١] أن لا إله إلا الله [وحده لا شريك له] [٢] ونشهد [٣] أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرًا [٤] .

قال الجيلانى : لابد لكل مؤمن من أمر يمتثله ونهى يجتنبه وقدر يرضى به

[فصل] [٥]

قال الشيخ أبو محمد عبد القادر [الكيلانى] [٦] فى كتاب « فتوح الغيب » [٧] : « لابُدَّ لكل مؤمن فى سائر أحَوالِه من ثلاثة أشياء : أمرٌ يمتثله ، ونهى يجتنبه ، وقدر يرضى به . فأقل حالةٍ لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء [٨] الثلاثة ، فينبغى له أن يُلزم همها [٩] قلبه ، وليحدث [١٠] بها نفسَهُ ، ويأخذ بها الجوارح [١١] فى سائر [١٢] أحواله » .

---

(١) ض : وأشهد .

(٢) وحده لا شريك له : زيادة فى (م) = مجموع ٦٩ ظاهرية (مسودات ابن تيمية) ، ص ٢٧٧ - ص ٢٨٤ .

(٣) ض : وأشهد .

(٤) ض : ﷺ تسليما كثيرا ؛ م = ﷺ .

(٥) فصل : زيادة فى (ك) = مخطوطة الكواكب الدرارى بدار الكتب المصرية تفسير ٦٤٥ المجلد الخامس والثمانين ص ٥٥ - ظ ٧٠ .

(٦) الكيلانى : زيادة فى (ك) .

(٧) ص ٧ (الهامش) ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٣٠ ، على هامش كتاب « بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى بعض مناقب ... عبد القادر الجيلانى » تأليف على بن يوسف بن جرير اللخمى الشطنوفى .

(٨) الأشياء : ساقطة من (ك) .

(٩) ض : بها .

(١٠) م ، ض : ويحدث .

(١١) فتوح الغيب : ويؤاخذ بها الجوارح .

(١٢) م ، ض : فى كل .

تعليق ابن تيمية

قلت (١) : هذا كلام شريف جامع ، يحتاج إليه كل أحدٍ ، وهو تَفْصيل لما يحتاج إليه العبدُ ، وهى مطابقةٌ لقوله تعالى : / ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٠] . ولقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٠] . ولقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٦] .

ص ٢

(٢ فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور . والصبر يتضمن الصبر على المقدور . فالثلاثة ترجعُ إلى هٰذين الأصلين ٢) ، والثلاثة فى الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر ، وهو طاعة الله ورسوله .

فحقيقة الأمر أن كل عبد فإنه محتاج فى كل وقت إلى طاعة الله ورسوله ، وهو أن يفعل فى ذلك الوقت ما أُمر به فى ذلك الوقت .

وطاعة الله ورسوله هى عبادة الله التى خلق لها الجنّ والإنس . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر : ٩٩] ، وقال تعالى (٣) : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١] (٤) .

والرسل كلهم أمروا قومهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً . وقال (٥)

---

(١) ك : قال شيخ الإسلام ، مفتى الأنام ، بحر العلوم ، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية قلت ...

(٢ – ٢) هذه العبارات فى هامش (م) وهى غير واضحة .

(٣) تعالى : ليست فى (ك) .

(٤) ك : الذى خلقكم .. الآية .

(٥) ك : فقال .

تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٤٥] .

ظ ٢

الثلاثة ترجع إلى امتثال الأمر

وإنما كانت الثلاثة ترجع إلى امتثال الأمر ، لأنه فى الوقت الذى يؤمر فيه بفعل [أمور] من الفرائض [١] : كالصلوات الخمس والحج ونحو ذلك ، [٢] يحتاج إلى فعل ذلك المأمور .

وفى الوقت الذى تحدث [٣] أسباب المعصية [٢] ، يحتاج إلى الامتناع والكراهة والإمساك عن ذلك ، وهذا فعل لما أُمر به فى هذا الوقت ، وأما من لم تخطر له المعصية ببال ، فهذا لم يفعل شيئا يؤجَرُ عليه ، ولكن عدم ذنبه مستلزم لسلامته من عقوبة الذنب . والعدم المحض المستمر لا يُؤمر به ، وإنما يؤمر بأمرٍ يقدر عليه العبد ، وذاك لا يكون إلا حادثا : سواء كان إحداث إيجاد أمرٍ ، أو إعدام أمرٍ .

وأما القدر الذى يرضى به ، فإنه إذا ابتُلى بالمرض أو الفقر أو الخوف ، فهو مأمور بالصبر أمر إيجاب ، ومأمور بالرضا : إما أمر إيجاب ، وإما أمر استحباب ، وللعلماء من أصحابنا وغيرهم فى ذلك قولان . ونفس الصبر والرضا بالمصائب هو طاعة لله ورسوله ، فهو من امتثال الأمر ، / [٤] وهو عبادة لله .

ص ٣

لكن هذه الثلاثة وإن دخلت فى امتثال الأمر [٤] عند الإطلاق ، فعند

(١) ز ، ك : بفعل من الفرائض . وأضاف ناشرا (ض) كلمة شئ هكذا : بفعل [شئ] من الفرائض . والذى أثبته من (م) .

(٢ - ٢) ساقط من (ك) .

(٣) ز : يحدث .

(٤ - ٤) : ساقط من (ك) .

التفصيل والاقتران إما أن تخص بالذكر ، وإما أن يُقال : يُراد بهذا ما لا يراد بهذا . كما فى قوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود : ١٢٣] ، وقوله : ﴿ فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى ﴾ [سورة طه : ١٤] ، فإن هذا داخل فى العبادة إذا أطلق اسم العبادة ، وعند الاقتران إما أن يُقال : ذُكِرَ [١] عموماً وخصوصاً ، وإما أن يُقال : ذِكْرُهُ خصوصاً يغنى عن دخوله فى العام .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [سورة الفاتحة : ٥] ، وقوله ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۞ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ۞ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ [سورة المزمل : ٨ – ١٠] ، وقد يُقال : لفظ « التبتل » [٢] لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة .

وبالجملة فرق بين ما يُؤمر به الإنسان ابتداءً ، وبين ما يُؤمر به عند حاجته إلى جلب المنفعة ودفع المضرة ، أو عند حب الشئ وبغضه .

وكلام الشيخ – [٣] قدّس الله روحه – يدور [٣] على هذا القطب ، وهو أن يفعل المأمور ، ويترك / المحظور ، ويخلو فيما سواهما عن إرادة [٤] ، لئلا يكون له [هو] [٥] مراد غير فعل ما أمره به ربه [٦] ، وما لم يُؤمر به العبد ، بل فعله الرب

ظ ٣

---

(١) ض (فقط) : ذكره .

(٢) ض (فقط) : التبتيل .

(٣ – ٣) : هذه الكلمات مطموسة فى مصورة (م) .

(٤) ك (فقط) : إرادته .

(٥) هو : زيادة فى (م) .

(٦) ك ، ض : ما أمر الله به . والمثبت من (ز) ، (م) .

عز وجل [١] بلا واسطة العبد ، أو فعله بالعبد بلا هوًى من العبد . فهذا هو القدر الذى عليه أن يرضى به .

وسيأتى من كلام الشيخ ما يبين مراده ، وأن العبد فى كل حال عليه أن يفعل ما أُمر به ويترك ما نهى عنه . وأما إذا لم يكن هو أمراً للعبد [٢] بشئ من ذلك ، فما فعله الرب كان علينا التسليم فيما فعله ، (* وهذه هى الحقيقة فى كلام الشيخ وأمثاله .

وتفصيل الحقيقة الشرعية فى هذا المقام أن هذا *) نوعان : أحدهما : أن يكون العبد مأموراً فيما فعله الرب : إما بحبٍ له وإعانة عليه [٣] ، وإما ببغض له ودفع له . والثانى : أن لا يكون العبد مأموراً بواحد منهما .

فالأول مثل البر والتقوى الذى يفعله غيره ، فهو مأمور بحبه وإعانته عليه ، كإعانة المجاهدين فى سبيل الله على الجهاد [٤] ، وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الإمكان ، ومحبة ذلك والرضا / به . وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير إما بنصر [٥] مظلوم ، وإما بتعزية مصاب ، وإما بإغناء فقير ، ونحو ذلك .

ص ٤

وأما ما هو مأمور ببغضه ودفعه ، فمثل ما إذا ظهر الكفر والفسوق والعصيان ، فهو مأمور ببغض ذلك ودفعه وإنكاره بحسب الإمكان . كما قال

---

(١) ك ، ض : تعالى . والكلمة غير واضحة فى (م) .

(٢) ض (فقط) : وأما إذا لم يكن هو أمر العبد ...

(* - *) ما بين النجمتين غير ظاهر فى هامش مصورة (م) .

(٣) ز : له .

(٤) لفظ الجهاد غير ظاهر فى مصورة (م) .

(٥) ز : بنصرة .

النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (١) .

حكم المباحات وأنواعها

وأما ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما ، فمثل ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التى لم يتبين له أنه يُستعان بها على طاعة ولا معصية ، فهذه لا يؤمر بحبها ولا ببغضها ، وذلك مباحات نفسه المحضة التى لم يقصد الاستعانة بها على طاعة ولا معصية ، مع أن هذا نقص منه ؛ فإن الذى ينبغى أنه لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة ، ويقصد الاستعانة بها على الطاعة ، فهذا سبيل المقرَّبين السابقين ، الذين تقربوا (٢) إلى / الله بالنوافل بعد الفرائض ، ولم يزل أحدهم يتقرب إليه بذلك حتى أحبه ، فكان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . ظ ٤

[وأما من فعل المباحات] (٣) مع الغفلة ، أو فعل فضول المباح التى لا يُستعان بها على طاعة ، مع أداء الفرائض واجتناب المحارم ، باطنا وظاهراً ، فهذا من المقتصدين أصحاب اليمين .

وبالجملة الأفعال التى يمكن دخولها تحت الأمر والنهى ، لا تكون مستوية من كل وجه ، بل إن فعلت على الوجه المحبوب كان وجودها خيراً للعبد ،

---

(١) الحديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى : مسلم ٦٩/١ (كتاب الإيمان ، باب كون النهى عن المنكر من الإيمان ....) ؛ سنن أبى داود ٤٠٦/١ (كتاب الصلاة ، باب خطبة يوم العيد) ، ١٧٣/٤ - ١٧٤ (كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهى) ؛ سنن الترمذى ٣١٧/٣ - ٣١٨ (كتاب الفتن ، باب ما جاء فى تغيير المنكر ...) ؛ سنن ابن ماجة ٤٠٦/١ (كتاب إقامة الصلاة ، باب ما جاء فى صلاة العيدين) ، ١٣٣٠/٢ (كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٠/٣ .

(٢) ك : يتقربون .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) فقط .

وإلا كان تركها خيراً له [١] وإن لم يعاقب عليها ، ففضول المباح التى لا تعين على الطاعة ، عدمها خير من وجودها ، إذا كان مع عدمها يشتغل بطاعة الله ، فإنها تكون شاغلة له عن ذلك . وأما إذا قُدِّر أنها تشغله عمَّا هو دونها ، فهى خير له مما دونها ، وإن شغلته عن معصية الله كانت رحمة فى حقه ، وإن كان اشتغاله بطاعة الله خيرا له من هذا وهذا .

وكذلك أفعال الغفلة والشهوة التى يمكن الاستعانة بها على الطاعة ، كالنوم / الذى يُقصد به الاستعانة على العبادة ، والأكل والشرب واللباس والنكاح الذى يمكن الاستعانة به على العبادة ، إذا لم يُقصد به ذلك كان نقصاً من العبد ، وفوات حسنةٍ وخيرٍ يحبه الله . ص ٥

ففى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال لسعد : « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله ، إلا ازددت بها درجة ورفعة ، حتى اللقمة فى فِي امرأتك » [٢] . وقال فى الحديث [٣] الصحيح : « نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة » [٤] .

---

(١) له : ساقطة من (ك) .

(٢) الحديث – مع اختلاف فى بعض الألفاظ – عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى : البخارى ١٦/١ – ١٧ (كتاب الإيمان ، باب ما جاء أن الأعمال بالنية) ؛ مسلم ١٢٥٠/٣ – ١٢٥١ (كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث) ؛ سنن أبى داود ٥٣/٣ (كتاب الوصايا ، باب ما جاء فيما يؤمر به من الوصية) ؛ المسند (ط . المعارف) ٦٣/٣ – ٦٤ ، ٧٣ – ٧٤ .

(٣) الحديث : ساقطة من (ض) .

(٤) الحديث – مع اختلاف فى اللفظ – عن أبى مسعود عقبة بن عامر الأنصارى رضى الله عنه فى : البخارى ١٦/١ (كتاب الإيمان ، باب ما جاء أن الأعمال بالنية ..) ، ٨٣/٥ (كتاب المغازى ، باب حدثنى خليفة ...) ؛ سنن الترمذى ٢٣٢/٣ (كتاب البر ، باب ما جاء فى النفقة على الأهل) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢٧٣/٥ .

فما لا يُحتاج [(١)] إليه من المباحات ، أو يُحتاج إليه ولم يصحبه إيمان يجعله حسنة ، فعدمه خير من وجوده ، إذا كان مع عدمه يشتغل بما هو خير منه . وقد قال النبى ﷺ : « فى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول : أيأتى أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى الحرام أما كان عليه وزر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له بها أجر . [(٢)] : فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال [(٣)] ؟ » .

وذلك أن المؤمن عند شهوة النكاح يقصد أن يعدل عمَّا حرَّمه الله إلى ما أباحه / الله [(٤)] ، ويقصد فعل المباح معتقدا أن الله أباحه ، والله يحب أن يُؤخذ [(٥)] برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته ، كما روى ذلك الإمام [(٦)] أحمد فى المسند ورواه غيره [(٧)] ، ولهذا أحب القصر والفطر [فى السفر] [(٨)] ، فعدول المؤمن عن

ظ ٥

---

(١) ك : فما يحتاج ، وهو تحريف .

(٢) هذا جزء من حديث طويل - مع اختلاف فى الألفاظ - عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى : مسلم ٦٩٧/٢ - ٦٩٨ (كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) وأوله فيه : عن أبى ذر أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قالوا للنبى ﷺ : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ... قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ الحديث . وهو فى : سنن أبى داود ٣٦/٢ - ٣٧ (كتاب التطوع ، باب صلاة الضحى) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٦٧/٥ ، ١٦٨ .

(٣) عبارة : « فلم تعتدون .. إلخ لم أجدها فى أى موضع من المواضع السابقة ، ولكن فى المسند ١٦٧/٥ : « قال أفتحتسبون بالشر ولا تحتسبون بالخير ؟ » .

(٤) لفظ الجلالة ليس فى (م) ، (ك) .

(٥) ض : يأخذ ، وهو تحريف .

(٦) ض (فقط) : كما رواه الإمام ...

(٧) الحديث فى المسند (ط . المعارف) ١٧٠/٨ عن ابن عمر رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : إن الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته » وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح ، وأشار إلى وجود الحديث فى « مجمع الزوائد » ١٦٢/٣ وقال الهيثمى : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، والبزار والطبرانى فى الأوسط ، وإسناده حسن » . وأورد الحديث الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » وقال السيوطى : « حم (أحمد) حب (ابن حبان فى صحيحه) هب (البيهقى فى شعب الإيمان) عن ابن عمر » وصحح الألبانى الحديث .

(٨) عبارة « فى السفر » زيادة فى (ك) .

الرهبانية والتشديد وتعذيب النفس الذى لا يحبه الله إلى ما يحبه الله [من الرخصة] [١] ، هو من الحسنات التى يثيبه الله عليها ، وإن فعل مباحاً لما اقترن به من الاعتقاد والقصد اللذين كلاهما طاعة لله ورسوله ، فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .

وأيضا فالعبد هو [٢] مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات : هو [٣] مأمور بالأكل عند الجوع ، والشرب عند العطش . ولهذا يجب على المضطر إلى المَيْتة أن يأكل منها ، ولو لم يأكل حتى مات كان مستوجبا للوعيد ، كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم . وكذلك هو مأمور بالوطئ عند حاجته إليه ، بل وهو مأمور بنفس عقد النكاح إذا احتاج إليه وقدر عليه .

ص ٦

فقول النبى ﷺ : « فى بضع أحدكم صدقة » ، فإن المباضعة مأمور / بها لحاجته وحاجة المرأة إلى ذلك ، فإن قضاء [٤] حاجتها التى لا تنقضى إلا به بالوجه المباح صدقة .

سلوك الأبرار وسلوك المقربين

والسلوك سلوكان : سلوك الأبرار أهل اليمين ، وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطنا وظاهرا . والثانى : سلوك المقرَّبين السابقين ، وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان ، وترك المكروه والمحرم . كما قال النبى ﷺ : « إذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فَأْتُوا منه ما استطعتم » [٥] .

---

(١) عبارة « من الرخصة » : ساقطة من (ز) فقط .
(٢) هو : ساقطة من (ض) فقط .
(٣) هو : كذا فى (م) ، (ك) ، (ض) . وفى (ز) : وهو .
(٤) ز (فقط) : فإن قضى ... إلخ .
(٥) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٩/٩٤ - ٩٥ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) ونصه : « دعونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه =

وكلام الشيوخ الكبار . كالشيخ عبد القادر وغيره – يشير إلى هذا السلوك ، ولهذا يأمرون بما هو مستحب غير واجب ، وينهون عمَّا هو مكروه غير محرم ، فإنهم يسلكون بالخاصة مسلك الخاصة ، وبالعامة مسلك العامة .

وطريق الخاصة – طريق المقرَّبين – ألا يفعل العبد إلا ما أُمر به ، ولا يريد إلا ما أمره الله ورسوله [١] بإرادته ، وهو ما يحبه الله ويرضاه ، ويريده إرادة دينية شرعية ، وإلا فالحوادث كلها مرادة له خلقا وتكوينا ، والوقوف مع الإرادة الخلقية القدرية مطلقا غير مقدور عقلا ولا مأمور شرعا .

وذلك لأن من الحوادث ما يجب دفعه / ولا تجوز إرادته ، كمن أراد تكفير الرجل ، أو تكفير أهله ، أو الفجور به أو بأهله ، أو أراد قتل النبى وهو قادر على دفعه ، أو أراد إضلال الخلق وإفساد دينهم ودنياهم ، فهذه الأمور يجب دفعها وكراهيتها ، لا تجوز إرادتها . ظ ٦

وأما الامتناع عقلا ؛ فلأن الإنسان مجبول على حب ما يلائمه وبغض ما ينافره ، فهو عند الجوع يحب ما يقيته [٢] كالطعام ولا يحب ما لا يقيته [٢] كالتراب ، فلا يمكن أن تكون إرادته لهذين سواء ، وكذلك يحب الإيمان والعمل الصالح الذى ينفعه ، ويبغض الكفر والفسوق الذى يضره ، بل يحب الله وعبادته وحده ، ويبغض عبادة ما دونه .

= ما استطعتم » . والحديث – مع اختلاف فى اللفظ – فى : مسلم ٩٧٥/٢ (كتاب الحج ، باب فرض الحج مرة فى العمر) ؛ سنن النسائى ٨٣/٥ (كتاب المناسك ، باب وجوب الحج) ؛ سنن ابن ماجة ٣/١ (المقدمة ، باب إتباع سنة رسول الله ﷺ) .

(١) ك : إلا ما أمره الله به ورسوله ؛ ض : إلا ما أمر الله ورسوله .

(٢) ض (فقط) : يغنيه . وفى اللسان : « أقاته يقيته إذا أعطاه قوته ... قت الرجل أقوته إذا حفظت نفسه بما يقوته » .

كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٥ - ٧٧] [١] .

وقال تعالى [٢] : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] .

فقد أمرنا الله أن نتأسَّى بإبراهيم والذين معه ، إذ تبرَّأوا من المشركين ومما يعبدون / من دون الله . ص ٧

وقال الخليل عليه السلام : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [سورة الزخرف : ٢٦ ، ٢٧] ، والبراءة ضد الولاية ، وأصل [البراءة البغض ، وأصل] [٣] الولاية الحب .

وهذا لأن حقيقة التوحيد أن لا تحب إلا الله ، وتحب ما يحبه الله لله ، فلا تحب إلا لله ، ولا تبغض [٤] إلا لله . قال [٥] تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] .

---

(١) فى (ز) ، (م) كتبت الآية الأولى محرفة إلى : أفرأيتم ما تعبدون .

(٢) تعالى : ليست فى (ك) .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) فقط .

(٤) ض : لا يحب ... ويحب ... فلا يحب ... ولا يبغض . وفى (ك) ، (ز) ، (م) : هذه الكلمات غير منقوطة .

(٥) ز : وقال .

والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله . فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله ، والمشركون يحبون غير الله مع الله ، كحب المشركين لآلهتهم ، وحب النصارى للمسيح ، وحب أهل الأهواء رؤوسهم .

فإذا عُرف أن العبد مفطور على حب ما ينفعه وبغض ما يضره ، لم [(١)] يمكن أن تستوى إرادته لجميع الحوادث فطرةً وخلقا ، ولا هو مأمور [(٢)] من جهة الشرع أن يكون مريداً لجميع الحوادث ، بل قد أمره الله بإرادة أمور وكراهة [(٣)] أخرى .

والرسل – صلوات الله عليهم وسلامه – بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويل الفطرة وتغييرها . وقد قال النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه / وينصّرانه ويمجّسانه . قال [(٤)] تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] [(٥)] . ظ ٧

---

(١) لم : ساقطة من (ك) .

(٢) ز : مأموراً ، وهو خطأ .

(٣) ز : وكراهية .

(٤) ك : وقال .

(٥) هذا جزء من حديث عن أبى هريرة رضى الله عنه ولفظه : « كل مولود ... ويمجسانه ، كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : (فطرة الله التى فطر ... لا يعلمون) » الحديث .... وهو – مع اختلاف فى الألفاظ – فى : البخارى ٩٤/٢ – ٩٥ (كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبى) ، وهو فى عدة مواضع أخرى فى البخارى ، وفى مسلم ٥٢/٨ – ٥٤ (كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة) ؛ سنن أبى داود ٣١٦/٤ – ٣١٨ (كتاب السنة ، باب فى ذرارى المشركين) ؛ سنن الترمذى ٣٠٣/٣ (كتاب القدر ، باب ما جاء كل مولود ...) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٦٩/١٢ – ١٧٠ ، ١٨١/١٣ – ١٨٢ ، ١٢٩/١٤ – ١٣٠ ، ٢٠٧ ؛ الموطأ ٢٤١/١ . وانظر الحديث وتعليقى عليه فى « درء تعارض العقل والنقل » ٧١/٣ .

وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ : « يقول الله تعالى : « خلقت [(١)] عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين [(٢)] ، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزّل به سلطانا » [(٣)] . والحنيفية هى الاستقامة بإخلاص الدين لله ، وذلك يتضمن حبه تعالى [(٤)] والذل له ، لا يُشرك به شئ : لا فى الحب ولا فى الذل ، فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل ، وذلك لا يستحقه إلا الله وحده ، وكذلك الخشية والتقوى لله وحده ، والتوكل على الله وحده .

والرسول يُطاع ويُحب ، فالحلال ما حلَّله [(٥)] والحرام ما حرَّمه ، والدين ما شرعه . قال الله تعالى [(٦)] : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [سورة النور : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٥٩] .

ص ٨ وهذا حقيقة / دين الإسلام . والرسل بعثوا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

---

(١) ز ، ض : إنى خلقت . والمثبت من (م) ، (ز) .

(٢) ك : الشياطين عن دينهم .

(٣) الحديث عن عياض بن حمار المجاشعى رضى الله عنه فى : مسلم ٢١٩٧/٤ - ٢١٩٨ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار) وأوله : أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : « ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم .... وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم .... الحديث . وهو مع اختلاف فى اللفظ فى : المسند (ط . الحلبى) ١٦٢/٤ .

(٤) ز : حبه لله تعالى ، وهو تحريف .

(٥) ض : ما أحله .

(٦) ض : قال تعالى .

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [سورة الشورى : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥١ ، ٥٢] .

فهذا هو الأصل الذى يجب على كل أحد أن يعتصم به ، فلابد أن يكون مريدا محبًّا [١] لما أمره الله بإرادته ومحبته ، كارهاً مبغضا لما أمره الله بكراهته [٢] وبغضه .

والناس فى هذا الباب أربعة أنواع . أكملهم الذين يحبون ما أحبّه الله ورسوله ، ويبغضون ما أبغضه الله ورسوله ، فيريدون ما أمرهم الله ورسوله بإرادته ، ويكرهون ما أمرهم الله ورسوله بكراهته ، وليس عندهم حب ولا بغض لغير ذلك ، فيأمرون بما أمر الله ورسوله [به] [٣] ولا يأمرون بغير ذلك ، وينهون عن ما نهى الله ورسوله ، ولا ينهون عن غير ذلك .

وهذه حال الخليلين أفضل البرية : محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ / إبراهيم خليلا » [٤] .

ظ ٨

---

(١) ز : محبا مريدا .

(٢) ز : بكراهيته .

(٣) به : ساقطة من (ز) وأثبتها من (ك) . وفى (ض) : أمر الله به ورسوله . والعبارة غير واضحة فى مصورة (م) .

(٤) ورد هذا الحديث مطولا عن جندب رضى الله عنه فى : مسلم ١/٣٧٧ - ٣٧٨ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهى عن بناء المساجد على القبور) ونصه : سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل ، فإن الله تعالى قد اتخذنى خليلا كما اتخذ =

وقال فى الحديث الصحيح [(١)] . « إنى والله لا أعطى أحداً ولا أمنع أحدًا ، وإنما أنا قاسمٌ أضع حيث أمرت » [(٢)] .

وذكر أن ربّه خيَّره بين أن يكون نبيا مَلِكاً ، وبين أن يكون عبداً رسولاً ، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً [(٣)] ، فإن النبى الملك مثل داود وسليمان .

قال تعالى : ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة صٓ : ٣٩] ، قالوا : معناه إعط من شئت وامنع من شئت لا نحاسبك .

= إبراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إنى أنهاكم عن ذلك . وجاءت بعض ألفاظ هذا الحديث فى حديث آخر عن عبد الله بن عمرو فى : سنن ابن ماجة ١/٥٠ (المقدمة ، باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ) .

(١) ض : وقال ﷺ فى الحديث الصحيح .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٤/٨٥ (كتاب فرض الخمس ، باب قول الله تعالى : فإن لله خمسه) ونصه فيه « ما أعطيكم ولا أمنعكم . أنا قاسم أضع حيث أمرت » . والحديث أيضاً عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٢/٤٨٢ ونصه فيه : « والله ما أعطيكم ولا أمنعكم ، وإنما أنا قاسم أضعه حيث أمرت » . وقال ابن حجر فى تعليقه على حديث البخارى (فتح البارى ٦/٢١٨) : « وقد أخرجه أبو داود من طريق همام عن أبى هريرة بلفظ : إن أنا إلا خازن » . وجاء حديث آخر عن معاوية رضى الله عنه بلفظ : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى .... الحديث ، وانظر ما ذكرته عنه فى « درء تعارض العقل والنقل » ٨/٢٧٨ (ت ٢) .

(٣) ذكر الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ٩/١٨ - ٢٠ فى باب « تواضعه ﷺ » عدة أحاديث فيها الكلام عن تخييره ﷺ بين أن يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا واختياره ﷺ أن يكون عبدا رسولا ، وقال عن الحديث الأول : « رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح » . وحديث أحمد هو فى المسند (ط . المعارف) ١٢/١٤٢ - ١٤٣ ... عن أبى زرعة - قال : ولا أعلمه إلا عن أبى هريرة - قال : جلس جبريل إلى النبى ﷺ ، فنظر إلى السماء ، فإذا مَلَك ينزل ، فقال جبريل : إن هذا المَلَك ما نزل منذ يوم خُلق قبل الساعة ، فلما نزل قال : يا محمد ، أرسلنى إليك ربك ، قال : أَفَمَلِكا نبيا يجعلك ، أو عبدا رسولا ؟ قال جبريل : تواضع لربك يا محمد ، قال : بل عبدا رسولا » وقال الشيخ أحمد شاكر عن الحديث : « إسناده صحيح » . والحديث الثانى فى « مجمع الزوائد » عن عائشة بنفس المعنى ، وقال عنه الهيثمى : « رواه أبو يعلى وإسناده حسن » .

فالنبى الملك يُعطى بإرادته ، لا [١] يُعاقب على ذلك ، كالذى يفعل المباحات بإرادته ، وأما العبد الرسول فلا يُعطِى ولا يمنع إلا بأمر ربّه [٢] ، وهو محبته ورضاه وإرادته الدينية . والسابقون المقرَّبون أتباع العبد الرسول ، والمقتصدون أهل اليمين أتباع النبى الملك .

وقد تكون للإنسان حال هو فيها خالٍ عن الإرادتين ، وهو أنه لا تكون له إرادة فى عطاء [٣] ولا منع ، لا إرادة [٤] دينية هو مأمور بها ، ولا إرادة نفسانية : سواء كان منهيا عنها أو غير منهى عنها ، بل ما وقع كان مرادًا له ، ومهما فُعل به كان مراداً له ، من غير أن يعرف [٥] المأمورَ به شرعاً فى ذلك .

ص ٩

فهذا بمنزلة من له أموال / يعطيها ، وليس له إرادة فى إعطاء معين : لا إرادة شرعية ولا إرادة مذمومة . بل يعطى كل أحد . فهذا إذا قُدِّر أنه قام بما يجب عليه بحسب إمكانه ، ولكنه خفى عليه الإرادة الشرعية فى تفصيل أفعاله ، فإنه لا يُذم على ما فعل ، ولا يُمدح مطلقا ، بل يمدح لعدم [٦] هواه ، ولو علم تفصيل المأمور به وأراده إرادة شرعية لكان أكمل ، بل هذا – مع القدرة – إما واجب وإما مستحب ، وحال هذا خير من حال من يريد بحكم هواه ونفسه ، وإن كان ذلك مباحاً له ، وهو دون من يريد بأمر ربه لا بهواه ولا بالقَدَر المحض .

الناس فى المباحات على ثلاثة أقسام

فمضمون هذا المقام أن الناس فى المباحات – من الملك والمال وغير ذلك – على ثلاثة أقسام :

---

(١) ز : ولا .
(٢) ك : إلا بأمر الله ربه .
(٣) ز : إعطاء .
(٤) ز : لإرادة ، وهو تحريف .
(٥) ض (فقط) : يفعل .
(٦) ك ، م : بعدم .

قوم لا يتصرفون فيها إلا بحكم الأمر الشرعى ، وهو [١] حال نبينا ﷺ ، وهو [٢] حال العبد الرسول ومن اتبعه فى ذلك .

وقوم يتصرفون فيها بحكم إرادتهم والشهوة التى ليست محرمة ، وهذا النبى الملك [٣] ، وهو حال الأبرار أهل اليمين .

وقوم لا يتصرفون بهذا ولا بهذا . أما الأول فلعدم علمهم به . وأما الثانى فلزهدهم فيه ، بل يتصرفون / فيها بحكم القدر المحض إتّباعا لإرادة الله الخلقية القدرية حين تعذر [٤] معرفة الإرادة الشرعية الأمرية . وهذا كالترجيح بالقرعة إذا تعذر الترجيح بسبب شرعى معلوم ، وقد يتصرف هؤلاء فى هذا المقام بإلهامٍ يقع فى قلوبهم وخطاب .

ظ ٩

وكلام الشيخ عبد القادر – قدّس الله روحه – كثيرا ما يقع فى هذا المقام ، فإنه يأمر بالزهد فى إرادة النفس وهواها ، حتى لا يتصرّف بحكم الإرادة والنفس . وهذا رفع له عن حال الأبرار أهل اليمين ، وعن طريق الملوك مطلقا . ومن حصَّل هذا ، وتصرَّف بالأمر الشرعى المحمدى القرآنى ، فهو أكمل الخلق ، لكن هذا قد يخفى عليه ، فإن معرفة هذا على التفصيل قد يتعذر أو يتعسَّر فى كثير من المواضع .

ألا ترى أن النبى ﷺ لما حكَّم سعد بن معاذ فى بنى قريظة [٥] ، فحكم بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنيمة أموالهم ، قال : « لقد حكمت فيهم بحكم الله

---

(١) ز : وهى .

(٢) ك : وهى .

(٣) ك (فقط) : ... الملك ومن اتبعه .

(٤) ك : تعذرت .

(٥) ز : قريضة ، وهو تحريف .

من فوق سبعة أرقعة »[١] ، وذلك أن تخيير ولىّ الأمر بين القتل والاسترقاق ، والمن والفداء ، ليس تخيير [شهوة][٢] ، بل تخيير / رأى ومصلحة ، فعليه أن يختار الأصلح ، فإن اختار ذلك فقد وافق حكم الله وإلا فلا . ص ١٠

ولما كان هذا يخفى كثيرا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح لبُرَيْدة[٣] : « إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، فإنك لا تدرى ما حكم الله فيهم ، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك »[٤] .

---

(١) جاء الحديث بهذا اللفظ فى سيرة ابن هشام ٢٥١/٣ . ولكنه جاء – مع اختلاف فى اللفظ – عن أبى سعيد الخدرى فى : البخارى ٦٧/٤ (كتاب الجهاد والسير ، باب إذا نزل العدو على حكم رجل) ، ٣٥/٥ – ٣٦ (كتاب مناقب الأنصار ، باب مناقب سعد بن معاذ) ، ١١٢/٥ (كتاب المغازى ، باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب ...) ؛ مسلم ١٣٨٨/٣ – ١٣٨٩ (كتاب الجهاد والسير ، باب جواز قتال من نقض العهد ...) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢٢/٣ . ولفظ الحديث فى هذه المواضع : « حكمت فيهم بحكم الله ، أو : بحكم الملك » . وأخرج الإمام أحمد فى مسنده (ط . الحلبى) ١٤١/٦ – ١٤٢ حديثا مقاربا متصلا عن عائشة رضى الله عنها . وانظر ما ذكره الألبانى عن الحديث فى « سلسلة الأحاديث الصحيحة » ٩١/١ – ٩٤ (حديث رقم ٦٧) . وقال ابن حجر فى فتح البارى ٤١٢/٧ : « ... وفى رواية ابن إسحاق من مرسل علقمة بن وقاص : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . وأرقعة بالقاف جمع رقيع ، وهو من أسماء السماء . قيل : سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم » .

(٢) شهوة : ساقطة من (ز) .

(٣) لبريدة : زيادة فى (ز) .

(٤) هذا جزء من حديث طويل عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضى الله عنه وأوله فى : مسلم ١٣٥٦/٣ – ١٣٥٨ (كتاب الجهاد والسير ، باب تأمير الإمام الأمراء ...) : « كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه .... ثم قال : اغزوا بسم الله فى سبيل الله .... وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله .... ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » . والحديث – مع اختلاف فى اللفظ – فى : سنن أبى داود ٥١/٣ – ٥٢ (كتاب الجهاد ، باب فى دعاء المشركين) ؛ سنن الترمذى ٨٥/٣ – ٨٦ (كتاب السير ، باب ما جاء فى وصية النبى ﷺ فى القتال) ؛ سنن ابن ماجة ٩٥٣/٢ – ٩٥٤ (كتاب الجهاد ، باب وصية الإمام) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٥٨/٥ .

والحاكم الذى [ينزل أهل الحصن على حكمه عليه أن] [١] يحكم باجتهاده ، فلما أمر سعد بما هو الأرضى لله والأحب إليه ، حكم بحكمه ، ولو حكم بغير ذلك لنفذ [٢] حكمه ، فإنه حكم باجتهاده ، وإن لم يكن ذلك هو حكم الله فى الباطن .

حكم الإلهام فى الشريعة

ففى مثل هذه الحال ، التى لا يتبيّن الأمر الشرعى فى الواقعة المعينة ، يأمر الشيخ عبد القادر وأمثاله من الشيوخ ، تارة بالرجوع إلى الأمر الباطن والإلهام إن أمكن ذلك ، وتارة بالرجوع إلى القدر المحض لتعذر الأسباب المرجّحة من جهة الشرع ، كما يرجّح الشارع بالقرعة ، فهم يأمرون أن لا يرجّح بمجرد إرادته وهواه ، فإن هذا إمّا محرم ، وإمّا مكروه ، وإما منقص [٣] ، فهم فى هذا النهى كنهيهم عن فضول المباحات .

ظ ١٠

ثم إن تبين لهم الأمر الشرعى وجب الترجيح / به ، وإلا رجَّحوا إما بسبب باطن من الإلهام والذوق ، وإما بالقضاء والقدر الذى لا يُضاف إليهم . ومن يرجح فى مثل هذه الحال باستخارة الله ، كما كان النبى ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلمهم السورة من القرآن [٤] ، فقد [أصاب] [٥] .

وهذا كما أنه إذا تعارضت أدلة المسألة [٦] الشرعية عند الناظر المجتهد ، وعند المقلِّد المستفتى ، فإنه لا يرجّح شيئا ، بل ما جرى به القدر أقرُّوه ولم ينكروه . وتاره يرجِّح أحدهم ، إما بمنام وإما برأى مشيرٍ ناصح ، وإما برؤية المصلحة فى أحد الفعلين .

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) فقط .
(٢) ز : أنفذ .
(٣) ز (فقط) : نقص .
(٤) سبق الكلام على حديث الاستخارة فى هذا الجزء ، ص ٦٩ (ت ٢) .
(٥) أصاب : ساقطة من (ز) ومكانها بياض .
(٦) ك : أدلة فى المسألة ....

وأما الترجيح بمجرد الاختيار ، بحيث إذا تكافأت [١] عنده الأدلة يرجح بمجرد إرادته واختياره ، فهذا ليس قول أحد من أئمة الإسلام ، وإنما هو قول طائفة من أهل الكلام ، ولكن قاله طائفة من الفقهاء فى العامى المستفتى : أنه يخيّر بين المفتين [٢] المختلفين .

وهذا كما أن طائفة من السالكين إذا استوى عنده الأمران فى الشريعة ، رجّح بمجرد ذوقه وإرادته ، فالترجيح بمجرد الإرادة التى لا تستند إلى أمرٍ علمى باطن ولا ظاهر ، لا يقول به أحد / من أئمة العلم والزهد ، فأئمة الفقهاء والصوفية لا يقولون هذا ، لكن [٣] من جوَّز لمجتهد أو مقلد الترجيح بمجرد اختياره وإرادته ، فهو نظير من سوَّغ للسالك الترجيح بمجرد إرادته وذوقه . ص ١١

لكن قد يُقال : القلب المعمور بالتقوى إذا رجّح بإرادته فهو ترجيح شرعى . وعلى هذا التقدير فمن غلب على قلبه إرادة ما يحبه الله ، وبغض ما يكرهه [٤] ، إذا لم يدر فى الأمر المعين : هل هو محبوب لله أو مكروه [٥] ، ورأى قلبه يحبه أو يكرهه ، كان هذا ترجيحا عنده ، كما لو أخبره [٦] مَنْ صِدْقُهُ أغلب مِنْ كَذِبِهِ ، فإن الترجيح بخبر هذا عند انسداد وجوه [٧] الترجيح ترجيحٌ بدليل شرعى .

ففى الجملة متى حصل ما يُظن معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله

---

(١) ك ، ز ، م : تكافت . والمثبت من (ض) .
(٢) ز : المفيين .
(٣) ض : ولكن .
(٤) ض : ما يكرهه الله .
(٥) ز : أو مكروهه ، وهو تحريف .
(٦) ك ، ز ، م : أخبر . والمثبت من (ض) .
(٧) ز : ونحوه ، وهو تحريف .

ورسوله ، كان هذا ترجيحا بدليل شرعى . والذين أنكروا كَوْن الإلهام طريقاً شرعياً [(١)] على الإطلاق ، أخطأوا كما أخطأ الذين جعلوه طريقا شرعيا على الإطلاق .

ولكن إذا اجتهد السالك فى الأدلة الشرعية الظاهرة [(٢)] فلم ير فيها ترجيحا ، وأُلهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى ، فإلهام مثل هذا دليل فى حقه ، قد [يكون] [(٣)] أقوى من كثير من الأقيسة / الضعيفة ، والأحاديث الضعيفة ، والظواهر الضعيفة ، والاستصحابات الضعيفة التى يحتج بها كثير من الخائضين فى المذهب والخلاف وأصول الفقه . ظ ١١

وفى الترمذى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٥] [(٤)] .

وقال عمر بن الخطاب : « اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه يتجلى لهم أمور صادقة » .

---

(١) شرعيا : ساقطة من (ض) .

(٢) ز : الظاهرة الشرعية .

(٣) يكون : ساقطة من (ز) .

(٤) الحديث عن أبى سعيد الخدرى فى : سنن الترمذى ٣٦٠/٤ - ٣٦١ (كتاب التفسير ، سورة الحجر) وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » ؛ تفسير الطبرى (ط . بولاق) ٣١/١٤ - ٣٢ (عن أبى سعيد وابن عمر) . وذكر الحديث الألبانى فى « ضعيف الجامع الصغير » ٨٧/١ وقال عنه : (تخ = البخارى فى التاريخ ، ت = الترمذى) عن أبى سعيد (الحكيم ، وسمويه ، طب = الطبرانى ، عد = ابن سعد فى الطبقات) عن أبى أمامة (ابن جرير = الطبرى) عن ابن عمر » . ثم قال : « وانظر عن الحديث : المقاصد الحسنة للسخاوى (ط . الخانجى : ١٣٧٥/١٩٥٦) ، ص ١٩ - ٢٠ ؛ زاد المسير لابن الجوزى ٤٠٩/٤ . وذكر الهيثمى الحديث فى « مجموع الزوائد » ٢٦٨/١٠ عن أبى أمامة رضى الله عنه بدون قوله : ثم قرأ .... إلخ وقال عنه : « رواه الطبرانى وإسناده حسن » .

وقد ثبت فى الصحيح قول الله تعالى : « ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى » (١) .

(* وفى مثل هذا يقال حديث وابصة عن النبى ﷺ أنه قال : « البر ما اطمأنت إليه النفس وسكن إليه القلب (٢) ، والإثم ما حاك فى نفسك ، وإن أفتوك وأفتوك » (٣) . وفى صحيح مسلم حديث النوَّاس بن سمعان عن النبى ﷺ أنه قال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى / نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه ص ١٢

---

(١) سبق الكلام على هذا الحديث القدسى فى هذا الجزء ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(* - *) ما بين النجمتين ساقط من (ض) فقط .

(٢) ك : واطمأن إليه القلب . والمثبت من (ز) ، (م) .

(٣) ك : وإن أفتاك الناس وأفتوك . والمثبت من (ز) ، (م) . والحديث عن وابصة بن معبد الأسدى رضى الله عنه مختصرا ومطولا فى : المسند (ط . الحلبى) ٤/٢٢٧ ، ٢٢٨ ؛ سنن الدارمى ٢/٢٤٦ (كتاب البيوع ، باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) ولفظ الحديث فى المسند ٢/٢٢٨ : .... عن وابصة بن معبد قال : أتيت رسول الله ﷺ وأنا لا أريد أن لا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته عنه ، وإذا عنده جمع ، فذهبت أتخطّى الناس . فقالوا : إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ ، إليك يا وابصة . فقلت : أنا وابصة ، دعونى أدنو منه ، فإنه من أحب الناس إلىّ أن أدنو منه . فقال لى : ادن يا وابصة ، ادن يا وابصة . فدنوت منه ، حتى مست ركبتى ركبته ، فقال : يا وابصة ، أخبرك ما جئت تسألنى عنه أو تسألنى ؟ فقلت : يا رسول الله ، فأخبرنى . قال : جئت تسألنى عن البر والإثم . قلت : نعم . فجمع أصابعه الثلاث ، فجعل ينكت بها فى صدرى ، ويقول : يا وابصة ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى القلب ، وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس » قال سفيان : « وأفتوك » . وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه فى : المسند (ط . الحلبى) ٤/١٩٤ .

الناس » [١] . وقال ابن مسعود : الإثم حَوَّاز [٢] القلوب * .

وأيضا فالله تعالى فطر [٣] عباده على الحنيفية ، وهى [٤] حب المعروف وبغض المنكر ، فإذا لم تستحل [٥] الفطرة فالقلوب مفطورة على الحق ، فإذا كانت الفطرة مقوَّمة بحقيقة الإيمان ، منوَّرة بنور القرآن ، وخفى عليها دلالة الأدلة السمعيّة الظاهرة ، ورأى قلبه يرجّح أحد الأمرين ، كان هذا من أقوى الأمارات عند مثله .

وذلك أن الله علَّم القرآن والإيمان . قال تعالى [٦] : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [سورة الشورى : ٥١] [٧] ثم قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] [٨] .

---

(١) الحديث عن النوّاس بن سمعان رضى الله عنه فى : ١٩٨٠/٤ (كتاب البر ، باب تفسير البر والإثم) ؛ سنن الترمذى ٢٣/٤ – ٢٤ ، (كتاب الزهد ، باب ما جاء فى البر والإثم) ؛ سنن الدارمى ٣٢٢/٢ (كتاب الرقاق ، باب فى البر والإثم) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٨٢/٤ .

(٢) ز : جوار ، وهو تحريف . وفى « لسان العرب » : وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه : الإثم حوَّازُ القلوب ، هكذا رواه شمر ، بتشديد الواو ، من حاز يحوز أى يجمع القلوب . والمشهور بتشديد الزاى . وقيل : حوَّاز القلوب ، أى يحوز القلب ويغلب عليه حتى يركب ما لا يُحَب . قال الأزهرى : ولكن الرواية : حزَّاز القلوب ، أى ما حَزَّ فى القلب وحَكَّ فيه » .

(٣) ض : فالله سبحانه وتعالى فطر ؛ م : فالله فطر .

(٤) ض (فقط) : وهو .

(٥) ز : تستحيل ، وهو خطأ .

(٦) ض (فقط) : قال الله تعالى .

(٧) م : إلا وحيا . الآية ؛ ك : إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ؛ ض : .... أو يرسل رسولا . الآية .

(٨) ك : ... من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم .

وقال جندب بن عبد الله وعبد الله بن عمر : « تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن ، فازددنا إيمانا » (١) .

وفى الصحيحين عن حذيفة عن النبى ﷺ قال (٢) : « إن الأمانة نزلت (٣) فى جذر قلوب الرجال ، فعلموا من القرآن ، وعلموا من السنة » (٤) .

وفى الترمذى – [بإسناد جيد] (٥) – وغيره (٦ حديث النواس بن سمعان عن النبى ﷺ / أنه ٦) قال : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سوران ، وفى السورين أبواب مفتّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة وداعٍ يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو [من] (٧) فوق الصراط . فالصراط المستقيم هو الإسلام ، والستور حدود الله ، والأبواب المفتّحة محارم الله ، فإذا أراد العبد أن يفتح بابا من تلك الأبواب ، ناداه المنادى – أو كما قال – : يا عبد الله لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، والداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى فوق الصراط واعظُ الله فى قلب كل مؤمن » (٨) .

ظ ١٢

---

(١) ذكر ابن تيمية هذا الأثر كاملا فى « درء تعارض العقل والنقل » ٤٥٤/٧ وتمامه : « .... إيمانا ، وأنتم تتعلمون القرآن ، ثم تتعلمون الإيمان » .

(٢) ز ، ض : .... وسلم أنه قال ...

(٣) ز ، ض : إن الله أنزل الأمانة .

(٤) الحديث عن حذيفة رضى الله عنه فى : البخارى ١٠٤/٨ (كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة) ، ٥٢/٩ (كتاب الفتن ، باب إذا بقى فى حثالة من الناس) ، ٩٢/٩ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) ؛ ١٢٦/١ (كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب) ؛ سنن الترمذى ٣٢١/٣ (كتاب الفتن ، باب ما جاء فى رفع الأمانة) ؛ سنن ابن ماجة ١٣٤٦/٢ (كتاب الفتن ، باب ذهاب الأمانة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٨٣/٥ .

(٥) عبارة « بإسناد جيد » : زيادة فى (م) .

(٦ – ٦) : ساقط من (ك) ، وعبارة « بن سمعان » ساقطة من (ض) . و « أنه » : ليست فى (م) .

(٧) من : ساقطة من (ز) .

(٨) الحديث عن النواس بن سمعان رضى الله عنه – مع اختلاف فى الألفاظ – فى : سنن الترمذى =

فقد بيَّن أن فى قلب كل مؤمن واعظا [(١)] ، والواعظ الأمر والنهى بترغيب وترهيب ، فهذا الأمر والنهى الذى يقع فى قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه ، ولهذا يقوى أحدهما بالآخر [(٢)] ، وقد يُؤتى العبد أحدهما ولا يؤتى الآخر .

كما فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى [(٣)] عن النبى ﷺ أنه قال [(٤)] : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن [(٥)] (* كمثل الأُتْرُجَّة ريحها طيب وطعمها طيب [(٦)] ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن / كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب [(٧)] ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل [(٨)] الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح

ص ١٣

= ٤/٢٢٢ (كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء فى مثل الله عز وجل لعباده) وأوله : إن الله ضرب مثلا مستقيما .... وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب . والحديث فى المسند (ط . الحلبى) ٤/١٨٢ — ١٨٣ ، وجاء فيه مرتين أوله فى الأولى : ضرب الله .... وفى الثانية : إن الله عز وجل ضرب ....

(١) ض : واعظ .

(٢) بعد كلمة « بالآخر » توجد خمسة أسطر فى نسخة (ض) جاءت فى غير موضعها ، أولها : كما قال تعالى : (نور على نور) قال بعض السلف .... إلخ . وسترد هذه العبارات فى مكانها بعد قليل إن شاء الله .

(٣) الأشعرى : زيادة فى (ز) ، (ض) .

(٤) عبارة « أنه قال » : ليست فى (م) .

(٥) بعد كلمة « القرآن » يوجد بياض فى نسخة (م) بمقدار ثلاثة أسطر ولم يذكر ابن تيمية باقى الحديث .

(* — *) ما بين النجمتين ساقط من (م) ومكانه بياض .

(٦) ض : طعمها طيب وريحها طيب .

(٧) ض : طعمها طيب ولا ريح لها .

(٨) ض : كمثل .

وطعمها مر » *) [(١)] .

وقد قال بعض السلف فى قوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ [سورة النور : ٣٥] قال : هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر ، فإذا سمع بالأثر كان نوراً [(٢)] على نور ، نور الإيمان الذى فى قلبه يطابق نور القرآن ، كما أن الميزان العقلى يطابق الكتاب المنزَّل ، فإن الله أنزل الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط .

والإلهام فى القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد ، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب ، فقد [(٣)] يقع فى قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر وأصوب ، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم مُحَدَّثون فإن يكن فى أمتى أحدٌ فعمر منهم » [(٤)] والمحدَّث هو الملهم المخاطب [(٥)] .

---

(١) الحديث عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى : البخارى ٧٧/٧ (كتاب الأطعمة ، باب ذكر الطعام) ، ١٩٠/٦ - ١٩١ (كتاب فضائل القرآن ، باب فضل القرآن على سائر الكلام) ، ١٦١/٩ (كتاب التوحيد ، باب قراءة الفاجر والمنافق) ؛ مسلم ٥٤٩/١ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضيلة حافظ القرآن) ؛ سنن أبى داود ٣٥٧/٤ - ٣٥٨ (كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس) ؛ سنن الترمذى ٢٧٧/٤ (كتاب الأمثال ، باب ما جاء مثل المؤمن القارىء للقرآن وغير القارىء) ؛ سنن ابن ماجة ٧٧/١ (المقدمة ، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٤٠٣/٤ - ٤٠٤ . والأترجة : التفاحة .

(٢) ز : نور .

(٣) ز : قد .

(٤) الحديث عن عائشة رضى الله عنها - مع اختلاف فى الألفاظ - فى : البخارى ١٧٤/٤ (كتاب الأنبياء ، الباب الأخير) ، ١٢/٥ (كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب) ؛ مسلم ١٨٦٤/٤ (كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر ...) ؛ سنن الترمذى ٢٨٥/٥ (كتاب المناقب ، باب من أبواب مناقب أبى حفص عمر بن الخطاب) وقال الترمذى : « وأخبرنى بعض أصحاب ابن عيينة عن سفيان بن عيينة قال : محدّثون ، يعنى : مفهَّمون » ؛ المسند (ط . الحلبى) ٥٥/٦ .

(٥) بعد كلمة « المخاطب » توجد ثمانية أسطر فى نسخة (ض) جاءت فى غير موضعها وسبق =

وأيضا فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقيناً أو ظنًّا ، فالأمور الدينية كذلك بطريق / الأَوْلى ، فإنه إلى كشفها أَحْوَج ، لكن هذا فى الغالب لابد أن يكون كشفاً بدليل ، وقد يكون بدليل ينقدح فى قلب المؤمن لا يمكنه التعبير عنه ، وهذا أحد ما فُسِّر به معنى الاستحسان .

ظ ١٣

وقد قال من طعن فى ذلك ، كأبى حامد وأبى محمد [١] : « ما لا يُعَبَّر عنه فهو هوس » [٢] . وليس كذلك ، فإنه ليس كل أحدٍ يمكنه إبانة المعانى القائمة بقلبه ، وكثير من الناس يبيِّنها بياناً ناقصاً ، وكثير من أهل الكشوف [٣] يُلقى فى قلبه أن هذا الطعام حرام ، أو أن هذا الرجل كافرٌ أو فاسق ، من غير دليل ظاهر ، وبالعكس قد يُلقى فى قلبه محبة شخص ، وأنه ولى لله ، أو أن هذا المال حلال .

وليس المقصود هنا بيان أن هذا وحده دليل على الأحكام [الشرعية] [٤] ، لكن أن مثل هذا يكون ترجيحاً لطالب الحق إذا تكافأت عنده الأدلة السمعية الظاهرة ، فالترجيح بها [٥] خير من التسوية بين الأمرين المتناقضين قطعا ، فإن

= ورودها من قبل (ص ٢٢ – ٢٣) وأولها : « فى مثل هذا قول النبى ﷺ فى حديث وابصة : البر .... وقال ابن مسعود : الإثم حزاز القلوب » .

(١) الأرجح أن ابن تيمية يقصد : أبا محمد المقدسى . وهو : أبو محمد تقى الدين عبد الغنى بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى الجماعيلى الدمشقى الحنبلى ، العلاّمة المحدث ، ولد سنة ٥٤١ وتوفى سنة ٦٠٠ . انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ٣٤٥/٤ – ٣٤٦ ؛ العبر ٣١٣/٤ ؛ معجم المؤلفين ٢٧٥/٥ – ٢٧٦ ؛ الأعلام ١٦٠/٤ .

(٢) يقول أبو حامد الغزالى فى كتابه « المستصفى فى أصول الفقه » ١٣٨/١ – ١٣٩ (ط . التجارية ، القاهرة ، ١٩٣٧/١٣٥٦) : « التأويل الثانى للاستحسان : قولهم : المراد به دليل ينقدح فى نفس المجتهد ، لا تساعده العبارة عنه ، ولا يقدر على إبرازه وإظهاره . وهذا هوس ، لأن ما لا يقدر على التعبير عنه لا يدرى أنه وهم وخيال أو تحقيق ... إلخ » .

(٣) ض (فقط) : الكشف .

(٤) الشرعية : ساقطة من (ز) فقط .

(٥) بها : ساقطة من (ك) فقط .

التسوية بينهما باطلة قطعا ، كما قلنا : إن العمل بالظن الناشئ عن ظاهر [١] أو قياس ، خير من العمل بنقيضه إذا احتيج إلى العمل بأحدهما .

والصواب الذى عليه السلف والجمهور ، أنه لابد فى كل حادثة / من دليل شرعى ، فلا يجوز تكافؤ [٢] الأدلة فى نفس الأمر ، ولكن قد تتكافأ عند الناظر لعدم ظهور الترجيح له ، وأما من قال : إنه ليس فى نفس الأمر حق معيّن ، بل كل مجتهد عالم بالحق الباطن فى المسألة ، وليس لأحدهما على الآخر مَزِيَّة فى علم ولا عمل ، فهؤلاء قد يجوِّزون – أو بعضهم – تكافؤ الأدلة ، ويجعلون الواجب التخيير بين القولين . ص ١٤

وهؤلاء يقولون : ليس على الظن دليل فى نفس الأمر ، وإنما رجحان أحد القولين هو من باب الرجحان بالميل والإرادة ، كترجيح النفس الغضبية للانتقام ، والنفس الحليمة للعفو .

وهذا القول خطأ ؛ فإنه لابد فى نفس الأمر من حق معين يصيبه المستدل تارة ويخطئه أخرى ، كالكعبة فى حق من اشتبهت عليه القبلة ، والمجتهد إذا أدَّاه اجتهاده إلى جهة وسقط [٣] عنه الفرض بالصلاة إليها ، كالمجتهد إذا أدَّاه اجتهاده إلى قولٍ فعمل بموجبه : كلاهما مطيع لله ، وهو مصيب ، بمعنى أنه مطيع لله وله أجر على ذلك ، وليس مصيبا ، بمعنى أنه علم الحق المعيّن [٤] ، فإن ذلك لا يكون إلا واحداً ، ومُصِيبُهُ له أجران .

---

(١) ز : الظاهر .

(٢) ك : تكافى .

(٣) ض (فقط) : سقط .

(٤) المعيّن : ساقطة من (ك) .

ظ ١٤ / وهذا فى كشف الأنواع التى يكون عليها دليل / شرعى ، لكن قد يخفى على العبد ، فإن الشارع بيّن الأحكام الكلية . وأما [أحكام] (١) المعيَّنات التى تسمى تنقيح المناط ، مثل كون الشخص المعيَّن عدلا أو فاسقا ، ومؤمنا (٢) أو منافقا ، ووليًّا لله أو عدوًّا له ، وكون هذا [العقار] (٣) ليتيم أو فقير يستحق الإحسان إليه ، (٤ وكون هذا المعيَّن عدوًّا للمسلمين يستحق القتل ٤) ، وكون هذا المال يُخاف عليه من ظلم ظالم ، فإذا زهد فيه الظالم انتفع (٥) به أهله .

فهذه الأمور لا يجب أن تُعلم بالأدلة الشرعية العامة الكلية ، بل تعلم بأدلة خاصة تدل عليها . ومن طرق [ذلك] (٦) الإلهام (٧) ، فقد يُلهم الله بعض عباده حال هذا المال المعين ، وحال هذا الشخص ، وإن لم يكن هناك دليل ظاهر يشركه فيه غيره .

وقصة الخضر مع موسى (٨) هى من هذا الباب ، ليس فيها مخالفة لشرع (٩) الله ، (١٠ فإنه لا يجوز قط لأحد : [لا] نبى ولا ولى [أن] يخالف (١١) شرع الله ١٠) ، لكن فيها علم حال ذلك المعيّن بسبب باطن يوجب فيه الشرع ما فعله الخضر ، كمن دخل إلى دار وأخذ ما فيها من المال لعلمه بأن صاحبها أذن

---

(١) أحكام : ساقطة من (ز) ، وأثبتها من (م) ، (ك) . وفى (ض) : الأحكام .
(٢) ض : أو مؤمنا .
(٣) العقار : ساقطة من (ز) .
(٤ - ٤) هذه العبارات سبقت فى (ض) العبارات السابقة التى تبدأ بقوله : « وكون هذا العقار .. إلى قوله : الإحسان إليه » .
(٥) ك : وانتفع ، وهو تحريف .
(٦) ذلك : ساقطة من (ز) .
(٧) ك : إلهام ، وهو تحريف .
(٨) ض : وقصة موسى مع الخضر .
(٩) ز ، ك : شرع . والكلمة غير واضحة فى مصورة (م) .
(١٠ - ١٠) : ساقط من (ك) .
(١١) ز : لأحد نبى ولا ولى يخالف . والعبارة غير واضحة فى مصورة (م) . والمثبت من (ض) .

له وغيره لم يعلم ، ومثل من رأى ضالة أخذها ولم يعرفها ، لعلمه / بأنه أتى [١] بها هدية له ، ونحو ذلك . ومثل هذا كثير [٢] عند [٣] أهل الإلهام الصحيح . ص ١٥

والنوع الثانى عكس هذا ، وهو [أنهم] [٤] يتبعون هواهم لا أمر الله [٥] ، فهؤلاء لا يفعلون ولا يأمرون إلا بما يحبونه بهواهم ، ولا يتركون وينهون إلا عمّا يكرهونه بهواهم [٦] . وهؤلاء شر الخلق ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٤٣] . قال الحسن : « هو المنافق لا يهوى شيئا إلا ركبه » [٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ [سورة القصص : ٥٠] . وقال عمر بن عبد العزيز : « لا تكن ممن يتّبع [٨] الحق إذا وافق هواه ، ويخالفه إذا خالف هواه ، فإذا أنت لا تثاب [٩] على ما اتّبعته من الحق ، وتُعَاقَب على ما خالفته » . وهو كما قال رضى الله عنه ، لأنه فى الموضعين إنما قصد اتّباع هواه ، لم [١٠] يعمل لله .

---

(١) ك : أثر ، وهو تحريف .
(٢) ز : الباب ، وهو تحريف .
(٣) ز ، ك : عن . والمثبت من (ض) .
(٤) أنهم : ساقطة من (ز) .
(٥) ز : لا أمراً لله .
(٦) ك : ولا يتركون وينهون عمّا يكرهون إلا بهواهم .
(٧) قال السيوطى فى « الدر المنثور » ٧٢/٥ : « وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن : (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال : لا يهوى شيئا إلا اتّبعه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة : (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال : كلما هوى شيئا ركبه » . وفى تفسير القرطبى للآية : « وعن الحسن : لا يهوى شيئا إلا اتّبعه » . وفى « زاد المسير » : « وقال قتادة : هو الكافر لا يهوى شيئا إلا ركبه » . وأورد ابن الجوزى فى كتابه « ذم الهوى » (ص ١٧ ، بتحقيق الشيخ محمد الغزالى ، القاهرة ١٣٨١/١٩٦٢) قول الحسن كما أورده ابن تيمية هنا وذكر ابن الجوزى سنده إليه .
(٨) ز : اتبع .
(٩) ز : لاثبات لك ، وهو تحريف .
(١٠) ز : ولم .

ألا ترى أن أبا طالب نصر النبى ﷺ وذبَّ عنه أكثر من غيره ، لكن فَعَل ذلك لأجل القرابة لا لأجل الله تعالى [١] ، فلم يتقبل الله ذلك منه ولم يُثبه [٢] على ذلك ؟ وأبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، أعانه بنفسه وماله لله ، فقال الله تعالى [٣] : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ٭ الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ٭ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ٭ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ٭ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ [سورة الليل : ١٧ - ٢١] .

ظ ١٥

والقسم الثالث : الذى يريد تارة إرادةً يحبها الله ، وتارة إرادةً يبغضها [الله] [٤] ، وهؤلاء أكثر المسلمين [٥] : فإنهم يطيعون الله تارة ويريدون ما أحبه ، ويعصونه تارةً فيريدون [٦] ما يهوونه وإن كان يكرهه .

والقسم الرابع : أن يخلو عن الإرادتين ، فلا يريد لله ولا لهواه ، وهذا يقع لكثير من الناس فى بعض الأشياء ، ويقع لكثير من الزهّاد والنسّاك فى كثير من الأمور .

وأما خلو الإنسان [٧] من [٨] الإرادة مطلقا فممتنع ، فإنه مفطور على إرادة ما لابد له منه ، وعلى كراهة ما يضره ويؤذيه . والزاهد الناسك إذا كان مسلما

---

(١) ز : لا لأجل القرابة لله تعالى ، وهو تحريف .

(٢) ز : ولم يثيبه ، وهو خطأ .

(٣) م : فقال الله ؛ ك : فقال الله فيه .

(٤) الله : ليست فى (ز) .

(٥) ز ، ك : أئمة المسلمين .

(٦) ز ، ض : ويريدون .

(٧) ك : وأما ما خلق فى الإنسان ، وهو تحريف .

(٨) ض : عن .

فلابد أن يريد أشياء يحبها الله ، مثل أداء الفرائض وترك المحارم ، بل وكذلك عموم المؤمنين لابد أن يريد أحدهم أشياء يحبها الله ، وإلا فمن لم يحب الله [١] ولا أحب شيئا لله ، فلم يحب شيئا من الطاعات : لا الشهادتين ولا غيرهما ، ولا يريد ذلك ، فإنه لا يكون مؤمنا .

فلابد لكل مؤمن من أن تكون له إرادة لبعض ما يحبه الله . وأما إرادة العبد لما يهواه / ولا يحبه الله ، فهذا لازم لكل من عصى الله ، فإنه أراد المعصية والله لا يحبها ولا يرضاها . ص ١٦

وأما الخلو عن الإرادتين المحمودة والمذمومة ، فيقع على وجهين : أحدهما : مع إعراض العبد عن عبادة الله وطاعته وإن علم بها ، فإنه قد يعلم كثيرا من الأمور أنه مأمور بها وهو لا يريدها ولا يكره من غيره فعلها . وإذا اقتتل المسلمون والكفار لم يكن مريداً لانتصار هؤلاء الذى يحبه الله ، ولا لانتصار هؤلاء الذى يبغضه الله .

والوجه الثانى : يقع من كثير من الزُّهَّاد العُبَّاد [٢] : الممتثلين لما يعلمون أن الله أمر به ، المجتنبين لما يعلمون أن الله نهى عنه . وأمور أخرى لا يعلمون أنها مأمور بها ولا منهى عنها ، فلا يريدونها ولا يكرهونها لعدم العلم [٣] ، ويرضون بها من جهة كونها مخلوقة مقدرة ، وقد يعاونون عليها ، ويرَوْن هذا موافقة لله ، وأنهم لما خلوا عن هوى النفس كانوا مأمورين بالرضا بكل حادث بل والمعاونة عليه .

---

(١) ز : لله .

(٢) تكررت كلمة « العباد » فى (ز) ، وهو تحريف .

(٣) ك : لعدم العلم بها .

وهذا موضع يقع فيه الغلط ، فإن ما أحبه الله ورسوله علينا أن نحب ما أحبه الله ورسوله ، ونبغض ما يبغضه الله ورسوله ، وأما ما لا يحبه الله ورسوله ولا يبغضه الله ورسوله ، كالأفعال التى لا تكليف / فيها ، مثل أفعال النائم والمجنون ، فهذه إذا كان الله لا يحبها ولا يرضاها ولا يكرهها ويذمها ، فالمؤمن أيضا لا ينبغى أن يحبها ويرضاها ولا يكرهها .

ظ ١٦

المؤمن والقدر

وأما كونها مقدورة ومخلوقة لله فذاك لا يختص بها ، بل هو شامل لجميع المخلوقات . والله تعالى خلق ما خلقه لما شاء من حكمته ، وقد أحسن كل شئ خلقه .

والرضا بالقضاء ثلاثة أقسام .

أحدها : الرضا بالطاعات ، فهذا طاعة مأمور بها .

والثانى : الرضا بالمصائب ، فهذا مأمور بها : إما مستحب وإما واجب .

والثالث : الكفر والفسوق والعصيان ، فهذا لا يؤمر بالرضا به [1] ، بل يؤمر ببغضه وسخطه ، فإن الله لا يحبه ولا يرضاه . كما قال تعالى : ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [سورة النساء : ١٠٨] ، وقال : ﴿ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٥] ، وقال : ﴿ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [سورة الزمر : ٧] ، [وقال : ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ [سورة آل عمران : ٣٢] ، وقال : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٨٧] [2] [3] وقال : ﴿ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٦٤] [3] .

---

(١) ز : لا يؤمر به بالرضا به ، وهو تحريف .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) . وفى (ك) ، (ض) : إن الله لا يحب الكافرين .

(٣ - ٣) : هذه العبارات ليست فى (م) ، (ض) .

وهو ، وإن خلقه لما له فى ذلك من الحكمة ، فلا يمتنع أن يخلق ما لا يحبه لإفضائه إلى الحكمة التى يحبها ، كما خلق الشياطين . فنحن راضون عن الله بأن يخلق ما يشاء ، وهو محمود على ذلك .

ص ١٧ وأما نفس هذا الفعل المذموم وفاعله ، فلا نرضى به ولا / نحمده [(١)] ، وفرق بين ما يُحَبُّ لنفسه وما يُراد لإفضائه إلى المحبوب مع كونه مبغضا [(٢)] من جهة أخرى ، فإن الأمر الواحد يراد من وجه [(٣)] ويكره من وجه آخر ، كالمريض الذى يتناول الدواء الكريه ؛ فإنه يبغض الدواء ويكرهه ، وهو مع هذا يريد استعماله لإفضائه إلى المحبوب ، لا لأنه فى نفسه محبوب .

وفى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى [(٤)] : ما [(٥)] ترددت عن شئ أنا فاعله كترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن : يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه » [(٦)] . فهو سبحانه لمّا كره مساءة عبده المؤمن الذى يكره الموت ، كان هذا مقتضيا أن يكره إماتته ، مع أنه يريد إماتته لما له فى ذلك من الحكمة سبحانه وتعالى .

فالأمور التى يبغضها الله وينهى عنها [لا تُحب ولا تُرضى] [(٧)] لكن

---

(١) ز : فلا يرضى به ولا يحمده .

(٢) ك : مبغوضا .

(٣) ز : جهة .

(٤) تعالى : ساقطة من (ز) .

(٥) ز ، ض : وما .

(٦) هذا جزء من الحديث القدسى عن أبى هريرة وعائشة رضى الله عنهما وأوله : إن الله قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشئ أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل ... وسبق الكلام على الحديث فى هذا الجزء (ص ٢٦ – ٢٧) .

(٧) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) ، (ك) ، وأثبته من (م) ، (ض) .

نرضى [١] بما يرضى الله به حيث خلقها ، لما له فى ذلك من الحكمة ، فكذلك الأفعال التى لا يحبها ولا يبغضها لا ينبغى أن تُحب ولا تُرضى [٢] كما لا ينبغى أن تُبغض .

[والرضا الثابت بالنص هو أن يرضى بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « من رضى بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ، كان حقًّا على الله أن يرضيه [٣]] [٤] .

وأما بالنسبة إلى القدر فيرضى عن الله ، إذ له الحمد على كل حال ، ويرضى بما يرضاه من الحكمة التى خلق لأجلها ما خلق ، وإن كنا نبغض ما يبغضه من المخلوقات ، فحيث انتفى الأمر الشرعى / أو خفى الأمر الشرعى لا يكون الامتثال والرضا والمحبة ، كما يكون فى الأمر الشرعى ، وإن كان ذلك مقدوراً . ظ ١٧

وهذا موضع غلط فيه كثير من خاصة السالكين وشيوخهم ، فضلا عن عامتهم ، ويتفاوتون فى ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعى وطاعتهم له ،

---

(١) ز ، ك : يرضى .

(٢) عبارة « ولا ترضى » ليست فى (ك) ، (م) .

(٣) لم أجد حديثا بهذه الألفاظ ولكن ذكر السيوطى فى « الجامع الكبير » ٧٨٠/١ حديثا عن أبى سعيد الخدرى نصه : « من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا وجبت له الجنة ، وأخرى يرفع الله بها أهلها فى الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أو أبعد ما بين السماء والأرض : الجهاد فى سبيل الله » وقال السيوطى : « حب = ابن حبان ، ك = الحاكم فى المستدرك : عب = عبد الرازق) . وأشار إلى هذا الحديث عبد الغنى النابلسى فى « ذخائر المواريث » ١٨٢/٣ ، وقال إنه فى (م) = مسلم فى الجهاد عن سعيد بن منصور ، (د) = سنن أبى داود : فى الصلاة عن محمد بن رافع ، (س) = سنن النسائى فى الجهاد عن الحارث بن مسكين . ولم أجد الحديث فى مسلم وسنن أبى داود ، ولكنى وجدته بألفاظ مقاربة عن الحارث بن مسكين فى : سنن النسائى ١٧/٦ - ١٨ (كتاب الجهاد ، باب درجة المجاهد فى سبيل الله عز وجل) .

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) فقط .

فمنهم من هو أعرف [١] من غيره بالأمر الشرعى وأطوع له ، فهذا يكون حاله أحسن ممن نقص [٢] عنه فى المعرفة بالأمر الشرعى والطاعة له ، ومنهم من يبعد عن الأمر الشرعى ويسترسل حتى ينسلخ من الإسلام بالكلية ، ويبقى واقفا مع هواه والقدر .

ومن هؤلاء من يموت كافراً ، ومنهم من يتوب الله عليه ، ومنهم من يموت فاسقاً ، ومنهم من يتوب الله عليه . وهؤلاء ينظرون إلى الحقيقة القدرية معرضين عن الأمر الشرعى ، ولابد مع ذلك من اتّباع أمرٍ ونهى غير الأمر الشرعى ، إما من أنفسهم وإما من غير الله ورسوله ، إذ الاسترسال مع القدر مطلقا ممتنع لذاته ، لما تقدم من أن العبد مفطور على محبة أشياء وبغض أشياء .

وقول من قال : « إن العبد يكون مع الله كالميت مع الغاسل » لا يصح ولا يسوغ على الاطلاق عند [٣] أحد من المسلمين ، وإنما يُقال ذلك فى بعض المواضع ، ومع [هذا فإنما] [٤] ذلك لخفاء أمر الله عليه ، / وإلا فإذا علم ما أمر الله به وأحبه ، فلابد أن يحب ما أحبه الله ، ويبغض ما أبغضه الله [٥] .

ص ١٨

فصل

وكما أن الطريقة العلمية بصحة النظر من الأدلة والأسباب الموجبة للعلم ، كتدبر القرآن والحديث ، فالطريقة العملية بصحة الإرادة والأسباب

---

(١) ك : فمن هو أعرف ، وهو تحريف .

(٢) ك ، ض : يقصر .

(٣) ض : عن .

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) .

(٥) لفظ الجلالة ليس فى (ض) فى هذا الموضع .

[هى] [١] الموجبة للعمل ، [كعمارة الباطن بالمراقبة ، والخوف من الله على كل حال] [٢] ولهذا يسمُّون السالك فى ذلك : المريد ، كما يسميه أولئك : الطالب .

والنظر جنس تحته حق وباطل ومحمود ومذموم ، وكذلك الإرادة . فكما أن طريق العلم لابد فيه من العلم النبوى الشرعى ، بحيث يكون معلومك المعلومات الدينية النبوية ، ويكون علمك بها مطابقا لما أخبرت به الرسل ، وإلا فلا ينفعك أى معلوم علمته ، ولا أى شئ اعتقدته فيما [٣] أخبرت به الرسل ، بل لابد من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فكذلك الإرادة لابد فيها من تعيين المراد [٤] وهو الله والطريق إليه ، وهو ما أمرت به الرسل ، فلابد أن تعبد الله وتكون عبادتك إياه بما شُرِع على ألسنة رسله ، إذ لابد من تصديق الرسول فيما أخبر علما ، ولابد من طاعته فيما أمر عملا .

ولهذا كان الإيمان قولا وعملا مع موافقة السنة ، فالعلم الحق ما وافق علم الله ، والإرادة / الصالحة ما وافقت محبة الله ورضاه ، وهو حكمه الشرعى ، والله عليم حكيم . ظ ١٨

فالأمور الخبرية لابد أن تطابق حب الله وأمره . فهذا حكمه ، وذاك علمه .

وأما من جعل حكمه مجرد القدر ، كما فعل صاحب « منازل السائرين » وجعل مشاهدة العارف الحكم يمنعه [٥] أن يستحسن [حسنة] [٦] أو يستقبح

---

(١) هى : زيادة فى (ض) فقط .

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة فى (ك) فقط .

(٣) ز : وفيها ، وهو تحريف .

(٤) ز : تعين على المراد .

(٥) ك : منعه .

(٦) حسنة : ساقطة من (ز) .

سيئة [١] ، فهذا فيه من الغلط العظيم ما قد نبهنا عليه فى غير هذا الموضع .

فلا ينفع المريد القاصد أن يعبد أى معبود كان ، ولا أن يعبد الله بأى عبادة كانت ، بل هذه طريقة المشركين المبتدعين الذين لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، كالنصارى ومن أشبههم من أهل البدع ، الذين يعبدون غير الله بغير أمر الله .

وأما أهل الإسلام والسنة فهم يعبدون الله وحده ، ويعبدونه بما شرع ، لا يعبدونه بالبدع ، إلا ما يقع من أحدهم خطأ . فالسالكون طريق الإرادة قد يغلطون تارة فى المراد ، وتارة فى الطريق إليه ، تاره يتألهون [٢] غير الله بالخوف منه والرجاء له ، والتعظيم والمحبة له [٣] ، وسؤاله والرغبة إليه ، فهذا من الشرك المحرّم ، فإن حقيقة التوحيد أن لا تعبد إلا الله .

والعبادة تتضمن كمال الحب ، وكمال / التعظيم ، وكمال الرجاء ، والخشية ، والجلال ، والإكرام . والفناء فى هذا التوحيد هو [٤] فناء المرسلين وأتباعهم ، وهو أن تفنى [٥] بعبادته عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبسؤاله عن سؤال ما سواه ، وبخوفه عن خوف ما سواه ، وبرجائه [٦] عن رجاء ما سواه ، وبحبه والحب فيه عن محبة ما سواه والحب فيه .

ص ١٩

---

(١) ز : سيئته . ويقول الشيخ محمد بن عبد الله الأنصارى الهروى فى كتابه « منازل السائرين » ص ١١ (تحقيق دى بوركى الدومنكى ، ط . المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٦٢) : « واللطيفة الثالثة (من لطائف سرائر التوبة) أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة ، لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحكم » .

(٢) ز : فتألهون ، وهو تحريف ؛ ض : يألهون . والمثبت من (ك) ، (م) .

(٣) له : ساقطة من (ك) .

(٤) هو : ساقطة من (ض) .

(٥) ك : يغنى ، ز ، م : الكلمة غير منقوطة .

(٦) ز : وبرجاه .

وأما الغالطون فى الطريق فقد يريدون الله ، لكن لا يتبعون الأمر الشرعى فى إرادته ، لكن تارة يعبده أحدهم بما يظنه يرضيه ولا يكون كذلك ، وتارة ينظرون إلى [١] القدر لكونه مراده ، فيفنون فى القدر الذى ليس لهم فيه غرض ، وأما الفناء المطلق فيه فممتنع . وهؤلاء يبقى [٢] أحدهم متبعا لذوقه ووجده المخالف للأمر الشرعى ، أو ناظرا إلى القدر ، وهذا يبتلى به كثير من خواصهم .

والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ [٣] زمانهم ، أَمَرَ [٤] بالتزام الشرع : الأمر [٥] والنهى ، وتقديمه على الذوق والقدر ، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية ، فإن الخطأ فى الإرادة من حيث هى إرادة ، إنما يقع من هذه الجهة .

ظ ١٩ فهو يأمر / السالك أن لا تكون له إرادة من جهة هواه أصلا ، بل يريد ما يريده الرب عز وجل : إما إرادة شرعية إن تبين له ذلك ، وإلا جرى [٦] مع الإرادة القدرية ، فهو إما مع أمر الرب ، وإما مع خلقه ، وهو سبحانه له الخلق والأمر .

وهذه طريقة شريفة صحيحة ، إنما يُخاف على صاحبها مِنْ ترك إرادة شرعية لا يعلم أنها شرعية ، أو من تقديم إرادة قدرية على [٧] الشرعية ، فإنه إذا لم

---

(١) إلى : ساقطة من (ض) .
(٢) ض : يفنى .
(٣) ض : مشائخ .
(٤) ك : آمر ؛ ض : أمراً . والمثبت من (م) ، (ز) .
(٥) ض (فقط) : والأمر .
(٦) ز : والأخرى ؛ ض : والاجرى .
(٧) على : ساقطة من (ك) .

يعلم الشرعية فقد يتركها ، وقد يريد ضدها ، فيكون تَرَك مأموراً أو فعل محظوراً وهو لا يعلم .

فإن طريق الإرادة يُخاف على صاحبها من ضعف العمل ، وما يقترن بالعلم من العمل والوقوع فى الضلال ، كما أن طريقة العلم يُخاف على صاحبها من ضعف العمل ، وضعف العلم الذى يقترن بالعمل .

لكن لا يكلف الله نفساً إلا وسعها [من هذا وهذا] [١] . قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن : ١٦] [٢] فإذا تفقه السالك وتعلم الأمر والنهى بحسب اجتهاده ، وكان عمله [٣] وإرادته بحسب ذاك ، فهذا مستطاعه . وإذا أدّى الطالب ما أُمر به وترك ما نُهى عنه ، وكان علمه مطابقا لعمله ، فهذا مستطاعه .

فصل

ص ٢٠
أمر الجيلانى بالفناء عن الخلق والهوى والإرادة

قال الشيخ عبد القادر [٤] / : « افن عن الخلق بحكم الله [٥] ، وعن هواك بأمره [٦] ، وعن إرادتك بفعله [٧] ، فحينئذ [٨] تصلح أن تكون وعاءً لعلم الله تعالى » [٩] .

---

(١) عبارة « من هذا وهذا » : ساقطة من (ز) ، (ك) .

(٢) بعد آية سورة التغابن توجد فى (ك) فقط هذه العبارات : « وقال ﷺ : وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » .

(٣) ض (فقط) : علمه ، وهو تحريف .

(٤) ز ، ض : الشيخ قدّس الله روحه . والكلام التالى فى « فتوح الغيب » ص ١٢ وهو فى المقالة السادسة : فى الفناء عن الخلق .

(٥) فتوح الغيب : عن الخلق بإذن الله تعالى .

(٦) فتوح الغيب : بأمر الله تعالى ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين .

(٧) فتوح الغيب : بفعل الله تعالى .

(٨) فتوح الغيب : وحينئذ .

(٩) تعالى : ليست فى (ك) ، (ض) ، (م) . وهى فى (ز) ، فتوح الغيب .

تعليق ابن تيمية

قلت : فحكمه يتناول خلقه وأمره ، أى : افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه ، فلا تطعهم فى معصية الله ، ولا تتعلق بهم فى جلب منفعة ولا دفع مضرّة .

وأما الفناء عن الهوى بالأمر وعن الإرادة بالفعل ، بأن يكون فعله موافقا للأمر الشرعى لا لهواه ، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعةً لفعل الله لا لإرادة نفسه ، فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات .

فالأول يكون بالأمر ، والثانى لا تكون [١] له إرادة . ولابد فى هذا أن يقيد بأن لا تكون له إرادة لم يؤمر بها ، وإلا فإذا أُمر بأن يريد من المقدورات شيئا دون شىء ، فليرد ما أمر بإرادته ، سواء كان موافقاً للقدر أم لا .

وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين ، والغالب على الصادقين منهم أنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية فى ذلك المعين ، وهم ليس لهم إرادة نفسانية ، فتركوا إرادتهم لغير المقدور .

ظ ٢٠

كلام الجيلانى عن علامات الفناء

قال الشيخ [٢] : « فعلامة فنائك / عن خلق الله [٣] انقطاعك عنهم ، وعن التردد إليهم ، واليأس مما فى أيديهم » .

تعليق ابن تيمية

وهو كما قال . فإذا كان القلب لا يرجوهم ولا يخافهم ، لم يتردد إليهم لطلب شىء منهم ، وهذا يشتبه بما يكون مأمورا به من المشى إليهم لأمرهم بما أمر الله به ، ونهيهم عن ما نهاهم الله عنه ، كذهاب الرسل وأتباع الرسل إلى من يبلغونه رسالات الله ، فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أُمر به العبد ، ليكون عابداً لله

---

(١) ك ، ز : لا يكون .

(٢) بعد الكلام السابق مباشرة فى « فتوح الغيب » ص ١٢ .

(٣) فتوح الغيب : الله تعالى .

متوكلا عليه ، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أُمر به ، فقد يكون ما أضاعه من الأمر أَوْلى به مما قام به من التوكل ، أو مثله أو دونه ، كما أن من قام بأمرٍ ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب ، بل قد يكون ما تركه من التوكل والإستعانة أَوْلى به ممّا فعله من الأمر أو مثله أو دونه .

تابع كلام الجيلانى

قال الشيخ [(١)] : « وعلامة فنائك عنك وعن هواك [(٢)] ، ترك التكسب والتعلق بالسبب [(٣)] فى جلب النفع ودفع الضر ، فلا تتحرك [(٤)] فيك بك [(٥)] ، ولا تعتمد [(٦)] عليك لك ، ولا تنصر [(٧)] نفسك ولا تذب عنك [(٨)] ، لكن تكل ذلك [(٩)] كله إلى من تولّاه أولاً فيتولاه آخرًا [(١٠)] ، كما كان ذلك موكولا إليه فى حالك كونك مغيبا فى الرحم ، / وكونك رضيعا طفلا فى مهدك » .

ص ٢١

تعليق ابن تيمية

قلت : وهذا لأن النفس تهوى وجود ما تحبه وينفعها ، ودفع ما تبغضه [(١١)] ويضرها ، فإذا فنى عن ذاك بالأمر فعل ما يحبه الله وترك ما يبغضه ، فاعتاض بفعل

---

(١) الشيخ : ليست فى (ك) . والكلام التالى بعد الكلام السابق مباشرة فى « فتوح الغيب » ص ١٣ .

(٢) فتوح الغيب : .... فنائك عن هواك ...

(٣) ز : بالتسبب .

(٤) ز : يتحول .

(٥) فتوح الغيب : فلا تحرك فيك ...

(٦) ز : يعتمد ؛ فتوح الغيب : تتعمد .

(٧) ز : ينصر .

(٨) فتوح الغيب : ... عليك لك ، ولا تذب عنك ، ولا تنفر (كذا) نفسك ...

(٩) ذلك : ساقطة من (ك) .

(١٠) فتوح الغيب : ولا تنفر نفسك تكل ذلك كله إلى الله تعالى لأنه تولاه أولا فيتولاه آخرا .

(١١) ز : يبغضها ، وهو تحريف .

محبوب الله عن محبوبه ، ويترك ما يبغضه الله [(١)] عمَّا أبغضه . وحينئذ فالنفس لابد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة ، فيكون فى ذلك متوكلا على الله .

والشيخ رحمه الله ذكر هنا التوكل دون الطاعة ، لأن النفس لابد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة ، فإن [لم تكن متوكلة على الله فى ذلك واثقة به] [(٢)] لم يمكن أن تنصرف [(٣)] عن ذلك فتمتثل [(٤)] الأمر مطلقا ، بل لابد أن تعصى [(٥)] الأمر فى جلب المنفعة ودفع المضرة ، فلا تصح العبادة [لله] [(٦)] وطاعة أمره بدون التوكل عليه ، كما أن التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته .

قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [سورة هود : ١٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [سورة الطلاق : ٢ ، ٣] [(٧)] ، وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝ رَبُّ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [سورة المزمل : ٨ ، ٩] .

ظ ٢١ والمقصود أن امتثال / الأمر على الإطلاق لا يصح بدون التوكل والاستعانة ، ومن كان واثقا بالله أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره ،

---

(١) ز : ما أبغضها لله ، وهو تحريف .
(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) .
(٣) ز : ينصرف .
(٤) ك : فيمتثل ؛ ز : فتمثيل .
(٥) ز ، ك : يعصى .
(٦) لله : ساقطة من (ز) .
(٧) فى (ك) لم يرد إلا قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

أمكن أن يدع هواه ويطيع أمر [مولاه] [١] ، وإلا فنفسه لا تدعه يترك [٢] ما يقول إنه محتاج فيه إلى غيره .

كلام آخر للجيلانى عن علامة فناء إرادة العبد

قال الشيخ [٣] : « وعلامة فناء إرادتك بفعل الله [٤] أنك لا تريد مراداً قط ، فلا يكون لك غرض [٥] ، ولا تقف لك حاجة ولا مرام [٦] ، لأنك [٧] لا تريد مع إرادة الله سواها ، بل يجرى فعله [٨] فيك ، فتكون أنت إرادة الله تعالى وفعله [٩] ، ساكن الجوارح ، مطمئن الجنان ، مشروح [١٠] الصدر ، منوَّر الوجه ، عامر الباطن [١١] ، غنيًّا عن الأشياء بخالقها ، تقلِّبك يد القدرة ، ويدعوك لسان الأزل ، ويعلّمك رب الملل [١٢] ، ويكسوك نورًا [١٣] منه والحلل ، وينزلك منازل من سلف [١٤] من أُولِي العلم الأُوَل ، فتكون منكسراً أبداً ، فلا

---

(١) ض ، ز ، م : أمره . والمثبت من (ك) .

(٢) ض : لا تدعه أن يترك .

(٣) ز ، ض : الشيخ رضى الله عنه . والكلام التالى فى « فتوح الغيب » بعد الكلام السابق مباشرة ، ص ١٣ .

(٤) فتوح الغيب : وعلامة فنائك عن إرادتك بفعل الله ...

(٥) فتوح الغيب : ولا يكون لك غرض ؛ ز ، ك : فلا يكسر لك غرض ، وهو تحريف . والمثبت من (م) ، (ض) .

(٦) ك : ولا تقف له حاجة ولا مرام ؛ فتوح الغيب : ولا يبقى لك حاجة ولا مرام .

(٧) فتوح الغيب : فإنك ....

(٨) فتوح الغيب : فعل الله ...

(٩) فتوح الغيب : فتكون أنت عند إرادة الله وفعله ...

(١٠) فتوح الغيب : منشرح ...

(١١) الباطن : كذا فى (م) ، (ز) ، (ض) . وفى (ك) ، فتوح الغيب : البطن .

(١٢) ك ، ز ، ض : الملك . والمثبت من (م) ، فتوح الغيب .

(١٣) فتوح الغيب : أنواراً .

(١٤) فتوح الغيب : وينزلك من أولى العلم الأول ، وسقطت عبارة « منازل من سلف » ، وفى (ك) : من أول ، وهو تحريف .

تثبت فيك شهوة ولا إرادة [١] ، كالإناء المنثلم الذى لا يثبت فيه مائع ولا كدر [٢] ، فتنبو [٣] عن أخلاق البشرية فلن يقبل باطنك شيئا [٤] غير إرادة الله تعالى [٥] ، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات ، فيُرى ذلك منك فى ظاهر الفعل والحكم [٦] وهو فعل الله / تبارك وتعالى [٧] حقا فى العلم ، فتدخل حينئذ فى زمرة المنكسرة قلوبهم الذين كُسرت إرادتهم البشرية ، وأُزيلت شهواتهم الطبيعية ، واستؤنفت [٨] لهم إرادات [٩] ربانية وشهوات إضافية [١٠] . كما قال النبى ﷺ : حُبِّب إلىَّ من دنياكم ثلاث : النساء والطيب [١١] وجعلت قرة عينى فى الصلاة [١٢] : فأضيف ذلك إليه [١٣] بعد أن خرج منه وزال عنه ، تحقيقا لما

ص ٢٢

---

(١) فتوح الغيب : فلا يثبت فيك شهوة وإرادة .

(٢) فتوح الغيب : مائع وكدر .

(٣) فتنبو : كذا فى (م) . وفى (ك) ، (ز) : فتنبوا . وفى (ض) : فتفنوا . وفى « فتوح الغيب » : فتنقى .

(٤) م ، ك ، ض : ساكنا . والمثبت من (ز) ، فتوح الغيب .

(٥) فتوح الغيب : الله عز وجل .

(٦) ز : فى ظاهر العقل والحلم ؛ م ، ك ، ض : فى ظاهر العقل والحكم . والمثبت من « فتوح الغيب » ص ١٤ .

(٧) تبارك وتعالى : ليست فى « فتوح الغيب » .

(٨) ز ، ك ، ض : واستوثقت . وفى (م) الكلمة غير منقوطة ، وفى « فتوح الغيب » : فاستؤنفت .

(٩) فتوح الغيب : إرادة .

(١٠) عبارة « شهوات إضافية » : ساقطة من « فتوح الغيب » وفى (ك) كتبت عبارة « وشهوات إضافية » فى الأصل ، وأشير إلى الهامش حيث كتب تصحيح « وظيفية » بدلا من « إضافية » .

(١١) فتوح الغيب : الطيب والنساء .

(١٢) قال السخاوى فى « المقاصد الحسنة » ص ١٨٠ : « ... وأما ما استقر فى هذا الحديث من زيادة « ثلاث » فلم أقف عليها إلا فى موضعين من « الإحياء » ، وفى تفسير آل عمران من الكشاف ، وما رأيتها فى شئ من طرق هذا الحديث بعد مزيد التفتيش . وبذلك صرّح الزركشى فقال : إنه لم يرد فيه لفظ « ثلاث » . قال : وزيادته محيلة للمعنى ، فإن الصلاة ليست من الدنيا » ثم قال السخاوى (ص ١٨١) : =

أشرت إليه (١) وتقدم (٢) . قال الله (٣) : أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى »
وساق كلامه ، وفيه قوله : لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل الحديث .

تعليق ابن تيمية

قلت : هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبد القادر (٤) . وحقيقته أنه لا يريد كون شئ إلا أن يكون مأموراً بإرادته ، فقوله : « علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط » أى : لا تريد مراداً لم تؤمر بإرادته ، فأما ما أمرك الله ورسوله بإرادتك إياه ، فإرادته إما واجب وإما مستحب ، وترك إرادة هذا إما معصية وإما نقص .

وهذا الموضع يلتبس على كثير من السالكين ، فيظنون أن الطريقة الكاملة

= « وقال فى تخريج الكشاف (أى الحافظ العراقى) : إن لفظ « الثلاث » لم يقع فى شئ من طرقه وزيادته تفسد المعنى » . وضعّف الدكتور محمد الصبّاغ الحديث فى تعليقه على كتاب « الأسرار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة » لملا على القارى (ط . بيروت ، ١٣٩١/١٩٧١) ص ١٧٧ .

والحديث الصحيح عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ هو : « حبب إلىّ من دنياكم : النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » . وهو فى « صحيح الجامع الصغير » وقال عنه السيوطى : « حم = أحمد فى مسنده ، ن = النسائى ، ك : الحاكم فى المستدرك ، هق = البيهقى فى السنن) عن أنس « وصححه الألبانى وأشار إلى « تخريج المشكاة ٥٢٦١ » . وفى تعليقه على « مشكاه المصابيح » للتبريزى ٦٦٩/٢ (ط . المكتب الإسلامى ، دمشق ١٣٨١/١٩٦١) قال الشيخ الألبانى : « وقد اشتهرت على الألسنة زيادة أخرى وهى « ثلاث » ولا أصل لها فى شئ من طرق الحديث ، بل هى مفسدة للمعنى كما لا يخفى » .

والحديث عن أنس رضى الله عنه فى : سنن النسائى ٥٨/٧ ، ٦٠ (كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء) وأوله : « حُبب إلىّ من الدنيا ... الحديث . وهو عن أنس فى المسند (ط . الحلبى) ١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥ .

(١) إليه : ساقطة من « فتوح الغيب » . وفى (ك) : إليه ﷺ .
(٢) فتوح الغيب : بما أشرنا وتقدم .
(٣) فتوح الغيب : الله تعالى .
(٤) ض : عبد القادر رضى الله عنه .

ظ ٢٢ أن لا يكون للعبد إرادة أصلا ، وأن قول أبي يزيد [(١)] : « أريد أن / لا أريد » [(٢)] لما قيل له : « ماذا تريد ؟ » نقص وتناقض ، لأنه قد أراد ، ويحملون كلام المشايخ الذين يُمدحون بترك الإرادة على ترك الإرادة مطلقا .

وهذا غلط منهم على الشيوخ المستقيمين ، وإن كان من الشيوخ من يأمر بترك الإرادة مطلقا ، فإن هذا غلط ممن قاله ، فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور .

فإن الحى لابد له من إرادة ، فلا يكون حى [من الناس] إلا أن تكون له إرادة [(٣)] . وأما الأمر [(٤)] فإن الإرادة التى يحبها الله ورسوله ، ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب ، لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاصٍ إن كانت واجبة ، وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركاً لما هو خيرٌ له .

---

(١) ز : أبو يزيد ، وهو خطأ . والأرجح أن ابن تيمية يقصد أبا يزيد البسطامى . وهو : أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى . ويقال : بايزيد ، صوفى شهير له شطحات كثيرة . يقول الزركلى : « وفى المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود ، وأنه كان أول قائل بمذهب الفناء Nirvana ، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية » . ولد سنة ١٨٨ وتوفى سنة ٢٦١ . انظر ترجمته ومذهبه فى : طبقات الصوفية ، ص ٦٧ - ٧٤ ؛ الطبقات الكبرى ٦٥/١ - ٦٦ ؛ صفة الصفوة ٨٩/٤ - ٩٤ ؛ شذرات الذهب ١٤٣/٢ - ١٤٤ ؛ ميزان الاعتدال ٣٤٦/٢ - ٣٤٧ ؛ الأعلام ٣٣٩/٣ ؛ الرسالة القشيرية ٨٠/١ - ٨٢ ؛ حلية الأولياء ٣٣/١٠ - ٤٢ . وقد ألف الدكتور عبد الرحمن بدوى الجزء الأول من كتابه « شطحات الصوفية » (ط . النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩) وفيه نصوص مطولة من شطحات البسطامى .

(٢) ذكر هذه العبارة الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه « شطحات الصوفية » (نقلا عن كتاب : النور من كلمات أبى طيفور) ص ١١٥ من نص جاء فى أوله : « قال : سمعت أبا موسى يقول : سمعت أبا يزيد يقول : قطعت المفاوز ... وفيه : ... قال : ما تريد ؟ قال : أريد أن لا أريد . قال : قد أعطيناك » .

(٣) ز : فلا يكون حيًّا لا تكون له إرادة ؛ ض : فلا يمكن حيا أن لا تكون له إرادة ؛ ك : فلا يكون حى من الناس إلا تكون له إرادة . وهذه العبارات غير واضحة فى مصورة (م) . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٤) عبارة « وأما الأمر » : ساقطة من (ض) .

والله تعالى قد وصف الأنبياء والصدّيقين بهذه الإرادة ، فقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [سورة الأنعام : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجزَى ۝ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ [سورة الليل : ١٩ ، ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ [سورة الإنسان : ٩] ، وقال تعالى ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً ﴾ [سورة الأحزاب : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ [سورة الإسراء : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَاعْبُدُ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [سورة الزمر : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴾ [سورة الزمر : ١٤] وقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ [سورة النساء : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والْأَنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦] . ص ٢٣

ولا عبادة إلا بإرادة الله ولما أمر به (١) وقال تعالى (٢) ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [سورة البقرة : ١١٢] أى أخلص قصده لله . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [سورة البيّنة : ٥] وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة .

وقال تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ ان كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبكُمُ اللهُ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] . وكل محب فهو مريد .

---

(١) ز : ولما يأمر به .
(٢) تعالى : ساقطة من (ك) .

وقال الخليل عليه السلام : ﴿ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] ثم قال : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٩] .

ومثل هذا كثير فى القرآن ، يأمر الله بإرادته وإرادة ما يأمر به ، وينهى عن إرادة غيره ، وإرادة ما نهى عنه . وقد قال النبى ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى [١] ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إمرأةٍ / يتزوجها [٢] فهجرته إلى ما هاجر إليه » [٣] . ظ ٢٣

فهما إرادتان : إرادة يحبها الله ويرضاها ، وإرادة لا يحبها [٤] ولا يرضاها ، بل إما نهى عنها وإما لم يأمر بها ولا ينهى عنها .

والناس فى الإرادة ثلاثة أقسام :

قوم يريدون ما يهوونه ، فهؤلاء عبيد أنفسهم والشيطان .

وقوم يزعمون أنهم فرغوا عن الإرادة مطلقا ، ولم يبق لهم مراد إلا ما يقدّره الرب ، وأن [٥] هذا المقام هو أكمل المقامات . ويزعمون أن من قام بهذا فقد

---

(١) ك (فقط) : .... ما نوى ... الحديث .

(٢) ض : ينكحها .

(٣) الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى : البخارى ٢/١ (كتاب الإيمان ، باب كيف كان بدء الوحى) ؛ مسلم ١٥١٥/٣ - ١٥١٦ (كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ : إنما الأعمال بالنيات) ؛ سنن النسائى ٥١/١ (كتاب الطهارة ، باب النية فى الوضوء) ؛ سنن ابن ماجة ١٤١٣/٢ (كتاب الزهد ، باب النية) .

(٤) ض (فقط) : لا يحبها الله ...

(٥) ك ، ز ، م : أو أن .

قام (١) بالحقيقة ، وهى الحقيقة القدرية الكونية ، وأنه (٢) شهد القيومية العامة ، ويجعلون الفناء (٣) فى شهود توحيد الربوبية هو الغاية ، وقد يسمون هذا : الجمع (٤) والفناء (٥) والاصطلام (٦) ونحو ذلك ، وكثير من الشيوخ زلقوا فى هذا الموضع .

وفى هذا المقام كان النزاع بين الجنيد بن محمد (٧) وبين طائفة من أصحابه الصوفية ، فإنهم اتفقوا على شهود توحيد الربوبية ، وأن الله خالق كل

---

(١) ز : أقام ، وهو تحريف .

(٢) ز (فقط) : وإن .

(٣) عند عبارة « ويجعلون الفناء » ينتهى الموجود من نسخة (م) ، واعتمد فيما يلى على (ك) ، (ز) ، (ض) فقط إن شاء الله .

(٤) فى كتاب « اصطلاحات الصوفية » لكمال الدين عبد الرزاق القاشانى ص ٤١ (تحقيق د . محمد كمال جعفر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١) : « الجمع : شهود الحق بلا خلق » ، وفى رسالة « اصطلاحات الصوفية » لابن عربى (طبعت مع كتاب التعريفات للجرجانى ، ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٥٧/١٩٣٨) ص ٢٣٦ يقول : « الجمع : إشارة إلى حق بلا خلق » . أما الجرجانى فيعرف الجمع والتفرقة (كتاب التعريفات ، ص ٦٨) بقوله : « الفرق : ما نسب إليك ، والجمع ما سلب عنك ، ومعناه : أن يكون كسبا للعبد من إقامة وظائف العبودية ، وما يليق بأحوال البشرية ، فهو فرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وابتداء لطف وإحسان فهو جمع ، ولابد للعبد منهما ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له ، فقول العبد : إياك نعبد ، إثبات للتفرقة بإثبات العبودية ، وقوله : وإياك نستعين ، طلب للجمع . فالتفرقة بداية الإرادة ، والجمع نهايتها » .

(٥) يعرف ابن عربى (المرجع السابق ص ٢٣٦) الفناء عند الصوفية بقوله : « الفناء : عدم رؤية العبد لفعله بقيام الله على ذلك » . وأما الجرجانى (السابق ، ص ١٤٨) فيعرفه بقوله : « الفناء سقوط الأوصاف المذمومة ، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة . والفناء فناءان : أحدهما ما ذكرنا ، وهو بكثرة الرياضة . والثانى : عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت وهو بالاستغراق فى عظمة البارى ومشاهدة الحق . وإليه أشار المشايخ بقولهم : الفقر سواد الوجه فى الدارين ، يعنى : الفناء فى العالمين » .

(٦) يعرفه عبد الرزاق القاشانى (السابق ، ص ٣٠) بقوله : « الاصطلام هو الوله الغالب على القلب ، وهو قريب من الهيمان » وكذلك يعرفه ابن عربى (السابق ، ص ٢٤٠) بقوله : « الاصطلام : نوع وله يرد على القلب فيسكن تحت سلطانه » .

(٧) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز ، أصل أبيه من نهاوند وكان يبيع =

شيء وربه ومليكه ، وهو شهود القدر ، وسموا هذا مقام الجمع . فإنه خرج به [(١)] عن الفرق الأول ، وهو الفرق الطبيعى [(٢)] بإرادة هذا وكراهة هذا ، ورؤية فعل هذا وترك هذا ، فإن الإنسان قبل أن يشهد هذا التوحيد يرى للخلق فعلاً يتفرّق به قلبه فى / شهود أفعال المخلوقات ، ويكون متبعاً لهواه فيما يريده ، فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبع ، ثم يشهد [(٣)] أنه خالق كل شيء ، فخرج بشهود هذا الجمع عن ذاك الفرق ، فلما اتفقوا على هذا ذكر لهم الجنيد [بن محمد] [(٤)] الفرق الثانى ، وهو بعد هذا الجمع ، وهو الفرق الشرعىُّ : ألا ترى أنك تريد ما أُمرت به ، ولا تريد ما نُهيت عنه ، وتشهد أن الله هو [(٥)] يستحق العبادة دون ما سواه ، وأن عبادته هى بطاعة رسله ، فتفرِّق بين المأمور والمحظور وبين أوليائه وأعدائه ، وتشهد توحيد الألوهية ؟

ص ٢٤

فنازعوه فى هذا الفرق : منهم من أنكره ، ومنهم من لم يفهمه ، ومنهم من ادّعى أن المتكلم فيه لم يصل إليه . ثم إنك تجد كثيرا من الشيوخ إنما ينتهى [(٦)] إلى

= الزجاج ولذلك يقال له القواريرى . والجنيد إمام الصوفية ويقال له : سيد الطائفة ، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة . توفى ببغداد سنة ٢٧٩ وقيل ٢٩٨ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ص ١٥٥ - ١٦٣ ؛ الطبقات الكبرى ٧٢/١ - ٧٤ ؛ صفة الصفوة ٢٣٥/٢ - ٢٤٠ ؛ وفيات الأعيان ٣٢٣/١ - ٣٢٥ ؛ شذرات الذهب ٢٢٨/٢ - ٢٣٠ ؛ طبقات الشافعية ٢٦٠/٢ - ٢٧٥ ؛ الأعلام ١٣٧/٢ - ١٣٨ ؛ القشيرية ١٠٦/١ .

(١) ك : فإنه به خرج .

(٢) ك : الطبعى .

(٣) ض : شهد .

(٤) بن محمد : زيادة فى (ض) .

(٥) هو : ليست فى (ض) .

(٦) ك : ينتهون .

ذلك الجمع ، وهو توحيد الربوبية والفناء فيه ، كما فى كلام صاحب « منازل السائرين » [١] مع جلالة قدره ، مع أنه قطعاً كان قائماً بالأمر والنهى المعروفَيْن .

لكن قد يدّعون أن هذا لأجل العامة ، ومنهم من يتناقض ، ومنهم من يقول : الوقوف مع الأمر لأجل مصلحة العامة ، وقد يعبر [عنهم] [٢] بأهل المارستان .

ومنهم من يسمِّى [٣] ذلك مقام التلبيس .

[ومنهم من يقول : إنما التكليف على الإنسان مادام عبدا ، فإذا ترقّى من منزلة العبودية (إلى منزلة) الحرية سقط عنه التكليف ، فلا يبقى عليه تكليف ، لأن الحر لا تكليف عليه لأحد] [٤] .

ومنهم من يقول : التحقيق أن يكون الجمع فى قلبك مشهوداً ، / والفرق على لسانك موجوداً ، فيشهد بقلبه استواء المأمور والمحظور ، مع تفريقه بلسانه [٥] بينهما . ظ ٢٤

ومنهم من يرى أن هذه هى الحقيقة ، التى هى منتهى سلوك [٦] العارفين ، وغاية منازل الأولياء الصدِّيقين .

ومنهم من يظن أن الوقوف مع إرادة الأمر والنهى يكون فى السلوك والبداية . وأما فى النهاية فلا تبقى إلا إرادة القدر . وهو فى الحقيقة قولٌ بسقوط العبادة

---

(١) وهو عبد الله الأنصارى الهروى ، وتقدم بعض كلامه .
(٢) عنهم : ساقطة من (ز) .
(٣) ك : سمّى ؛ ز : يسم .
(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) ، (ض) وزدت عبارة (إلى منزلة) ليستقيم الكلام .
(٥) بلسانه : ساقطة من (ض) .
(٦) ك : سول .

والطاعة ، فإن العبادة لله والطاعة له ولرسوله إنما تكون فى امتثال الأمر الشرعى ، لا فى الجرى مع المقدور وإن [١] كان كفراً وفسوقاً وعصياناً [٢].

ومن هنا صار كثير من السالكين من أعوان الكفّار والفجّار وخفرائهم ، حيث شهدوا القدر معهم ، ولم يشهدوا الأمر والنهى الشرعيين . ومن هؤلاء من يقول : « من شهد القدر سقط عنه الملام » ويقول [٣] : إن الخضر إنما سقط عنه الملام لمّا شهد القدر .

وأصحاب شهود القدر قد يؤتى أحدهم ملكا من جهة خرق العادة بالكشف والتصرف ، فيظن ذلك [٤] كمالا فى الولاية ، وتكون [تلك] [٥] الخوارق إنما حصلت بأسباب شيطانية وأهواء نفسانية ، وإنما الكمال فى الولاية أن يُستعمل [٦] خرق / العادات فى إقامة الأمر والنهى الشرعيّيْن ، مع حصولهما [٧] بفعل المأمور وترك المحظور ، فإذا حصلت بغير الأسباب الشرعية فهى مذمومة ، وإن حصلت بالأسباب الشرعية ، لكن استُعملت ليُتوصل بها إلى محرَّم كانت مذمومة ، وإن تُوصِّل بها إلى مباح لا يُستعان بها على طاعةٍ كانت للأبرار دون المقرَّبين ، وأما إن حصلت بالسبب الشرعى واستعين بها على فعل الأمر الشرعى ، فهذه خوارق المقرَّبين السابقين .

ص ٢٥

(١) ز : إن .
(٢) ض : أو فسوقا أو عصيانا .
(٣) ض : ويقولون .
(٤) ز : فيظن أن ذلك ...
(٥) تلك : زيادة فى (ض) .
(٦) ك : تستعمل .
(٧) ك ، ز : حصولها .

فلابد أن يُنظر [١] فى الخوارق فى أسبابها وغاياتها : من أين حصلت ؟ وإلى ماذا أوصلت ؟ كما يُنظر فى الأموال : فى مستخرجها ومصروفها [ومن استعملها - أعنى الخوارق - فى إرادته الطبيعية كان مذموما] [٢] .

ومن كان خاليا [٣] عن الإرادتين الطبيعية والشرعية فهذا حسبه أن يُعفى عنه ، لكونه لم يعرف الإرادة الشرعية ، وأما إن عرفها وأعرض عنها ، فإنه يكون مذموماً مستحقا للعقاب إن لم يُعف عنه ، وهو يُمدح بكون إرادته ليست بهواه ، لكن يجب مع ذلك أن تكون موافقةً لأمر الله [٤] ورسوله ، لا يكفيه أن تكون [٥] لا من هذا ولا من هذا ، مع أنه لا يمكن خلوه [٦] عن الإرادة مطلقا ، بل لابد له من إرادة ، فإن لم يرد ما يحُبه الله ورسوله أراد / مالا يحبه الله ورسوله ، لكن إذا جاهد نفسه على ترك ما يهواه [٧] ، بقى مريداً لما يظن أنه مأمور به ، فيكون ضالا .

ظ ٢٥

فإن هذا يشبه حال الضالين من النصارى . وقد قال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الفاتحة : ٦ ، ٧] . قد قال النبى ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » [٨] .

---

(١) ك : تنظر .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) .

(٣) ز : خالصا .

(٤) ض : الله تعالى .

(٥) ك : يكون .

(٦) ز : خلو .

(٧) ض : تهواه .

(٨) الحديث عن عدى بن حاتم رضى الله عنه فى سنن الترمذى فى موضعين ٤/٢٧١ ، ٢٧٢ =

فاليهود [(١)] لهم إرادات فاسدة منهى عنها ، كما أُخبر عنهم بأنهم عصوا وكانوا يعتدون ، وهم يعرفون الحق ولا يعملون به ، فلهم علم لكن ليس [لهم] [(٢)] عمل بالعلم ، وهم فى الإرادة المذمومة المحرَّمة يتّبعون أهواءهم ، ليسوا فى الإرادة المحمودة المأمور بها ، وهى إرادة ما يحبه الله ورسوله .

والنصارى لهم قصد وعبادة وزهد ، لكنهم ضُلاَّل يعملون بغير علم ، فلا يعرفون الإرادة التى يحبها الله ورسوله ، بل غاية أحدهم تجريد نفسه عن الإرادات ، فلا يبقى مريداً لما أمر الله به ورسوله ، كما لا يريد كثيرا مما نهى الله عنه ورسوله .

وهؤلاء ضالون عن مقصودهم ، فإن مقصودهم إنما هو فى طاعة الله ورسوله . ولهذا كانوا ملعونين ، أى بعيدين / عن الرحمة التى تُنال بطاعة الله عز وجل [(٣)] . ص ٢٦

والعالِمُ الفاجرُ يشبه اليهود ، والعابد الجاهل يشبه النصارى . ومن أهل العلم من فيه شئ من الأول ، ومن أهل العبادة من فيه شئ من الثانى . وهذا الموضع تفرّق فيه بنو آدم وتباينوا تباينا عظيما لا يحيط به إلا الله ، ففيهم من لم يخلق الله خلقا أكرم عليه منه ، وهو خير البرية ، ومنهم من هو شر البرية .

= (كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة فاتحة الكتاب) وأوله فى الموضع الأول : أتيت رسول الله ﷺ وهو فى المسجد .... الحديث ، ولفظه : « فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضُلاَّل » وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب ، وروى شعبة عن سماك بن حرب عن عَبَّاد بن حُبَيْش عن عدى بن حاتم عن النبى ﷺ الحديث بطوله » . والحديث فى المسند (ط . الحلبى) ٣٧٨/٤ وفيه : « إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى ... » .

(١) ك : واليهود .

(٢) لهم : ساقطة من (ز) .

(٣) عبارة « عز وجل » ليست فى (ك) .

وأفضل الأحوال فيه حال الخليلين : إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم [١] . ومحمد سيد ولد آدم ، وأفضل [٢] الأوَّلين والآخرين ، وخاتم النبيين وإمامهم إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، وهو المعروج به إلى ما فوق الأنبياء كلهم [٣] : إبراهيم وموسى وغيرهما .

وأفضل الأنبياء بعده إبراهيم ، كما ثبت فى الصحيح عن أنس بن مالك [٤] ، عن النبى ﷺ أن إبراهيم خير البرية [٥] .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن جابر ، عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى خطبة يوم الجمعة : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدْى هدى محمدٍ » [٦] . وكذلك كان عبد الله بن مسعود يخطب بذلك يوم الخميس ، [كما] [٧] رواه البخارى فى صحيحه [٨] .

---

(١) ك : محمد وإبراهيم عليهما السلام .

(٢) ك : أفضل .

(٣) كلهم : ساقطة من (ك) .

(٤) بن مالك : زيادة فى (ز) .

(٥) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : مسلم ١٨٣٩/٤ (كتاب الفضائل ، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ) ولفظه : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا خير البرية . فقال رسول الله ﷺ : ذاك إبراهيم عليه السلام » . والحديث فى : سنن أبى داود ٣٠٢/٤ (كتاب السنة ، باب فى التخيير بين الأنبياء) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٧٨/٣ ، ١٨٤ .

(٦) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : مسلم ٥٩٢/٢ (كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة) . وهو – مع اختلاف فى اللفظ – فى : سنن ابن ماجة ١٧/١ (المقدمة ، باب اجتناب البدع والجدل) ؛ سنن النسائى ١٥٣/٣ (كتاب صلاة العيدين ، باب كيفية الخطبة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣١٠/٣ .

(٧) كما : زيادة فى (ك) .

(٨) ذكر البخارى فى صحيحه فى موضعين أثرا عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بهذا المعنى الأول ٢٥/٨ (كتاب الأدب ، فى الهدى الصالح) ونصه : قال عبد الله : إن أحسن الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ » . والثانى ٩٢/٩ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) . وانظر ما ذكره ابن حجر فى : فتح البارى ٢٥٢/١٣ – ٢٥٣ .

ظ ٢٦ وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة قالت : ما ضرب / رسول الله ﷺ بيده خادماً له ، ولا إمرأةً ولا دابة ولا شيئاً قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما نيل منه قط شئ فانتقم لنفسه ، إلا أن تُنتهك محارم الله ، فإذا انتُهكت محارم الله لم يقم لغضبه شئ حتى ينتقم لله (١) .

وقال أنس خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى : أفٍ قط ، وما قال لى لشئ فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشئ لم أفعله : لم لا فعلته ؟ وكان بعض أهله إذا عتبنى (٢) على شئ قال : « دعوه ، فلو قُضى شئ لكان (٣) .

ورسول الله ﷺ هو أفضل الخلائق ، وسيد ولد آدم ، وله الوسيلة فى المقامات كلها ، ولم يكن حاله أنه لا يريد شيئا ، ولا أنه يريد كل واقع ، كما أنه لم يكن حاله أنه (٤) يتبع الهوى ، بل هو منزَّه عن هذا وهذا .

قال تعالى (٥) : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى ﴾ [سورة

---

(١) جاءت أحاديث مختصرة أو مطولة بنفس المعنى عن عائشة رضى الله عنها فى : سنن أبى داود ٣٤٦/٤ (كتاب الأدب ، باب فى التجاوز فى الأمر) ؛ سنن ابن ماجة ٦٣٨/١ (كتاب النكاح ، باب ضرب النساء) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٢/٦ ، ٢٠٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٨١ ؛ سنن الدارمى ١٤٧/٢ (كتاب النكاح ، باب فى النهى عن ضرب النساء) .

(٢) ض : عنفنى .

(٣) هذا جمع بين حديثين رويا عن أنس رضى الله عنه الأول ينتهى عند عبارة .. لم لا فعلته ؟ وهو – مع اختلاف فى الألفاظ – فى : البخارى ١١/٤ (كتاب الوصايا ، استخدام اليتيم فى السفر والحضر) ، ١٤/٨ (كتاب الأدب ، باب حسن الخلق والسخاء ...) ؛ سنن أبى داود ٣٤٢/٤ (كتاب الأدب ، باب فى الحلم وأخلاق النبى ﷺ) ؛ سنن الترمذى ٢٤٨/٣ – ٢٤٩ (كتاب البر والصلة ، باب ما جاء فى خلق النبى ﷺ) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٠١/٣ ، ١٢٤ ، ١٧٤ ، ٢٠٠ ، ٢٢٧ ، ٢٥٦ . وأما القسم الأخير من الحديث فهو فى المسند (ط . الحلبى) ٢٣١/٣ .

(٤) ز : أن .

(٥) ض : قال الله تعالى .

النجم : ٣] وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [سورة الجن : ١٩] [١] . وقال [٢] : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [سورة البقرة : ٢٣] ، وقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِه لَيْلاً ﴾ [سورة الإسراء : ١] . والمراد بعبده : عابده المطيع لأمره ، وإلا فجميع المخلوقين عبادٌ [٣] بمعنى أنهم مُعَبَّدون مخلوقون مُدَبَّرون .

وقد قال الله تعالى / لنبيه [٤] : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر : ٩٩] . قال الحسن البصرى : « لم يجعل الله لعمل المؤمن أجلا دون الموت » [٥] . ص ٢٧

[وقد] قال الله [تعالى] له [٦] : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ٤] قال ابن عباس – ومن وافقه كابن عيينة وأحمد بن حنبل – : « على دين عظيم » [٧] . والدين فعل ما أمر به .

---

(١) ك : .... يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا .

(٢) ض : وقال تعالى .

(٣) ك : عباده .

(٤) ض : وقد قال الله لنبيه ؛ ك : وقد قال تعالى لنبيه .

(٥) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : « قال البخارى : قال سالم : الموت (قال المحققون لطبعة دار الشعب : البخارى ، تفسير سورة الحجر ١٠٢/٦) . وسالم هذا هو : سالم بن عبد الله بن عمر ، كما قال ابن جرير . حدثنا محمد بن بشار .... عن سالم بن عبد الله : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال : الموت (تفسير الطبرى ٥١/١٤) . وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره » . وانظر ما أورده الطبرى عن الحسن فى تفسيره .

(٦) ك : وقد قال الله له ؛ ز : وقال الله له . والمثبت من (ض) .

(٧) فى « تفسير ابن كثير » للآية : « قال العوفى ، عن ابن عباس : أى وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام . وكذلك قال مجاهد ، وأبو مالك ، والسدى ، والربيع بن أنس ، والضحّاك ، وابن زيد » . وكذا قال ابن الجوزى فى تفسيره « زاد المسير » ٤٢٨/٨ : « وفيه ثلاثة أقوال : أحدها : دين الإسلام ، قاله ابن عباس » .

وقالت عائشة : « كان خُلُقُه القرآن » رواه مسلم (١) ، وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه ولا ينتقم لنفسه ، لكن يعاقب لله وينتقم لله (٢) ، وكذلك أخبر أنس أنه كان يعفو عن حظوظه .

وأما حدود الله فقد قال : « والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » أخرجاه فى الصحيحين (٣) .

وهذا هو كمال الإرادة ؛ فإنه أراد ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان والعمل الصالح وأمر بذلك ، وكره ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان ونهى عن ذلك ، كما وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأنجِيلِ يَأْمُرُهُم

(١) هذا الأثر عن عائشة رضى الله عنها جاء ضمن حديث طويل رواه مسلم ٥١٢/١ - ٥١٤ (كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ...) وأوله أن سعد بن هشام أراد أن يغزو فى سبيل الله فقدم المدينة ... فأتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ ؟ فقال ابن عباس : ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : من ؟ قال : عائشة ..... فقلت : يا أم المؤمنين : أنبئينى عن خلق رسول الله ﷺ . قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق نبى الله ﷺ كان القرآن ... الحديث . وهو فى : سنن أبى داود ٥٥/٢ - ٥٧ (كتاب التطوع ، باب فى صلاة الليل) .

(٢) هذا الأثر عن عائشة رضى الله عنها فى البخارى ١٨٩/٤ (كتاب المناقب ، باب صفة النبى ﷺ) ونصه : « عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها » . والأثر - مع اختلاف يسير فى الألفاظ - فى : البخارى ٣٠/٨ (كتاب الأدب ، باب قول النبى ﷺ : يسروا ولا تعسروا ...) ، ١٦٠/٨ (كتاب الحدود ، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله) ؛ مسلم ١٨١٣/٤ (كتاب الفضائل ، باب مباعدته ﷺ للآثام ...) ؛ سنن أبى داود ٣٤٦/٤ (كتاب الأدب ، باب فى التجاوز فى الأمر) . والأثر فى الموطأ وفى مسند أحمد فى مواضع كثيرة .

(٣) الحديث عن عائشة رضى الله عنها وجاء فى البخارى فى ثلاثة مواضع : ٢٣/٥ (كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ ، باب ذكر أسامة بن زيد) ، ١٧٥/٤ (كتاب الأنبياء ، باب حدثنا أبو اليمان =

ظ ٢٧

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] (١) .

وأما لحظ (٢) لنفسه فلم يكن يعاقب ولا ينتقم ، بل يستوفى حق ربه ويعفو عن حظ نفسه ، وفى حظ نفسه ينظر إلى القدر فيقول : « لو قُضى شئ لكان » . وفى حق الله يقوم بالأمر فيفعل ما أمره الله به ، ويجاهد فى سبيل الله أكمل الجهاد الممكن (٣) ، فجاهدهم أولا بلسانه بالقرآن الذى أُنزل عليه .

كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ، فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [سورة الفرقان : ٥١ ، ٥٢] ثم لما هاجر إلى المدينة وأُذن له فى القتال ، جاهدهم بيده .

وهذا مطابق لما أخرجاه فى الصحيحين عن أبى هريرة وهو معروف أيضا من حديث عمر بن الخطاب ، عن النبى ﷺ فى حديث احتجاج آدم وموسى ،

= ....) ونصه فيه ... أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت ... وفيه : ... فقال رسول الله ﷺ أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب ثم قال : إنما أهلك الذين قبلكم .... الحديث وهو فى : البخارى ٨/١٦٠ (كتاب الحدود ، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع) ؛ مسلم ٣/١٣١٥ - ١٣١٦ (كتاب الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره ....) ؛ سنن أبى داود ٤/١٨٨ (كتاب الحدود ، باب فى الحد يشفع فيه) . وجاء الحديث فى سنن الترمذى وابن ماجة والنسائى والدارمى ومسند أحمد .

(١) فى (ك) : .... والأغلال التى كانت عليهم .... الآية .

(٢) ز : وأما لحظه ... ، وهو تحريف .

(٣) الممكن : ساقطة من (ك) .

لما لامَ موسى آدم [(١)] لكونه أخرج نفسه وذريته من الجنة بالذنب الذى فعله ، فأجابه آدم بأن هذا كان مكتوبا علىَّ قبل أن أُخلق بمدة طويلة . قال النبى ﷺ : « فحجَّ آدم موسى » [(٢)] .

ص ٢٨ وذلك لأن ملام موسى لآدم لم يكن لحق / الله ، وإنما كان لما لحقه وغيره من الآدميين من المصيبة بسبب ذلك الفعل ، فذكر له آدم أن هذا كان أمراً مقدَّراً لابد من كونه ، والمصائب التى تصيب العباد يُؤمرون فيها بالصبر ، فإن هذا هو الذى ينفعهم . وأما لومهم لمن كان سببا فيها فلا فائدة لهم فى ذلك . وكذلك ما فاتهم من الأمور التى تنفعهم ، يؤمرون فى ذلك بالنظر إلى القدر ، [(٣)] وأما التأسف والحزن فلا فائدة فيه ، فما جرى به القدر من فَوْت منفعة لهم ، أو حصول مضرة لهم ، فلينظروا فى ذلك إلى القدر [٣)] ، وأما ما كان بسبب أعمالهم فليجتهدوا فى التوبة من الماضى [(٤)] والإصلاح فى المستقبل ، فإن هذا الأمر ينفعهم ، وهو مقدور لهم بمعونة الله لهم .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز [(٥)] ، وإن أصابك شئ فلا تقل : لو أنى فعلت لكان كذا

---

(١) ز ، ك : لآدم . والمثبت من (ض) .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ١٤٨/٩ (كتاب التوحيد ، باب وكلّم الله موسى تكليما) ؛ مسلم ٢٠٤٢/٤ - ٢٠٤٤ (كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى) ؛ سنن ابن ماجة ٣١/١ - ٣٢ (المقدمة ، باب فى القدر) ؛ المسند (ط . المعارف) ١١٧/١٣ ، ٢٣/١٤ ، ٥٦ ، ٢٤٥ . والحديث عن أبى هريرة وعن عمر رضى الله عنهما فى : سنن أبى داود ٣١١/٤ ، ٣١٢ (كتاب السنة ، باب فى القدر) .

(٣ - ٣) ساقط من (ك) .

(٤) ض : المعاصى . والمثبت من (ك) ، (ز) .

(٥) ض : ولا تعجزن .

وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن لو [١] يفتح عمل الشيطان » [٢] .

أمر [النبى] ﷺ بحرص العبد على [٣] ما ينفعه والاستعانة بالله ، ونهاه عن العجز . وأنفع ما للعبد طاعة الله ورسوله ، / وهى عبادة الله تعالى . وهذان الأصلان هما حقيقة قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [سورة الفاتحة : ٥] ، ونهاه عن العجز ، وهو الإضاعة والتفريط والتوانى [٤] ، كما قال فى الحديث الآخر : « الكيِّس من دان نفسه [٥] وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع [نفسه] [٦] هواها وتمنَّى على الله الأمانى » رواه الترمذى [٧] .

ظ ٢٨

وفى سنن أبى داود أن رجلين تحاكما إلى النبى ﷺ ، فقضى على أحدهما ، فقال المقضىُّ عليه : حسبِىَ اللهُ ونعم الوكيل ، فقال النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكَيْس ، فإذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل » [٨] فالكَيْس ضد العجز . وفى الحديث : « كل شىء بقدر حتى العجز والكَيْس » رواه مسلم [٩] .

---

(١) ز : اللو .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٤/٢٠٥٢ (كتاب القدر ، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز ....) ؛ سنن ابن ماجة ١/٣١ (المقدمة ، باب فى القدر) ٢/١٣٩٥ (كتاب الزهد ، باب التوكل واليقين) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢/٣٦٦ – ٣٧٠ .

(٣) ك : أمره ﷺ بالحرص على ... ؛ وسقطت كلمة « النبى » من (ز) . والمثبت من (ض) .

(٤) ز : بالتوانى .

(٥) ز : النفس .

(٦) نفسه : ساقطة من (ز) .

(٧) الحديث عن شداد بن أوس رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٤/٥٤ (كتاب صفة القيامة ، باب حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » ؛ سنن ابن ماجة ٢/١٤٢٣ (كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٤/١٢٤ .

(٨) الحديث عن عوف بن مالك رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٣/٤٢٦ (كتاب الأقضية ، باب الرجل يحلف على حقه) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٦/٢٤ – ٢٥ .وضعّف الألبانى الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير » ٢/١٢٧ .

(٩) الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما فى : مسلم ٤/٢٠٤٥ (كتاب القدر ، باب كل شىء =

وليس المراد بالعجز فى كلام النبى ﷺ ما يُضاد القدرة ، فإن من لا قدرة له بحال لا يُلام ، ولا يُؤمر بما لا يقدر عليه بحال . ثم لما أمره بالاجتهاد والاستعانة بالله ونهاه عن العجز ، أمره [١] إذا غلبه أمرٌ أن ينظر إلى القدر ويقول : قدَّر الله وما شاء فعل ، ولا يتحسّر ويتلهف [٢] ويحزن ، ويقول : لو أنى فعلت [كذا كذا] [٣] لكان [٤] كذا وكذا ، فإن لو [٥] تفتح عمل الشيطان .

ص ٢٩ وقد قال بعض الناس فى هذا / المعنى : الأمر [٦] أمران : أمرٌ فيه حيلة ، وأمر لا حيلة فيه ، فما فيه حيلة لا تعجز عنه [٧] ، وما لا حيلة فيه لا تجزع منه [٨] . وهذا هو الذى يذكره أئمة الدين كما ذكر الشيخ عبد القادر وغيره ، فإنه لابد من فعل المأمور ، وترك المحظور ، والرضا أو الصبر [٩] على المقدور .

وقد قال تعالى حكاية عن يوسف : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٠] ، فالتقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور ، والصبر يتضمن الصبر على المقدور .

وقد قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾

= بقدر) ؛ الموطأ ٨٩٩/٢ (كتاب القدر ، باب النهى عن القول بالقدر) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٩٣/٨ - ١٩٤

(١) ز : وأمره .
(٢) ك : ولا يتلهف .
(٣) كذا وكذا : زيادة فى (ض) .
(٤) ز ، ك : كان .
(٥) ز : اللو .
(٦) ز : الأمور .
(٧) ض : لا يُعجز عنه .
(٨) ض : لا يُجزع منه .
(٩) ض : والصبر .

[سورة آل عمران : ١١٨ - ١٢٠] (١) فبيّن سبحانه أنه مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين .

وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٥] فبيّن أنه مع الصبر والتقوى يمدّهم بالملائكة وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم .

وقال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٦] / فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بألسنتهم ، وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ، فالصبر - والتقوى - يدفع شر العدو المظهر للعداوة ، المؤذين (٢) بألسنتهم والمؤذين بأيْديهم ، وشر العدو المبطن للعداوة وهم المنافقون . ظ ٢٩

وهذا الذى كان خُلق الرسول ﷺ وهديه ، هو أكمل الأمور . فأما من أراد ما يحبه الله تارة ومالا يحبه تارةً ، أو لم يرد لا هذا ولا هذا ، فكلاهما دون خُلق رسول الله ﷺ ، وإن لم يكن على واحد منهما إثم ، كالذى يريد ما أُتِيحَ له من نَيْل الشهوة المباحة والغضب والانتقام المباح ، كما هو خلق بعض الأنبياء والصالحين ، فهو وإن كان جائزاً لا إثم فيه ، فخلق رسول الله ﷺ أكمل منه .

وكذلك من لم يرد الشهوات المباحة ، وإن كان يستعان بها على أمر مستحب ، ولم يُرد أن يغضب وينتقم ويجاهد (٣) إذا جاز العفو ، و [إن] كان (٤)

---

(١) ز : .... خبالاً ودوا ...

(٢) ك : والمؤذين .

(٣) ك : ويجاهد وينتقم .

(٤) ز : وكان .

الانتقام لله أرضى (١) لله ، كما هو أيضا خلق بعض الأنبياء والصالحين ، فهذا وإن كان جائزا لا إثم فيه ، فخُلق رسول الله ﷺ أكمل منه .

ص ٣٠ وهذا والذى قبله إذا / كان شريعة لنبى ، فلا عيب (٢) على نبى [فيما] شرع الله له (٣) ، لكن قد فضَّل الله بعض النبيين على بعض ، وفضَّل بعض الرسل على بعض .

والشريعة التى بُعث بها محمد ﷺ أفضل الشرائع ، إذ كان محمد ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين ، وأمته خير أمة أخرجت للناس .

قال أبو هريرة فى قوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] : (٤« كنتم خير الناس للناس ٤) ، تأتون بهم فى الأقياد والسلاسل حتى تُدخلوهم الجنة » : يبذلون أنفسهم (٥) وأموالهم فى الجهاد لنفع الناس ، فهم خير الأمم للخلق .

والخلق عيالُ الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله . وأما غير الأنبياء فمنهم (٦) من يكون ذلك شرعةً لاتّباعه لذلك النبى ، وأما من كان من أهل شريعة محمد ﷺ ومنهاجه ، فإن كان ما تركه واجباً عليه وما فعله محرّماً عليه ، كان مستحقا للذم والعقاب ، إلا أن يكون متأوّلا مخطئا ، فالله قد وضع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان ، وذنب أحدهم قد يعفو الله عنه بأسباب متعددة .

---

(١) ك : رضى ، وهو تحريف .
(٢) ك : عتب .
(٣) ز : على شئ شرعه الله له ، والمثبت من (ك) ، (ض) .
(٤ – ٤) ساقط من (ك) .
(٥) ز ، ك : ... للناس وذلك أنهم يأتون بهم فى الأقياد والسلاسل حتى يدخلوهم الجنة ويبذلون أنفسهم .... إلخ . والمثبت من (ض) .
(٦) ك : منهم .

ومن أسباب هذا الانحراف ، أن من الناس من تغلب عليه طريقة الزهد فى إرادة نفسه ، فيزهد فى موجب الشهوة والغضب ، كما / يفعل ذلك من يفعله من عُبَّاد المشركين وأهل الكتاب ، كالرهبان وأشباههم . وهؤلاء يرَوْن الجهاد نقصاً لما فيه من قتل النفوس وسبى الذرية وأخذ الأموال ، ويرَوْن أن الله لم يجعل عمارة بيت المقدس على يد داود ، لأنه جرى على يديه سفك الدماء ، ومنهم من لا يرى ذبح شئ من الحيوان ، كما عليه البراهمة ، ومنهم من لا يحرِّم ذلك [(١)] ، لكنه هو يتقرب إلى الله بأنه لا يذبح حيوانا ولا يأكل لحمه ، بل [(٢)] ولا ينكح النساء ، ويقول فى ممادحه [(٣)] : فلان ما نكح ولا ذبح . ظ ٣٠

وقد أنكر النبى ﷺ على هؤلاء . كما فى الصحيحين عن أنس أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السرِّ . فقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه وقال [(٤)] : « ما بالُ أقوام قالوا كذا وكذا ، لكنى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » [(٥)] .

وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ

---

(١) ز : لا يجزم بذلك ، وهو تحريف .

(٢) بل : ساقطة من (ض) .

(٣) ض : ويقول مادحه .

(٤) ك : فقال .

(٥) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ٢/٧ (كتاب النكاح ، باب الترغيب فى النكاح) ؛ مسلم ١٠٢٠/٢ (كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح ..) ؛ سنن النسائى ٤٩/٦ - ٥٠ (كتاب النكاح ، باب النهى عن التبتل) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢٤١/٣ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥ .

لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٨٧] [١] ، نزلت فى عثمان بن مظعون وطائفة / معه : كانوا قد عزموا على التبتل ونوع من الترهّب [٢] . ص ٣١

وفى الصحيحين عن سعد أنه قال : « ردَّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له لاختصينا » [٣] .

والزهد النافع المشروع الذى يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع فى الآخرة ، فأما ما ينفع فى الآخرة وما يُستعان به على ذلك ، فالزهد فيه زهد فى نوع من عبادة الله وطاعته ، والزهد إنما يُراد لأنه زهد فيما يضر ، أو زهد فيما لا ينفع ، فأما الزهد فى النافع [٤] فجهل وضلال . كما قال النبى ﷺ : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » [٥] .

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته [٦] وطاعة رسوله ، وكل ما صدّه عن ذلك فإنه ضار لا نافع ، ثم الأنفع له أن تكون كل أعماله عبادة لله وطاعة له ، وإن أدّى الفرائض وفعل مباحاً لا يعينه على الطاعة ، فقد فعل ما ينفعه ومالا ينفعه ولا يضره .

---

(١) فى (ك) ، (ض) لم ترد آخر الآية (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) .

(٢) انظر تفسير الطبرى للآية ١٠/٥١٤ - ٥١٩ (ط . المعارف) ؛ تفسير ابن كثير (ط الشعب) ٣/١٦١ - ١٦٣ .

(٣) ض : لا اختصينا ، وهو تحريف . والحديث عن سعد بن أبى وقاص فى موضعين فى : البخارى ٧/٤ (كتاب الترغيب فى النكاح ، باب ما يكره من التبتل والخصاء) ، سنن النسائى ٦/٤٨ (كتاب النكاح ، باب النهى عن التبتل) . وفى البخارى فى نفس الموضع السابق رواية أخرى عن عبد الله ابن مسعود : « كنا نغزو مع رسول الله ﷺ .... فقلنا : ألا نستخصى ؟ فنهانا عن ذلك ، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب .... » . وهو فى مسلم عن سعد رضى الله عنه فى : ٢/١٠٢٠ (كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح ...) .

(٤) ك : فى المنافع . وفى هامش (ز) كتب أمام هذا الموضع « مطلب تعريف الزهد » .

(٥) ض : ولا تعجزن . ومضى الحديث قبل صفحات قليلة (ص : ١٣٤) .

(٦) ز : هو طاعة الله وعبادته ....

وكذلك الورع المشروع هو الورع عمَّا قد تخاف عاقبته ، وهو ما يُعلم [(١)] تحريمه وما يُشك [(٢)] فى تحريمه وليس فى تركه مفسدة أعظم من فعله ، مثل فعل محرم يتعين [(٣)] ، مثل من يترك أخذ الشبهة ورعاً مع حاجته / إليها ، ويأخذ بدل ذلك محرَّماً بيِّناً تحريمه ، أو يترك واجباً تركه أعظمُ فساداً من فعله مع الشبهة ، كمن يكون على أبيه أو عليه ديون هو مطالب بها ، وليس له وفاء إلا من مال فيه شبهة فيتورع عنها ، ويدع ذمته وذمة أبيه مرتهنة .

ظ ٣١

وكذلك من الورع الاحتياط بفعل ما يُشك فى وجوبه ، لكن على هذا الوجه . وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشرّ الشرين ، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإلا فمن لم يوازن ما فى الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية ، فقد يدع واجبات ويفعل محرَّمات ، ويرى ذلك من الورع . كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ، ويرى ذلك ورعاً ، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ، ويرى ذلك من الورع ، ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم ، لما فى صاحبه من بدعةٍ خفيةٍ ، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذى يجب سماعه من الورع .

وكذلك الزهد والرغبة : من لم يراع ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد ، وما يكرهه / من ذلك ، وإلا فقد يدع واجبات ويفعل محرمات ، مثل من يدع ما يحتاج إليه من الأكل أو أكل [(٤)] الدسم حتى يفسد عقله أو تضعف قوته عمَّا

ص ٣٢

---

(١) ز : تعلم . وفى هامش (ز) كتب أمام هذا الموضع : « مطلب فى تعريف الورع » .
(٢) ز : تشك .
(٣) ض : مثل محرم معين .
(٤) ك : وأكل .

يجب عليه من حقوق الله وحقوق [(١)] عباده ، أو يدع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، لما فى فعل ذلك من أذى بعض الناس والانتقام منهم ، حتى يستولى [(٢)] الكفّار والفجّار على الصالحين الأبرار ، فلا ينظر المصلحة الراجحة فى ذلك .

و [قد] قال [(٣)] تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٧] ، يقول سبحانه : وإن كان قتل النفوس فيه شر ، فالفتنة الحاصلة بالكفر وظهور أهله أعظم من ذلك ، فيُدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما .

وكذلك الذى يدع ذبح الحيوان أو يرى [(٤)] أن فى ذبحه ظلما له هو جاهل ، فإن هذا الحيوان لا بد أن يموت ، فإذا قُتل لمنفعة الآدميين وحاجتهم كان خيراً من أن يموت موتاً لا ينتفع به أحد . والآدمى أكمل منه [(٥)] ، ولا تتم مصلحته إلا باستعمال الحيوان فى [(٦)] الأكل والركوب ونحو / ذلك ، لكن ما لا يُحتاج إليه من تعذيبه نهى الله عنه ، كصبر البهائم وذبحها فى غير الحلق واللبة مع القدرة على ذلك ، وأوجب الله الإحسان بحسب الإمكان فيما أباحه من القتل والذبح ، كما فى صحيح مسلم عن شدّاد بن أوس عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله كتب

ظ ٣٢

---

(١) ض : أو حقوق .

(٢) ز : حتى يستولوا .... ، وهو تحريف .

(٣) ك ، ز : وقال .

(٤) ك ، ز : ويرى .

(٥) ز : منهم .

(٦) ك ، ز : من .

الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » (١) .

وهؤلاء الذين زهدوا فى الإرادات ، حتى فيما يحبه الله ورسوله من الإرادات ، بإزائهم طائفتان : طائفة رغبت فيما كره الله ورسوله الرغبة (٢) فيه من الكفر والفسوق والعصيان ، وطائفة رغبت فيما أمر الله ورسوله ، لكن لهوى (٣) أنفسهم لا لعبادة الله ، وهؤلاء الذين يأتون بصور الطاعات مع فساد النيات ، كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ ، أنه قيل له : يا رسول الله : الرجل يقاتل شجاعةً ، ويقاتل حميَّةً ، ويقاتل رياءً ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » (٤) .

ص ٣٣ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَاقَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [سورة النساء : ١٤٢] ، وهؤلاء أهل إرادات فاسدة مذمومة ، فهم مع تركهم الواجب

---

(١) الحديث عن شداد بن أوس رضى الله عنه فى : مسلم ١٥٤٨/٣ (كتاب العيد ، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل) ؛ سنن أبى داود ١٣٢/٣ - ١٣٣ (كتاب الأضاحى ، باب فى الرفق بالذبيحة) ؛ سنن الترمذى ٤٣١/٢ (كتاب الديات ، باب ما جاء فى النهى عن المثلة) ؛ سنن النسائى ١٩٩/٧ - ٢٠٠ (كتاب الضحايا ، باب الأمر بإحداد الشفرة) ، ٢٠٢/٧ (كتاب الضحايا ، باب حسن الذبح) ؛ سنن ابن ماجة ١٠٥٨/٢ (كتاب الذبائح ، باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح) ؛ سنن الدارمى ٨٢/٢ (كتاب الأضاحى ، باب فى حسن الذبيحة) .

(٢) ز : للرغبة .

(٣) ض : لهواء .

(٤) الحديث عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى : البخارى ١٣٦/٩ (كتاب التوحيد ، باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) ، ٢٠/٤ (كتاب الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا) ؛ مسلم ١٥١٢/٣ - ١٥١٣ (كتاب الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ...) ؛ سنن أبى داود ٢١/٣ (كتاب الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا) ؛ سنن ابن ماجة ٩٣١/٢ (كتاب الجهاد ، باب النية فى القتال) ؛ سنن النسائى ٢٠/٦ (كتاب الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا) ؛ المسند (ط . الحلبى ، ٣٩٢/٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٥ . وأول الحديث (وهذه رواية مسلم) : أن رجلا إعرابيا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ... الحديث .

فعلوا المحرم ، وهؤلاء يشبهون اليهود كما يشبه أولئك النصارى .

قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٢] .

وقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦] (١) .

فهؤلاء يتبعون أهواءهم غيًّا مع العلم بالحق ، وأولئك يتبعون أهواءهم مع الضلال / والجهل بالحق . كما قال تعالى : ﴿ لاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] ، وكلا الطائفتين تاركة (٢) ما أمر الله ورسوله [به] (٣) من الإرادات والأعمال الصالحة ، مرتكبة لما نهى الله ورسوله عنه من الإرادات والأعمال الفاسدة .

ظ ٣٣

فصل

فَأَمْرُ الشيخ عبد القادر ، وشيخه حماد [الدبّاس] (٤) وغيرهما من

---

(١) جاءت بعض كلمات آيتي سورة الأعراف في (ك) ، (ض) .

(٢) ك : باذلة ، وهو تحريف .

(٣) به : ساقطة من (ز) .

(٤) الدباس : ساقطة من (ك) ، (ز) ، وستأتي ترجمته فيما بعد (ص ١٦٣) .

المشايخ أهل الاستقامة – رضى الله عنهم – بأنه لا يريد السالك مرادًا قط ، وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها ، بل يجرى فعله فيه فيكون هو مراد الحق : إنما قصدوا به فيما لم يعلم العبد أمر الله ورسوله فيه ، فأما ما علم أن الله أمر [١] به ، فعليه أن يريده ويعمل به ، وقد صرّحوا بذلك فى غير موضع ، وإن كان غيرهم من الغالطين يرى القيام بالإرادة الخلقية هو الكمال ، وهو الفناء فى توحيد الربوبية ، وأن السلوك إذا انتهى إلى هذا الحد ، فصاحبه إذا قام بالأمر فلأجل غيره ، أو أنه لا يحتاج أن يقوم بالأمر ، فتلك أقوال وطرائق فاسدة ، قد تُكُلِّم عليها فى غير هذا الموضع .

فأما المستقيمون من السالكين ، كجمهور مشايخ السلف ، مثل الفضيل ابن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبى سليمان الدارانى / ومعروف الكرخى ، والسرى السقطى ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ، ومثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ حماد ، والشيخ أبى البيان ، وغيرهم من المتأخرين ، فهم لا يسوِّغون للسالك ، ولو طار فى الهواء أو مشى على الماء ، أن يخرج عن الأمر والنهى الشرعيين ، بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت ، وهذا هو الحق الذى دل عليه الكتاب والسنه وإجماع السلف .

ص ٣٤

وهذا كثير فى كلامهم **كقول الشيخ عبد القادر** فى كتاب « فتوح الغيب » [٢] : « اخرج من نفسك ، وتنح عنها ، وانعزل عن ملكك ، وسلم الكل إلى الله تبارك وتعالى [٣] ، وكن [٤] بوابه على باب قلبك ، وامتثل أمره تبارك وتعالى [٥] فى إدخال من يأمرك بإدخاله ، وانته نهْيَه فى صدِّ من يأمرك

تابع كلام الجيلانى

(١) ز : أمره .

(٢) فى المقالة السابقة « فى إذهاب الغم » هامش ص ١٦ .

(٣) تبارك وتعالى : ليست فى « فتوح الغيب » .

(٤) فتوح الغيب : فكن .

(٥) تبارك وتعالى : ليست فى « فتوح الغيب » .

بصدِّه (١) ، فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن خرج منه ، فإخراج (٢) الهوى من القلب بمخالفته وترك متابعته فى الأحوال كلها ، وإدخاله فى القلب بمتابعته وموافقته (٣) ، فلا تُرِد إرادة غير إرادته تبارك وتعالى (٤) ، وغير ذلك منك تمنٍ (٥) ، وهو وادى الحمقى (٦) ، وفيه حتفك وهلاكك وسقوطك من عينه تبارك وتعالى (٧) وحجابك عنه .

ظ ٣٤ احفظ أبداً أمره ، وانته أبداً نهيَهُ ، / وسلِّم إليه أبدا مقدوره (٨) ، ولا تشركه بشىء من خلقه ، فإرادتك وهواك وشهواتك [كلها] (٩) خلقه ، فلا تُرِد ولا تَهْوَ (١٠) ولا تَشْتَه كَيلا (١١) تكون مشركا (١٢) . قال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [سورة الكهف : ١١٠] ، ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب ، بل هو أيضا متابعتك لهواك ، وأن تختار مع ربك شيئاً سواه : الدنيا وما فيها ، والآخرة وما فيها ، فما سواه تبارك وتعالى (١٣) غيره ، فإذا ركنت إلى غيره فقد أشركت به عز وجل (١٤)

---

(١) ك : فى ضد من يأمرك بضده ، وهو تحريف .
(٢) ز ، ض : وإخراج .
(٣) فتوح الغيب : وموافاته .
(٤) تبارك وتعالى : ليست فى « فتوح الغيب » ، وفى (ك) : تعالى .
(٥) فتوح الغيب ، ز ، ك : تمنى ؛ ض : غير (وهو تحريف) .
(٦) فتوح الغيب : الحمقاء ؛ ز : الحمقا .
(٧) تبارك وتعالى : ليست فى « فتوح الغيب » .
(٨) فتوح الغيب : لمقدوره .
(٩) كلها : زيادة من « فتوح الغيب » .
(١٠) ض : ولا تهوى ، وهو خطأ .
(١١) ك ، ض : لئلا . والمثبت من (ز) ، « فتوح الغيب » هامش ص ١٧ .
(١٢) ض : يكون شركا .
(١٣) فتوح الغيب : عز وجل .
(١٤) عز وجل : ساقطة من (ك) ، (ض) .

[غيره] (١) ، فاحذر ولا تركن ، وخف ولا تأمن ، وفتش ولا (٢) تغفل فتطمئن (٣) ، ولا تضف إلى نفسك حالاً ولا مقاماً ، ولا تدع شيئاً من ذلك » .

وقال الشيخ عبد القادر أيضا (٤) : « إنما هو الله ونفسك ، وأنت المخاطب . والنفس ضد الله وعدوته (٥) ، والأشياء كلها تابعة لله ، فإذا وافقت الحق (٦) فى مخالفة النفس وعداوتها (٧) ، فكنت (٨) خصما له على نفسك » (٩) .

إلى أن قال (١٠) : « فالعبادة كل العبادة فى مخالفتك نفسك وهواك . قال تعالى (١١) : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [سورة صٓ : ٢٦] (١٢) » .

إلى أن قال (١٣) : « والحكاية المشهورة عن أبى يزيد البسطامى رحمه الله ، لما رأى رب العزة فى المنام فقال له : كيف الطريق إليك يا بارخُذَاه (١٤) ؟ فقال :

---

(١) غيره : ساقطة من (ز) ، وكتبت عبارة « فإذا ركنت إلى غيره فقد أشركت به عز وجل » فى هامش (ز) وفوقها عبارة « من فتوح الغيب » .

(٢) فتوح الغيب : فلا .

(٣) فتطمئن : ساقطة من (ك) .

(٤) فى « فتوح الغيب » هامش ص ٢٣ فى أول المقالة العاشرة : فى النفس وأحوالها .

(٥) فتوح الغيب : وعدوه .

(٦) فتوح الغيب : .... تابعه لله ، والنفس لله خلقا وملكا ، وللنفس ادّعاء وتمنٍ وشهوة ولذة بملابستها ، فإذا وافقت الحق عز وجل ...

(٧) فتوح الغيب : وعدوانها .

(٨) ض : كنت .

(٩) فتوح الغيب : فكنت لله خصما على نفسك .

(١٠) فتوح الغيب هامش ص : ٢٤ .

(١١) فتوح الغيب : ... فى مخالفة نفسك . قال الله تعالى ....

(١٢) فتوح الغيب : لا تتبع ... وهو خطأ .

(١٣) بعد الكلام السابق بسطرين .

(١٤) عبارة « يا بارخذاه » ليست فى (ض) ، فتوح الغيب . والظاهر أنها عبارة فارسية .

ص ٣٥ اترك نفسك / وتعال [(١)] . فقال أبو يزيد [(٢)] : فانسخلت من نفسى كما تنسلخ الحية من جلدها . فإذا ثبت أن الخير كله [(٣)] فى معاداتها فى الجملة فى الأحوال كلها ، فإن كنت فى حال التقوى فخالف النفس بأن تخرج من حرام [(٤)] الخلق ، وشبهم [(٥)] ومننهم [(٦)] ، والاتكال عليهم ، والثقة بهم ، والخوف منهم ، والرجاء لهم ، والطمع فيما عندهم من حطام الدنيا [(٧)] ، فلا ترج عطاءهم [(٨)] على طريق الهدية ، أو الزكاة ، أو الصدقة ، أو الكفارة ، أو النذر [(٩)] ، فاقطع همك منهم من سائر الوجوه والأسباب ، فاخرج [(١٠)] من الخلق جدا ، واجعلهم كالباب يُرد ويفتح [(١١)] ، وكالشجرة يوجد [(١٢)] فيها ثمرة تارة وتخيل [(١٣)] أخرى ، كل ذلك بفعل فاعل ، وتدبير مدبّر ، وهو الله تبارك وتعالى ، فإذا اصحَّ لك هذا كنت

---

(١) جاءت هذه الحكاية فى كتاب « النور من كلمات أبى طيفور » ، ضمن كتاب « شطحات الصوفية » تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ، ص ٦٤ ونصها فيه : « سمعت أبا يزيد البسطامى – قدس الله روحه – يقول : رأيت رب العزة فى المنام فقلت : كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك وتعال » .

(٢) ض : قال أبو يزيد . وفى « فتوح الغيب » . فقال .

(٣) فتوح الغيب : فإذا الخير كله ...

(٤) ض : أجرام ؛ فتوح الغيب : جرام .

(٥) فتوح الغيب : وشبهم ، وهو تحريف ظاهر .

(٦) ض ، فتوح الغيب : ومنتهم .

(٧) فتوح الغيب : من أحكام الدنيا .

(٨) فتوح الغيب : فلا تبرح عطاياهم .

(٩) فتوح الغيب : على طريق الهداية والزكوة والصدقة أو النذر ؛ ك : على طريق ... والنذر .

(١٠) فتوح الغيب : ... والأسباب ، حتى إن كان لك نسب ذو مال لا تتمنى موته لترث ماله ، فاخرج ...

(١١) ض : يرد ويفتتح ؛ ك : يردوه يفتح .

(١٢) ك ، فتوح الغيب (هامش ص ٢٥) : توجد .

(١٣) ض : وتحيل ؛ فتوح الغيب : وتختل .

موحِّداً له تبارك وتعالى [١] . ولا تنس مع ذلك كسبهم لتتخلص [٢] من مذهب الجبرية ، واعتقد أن الأفعال لا تتم بهم دون الله تبارك وتعالى ؛ لكيلا تعبدهم [٣] ، وتنسى الله تعالى ، ولا تقل [٤] فِعْلُهم دون الله فتكفر وتكون [٥] قدريا ، لكن [٦] قل : هى لله خلقاً وللعباد كسباً ، كما جاءت به الآثار لبيان موضع الجزاء من الثواب والعقاب ، وامتثل أمر الله فيهم ، وخلِّص قسمك منهم بأمره ولا تجاوزه ، فحكمُهُ / قائم يحكم عليك وعليهم [٧] ، فلا تكن أنت الحاكم ،وكونك معهم قدر ، والقدر ظلمة ، فادخل فى الظلمة بالمصباح ، وهو الحكم : كتاب الله [٨] وسنة رسوله ﷺ ، لا تخرج عنهما .

ظ ٣٥

فإن خطر خاطر ، أو وُجِد إلهام [٩] ، فاعرضهما [١٠] على الكتاب والسنة ، فإن وجدتَ فيهما [١١] تحريم ذلك ، مثل أن تُلهم بالزنا ، أو الربا ، أو مخالطة أهل الفسق والفجور [١٢] ، وغير ذلك من المعاصى ، فادفعه عنك ، واهجره ولا تقبله ، ولا تعمل به ، واقطع بأنه من الشيطان اللعين ، وإن وجدت فيهما إباحته [١٣] ،

---

(١) فتوح الغيب : الله جل وعلا ، لتكون موحّدا للرب .

(٢) ز ، فتوح الغيب : لتخلص .

(٣) ز : دون الله تبارك وتعالى كيلا تعبدهم ؛ فتوح الغيب : دون الله لا تعبدهم .

(٤) ض : ولا تقبل .

(٥) فتوح الغيب : فتكون .

(٦) ض : ولكن .

(٧) فتوح الغيب : فحكم الله قائم بحكمه عليك وعليهم .

(٨) فتوح الغيب : بالظلمة فى المصباح ، وهو كتاب الله ....

(٩) ض : أو وجدت إلهاما ..

(١٠) فتوح الغيب : فاعرضه .

(١١) فتوح الغيب : فيها .

(١٢) فتوح الغيب : .... بالزنا والرباء ومخالطة أهل الفسق والفجور ..

(١٣) فتوح الغيب : وإن وجدت فيها إباحة ...

كالشهوات المباحة : من الأكل والشرب واللبس والنكاح [(١)] ، فاهجره أيضا ولا تقبله ، واعلم أنه من إلهام النفس وشهواتها ، وقد أُمرت بمخالفتها وعداوتها » .

قلت : ومراده بهجر المباح : إذا لم يكن مأمورا به ، كما قد بيَّن مراده فى غير هذا الموضع ، فإن [(٢)] المباح المأمور به إذا فعله بحكم الأمر كان ذلك من أعظم نعم [(٣)] الله عليه ، وكان واجبا عليه . وقد قدَّمت أنه يدعو إلى طريقة السابقين المقرَّبين ، لا يقف عند طريقة الأبرار أصحاب اليمين .

قال [(٤)] : « وإن لم تجد فى الكتاب والسنة تحريمه ولا إباحته [(٥)] ، بل هو أمر لا تعقله [(٦)] ، مثل أن يقال لك [(٧)] : ائت / موضع كذا وكذا ، الق فلانا الصالح . ص ٣٦ ولا حاجة لك هناك ، ولا فى الصالح ؛ لاستغنائك عنه بما أولاك الله تعالى من نعمة [(٨)] من العلم والمعرفة ، فتوقف فى ذلك ، ولا تبادر إليه فتقول : هل هذا الإلهام من الحق فاعمل به ؟ بل انتظر الخير فى ذلك وفعل الحق [(٩)] ، بأن يتكرر ذلك الإلهام وتؤمر بالسعى ، أو علامة تظهر لأهل العلم بالله تبارك وتعالى [(١٠)] ، يعقلها العقلاء

---

(١) فتوح الغيب (هامش ص : ٢٦) : أو الشرب أو اللبس أو النكاح . وفى (ك) : سقطت كلمة « والشرب » .

(٢) ك : وأن .

(٣) ك ، ض : نعمة .

(٤) بعد كلامه السابق مباشرة فى « فتوح الغيب » هامش ص ٢٦ .

(٥) فتوح الغيب : تحريمه وإباحته .

(٦) ك : لا تفعله .

(٧) فتوح الغيب : مثل السائق لك ..

(٨) فتوح الغيب : ... الله من نعمته ..

(٩) فتوح الغيب : فتقول : هذا إلهام من الحق جل وعلا فاعمل به ، بل انتظر الخير كله فى ذلك وفعل الحق عز وجل .

(١٠) ز : بأن الله تبارك وتعالى ؛ ك : بالله (وسقطت عبارة : تبارك وتعالى) ؛ فتوح الغيب : بالله عز وجل .

من أولياء الله [١] ، والمؤيدون [٢] من الأبدال .

وإنما لم تبادر [٣] إلى ذلك ، لأنك لا تعلم عاقبته وما يؤول الأمر إليه ، وربما كان فيه [٤] فتنة ، وهلاك ، ومكر من الله سبحانه [٥] وامتحان ، فاصبر حتى يكون هو عز وجل [٦] الفاعل فيك ، فإذا تجرَّد الفعل وحُملت إلى هناك واستَقْبَلتك فتنة ، كنت محمولا محفوظا منها [٧] ، لأن الله تعالى لا يعاقبك على فعله ، وإنما تتطرق العقوبة [٨] نحوك ، لكونك فى الشئ » .

تعليق ابن تيمية

قلت : فقد أمر – رحمه الله [٩] – بأن ما كان محظورا فى الشرع يجب تركه ، ولابُدَّ . وما كان معلوما أنه مباح بعينه ، لكونه يُفعل بحكم الهوى لا بأمر الشارع فيترك أيضا ، وأما ما لم يعلم هل هو بعينه مباح لا مضرة فيه أو منه ، مثل السفر إلى مكان معين ، أو شخص / معين ، والذهاب إلى مكان معين أو شخص معين [١٠] ، فإن جنس هذا العمل ليس محرَّما ، ولا كل أفراده مباحة ؛ بل يحرم على الإنسان أن يذهب إلى حيث يحصل له ضرر فى دينه ، فأمره بالكف عن الذهاب حتى يُقهر [١١] أو يتبيّن له [١٢] فى الباطن أن هذا مصلحة ، لأنه إذا

ظ ٣٦

---

(١) فتوح الغيب : .... العقلاء من الأولياء .

(٢) ز : والمريدون .

(٣) فتوح الغيب : يتبادر ، وهو تحريف .

(٤) ز : ربما كان فيه ؛ فتوح الغيب : وما كان فيه .

(٥) سبحانه : زيادة فى (ز) .

(٦) ك ، ض : حتى يكون عز وجل هو ..

(٧) ض ، ك ، فتوح الغيب : فيها .

(٨) ز ، ض : العقوبات .

(٩) ز ، ض : رضى الله عنه .

(١٠) ز : إلى شخص معين أو مكان معين .

(١١) ض : حتى يظهر .

(١٢) ز : أو يبيّن له .

لم يتبين له أن الذهاب واجب أو مستحب ، لم ينبغ [(١)] له فعله ، وإذا خاف الضرر انبغى [(٢)] له تركه ، فإذا أُكره على الذهاب لم يكن عليه حرج ، فلا يؤاخذ [(٣)] بالفعل ، بخلاف ما إذا فعله باختياره وشهوته [(٤)] ، وإذا [(٥)] تبين أنه مصلحة راجحة كان حسناً .

وقد جاءت شواهدُ السنَّة بأن من ابتلى بغير تعرّض منه أُعين ، ومن تعرّض للبلاء خِيف عليه . مثل قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمره : « لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلت إليها ، وإن أعطيتها عن [(٦)] غير مسألة أعنت عليها » [(٧)] .

[(٨)] ومنه قوله : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وأسألوا الله العافية [فإذا لقيتموهم فاصبروا »] [(٨)] .

---

(١) ز : لم ينبغى ، وهو خطأ .

(٢) ض : ينبغى .

(٣) ك : فلا يؤخذ .

(٤) ض : أو شهوته .

(٥) ض : وإذ .

(٦) ز : من .

(٧) جاء هذا الحديث مختصرا كما أورده ابن تيمية أو مطولا فى بعض الروايات عن عبد الرحمن بن سَمُرَة رضى الله عنه فى : البخارى ١٢٧/٨ – ١٢٨ (كتاب الأيمان والنذور ، الباب الأول) ، ١٤٧/٨ – ١٤٨ (كتاب كفارات الأيمان ، باب الكفارة قبل الحنث وبعده) ، ٦٣/٩ (كتاب الأحكام ، باب من لم يسأل الإمارة أعانه ، باب من سأل الإمارة وكل إليها) ؛ مسلم ١٢٧٣/٣ – ١٢٧٤ (كتاب الأيمان ، باب من حلف يمينا ....) ، ١٤٥٦/٣ (كتاب الإمارة ، باب النهى عن طلب الإمارة) ؛ سنن أبى داود ١٨٠/٣ (كتاب الخراج والإمارة والفىء ، باب ما جاء فى طلب الإمارة) ؛ سنن الترمذى ٤٢/٣ – ٤٣ (كتاب النذور ، باب فيمن حلف على يمين ....) ؛ سنن النسائى ١٩٨/٨ – ١٩٩ (كتاب آداب القضاة ، باب النهى عن مسألة الإمارة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٦٢/٥ ، ٦٣ .

(٨ – ٨) : ساقط من (ك) . وما بين المعقوفتين فى (ض) فقط . والحديث عن عبد الله بن أبى =

وفى السنن : « من سأل القضاء واستعان عليه [١] وُكِل إليه ، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أَنْزَل الله عليه مَلَكاً يسدّدُهُ » وفى رواية : « وإن أكره عليه » [٢] .

وفى الصحيحين أنه [ﷺ] [٣] قال فى الطاعون : « إذا سمعتم به بأرض / فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فراراً منه » [٤] . ص ٣٧

ومنه [٥] أنه ﷺ نهى عن النذر [٦] .

= أوفى رضى الله عنه ، وجاء مختصرا عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٥١/٤ (كتاب الجهاد والسير ، باب كان النبى ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار ....) ، ٦٣/٤ (كتاب الجهاد ، باب لا تمنوا لقاء العدو) ؛ مسلم ١٣٦٢/٣ - ١٣٦٣ (كتاب الجهاد والسير ، باب كراهية تمنى لقاء العدو) ؛ سنن أبى داود ٥٧/٣ - ٥٨ (كتاب الجهاد ، باب فى كراهية تمنى لقاء العدو) .

(١) ض (فقط) : عليه بالشفعاء ....

(٢) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه بألفاظ مقاربة فى : سنن الترمذى ٣٩٢/٢ (كتاب الأحكام ، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ فى القاضى) وذكر الترمذى حديثا بعده وقال إن الحديث الثانى أصح من هذا الحديث . والحديث عن أنس أيضا فى المسند (ط . الحلبى) ١١٨/٣ ؛ سنن ابن ماجة ٧٧٤/٢ (كتاب الأحكام ، باب ذكر القضاة) . وذكر الألبانى الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير » ٢٠٣/٥ وضعفه .

(٣) ﷺ : زيادة فى (ض) .

(٤) الحديث بهذا اللفظ جزء من حديث طويل عن عبد الله بن عباس عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما فى : البخارى ١٣٠/٧ (كتاب الطب ، باب ما يذكر فى الطاعون) . والحديث بمعناه فى نفس المكان عن أسامة ابن زيد رضى الله عنه . والحديث برواياته فى : مسلم ١٧٣٧/٤ - ١٧٤١ (كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة ....) ؛ سنن الترمذى ٢٦٤/٢ (كتاب الجنائز ، باب ما جاء فى الشهداء ....) ؛ الموطأ ٨٩٤/٢ - ٨٩٧ (كتاب الجامع ، باب ما جاء فى الطاعون) .

(٥) ض : وعنه .

(٦) الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما فى : البخارى ١٢٤/٨ - ١٢٥ ونصه : « قال : نهى النبى ﷺ عن النذر ، وقال : إنه لا يرد شيئا ، وإنما يُستخرج به من البخيل » . والحديث عنه أيضا فى : البخارى ١٤١/٨ (كتاب الأيمان والنذور ، باب الوفاء بالنذر) ؛ مسلم ١٢٦١/٣ (كتاب النذر ، باب النهى عن النذر ....) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٩١/٧ - ١٩٢ ، ١٠/٨ . والحديث أيضا فى سنن النسائى وابن ماجة . وجاء الحديث بمعناه عن أبى هريرة رضى الله عنه فى مواضع متعددة .

ومنه قوله : « ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم »[١] .

فصل

تابع كلام الجيلانى

قال الشيخ عبد القادر[٢] : « وإن كنت فى حالة[٣] الحقيقة ، وهى حالة الولاية ، فخالف هواك ، واتّبع الأمر فى الجملة . واتّباع الأمر على قسمين : أحدهما : أن تأخذ من الدنيا القوت الذى هو حق النفس ، وتترك[٤] الحظ ، وتؤدى الفرض ، وتشتغل بترك الذنوب : ما ظهر منها وما بطن .

والقسم الثانى : ما كان بأمرٍ باطن ، وهو أمر الحق تبارك وتعالى[٥] : يأمر عبده وينهاه ، وإنما يتحقق هذا الأمر فى المباح الذى ليس له حكم فى الشرع ، على معنى أنه[٦] ليس من قبيل النهى[٧] ولا من قبيل الأمر الواجب ، بل هو مهمل تَرَكَ[٨] العبد يتصرف فيه باختياره ، فسُمِّىَ مباحاً ، فلا يُحدث العبد فيه شيئاً من عنده ، بل ينتظر الأمر فيه ، فإذا أُمر امتثل ، فتصير[٩] جميع[١٠] حركاته

---

(١) مضى الحديث من قبل فى هذه الرسالة (ص : ٣١) .
(٢) بعد كلامه السابق مباشرة فى « فتوح الغيب » هامش ص : ٢٦ – هامش ص : ٢٨ .
(٣) ز ، ض : حال .
(٤) ز : وترك ، وهو تحريف .
(٥) فتوح الغيب : عز وجل .
(٦) أنه : ساقطة من « فتوح الغيب » .
(٧) ك : المنهى .
(٨) ز : بترك .
(٩) ض : فيصير .
(١٠) جميع : ليست فى « فتوح الغيب » .

ظ ٣٧

وسكناته بالله [تعالى] (١) ، ما فى الشرع حكمه / فبالشرع ، وما ليس له حكم فى الشرع فبالأمر الباطن ، فحينئذ يصير محِقًّا (٢) من أهل الحقيقة ، وما ليس فيه أمر باطن فهو مجرد الفعل حالة التسليم ، وإن كنت فى حالة (٣) حق الحق ، وهى حاله المحو (٤) والفناء ، [وهى] (٥) حالة الأبدال المنكسرى القلوب (٦) لأجل الحق (٧) ، الموحِّدين العارفين أرباب العلوم والفعل (٨) ، السادة الأمراء الشِّحْن (٩) الخفراء (١٠) للخلق (١١) ، خلفاء الرحمن وأخلائه (١٢) وأعيانه وأحبابه (١٣) عليهم السلام ، فاتّباع الأمر فيها بمخالفتك إياك ، بالتبرِّى من الحول والقوة ، وأن لا يكون (١٤) لك إرادة وهمة فى شئ ألبتة ، دنيا وأخرى (١٥) ، عبد المِلك

---

(١) تعالى : ليست فى (ز) ، (ك) . وفى « فتوح الغيب » : بالله عز وجل .

(٢) ض (فقط) : محققا .

(٣) ز : حال .

(٤) ض : المحق ، وهو خطأ .

(٥) وهى : ساقطة من (ض) ، (ك) ، (ز) . وأثبتها من « فتوح الغيب » .

(٦) فتوح الغيب : المنكسرين للقلوب .

(٧) فتوح الغيب : لأجله .

(٨) فتوح الغيب : والعقل .

(٩) ض ، ز : السخى ، وهو تحريف . وفى « لسان العرب » : « قال ابن برى : وقول العامة فى الشِّحْنة إنه الأمير غلط . وقال الأزهرى : شِحْنة الكورَة مَنْ فيهم الكفاية لضبطها من أولياء السلطان » .

(١٠) ز : الحضراء ؛ فتوح الغيب : خفراء .

(١١) ض : للحق .

(١٢) ض : وأجلائه .

(١٣) فتوح الغيب (هامش ص ٢٨) : وأحبائه

(١٤) ض : تكون .

(١٥) فتوح الغيب : وعقبى .

لا عبد المُلك [١] ، وعبد [٢] الأمر لا عبد الهوى ، كالطفل مع الظئر [٣] ، والميت الغسيل مع الغاسل ، والمريض المغلوب على جنبه مع الطبيب فيما سوى الأمر والنهى » .

وقال أيضا [٤] : « اتبع الشرع فى جميع ما ينزل بك إن كنت فى حالة التقوى ، التى هى القدم الأولى [٥] ، واتبع الأمر فى حالة الولاية [وخمود] وجود الهوى [٦] ولا تتجاوزه [٧] ، وهى القدم الثانية ، وارض بالفعل ، ووافق ، وافن فى حالة [٨] البدلية [٩] والغوثية [١٠] [والقطبية] [١١] والصديقية [١٢] ، وهى المنتهى .

---

(١) ض : عبد المَلَك ، وهو خطأ .

(٢) ك ، ز : عبد .

(٣) فى « لسان العرب » : « الظئر : مهموز : العاطفة على غير ولدها ، المُرضعة له من الناس والإبل ، الذكر والأنثى فى ذلك سواء » .

(٤) فى « فتوح الغيب » هامش ص ٤٤ - هامش ص ٤٥ فى المقالة الثامنة عشر فى النهى عن الشكوى .

(٥) ز : الأول ؛ ك : الأوله .

(٦) ز ، ض ، ك : ووجود الهوى ، وهو خطأ . والمثبت من « فتوح الغيب » .

(٧) فتوح الغيب : ولا تجاوزه .

(٨) ك : فى حال .

(٩) البدلية نسبة إلى البدل عند الصوفية . ويعرف نيكلسون فى « دائرة المعارف الإسلامية » البدل بقوله : « الأبدال جمع البدل ، والبدلاء جمع البديل ، يتصلان بطريق الصوفية الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الهجرى ، وهو أن نظام العالم مكلف بحفظه عدد معين من الأولياء ، إذا مات واحد منهم حل محله بدل أو بديل والجمع أبدال ، يستعمل عادة فى الفارسية والتركية مفردا . ويفسر بعض الكتاب البدل بأنه الشخص الذى له قدرة على أن يخلف شخصا روحانيا عندما يترك مكانه ، أو الشخص الذى له قدرة على التحول الروحانى . والاختلاف بيِّن فيما أوردوه عن عدد الأبدال ومكانهم من سلسلة المراتب الصوفية التى يكون القطب على رأسها . وقد أورد ابن حنبل فى مسنده أربعين من الأبدال خلقهم الله فى الشام (جـ ١ ص ١١٢) ويذكر أيضا أن هناك ثلاثين منهم فى أمة محمد (جـ ٥ ص ٣٢٢) ويشير المكى إلى ثلاثمائة من الأبدال يضمون الصدِّيقين والشهداء والصالحين (قوت القلوب ، جـ ٢ ، ص ٧٨ . انظر سورة النساء الآية ٧١) . ويقول الهجويرى إنهم أربعون وإنهم فى المرتبة الرابعة ، يلون الأبرار السبعة ، =

= وفوقهم الأوتاد الأربعة ، ثم النقباء الثلاثة (كشف المحجوب ، ط . شوكوفسكى ، ص ٢٦٩ ، ترجمة نيكلسون ، ص ٢٨٤) . ويحدد ابن عربى عدد الأبدال بسبعة ويضعهم فى المرتبة تحت الأوتاد (الفتوحات ، ج ٢ ، ص ٩) . وقد أخذ بهذا الرأى ابن الفارض فى التائية الكبرى » .

وانظر تعريف « البدلاء » فى « التعريفات للجرجانى » ، « اصطلاحات الصوفية » لابن عربى ، « اصطلاحات الصوفية » للقاشانى . وانظر تعليق الدكتور محمد مصطفى حلمى على « بدل » فى « دائرة المعارف الإسلامية » .

وعلق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله على الحديث الذى يشير إليه نيكلسون وهو فى المسند (ط . المعارف) ١٧١/٢ من مسند على بن أبى طالب رضى الله عنه بقوله : « إسناده ضعيف لانقطاعه .. وسيأتى فى شأنهم حديث آخر فى مسند عبادة بن الصامت ٣٢٢/٥ قال فيه أحمد هناك : « وهو منكر » .

وأورد الألبانى الحديثين فى « ضعيف الجامع الصغير » ٢٧٥/٢ وقال عن كل منهما : « ضعيف » . والأول هو : « الأبدال بالشام ، وهم أربعون رجلا ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا ، يُسقى بهم الغيث ، ويُنتصر بهم على الأعداء ، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب » . والثانى : « الأبدال فى أمتى ثلاثون ، بهم تقوم الأرض ، وبهم تمطرون وبهم تُنصرون » . وانظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألبانى (ط . دمشق ، ١٣٩٩) ٣٣٩/٢ - ٣٤١ الحديث رقم ٩٣٥ ، ٩٣٦ .

(١٠) ز ، ض ، ك : والعينية . والمثبت من « فتوح الغيب » ، وهى نسبة إلى الغوث عند الصوفية .

(١١) والقطبية : ساقطة من (ز) ، (ض) ، (ك) . وأثبتها من « فتوح الغيب » . وفى كتاب « التعريفات » للجرجانى : « الغوث هو القطب حينما يلتجأ إليه ولا يسمى فى غير ذلك الوقت غوثا » . وفى كتاب « اصطلاحات الصوفية » لابن عربى : « القطب وهو الغوث ، عبارة عن الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان ، وهو على قلب إسرافيل عليه السلام » والمقصود بالغوث الذى يزعمه الصوفية هو كما يقول الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى رحمه الله فى تعليقه على مادة « بدل » فى « دائرة المعارف الإسلامية » : « إن القطب بالمعنى الخاص يدل دلالة قوية على مذهب فلسفى فى الحقيقة المحمدية التى هى عند متفلسفة الصوفية ، أو صوفية الفلاسفة : المخلوق الأول الذى خلقه الله وكان واسطة فى خلق كل ما فى العالم من الكائنات الروحية والمادية » . وانظر تعليقى على « درء تعارض العقل والنقل » ٣١٥/٥ - ٣١٦ . وانظر « اصطلاحات الصوفية » للقاشانى ، ص ١٦٧ .

(١٢) يقول القاشانى فى « اصطلاحات الصوفية » فى تعريف « الصدِّيق » : « المبالغ فى الصدق . وهو الذى كمل تصديق كل ما جاءت به رسل الله علما وقولا وفعلا لضياء باطنه وقربه لباطن النبى ﷺ ، لشدة مناسبته له ، ولهذا لم يتخلل فى كتاب الله مرتبة بينهما فى قوله تعالى : (فأولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين) [سورة النساء : ٦٩] » .

ص ٣٨ تنح عن طريق القدر (١) ، خلّ عن سبيله ، رد نفسك / وهواك ، كف لسانك عن الشكوى ، فإذا فعلت ذلك إن كان خيرا زادك المولى طيبة ولذةً وسرورًا (٢) ، وإن كان شرا حفظك فى طاعته فيه ، وأزال عنك الملامة ، وأفقدك فيه (٣) حتى يتجاوز عنك ، ويرحل (٤) عند انقضاء أجله ، كما ينقضى الليل فيسفر عن النهار ، والبرد فى الشتاء فيسفر عن الصيف .

ذلك أنموذج (٥) عندك فاعتبر به (٦) ، ثم ذنوب وآثام وأجرام وتلويث (٧) بأنواع المعاصى والخَطِيَّات (٨) ، ولا يصلح لمجالسة الكريم إلا طاهر (٩) عن أنجاس الذنوب والزّلات ، (* [ولا يقبل على سدته (١٠) إلا طيب (١١) من دون الدعوى والهواشات (١٢) ، كما لا يصلح لمجالسة الملوك إلا الطاهر من الأنجاس وأنواع النتن والأوساخ ، فالبلايا مكفرات (مطهرات) (١٣) . قال النبى ﷺ : « حمى يوم كفارة سنة » (١٤)] *) .

---

(١) ك : طريق الفذ ؛ ض : الطريق القذر ، وهو تحريف .

(٢) فتوح الغيب (هامش ص : ٤٥) . وسروراً ولذة .

(٣) ك : وفقدك فيه ؛ ض : وأقعدك فيه .

(٤) ض : ويريحك .

(٥) ز ، ك : يا نموذج ؛ ض : النموذج . والمثبت من « فتوح الغيب » .

(٦) فتوح الغيب : بهم .

(٧) فتوح الغيب : وتلويثات .

(٨) ض : والخطايا ؛ فتوح الغيب : والخطيئات .

(٩) ز : طاهرا ؛ فتوح الغيب : الطاهر .

(* - *) ما بين النجمتين ساقط من (ز) ، (ك) .

(١٠) ض : ولا يقبل على شدته ؛ فتوح الغيب : ولا يقبل سدته . ولعل الصواب ما أثبته .

(١١) فتوح الغيب : طيبا .

(١٢) فتوح الغيب : الدعاوى والهويمات .

(١٣) مطهرات : زيادة فى « فتوح الغيب » .

(١٤) ذكره ابن الديبع الشيبانى فى « تمييز الطيب من الخبيث » ، ص ٦٩ والعجلونى فى « كشف الخفاء » ١/٣٦٧ وقال : « قال فى المقاصد : رواه القضاعى فى مسنده عن ابن مسعود مرفوعا فى حديث بلفظ : وحمى ليلة تكفر خطايا سنة مجرمة . وله شاهد رواه ابن أبى الدنيا عن أبى الدرداء موقوفا بلفظ : =

تعليق ابن تيمية

قلت : فقد [١] بين الشيخ – رضى الله عنه – أن لزوم الأمر والنهى لا بد منه فى كل مقام ، وذكر الأحوال الثلاث التى جعلها : حال صاحب التقوى ، وحال الحقيقة ، وحال حق الحق . وقد فسَّر مقصوده بأنه لابد للعبد فى كل حال من أن يريد فعل ما أُمر به فى الشرع ، وترك ما نُهى عنه فى الشرع ، وأنه إذا أُمر العبد بترك إرادته ، فهو فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه ، وهذا حق ، فإنه لم يؤمر به فيكون له إرادة فى وجوده ولا نهى عنه فتكون له إرادة فى عدمه ، فيخلو فى مثل هذا عن إرادة النقيضين .

ظ ٣٨

وقد بيَّن / أن صاحب الحقيقة عليه أن يلزم الأمر دائما : الأمر الشرعى الظاهر إن عرفه ، أو الأمر الباطن ، وبيَّن أن الأمر الباطن إنما يكون فيما ليس بواجب فى الشرع ولا محرم ، وأن مثل [٢] هذا ينتظر فيه الأمر الخاص حتى يفعله بحكم الأمر .

فإن قلت : فما الفرق بين هذا وبين صاحب التقوى الذى قبله ؟ وصاحب حق الحق الذى بعده ؟

قيل : أما الذين بعده الذين سماهم « الأبدال » فهم الذين لا يفعلون إلا بأمر الحق ، ولا يفعلون إلا به ، فلا يشهدون لأنفسهم فعلا فيما فعلوه من الطاعات ، بل يشهدون أنه هو الفاعل بهم ما قام بهم من طاعة أمره . ولهذا قال : « فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك بالتبرى من الحول والقوة » .

= حمى ليلة كفارة سنة . ورواه تمام فى فوائده عن أبى هريرة رفعه بلفظ الترجمة ، وزاد : وحمى يومين كفارة سنتين ، وحمى ثلاثة كفارة ثلاث سنين ، ولابن أبى الدنيا عن الحسن مرسلا – رفعه – إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمى ليلة . وقال ابن المبارك عقب روايته له : إنه من جيد الحديث . ورواه ابن أبى الدنيا أيضا عن الحسن ، قال : كانوا يرجون فى حمى ليلة كفارة لما مضى من الذنوب . وله شواهد كثيرة يقوىّ بعضها بعضا . انتهى » .

(١) ز : قد .

(٢) ز : وإن قيل ، وهو تحريف .

فهؤلاء يشهدون توحيد الربوبية مع توحيد الإلهية ، فيشهدون أن الله هو الذى خلق ما قام بهم من أفعال البر والخير ، فلا يرون لأنفسهم حمداً ولا منّةً على أحدٍ ، ويرون أن الله خالق أفعال العباد ، فلا يرون أحداً مسيئاً إليهم ، ولا يرون لهم حقًّا على أحدٍ ، إذ قد شهدوا أن الله خالق كل شئ من أفعال العباد وغيرها ، وهم يعلمون أن العباد لا يستحقون من أنفسهم / ولا بأنفسهم على الله شيئا ، بل هو الذى كتب على نفسه الرحمة . ص ٣٩

ويشهدون أنه يستحق أن يُعبد لا [١] يشرك به شيئا ، وأنه يستحق أن يُتَّقى حق تُقاته ، وحق تقاته أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويشكر فلا يُكفر ، فيرون أن ما قام بهم من العمل الصالح فهو بفضله وجوده وكرمه [٢] ، له الحمد فى ذلك .

ويشهدون : أنه لا حول ولا قوة إلا بالله . وأما ما قام بالعباد من أذاهم ، فالله خالقه [٣] وهو من عدله ، وما تركه الناس من حقوقهم التى يستحقونها على الناس فهو الذى لم يخلقه ، وله الحمد على كل حال : على ما فعل وما لم يفعل .

ولهذا كانوا منكسرة قلوبهم ؛ لشهودهم وجوده الكامل وعدمهم المحض ، ولا أعظم انكسارا ممن لم ير لنفسه إلا العدم ، لا يرى له شيئا ، ولا يرى به شيئا .

وصاحب الحقيقة الذى هو دون هذا قد شاركه فى إخلاص الدين لله ، وأنه لا يفعل إلا ما أُمر به [٤] ، فلا يفعل إلا لله ، لكن قصّر عنه فى شهود

---

(١) ض : ولا .
(٢) ك : فهو فضله وجوده وكرمه ؛ ض : فهو جوده وفضله وكرمه .
(٣) ز : فهو خالقه ؛ ض : فهو خلقه .
(٤) به : ساقطة من (ك) .

توحيد الربوبية ورؤيته ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنه ليس له فى الحقيقة شئ ، بل الرب هو [الخالق] الفاعل (١) لكل ما قام به ، وأن كمال هذا الشهود لا يُبقى شيئا من العجب ولا الكبر ونحو ذلك .

فكلاهما (٢) / قائم بالأمر مطيع لله ، لكن هذا يشهد أن الله هو الذى جعله مسلما مصليا ، وإنه هو فى الحقيقة لم يُحدِث شيئا . وذاك وإن كان يؤمن بهذا ويصدِّق به – إذ (٣) كان مقراً بأن الله خالق أفعال العباد – [لكن] (٤) قد لا يشهده شهوداً يجعله فيه بمنزله المعدوم . ظ ٣٩

وأيضا بينهما فرق من جهة ثانية : وهى أن (٥) الأول تكون له أرادة فى أمور فيتركها ، فهو يميز فى مراداته بين ما (٦) يؤمر به وما ينهى عنه ، وما لا يؤمر به ولا ينهى عنه . وهذا لم يبق له مراد (٧) أصلا إلا [ما] (٨) أراده الربّ : إما أمراً به (٩) فيمتثله هو بالله (١٠) ، وإما فعلا فيه فيفعله الله به . ولهذا شبَّهه بالطفل مع الظئر فى غير الأمر والنهى .

وأما الأول : الذى هو فى مقام التقوى العامة فإن له شهوات للمحرمات ، وله التفات إلى الخلق ، وله رؤية نفسه ، فيحتاج إلى المجاهدة بالتقوى بأن يكف عن

---

(١) ز : بل للرب هو الفاعل . والمثبت من (ك) ، (ض) .
(٢) ز ، ك : وكلاهما .
(٣) ز : إذا .
(٤) لكن : ساقطة من (ز) .
(٥) أن : ساقطة من (ك) .
(٦) ض : بينما .
(٧) ز : مرادا .
(٨) ما : ساقطة من (ز) .
(٩) به : ساقطة من (ك) .
(١٠) ك : بالله تعالى .

المحرمات ، وعن تناول الشهوات بغير الأمر . فهذا يحتاج أن يميِّز بين ما يفعله وما لا يفعله ، وهو التقوى .

وصاحب الحقيقة : لم يبق له ما يفعله إلا ما يُؤمر به فقط ، فلا يفعل إلا ما أُمر به فى الشرع ، وما كان مباحا لم يفعل إلا ما أُمر به [باطنا] (١) .

ص ٤٠ وأما / الثالث : فقد تم شهوده فى أنه لا يفعل إلا الله وبالله ، فلا يفعل إلا ما أَمَرَ [الله] (٢) به لله ، ويشهد أن الله هو الذى فعل ذاك (٣) فى الحقيقة ، ولا تكون له همة (٤) أو إرادة أن يفعل لنفسه ولا لغير الله ، ولا يفعل بنفسه ولا بغير الله (٥) .

والثلاثة مشتركون فى الطريق ، فى أن كُلاًّ منهم لا يفعل إلا الطاعة ، لكن يتفاوتون بكمال المعرفة والشهادة ، وبصفاء النية والإرادة ، والله أعلم .

فإن قيل : كلام الشيخ كله يدور على أنه يتّبع الأمر مهما أمكن معرفته ظاهراً وباطنا ، وما ليس فيه أمر باطن ولا ظاهر (٦) يكون فيه مسلما لفعل الرب ، بحيث لا يكون له اختيار (٧) لا فى هذا ولا فى هذا ، بل إن عرف الأمر كان معه ، وإن لم يعرفه كان مع القدر ، فهو مع أمر (٨ الرب إن عَرَف ٨) ، وإلا فمع خلقه ،

---

(١) باطنا : ساقطة من (ز) ، (ض) .
(٢) الله : ليست فى (ز) ، (ك) .
(٣) ض : ذلك .
(٤) ك : ولا يكون همه ..
(٥) ض : الله تعالى .
(٦) ض : باطنا ولا ظاهرا .
(٧) ك : اعتبار .
(٨ - ٨) : مكانه بياض فى (ك) .

فإنه سبحانه له الخلق والأمر . وهذا يقتضى أن من الحوادث ما ليس فيه أمر ولا نهى [١] ، فلا يكون لله فيه حكم لا باستحباب ولا كراهة [٢] .

وقد صرح بذلك هو [٣] والشيخ حمَّاد الدبَّاس [٤] ، وأن السالك يصل إلى أمور لا يكون فيها حكم شرعى بأمر ولا نهى ، بل يقف العبد مع القدر .

وهذا الموضع هو الذى يكون السالك فيه / عندهم مع الحقيقة القدرية [٥] المحضة ، إذ ليس هنا حقيقة شرعية . ظ ٤٠

وهذا مما ينازعهم فيه أهل العلم بالشريعة ، ويقولون : [إن] [٦] الفعل إما أن يكون بالنسبة إلى الشرع وجوده راجحا على عدمه ، وهو الواجب والمستحب . وإما أن يكون عدمه راجحاً على وجوده ، وهو المحرَّم والمكروه . وإما أن يستوى

---

(١) ك : أمر ونهى .

(٢) ز : كراهية .

(٣) أى الجيلانى ، وهو الشيخ أبو محمد محيى الدين عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكى دوست الحسنى ، الجيلانى أو الكيلانى أو الجيلى ، شيخ الطريقة القادرية ، من كبار الزهاد والصوفية ، ولد فى جيلان (وراء طبرستان) سنة ٤٧١ ، وعاش فى بغداد وتصدر للتدريس والإفتاء بها ، وتوفى سنة ٥٦١ . له كتب منها « الغنية لطالب طريق الحق » ، « فتوح الغيب » وهى مطبوعة . انظر ترجمة الجيلى فى : شذرات الذهب ١٩٨/٤ - ٢٠٢ ، وذكر ابن العماد الحنبلى ٢٠٠/٤ أن ابن السمعانى قال عنه : « هو إمام الحنابلة وشيخهم فى عصره » ؛ الذيل لابن رجب ٢٩٠/١ - ٣٠١ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١٠٨/١ - ١١٤ ؛ فوات الوفيات لابن شاكر ٤/٢ - ٦ ؛ الأعلام ١٧١/٤ - ١٧٢ .

(٤) هو الشيخ أبو عبد الله حماد بن مسلم بن دده الدبّاس الرحبى الزاهد ، شيخ الشيخ عبد القادر الجيلانى ، نشأ ببغداد ، وكان له معمل للدبس ، وكان أميا لا يكتب ، ولكنه كان شيخا صوفيا له أتباع وأصحاب ، وكان ابن عقيل يحط عليه ويؤذيه . توفى فى رمضان سنة ٥٢٥ . انظر ترجمته فى : الطبقات الكبرى للشعرانى ١١٦/١ ؛ شذرات الذهب ٧٣/٤ - ٧٤ .

(٥) ك : الحقيقة والقدرة .

(٦) إن : زيادة فى (ك)

الأمران ، وهو المباح . وهذا [١] التقسيم بحسب الأمر المطلق .

ثم الفعل المعين الذى يُقال : هو مباح : إما أن تكون [٢] مصلحته راجحة للعبد ، لاستعانته به على طاعة [٣] ولحسن نيته ، فهذا يصير أيضا محبوبا راجح الوجود بهذا الاعتبار . وإما أن يكون مفوِّتاً للعبد ما هو أفضل له ، كالمباح الذى يشغله عن مستحب ، فهذا عدمه خير له .

والسالك المتقرِّب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض : لا يكون المباح المعين فى حقه مستوى الطرفين ، فإنه إذا لم يستعن به على طاعة [٤] ، كان تركه وفعل طاعة [٥] مكانه خيراً له ، وإنما قدر وجوده وعدمه سواء إذا كان مع عدمه يشتغل بمباح مثله .

فيقال : لا فرق بين هذا وهذا ، فهذا يصلح للأبرار أهل اليمين الذين يتقرَّبون إلى الله / بالفرائض : أداء [٦] الواجبات وترك المحرَّمات ، [٧ ويشتغلون مع ذلك ٧] بمباحات . فهؤلاء قد يكون المباح المعين يستوى وجوده وعدمه فى حقهم ، إذا كانوا عند عدمه يشتغلون بمباح آخر ، ولا سبيل إلى أن تترك النفس فعلا إن لم تشتغل بفعل آخر يضاد الأول ؛ إذ لا تكون معطَّلة عن جميع الحركات والسكنات .

ص ٤١

---

(١) ز ، ك : هذا .
(٢) ز : يكون .
(٣) ض : طاعته .
(٤) ض : طاعته .
(٥) ض : الطاعة .
(٦) ز : إذا ، وهو تحريف ؛ ض : كأداء . والمثبت من (ك) .
(٧ – ٧) : مكانه بياض فى (ك) .

ومن هنا [(١)] أنكر الكَعْبِيُّ [(٢)] المباح فى الشريعة ؛ لأن كل مباح فهو يشتغل به عن محرّم ، وترك المحرّم واجب ، ولا يمكنه تركه إلا أن يشتغل بضده ، وهذا المباح ضده ، والأمر بالشئ نهى عن ضده ، والنهى عنه أمر بضده المعين [(٣)] إن لم يكن له إلا ضد واحد ، وإلا فهو أمر بأحد أضداده ، فأى ضد تلبَّس به كان واجبا من باب الواجب المخيّر .

وسؤال الكعبى هذا أشكل على كثير من النظَّار . فمنهم من اعترف بالعجز عن جوابه : [كأبى الحسن] الآمدى [(٤)] ، وقوَّاه طائفة ، بناء على أن النهى عن الشئ أمر بضده ، كأبى المعالى .

ومنهم من قال : هذا فيما كانت [(٥)] أضداده محصورة ، فأما ما ليست أضداده محصورة فلا يكون النهى عنه أمراً بأحدها [(٦)] ، كما يفرّق بين الواجب المطلق والواجب المخير ، فيقال / فى المخير : هو أمر بأحد الثلاثة ، ويقال فى المطلق : هو أمر بالقدر المشترك ، وجدى [(٧)] أبو البركات [(٨)] يميل إلى هذا . ظ ٤١

---

(١) ض : ومن هذا .

(٢) أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبى البلخى صاحب « المقالات » ورأس فرقة الكعبية من فرق المعتزلة ، وقد توفى سنة ٣١٩ هـ وقيل سنة ٣١٧ . انظر عنه وعن مذهبه : وفيات الأعيان ٢٤٨/٢ – ٢٤٩ ؛ الفرق بين الفرق ص ١٠٨ – ١١٠ ؛ الملل والنحل ١١٦/١ – ١١٧ ؛ اللباب ٤٤/٣ ؛ تاريخ بغداد ٣٨٤/٩ ؛ الخطط للمقريزى ٣٤٨/٢ ؛ لسان الميزان ٢٥٥/٣ ؛ الأعلام ١٨٩/٤ .

(٣) المعين : ساقطة من (ض) .

(٤) ز : كالآمدى .

(٥) ض : فيما إذا كانت .

(٦) ز : بأحدها .

(٧) ض : وجدنا .

(٨) هو مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن على بن تيمية الحرانى ، جد المؤلف . ولد بحران حوالى سنة ٥٩٠ وتوفى بها سنة ٦٥٢ . وكان من أئمة فقهاء الحنابلة . انظر ترجمته فى : الذيل لابن رجب ٢٤٩/٢ – ٢٥٤ ؛ فوات الوفيات ٥٧٠/١ ؛ شذرات الذهب ٢٥٧/٥ – ٢٥٩ ؛ النجوم الزاهرة ٣٣/٨ ؛ البداية والنهاية ١٨٥/١٣ ؛ الأعلام ١٢٩/٤ – ١٣٠ .

وقد ألزموا الكعبيّ إذا ترك الحرام بحرام آخر ، وهو قد يقول : عليه ترك المحرّمات كلها إلى ما ليس بمحرم ، بل إما مباح وإما مستحب ، وإما واجب .

وتحقيق الأمر أن قولنا (١) : الأمر بالشئ نهى عن ضده وأضداده ، والنهى عنه (٢) أمر بضده أو بأحد أضداده ، من جنس قولنا : (٣ الأمر بالشئ أمر بلوازمه ٣) ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، والنهى عن الشئ نهى عن ما لا يتم اجتنابه إلا باجتنابه ، فإن وجود المأمور [به] (٤) يستلزم (٥) وجود لوازمه وانتفاء أضداده ، بل وجود كل شئ هو كذلك يستلزم وجود لوازمه وانتفاء أضداده ، وعدم المنهى عنه (٦) ، بل وعدم كل شئ يستلزم عدم ملزوماته ، وإذا كان لا يعدم إلا بضد يخلفه (٧) كالأكوان (٨) ، فلابد عند عدمه من وجود بعض أضداده .

فهذا حق فى نفسه ، لكن هذه اللوازم جاءت من ضرورة الوجود ، وإن لم تكن (٩) مقصوده للأمر (١٠) . والفرق ثابت بين ما يؤمر به قصدا ، وبين ما يلزمه (١١) فى الوجود .

---

(١) ك : إن قلنا .

(٢) ك : والمنهى عنه .

(٣ - ٣) : مكانه بياض فى (ك) .

(٤) به : زيادة فى (ك) .

(٥) ز : مستلزم .

(٦) ض : النهى عنه .

(٧) ك ، ض : يخلقه .

(٨) ك ، ز : كالألوان .

(٩) ز ، ض : يكن . وفى (ك) : غير منقوطة .

(١٠) ض : الأمر .

(١١) ك ، ض : وما يلزمه .

فالأول هو الذى يُذم ويُعاقب / على تركه ، بخلاف الثانى . فإن من أُمر بالحج أو الجمعة وكان مكانه بعيدا ، فعليه أن يسعى من المكان البعيد ، والقريب يسعى من المكان القريب . فقطع تلك المسافات من لوازم المأمور به ، ومع هذا فإذا ترك هذان الجمعه والحج ، لم تكن عقوبة البعيد أعظم من عقوبة القريب ، بل ذاك [١] بالعكس أَوْلى ، مع أن ثواب البعيد أعظم . فلو [٢] كانت اللوازم مقصوده للأمر لكان يُعاقب بتركها ، فكان تكون [٣] عقوبة البعيد أعظم ، وهذا باطل قطعا . ص ٤٢

وهكذا إذا فعل المأمور به فإنه لابد من ترك أضداده ، لكن ترك الأضداد هو من لوازم فعل المأمور به ، ليس مقصودا للأمر ، بحيث أنه إذا ترك المأمور به عوقب على تركه لا على فعل الأضداد التى اشتغل بها ، وكذلك المنهى عنه مقصود الناهى عدمه ، ليس مقصوده فعل شئ من أضداده ، وإذا تركه متلبّسا بضد له كان ذلك من ضرورة الترك .

وعلى هذا إذا [٤] ترك حراماً بحرامٍ آخر فإنه يعاقب على [٤] الثانى ، ولا يقال : فَعَلَ واجبا وهو ترك الأول ، لأن المقصود عدم الأول ، فالمباح الذى اشتغل به عن محرّم لم يؤمر به ولا بأمثاله [٥] / [كان] [٦] أمراً مقصوداً ؛ لكن نُهى عن الحرام ، ومن ضرورة ترك المنهى عنه الاشتغال بضد من أضداده ، فذاك يقع ظ ٤٢

---

(١) ض : ذلك .
(٢) ز : ولو .
(٣) ض : يكون .
(٤ – ٤) : مكانه بياض فى (ك) .
(٥) ض : امتثاله .
(٦) زدت « كان » ليستقيم الكلام .

لازما لترك المنهى عنه ، فليس هو الواجب المحدود بقولنا : « الواجب ما يُذم تاركه ، ويُعاقب تاركه » أو « يكون تركه سببا للذم والعقاب » .

فقولنا : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » أو : « يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب » : يتضمن إيجاب [١] اللوازم . والفرق ثابت بين الواجب الأول والثانى ، فإن الأول يُذم تاركه ويعاقب ، والثانى واجب وقوعا ، أى لا يحصل الأول [٢] إلا به ، ويؤمر به أمراً بالوسائل ، ويُثاب عليه ، لكن العقوبة [٣] ليست على تركه .

ومن هذا الباب إذا اشتبهت المَيْتَة بالمذكَّى [٤] ، فإن المحرّم الذى يعاقب على فعله أحدهما ، بحيث إذا [٥] أكلهما جميعا لم يعاقب عقوبة من أكل مَيْتَتين ، بل عقوبه من أكل مَيْتة واحده ، والأخرى وجب تركها وجوب الوسائل .

فقول من قال : كلاهما محرم ، صحيح بهذا الاعتبار . وقول من قال : المحرم فى نفس الأمر أحدهما ، صحيح أيضا بذلك الاعتبار . وهذا نظير قول من قال : يجب التوصل إلى الواجب / بما ليس بواجب . ص ٤٣

وإنكار أبى حامد [الغزالى] [٦] وأبى محمد [المقدسى] [٧] على من قال

---

(١) ك : إيجابه .
(٢) الأول : ساقطة من (ض) .
(٣) العقوبة : ساقطة من (ك) .
(٤) ك : اشتبه المذكى بالميتة .
(٥) ك : لو .
(٦) الغزالى : زيادة فى (ض) .
(٧) المقدسى : زيادة فى (ض) . وهو أبو محمد تقى الدين عبد الغنى بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى الجماعيلى الدمشقى الحنبلى ، وسبقت ترجمته فى هذه المجموعة ، ص ١٠٠ .

هذا ، ومن قال : المحرَّم أحدهما ؛ لا يناسب طريقة الفقهاء ، وحاصله يرجع إلى نزاع لفظى . فإن الوجوب [١] والحرمة الثابتة لأحدهما ليست ثابتة للآخر ، بل هى [٢] نوعٌ آخر ، حتى لو اشتبهت مملوكته بأجنبية بالليل ووطئها [٣] يعتقد [٤] حل وطء إحداهما [٥] وتحريم وطء الأخرى ، كان ولده من مملوكته ثابتا نسبه بخلاف الأخرى ، ولو قدرنا [٥] أنه [٦] اشتبهت [٧] أخته [٨] [٩] بأجنبية وتزوج إحداهما فحُدَّ مثلا ، ثم تزوج الأخرى [٩] لم يحد حدين ، مع أنه لا حد فى ذلك لجواز أن تكون المنكوحة هى الأجنبية .

وبهذا تنحل شبهة الكعبى ، فإن المحرّم تركه مقصود ، وأما الأشتغال بضد من أضداده فهو وسيلة .

فإذا قيل : المباح واجب ، بمعنى وجوب الوسائل ، أى قد [١٠] يُتوسل به إلى فعل واجب وترك محرم [١١] ، فهذا حق .

ثم إن هذا يُعتبر فيه القصد ؛ فإن كان الإنسان يقصد أن يشتغل بالمباح ليترك [١٢] المحرم ، مثل من يشتغل بالنظر إلى إمرأته ووطئها ليدع بذلك النظر إلى

---

(١) ك : الواجب .
(٢) هى : ساقطة من (ض) .
(٣) كلمة « ووطئها » مكانها بياض فى (ك) .
(٤) ك : معتقدا .
(٥ - ٥) : ساقط من (ك) ومكانه بياض .
(٦) ض : أنها .
(٧) ك : لو اشتبهت .
(٨) أخته : ساقطة من (ض) .
(٩ - ٩) : ساقط من (ك) ومكانه بياض .
(١٠) قد : ساقطة من (ك) .
(١١) ز : إلى ترك محرم وفعل واجب .
(١٢) ز : لترك .

الأجنبية ووطئها ، أو يأكل طعاما حلالا ليشتغل به [١] عن الطعام الحرام ، فهذا يثاب على هذه النية والفعل .

ظ ٤٣ كما بيّن ذلك النبى ﷺ / بقوله : « وفى بضع أحدكم صدقه . قالوا : يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أما كان عليه وزر ؟ قالوا : بلى [٢] . قال : فلم تعْتدُّون بالحرام ولا تعتدُّون [٣] بالحلال [٤] ؟ » .

ومنه قول النبى ﷺ : « إن الله يحب أن تؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » [رواه أحمد وابن خزيمة فى صحيحه] [٥] .

وقد يقال : المباح يصير واجبا بهذا الاعتبار ، وان تعين طريقا صار واجبا معينا ، وإلا كان واجبا مخيرا ، لكن مع هذا القصد ، وأما [٦] مع الذهول عن ذلك فلا يكون واجبا أصلا ، إلا وجوب الوسائل إلى الترك .

---

(١) ك : ليشغله .

(٢) عبارة « قالوا بلى » : ساقطة من (ض) .

(٣) ض : وزر فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون .

(٤) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه الرسالة (ص : ٨١) .

(٥) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) . والحديث – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما فى المسند (ط . المعارف) ٨/١٧٠ وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : « إسناده صحيح .... والحديث فى مجمع الزوائد ٣/١٦٢ وقال : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، والبزار والطبرانى فى الأوسط ، وإسناده حسن » . وأورده الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » ٢/٤٦ وقال السيوطى : « حم (أحمد) حب (ابن حبان فى صحيحه) ، هب (البيهقى فى شعب الإيمان) : عن ابن عمر » .

(٦) ض : أما .

وترك المحرم لا يشترط فيه القصد ، فكذلك ما يُتوسل به [١] إليه . وإذا قيل : هو مباح من جهة نفسه [٢] ، وأنه قد يجب وجوب المخيّرات [٣] من جهة الوسيلة لم يُمنع ذلك . فالنزاع فى هذا الباب نزاع لفظى اعتبارى ، وإلا فالمعانى الصحيحة لا ينازع فيها من فهمها .

والمقصود هنا أن الأبرار أصحاب اليمين قد يشتغلون عن مباح بمباح آخر [٤] ، فيكون كل من المباحين يستوى وجوده وعدمه فى حقهم ، أما السابقون المقرَّبون فهم إنما يستعملون المباحات إذا كانت طاعةً لحسن القصد فيها [٥] ، والاستعانة على طاعة / الله ، وحينئذ فمباحاتهم طاعات . ص ٤٤

وإذا كان كذلك لم تكن الأفعال فى حقهم إلا ما يترجح وجوده ، فيؤمرون به [٦] شرعا أمر [٧] استحباب ، أو ما يترجح عدمه فالأفضل لهم أن لا يفعلوه ، وإن لم يكن فيه إثم .

والشريعة قد بيَّنتْ [٨] أحكام الأفعال كلها . فهذا سؤال . وسؤال ثانٍ ، وهو أنه إذا قُدِّر أن من الأفعال [٩] ما ليس فيه أمر ولا نهى ، كما فى حق الأبرار ، فهذا الفعل لا يُحمد ولا يُذم ، ولا يُحب ولا يُبغض ، ولا يُنظر فيه إلى [١٠] وجود

---

(١) ك : ما توسل به .
(٢) نفسه : مكانها بياض فى (ك) .
(٣) وجوب المخيرات : مكانها بياض فى (ك) .
(٤) ض : بمباح عن مباح آخر .
(٥) ز : منها .
(٦) به : ساقطة من (ك) .
(٧) ك : شرعا إما أمر ؛ ز : شرعا أم . والمثبت من (ض) .
(٨) ك : تثبت .
(٩) ك : من أفعالهم .
(١٠) ض : إلا .

القدر وعدمه ، بل إن فعلوه لم يحمدوا ، وإن لم يفعلوه لم يحمدوا ، فلا يُجعل من ما يحمدون عليه أنهم يكونون [١] فى هذا الفعل كالميت بين يَدَىْ الغاسل ، مع كون هذا الفعل صدر باختيارهم وإرادتهم ، إذ الكلام فى ذلك .

وأما غير الأفعال الاختيارية ، وهو ما فُعل بالإنسان [بغير اختياره] [٢] ، كما يُحمل الإنسان وهو لا يستطيع الامتناع ، فهذا خارج عن التكليف ، مع أن العبد مأمور فى مثل هذا أن يحبه إن كان حسنةً ، ويبغضه إن كان سيئةً [٣] ، ويخلو عنهما إن لم يكن حسنة ولا سيئة ، فمن جعل الإنسان فيما يستعمله فيه القدر من الأفعال الاختيارية (٤ كالميت بين يدى الغاسل ، فقد رفع / الأمر والنهى عنه فى الأفعال الاختيارية ٤) ، وهذا باطل . ظ ٤٤

وسؤال ثالث ، وهو أن حقيقة هذا القول طى بساط الأمر والنهى عن العبد فى هذه الأحوال ، مع كون أفعاله اختيارية ، وهب أنه ليس له هوى ، فليس كل ما لا هوى فيه يسقط عنه فيه الأمر والنهى ، بل عليه أن يحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله .

قيل : هذه الأسوله أسولة [٥] صحيحة .

وفصل الخطاب أن السالك قد يخفى عليه الأمر والنهى ، بحيث لا يدرى هل ذلك الفعل مأمور به شرعا أو منهى عنه شرعا ، فيبقى [٦] هواه لئلا [٧] يكون

---

(١) ك : لأنهم لم يكونون ، وهو خطأ .

(٢) عبارة « بغير اختياره » : ساقطة من (ز) ، (ض) .

(٣) ز : شيّه ، وهو تحريف .

(٤ - ٤) : ساقط من (ك) .

(٥) ض : أسئلة .

(٦) ز : فبقى .

(٧) ز ، ك : لأن لا .

له هوى فيه ، ثم يسلّم فيه للقدر (١) ، وهو فعل الرب لعدم معرفته برضا (٢) الرب وأمره وحبه فى ذلك الفعل .

وهذا يعرض لكثير من أئمة العبّاد وأئمة العلماء ، فإنه قد تكون (٣) عندهم أفعال وأقوال لا يعرفون حكم الله الشرعى فيها ، بل قد تعارضت عندهم فيها الأدلة ، أو خفيت الأدلة بالكلية ، فيكونون معذورين لخفاء الشرع عليهم .

وحكم الشرع إنما يثبت فى حق العبد إذا تمكن من معرفته ، فأما (٤) ما لم يبلغه ولم يتمكن من معرفته فلا يُطالب به ، وإنما عليه أن يتّقى الله / ما استطاع . وهذا خطأ فى العلم ، وليس خطأ فى العمل ، وهو كالمجتهد المخطىء له أجر على قصده واجتهاده ، وخطأه مرفوع عنه .

ص ٤٥

فإن قيل : فإذا كان الأمر هكذا ، فالواجب على العبد أن يتوقف فى مثل هذه الحال ، إذا لم يتبين له أن ذلك الفعل مأمور به أو منهى عنه ، وهو لا (٥ يريد أن يفعل شيئا لا مدح فيه ولا ذم ، فيقف لا يستسلم للقدر ٥) ، ويصير محلا لما يستعمل فيه من الأفعال ، اللهم إلا إذا فعل غيره فعلا ، فهو لا يمدحه ولا يذمه ، ولا يرضاه ولا يسخطه ، إذا لم يتبين له حكمه .

فأما كونه هو من أفعاله الاختيارية يصير مستسلما لما يستعمله القدر فيه ، كالطفل مع الظئر ، والميت مع الغاسل ، فهذا ما لم يأمر الله به ولا رسوله ، بل هذا

---

(١) ز : ثم يسلم فيه ثم يسلم منه للقدر .

(٢) ز : برضاء .

(٣) ض : يكون .

(٤) ض : وأما .

(٥ —٥) : ساقط من (ك) ومكانه بياض فيها .

محرّم ، وإن عُفِيَ عن صاحبه . وحَسْبُ صاحبه أن يُعفى عنه لاجتهاده وحسن قصده .

أما كونه يحمد على ذلك ، ويُجعل هذا أفضل المقامات ، فليس الأمر كذلك . وكونه مجردا عن هواه ليس مسوِّغاً له أن يستسلم لكل ما يُفعل به .

ثم يقال : الأمور مع هذا نوعان : أحدهما : أن يُفعل به بغير اختياره ، كما يحمل الإنسان ولا يمكنه الامتناع ، وكما تُضجع المرأة / قهرا وتوطأ ، فهذا لا إثم فيه باتفاق العلماء . وأما أن يُكره بالإكراه الشرعى حتى يفعل ، فهذا أيضا معفو [1] عنه فى الأفعال عند الجمهور ، وهو أصح الروايتين عن أحمد ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٣٣] .

ظ ٤٥

وأما إذا لم يكره الإكراه الشرعى ، فاستسلامه للفعل المطلق الذى لا يُعرف أخير هو أم شر ، ليس هو مأموراً به ، وإن جرى على يده خرق عادة أو لم يجر ، فليس هو مأموراً أن يفعل إلا ما هو خير عند الله ورسوله .

قيل : هذا السؤال صحيح ، وحقيقة الأمر أن السالكين إذا وصلوا [2] إلى هذا المقام فبحسن [3] قصدهم وتسليمهم [وخضوعهم] [4] لربهم ، وطلبهم (٥ منه أن يختار لهم ما هو الأصلح ، إذا استعملوا فى أمر وهم ٥) لا يعرفون [6] حكه فى الشرع رجوا أن يكون خيرا ؛ لأن معرفتهم بحكمه قد تتعذر [7] عليهم ،

---

(١) ز : معفوا ، وهو خطأ .
(٢) عبارة « إذا وصلوا » مكانها بياض فى (ك) .
(٣) ض : فيحسن .
(٤) وخضوعهم : زيادة فى (ض) .
(٥ –٥) : مكان هذه العبارات بياض فى (ك) .
(٦) ض : فى أمورهم لا يعرفون . والمثبت من (ز) .
(٧) ض : قد تعذرت .

والإنسان غير عالم فى كل حال بما هو الأصلح له فى دينه ، وبما هو رضا الله ورسوله [(١)] ، فيبقى حالهم [(٢)] حال المستخير لله فيما لم يعلم عاقبته إذا قال : « اللهم إنى استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت / علاّم الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاقدره لى ، ويسره لى ، ثم بارك لى فيه . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبه أمرى ، فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضّنى به » [(٣)] . ص ٤٦

فإذا استخار الله كان ما شرح له صدره ، وتيسر له [(٤)] من الأمور هو الذى اختاره الله له ، إذ لم يكن معه دليل شرعى على أن عين [(٥)] هذا الفعل هو مأمور به فى هذه الحال . فإن الأدلة الشرعية إنما تأمر بأمرٍ مطلق عام ، لا بعين [(٦)] كل فعل من كل فاعل ، إذ كان [(٧)] هذا ممتنعا ، وإن كان ذلك المعين يمكن إدراجه تحت بعض خطاب الشارع العام ، إذا [(٨)] كانت الأفراد المعينة داخلة تحت الأمر العام الكلى ، لكن لا يقدر كل أحد على استحضار هذا ، ولا على استحضار أنواع الخطاب .

---

(١) ض : بما هو أرضى لله ورسوله .

(٢) ك : حاله .

(٣) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه المجموعة ، (ص : ٦٩)

(٤) له : ساقطة من (ك)

(٥) ك : غير .

(٦) ك : لا تعين .

(٧) ز : إذا كان .

(٨) ك : إذ .

ولهذا كان الفقهاء يعدلون إلى القياس عند خفاء ذلك عليهم . ثم القياس أيضا قد لا يحصل فى كل واقعة ، فقد يخفى على الأئمة المجتهدين ، (١ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، دخول الواقعة المعينه تحت ١) / خطاب عام ، أو اعتبارها بنظير لها ، فلا يعرف لها أصل (٢ ولا نظير . هذا مع كثرة نظرهم فى خطاب الشارع ومعرفة معانيه ودلالته ٢) على الأحكام ، فكيف بمن (٣) لم يكن كذلك ؟

ظ ٤٦

ثم السالك ليس قصده معرفة الحلال من الحرام (٤) ، بل مقصوده أن هذا الفعل المعين خير من هذا ، وهذا خير من هذا ، وأيهما أحب إلى الله فى حقه فى تلك الحال .

وهذا باب واسع لا يحيط به إلا الله ، ولكل سالك حال تخصه قد يؤمر فيها بما يُنهى عنه غيره ، ويؤمر فى حال بما يُنهى عنه فى حال آخر (٥) .

فقالوا : نحن نفعل الخير بحسب الإمكان ، وهو فعل ما علمنا أنا أُمرنا به ، ونترك أصل الشر ، وهو هوى النفس ، ونلجأ إلى الله فيما سوى ذلك أن يوفقنا لما هو أحب إليه وأرضى له (٦) ؛ فما استعملنا فيه رجونا أن يكون من هذا الباب ، ثم إن أصبنا فلنا أجران ، وإلا فلنا أجر واحد ، وخطؤنا محطوط عنا ، فهذا هذا .

وحينئذ فمن قدَّر أنه عَلِمَ (٧) المشروع وفَعَلَه فهو أفضل من هذا ، ولكن

(١ – ١) : ساقط من (ك) .
(٢ – ٢) : هذه العبارات مكانها بياض فى (ك) .
(٣) ض : من .
(٤) ض : الحلال والحرام .
(٥) ض : فى أخرى .
(٦) ك ، ز : وأرضا له .
(٧) ك : أن علم .

كثير ممن يعلم المشروع لا يفعله ، ولا يقصد [١] أحب الأمور إلى الله ، وكثير منهم يفعله [بشوب] [٢] من الهوى ، فيبقى هذا يفعل [٣] / المشروع بهوى ، وهذا يترك [٤] ما لم يعلم أنه مشروع بلا هوى . فهذا نقص فى العلم ، وذاك نقص فى العمل ، إذ العمل بهوى النفس نقص فى العمل ، ولو كان المفعول واجبا .

ص ٤٧

فيقال : إن تاب صاحب الهوى من هواه كان أرفع بعلمه ، وإن لم يتب فله نصيب من عالم السوء .

ولهذا تشاجر رجلان من المتقدمين عام الحكمين فى مثل هذا . فقال أحدهما لصاحبه : إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . وقال الآخر : أنت كالحمار يحمل أسفارا ؛ فهذا أحسن قصدا وأقوى علما .

ولهذا تجد أصحاب حسن القصد إنما يعيبون على هؤلاء اتّباع الهوى وحب الدنيا والرئاسة ، وأهل العلم يعيبون على أولئك نقص علمهم بالشرع ، وعدولهم عن الأمر والنهى ، فهذا هذا .

والله هو المسئول أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين [وحسن أولئك رفيقا] [٥] .

وقد قال بعض أهل الفقه والزهد : من الناس من سلك الشريعة ومنهم من سلك الحقيقة ، ولعله أراد هؤلاء وهؤلاء . فإن هؤلاء يرجحون بما ييسِّره [٦] الله ،

---

(١) ك : وهو يقصد .
(٢) مكان كلمة « بشوب » بياض فى (ز) .
(٣) ز ، ض : فعل .
(٤) ز ، ض : ترك .
(٥) ما بين المعقوفتين زيادة فى (ض) .
(٦) ز : يترجحون بما يسره .

ظ ٤٧ مع حسن القصد واتّباع الأمر والنهى المعلوم لهم ، مع / خفاء الأدلة الشرعية فى ذلك المتيسر لهم . وهؤلاء يرجحون بالأدلة الشرعية من الظواهر ، والأقيسة ، وأخبار الآحاد ، وأقوال العلماء ، مع خفاء الأمر المتيسر لهم .

وأيضا فهؤلاء قد يشهدون ما فى ذلك الفعل المقدور [١] من المصلحة والخير ، فيرجّحونه [٢] بحكم الإيمان ، وإن لم يعرفوا دليلا من النص على حسنه ، وأولئك إنما يرجّحون بالنصوص [٣] وما استنبط منها . فهؤلاء لهم القرآن ، وهؤلاء لهم الإيمان .

وسبب هذا أن كلا من الطائفتين خَفِىَ عليه ما مع الأخرى من الحق ، وكل من الطائفتين فى طريقها حق وباطل . فأما المدّعون للحقيقة بدون مراعاة الأمر والنهى الشرعيين ، فهم ضالون ، كالذين يعرفون الأمر والنهى ولا يفعلون إلا ما يهوونه [٤] من الكبائر ، فإنهم فساق . وهؤلاء وهؤلاء [٥] الذين قيل فيهم : « احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون » .

والحقيقة [٦] قد تكون قدرية ، (٧ وقد تكون ذوقية ، وقد تكون شرعية . ولفظ « الشرع » يتناول ٧) المبدَّل والمؤوَّل والمنزَّل [٨] .

---

(١) ض : المقدر .
(٢) ك : فيرجحون .
(٣) ض : من النصوص .
(٤) ز : يهووا .
(٥) وهؤلاء : ساقطة من (ض) .
(٦) والحقيقة : مكانها بياض فى (ك) .
(٧ - ٧) مكان هذه العبارات بياض فى (ك) .
(٨) ك ، ض : المنزل والمؤول والمبدل .

والمقصود هنا ذكر أهل الاستقامة من الطائفتين ، والكلام / على حال أهل العبادة والإرادة ، الذين خرجوا عن الهوى ، وهو الفرق الطبعى ، وقاموا بما علموه من الفرق الشرعى . وبقى قسم ثالث ليس لهم فيه فرق طبعى ولا عندهم فيه فرق شرعى ، فهو الذى جروا فيه مع الفعل والقدر . ص ٤٨

وأما من جرى مع الفرق الطبعى : إما عالما بأنه عاصٍ ، وهو العالم الفاجر ، أو محتجا بالقدر أو بذوقه ووجده معرضا عن الكتاب والسنة ، وهو العابد الجاهل – فهذا خارج عن الصراط المستقيم .

وهذا مما يبيّن [١] كمال حال الصحابة [٢] ، وأنهم خير قرون هذه الأمة ، إذ كانوا فى خلافة النبوة يقومون بالفروق الشرعية فى جليل الأمور ودقيقها ، مع اتّساع الأمر . والواحد من المتأخرين قد يعجز عن معرفة الفروق الشرعية فيما يخصه ، كما أن الواحد من هؤلاء يتّبع هواه فى أمر قليل . فأولئك مع عظيم ما دخلوا فيه من الأمر والنهى ، لهم العلم الذى يميّزون به [٣] بين الحسنات والسيئات ، ولهم القصد الذى يفعلون فيه الحسنات . والكثير من المتأخرين العالمين والعابدين يفوت أحدهم العلم فى كثير من الحسنات والسيئات ، حتى يظن السيئة [٤] حسنة وبالعكس ، أو يفوته القصد فى كثير من / الأعمال ، حتى يتبع هواه فيما وضح له من الأمر والنهى . ظ ٤٨

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين [٥] أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

---

(١) ض : يبن .

(٢) ض : الصحابة رضى الله عنهم .

(٣) به : ساقطة من (ك) .

(٤) ز : إليه ، وهو تحريف .

(٥) الذين : ساقطة من (ض) .

(* هذا لعمرى إذا كان عند العالم ما *) هو أمر الشارع ونهيه حقيقة ، وعند العابد حسن القصد الخالى عن الهوى حقيقة ، فأما من خلط الشرع المنزَّل بالمبدل (١) والمؤول ، وخلط القصد الحسن باتباع الهوى ، فهؤلاء وهؤلاء مخلِّطون فى علمهم وعملهم .

وتخليط هؤلاء فى العلم سوى تخليطهم وتخليط غيرهم فى القصد ، وتخليط هؤلاء فى القصد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم فى العلم . فإنه من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم ، وحسن القصد من أَعْوَن الأشياء على نيل العلم ودركه ، والعلم الشرعى من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح ، فإن العلم قائد والعمل سائق والنفس حرون ، فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها ، وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها . فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك ، فغايته أن يستطرح للقدر ، وإذا ترك العمل حاد (٢) / السالك عن الطريق فسلك غيره ، مع علمه أنه تركه ، فهذا حائر لا يدرى أين يسلك مع كثرة سيره ، وهذا حائد (٣) عن الطريق زائغ عنه مع علمه به . ص ٤٩

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف : ٥] هذا جاهل وهذا ظالم . [قال تعالى] (٤) : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢] ، مع أن الجهل والظلم متقاربان (٥) ، لكن الجاهل لا يدرى أنه ظالم ،

(* - *) مكان الكلمات التى بين النجمتين بياض فى (ك) .

(١) ز : والمبدل .

(٢) ز : جاز ، ض : حار .

(٣) ز : جائز ؛ ض ، ك : حائر . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) قال تعالى : زيادة فى (ض) .

(٥) ك : متقارنان .

والظالم جَهِلَ الحقيقة المانعة له من العلم . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [سورة النساء : ١٧] .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد ﷺ فقالوا لى : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من (١) تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وقد روى الخلال عن أبى حيان التيمى قال : العلماء ثلاثة : فعالم بالله ليس عالما بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالما بالله ، وعالم بالله وبأمر الله .

فالعالم بالله الذى يخشاه ، والعالم بأمر الله الذى يعرف أمره ونهيه .

قلت : (* والخشية تمنع اتّباع الهوى . قال تعالى *) : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] .

والكمال / فى عدم الهوى وفى العلم ، [وذلك] (٢) هو لخاتم الرسل ﷺ (٣) الذى قال فيه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [سورة النجم : ١ - ٤] ، فنفى عنه الضلال والغى ، ووصفه بأنه ما (٤) ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يُوحى ، فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل ، وهو الوحى . فهذا كمال العلم ، وذاك كمال القصد ، ﷺ ، (٥ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ٥) . ظ ٤٩

---

(١) ز : وأن من ...

(* - *) الكلمات بين النجمتين وكلمة وأمّا من الآية الكريمة مكانها بياض فى (ك) .

(٢) وذلك : زيادة فى (ك) .

(٣) ﷺ : زيادة فى (ز) .

(٤) ض : لا .

(٥ - ٥) : زيادة فى (ز) .

ووصف أعداءه بضد هذين ، فقال [تعالى] [١] : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [سورة النجم : ٢٣] فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علما وقصدا .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [سورة الجن : ١٩] [٢] .

وقال فيما حكاه عن إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة ص : ٨٢ ، ٨٣] ، وقال [٣] : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] ، وقال : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] وقال [تعالى] [٤] : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٩ ، ١٠٠] وعبادته [تعالى هي] [٥] طاعة أمره ، وأمره لنا ما بلغه الرسول عنه ، فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله باطنا وظاهرا ، ومن [٦] كان لم يعرف ما أمر الله به فترك هواه واستسلم للقدر ، أو اجتهد في الطاعة فأخطأ فعل المأمور به إلى ما اعتقده مأمورا به ، أو تعارضت عنده الأدلة فتوقف عمّا هو طاعة في نفس الأمر ، فهؤلاء

ص ٥٠

---

(١) تعالى : زيادة في (ض) .
(٢) في (ك) : .... يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا .
(٣) ض : قال تعالى ؛ ك : وقال تعالى .
(٤) تعالى : ساقطة من (ز) .
(٥) تعالى هي : زيادة في (ك) .
(٦) ومن : ساقطة من (ز) .

مطيعون لله يثابون [١] على ما أحسنوه من القصد لله [٢] ، واستفرغوه من وسعهم فى طاعة الله ، وما عجزوا عن علمه فأخطؤوه [٣] إلى غيره فمغفور لهم .

وهذا من أسباب [٣] فتن تقع بين الأمة ، فإن أقواما يقولون ويفعلون أمورا هم مجتهدون فيها ، وقد أخطأوا ، فتبلغ [٤] أقواما يظنون أنهم تعمدوا فيها الذنب ، أو يظنون أنهم لا يُعذرون بالخطأ ، وهم أيضا مجتهدون مخطئون ، فيكون هذا مجتهدا مخطئا فى فعله ، وهذا مجتهداً مخطئا فى إنكاره ، والكل مغفور لهم . وقد يكون أحدهما مذنبا ، كما قد يكونان جميعا مذنبَيْن : « وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » [٥] .

والواحد / من هؤلاء قد يعطى تصرفا [٦] بالأمر والنهى ، فيولّى ويعزل ، ويعطى ويمنع ، فيظن الظان أن هذا كمال ، وإنما يكون كمالا إذا كان موافقا للأمر ، فيكون طاعة لله ، وإلا فهو من جنس المُلك ، وأفعال الملك إما ذنب [٧] ، وإما عفو ، وإما طاعة . ظ ٥٠

فالخلفاء الراشدون أفعالهم طاعة وعبادة ، وهم أتباع العبد الرسول ، ﷺ [٨] ، وهى طريق [٩] السابقين المقرّبين . وأما طريق [٩] الملوك العادلين ، فإما

---

(١) ض : مثابون .
(٢) لله : ليست فى (ك) .
(٣ - ٣) : مكان هذه الكلمات بياض فى (ك) .
(٤) ك : فبلغ .
(٥) هذا حديث سبق فى هذه الرسالة (ص : ١٢٩) .
(٦) ض : طرفا .
(٧) ز : إما ذنب وإما ذنب ، وهو تحريف .
(٨) ﷺ : زيادة فى (ز) .
(٩) ض : طريقة .

طاعة ، وإما عفو ، وهى طريقة الأنبياء الملوك ، وطريقة الأبرار أصحاب اليمين .

وأما طريقة الملوك الظالمين فتتضمن المعاصى . وهى طريقة الظالمين لأنفسهم . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [سورة فاطر : ٣٢] ، فلا يخرج الواحد من المؤمنين عن أن يكون من أحد هذه الأصناف : إما ظالم لنفسه وإما مقتصد وإما سابق بالخيرات .

وخوارق العادات ، إما مكاشفة ، وهى من جنس العلم الخارق ، وإما تصرف وهى [١] من جنس القدرة الخارقة ، وأصحابها لا يخرجون / عن الأقسام الثلاثة [٢] .

ص ٥١

فصل

وقد تفرّق الناس فى هذا المقام الذى هو غاية مطالب العباد ، فطائفة من الفلاسفة ونحوهم يظنون أن كمال النفس فى مجرد العلم ، ويجعلون العلم الذى به يكمل ما يعرفونه هم من علم ما بعد الطبيعة ، ويجعلون العبادات رياضة لأخلاق النفس حتى تستعد للعلم فتصير النفس عالما معقولا موازياً [٣] للعالم الموجود .

الفلاسفة ضالون كافرون من وجوه : الأول

وهؤلاء ضالون ، بل كافرون من وجوه : **منها** :

أنهم اعتقدوا الكمال فى مجرد العلم ، كما اعتقد جهم ، والصالحى [٤] ،

---

(١) ك : وهو .

(٢) عند هذا الموضع تنتهى نسخة (ض) = طبعة فتاوى الرياض ، وتبقى نسختا (ك) ، (ز) .

(٣) ك ، ز : موازنا ، وهو تحريف . والذى أثبته هو كلام الفلاسفة .

(٤) لعله : صالح بن عمرو الصالحى . ذكره الشهرستانى فى « الملل والنحل » وذكر الصالحية =

والأشعرى فى المشهور من قوله [١] ، وأكثر اتباعه : أن الإيمان مجرد العلم .

لكن المتفلسفة أسوأ حالا من الجهمية ، فإن الجهمية يجعلون الإيمان هو العلم بالله ، وأولئك يجعلون كمال النفس فى أن تعلم الوجود المطلق من حيث هو وجود ، والمطلق بشرط الإطلاق إنما يكون فى الأذهان لا فى الأعيان ، والمطلق لا بشرط لا يوجد أيضا فى الخارج إلا معينا ، وإن علموا الوجود الكلى المنقسم إلى واجب وممكن ، فليس لمعلوم علمهم وجود فى الخارج .

وهكذا من تصوف وتألّه على طريقتهم / كابن عربى وابن سبيعن ونحوهما . ظ ٥١

وأيضا فإن الجهمية مقرُّون [٢] بالرسل وبما جاؤوا به من حيث الجملة ، مقرّون بأن الله خلق السمٰوات والأرض فى ستة أيام ، وغير ذلك مما جاءت به الرسل ، بخلاف المتفلسفة .

وبالجملة فكمال النفس ليس فى مجرد العلم ، بل لا بد [٣] مع العلم بالله من محبته وعبادته والإنابة إليه ، فهذا عمل النفس وإرادتها ، وذاك علمها ومعرفتها .

الوجه الثانى : أنهم ظنوا أن العلم الذى تكمل به النفس هو علمهم ، وكثير منه جهل لا علم . الثانى

= فقال : « أصحاب صالح بن عمرو الصالحى ومحمد بن شبيب وأبو شمر وغيلان بن حارث ومحمد بن التيمى ، كلهم جمعوا بين القدر والإرجاء » . وانظر كلام الأشعرى على أبى الحسين الصالحى ، ومذهبه فى الإرجاء فى « مقالات الإسلاميين » ١٩٨/١ . وذكره القاضى عبد الجبار ضمن طبقات المعتزلة فى كتابه « فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة » تحقيق فؤاد سيد ، ص ٢٨١ ، ط . تونس ، ١٣٩٣/١٩٧٤ .

(١) ك : قوليه .

(٢) ك : يقرون .

(٣) لابد : مكانها بياض فى (ك) .

الثالث **الثالث** : أنهم لم يعرفوا العلم الإلٰهى الذى جاءت به الرسل ، وهو العلم الأعلى الذى تكمل به [(١)] النفس ، مع العمل بموجبه .

الرابع **الرابع** : أنهم يرون [(٢)] أنه إذا حصل لهم ذاك العلم سقطت عنهم واجبات الشرع وأبيحت لهم محرماته [(٣)] ، وهذه طريقة الباطنية من الإسماعيلية وغيرهم ، مثل أبى يعقوب السجستانى صاحب « الأقاليد الملكوتية » [(٤)] وأمثاله ، وطريقة من وافقهم من ملاحدة الصوفية الذين يتأوّلون قوله : ﴿ واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر : ٩٩] إنك تعمل حتى يحصل لك العلم ، فإذا / حصل العلم سقط عنك العمل . ص ٥٢

وقد قيل للجنيد : إن قوما يقولون : إنهم يصلون من طريق البر إلى أن تسقط عنهم الفرائض وتباح لهم المحارم ، أو نحو هذا الكلام . فقال : الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر أحسن حالا من هذا [(٥)] .

ومن هؤلاء من يكون طلبه للمكاشفة ونحوها من العلم أعظم من طلبه لما فرض الله عليه ، ويقول فى دعائه : اللهم إنى أسألك [(٦)] العصمة فى الحركات

---

(١) ك : به تكمل ...
(٢) ز : يريدون ، وهو تحريف .
(٣) ز : محرمات .
(٤) أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجستانى أو السجزى ، المعروف ببندانه ، من أشهر علماء الإسماعيلية وفلاسفتهم ، ومن كبار دعاتهم ، وكان اليد اليمنى لأبى عبد الله محمد بن أحمد النسفى داعية أهل ما وراء النهر . صنّف أبو يعقوب مصنفات كثيرة ، منها كتاب « أساس الدعوة » وكتاب « تأويل الشرائع » وله كتب مخطوطة فى مكتبة الدكتور محمد كامل حسين رحمه الله . وقد عاش أبو يعقوب فى بخارى ومات مقتولا سنة ٣٣١ . انظر : الفرق بين الفرق ، ص ١٧٠ ؛ طائفة الإسماعيلية ، ص ١٤٩ ، ١٨١ ؛ تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن ٥٧٥/٤ (الطبعة الأولى) .
(٥) ك : فقال : الزنا والسرقة وشرب الخمر خير من هذا .
(٦) ز : إنى أسلك ، وهو تحريف .

والسكنات ، والخطرات والإرادات والكلمات ، من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب [(١)] عن مطالعة الغيوب .

وأصل المتفلسفة أن الفلسفه التى هى الكمال عندهم هى التشبه بالإله على قدر الطاقة ، وهم يقولون : إن حركات الأفلاك لأجل التشبّه بالأول .

وعلى هذا بنى أبو حامد كتابه فى « شرح الأسماء الحسنى » [(٢)] ، وتخلق العبد بأخلاق الله ، وأنكر ذلك عليه المازرى [(٣)] وغيره ، وقالوا : ليس لله خلق يتخلق به العبد .

وعدل أبو الحكم بن برجان [(٤)] عن لفظ (٥ التخلق إلى لفظ ٥) التعبد .

وعلى هذا الأصل الفلسفى بنى ابن عربى معنى ولى الله ، وأنه المتشبّه به [(٦)] المتخلّق بأخلاقه ، كما يفسر أبو حامد التقرب من الله بالتشبه به ، وابن عربى ونحوه يجعلون الولى أفضل من النبىّ بناءً على أصُولهم الفلسفيّة الاتحادية .

---

(١) ز : السائرة فى القلوب ، وهو تحريف .

(٢) وهو كتاب « المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى » لأبى حامد الغزالى ، طبع فى القاهرة بالمكتبة العلامية ، بغير تاريخ ، وطبع طبعات أخرى منها طبعة سنة ١٣٢٤ ، ومنه نسخ خطية كثيرة . انظر : مؤلفات الغزالى للدكتور عبد الرحمن بدوى ، ص ١٣٥ - ١٣٦ ، ط . القاهرة ، ١٩٦٠ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن على بن عمر التميمى المازرى ، محدث وفقيه مالكى . ولد سنة ٤٥٣ وتوفى سنة ٥٣٦ له كتاب « الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء » ذكره الذهبى فى « سير أعلام النبلاء » ونقل عنه ، وأورد ذلكَ الدكتور عبد الكريم العثمان رحمه الله فى كتاب « سيرة الغزالى » ط . دمشق ، بدون تاريخ (ص ٧٢ - ٧٣) . انظر ترجمة المازرى فى : وفيات الأعيان ٤١٣/١ ؛ شذرات الذهب ١١٤/٤ ؛ الأعلام ١٦٤/٧ .

(٤) هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد اللخمى الإفريقى ثم الإشبيلى ، متصوف توفى سنة ٥٣٦ بمراكش . انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ١١٣/٤ ؛ فوات الوفيات ٥٦٩/١ - ٥٧٠ ؛ لسان الميزان ١٣/٤ - ١٤ ؛ الأعلام ١٢٩/٤ .

(٥ - ٥) : ساقط من (ك) .

(٦) به : ساقطة من (ك) .

وطائفة أخرى عندهم أن الكمال فى القدرة والسلطان والتصرف فى الوجود ، بنفاذ الأمر والنهى ، إما بالملك والولاية الظاهرة ، وإما بالباطن ، وتكون عبادتهم ومجاهدتهم كذلك .

وكثير من هؤلاء يدخل فى الشرك والسحر ، فيعبد الكواكب والأصنام لتعينه الشياطين على مقاصده ، وهؤلاء أضل وأجهل من الذين قبلهم .

وعامة من يعبد الله لطلب خوارق العادات يكون فيه نصيبٌ من هذا .

ولهَذا كان منهم من يموت فاسقا أو مسلوباً ، وكلهم ضلاَّل جهال .

وطائفة تجعل الكمال فى مجموع الأمرين ، فيدخلون فى أقوال وأعمال من الشرك والسحر ، ليستعينوا بالشياطين على ما يطلبونه من الإخبار بالأمور الغائبة ، وعلى ما ينفذ به تصرفهم فى العالم .

وأما الحق [1] المبين فهو أن كمال الإنسان فى أن يعبد الله علما وعملا ، كما أمره ربه . وهؤلاءِ هم عبادُ الله ، وهم المؤمنون والمسلمون ، وهم أولياءِ الله المتقون ، وحزب الله المفلحون ، / وجند الله الغالبون ، وهم أهل العلم النافع ، والعمل الصالح ، وهم الذين زكُّوا نفوسهم [2] وكمَّلوها . كملوا القوَّة النظرية العلمية ، والقوة الإرادية العملية .

ص ٥٣

كما قال تعالى : ﴿ واذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى الْأَيْدِى والْأَبْصَارِ ﴾ [سورة صٓ : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [سورة النجم : ١ – ٤] .

---

(١) ك : والحق .
(٢) ك : أنفسهم .

النجم : ١ - ٤] . وقال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الفاتحة : ٦ ، ٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٢٣] . وقال تعالى : ﴿ أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [سورة فاطر : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر : ٣] (١) .

هذا ما وجد فى الأصل .

وصلَّى الله على محمد النبى وآله وسلم تسليما كثيراً .

كتبه محمد بن أحمد بن على الخطيب بقرية بييلا فى ثانى عشر جمادى الأول سنة أربع وسبعمائة .

---

(١) بعد هذه الآية فى (ك) : « والله سبحانه وتعالى أعلم . آخر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه » .



الرسالة الثالثة

قاعدة في المحبة



ص ١٤٥

/ (فصل فى الحب والبغض)
لأبى العباس أحمد بن تيميّة

بسم الله الرحمن الرحيم ، على الله توكلى .

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

أما بعد ، فهذه قاعدة عظيمة فى المحبة وما يتعلق بها ، من جمع الإمام العلاّمة ، شيخ الإسلام ، بركة الأنام ، بقية السلف الكرام ، أبى العباس أحمد ، بن الشيخ شهاب الدين عبد الحليم ، بن الشيخ مجد الدين أبى البركات عبد السلام ، ابن تيميّة ، رضى الله عنه وأرضاه .

الحب والإرادة أصل كل فعل وحركة فى العالم
والبغض والكراهة أصل كل ترك فيه

قال رضى الله عنه : فصل فى الحب والبغض ، والمحمود من ذلك والمذموم ، وأصل كل فعل وحركة فى العالم من الحب والإرادة ، فهو أصل كل فعل ومبدؤه . كما أن البغض والكراهة مانع وصاد [١] لكل ما انعقد بسببه ومادته ، فهو أصل كل ترك ، إذا فُسِّر الترك بالأمر الوجودى [٢] ، كما يفسّره بذلك أكثر أهل النظر .

وأما إذا عُنى بالترك مجرد عدم الفعل ، فعدم الفعل تارة يكون لعدم مقتضيه من المحبة والإرادة ولوازمهما ، وقد يكون لوجود مانعه من البغض والكراهة وغيرهما .

---

(١) فى الأصل : وضاد .
(٢) فى الأصل : الوجود .

فأما وجود الفعل فلا يكون إلا عن محبة وإرادة ، حتى دفعه للأمور التى يكرهها ويبغضها ، هو لما فى ذلك من المحبوب أو اللذة يجدها بالدفع ، فيقال : شفى صدره وقلبه ، والشفاء والعافية بمحبوب .

والمحبة والإرادة تكون (١) إما بواسطة وإما بغير واسطة ، مثل فعله للأشياء التى يكرهها ، كشرب الدواء والمكروه ، وفعل الأشياء المخالفة لهواه وصبره ، ونحو ذلك .

فإن هذه الأمور ، وإن كانت مكروهة من بعض الوجوه ، فإنما يفعل أيضا لمحبة وإرادة ، وإن لم تكن المحبة لنفسها ، بل المحبة لملازمها ، فإنه يحب العافية والصحة المستلزمة لإرادة شرب الدواء ، ويحب رحمة الله ونجاته من عذابه المستلزم لإرادة ترك ما يهواه ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] ، فلا يترك الحى ما / يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ، لكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة ، كما يفعل ما يكرهه لما محبته أقوى من كراهة ذلك ، وكما يترك ما يحبه لما كراهته أقوى من محبة ذلك . ظ ١٤٥

ولهذا كانت المحبة والإرادة أصلا للبغض والكراهة وعلة لها ، ولازما مستلزما (٢) لها من غير علة .

وفعل البغض فى العالم إنما هو لمنافاة المحبوب ، ولولا وجود المحبوب لم يكن البغض ، بخلاف الحب للشئ ، فإنه قد يكون لنفسه ، لا لأجل منافاته للبغض (٣) ، وبغض الإنسان وغضبه مما يضاد وجود محبوبه ، ومانع ومستلزم لا يكره عليه ، ونجد قوة البغض للنافى أشد وأحوط .

---

(١) فى الأصل : يكون .

(٢) كلمة « مستلزما » ليست واضحة فى الأصل المخطوط ، وكذا استظهرتها .

(٣) فى الأصل : للبغيض .

ولهذا كان رأس الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله ، وكان من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان .

فالمحبة والإرادة أصل فى وجود البغض والكراهة ، والأصل فى زوال البغيض المكروه ، فلا يوجد البغض إلا لمحبة ، ولا يزول البغيض إلا لمحبة .

فالمحبة أصل كل أمر موجود ، وأصل دفع كل ما يطلب الوجود ، ودفع ما يطلب الوجود أمر موجود ، لكنه مانع من وجود ضده ، فهو أصل كل موجود من بغيض ومانع ولوازمهما .

وهذا القدر الذى ذكرناه من [أن] [1] المحبة والإرادة أصل كل حركة فى العالم ، فقد بيّنّا فى القواعد وغيرها أن هذا يندرج فيه كل حركة وعمل . فإن ما فى الأجسام من حركة طبعية فإنما أصلها السكون ، فإنه إذا خرجت عن مستقرها [2] كانت بطبعها تطلب مستقرها ، وما فيها [3] من حركة قسرية فأصلها من القاسر القاهر ، فلم تبق حركة اختيارية إلا عن الإرادة .

والحركات : إما إرادية ، وإما طبعية ، وإما قسرية . لأن الفاعل المتحرك إن كان له شعور بها فهى الإرادية ، وإن لم يكن له شعور فإن كانت على وفق طبع المتحرك فهى الطبعية ، وإن كانت على خلاف ذلك فهى القسرية .

وبيّنّا أن ما فى السمٰوات والأرض ، وما بينهما من حركة الأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، وحركة الرياح والسحاب والمطر والنبات وغير ذلك ، فإنما هو بملائكة الله تعالى الموكّلة بالسمٰوات والأرض ، الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

---

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : خرج عن مستقره .

(٣) فى الأصل : وما فيه .

ص ١٤٦ / كما قال تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ [سورة النازعات : ٥] ، ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ﴾ [سورة الذاريات : ٤] ، وكما دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ، وتوكُّلهم بأصناف المخلوقات .

ولفظ « المَلَك » يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره ، فليس لهم من الأمر شئ ، بل كم من ملك فى السموٰات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۞ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٦٤ ، ٦٥] .

وإذا كان كذلك فجميع تلك المحبات والإرادات ، والأفعال والحركات ، هى عبادة لله رب الأرض والسموٰات ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع .

المحبة التى أمر الله بها هى عبادته وحده لا شريك له

وإذا كان كذلك فأصل المحبة المحمودة التى أمر الله بها ، وخلق خلقه لأجلها ، هى ما فى عبادته وحده لا شريك له ، إذ العبادة متضمنة (١) لغاية الحب بغاية الذل .

والمحبة لما كانت جنسا لأنواع (٢) متفاوتة فى القدر والوصف كان أغلب ما يذكر منها فى حق الله ما يختص به ويليق به ، مثل العبادة والإنابة ونحوهما ؛ فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده ، وكذلك الإنابة .

وقد تُذكر المحبة المطلقة (٣) لكن تقع فيها الشركة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ

---

(١) فى الأصل : يتضمن .
(٢) فى الأصل : أنواع .
(٣) فى الأصل : المطلق .

النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ [سورة البقرة : ١٦٥] .

ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة فى المحبة ، كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة ، بل عبادة الله وحده لا شريك له هى أصل السعادة ورأسها ، التى لا ينجو أحد من العذاب إلا بها ، وعبادة إله آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه ، الذى لا يبقى فى العذاب إلا أهله .

فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له ، لا يبقى منهم فى العذاب أحد . والذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه ، وعبدوا غيره ، هم أهل الشرك ، الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] (١) .

وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها ، والنهى عن هذه المحبات ولوازمها (٢) ، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين ، وذكر قصص أهل النوعين .

وأصل دعوة جميع المرسلين ، صلى (٣) الله عليهم وسلم ، قولهم : ﴿ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٩] ، وعلى ذلك قاتل من قاتل منهم المشركين ، كما قال خاتم الرسل ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » (٤) . / قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ

ظ ١٤٦

(١) لفظ الجلالة غير موجود فى الآية فى الأصل المخطوط .

(٢) فى الأصل : وتلازمها .

(٣) فى الأصل : وصلى .

(٤) مضى الحديث من قبل ١٥/١ (ت ١) .

مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا والَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [سورة الشورى : ١٣] .

ولهذا قال ﷺ فى الحديث المتفق عليه فى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » وفى رواية فى الصحيح : « لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، كما يكره أن يلقى فى النار » (١) .

وفى الصحيح عن أنس أيضا عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (٢) .

وفى صحيح البخارى أن عمر قال : يا رسول الله : والله لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال : « لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من

---

(١) جاء الحديث بلفظ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان .... » عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ٨/١ (كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان) ، ٩/١ (كتاب الإيمان ، باب من كره أن يعود فى الكفر ....) ، ٢٠/٩ (كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب ....) ؛ مسلم ٦٦/١ (كتاب الإيمان ، باب بيان خصال ...) ؛ سنن ابن ماجة ١٣٣٨/٢ - ١٣٣٩ (كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء) .

وجاء الحديث بلفظ : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، وحتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما » عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ١٤/٨ (كتاب الأدب ، باب الحب فى الله) .

(٢) ورد الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ٨/١ (كتاب الإيمان ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان) ؛ مسلم ٦٧/١ (كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل ....) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٧٧/٣ ، ٢٠٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ؛ سنن ابن ماجة ٢٦/١ (المقدمة ، باب فى الإيمان) .

نفسك » . قال : فوالذى بعثك بالحق لأنت أحب إلىَّ من نفسى . قال : « الآن يا عمر » (١) .

ولهذا ورد فى فضل هذه الكلمة : « شهادة أن لا إلّه إلا الله » من الدلائل ما يضيق هذا الموضع عن ذكره ، وهى أفضل الكلام ، وما فيها من العلم والمحبة أفضل العلوم والمحبات ، كالحديث الذى فى السنن : « أفضل الذكر لا إلّه إلا الله » (٢) .

والآية المتضمنة لها أعظم آية فى القرآن ، كما فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال لأُبَىّ بن كعب : « يا أبا المنذر : أتدرى أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] قال : فضرب بيده صدرى ، وقال : لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر » (٣) .

وإذا كانت كل حركة فأصلها الحب والإرادة من محبوب مراد لنفسه (٤) ،

---

(١) الحديث عن عبد الله بن هشام رضى الله عنه فى : البخارى ١٢٩/٨ (كتاب الإيمان ، باب كيف كانت يمين النبى ﷺ) ولفظ الحديث : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك .... الحديث .

(٢) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١٢٤٩/٢ (كتاب الأدب ، باب فضل الحامدين) ؛ سنن الترمذى ١٣٠/٥ (كتاب الدعوات ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة) ونصه فيه : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم . وقد روى على بن المدينى وغير واحد عن موسى بن إبراهيم هذا الحديث » وذكر الألبانى الحديث فى « صحيح الجامع الصغير » ٣٦٢/١ وحسّنه .

(٣) الحديث بألفاظ مختلفة عن أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه فى : مسلم ٥٥٦/١ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسى) ؛ وفى المسند عنه (ط . الحلبى) ١٤٢/٥ وعن صحابى لم يذكر اسمه ٥٨/٥ .

(٤) فى الأصل : بنفسه .

لا يُحب لغيره ، إذ لو كان كل شيء محبوبا لغيره لزم الدَّوْر أو التسلسل . والشيء قد يُحب من وجه دون وجه ، وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ، ولا تصلح (١) الإلٰهية إلا له ، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .

والإلٰهية المذكورة فى كتاب الله هى العبادة والتألُّه ، ومن لوازم ذلك أن يكون هوالرب الخالق . وأما ما يظنه طوائف من أهل الكلام أن الألوهية هى نفس الربوبية ، وأن ما ذكر فى القرآن من نفى إلٰه آخر ، والأمثال المضروبة البيّنة (٢) فالمقصود به نفى رب يشركه فى خلق العالم ، كما هو عادتهم فى كتب الكلام — / فهذا قصور وتقصير منهم فى فهم القرآن ، وما فيه من الحجج والأمثال أُتوا فيه من جهة أن مبلغ علمهم هو ما سلكوه من الطريقة الكلامية ، فاعتقدوا أن المقصودين واحد (٣) ، وليس كذلك ، بل القرآن ينفى أن يَعبد غير الله ، أو أن يتخذه إلٰها (٤) فيحبه ويخضع له محبة الإلٰه وخضوعه ، كما بيَّنت (٥) ذلك عامة آيات القرآن ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] . ولهذا قال الخليل : ﴿ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] .

ص ١٤٧

ومن المعلوم أن كل حيّ فله إرادة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ، ولا صلاح للموجودات (٦) إلا أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعالى ، كما لا وجود لها إلا أن يبدعها الله .

---

(١) فى الأصل : ولا يصلح .
(٢) البينة : الكلمة فى الأصل غير واضحة ، وكذا استظهرتها .
(٣) فى الأصل : واجلد ، وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : أو أن يتخذه الله ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .
(٥) كلمة « بينت » غير واضحة فى الأصل ، وكذا استظهرتها .
(٦) فى الأصل : الموجودات .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٢] ، ولم يقل : لعدمتا ، إذ هو قادر على أن يبقيها على وِجهة الفساد ، لكن لا يمكن أن تكون صالحة إلا أن يُعبد الله وحده لا شريك له ، فإن صلاح الحى إنما هو صلاح مقصوده ومراده ، وصلاح الأعمال والحركات بصلاح إرادتها ونياتها .

ولهذا كان من أجمع الكلام وأبلغه قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » [١] ، وهذا يعم كل عمل وكل نيّة .

فكل عمل فى العالم هو بحسب نية صاحبه ، وليس للعامل [٢] إلا ما نواه [٣] وقصده وأحبه وأراده بعمله ، ليس فى ذلك تخصيص ولا تقييد ، كما يظنه طوائف من الناس ، حيث يحسبون أن النية المراد به النية الشرعية المأمور بها ، فيحتاجون أن يحصروا [٤] الأعمال بالأعمال الشرعية ، فإن النية موجودة لكل متحرك ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « أصدق الأسماء الحارث وهمام » [٥] ، فالحارث هو العامل [٦] الكاسب ، والهمام هو القاصد المريد ، وكل إنسان متحرك بإرادته حارث همام .

---

(١) مضى الحديث فى هذه المجموعة (ص : ١٢٢) .

(٢) فى الأصل : وليس للعمل . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : إلا ما هو نواه .... ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : أن يحصوا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) جاء الحديث مطولا عن أبى وهب الجشمى رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٣٩٤/٤ (كتاب الأدب ، باب فى تغيير الأسماء) ونصه فيه : « تسمّوا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ، ومرّة » والحديث عنه أيضا فى المسند ٣٤٥/٤ . وجاء حديث آخر نصه : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى سنن أبى داود فى الموضع السابق وهو فى مسلم وسنن الترمذى وابن ماجة والنسائى والدارمى .

(٦) فى الأصل : العمل .

كما بينا أن المحبة والإرادة أصل كل عمل ، فكل عمل فى العالم فعن إرادة ومحبة صدر .

ولهذا كانت المحبة والإرادة منقسمة إلى محبوب لله وغير محبوب ، كما أن العمل والحركة منقسم [(١)] كذلك .

وإذا كان كذلك فالمحبة لها آثار وتوابع – سواء كانت صالحة محمودة نافعة / أو كانت غير ذلك – لها وجد وحلاوة وذوق ووصال وصدود ، ولها سرور وحزن وبكاء . ظ ١٤٧

والمحبة المحمودة هى المحبة النافعة ، وهى التى تجلب لصاحبها ما ينفعه ، وهو السعادة . والضارة هى التى تجلب لصاحبها ما يضره ، وهو الشقاء .

ومعلوم أن الحى العالم لا يختار أن يحب ما يضره ، لكن [يكون] [(٢)] ذلك عن جهل وظلم ، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها ، وذلك ظلم منها لها ، وقد تكون جاهلة بحالها به ، بأن تهوى الشيء وتحبه – بلا علم منها بما فى محبته من المنفعة والمضرة – وتتبع هواها ، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم .

وقد يكون عن اعتقاد فاسد ، وهو حال من اتّبع الظن وما تهوى نفسه ، وكل ذلك من أمور الجاهلية ، وإن كان كل من جهلها وظلمها لا يكاد يخلو عن شبهة يشتبه بها الحق ، وشهوه هى فى الأصل محمودة إذا وضعت فى محلها ، كحال الذى يحب لقاء قريبه [(٣)] ، فإن هذا محمود ، وهو [(٤)] أصل صلة الرحم التى هى شجنة من الرحمن .

---

(١) فى الأصل : كما هو العمل بالحركة منقسمة .

(٢) زدت « يكون » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل المصور كأنها : ربه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : وهى .

لكن إذا اتبع هواه ، حتى خرج عن العدل بين ذوى القربى وغيرهم ، كان هذا ظلما ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] .

وكذلك الذى يحب الطعام والشراب والنساء فإن هذا محمود ، وبه يصلح حال بنى آدم ، ولولا ذلك لما استقامت نفس الأنساب ، ولا وُجدت الذرية ، ولكن يجب العدل والقصد فى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ﴾ [سورة الأعراف : ٣١] ، وكما قال تعالى : ﴿ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦ ، ٧] .

فإذا تجاوز حد العدل ، وهو المشروع ، صار ظالما [١] عاديا ، بحسب ظلمه وعدوانه .

وقد ذكرنا / فى مواضع [أن] [٢] المشروع ، والنافع ، والصالح ، والعدل ، والحق ، والحسن : أسماء متكافئة ، مسمَّاها واحد بالذات ، وإن تنوعت صفاته ، بمنزله أسماء الله الحسنى ، فأسماؤه تعالى ، وأسماء كتابه ، ودينه ، ونبيه ، مسمًّى كل صنف من ذلك واحد وإن تنوعت صفاته . فكل عمل صالح هو نافع لصاحبه وبالعكس ، وكل نافع صالح فهو مشروع وبالعكس ، وكل ما كان صالحا مشروعا فهو حق وعدل وبالعكس . ص ١٤٨

---

(١) فى الأصل : ضالما .

(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

ولكن الناس قد يدركون أحد النعتين فيستدلون به على وجود الآخر [١] ، مثل أن يعلم أن الله أمر بهذا الفعل وشرعه ، فيعلم من هذا وجوب [٢] كونه طاعة لله ورسوله ، وذلك الفعل بعينه يجب أن يكون عملا صالحا ، وهو النافع ، وأن يكون حقًّا وعدلا ، وهذا استدلال بالنص . وقد يعلم كون الشىء صالحا أو عدلا أو حسنا ، ثم يستدل بذلك على كونه مشروعاً ، وهو الاستدلال بالاستصلاح والاستحسان والقياس على كونه مشروعا .

وهذه الطريقة فيها خطر عظيم ، والغلط فيها كثير ، لخفاء صفات الأعمال وأحوالها عنها ، وأن العالم بذلك ، كما ينبغى ، ليس هو إلا رسول الله ﷺ .

فالاستدلال بالمصالح ، التى قد يقال لها المصالح المرسلة [٣] ، هو الذى يرى الشىء مصلحة وليس فى الشرع ما ينفيه ، فيستدل بالمصلحة على أنه من الشريعة .

والاستحسان : أن يرى الشىء حسنا فيستدل بحسنه على أنه من الشرع .

والعدل : أن يرى للشىء نظيراً وشبيهاً [٤] ، فيستدل على حكمه بحكم نظيره وشبيهه ، وليس هذا موضع الكلام فى ذلك .

لكن أعلم الناس من كان رأيه واستصلاحه واستحسانه وقياسه موافقا للنصوص ، كما قال مجاهد : أفضل العبادة الرأى الحسن ، وهو اتباع السنة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ [سورة سبأ : ٦] .

---

(١) فى الأصل كأن العبارة : على الذات ووجود الآخر . ورأيت أن ما أثبته يستقيم به الكلام .
(٢) فى الأصل : وجب .
(٣) فى الأصل : أراد الناسخ أن يكتب « المشتركة » ثم عدل عن ذلك وكتب فوقها « المرسلة » .
(٤) فى الأصل : نظير وشبيه ، وهو خطأ .

ولهذا كان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة / والشريعة فى مسائل ظ ١٤٨ الاعتقاد الخبرية ، ومسائل الأحكام العملية : أهل الأهواء [(١)] ، لأن الرأى المخالف للسنة جهل لا علم ، فصاحبه ممن اتّبع هواه بغير علم .

ولهذا يذكر الله فى القرآن من يتبع هواه بغير علم ، ويذم من يتبع هواه [(٢)] بغير هدى من الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ [سورة القصص : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] .

وكل من اتبع هواه [اتبعه] [(٣)] بغير علم ، إذ لا علم بذلك إلا بهدى الله ، الذى بعث الله به رسله ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤] ولهذا ذم الله الهوى فى مواضع من كتابه .

واتّباع الهوى يكون فى الحب والبغض ، كقوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [سورة صٓ : ٢٦] ، فهنا يكون اتّباع الهوى هو ما يخالف الحق فى الحكم . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ

---

(١) فى الأصل : .... العملية يسمونها أهل الأهواء .

(٢) فى الأصل : وذم لمن يتبع هواه ... إلخ . وأرجو أن يكون ما أثبته هو الصواب .

(٣) زدت كلمة « اتبعه » لتستقيم العبارة .

أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا وَإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] . فهنا يكون اتباع الهوى فيما يُخالف القسط من الشهادة وغيرها . والحق هو العدل ، واتّباع الهوى فى خلاف ذلك هو من الظلم .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن اتباع أهواء الخلق . وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٢٠] ، فنهاه عن اتّباع أهواء الذين أوتوا الكتاب بعد ما جاءه من العلم .

ص ١٤٩ وكذلك / قال تعالى فى الآية الأخرى [١] : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [سورة البقرة : ١٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم وَاحْذَرْهُم أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِم ﴾ [سورة المائدة : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٠] .

فقد نهاه عن اتّباع أهواء المشركين واتباع أهواء أهل الكتاب ، وحذره أن يفتنوه عمّا أنزل الله إليه من الحق ، وذلك يتضمن النهى عن اتّباع أهواء أحد فى خلاف شريعته وسنته ، وكذا [٢] أهل الأهواء من هذه الأمة .

---

(١) فى الأصل : أخرى .

(٢) فى الأصل : وهو ، وفوقها كتب : كذا . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

وقد بيّن ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ثُم جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الجاثية : ١٩] . فقد أمره فى هذه الآية باتّباع الشريعة التى جعله عليها ، ونهاه عن اتّباع ما يخالفها ، وهى أهواء الذين لا يعلمون .

ولهذا كان كل من خرج عن الشريعة والسنة من أهل [1] الأهواء ، كما سمّاهم السلف .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [سورة المؤمنون : ٧١] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] .

وقال تعالى : / ﴿ قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ [سورة القصص : ٤٨ – ٥٠] . ظ ١٤٩

---

(١) فى الأصل : .... والسنة كان من أهل ....

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٦ ، ١٧] .

فذكر الذين أوتوا العلم ، وهم الذين يعلمون أن ما أُنزل إليه (١) من ربه الحق ، ويفقهون ما جاء به ، وذكر المطبوع على قلوبهم فلا يفقهون إلا قليلا ، الذين اتبعوا أهواءهم : يسألونهم (٢) ماذا قال الرسول آنفا ، وهذه حال من لم يفقه الكتاب والسنة ، بل يستشكل ذلك فلا يفقهه ، أو قرأه متعارضا متناقضا ، وهى صفة المنافقين .

ثم ذكر صفة المؤمنين فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٧] زيادة الهدى ، وهو ضد الطبع على قلوب أولئك ، وآتاهم تقواهم ، وهو ضد اتّباع أولئك الأهواء .

فصاحب التقوى ضد صاحب الأهواء ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [سورة الفتح : ٢٦] .

ولما كانت كل حركة وعمل فى العالم فأصلها المحبة والإرادة ، وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهى باطلة فاسدة ، كان كل عمل

---

(١) أى إلى النبى ﷺ .

(٢) فى الأصل : يسلونهم .

لا يُراد به وجهه باطلا ، فأعمال الثقلين – الجن والإنس – منقسمة : منهم من يعبد الله ومنهم [من] [١] لا يعبده ، بل قد يجعل معه إلٰها آخر . وأما الملائكة فهم عابدون لله .

وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بنى آدم والجن والبهائم فهى من عمل الملائكة ، وتحريكها لما [٢] فى السماء والأرض وما بينهما ، / فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبته وإرادته وقصده ، وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين ، وليست عبادتها إياه قبولها لتدبيره [٣] وتصريفه وخلقه ، فإن هذا عام لجميع المخلوقات ، حتى كفَّار بنى آدم ، فلا يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره ، وذلك بكلمات الله التى كان النبى ﷺ يستعيذ بها ، فيقول : « أعوذ بكلمات الله التامات ، التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » [٤] ، وهذا من عموم ربوبيته وملكه .

ص ١٥٠

وهذا الوجه هو الذى أدركه كثير من أهل النظر والكلام ، حتى فسَّروا ما فى القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك ، وهم غالطون فى [٥] هذا التخصيص شرعا وعقلا أيضا .

فإن المعقول الذى لهم يعرِّفهم أن كل شيء وكل متحرك ، وإن كان له مبدأ ، فلابد له من غاية ومنتهى – كما يقولون : له علتان : فاعلية وغائية . والذى

(١) زدت « من » ليستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : مما .
(٣) فى الأصل : التدبير .
(٤) مضى الحديث فى المجموعة الأولى ص : ١٠ (ت ١) وأوردته كاملا هناك فارجع إليه .
(٥) فى الأصل : وفى .

ذكروه إنما هو من جهة العلة الفاعلية ، وبعض (١) المخلوقين كذلك يجعلونه [من جهة] العلة الغائية (٢) ، وهذا غلط .

فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية ، إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ، ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ، ولا يصدر شيء فى الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات ، كما قد بينا هذا فى غير هذا الموضع .

وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة ، إذ ليس فى شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء (٣) . فالمخلوقات بأسرها يجتمع (٤) فيها هذان (٥) النقصان : أحدهما : أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة ؛ لا فاعلية ولا غائية . والثانى : أن ما كان فيها علة فله علة ، سواء كان علة فاعلية أو غائية .

فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه ، وهو رب العالمين ، لا رب لشيء من الأشياء إلا هو ، وهو إله كل شيء ، وهو فى السماء / إله ، وفى الأرض إله ، وهو الله فى السموات وفى الأرض ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وما من إله إلا الله ، سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علوا كبيرا . ظ ١٥٠

فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلاهيته سبحانه وتعالى ، وهو الغاية المقصودة منها ولها .

---

(١) فى الأصل : بعض .
(٢) فى الأصل : يجعلون العلة الغائية ، ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .
(٣) فى الأصل : من الأحياء مراد .
(٤) فى الأصل : يجمع .
(٥) فى الأصل : هذا .

وأما فى الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] (١) .

فهذا السجود الذى فصل بين كثير من الناس الذى يفعلونه ، وكثير من الناس [الذين لا يفعلونه طوعا] (٢) ، وهم الذين حق عليهم (٣) العذاب ، ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبية الله تعالى إياهم وتدبيرهم .

وكذلك فصل بين الصنفين فى قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُون ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] .

وكذلك فى قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

وهو سبحانه ذكر فى الآية الأخرى (٤) سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس ، لأنه ذكر الطوع فقط ، كما ذكر فى التى قبلها أديان الناس فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة الحج : ١٧] ، فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن ، فإنهم لم يُذكروا باللفظ الخاص ،

---

(١) سقطت فى الأصل بعض ألفاظ الآية الكريمة .

(٢) زدت عبارة « الذين لا يفعلونه طوعا » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : عليه .

(٤) أى آية ١٨ من سورة الحج التى ذكرها ابن تيمية قبل سطور قليلة .

لكنهم يندرجون فى الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، فإنهم كما قالوا : ﴿ مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ [سورة الجن : ١١] .

وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون فى لفظ الناس أيضا .

ص ١٥١ / وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَللهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨ - ٥٠] .

وفى الصحيحين حديث أبى ذر فى سجود الشمس تحت العرش إذا غابت [(١)] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الحديد : ١] ، ﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الحشر : ١] ، ﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ

---

(١) ذكرت فى المجموعة الأولى ٣٦/١ الحديث الذى يشمل هذا المعنى وهو فى : البخارى ١٢٥/٩ (كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء) ؛ مسلم ١٣٨/١ (كتاب الأيمان ، باب بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان) ولفظ الحديث فى البخارى هو : « عن أبى ذر قال : دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس ، فلما غربت الشمس قال : يا أبا ذر هل تدرى أين تذهب هذه ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب تستأذن فى السجود فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها . ثم قرأ : (ذَٰلِكَ مُسْتَقَرٌّ لَهَا) فى قراءة عبد الله » . وقد أورد ابن تيمية الحديث فى الموضع المشار إليه مع اختلاف فى الألفاظ . وانظر الدر المنثور ٢٦٣/٥ .

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الصف : ١] ، ﴿ يُسَبِّح لله مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [سورة الجمعة : ١] ، ﴿ يُسَبِّحُ لله مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة التغابن : ١] ، ﴿ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [سورة الإسراء : ٤٤] .

قال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ هُمْ يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ [سورة فصلت : ٣٧ ، ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لله وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ﴾ [سورة النساء : ١٧٢] ، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُم فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [سورة النساء : ١٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَا الرَّحْمَٰنُ وَلَداً ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ۝ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَداً ۝ وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ۝ إِن كُلُّ مَن فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ

ظ ١٥١

إلاَّ آتِى الرَّحْمَٰنِ عَبْداً ۝ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [سورة مريم : ٨٨ – ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦ – ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٢ ، ١٣] .

وقالت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِىِّ وَالإِشْرَاقِ ۝ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ١٨ ، ١٩] .

أهل الطبع المتفلسفة لا يشهدون الحكمة الغائية من المخلوقات

فأما كثير من الناس ، وأهل الطبع المتفلسفة وغيرهم ، فيعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، ويأخذون (١) بظاهر من القول ؛ يرون ظاهر الحركات والأعمال التى للموجودات ، ويرون بعض أسبابها القريبة ، وبعض حكمها وغاياتها القريبة : أن ذلك هو العلة لها : فاعلا وغاية ، كما يذكرونه فى تشريح الإنسان وأعضائه وحركاته

---

(١) فى الأصل : ويشترون ، ولعل الصواب ما أثبته .

الباطنة والظاهرة ، وما يذكرونه من القوى التى فى الأجسام ، التى هى تكون بها الحركة ، وما يذكرونه من كل شىء .

ومن ذلك ذكرهم [١] الطبيعة التى فى الإنسان ، والقوة الجاذبة ، والهاضمة الغاذية ، والدافعة ، والمولِّدة وغير ذلك ، وأن الرئة تُرَوِّح على القلب لفرط حرارته ، وأن الدماغ أبرد من القلب [٢] ، إلى غير ذلك من الأسباب / والحكم التى فيها من شهود ما فى مخلوقات الله من الأسباب والحكم ما هو عبرة لأولى الأبصار .

ص ١٥٢

لكن يقع الغلط من إضافة هذه الآثار العظيمة إلى مجرد قوة فى جسم ، ولا يشهدون الحكمة الغائية من هذه المخلوقات ، وأن ذلك هو عبادة ربها سبحانه وتعالى .

أهل الكلام ينكرون طبائع الموجودات وما فيها من القوى والأسباب

وقد يعارضهم [٣] كلهم طوائف من أهل الكلام ، فينكرون طبائع [٤] الموجودات وما فيها من القوى والأسباب ، ويدفعون ما أرى الله عباده من آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، مما شهد به فى كتابه من أنه خلق هذا بهذا ، كقوله ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٧] ، وقوله : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [سورة الجاثية : ٥] .

وكلا الطائفتين قد لا يعلمون ما فيها من الحكمة التى هى عبادة ربها ، وهذا هو المقصود الذى بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، بل إنما يتنازعون فى

---

(١) فى الأصل : وذكرهم ، وهو تحريف .

(٢) بعد كلمة « القلب » توجد عبارة غير واضحة فى الأصل كأنها : « لكن والحركات عليه تعديلا له ولواجه » والكلام يستقيم بدونها .

(٣) فى الأصل : يعاوطهم ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : طباع .

فاعل هذه الأمور ، وما يتعلق بتوحيد الربوبية ، كما قدَّمناه . وأما شهادة غاية هذه الأمور ، وما يتعلق بتوحيد الإلٰهية ، فقد لا يهتدون له . ولهذا كان فى طرقهم من الضلالات والجهالات ما هو مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول .

لكن أهل العلم فى إضافة جميع الحوادث إلى خلق الله ومشيئته وربوبيته أصح عقلا ودينا ، ومن أدخل فى ذلك كل شىء ، حتى أفعال الحيوان ، فهو المصيب الموافق للسنة والعقل ، وهم متكلمة أهل الإثبات الذين يقرّرون أن الله خالق كل شىء وربّه ومليكه .

بخلاف القدرية الذين أخرجوا عن ذلك أفعال الحيوان ، وبخلاف أهل الطبع والفلسفة الذين يخرجون عن ذلك عامة الكائنات من العلل المولّدات ، وكلاهما باطل ، كما بُيِّن فى غير هذا الموضع .

ولهذا تجد هؤلاء إذا تكلموا فى الحركات التى بين السماء والأرض ، مثل حركة الرياح والسحاب والمطر وحدوث المطر ، من الهواء [1] الذى بين السماء والأرض تارة ، / ومن البخار المتصاعد من الأرض تارة ، كما ذكر ذلك أيضا غير واحد من السلف ، وهو حق مشهود بالأبصار ، كما يُخلق الولد فى بطن أمه من المنىِّ ، وكما يُخلق الشجر من الحب والنوى ، فشهدوا بعض الأسباب المرئية ، وجهلوا أكثر الأسباب ، وأعرضوا عن الخالق المسبب لذلك كله ، وعما جاء فى ذلك من عبادته وتسبيحه والسجود له ، الذى هو غاية حكمته . ظ ١٥٢

فإن خلق الله سبحانه للسحاب بما فيه من المطر من هذا البحر وبخار الأرض ، كخلقه للحيوان والنبات والمعدن من هذه الأمور .

---

(١) فى الأصل : الهوى .

ومعلوم أن المنىّ جسم صغير مشابه لهذا الذى فى الحيوان من الأعضاء المكسوَّة والمتنوعة فى أقدارها وصفاتها وحكمها وغاياتها ، هل يقول عاقل : إن هذا مضافٌ إلى عرض وصفة ؟ حالٌّ فى جسم صغير ؟ أو يضاف هذا إلى ذلك الجسم الصغير ؟ هذا من أفسد الأمور فى بديهة العقل .

ومعلوم أنه لا نسبه إلى خلق هذا من هذا ، وإلى ما يصنعه بنو آدم من الصور التى يصنعونها من المداد ، مثل الكتابة بالمداد ، ونسيج الثياب من الغزل ، وصنعة الأطعمه والبنيان من موادها [1] ، وهم مع ذلك لم يخلقوا المواد ولا يفنونها [2] ، وإنما غايتهم حركة خاصة تعين على تلك الصورة ، ثم لو أضاف مضيف هذه الكتابة إلى المداد لكان الناس جميعا يستجهلونه ويستحمقونه . فالذى يضيف خلق الحيوان والنبات إلى مادتها ، أو ما فى مادتها من الطبع ، أليس هو أحمق وأجهل وأظلم وأكفر ؟!

وكذلك خلق السحاب والمطر من الهواء والبخار ، هو كذلك إضافة الزلزلة إلى احتقان البخار ، وإضافة حركة الرعد إلى مجرد اصطكاك أجرام السحاب ، إلى غير ذلك من الأسباب التى ضلُّوا فيها ضلالا مبينا ، حيث جعلوها هى العلة التامة فاعلا ، ولم يعرفوا [3] الغاية ، فجهلوا الوضعين . ونازعهم طوائف من الناس فيما يُوجد من الأسباب والقوى التى فى الطباع ، وذلك أيضا جهل .

وإذا كانت المحبة والإرادة أصل كل عمل وحركة . وأعظمها فى الحق محبة الله / وإرادته بعبادته وحده لا شريك له ، وأعظمها فى الباطل أن يتخذ الناس من ص ١٥٣

---

(١) فى الأصل : من سوادها ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ينفونها ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل . ولم يعرف .

دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، ويجعلون له عدلا وشريكا – عُلم أن المحبة والإرادة أصل كل دين ، سواء كان دينا صالحا أو دينا فاسدا ، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة ، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخُلُق ، فهو الطاعة الدائمة اللازمة التى قد صارت عادة وخُلُقا ، بخلاف الطاعة مرة واحدة ، ولهذا فُسِّر الدين بالعادة والخُلُق ، ويفسر الخلق بالدين أيضا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ٤] [١] ، قال ابن عباس : على دين عظيم ، وذكره عنه سفيان بن عيينة ، وأخذه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة وبذلك فسراه [٢] .

المحبة والإرادة أصل كل دين

معانى كلمة « الدين »

وكذلك يفسر بالعادة ، كما قال الشاعر :

أهٰذا دينه أبدا ودينى ؟ [٣] .

ومنه « الدَّيْدَن » . يقال : هذا ديدنه ، أى عادته [٤] اللازمة [٥] ، فإن « ديدن » من دَانَ ، بمنزلة صلصل من : صَلَّ ، وكَبْكَبَ من كَبَّ ، هو تضعيف له ، والمضعَّف قد يكون مشدَّدا ، وقد يكون حرفَ لِينٍ ، وهم يعاقبون فى كلامهم

---

(١) فى الأصل : إنك ...

(٢) سبق الكلام على تفسير هذه الآية فى هذه المجموعة (ص : ٥٦) .

(٣) فى « لسان العرب » أن هذا الكلام للمُثَقِّب العبدى يذكر ناقته وتمام البيت :

تقولُ إذا دَرَأْتُ لها وَضِينِى أهٰذَا دِينُهُ أَبَداً ودِينِى ؟

والبيت فى ديوان المثقب القصيدة رقم ٧٦ فى « المفضليات » (تحقيق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله ، والأستاذ عبد السلام هارون ، ط . دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٧١/١٩٥٢) .

(٤) فى الأصل : عبادته ، وهو تحريف .

(٥) فى « اللسان » : « والدين : العادة والشأن ، تقول العرب : ما زال ذلك دينى ودَيْدَنى أى عادتى » .

كثيرا بين الحرف المشدَّد وحرف المثل [١] ، كما يُقال : تَقضِّى البَازِى وتقضَّضَ ، ويُقال : تَسَرَّر وتسرَّى [٢] .

ودان : يكون من الأعلى القاهر ، ويكون من المطيع . يُقال : دِنْتُه فدان ، أى : قهرتُه فذلَّ . كما قال :

هُوَ دَانَ الرِّبَاب [٣] إذْ كَرِهُو الدِّيـ ـنَ ، دِراكاً بعزة وصيال [٤]

ويُقال فى الأعلى [٥] : « كما تدين تدان » . وأما دين المطيع فيستعمل متعديا ودائما ولازما ، يقال : دنت الله ، ودنت لله . ويقال : فلان لا يدين الله دِينا ، ولا يدين لله ، لأن فيه معنى الطاعة والعبادة ومعنى الذل . فإذا قيل : دان الله فهو قولك : أطاع الله ، وأحبه ، وإذا قيل : دان لله ، فهو كقولك : ذلّ لله ، وخشع لله .

وقد ذكرت أن اسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل ، وهكذا الدين

---

(١) كلمة « المثل » غير منقوطة فى الأصل ، وكتب فوقها كلمة « كذا » .

(٢) فى الأصل : تسورّ وتسرر ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : الذباب ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : فأضحوا بعزة وصيال . وفى « لسان العرب » مادة « دين » : قال الأعشى يمدح رجلا :

هُوَ دانَ الرِّبابَ ، إذ كرهوا الدِّيـ ـنَ دِراكاً بغــزوة وصيـــالِ
ثم دانت بعدُ الرِّبابُ ، وكانت كعـــذابٍ عُقوبـــةُ الأقـــوالِ

قال : هو دانَ الرباب يعنى أذلها ، ثم قال دانت بعدُ الربابُ ، أى ذلت له وأطاعته ، والدين لله من هذا إنما هو طاعته والتعبد له . ودانه دِينا أى أذله واستعبده . يقال : دِنْتُهُ فدانٍ .

والبيت فى « ديوان الأعشى » ، ص ١٢ ، القصيدة الأولى ، تحقيق رودلف جاير ، ط . فيينا ، ١٩٢٧ . وجاء فى رواية للبيت : بعزة وصيال .

(٥) فى الأعلى : كذا بالأصل ، ولعل الصواب : فى المثل .

الذى يدين به الناس فى الباطن والظاهر لابد فيه من الحب والخضوع ، بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم ، فإنها قد تكون خضوعا ظاهرا فقط .

والله سبحانه وتعالى سمَّى يوم القيامة يوم الدِّين ، كما قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [سورة الفاتحة : ٤] ، وهو كما روى عن ابن عباس وغيره من السلف : « يوم يدين الله العباد بأعمالهم إن خيراً فخيراً ، وإن شرًّا فشرًّا » [١] . وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم .

فلهذا من قال : هو يوم الحساب ويوم الجزاء ، فقد ذكر بعض صفات الدين ، قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [سورة الانفطار : ٩ - ١٩] .

ظ ١٥٣ / وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة الواقعة : ٨٦ ، ٨٧] ، أى : مقهورين ، ومدبَّرين ، ومجزيين [٢] .

---

(١) فى الأصل : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وهذا الأثر فى تفسير الطبرى (ط . المعارف) ١/١٥٦ : « ... عن عبد الله بن عباس : (يوم الدين) ، قال : يوم حساب الخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم ، إن خيراً فخيراً ، وإن شرًّا فشرًّا ، إلا من عفا عنه ، فالأمر أمره . ثم قال : (ألا له الخلق والأمر) [سورة الأعراف : ٥٤] .

(٢) يقول ابن الجوزى فى تفسيره « زاد المسير » ٨/١٥٥ - ١٥٦ : « قوله تعالى : (غير مدينين) فيه خمسة أقوال . أحدها : محاسبين ، رواه الضحَّاك عن ابن عباس وبه قال الحسن وابن جبير وعطاء وعكرمة . والثانى : موقنين ، قاله مجاهد . والثالث : مبعوثين ، قاله قتادة . والرابع : مجزيين . ومنه يقال : دنته ، وكما تدين تدان ، قاله أبو عبيدة . والخامس : مملوكين أذلاء ، من قولك : دنت له بالطاعة ، قاله ابن قتيبة » .

لابد لكل طائفة من بنى آدم من دين يجمعهم

وإذا كان كل عمل عن محبة وإرادة ، والترك يكون عن بغض وكراهة – وكل أحد همَّام حارث له حب وبغض ، لا يخلو الحى عنهما (١) ، وعمله يتبع حبه وبغضه ، ثم قد يكون ذلك فى أمور هى له عادة وخلق ، وقد يكون فى أمور عارضة لازمة – عُلم أن [كل] (٢) طائفة من بنى آدم لابد لهم من دين يجمعهم ، إذ لا غنى لبعضهم عن بعض ، وأحدهم لا يستقل بجلب (٣) منفعته ودفع مضرته ، فلابد من إجتماعهم ، وإذا اجتمعوا فلابد أن يشتركوا فى اجتلاب ما ينفعهم كلهم ، مثل طلب نزول المطر ، وذلك محبتهم له ، وفى دفع ما يضرهم مثل عدوهم ، وذلك بغضهم له ، فصار ولابد أن يشتركوا فى محبة شىء عام ، وبغض شىء عام ، وهذا هو دينهم المشترك العام .

وأما اختصاص كل منهم بمحبة ما يأكله ويشربه وينكحه ، وطلب ما يستره (٤) باللباس ، فهذا يشتركون فى نوعه لا فى شخصه . بل كل منهم يحب نظير ما يحبه الآخر لا عينه ، بل كل منهم لا ينتفع فى أكله وشربه ونكاحه ولباسه بعين ما ينتفع به الآخر ، بل بنظيره .

وهكذا هى الأمور السماوية فى الحقيقة ، فإن عين المطر الذى ينزل فى أرض هذا ، ليس هو عين الذى ينزل فى أرض هذا ، ولكن نظيره ، ولا عين (٥) الهواء البارد الذى يصيب جسد أحدهم ، قد لا يكون نفس عين الهواء البارد الذى يصيب جسد الآخر ، بل نظيره .

---

(١) فى الأصل : عنها .

(٢) زدت « كل » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : لجلب .

(٤) فى الأصل : ما يضره ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : ولا من .

لكن الأمور السماوية تقع مشتركة عامة ، ولهذا تعلق حبهم وبغضهم بها عامة مشتركة . بخلاف الأمور التى تتعلق بأفعالهم كالطعام واللباس . فقد تقع مختصة وقد تقع مشتركة (١) .

وإذا كان كذلك فالأمور التى يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها على أنفسهم ، والأمور التى تضرهم يحتاجون أن يحرِّموها على نفوسهم ، وذلك دينهم ، وذلك لا يكون إلا باتفاقهم على ذلك ، وهو التعاهد والتعاقد .

الدين هو التعاهد والتعاقد

ولهذا جاء فى الحديث « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » (٢) .

فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بنى آدم : من التزام واجبات ومحرمات ، وهو الوفاء والعهد ، وهذا قد يكون باطلا فاسدا ، إذا كان فيه مضرة لهم راجحة على منفعته ، وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون : ١ - ٦] .

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ ﴾ [سورة يوسف : ٧٦] (٣) .

---

(١) فى الأصل : فقد يقع مختصا وقد يقع مشتركا .

(٢) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى مسند أحمد (ط . الحلبى) ١٣٥/٣ وأوله : « ... عن أنس بن مالك قال : ما خاطبنا نبى الله ﷺ إلا قال : لا إيمان لمن لا أمانة له .... » وهو أيضا فيه ١٥٤/٣ ، ٢١٠ ، ٢٥١ .

(٣) يقول ابن الجوزى فى « زاد المسير » ٢٦١/٤ : « فى المراد بالدين ها هنا قولان : أحدهما : أنه السلطان ، فالمعنى فى سلطان الملك ، رواه العوفى عن ابن عباس . والثانى : أنه القضاء ، فالمعنى فى قضاء الملك ، لأن قضاء الملك أن من سرق إنما يُضرب ويُغرَّم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس » . وانظر تفسير الطبرى للآية (ط . المعارف) ١٨٨/١٦ - ١٩٠ .

/ وقال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٩] . ص ١٥٤

الدين الحق هو طاعة الله وعبادته

والدين الحق هو طاعة الله وعبادته ، كما بيّنا أن الدين هو الطاعة المعتادة التى صارت خُلُقا ، وبذلك [(١)] يكون المطاع محبوباً مراداً [(٢)] ، إذ أصل ذلك المحبة والإرادة .

ولا يستحق أحد أن يُعبد ويطاع على الإطلاق إلا الله وحده لا شريك [له] [(٣)] ، ورسله وأولو الأمر أُطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » [(٤)] .

وأما العبادة فلله وحده ليس فيها واسطة ، فلا يعبد العبد إلا الله وحده ، كما قد بيّنا ذلك فى مواضع ، وبينّا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح ، باطل غير حق ، أى لا ينفع صاحبه .

---

(١) فى الأصل : وذلك .

(٢) فى الأصل : محبوب مراد ، وهو خطأ .

(٣) له : ساقطة من الأصل .

(٤) جاء الحديث مختصرا ومطولا مع اختلاف فى الألفاظ عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٦١/٩ (كتاب الأحكام ، باب قول الله تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ....) ؛ مسلم ١٤٦٥/٣ ، ١٤٦٦ (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية) ؛ سنن النسائى ١٣٨/٧ (كتاب البيعة ، باب الترغيب فى طاعة الإمام) ، ٢٤٣/٨ (كتاب الاستعاذة ، باب الاستعاذة من فتنة المحيا) ؛ سنن ابن ماجة ٤/١ (المقدمة ، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ) ، ٩٥٤/٢ (كتاب الجهاد ، باب طاعة الإمام) ؛ المسند (ط . المعارف) ٥٢/١٣ ، ١٧٣ - ١٧٤ ، ٧٦/١٤ ، ٣٩/١٦ - ٤٠ ، ١٠٧/١٧ ، ٩٥/١٨ ، المسند (ط . الحلبى) ٤٦٧/٢ ، ٤٧١ ، ٥١١ .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [سورة البيِّنة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] .

وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٦١] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٢] .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » [١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ

---

(١) الحديث عن ابن عباس وأبى هريرة ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهم فى : البخارى ٢١/١ (كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) ، ٨٤/٤ (كتاب الخمس ، باب قول الله تعالى فإن لله خمسه) ، ١٠١/٩ (كتاب الاعتصام ، باب قول النبى ﷺ لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ....) ؛ مسلم ٧١٨/٢ ، ٧١٩ (كتاب الزكاة ، باب النهى عن المسألة) ؛ سنن الترمذى ١٣٧/٤ (كتاب العلم ، باب إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه فى الدين) وقال الترمذى : « وفى الباب عن عمر وأبى هريرة ومعاوية » ؛ سنن ابن ماجة ٨٠/١ (المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم) ؛ سنن الدارمى ٢٩٧/٢ (كتاب الرقاق ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٨٢/٤ ، ١٨٠/١٢ ، المسند (ط . الحلبى) ٩٢/٤ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ٢٨٢ .

أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيا وَالآخِرةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٧] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ الآية [سورة المائدة : ٥٤] .

وهو الدين الحق الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذى لا يقبل الله دينا غيره .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] .

/ وقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] . ظ ١٥٤

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩] .

فإذا كان لابد لكل آدمى من اجتماع ، ولابد فى كل إجتماع من طاعة ودين ، وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل – فكل دين سوى الإسلام فهو باطل.

كل دين سوى الإسلام باطل

وأيضا فلابد لكل حى من محبوب ، هو منتهى محبته وإرادته ، وإليه تكون حركة باطنه وظاهره ، وذلك هو إلهه ، ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له ، فكل ما سوى الإسلام فهو باطل .

والمتفرقون أيضا فيه ، الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه ، وافترقت أهواؤهم ، قد بَرِئ الله ورسوله منهم .

لابد فى كل دين من شيئين : العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة

ولابد فى كل دين وطاعة ومحبة من شيئين : أحدهما : الدين المحبوب المطاع . وهو المقصود المراد .

والثانى : نفس صورة العمل التى تُطاع (١) ويُعبد بها ، وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة .

كما قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى : ﴿ لَيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [سورة هود : ٧] قال : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا على ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، [حتى يكون خالصا صوابا] (٢) ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين : المعبود ، والعبادة . والمعبود إله واحد ، والعبادة طاعته وطاعة رسوله ﷺ ، فهذا هو دين الله الذى ارتضاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ [سورة المائدة : ٣] ، وهو دين المؤمنين من الأوَّلين والآخرين ، وهو الدين الذى لا يقبل الله من أحد غيره ، لأنه دين فاسد باطل ، كمن عبد من لا تصلح عبادته ، أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به .

تنوع الناس فى المعبود وفى العبادة

ثم مع اشتراك الأوَّلين والآخرين فى هذا الدين فيتنازعون فى كل منهما ، فإن الله سبحانه له الأسماء الحسنى ، وله المثل الأعلى ، فقد تعرف هذه الأمة من أسمائه

---

(١) فى الأصل : يطاع .

(٢) ما بين المعقوفتين من كلام الفضيل بن عياض ، وسبق ورود هذا الكلام فى المجموعة الأولى ، ص : ٢٥٧ .

وصفاته ما لا تعرف به الأمة الأخرى ، فهم مشتركون فى عبادة نفسه ، وإن تنوَّعوا فيما عرفوه وعبدوه به من أسمائه وصفاته .

وقد رفع الله بعضهم فوق / بعض درجات ، فهذا تنوعهم فى المعبود [١] ، وكذلك حالهم فى معرفة اليوم الآخر . ص ١٥٥

وأما تنوعهم فى العبادة والطاعة من الأقوال والأفعال ؛ فإنهم متنوِّعون فى ذلك أيضا .

وقد قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [سورة المائدة : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الجاثية : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ [سورة الحج : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ [سورة الحج : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [سورة البقرة : ١٤٨] .

وهذان الأصلان قد جاءت شريعتنا فيهما [٢] بأنواع : فجاءت فى أسماء الله وصفاته بأنواع ، وجاءت فى صفات العبادات بأنواع . والأصل الأول ينضم إليه اليوم الآخر وما جاء فى نعته من الأسماء والصفات والوعد والوعيد .

---

(١) كتب فى أعلى هذه الصفحة إلى اليسار : « الثانى » .

(٢) فى الأصل : فيها .

وهذه الأصول الثلاثة : وهى الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، والعمل الصالح ، هى الموجبة [١] للسعادة فى كل ملة . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٦٢] . والشرع [٢] ما جاءت به الرسل ، وهو الأصل الرابع .

ذم الله التفرق والاختلاف فى الكتاب والسنة

فإن هذه الأصول الأربعة متلازمة ، والتفرق فى ذلك بالأمر فى بعضه ، والنهى عن بعض ، هو من التفرق والاختلاف الذى ذمه الكتاب والسنة من المختلفين .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٥] .

ولهذا غضب النبى ﷺ لما اختلفوا فى القراءة ، وقال : « كلاهما محسن » [٣] .

---

(١) فى الأصل : هو الموجب .

(٢) فى الأصل : والنوع .

(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى موضعين فى : البخارى ١٢٠/٣ (كتاب الخصومات ، باب ما يذكر فى الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود) ، ١٧٥/٤ (كتاب الأنبياء ، الباب الأخير : حدثنا أبو اليمان ...) ونصه فى الموضع الأخير : « .... عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : =

وقال : « إن القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرؤوا منه ما تيسر » [١] . وكذلك غضب لما تنازعوا فى القدر ، وأخذوا يعارضون بين الآيات معارضة تفضى إلى الإيمان ببعض دون بعض .

وهذا التفرّق والاختلاف يوجب الشرك ، وينافى حقيقة التوحيد الذى هو إخلاص الدين كله [لله] [٢] ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ [سورة الروم : ٣٠] ، ﴿ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣١ ، ٣٢] .

ظ ١٥٥

فإقامة وجهة الدين حنيفا ، وعبادة الله وحده لا شريك له – وذلك يجمع الإيمان بكل ما أمر الله به وأخبر به – أن يكون الدين كله لله .

= سمعت رجلا قرأ وسمعت النبى ﷺ يقرأ خلافها ، فجئت به النبى ﷺ فأخبرته ، فعرفت فى وجهه الكراهية ، وقال : كلاكما محسن ، ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » .

والحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه فى : المسند (ط . المعارف) ٣٢٤/٥ – ٣٢٥ ، ٥/٦ ، ٥ – ٦ ، ١٥٥ ، ١٦٩ . وجاء الحديث عن أبى بن كعب رضى الله عنه (وفيه بيان أنه كان هو الرجل الآخر وفى رواية أنه كان هناك قارىء ثالث) فى المسند ١٢٤/٥ فى عدة روايات .

(١) هذا جزء من حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى : البخارى ١٢٢/٣ (كتاب الخصومات ، باب كلام الخصوم بعضهم فى بعض) ، ١٨٤/٦ – ١٨٥ (كتاب فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف) ، ١٧/٩ – ١٨ (كتاب المرتدين ، باب ما جاء فى المتأولين) ، ١٥٨/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : فاقرأوا ما تيسر من القرآن) ؛ مسلم ٥٦٠/١ (كتاب صلاة المسافرين ، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف) ؛ سنن الترمذى ٢٦٣/٤ – ٢٦٤ (كتاب القراءات ، باب ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف) ؛ سنن أبى داود ٢/ ١٠١ – ١٠٢ (كتاب الوتر ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف) ؛ سنن النسائى ١١٦/٢ – ١١٧ (كتاب افتتاح الصلاة ، باب جامع ما جاء فى القرآن) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٢٤/١ ، ٢٧٤ – ٢٧٥ ، ٢٨٣ – ٢٨٤ . وأول الحديث (البخارى ١٢٢/٣) : « .... سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها .... فجئت به رسول الله ﷺ فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها . فقال لى : أرسله . ثم قال : اقرأ .... الحديث » .

(٢) زدت « لله » ليستقيم الكلام .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً ﴾ ، وذلك أنه إذا كان الدين كله لله حصل الإيمان والطاعة لكل ما أنزله وأرسل به رسله ، وهذا يجمع كل حق ، ويُجمع عليه كل حق .

وإذا لم يكن كذلك فلابد أن يكون لكل قول ما يمتازون به ، مثل معظَّم مُطَاع ، أو معبود لم يأمر الله بعبادته وطاعته ، ومثل قول ودين ابتدعوه لم يأذن الله به ، ولم يشرعه ، فيكون كل من الفريقين مشركا من هذا الوجه .

وأيضا ففى قلوب بنى آدم محبة وإرادة لما يتألهونه ويعبدونه ، وذلك هو قوام قلوبهم وصلاح نفوسهم ، كما أن فيهم محبة وإرادة لما يطعمونه وينكحونه ، وبذلك تصلح حياتهم ، ويدوم شملهم . وحاجتهم إلى التألّه أعظم من حاجتهم إلى الغذاء ، فإن الغذاء إذا فُقد يفسد الجسم ، وبفقد التألّه تفسد النفس ، ولن يصلحهم إلا تأله الله وعبادته وحده لا شريك له ، وهى الفطرة التى فطروا عليها ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » (١) .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه أنه قال : « إننى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين (٢) ، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزِّل به سلطانا » (٣) .

لكن أكثر الشرك فى بنى آدم بإيجاد إله آخر مع الله ، ودان بذلك كثير منهم فى أنواع كثيرة .

---

(١) مضى الحديث من قبل فى هذه المجموعة ، ص : ٨٥ .

(٢) فى الأصل : الشيطان ، وهو تحريف .

(٣) مضى الحديث من قبل فى هذه المجموعة ، ص : ٨٦ .

فصار كل طائفة من بنى آدم لابد لهم من دين لهذين الأمرين : لحاجة نفوسهم إلى الإله الذى هو محبوب مطلوب لذاته ولأنه ينفع ويضر ، ولحاجتهم إلى التزام ما يحبونه من الحاجات ويدفعونه من المضرات .

وهم مشركون فى المحبة للأمور المنزَّلة : أعيانها وأنواعها ، فهم مشركون فى محبة الإله الذى يعبدونه وتعظيمه ، ومحبة من يبلِّغ عنه ما يختص به ، ومحبة أوامره ونواهيه . مشركون / فى محبة [1] غير ذلك ، ومشركون أيضا فى محبة جنس [2] ما التزموه من الواجبات والمحرَّمات العامة ، التى هى جلب المنفعة لهم جميعا ، ودفع المضرة عنهم جميعا .

ص ١٥٦

فهذه المحبة هى المحبة الدينية ، كحب الدين الذى هم عليه : حقًّا كان أو باطلا ، وكذلك محبة ما يعين على ذلك ويوصل إليه لأجل ذلك ، فهى [3] أيضا محبة دينية .

يقول بعض المتفلسفة إن المقصود بالدين مجرد المصلحة الدنيوية

وليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية من إقامة العدل بين الناس فى الأمور الدنيوية ، كما يقوله طوائف من المتفلسفة فى مقصود النواميس والنبوات : أن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم فى الدنيا من القانون العدلى الذى ينتظم به معاشهم ، لكن هذا قد يكون المقصود فى أديان من لم يؤمن بالله ورسوله من أتباع الملوك المتفلسفة ونحوهم ، مثل : قوم نوح ، ونمرود ، وجنكيزخان [4] وغيرهم [5] .

---

(١) فى الأصل : فى محبته .

(٢) فى الأصل : حسن ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : هى .

(٤) فى الأصل : جنكيسخان ، وأشير إلى الهامش حيث كتب « جنكيز خان » وفوقها كلمة « صوابه » .

(٥) فى الأصل : وغيرها .

فإن كل طائفة من بنى آدم محتاجون إلى التزام واجبات ، وترك محرَّمات ، يقوم بها معاشهم وحياتهم الدنيوية . وربما جعلوا مع ذلك ما به يستولون به على غيرهم من الأصناف ويقهرونه ، كفعل الملوك الظالمين مثل جنكيزخان [1] .

فإذا لم يكن مقصود الدين والناموس الموضوع إلا جلب المنفعة فى الحياة الدنيا ، ودفع المضرة فيها ، فليس لهؤلاء فى الآخرة من خلاق ، ثم إن كان مع ذلك جعلوه ليستولوا به على غيرهم من بنى آدم ويقهرونهم ، كفعل فرعون وجنكيزخان [1] ونحوهما ، فهؤلاء من أعظم الناس عذابا فى الآخرة .

كما قال تعالى : ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص : ٣ ، ٤] . ظ ١٥٦

وقد قص الله سبحانه قصة فرعون فى غير موضع من القرآن ، وكان هو وقومه على دين هم من دين الملوك ، كما قال تعالى فى قصة يوسف : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ [سورة يوسف : ٧٦] وهذا الملك كان فرعون يوسف ، وكان قبل فرعون موسى . وفرعون اسم لمن يملك مصر من القِبْط [2] ، وهو اسم جنس كقيصر وكسرى والنجاشى ونحو ذلك .

وهؤلاء المتفلسفة الصابئة المبتدعة من المشَّائين ، ومن سلك مسلكهم من المنتسبين إلى الملل فى المسلمين واليهود والنصارى ، يجعلون الشرائع والنواميس

---

(١) فى الأصل : جنكيسخان .

(٢) فى « لسان العرب » : « والقِبْط : جيل بمصر ، وقيل : هم أهل مصر وبُنْكُها » .

والديانات من هذا الجنس [١] ، لوضع قانون تتم به مصلحة الحياة الدنيا ، ولهذا لا يأمرون فيها بالتوحيد ، وهو عبادة الله وحده ، ولا بالعمل للدار الآخرة ، ولا ينهون فيها عن الشرك ، بل يأمرون فيها بالعدل والصدق والوفاء بالعهد ، ونحو ذلك من الأمور التى لا تتم مصلحة الحياة الدنيا إلا بها [٢] ، ويشرعون التأله للمخلصين والمشركين .

وقد تكلمت على أقسام الديانات فى غير هذا الموضع ، وبيّنت الطبعى ، والملّى ، والشرعى . وإنما جاء ذكر هذا هنا مطردا .

ولهذا يقيمون النواميس بأنواع من الحيل والسحر والطلسمات [٣] ، كما وضعوه فى كتب ذلك ، ويقولون فى بعض الطيالسم : هذا يصلح لوضع النواميس ، كما [٤] تواصت القرامطة والباطنية ، وكما كان يفعله سحرة فرعون وغيرهم – وآثارهم موجودة بذلك إلى اليوم – وكما يفعله المشركون من الترك والهند فى بلادهم .

---

(١) فى الأصل : الجيش ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ابهاً ، وهو تحريف .

(٣) فى « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » لشهاب الدين الخفاجى : مادة « طلسم » : « طلسم : لفظ يونانى لم يعربه من يوثق به ، وكونه مقلوبا من مسلط وَهْمٌ لا يعتد به . وفى « السر المكتوم » : هو عبارة عن علم بأحوال تمزيج القوى الفعالة السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية لأجل التمكن من إظهار ما يخالف العادة والمنع مما يوافقها . انتهى » وانظر الصفدية ٦٦/١ . وفى « دستور العلماء » لعبد النبى بن عبد الرسول الأحمدنكرى (ط . حيدر آباد) ٢٧٨/٢ : « الطلسم علم يتعرف منه كيفية تمزيج القوى العالية الفعالة بالسافلة المنفعلة ليحدث عنها أمر غريب فى عالم الكون والفساد . واختلف فى معنى الطلسم . والمشهور أقوال ثلاثة : الأول : أن الطل بمعنى الأثر فالمعنى أثر اسم . الثانى : أنه لفظ يونانى معناه : عقد لا ينحل . الثالث : أنه كناية عن مسلط . وعلم الطلسمات أسرع تناولا من علم السحر وأقرب مسلكا ، وللسكاكى فى هذا الفن كتاب جليل القدر عظيم الخطر » .

(٤) فى الأصل : وكما .

والمتفلسفة الصابئة تجعل ذلك جنسا لما بُعثت به الرسل من الآيات ، ويجعلون موسى والسحرة والذين عارضوه من جنس واحد .

وهؤلاء كما قال تعالى فيهم : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] هم مقرُّون بأن منفعة ذلك لا تكون فى الآخرة ، وإنما يرجون منفعته فى الدنيا ، وإن كان فيه بلوغ بعض الأعراض من رئاسة أو شهوة [١] .

فهو كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] إذ ما فيه من المضرة يربو [٢] على ما فيه من الخير [٣] . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٣] ، ولهذا كان ما نهى عنه من هذا الجنس إنما هو / لكون الضرر فيه أغلب من المنفعة ، فأما ما ينفع الناس فلم ينه الله عنه . ص ١٥٧

ولهذا لما عرض على النبى ﷺ الرقى [٤] قال : « من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل » [٥] وقال : « لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك » [٦] .

---

(١) توجد فى أعلى الصفحة كلمات كتب بعضها فوق بعض غير واضحة وكأنها : « لدى غير الله شر كبير كله » .

(٢) فى الأصل : يزكى ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : الحط ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : الرقا .

(٥) ورد الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى موضعين فى : مسلم ١٧٢٦/٤ (كتاب السلام ، باب استحباب الرقية من العين ...) . وجاء الحديث أيضا عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٣٠٢/٣ ، ٣٣٤ ، ٣٨٢ ، ٣٩٣ .

(٦) فى الأصل : شر ، وهو تحريف . والحديث عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه فى : مسلم ١٧٢٧/٤ (كتاب السلام ، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك) ؛ سنن أبى داود ١٥/٤ (كتاب الطب ، باب ما جاء فى الرقى) .

وذكر البخارى فى صحيحه فى استخراج السحر عن قتادة قال : « قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طب أو يُؤَخَّذُ عن امرأته : أَيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع الناس فلم يُنْهَ عنه [1] .

فصل

الحب أصل كل عمل والتصديق بالمحبة هو أصل الإيمان

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، وهو [2] أصل الأعمال الدينية وغيرها ، وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله ، فالتصديق بالمحبة هو [3] أصل الإيمان ، وهو قول وعمل ، كما قد بُيِّن فى غير هذا الموضع .

ومعلوم أن قوة [4] المحبة لكل محبوب يتفاوت الناس فيها تفاوتا عظيما ،

---

(١) جاء هذا الأثر فى : البخارى ١٣٧/٧ (كتاب الطب ، باب هل يستخرج السحر) . وقال ابن حجر فى : فتح البارى ٢٣٣/١٠ : « .... عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأسا إذا كان بالرجل سحر أن يمشى إلى من يطلق عنه ، فقال : هو صلاح . قال قتادة : وكان الحسن يكره ذلك يقول : لا يعلم ذلك إلا ساحر . قال : فقال سعيد بن المسيب : إنما نهى الله عمّا يضر ولم ينه عمّا ينفع . وقد أخرج أبو داود فى « المراسيل » عن الحسن رفعه : « النشرة من عمل الشيطان » ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر . قال ابن الجوزى : « النشرة حل السحر عن المسحور ، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر . وقد سئل أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور ، فقال : لا بأس به .... قوله : (به طب) بكسر الطاء أى سحر ، وقد تقدم توجيهه . قوله : (أويؤخَّذ) بفتح الواو مهموز وتشديد الخاء المعجمة وبعدها معجمة : أى يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأُخذة بضم الهمزة : هى الكلام الذى يقوله الساحر . وقيل : خرزة يرقى عليها ، أو هى الرقية نفسها . قوله : (أَوَيُحَلُّ عنه) بضم أوله وفتح المهملة . قوله : (أو يُنَشَّر) بتشديد المعجمة من النُشرة بالضم ، وهى ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحرا أو مسًّا من الجن ، قيل لها ذلك لأنه يكشف بها عنه ما خالطه من الداء » .

(٢) فى الأصل : وهى .

(٣) فى الأصل : هى .

(٤) كلمة « قوة » غير واضحة فى الأصل ، وكذا استظهرتها .

ويتفاوت حال الشخص الواحد فى محبة [١] الشىء الواحد ، بحيث يقوى الحب تارة ويضعف تارة ، بل قد يتبدل أقوى [الحب] [٢] بأقوى البغض وبالعكس .

قال تعالى : ﴿ لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ [سورة الممتحنة : ١ – ٤] ، وإبراهيم هو إمام الحنفاء الذين يحبهم الله ويحبونه ، وهو خليل الله .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٥ – ٧٧] .

وقال تعالى أيضا : ﴿ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] وقال بعد ذلك : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٩] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] .

ولا ريب أن محبة المؤمنين لربهم أعظم المحبات ، وكذلك محبة الله لهم هى محبة عظيمة جدا ، كما فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من عادى لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىَّ عبدى

---

(١) فى الأصل : المحبة .

(٢) فى الأصل : أقوى ، وفوقها : كذا . ورأيت أن إثبات كلمة « الحب » يستقيم به الكلام .

بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى [١] يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينَّه ، ولئن [٢] استعاذنى لأعيذنّه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه » [٣] .

تأويل طوائف من المسلمين للمحبة تأويلات خاطئة

وقد تأوَّل الجهمية – ومن اتبعهم من أهل الكلام – محبة الله لعبده على أنها الإحسان إليه ، فتكون من الأفعال .

ظ ١٥٧

وطائفة أخرى من الصفاتية قالوا : هى إرادة / الإحسان . وربما قال كلا من القولين بعض المنتسبين إلى السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

وسلف الأمة وأئمة السنة على إقرار المحبة على ما هى عليه .

وكذلك محبة العبد لربه يفسّرها كثير من هؤلاء بأنها إرادة العبادة له ، وإرادة التقرب إليه ، لا يثبتون أن العبد يحب الله .

وسلف الأمة ، وأئمة السنة ، ومشايخ المعرفة ، وعامة أهل الإيمان : متفقون على خلاف قول هؤلاء المعطِّلة لأصل الدين ، بل هم متفقون على أنه لا يكون شىء من أنواع المحبة أعظم من محبة العبد ربه .

كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، وقال

---

(١) فى الأصل : الذى .

(٢) فى الأصل : ولا .

(٣) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه المجموعة (ص ٢٧ الصفات ١٠٧ شرح) .

تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] ، فلم يرض [إلا] [١] بأن يكون الله ورسوله أحب إليهم من الأهلين والأموال ، حتى يكون الجهاد فى سبيل الله الذى هو من كمال الإيمان .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُوَلٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] . ولهذا وصف الله المحبِّين له الذين يحبهم هو بالجهاد ، فقال تعالى : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِه فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] .

تنازع الناس فى لفظ « العشق »

وأما تنازع الناس فى لفظ « العشق » فمن الناس من أهل التصوف والكلام وغيرهم من أطلق هذا اللفظ فى حق الله ، كما روى عبد الواحد بن زيد [٢] فيما يؤثره عن [أحد أنبياء] الله[٣] أنه قال : « عشقنى وعشقته » .

---

(١) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

(٢) عبد الواحد بن زيد البصرى صوفى وواعظ لحق الحسن البصرى وغيره ، متروك الحديث ، وقال البخارى : عبد الواحد صاحب الحسن تركوه ، وقال الجوزجانى : سيىء المذهب ليس من معادن الصدق . توفى سنة ١٧٧ . انظر ترجمته وأقواله فى : العبر ٢٧٠/١ ؛ شذرات الذهب ٢٨٧/١ ؛ ميزان الاعتدال ٦٧٢/٢ – ٦٧٣ ؛ لسان الميزان ٨٠/٤ – ٨١ ؛ حلية الأولياء ١٥٥/٦ – ١٦٥ ؛ الطبقات الكبرى ٣٩/١ – ٤٠ .

(٣) فى الأصل : يا ـ ره (غير منقوطة) عن الله . ولعل الصواب ما أثبته . وانظر كلام ابن تيمية بعد قليل (ص ٢٤٠) .

وقال هؤلاء : العشق هو المحبة الكاملة التامة ، وأَوْلى الناس بذلك هو الله ، فإنه هو الذى يجب أن يُحب أكمل محبة ، وكذلك هو يحب عبده محبة كاملة .

ولو قيل : إن العشق هو منتهى المحبة أو أقصاها ، أو نحو ذلك ، فهذا المعنى حق من العبد ، فإنه يحب ربه منتهى المحبة وأقصاها ، والله يحب عبده ، مثل إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم تسليما ، أقصى محبة تكون لعباده ومنتهاها ، وهما خليلا الله .

كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله قد اتخذنى خليلا ، كما اتخذ إبراهيم خليلا » [١] . وقال : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » [٢] .

وذهب طوائف من أهل العلم والدين إلى إنكار ذلك فى حق الله . ولا رَيْب أن هذا اللفظ ليس مأثوراً عن أئمة السلف .

ص ١٥٨

والذين أنكروه لهم من جهة اللفظ / مأخذان ، ومن جهة المعنى مأخذان :

منكرو لفظ العشق لهم من جهة اللفظ مأخذان ومن جهة المعنى مأخذان

أما من جهة اللفظ : فإن هذا اللفظ ليس مأثورا عن السلف . وباب الأسماء والصفات يُتَّبع فيها الألفاظ الشرعية ، فلا نطلق [إلا] [٣] ما يرد به الأثر .

المأخذ الأول من جهة اللفظ

---

(١) مضى الحديث من قبل فى هذه المجموعة (ص ٨٧ شرح) .

(٢) جاءت العبارات الأولى من هذا الحديث إلى قوله : « .... لاتخذت أبا بكر خليلا » جزءاً من أحاديث كثيرة عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم . ولكن الحديث بهذا النص جاء عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : مسلم ١٨٥٥/٤ (كتاب فضائل الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، باب من فضائل أبى بكر الصديق رضى الله عنه) .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

والأوّلون يستدلون بمثل قول عبد الواحد بن زيد ونحوه .

وهؤلاء يقولون : هذا من الإسرائيليات التى لا يجوز الاعتماد عليها فى شرعنا ، فإن ثبوت مثل هذا الكلام عن الله لا يُعلم إلا من جهة نبينا ﷺ ، وذلك غير مأثور عنه . ونحن لا نصدِّق بما ينقل عن الأنبياء المتقدمين ، إلا أن يكون عندنا ما يصدِّقه ، كما لا نكذِّب إلا بما نعلم أنه كذب . وقد قال النبى ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم ، فإما أن يحدثوكم بباطل فتصدّقوه ، وإما يحدثوكم بحق فتكذّبوه » [1] . وهذا الوجه يقتضى الامتناع من الإطلاق ، إلا [عند] [2] الجزم بتحريمه فى جميع الشرائع .

المأخذ الثانى

المأخذ الثانى : أن المعروف من استعمال هذا اللفظ فى اللغة إنما هو فى محبة جنس النكاح ، مثل حب الإنسان الآدمى مثله ممن يستمتع به من امرأة

---

(١) جاء هذا الحديث بألفاظ مقاربة عن أبى نملة الأنصارى رضى الله عنه ونصه فى : سنن أبى داود ٣/١٤٣٣ (كتاب العلم ، باب رواية حديث أهل الكتاب) : « .... أخبرنى ابن أبى نملة الأنصارى عن أبيه أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ وعنده رجل من اليهود مرَّ بجنازة ، فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال النبى ﷺ : « الله أعلم » فقال اليهودى : إنها تتكلم . فقال رسول الله ﷺ : « ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله ورسله ، فإن كان باطلا لم تصدقوه ، وإن كان حقا لم تكذبوه » . وهو فى : المسند (ط . الحلبى) ٤/١٣٦ ؛ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان لعلى بن أبى بكر الهيثمى (تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ، ط . السلفية) ص ٥٨ . وضعف الألبانى الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير وزيادته » ٥/٩١ وقال السيوطى : حم (المسند) ، د (سنن أبى داود) ، حب (صحيح ابن حبان) هق (سنن البيهقى) عن أبى نملة الأنصارى . على أن حديثا صحيحا مقاربا جاء عن أبى هريرة رضى الله عنه ونصه فى : البخارى ٣/١٨١ (كتاب الشهادات ، باب لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها) : « وقال أبو هريرة عن النبى ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أُنزل .... الآية » . وجاء هذا الحديث فى مواضع أخرى فى : البخارى ٦/٢٠ - ٢١ (كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا ....) ، ٩/١١١ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبى ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ) ، ٩/١٥٧ (كتاب التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب العربية) .

(٢) زدت « عند » ليستقيم الكلام .

أو صبى . فلا يكاد يُستعمل هذا اللفظ فى محبة الإنسان لولده وأقاربه ووطنه وماله ودينه وغير ذلك ، ولا فى محبته لآدمى لغير صورته : مثل محبة الآدمى لعلمه ، ودينه ، وشجاعته ، وكرمه ، وإحسانه ، ونحو ذلك . بل المشهور من لفظ « العشق » هو محبة النكاح ومقدماته ، فالعاشق يريد الاستمتاع بالنظر إلى المعشوق ، وسماع كلامه أو مباشرته بالقبلة والحس والمعانقة أو الوطء (١) ، وإن (٢) كان كثير من العشاق لا يختار الوطء ، بل يحب [تقبيل ومعانقة] موطوءته (٣) ، فهو يحب مقدمات الوطء . وكم ممن اشتغل بالوسيلة عن المقصود .

ثم لفظ « العشق » قد يُستعمل فى غير ذلك ، إما على سبيل التواطؤ (٤) ، فيكون حقيقة فى القدر المشترك ، وإما على سبيل المجاز .

لكن استعماله فى محبة الله إما أن يُفهِم أو يُوهم المعنى الفاسد ، وهو أن الله يُحِب ويُحَب ، كما تحب صور الآدميين التى نستمتع بمعاشرتها ووطئها ، وكما (٥) تحب الحور العين التى فى الجنة .

وهذا المعنى من أعظم الكفر ، وإن كان قد بلغ إلى هذا الكفر الاتحادية ، الذين يقولون : « إنه عين الموجودات » (٦) ، ويقولون : « ما نكح سوى نفسه ، وهو الناكح والمنكوح » (٧) .

---

(١) فى الأصل : الوطى .
(٢) فى الأصل : إن .
(٣) فى الأصل : بل يحب رطوبته ، وكتب فوقها « كذا » . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .
(٤) فى الأصل : التواطى .
(٥) فى الأصل : كما .
(٦) انظر ما سبق فى المجموعة الأولى ، ص ١٠٤ – ١٠٥ ، ٢٠٤ .
(٧) انظر ما سبق ١/١٦٥ .

ظ ١٥٨

وكذلك الذين يقولون بالحلول العام ، / والذين يقولون بالاتحاد فى صور معينة [(١)] ، أو بحلوله فيها [(٢)] ، كما يقوله الغالية من النصارى والرافضة وغالية النسَّاك ، فإن هؤلاء يصفونه بما يوصف به البشر من النكاح ، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علوا كبيرا ، هو الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

ومن هؤلاء من يعشق الصور الجميلة ، ويزعم أنه يتجلى فيها [(٣)] ، وأنه إنما يحب مظاهر جماله . وقد بسطنا الكلام فى كفرهم وضلالهم [(٤)] فى غير هذا الموضع . فمن زعم أن الله يحب أو يعشق وأشار إلى هذا المعنى ، فهو أعظم كفرا من اليهود والنصارى .

المأخذ المعنوى قيل إن العشق فساد فى الحب والإرادة

وأما المأخذ المعنوى : فهو أن العشق : هل هو فساد فى الحب والإرادة ، أو فساد فى الإدراك والمعرفة ؟ قيل : إن العشق هو الإفراط فى الحب حتى يزيد على القصد الواجب ، فإذا أفرط كان مذموما فاسدا ، مفسدا للقلب والجسم ، كما قال تعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٢] ، فمن صار [مُفْرِطاً صار مريضا] [(٥)] ، كالافراط فى الغضب والإفراط فى الفرح وفى الحزن .

وهذا الإفراط قد يكون فى محبة الإنسان لصورته ، وقد يكون فى محبته لغير ذلك ، كالإفراط فى حب الأهل والمال ، والإفراط فى الأكل والشرب وسائر أحوال

(١) فى أعلى هذه الصفحة إلى اليسار كتب عبارة كأنها « أصحاب الإمام كذلك التقرب » .

(٢) فى الأصل : أو ما كوله فيها ، وهو تحريف . وأحسب أن الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : أنه يتلجى ، وهو تحريف . والمقصود أنهم يقولون إن الله تعالى يتجلى فى الصور الجميلة .

(٤) فى الأصل : وظلالهم .

(٥) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

الإنسان ، وهذا المعنى ممتنع فى حق الله من الجهتين ، فإن الله لا يُحِبُّ محبة زيادة على العدل . ومحبة عباده المؤمنين له ليس لها حد تنتهى إليه ، حتى تكون الزيادة إفراطا وإسرافا ومجاوزة للقصد . بل الواجب أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه منه كما يكره أن يلقى فى النار » وفى رواية فى الصحيح « لا يجد عبد / حلاوة الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .... » إلى آخره [(١)] ، وقال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » [(٢)] .

ص ١٥٩

وفى الصحيح أن عمر قال له : يا رسول الله والله لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال : « لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك » ، قال : فلأنت أحب إلى من نفسى ، قال : « الآن يا عمر » [(٣)] .

وقد تقدم دلالة القرآن على هذا الأصل بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقيل إن العشق فساد فى الإدراك والتخيل والمعرفة

وقيل : إن العشق هو فساد فى الإدراك والتخيل والمعرفة ؛ فإن العاشق يخيل

---

(١) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه القاعدة ، ص (١٩٨) .

(٢) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه القاعدة ، ص (١٩٨) .

(٣) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه القاعدة ، ص (١٩٨) .

له المعشوق على خلاف ما هو به حتى يصيبه ما يصيبه من داء العشق ، ولو أدركه على الوجه الصحيح لم يبلغ إلى حد العشق ، وإن حصل له محبة وعلاقة .

ولهذا يقول الأطباء : العشق مرض وسواسى شبيه بالمالنخوليا ، فيجعلونه من الأمراض الدماغية التى تفسد التخيل كما يفسده المالنخوليا .

وإذا كان الأمر كذلك امتنع فى حق الله من الجانبين . فإن الله بكل شىء عليم . وهو سميع بصير ، مقدَّس منزَّه عن نقص أو خلل فى سمعه وبصره وعلمه . والمحبون [(١)] له عباده المؤمنون الذين آمنوا به وعرفوه بما تعرَّف به إليهم من أسمائه وآياته ، وما قذفه فى قلوبهم من أنوار معرفته ، فليست محبتهم إياه عن اعتقاد فاسد .

لكن قد يقال : إن كثيرا [(٢)] ممن يكون فيه نوع محبة لله ، قد يكون معها اعتقاد فاسد ، إذ الحب يستتبع الشعور ، لا يستلزم صريح المعرفة ، لا سيما من كان من عقلاء المجانين ، الذين عندهم محبة لله وتألّه ، وفيهم فساد عقل ، فهؤلاء قد يصيب أحدهم ما يصيب العشاق فى حق الله ، ومعهم حب شديد ، ونوع من الاعتقاد والفاسد .

وكثيرا [(٣)] ما يعترى أهل المحبة من السكر والفناء ، أعظم ما يصيب السكران بالخمر ، والسكران بالصور ، كما قال تعالى فى قوم لوط : ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٢] ، فالحب له سكر أعظم من سكر الشراب ، كما قيل :

---

(١) فى الأصل : والمحبوب . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : كثير ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : وكثير .

سُكْرانِ : سكر هوىً وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

ومعلوم أنه فى حال السكر والفناء تنقص المعرفة والتمييز ، ويضطرب العقل والعلم ، / فيحصل فى ضمن ذلك من الاعتقادات والتخيلات الفاسدة ، ما هو من جنس العشق الذى فيه فساد الاعتقاد .

ظ ١٥٩

وهؤلاء محمودون على ما معهم من محبة الله والأعمال الصالحة والإيمان به ، وأما ما معهم من اعتقاد فاسد وعمل فاسد لم يشرعه الله ورسوله ، فلا يُحمدون على ذلك . لكن إن كانوا مغلوبين على ذلك ، بغير تفريط [(١)] منهم ولا عدوان ، كانوا معذورين ، وإن كان ذلك لتفريطهم فيما أمروا به ، وتعديهم حدود الله ، فهم مذنبون فى ذلك ، مثل ما يصيب كثيرا ممن يهيج حبه عند [(٢)] سماع المكاء والتصدية والأشعار الغزلية ، فتتولد لهم أنواع من الاعتقادات والإرادات التى فيها الحق والباطل ، وقد يغلب هذا تارة وهذا تارة .

فباب محبة الله ضل فيه فريقان من الناس : فريق من أهل النظر والكلام والمنتسبين إلى العلم ، جحدوها وكذَّبوا بحقيقتها .

وفريق من أهل التعبد والتصوف والزهد ، أدخلوا فيها من الاعتقادات والإرادات الفاسدة ما ضاهوا [(٣)] بها المشركين .

فالأولون يشبهون المستكبرين . وهؤلاء يشبهون المشركين .

ولهذا يكون الأول فى أشباه اليهود ، ويكون الثانى فى أشباه النصارى .

وقد أمرنا الله تعالى أن نقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمَسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّين ﴾ .

---

(١) فى الأصل : تفرط .

(٢) فى الأصل : عن .

(٣) فى الأصل : طاهو ، وهو تحريف .

فصل

كل محبة وبغضة يتبعها لذة وألم

ومن المعلوم أن كل محبة وبغضة فإنه يتبعها لذة وألم ، ففى نيل المحبوب لذة ، وفراقه يكون فيه ألم ، وفى نيل المكروه ألم ، وفى العافية منه تكون فيه لذة . فاللذة تكون [١] بعد إدراك المشتهى [٢] ، والمحبة تدعو [٣] إلى إدراكه .

فالمحبة : العلة الفاعلة لإدراك الملائم المحبوب المشتهى . واللذة والسرور هى الغاية .

اللذات ثلاثة أجناس الأول : اللذة الحسية

واللذات الموجودة فى الدنيا ثلاثة أجناس : فجنس بالجسد تارة : كالأكل والنكاح ونحوهما مما يكون بإحساس الجسد ، فإن [أنواع] [٤] المأكول والملبوس يباشرها الجسد .

الثانى : اللذة الوهمية

و [جنس] يكون [٥] مما يتخيله ويتوهمه بنفسه ونفس غيره ، كالمدح له ، والتعظيم له ، والطاعة له . / فإن ذلك لذيذ محبوب له ، كما أن فوات الأكل والشرب يؤلمه ، وأكل ما يضره يؤلمه . وكذلك فوات الكرامة - بحيث لا يكون له قدر عند أحد ولا منزلة - يؤلمه ، كما يؤلمه ترك الأكل والشرب . ويؤلمه الذم والإهانة ، كما يؤلمه الأكل والشرب الذى يضره .

ص ١٦٠

فالمأكول والمنكوح هى أجساد تُنال بالجسد ، يتلذذ بوجودها ، ويتألم بفقدها ولحصول ما يضر منها [٦] . وأما الكرامة فهى فى النفوس إذا كانت النفوس

---

(١) فى الأصل : يكون .
(٢) فى الأصل : المنتهى ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : يدعوا .
(٤) زدت « أنواع » ليستقيم الكلام .
(٥) فى الأصل : ويكون .
(٦) فى الأصل : ما يصير منها .

ملائمة له وموافقة له ، بأن يعتقد فيه ما يسره ويوافقه بالمحبة والتعظيم ، كان ذلك مما يوجب لذته ، ولذته بإدراكه ذلك الملائم من الناس ، ومدحهم المظهر لاعتقادهم ، ومن طاعتهم وموافقتهم المظهرة لمحبتهم [١] وتعظيمهم .

الثالث : اللذة العقلية

والجنس الثالث أن يكون ما يعلمه بقلبه وروحه وبعقله كذلك [٢] ، كالتلذاذه [٣] بذكر الله ، ومعرفته ، ومعرفة الحق ، وتألمه بالجهل : إما البسيط [٤] ، وهو عدم الكلام والذكر ، وإما المركب وهو اعتقاد الباطل ، كما يتألم الجسد بعدم غذائه [٥] تارة ، وبالتغذى بالمضار أخرى .

كذلك النفس تتألم بعدم غذائها [٦] ، وهو [٧] موافقة الناس وإكرامهم تارة ، وبالتغذى [٨] بالضد ، وهو [٩] مخالفتهم وإهانتهم . فكذلك القلب يتألم بعدم غذائه ، وهو العلم [١٠] الحق وذكر الله تارة ، والتغذى بالضد ، وهو ذكر الباطل واعتقاده أخرى .

قال النبى ﷺ : « إن كل أحد يحب أن تؤتى مأدبته ، وإن مأدبة الله هى القرآن » [١١] .

---

(١) فى الأصل : المظهر ومحبتهم .
(٢) فى الأصل : بذلك .
(٣) فى الأصل : كالتلذاذ .
(٤) فى الأصل : البسيطة .
(٥) فى الأصل : غذاه .
(٦) فى الأصل : عذابها .
(٧) فى الأصل : وهى .
(٨) فى الأصل : وبالتعدى .
(٩) فى الأصل : وهى .
(١٠) فى الأصل : المعلم .
(١١) لم أجد حديثا بهذه الألفاظ ، ولكنى وجدت أثراً عن عبد الله بن مسعود فى : سنن الدارمى =

وهذه اللذات الثلاث : اللذات الحسية ، والوهمية ، والعقلية . وقد علمت أن كل ما خلقه الله فى الحى من قوى الإدراك والحركة فإنما خلقه لحكمة ، وفى ذلك من جلب المنفعة للحى ، ودفع المضرة عنه ، ما هو من عظيم نعم الله عليه .

والله سبحانه بعث الرسل لتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويلها وتغييرها ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، والله شرع من الدين ما فيه استعمال هذه القوى على وجه العدل والاعتدال ، الذى فيه صلاح الدنيا والآخرة .

ومن المعلوم أن قوى الحركة فى الجسد ، التى هى حركات طبعية ، متى لم تكن [1] على وجه الاعتدال ، وإلا فسد الجسد . وكذلك قوى الإدراك والحركة التى فيه وفى النفس متى لم تكن [2] على وجه الاعتدال ، وإلا فسد الجسد . والحركة الطبعية ليس فيها حس ولا إرادة ، وهذه / لا تكون عن حركة إرادية كما تقدم ، لكن لا يكون ذلك فى نفس المتحرك بطبعه [3] ، كحركة الغذاء قبل أن يصرفه الخارج من السبيلين وغير ذلك .

ظ ١٦٠

= ٤٣٣/٢ (كتاب فضائل القرآن ، باب فضل من قرأ القرآن) ونصه : « عن ابن مسعود قال : ليس من مؤدب إلا وهو يحب أن يؤتى أدبه ، وإن أدب الله القرآن » . وجاءت آثار أخرى عن ابن مسعود منها ما ذكره الدارمى فى الموضع السابق : كان عبد الله يقول : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فمن دخل فيه فهو آمن » . ومنها أثر آخر عنه فى سنن الدارمى ٤٢٩/٢ أوله : « إن هذا القرآن مأدبة الله فخذوا منه ما استطعتم .... » ومنها جزء من أثر طويل جاء فى مجمع الزوائد للهيثمى ١٦٤/٧ أوله : وعن عبد الله – يعنى ابن مسعود – قال : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبة الله ما استطعتم » ، وفى نفس المكان أورد الهيثمى أثرا ثانيا أوله : « وعن أبى الأحوص قال : قال ابن مسعود : هذا القرآن مأدبة الله ، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئا فليفعل .... » .

(١) فى الأصل : يكن .

(٢) فى الأصل : فى من لم يكن .

(٣) فى الأصل : بطبعية .

شرع الله من اللذات ما فيه صلاح حال الإنسان وجعل اللذة التامة فى الآخرة

والله سبحانه قد شرع من هذه اللذات ما فيه صلاح حال الإنسان فى الدنيا [١] ، وجعل اللذة التامة بذلك فى الدار الآخرة ، كما أخبر الله بذلك على ألسن رسله بأنها هى دار القرار ، وإليها تنتهى حركة العباد .

واللذة هى الغاية من الحركات الإرادية ، فتكون الغاية من اللذات عند الغاية من الحركات ، ولا يخالف ما يوجد فى الوسيلة والطريق ، فإن الموجود فيها من اللذات بقدر ما يعين على الوصول إلى المقصود التام ، وكل لذة ، وإن جلَّت ، هى فى نفسها مقصودة لنفسها ، إذ المقصود لنفسه هو اللذة . لكن من اللذات ما يكون عونا على ما هو أكثر منه أيضا ، فيكون مقصوداً لنفسه بقدره ، ويكون مقصودا لغيره بقدر ذلك الغير ، وهذا من تمام نعمة الله على عباده ، وكل ما يتنعمون به ، إذا استعملوه على وجه العدل الذى شرعه ، أوصلهم به إلى ما هو أعظم نعمة منه .

ولذات الجنه أيضا تتضاعف وتتزايد كما يشاء الله تعالى ، فإن الله يقول ، كما ذكره النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » [٢] وقد قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [سورة السجدة : ١٧] .

---

(١) فى الأصل : قد شرع الدنيا من ... فى الدنيا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى صحيح البخارى ١٤٤/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى « يريدون أن يبدلوا كلام الله ») ، ١١٨/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة) ، ١١٦/٦ (كتاب تفسير القرآن ، باب تفسير سورة تنزيل السجدة) . وأول الحديث فى هذا الموضع الأخير : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى .... والحديث فى : مسلم ٢١٧٤/٤ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) فى أربعة مواضع ؛ سنن الترمذى ٢٦/٥ (كتاب التفسير ، باب تفسير سورة السجدة) ؛ سنن ابن ماجة ١٤٤٧/٢ (كتاب الزهد ، باب صفة الجنة) ؛ سنن الدارمى ٣٣٥/٢ (كتاب الرقائق ، باب ما أعد الله لعباده الصالحين) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٦/١٧ ، ١٠٤/١٩ .

ولهذا بعث الله الرسل مبشِّرين ومنذرين : مبشِّرين بنعمة الله التامة فى جنته لمن أطاعهم ، فاتّبع الذكر الذى أنزل عليهم ، واستعمل [(١)] القسط الذى بعثوا به . ومنذرين بتعظيمهم عقاب الله لمن أعرض عن ذلك وعصاهم فكان من الظالمين .

قال تعالى : ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٨ ، ٣٩] .

غلط المتفلسفة ومن اتبعهم فى أمر هذه اللذات

وقد غلطت المتفلسفة من الصابئة والمشركين ونحوهم ، ومن حذا حذوهم ممن صنّف فى أصناف هذه اللذات ، كالرازى [(٢)] وغيره فى أمر هذه اللذات فى الدنيا والآخرة ، حتى جرَّهم ذلك الغلط إلى الدين الفاسد فى الدنيا بالاعتقادات الفاسدة ، والعبادات والزهادات الفاسدة ، وإلى التكذيب بحقيقة ما أخبر الله به على ألسن رسله من وعده ووعيده ، / فصاروا تاركين لما ينفعهم من لذات الدنيا ، معرضين عما خلقوا له من لذات الآخرة ، ومعتاضين عن ذلك بأخذ ما يضرهم مما يظنون أنه لذة فى الدنيا ، أو موصل للذة فى الدنيا ، وهم فى ذلك : ﴿ إن

ص ١٦١

---

(١) فى الأصل : واستعمال .

(٢) لفخر الدين الرازى كتاب « أقسام اللذات » ومنه نسخة خطية فى برلين وأخرى فى أفغانستان . انظر : محمد صالح الزركان : فخر الدين الرازى وآراؤه الكلامية والفلسفية ، ص ٧٨ – ٧٩ ، ط . دار الفكر ، بيروت .

يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِهِمُ الْهُدَى ﴾ [سورة النجم : ٢٣] ، فجهلوا المقاصد والوسائل ، فكانوا ضالين يقصدون ما ينفعهم ويلذهم ، وهم لا يعرفون عين مقصودهم ولا الطريق إليه ، وصار عامتهم غواة منهمكين فى اللذات التى تضرهم .

ضل الأنصارى كذلك فى أمر اللذات

والنصارى ضارعوهم فى بعض ذلك حين كذّبوا بكثير مما وعدوا به فى الآخرة من اللذات ، وضلّوا بما ابتدعوه من العبادات ، فكانوا ضالين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] ، ولهذا يغلب على عوامهم الغىّ واتباع شهوات الغى ، إذ لم يحرموا عليهم شيئا من المطاعم والمشارب .

اليهود أعلم لكنهم غواة قساة

وأما اليهود فهم أعلم بالمقصود وطريقه ، لكنهم غواة قساة ، مغضوب عليهم .

ويتبين ذلك بأصلين : أحدهما أنهم [(١)] اعتقدوا أن اللذات الحسية والوهمية ليست لذات فى الحقيقة ، وإنما هى دفع آلام ، وربما حسّنوا العبارة [(٢)] فقالوا : ليس المقصود بها التنعم ، وإنما المقصود بها دفع الألم ، بخلاف اللذات العقلية الروحانية ، فإنها هى اللذات فقط ، وهى المقصودة [(٣)] لذاتها فقط ، وعن هذا يدفعون أن تكون للنفوس بعد مفارقة الدنيا لذات حسية ، أو وهمية ، وإنما يكون لها لذات روحانية فقط .

---

(١) الكلام فيما يلى على الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام .
(٢) فى الأصل : العارة .
(٣) فى الأصل : المقصود .

تفصيل مقالة الفلاسفة فى اللذة

ثم إن من دخل مع أهل الملل منهم وافق [١] المؤمنين بإظهاره للإقرار بما جاءت به الرسل ، وقال : إن ما [٢] أخبرت به الرسل من الوعد والوعيد إنما هو أمثال مضروبة لتفهم العامة المعاد الروحانى ، وما فيه من اللذة والألم الروحانيين ، وربما يغرب بعضهم فأثبت اللذات الخيالية ، بناءً على أن النفوس يمكن أن يحصل لها من إشراق الافلاك [عليها] [٣] ما يحصل لها به من اللذة ما هو من أعظم اللذات الخيالية ، التى قد يقولون : هى أعظم من الحسية .

ظ ١٦١

الأصل الثانى : / أن اللذات العقلية التى أقرُّوا بها لم تحصل لهم ، ولم يعرفوا الطريق إليها ، بل ظنوا أن ذلك إنما [هو] [٤] إدراك الوجود المطلق بأنواعه وأحكامه ، وطلبوا اللذة العقلية فى الدنيا بما هو من هذا النمط من الأمور العقلية ، وتكلموا فى الإلٰهيات بكلام حقه قليل وباطله كثير ، فكانوا طالبين للذة العقلية التى أثبتوها بالأغذية الفاسدة التى تضر وتؤلم ، أكثر من طلبها بالأغذية النافعة ، بل كانوا فاقدين لغذائها الذى لا صلاح لها إلا به ، وهو إخلاص الدين لله ، بعبادته [٥] وحده لا شريك له ، فإن هذا هو خاصة النفس التى خلقت له ، لا تصلح [إلا] [٦] به ، ولا تفسد [٧] فساداً مطلقا مع وجوده قط ، بل من بات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة .

كما ثبت ذلك فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال من وجوه متعددة — من

---

(١) فى الأصل : باسو (بدون نقط) ولعل الصواب ما أثبته . والكلام هنا على الفلاسفة .
(٢) فى الأصل : وقال بما . ولعل الصواب ما أثبته .
(٣) فى الأصل : يمكن أن يجعل لها من احترام الأفلاك ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .
(٤) زدت « هو » ليستقيم الكلام .
(٥) فى الأصل : بعباده .
(٦) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .
(٧) فى الأصل : يفسد .

حديث عثمان بن عفان ، وأبى ذر ، ومعاذ بن جبل ، وأبى هريرة وعتبان بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وغيرهم - : ولا يخلد فى النار من أهل التوحيد أحد ، بل يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان أو مثقال شعيرة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان [1] .

وقد تكلمت على رسالة المبدأ والمعاد التى صنفها أبو على بن سينا [2] ، وزعم أن فيها من الأسرار المخزونة من فلسفتهم بما يناسب هذا مما ليس هذا موضعه ، وبينت ما دخل عليهم من الجهل والكفر فى ذلك من وجوه بيّنة من لغاتهم ومعارفهم التى يفقهون بها ، ويعلمون صحة ما عليه أهل الإيمان بالله ورسوله ، وبطلان ما هم عليه مما يخالف ذلك من الحقيقة ، وإن زعموا أنهم موافقون لأهل الإيمان .

نعم هم مؤمنون ببعض ، وكافرون ببعض ، كما قد بيّنت أيضا مراتب ما معهم ومع غيرهم من الكفر والإيمان فى غير هذا الموضع ، وذكرت ما كفروا به مما خالفوا به الرسل ، وما آمنوا به مما وافقوهم [فيه] [3] .

---

(١) جاءت أحاديث كثيرة عن النبى ﷺ فيها تصديق لما ذكره ابن تيمية هنا . انظر مثلا قوله ﷺ من حديث أنس بن مالك : « .... فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فاخرجوه ... فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ... » فى : البخارى ٩/١٣٠ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة ....) وهو بمعناه فى مسلم ١/١٦٩ - ١٧٠ (كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية) . وانظر قوله ﷺ من حديث آخر لأنس بن مالك : « .... فمن كان فى قلبه مثقال حبة من بُرَّة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها ...) فى : مسلم ١/١٨٣ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها) . وانظر : المسند (ط . المعارف) ٤/٢٤٣ ، (ط . الحلبى) ٣/١٧ ، ٩٤ - ٩٥ ، ١١٦ ؛ سنن ابن ماجة ١/٢٣ ، ٢/١٤٤٣ .

(٢) وهى « الرسالة الأضحوية فى أمر المعاد » حققها الدكتور سليمان دنيا ، ط . دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٣٦٨/١٩٤٩ وقد تكلم عليها ابن تيمية فى « درء تعارض العقل والنقل » انظر جـ ١ ص ٩ ، جـ ٥ ص ١٠ - ١٧ ، ص ٥٠ .

(٣) زدت « فيه » ليستقيم الكلام .

ص ١٦٢ فإن الله أمرنا بالعدل ، وأمرنا / أن نعدل بين الأمم ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [سورة الشورى : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] .

فصل

حب الله أصل التوحيد العملى

وإذا كان أصل الإيمان العملى هو حب الله تعالى ورسوله ﷺ ، وحب الله أصل التوحيد العملى ، وهو أصل التأليه ، الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة ، مع أكمل أنواع الخضوع ، وهذا هو الإسلام .

وأعظم الذنوب عند الله الشرك به ، وهو سبحانه لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، والشرك : منه جليل ودقيق ، وخفى وجلى .

كما فى الحديث : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله : إذا كان أخفى من دبيب النمل فكيف نصنع به ؟ أو كما قال ، فقال : ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره ؟ قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما [لا] (١) أعلم » (٢) .

---

(١) لا : ساقطة من الأصل ، وزدتها لأنها من ألفاظ الحديث .

(٢) لم أجد حديثا عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه بهذا المعنى ولكنى وجدت فى مسند الإمام أحمد ٤/٤٠٣ (ط . الحلبى) حديثا آخر عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ونصه : « .... عن أبى على رجل من بنى كاهل قال : خطبنا أبو موسى الأشعرى فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل . فقام إليه عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لتأتين عمر =

أصل الإشراك العملى بالله الإشراك فى المحبة

فمعلوم أن أصل الإشراك العملى بالله الإشراك فى المحبة ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، فأخبر أن من الناس من يشرك بالله ، فيتخذ أندادا يحبونهم كما يحبون الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء ، والمؤمنون أشد حبا لله من هؤلاء لأندادهم ولله ، فإن هؤلاء أشركوا بالله فى المحبة ، فجعل المحبة مشتركة بينه وبين الأنداد ، والمؤمنون أخلصوا دينهم لله الذى أصله المحبة لله ، فلم يجعلوا لله عدلا فى المحبة ، بل كان الله ورسوله أحب إليهم [(١)] مما سواهما ، ومحبة الرسول هى من محبة الله ، وكذلك كل حب فى الله ، وهو الحب لله .

المؤمنون يحبون لله ويبغضون لله

كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » [(٢)] وفى رواية فى الصحيح « لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار » [(٣)] .

وهذا / فى الحديث : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، ظ ١٦٢

= مأذون لنا أو غير مأذون . قال : بل أخرج مما قلت . خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل » . فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم » .

(١) فى الأصل : إليه .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

(٣) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

فقد استكمل الإيمان »[١] وفى الأثر : ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه . لأن هذه المحبة من محبة الله ، وكل من كانت محبته لله أشد كان أفضل .

وخير الخلق محمد رسول الله ﷺ ، وخير البرية بعده إبراهيم ، كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح ، وكل منهما خليل الله .

والخُلَّة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، ولهذا لم يصلح لله شريك فى الخلة ، بل قال ﷺ فى الحديث الصحيح : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله »[٢] وفى لفظ : « أنا أبرأ إلى كل خليل من خلته »[٣] .

فمحبة ما يحبه الله لله من الأعيان والأعمال من تمام محبة الله ، وهو الحب فى الله ولله ، وإن كان كثير من الناس يغلط فى معرفة كثير من ذلك أو وجوده ، فيظن فى أنواع من المحبة أنها محبة لله ، ولا تكون لله ، ويظن وجود المحبة لله فى أمور ، ولا تكون المحبة لله موجودة ، بل قد يعتقد وجود المحبة لله وتكون معدومة ، وقد يعتقد فى بعض الحب أنه لله ، ولا يكون لله ، كما يعتقد وجود العلم أو العبادة

---

(١) الحديث عن أبى أمامة رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٣٠٤/٤ (كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) وهو – بألفاظ مقاربة – عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه فى سنن الترمذى ٧٨/٤ (كتاب صفة القيامة ، باب منه) وقال الترمذى : هذا حديث منكر حسن . ؛ وهو فى المسند عنه (ط. الحلبى) ٤٣٨/٣ ، ٤٤٠ . وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » ٢٢٩/٥ وقال : « د (سنن أبى داود) والضياء عن أبى أمامة » .

(٢) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٣٩) .

(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ٣٦/١ (المقدمة ، باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ) ونصه : قال رسول الله ﷺ : « ألا إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، إن صاحبكم خليل الله » . قال وكيع : يعنى نفسه .

أو غير ذلك من الصفات فى بعض الأشخاص والأحوال ، ولا يكون ثابتا ، وقد يعتقد فى كثير من الأعمال أنه معمول لله ، ولا يكون لله .

فمحبة ما يحبه الله من الأعمال الباطنة والظاهرة ، وهى الواجبات والمستحبات : إذا أحببت لله كان ذلك من محبة الله ، ولهذا يوجب ذلك محبة الله لعبده .

وكما فى الحديث الصحيح عن الله تعالى : « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به [(١)] ، وبصره الذى يبصر به [(١)] ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، / وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه » [(٢)] . ص ١٦٣

وكذلك محبة كلام الله وأسمائه وصفاته ، كما فى الحديث الصحيح : فى الذى كان يصلِّى بأصحابه فيقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : إما أن يقرأها وحدها ، أو يقرأ بها مع سورة أخرى . فأخبروا بذلك النبى ﷺ ، فقال : « سلوه : لِمَ يفعل ذلك ؟ فقال : لأنى أحبها ، فقال : [إن] حبك [إياها أدخلك الجنة] » [(٣)] .

---

(١) فى الأصل : بها ، وهو تحريف .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ٢٦ – ٢٧) .

(٣) فى الأصل : فقال : حبكا . والصواب ما أثبته ، وهو لفظ الحديث فى سنن الترمذى ٣٤٤/٤ . وقد جمع ابن تيمية هنا بين حديثين الأول عن عائشة رضى الله عنه ونصه فى : البخارى ١١٥/٩ (كتاب التوحيد ، باب ما جاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى) : « عن عائشة أن النبى ﷺ بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته فيختم بقل هو الله أحد . فلما =

وكذلك محبة ملائكة الله وأنبيائه وعباده الصالحين ، كما كان عبد الله بن عمر يدعو بالمواقف فى حجه فيقول : « اللهم اجعلنى أحبك ، وأحب ملائكتك ، وأنبياءك [1] وعبادك الصالحين ، اللهم حببنى إليك وإلى ملائكتك أنبيائك وعبادك الصالحين » .

محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات

بل محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] ، فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالى على عباده وأحبه ، وهو سبحانه أعظم شئ بغضا لمن لم يتبع رسوله . فمن كان صادقا فى دعوى محبة الله اتّبع رسوله لا محالة ، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

الذنوب تنقص من محبة الله

والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك ، لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة فى القلب ، ولم تكن الذنوب عن نفاق . كما فى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب : حديث حمار الذى كان يشرب الخمر ، وكان النبى ﷺ يقيم عليه الحد ، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل ، فقال النبى ﷺ :

= رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : « سلوه لأى شىء يصنع ذلك ؟ » فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمنُ ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبى ﷺ : أخبروه أن الله يحبه » . وهذا الحديث جاء أيضا فى : مسلم ٥٥٧/١ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها : باب فضل قراءة قل هو الله أحد) ؛ سنن النسائى ١٣٢/٢ (كتاب الافتتاح ، باب الفضل فى قراءة قل هو الله أحد) . وأما الحديث الثانى فهو عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وقد أورده الترمذى مرتين فى سننه ٢٤٣/٤ - ٢٤٤ ونص الرواية المختصرة : « عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله : إنى أحب هذه السورة : قل هو الله أحد . قال : إن حبك إياها أدخلك الجنة » .

(١) فى الأصل : وأنبيائك ، وهو خطأ .

« لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » (١) . وفيه دلالة على أنا منهيون / عن لعنة أحد بعينه ، وإن كان مذنبا ، إذا كان يحب الله ورسوله . ظ ١٦٣

فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات ، وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات ، والمعاصى تنقض المحبة ، وهذا معنى قول الشبلى (٢) لما سئل عن المحبة ، فقال ما غنَّت به جارية فلان :

تعصى الإله وأنت تزعم حبه هذا محال فى القياس شنيع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع (٣)

وهذا كقوله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (٤) وقد تكلمنا على هذا فى غير هذا الموضع .

---

(١) الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى : البخارى ١٥٨/٨ (كتاب الحدود ، باب ما يكره من لَعْن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة) .

(٢) هو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى ، من أئمة الصوفية ، ولد سنة ٢٤٧ وتوفى سنة ٣٣٤ ببغداد ، تفقه على مذهب الإمام مالك ، وصحب الجنيد . انظر ترجمته وأقواله فى : الرسالة القشيرية ١٤٨/١ - ١٤٩ ؛ صفة الصفوة ٢٥٨/٢ - ٢٦١ (وذكر الخلاف فى اسمه واسم أبيه) ؛ حلية الأولياء ٣٦٦/١٠ - ٣٧٥ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٣٣٧ - ٣٤٨ ؛ تاريخ بغداد ٣٨٩/١٤ - ٣٩٧ ؛ المنتظم ٣٤٧/٦ - ٣٤٩ ؛ الأعلام ٢٠/٣ - ٢١ .

(٣) نسب أبو حامد الغزالى هذين البيتين إلى عبد الله بن المبارك فى الإحياء ١٠٣/١٤ (ط . لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٧) ورواهما :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ونسب الدكتور محمد مصطفى حلمى رحمه الله البيتين إلى رابعة العدوية فى كتابه « الحياة الروحية فى الإسلام ، ص ٧٧ ، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٦٤/١٩٤٥ .

(٤) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه - مع اختلاف فى الألفاظ - فى : البخارى ١٣٦/٣ =

والمقصود هنا أن نفرق بين الحب فى الله ولله ، الذى هو داخل فى محبة الله ، وهو من محبته [١] ، وبين الحب لغير الله الذى فيه شرك فى المحبة لله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، فإن هؤلاء يشركون بربهم فى الحب ، عادلون به ، جاعلون له أندادا . وأولئك أخلصوا دينهم لله ، فكان حبهم الذى هو أصل دينهم كله لله ، وهذا هو الذى بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، وأمر بالجهاد عليه .

كما قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] . ص ١٦٤

وقد عُلم أن محبة المؤمنين لربهم أشد من محبة هؤلاء المشركين لربهم ولأندادهم ، ثم إن اتخاذ الأنداد هو [٢] من أعظم الذنوب ، كما فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك .

= (كتاب المظالم ، باب النهبى بغير إذن صاحبه) ، ١٠٤/٧ (كتاب الأشربة ، باب إنما الخمر والميسر ...) ، ١٥٧/٨ (كتاب الحدود ، باب لا يشرب الخمر) ، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) ؛ مسلم ٧٦/١ ، ٧٧ (كتاب الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ....) ؛ سنن أبى داود ٣٠٦/٤ (كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) ؛ سنن الترمذى ١٢٧/٤ (كتاب الإيمان ، باب لا يزنى الزانى وهو مؤمن) ؛ سنن ابن ماجة ١٢٩٨/٢ - ١٢٩٩ (كتاب الفتن ، باب النهى عن النهبة) ؛ سنن الدارمى ١١٥/٢ (كتاب الأشربة ، باب فى التغليظ لمن شرب الخمر) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤١/١٣ .

(١) كلمة « محبته » غير واضحة فى الأصل وكذا استظهرتها .

(٢) فى الأصل : هى .

قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تزانى بحليلة جارك » ، فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ [سورة الفرقان : ٦٨] (١) ، فدعاء إلٰه (٢) آخر مع الله هو اتخاذ ندٍّ من دون الله ، يحبه كحب الله ، إذ أصل العبادة المحبة .

والمحبة وإن كانت جنسا تحته أنواع ، فالمحبوبات المعظَّمة (٣) لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد ، كقوله ﷺ فى الحديث الصحيح : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أُعطِىَ رضى ، وإن مُنع سخط » (٤) .

فسمَّى هؤلاء الأربعة [الذين] إن أُعطوا رضوا ، وإن مُنِعوا سخطوا — لأنها محبتهم ومرادهم — عباداً لها (٥) ، حيث قال : عبد الدرهم ، وعبد الدينار ، وعبد القطيفة ، وعبد الخميصة .

---

(١) الحديث — بألفاظ متقاربة — عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ١٨/٦ (كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب قوله تعالى : فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) ، ٨/٨ (كتاب الأدب ، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه) ، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) ، ١٥٢/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : فلا تجعلوا لله أنداداً) ؛ مسلم ٩٠/١ ، ٩١ (كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب) ؛ سنن الترمذى ١٧/٥ — ١٨ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الفرقان) ؛ سنن أبى داود ٣٩٤/٢ (كتاب الطلاق ، باب فى تعظيم الزنا) ؛ سنن النسائى ٨٢/٧ — ٨٣ (كتاب التحريم ، باب ذكر أعظم الذنب) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٧/٥ ، ٧٦/٦ ، ٨٦ — ٨٧ .

(٢) فى الأصل : إلٰهاً ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : المعضمة ، وهو تحريف .

(٤) الحديث — مع اختلاف فى اللفظ — عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٣٤/٤ (كتاب الجهاد ، باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله) ؛ سنن ابن ماجه ١٣٨٦/٢ (كتاب الزهد ، باب فى المكثرين) وهو فى موضعين .

(٥) فى الأصل العبارة مضطربة هكذا : فسمى هؤلاء إن أعطوا رضوا وإن منعوا سخطوا لأنها محبتهم ومرضاهم إلى هذه الأتبعة عبادا لها ، ولعل الصواب ما أثبته .

مراتب العشق

فإذا كان الإنسان مشغوفا بمحبة بعض المخلوقات لغير الله ، الذى يرضيه وجوده ، ويسخطه عدمه — كان فيه من التعبد بقدر ذلك . ولهذا يجعلون العشق مراتب مثل : العلاقة ، ثم الصبابة ، ثم الغرام ، ويجعلون آخره التتيم : والتتيم : التعبد ، وتيم الله : هو عبد الله . فيصير العاشق لبعض الصور عبداً لمعشوقه .

ذكر الله العشق فى القرآن عن المشركين

والله سبحانه إنما ذكر هذا العشق فى القرآن عن المشركين ، فإن العزيز وامرأته وأهل مصر كانوا مشركين ، كما قال لهم يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ وَاتَّبَعتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَىْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ۞ يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٧ — ٤٠] .

ظ ١٦٤

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُم فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُم لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۞ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٤ ، ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة يوسف : ٣٠] .

وأما يوسف عليه السلام فإن الله ذكر أنه عصمه بإخلاصه الدين لله ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] ، فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء والفحشاء . ومن السوء عشقها ومحبتها ، ومن الفحشاء الزنا ، وقد يزنى بفرجه من لا يكون عاشقا ، وقد يعشق من لا يزنى بفرجه ، والزنا بالفرج أعظم من الإلمام بصغيرة كنظرة وقبلة .

وأما الإصرار على العشق ولوازمه : من النظر ونحوه ، فقد يكون أعظم من الزنا الواحد بشىء كثير ، والمخلصون يصرف الله عنهم السوء والفحشاء ، ويوسف عليه السلام كان من المخلصين ، حيث كان يعبد الله ، لا يشرك به شيئا ، وحيث توكّل على الله ، واستعان به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة يوسف : ٣٣ ، ٣٤] .

وهذا تحقيق قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٨ – ١٠٠] ، فأخبر سبحانه أن المتوكلين على الله ليس للشيطان عليهم سلطان ، وإنما سلطانه على المتولّين له ، والمتولى من الولاية ، وأصله المحبة والموافقة ، كما أن العداوة أصلها البغض والمخالفة . فالمتولّون [١] له هم الذين يحبون ما يحبه الشيطان ويوافقه ، فهم مشركون [٢] به حيث أطاعوه وعبدوه بامتثال أمره ، كما قال تعالى :

المتولون للشيطان هم الذين يحبون ما يحبه

(١) فى الأصل : فالمتولين ، وهو خطأ .
(٢) فى الأصل : مشركين ، وهو خطأ .

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة يس : ٦٠ ، ٦١] .

والشياطين شياطين الإنس والجن ، والعبادة فيها الرغبة والرهبة . قال تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة صٓ : ٧٥ – ٨٥] فأقسم الشيطان ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

ص ١٦٥

وقد أخبر الله أنه ليس له سلطان على هؤلاء [1] فقال فى الحجر : ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [سورة الحجر : ٣٤ ، ٣٥] ، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠] قال تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] .

وقوله ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ استثناء منقطع فى أقوى القولين ، إذ العباد هم العابدون ، لا المعبودون . كما قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ﴾ [سورة الفرقان : ٦٣] .

---

(١) فى أعلى ص ١٦٥ كتب إلى اليسار منها : « الثالث » .

وقال تعالى : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ [سورة الإنسان : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۞ يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَومَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۞ الّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الزخرف : ٦٧ – ٦٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [سورة الجن : ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [سورة الإسراء : ١] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ ﴾ [سورة صٓ : ٤٥] .

عباد الله المخلصون ليس للشيطان عليهم سلطان

وإذا كان عباد الله المخلصون ليس له [1] عليهم سلطان ، وأن سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وقد أقسم أن يغويهم إلا عباد الله المخلصين ، وأخبر الله أن سلطانه ليس على عباد الله ، بل على من اتبعه من الغاوين .

والغىُّ : اتّباع الأهواء والشهوات ، وأصل ذلك أن الحب لغير الله كحب الأنداد ، وذلك هو الشرك ، قال الله تعالى فيه : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٠٠] ، فبيّن أن صاحب الإخلاص ، مادام صادقا فى إخلاصه ، فإنه يعتصم من هذا الغى وهذا الشرك ، وإن الغى هو يضعف الإخلاص ، ويقوّى هواه [2] الشرك . فأصحاب

---

(١) أى للشيطان .

(٢) أى هوى الإنسان .

العشاق يتولون الشيطان ويشركون به

العشق ، الذى يحبه الشيطان ، فيهم من تولّى الشيطان ، والإشراك به بقدر ذلك ، لما فاتهم من إخلاص المحبة لله ، والإشراك بينه وبين غيره فى المحبة ، حتى يكون فيه نصيب / من اتّخاذ الأنداد ، وحتى يصيروا عبيداً لذلك المعشوق ، فيفنون فيه [١] ويصرحون بأنّا عبيد له [٢] ، فيوجد فى هذا الحب والهوى ، واقتراف [٣] ما يبغضه الله ، وما حرَّمه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، فيوجد فيه من الشرك الأكبر والأصغر ، ومن قتل النفوس بغير حق ، ومن الزنا ، ومن الكذب ، ومن أكل المال بالباطل ، إلى غير ذلك ما ينتظم هذه الأصناف التى يكرهها [٤] الله تعالى ، لأن أصله أن يكون حبه كحب الله ، وهو من ترك [٥] إخلاص المحبة ، ومن الإشراك بينه وبين غيره ، أو من جعل المحبة لغير الله ، فإذا عمل موجب ذلك ، كان ذلك هو اتّباع الهوى بغير هدىً من الله .

ظ ١٦٥

وفى الأثر : ما تحت أديم السماء إلٰه يعبد أعظم عند الله من هوى متبع . قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٤٣ ، ٤٤] .

ولهذا لا يبتلى بهذا العشق إلا من فيه نوع شرك فى الدين ، وضعف إخلاص لله . وسبب هذا ما ذكره بعضهم فقال : إنه ليس شىء من

---

(١) فى الأصل : فينمى فيه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بأنا عبيداً له ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : واجتناب ، وهو خطأ ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : التى يكرهه ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : لأن أصله ما حبه كحب الله هو من ترك .... إلخ . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

المحبوبات يستوعب محبة القلب إلا محبة الله أو محبة بشر مثلك . أما محبة الله فهى التى خُلق لها العباد ، وهى سعادتهم ، وقد تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع .

وأما البشر المتماثل ، من ذكر أو أنثى ، فإن فيه من المشاكلة والمناسبة ما يوجب أن يكون لكل شيء من الحب نصيب من المحبوب يستوعبه حبه ، ولهذا لا يُعرف لشيء (١) من المحبوبات التى تُحب لغير الله من الاستيعاب ما يعرف لذلك ، حتى يُزيل العقل ، ويُفقد الإدراك ، ويُوجب انقطاع الإرادة لغير ذلك المحبوب ، ويوجب مرض (٢) الموت ، وإنما يعرض هذا كله لضعف ما فى القلب من حب الله وإخلاص الدين له ، عبادةً واستعانةً ، فيكون فيه من الشرك ما يسلِّط الشيطان عليه ، حتى يغويه بهذا الغى ، الذى فيه من تولِّى الشيطان والإشراك به ، ما يتسلط به الشيطان .

ولهذا قد يطيع هذا المحب لغير الله محبوبه أكثر (٣) مما يطيع الله ، حتى يطلب القتل فى سبيله ، كما يختار المؤمن القتل فى سبيل الله ، وإذا كان محبوبه مطيعه من وجه وعبدا له ، [فهو أولى] (٤) بأن / يكون هو مطيعه وعبدا له من وجه آخر . ص ١٦٦

وإذا كان النبى ﷺ قال : « شارب الخمر كعابد وثن » (٥) . ومرّ علىّ

(١) فى الأصل : شيء . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : لمرض . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : لمحبوبه أو أكثر ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) زدت عبارة « فهو أولى » ليستقيم الكلام .

(٥) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ٢/١١٢٠ (كتاب الأشربة ، باب مدمن الخمر) ونصه : « مدمن الخمر كعابد وثن » . وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » ٥/٢٠٥ .

رضى الله عنه (١) بقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ وأظنه قلب الرقعة (٢) .

وذلك أن الله جمع بين الخمر والميسر ، وبين الأنصاب والأزلام فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٩٠ ، ٩١] .

مع أن الخمر إذا سكر بها الشارب كان سكره يوما أو قريبا من يوم أو بعض يوم ، وأما سكر الشهوة والمحبة الفاسدة من العشق ونحوه فسكره قوى دائم . قال تعالى فى قوم لوط : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٢] .

فكيف إذا خرج عن حد السكر إلى حد الجنون ، بل كان الجنون المطبق لا الحمق (٣) ، كما أنشد محمد بن جعفر فى كتاب « اعتلال القلوب » (٤) قال : أنشدنى الصيدلانى :

قالت جُنِنْتُ على رأسى فقلت لها ... العشق أعظم مما بالمجانين

---

(١) فى الأصل : ومر على عليلم . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) أورد ابن كثير هذا الخبر فى تفسيره لآية ٥٢ سورة الأنبياء عن ابن أبى حاتم .... قال : مر علىّ على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ لأن يمس صاحبكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسّها .

(٣) فى الأصل : الحامق .

(٤) هو أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر السامرى الخرائطى ، محدث أديب ، ولد سنة ٢٤٠ وتوفى سنة ٣٢٧ ، من تصانيفه : « اعتلال القلوب » فى أخبار العشاق (وهو مخطوط) . انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد ١٣٩/٢ – ١٤٠ ؛ شذرات الذهب ٣٠٩/٢ ؛ الأعلام ٢٩٧/٦ ؛ معجم المؤلفين ١٥٤/٩ – ١٥٥ .

العشق ليس يفيق الدهر صاحبُه — وإنما يصرع المجنون فى الحينِ (١)

وقال الآخر :

سُكرانِ : سكرُ هوىً وسكر مُدَامة — ومتى إفاقة من به سكـرانِ

فصاحبه أحق بأن يشبه بعابد الوثن والعاكفين على التماثيل يعملونها (٢) على صورة آدمى .

وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [سورة يوسف : ٣٠] أى : شغفها حبه ، أى وصل حبه إلى شغاف القلب ، وهى جلدة فى داخله ، فهذا يكون قد اتخذ ندا يحبه كحب الله .

يوقع الشيطان العداوة والبغضاء بين المؤمنين بالعشق

وإذا كان الشيطان يريد أن يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فالعداوة والبغضاء التى يريد أن يوقعها بالعشق ، وصدّه عن ذكر الله وعن الصلاة بذلك أضعاف غيره ، كما قد تكلمنا عليه فى غير هذا الموضع ، وبيّنا أن جميع المعاصى يجتمع فيها هذان الوصفان ، وأن ذكر ذلك فى الخمر والميسر اللذين هما من أواخر المحرمات — ينبّه على ما فى غيرهما من ذلك مما حُرِّم / قبلهما : كقتل النفوس بغير حق ، والفواحش ، ونحو ذلك . ظ ١٦٦

ومما يبين هذا أن الفواحش التى أصلها المحبه لغير الله ، سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة أو الإنزال أو غير ذلك ، هى فى المشركين أكثر منها فى

---

(١) أورد ابن الجوزى البيتين فى كتابه « ذم الهوى » ص ٣١٧ ، ونسبهما المحقق الأستاذ مصطفى عبد الواحد إلى مجنون ليلى (انظر الفهرس ص : ٧١١) .

(٢) فى الأصل : يعملونه ، وهو تحريف .

المخلصين ، ويوجد فيهم ما لا يوجد فى المخلصين لله .

قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۞ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيهِمُ الضَّلاَلَةُ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٧ - ٣٠] ، فأخبر سبحانه أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَفَتَتخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٠٠] .

وإذا كان سلطانه على أوليائه الذين تولوه والذين هم به مشركون ، وهم الذين لا يؤمنون بالله — وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] — فيكون هؤلاء هم الغاوين ، وهم الذين قال الشيطان : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين .

ولهذا أخبر سبحانه عن أوليائه أنهم ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٨] ، فأخبر عن أولياء الشيطان ، وهم الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون : أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بالتقليد

لأسلافهم ، وزعموا مع ذلك أن الله أمرهم [بها](١) ، فيتّبعون الظن – فى قولهم : إن الله أمرهم بها – وما تهوى الأنفس فى تقليد أسلافهم واتباعهم .

وهذا الوصف فيه بسط كثير لكثير من المنتسبين إلى القبلة من الصوفية والعبَّاد ، والأمراء والأجناد ، والمتكلمة والمتفلسفة ، والعامة وغيرهم ، يستحلُّون من الفواحش ما حرَّمه الله ورسوله ، وأصله العشق الذى يبغضه الله .

ص ١٦٧ / وكثير منهم يجعل ذلك دينا ، ويرى أنه يتقرب بذلك إلى الله ، إما لزعمه أنه يزكِّى النفس ويهذبها ، وإما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه على آدمى ، ثم ينتقل إلى عبادة الله وحده ، وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده ، وربما اعتقد حلول الرب فيها واتحاده بها ، ومنهم من يخص ذلك بها ، ومنهم من يقول بإطلاق . وهؤلاء إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها .

وكل هؤلاء فيهم من الإشراك بقدر ذلك ، ولهذا يظهر الافتتان بالصور وعشقها فيمن فيهم شرك : كالنصارى والرهبان والمتشبهين بهم من هذه الأمة : من كثير من المتفلسفة والمتصوفة الذين يفتنون بالأحداث وغيرهم ، فتجد فيهم قسطاً عظيما من اتخاذ الأنداد من دون الله ، يحبونهم كحب الله ، إما تدينا ، وإما شهوة ، وإما جمعا بين الأمرين . ولهذا تجد بين أغنيائهم (٢) وفقرائهم ، وبين ملوكهم وأمرائهم تحالفا على اتخاذ أنداد (٣) من دون الله من هذين الوجهين .

ولهذا تجدهم كثيرا ما يجتمعون على سماع الشعر والأصوات التى تهيج الحب المشترك : الذى يجتمع فيه محب الرحمٰن ، ومحب الأوثان ، ومحب الصلبان ، ومحب الإخوان ، ومحب الأوطان ، ومحب المردان ، ومحب النسوان .

---

(١) زدت « بها » ليستقيم الكلام .

(٢) أغنيائهم : ليست واضحة بالأصل ، وكذا استظهرتها .

(٣) فى الأصل : أندادا ، وهو خطأ .

وهذا السماع هو سماع المشركين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [سورة الأنفال : ٣٥] .

وسبب ما ذكرنا أن الله خلق عباده لعبادته التى تجمع محبته وتعظيمه ، فإذا كان فى القلب ما يجد حلاوته من الإيمان بالله والتوحيد له ، احتاج إلى أن يستبدل بذلك ما يهواه ، فيتخذ إلٰهه هواه ، فيتخذ الشيطان وذريته أولياء من دون الله ، وهم لهم عدو ، بئس للظالمين بدلا .

ولهذا كان هذا ونحوه من تبديل الدين ، وتغيير فطرة الله التى فطر الناس عليها . قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ۝ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً ۝ لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ۝ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ﴾ [سورة النساء : ١١٦ - ١١٩] .

قال تعالى : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] . ونفس ما خلقه الله لا تبديل له : لا يمكن أن توجد المخلوقات على غير ما يخلقه الله عليها [١] ، ولا أن تخلق على غير الفطرة التى خلقها [٢] الله عليها ، لكن بعض الخلق قد يغير بعضها ، كما قال النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة / فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه ، كما تُنتج البهيمة [بهيمة] [٣] جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » [٤] . ظ ١٦٧

---

(١) فى الأصل : عليه .

(٢) فى الأصل : خلقهم .

(٣) زدت كلمة « بهيمة » لأنها من ألفاظ الحديث .

(٤) مضى الحديث من قبل (ص : ٨٥ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ٢٣٠) .

أصل العبادة المحبة والشرك فيها أصل الشرك

ومما يبين ذلك أن أصل العبادة هى المحبة ، وأن الشرك فيها أصل الشرك ، كما ذكره الله فى قصة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل ، حيث قال : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] ، وقال فى القمر : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٧] فلما أفلت الشمس قال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٨ ، ٧٩] .

ولهذا تبرأ إبراهيم من المشركين وممن أشركوا (١) بالله ، قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٥ – ٧٧] وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] .

ومما يوضح ذلك أنه قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] فأمر بالجهاد حتى لا تكون فتنة وحتى يكون الدين كله لله ، فجعل المقصود عدم كون الفتنة ، ووجود كون الدين كله لله ، وناقض (٢) بينهما ، فكون الفتنة ينافى كون الدين لله ، وكون الدين لله ينافى كون

(١) فى الأصل : أشركوه ، وهو تحريف .

(٢) وناقض : فى الأصل الكلمة غير واضحة ، وكذا استظهرتها .

الفتنة . والفتنة قد فُسِّرت بالشرك ، فما حصلت به فتنة القلوب ففيه شرك ، وهو ينافى كون الدين كله لله .

الفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات

والفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات ، وفتنة الذين يتخذون من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن . ومنه فتنة أصحاب العجل ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ [سورة طه : ٨٥] قال موسى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تَضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَن تَشَاءُ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] .

قيل لسفيان بن عيينه : إن أهل الأهواء يحبون ما ابتدعوه من أهوائهم حبا شديدا ، فقال : أنسيت قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] وقوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] أو كلاما هذا معناه ، وكل ما أُحِب لغير الله فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع / أن يكون الدين لله .

ص ١٦٨

وعشق الصور من أعظم الفتن ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [سورة التغابن : ١٥] . ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقد قال سبحانه : ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ١ - ٣] .

ومما يبين ذلك أن رجلا قال للنبى ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتنى لله ندا ، بل ما شاء الله وحده » (١) فأنكر عليه أن جعله ندا لله فى هذه الكلمة التى جمع فيها بينه وبين الله فى المشيئة ، إذ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله ، فلا يكون شريكه ، لما يُعلم أن كون الشىء ندا لله قد يكون بدون أن يُعبد العبادة التامة ، فإن ذلك الرجل ما كان يعبد رسول الله تلك (٢) العبادة .

فصل

محبة الله توجب المجاهدة فى سبيله

وبهذا يتبين أن محبة الله توجب المجاهدة فى سبيله قطعا ، فإن من أحب الله وأحبه الله أحب ما يحبه الله ، وأبغض ما يبغضه الله ، ووالى من يواليه الله ، وعادى من يعاديه الله . لا تكون (٣) محبة قط إلا وفيها (٤) ذلك بحسب قوتها وضعفها ، فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب ومحابّه ، والبعد عن مكروهاته ، ومتى كان مع المحبة نبذ (٥) ما يبغضه المحبوب فإنها تكون تامة .

موادة عدو الله تنافى المحبة

وأما موادة عدوه فإنها تنافى المحبة ، قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ، ولكنى وجدت حديثا مقاربا لفظه (فى المسند (ط . المعارف) ٢٥٣/٢) عن ابن عباس أن رجلا قال للنبى ﷺ : ما شاء الله وشئت ! فقال النبى ﷺ : « أجعلتنى والله عَدْلاً ، بل ما شاء الله وحده » . والحديث بلفظ مقارب عن ابن عباس رضى الله عنهما فى : المسند (ط . المعارف) ١٩٣/٤ ، ٨٥/٥ وجاء مختصرا ٢٩٦/٣ .

وذكر هذا الحديث ابن حجر فى « فتح البارى » (ط . السلفية) ٥٤٠/١١ وقال إن الحديث فى مسند أحمد والنسائى .

(٢) فى الأصل : ذلك .

(٣) فى الأصل : يكون .

(٤) فى الأصل : وفيه .

(٥) نبذ : ليست واضحة بالأصل ، وكذا استظهرتها .

﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [سورة المجادله : ٢٢] ، فأخبر أن المؤمن – الذى لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، كما فى الحديث المتفق عليه : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » [١] – لا تجده [٢] موادا لمن حاد الله ورسوله ، فإن هذا جمع بين الضدين لا يجتمعان . ومحبوب الله ومحبوب معاديه لا يجتمعان .

فالمحب له [٣] لو كان موادًّا لمحاده لكان محبا لاجتماع مراد المتحادين المتعاديين وذلك ممتنع ، ولهذا لم تصلح هذه الحالة إلا لله ورسوله ، فإنه يجب على العبد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ولايكون مؤمنا إلا بذلك . ولا تكون هذه المحبة مع محبة من يحاد الله ورسوله ويعاديه أبدا ، فلا ولاء لله إلا بالبراءة من عدو الله ورسوله .

وأما المؤمنون الذين قد يقاتل بعضهم بعضا ، فأولئك ليسوا متحادين من كل وجه ، فإن مع كل منهما من الإيمان ما يحب عليه الآخر ، وإن كان يبغضه أيضا ، فيجتمع فيهما المحبة والبغضة ، وكذلك كل منهما / لا يجب أن تكون جميع أفعاله موافقة لمحبة [الله] [٤] وجميع أفعال الآخر موافقة لبغض الله ، بل لابد أن يفعل أحدهما ما لا يحبه الله وإن لم يبغضه ، و لابد أن يكون فى الآخر أيضا ما يحبه الله إذ هو مؤمن ، فيجب أن يعطى كل واحد من المحبة بقدر إيمانه ، ولا يجب أن يحب من أحدهما ما لا يحبه وإن كان لايبغضه بل ولا يحب [من] واحدهما [٥] ما كان خطأً

ظ ١٦٨

---

(١) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

(٢) فى الأصل : لا يجد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : فالحب له . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٤) زدت كلمة الجلالة ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : بل ولا يحبه واحدهما ، ولعل الصواب ما أثبته .

أو ذنبا مغفورا ، وإن كان لا يبغض على ذلك ، فلا يحب إلا ما أحبه الله ورسوله ، فيحب ما كان من اجتهاده من عمل صالح .

وهذا الذى ذكرناه أمر يجده الإنسان من نفسه ويحسه : أنه إذا أحب الشئ لم يحب ضده ، بل يبغضه . فلا يتصور اجتماع إرادتين تامتين للضدين ، لكن قد يكون فى القلب نوع محبة وإرادة لشئ ، ونوع محبة وإرادة لضده ، فهذا كثير [١] ، بل هو غالب على بنى آدم ، لكن لا يكون واحد [٢] منهما تاما ، فإن المحبة والإرادة التامة توجب [٣] وجود المحبوب المراد مع القدرة ، فإذا كانت القدرة حاصلة ولم يوجد المحبوب المراد لم يكن الحب والإرادة تامة . وكذلك البغض التام يمنع وجود البغيض مع القدرة ، فمتى [٤] وجد مع إمكان الامتناع لم يكن البغض تاما .

ومن هنا يعرف أن قول النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » [٥] على بابه : لو كان بغضه لما أبغضه الله من هذه الأفعال تاما لما فعلها . فإذا فعلها فإما أن يكون تصديقه بأن الله يبغضها فيه ضعف ، أو نفس بغضه لما يبغضه الله فيه ضعف ، وكلاهما يمنع تمام الإيمان الواجب .

محبة الله ورسوله على درجتين : واجبة ومستحبة

ومحبة الله ورسوله على درجتين : واجبة وهى درجة المقتصدين ، ومستحبة وهى درجة السابقين .

---

(١) فى الأصل : كثيرا ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : واحدا ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : توجد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : فمن . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) مضى الحديث من قبل (ص : ٢٥٩) .

المحبة الواجبة وهى محبة المقتصدين

فالأولى تقتضى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، بحيث لا يحب شيئا يبغضه ، كما قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [سورة المجادلة : ٢٢] ، وذلك يقتضى محبة جميع ما أوجبه الله تعالى ، وبغض ماحرَّمه الله تعالى ، وذلك واجب ، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضى وجود ما أوجبه [١] ، [كما تقتضى عدم الأشياء التى نهى الله عنها] [٢] ، وذلك مستلزم لبغضها التام .

فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه [٣] الله ، ويبغض ما أبغضه الله . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [سورة محمد : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَاأُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] .

ص ١٦٩

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ [سورة الرعد : ٣٦] .

المحبة المستحبة وهى محبة السابقين

وأما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة . وهذه حال المقرَّبين الذين قرَّبهم الله إليه . فإذا كانت محبة الله ورسوله الواجبة تقتضى بغض ما أبغضه الله ورسوله ، كما فى سائر أنواع المحبة ، فإنها توجب بغض

---

(١) فى الأصل : ما واجبه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : ما أوجبه . ولعل الصواب ما أثبته .

الضد ، عُلم أن الجهاد من موجب محبة الله ورسوله ، فإن مقصود الجهاد تحصيل (١) ما أحبه الله ، ودفع ما أبغضه الله .

ترك الجهاد لعدم المحبة التامة وهو دليل النفاق

فمن لم يكن فيه داع إلى الجهاد ، فلم يأت بالمحبة الواجبة قطعا ، كان فيه نفاق (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « من [مات] ولم يغز (٣) ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق » (٤) .

وكذلك جمع بينهما فى قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللهِ لَايَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ١٩ – ٢٢] ، فقرنه بالمحبة (٥) فى الآيتين من

(١) فى الأصل : يحصل ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فيكن فيه نفاقا ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : من لم يغز . والمثبت هو تمام الحديث .

(٤) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ١٥١٧/٣ (كتاب الإمارة ، باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو) ؛ سنن أبى داود ١٥/٣ – ١٦ (كتاب الجهاد ، باب كراهية ترك الغزو) ؛ سنن النسائى ٧/٦ – ٨ (كتاب الجهاد ، باب التشديد فى ترك الجهاد) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤١/١٧ .

(٥) أى فقرن الجهاد بالمحبة .

قوله : ﴿ قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] ، وفى قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلاَيَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] . فأخبر أن القوم الذين يحبهم الله ورسوله هم أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] ، فوصفهم بالذلة والرحمة لأوليائه [١] إخوانهم ، والعزة والشدة على أعدائه أعدائهم ، وأنهم يجاهدون فى سبيل الله .

والجهاد من الجُهد وهو الطاقة ، وهو أعظم من الجَهد الذى هو المشقه ، فإن الضم أقوى من الفتح ، وكلما كانت الحروف أو الحركات أقوى كان المعنى أقوى .

ظ ١٦٩ ولهذا كان الجُرح [٢] أقوى من الجَرح ، / فإن الجُرْح هو المجروح نفسه ، وهو غير [٣] الجَرْح ، مصدر ، وهو فعل .

وكذلك الكُره ، والمكروه ، والمكره ، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

فالجُهد : نهاية الطاقة والقدرة [٤] ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٧٩] .

---

(١) فى الأصل : لأولياة ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : الخرج ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : عين ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : القدرة .

وفى الحديث : « أفضل الصدقة جُهد من مقل يُسرِّه إلى فقير » (١) . ولهذا قال النبى ﷺ : « الجهاد سنام العمل » (٢) ، فإنه أعلى الإرادات فى نهاية القدرة ، وهذا هو أعلى ما يكون من الإيمان ، كالسنام الذى هو أعلى ما فى البعير ، وقد يكون بمشقة ، وقد لا يكون .

وأما الجَهد فهو المشقة ، وإن لم يكن تمام القدرة .

فالجهاد فى سبيل الله تعالى من الجُهد ، وهى المغالبة [فى سبيل] الله (٣) بكمال القدرة والطاقة ، فيتضمن شيئين ، أحدهما : استفراغ الوسع والطاقة . والثانى : أن يكون ذلك فى تحصيل محبوبات الله ودفع مكروهاته ، والقدرة والإرادة بهما يتم الأمر .

انقسام الناس إلى أربعة أقسام

وهنا (٤) انقسم الناس أربعة أقسام : فقوم لهم قدرة ، ولهم إرادة ومحبة غير

---

(١) الحديث بلفظ : « فأى الصدقة أفضل ؟ قال ﷺ : جهد المقل » عن عبد الله بن حُبْشى رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٢/٩٣ - ٩٤ (كتاب الصلاة ، باب طول القيام) ؛ سنن النسائى ٥/٤٣ - ٤٤ (كتاب الزكاة ، باب جهد المقل) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢/٤١١ - ٤١٢ . وصحح الألبانى هذا الحديث فى تعليقه على مشكاة المصابيح للتبريزى ٢/٣٥٧ . وجاء حديث آخر عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٥/١٧٨ وفيه : « .... قلت : يا رسول الله فما الصدقة ؟ قال : أضعاف مضاعفة وعند الله مزيد . قلت : أيها أفضل يا رسول الله ؟ قال : جهد من مقل أوسر إلى فقير » . وجاء حديث ثالث بمعنى الحديث السابق فى المسند ٥/٢٦٥ عن أبى أمامة رضى الله عنه وضعف الألبانى هذا الحديث الأخير فى « ضعيف الجامع الصغير » ١/٣١٨ .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٣/١٠٤ ، ١٠٥ (كتاب الجهاد ، باب أى الأعمال أفضل) ونصه : « سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ أو أى الأعمال خير ؟ قال : إيمان بالله ورسوله . قيل : ثم أى شىء ؟ قال : الجهاد سنام العمل . قيل : ثم أى شىء يا رسول الله ؟ قال : ثم حج مبرور » . ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ » . والحديث فى : المسند (ط . المعارف) ١٤/٢٤٩ .

(٣) فى الأصل : وهى الغالبة لله . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : هنا .

١ - قوم لهم قدرة وإرادة ومحبة غير مأمور بها

مأمور بها ، فهم يجاهدون ، ويستعملون جهدهم وطاقتهم ، لكن لا فى سبيل الله ، بل فى سبيل آخر : إما محرمة ، كالفواحش ماظهر منها وبطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، والإشراك بالله مالم ينزل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم الحق .

وإما فى سبيل لا ينفع عند الله ، مما جنسه مباح ، لاثواب فيه ، لكن الغالب [أن] (١) مثل هذا كثيرا ما يقترن (٢) به من الشُّبه مايجعله فى سبيل الله أو فى سبيل الشيطان .

٢ - قوم لهم إرادة صالحة ومحبة كاملة لله وقدرة كاملة

وقوم لهم إرادة صالحة ، ومحبة كاملة لله ، ولهم أيضا قدرة كاملة ، فهؤلاء سادة المحبين المحبوبين ، المجاهدين فى سبيل الله ، لايخافون لومة لائم ، كالسابقين (٣) الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة .

٣ - قوم فيهم إرادة صالحة ومحبة قوية لكن قدرتهم ناقصة

والقسم الثالث : قوم فيهم إرادة صالحة ، ومحبة لله قوية تامة ، لكن قدرتهم ناقصة ، فهم يأتون بمحبوبات الحق من مقدورهم ولايتركون مما يقوون عليه شيئا (٤) ، لكن قدرتهم (٥) قاصرة ، ومحبتهم (٦) كاملة ، فهو مع القسم الذى قبله .

ومازال فى المؤمنين على عهد النبى ﷺ وبعده من هؤلاء خلق كثير . وفى مثل هؤلاء قال النبى ﷺ : « إن بالمدينة لرجالا ماسرتم مسيرا ولا سلكتم واديا

---

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : يفترون ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : فالسابقين ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : ولا يأتون يتركون ما يقوون عليه شيئا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : لكن قلوبهم . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : ومحبة . ولعل الصواب ما أثبتهم .

إلا كانوا معكم . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » [١] .
وقال له سعد بن أبى وقاص : يارسول الله الرجل يكون حامية القوم يسهم له مثلما يسهم لأضعفهم ؟ فقال : ياسعد وهل تنصرون إلا بضعفائكم ؟ بدعائهم وصلواتهم واستغفارهم [٢] » .

ص ١٧٠ وروى أن النبى ﷺ كان يستفتح / بصعاليك المهاجرين ، وقال : « رب أشعث أغبر ، ذى طمرين ، مدفوع بالأبواب ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » [٣] وهذا كثير .

---

(١) الحديث عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٢٦/٤ (كتاب الجهاد ، باب من حبسه العذر عن الغزو) ؛ سنن أبى داود ١٧/٣ – ١٨ (كتاب الجهاد ، باب فى الرخصة فى القعود من العذر) ؛ سنن ابن ماجة ٩٢٣/٢ (كتاب الجهاد ، باب من حبسه العذر عن الجهاد) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٠٣/٣ ، ١٦٠ ، ٣٠٠ ، ٣٤١ . وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : مسلم ١٥١٨/٣ (كتاب الإمارة ، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر) ؛ سنن ابن ماجة (فى الموضع السابق) .

(٢) الحديث عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى : البخارى ٣٦/٤ – ٣٧ (كتاب الجهاد ، باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب) ونصه : « عن مصعب بن سعد قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلا على من دونه . فقال النبى ﷺ : هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » والحديث بألفاظ مقاربة فى : سنن النسائى ٣٧/٦ – ٣٨ (كتاب الجهاد ، باب الاستنصار بالضعيف) . وما رواه ابن تيمية هو أقرب إلى رواية المسند (ط . المعارف) ٥١/٣ : « عن سعد بن مالك (وهو سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه) قال : قلت : يا رسول الله ، الرجل يكون حامية القوم ، أيكون سهمه وسهم غيره سواء ؟ قال : ثكلتك أمك ابن أم سعد ! وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ؟! » وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى تعليقه : « إسناده ضعيف لانقطاعه » ..

وقال ابن حجر فى « فتح البارى » ٨٨/٦ – ٨٩ عن رواية البخارى : « ثم إن صورة هذا السياق مرسل لأن صعبا لم يدرك زمان هذا القول ، لكن هو محمول على أنه سمع ذلك من أبيه ، وقد وقع التصريح عن مصعب بالرواية له عن أبيه عند الإسماعيلى .... ، وكذا أخرجه هو والنسائى .... » .

وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن أبى الدرداء رضى الله عنه فى سنن أبى داود ٣٢/٣ (كتاب الجهاد ، باب فى الانتصار برذل الخيل والضعفة) ؛ المسند (ط : الحلبى) ١٩٨/٥ .

(٣) الحديث بألفاظ مقاربة عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٠٢٤/٤ (كتاب البر =

٤ – من قدرته وإرادته للحق قاصرة ، وفيه إرادة للباطل

والقسم الرابع : من قدرته قاصرة وإرادته للحق قاصرة ، وفيه من إرادة الباطل ما الله به عليم ، فهؤلاء ضعفاء المجرمين ، ولكن قد يكون لهم من التأثير بقلوبهم نصيب وحظ مع أهل باطلهم ، كما يوجد فى العلماء والعبّاد والزاهدين من المشركين وأهل الكتاب [1] ومنافقى هذه الأمة ما فيه مضاهاة [2] لعلماء المؤمنين وعُبَّادهم [3] ، وذلك أن الشيطان جعل [لكل] شيء [4] من الخلق نظيرا فى الباطل ، فإن أصل الشر هو الإشراك بالله ، كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله .

فإن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه وحده لا يشركوا به شيئا ، وبذلك أرسل الرسل ، وبه أنزل الكتب ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] .

العبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل

والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل ، فالعابد محب خاضع ، بخلاف من يحب من لا يخضع له ، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر ؛ وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه ، كما يخضع للظالم ، فإن كُلاًّ من هذين ليس عبادة محضة . وإن كل

= والصلة ، باب فضل الضعفاء) ، ٢١٩١/٤ (كتاب الجنة .... ، باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء) . وجاء حديث آخر عن معاذ بن جبل رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١٣٧٨/٢ (كتاب الزهد ، باب من لا يؤبه له) ونصه : « عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبرك عن ملوك الجنة ؟ قلت : بلى . قال : « رجل ضعيف مستضعف ، ذو طمرين ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » . وضعف الألبانى هذا الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير » ٢٤٢/٢ . وقال ابن الأثير فى « النهاية فى غريب الحديث والأثر » : « الطِّمْر : الثوب الخَلَق » . وانظر : المسند (ط . الحلبى) ١٤٥/٣ ، ٤٠٧/٥ .

(١) فى الأصل : الكتب .

(٢) فى الأصل : مظاهاة .

(٣) فى الأصل : وعبادتهم ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : لشيء ، ولعل الصواب ما أثبته .

محبوب لغير الله ، ومعظم لغير الله ، ففيه شوب من العبادة ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » [١] .

وذلك كما جاء فى الحديث : « إن الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » [٢] مع أنه ليس فى الأمم أعظم تحقيقا للتوحيد من هذه الأمة ، ولهذا كان شدَّاد بن أَوْس يقول : يا نعايا [٣] العرب يا نعايا [٣] العرب ، إن أخوف ما أخوف عليكم الرياء والشهوة الخفية » قال أبو داود : الشهوة الخفية : حب الرياسة [٤] .

وفى حديث الترمذى عن كعب بن مالك أن النبى ﷺ قال : « ماذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » قال الترمذى : حديث حسن صحيح [٥] . والحرص يكون على [قدر] [٦] قوة الحب والبغض .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٦] ، وروى أن أبابكر الصديق رضى الله عنه قال للنبى ﷺ : إذا كان

---

(١) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٦١) .

(٢) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٥٤) .

(٣) نعايا : الكلمة فى الأصل غير منقوطة ، وكذا قرأتها ، وانظر التعليق التالى .

(٤) علقت على هذا الأثر فى المجموعة الأولى (ص ٢٣٣ ت ١) وذكرت فى تعليقى أن المنذرى فى « الترغيب والترهيب » ٤/٥٠ ذكر أن هذه ألفاظ حديث رواه عبد الله بن زيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ وأن الحديث رواه الطبرانى بإسنادين أحدهما صحيح . وذكرت فى فهرس التصويبات والاستدراكات أن الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى نبهنى إلى أن القراءة الصحيحة هى « نعايا » لا « بغايا » (كما جاءت فى طبعةالترغيب والترهيب) وأحالنى إلى « النهاية » لابن الأثير ، و « الفائق » للزمخشرى . وانظر « النهاية » مادة « نعا » .

(٥) الحديث عن كعب بن مالك رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٤/١٦ - ١٧ (كتاب الزهد ، باب حدثنا سويد بن نصر) ؛ سنن الدارمى ٢/٣٠٤ (كتاب الرقاق ، باب ما ذئبان جائعان) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣/٤٥٦ ، ٤٦٠ .

(٦) زدت كلمة « قدر » ليستقم الكلام .

الشرك أخفى من دبيب النمل فكيف نتجنبه ؟ فقال النبى ﷺ : « ألا أعلمك / كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره ، قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، واستغفرك لما لا أعلم » (١) فأمره مع الاستعاذة من الشرك المعلوم بالاستغفار ، فإن الاستغفار والتوحيد بهما يكمل الدين .

ظ ١٧٠

كما قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [سورة محمد : ١٩] وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [سورة هود : ١ – ٣] .

وفى الحديث : « إن الشيطان قال : أهلكت بنى آدم بالذنوب ، وأهلكونى بلا إلٰه إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (٢) وهذا كذلك ، فإن من اتخذ إلٰهه هواه صار يعبد مايهواه ، وقد زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا .

قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً * قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [سورة الكهف : ١٠٢ – ١٠٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٧] .

---

(١) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٥٤) .

(٢) لم أجد هذا الحديث .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنكُمْ إِنِّى أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ واللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٨ ، ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ [سورة الأنعام : ١٣٧] .

وكمال الدين هو أداء الواجبات وترك المحرَّمات ، والفعل والترك أصلهما الحب والبغض ، فإذا ترك مأمورا أو فعل محظورا [١] فإنما هو لنقص الإيمان الذى هو التصديق ، وحب ما يحبه الله وبغض ما يبغضه الله .

والمحبوبات على قسمين : قسم يُحب لنفسه ، وقسم يُحب لغيره . إذ لا بد من محبوب يحبُّ [٢] لنفسه ، وليس شيء شُرع أن يحب لذاته إلا الله تعالى ، وكذلك التعظيم لذاته ، تارة يعظم الشيء لنفسه ، وتارة يعظم لغيره ، وليس شيء يستحق التعظيم [لذاته] [٣] إلا الله تعالى .

وكل ما أمر الله أن يُحب ويُعظم فإنما محبته لله وتعظيمه عبادة لله ، فالله هو المحبوب المعظَّم فى المحبة والتعظيم ، المقصود المستقر الذى إليه المنتهى . وأما ما سوى ذلك فيحب لأجل الله ، أى لأجل محبة العبد لله : يحب ما أحبه الله ،

---

(١) فى الأصل : فعلا محضورا ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : يحبه ، وهو تحريف .

(٣) زدت « لذاته » ، ليستقيم الكلام .

فمن تمام محبة الشيء محبة محبوب المحبوب ، وبغض بغيضه ، ويشهد لهذا الحديث : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله ، والبغض فى الله » (١)

وفى السنن « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » (٢) .

ص ١٧١ فمن أحب شيئا لذاته / أو عظَّمه لذاته غير الله فذاك شرك به ، وإن أحبه ليتوصل به إلى محبوب آخر وتعظيم آخر سوى الله فهو من فروع هذا . والله سبحانه لم يشرع أن يعبد [الإنسان] (٣) شيئا من دونه ، أو يتخذ إلٰها ليتوصل بعبادته ، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٤٥] وقال تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥١] .

من أحب شيئا كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد أشرك

فمن أحب شيئا كما يحب الله ، أو عظَّمه كما يعظم الله فقد جعله لله ندا ، وإن كان [يقول :] (٤) إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، وأنهم شفعاؤنا عند الله .

---

(١) الحديث – مع اختلاف فى بعض الألفاظ – فى مسند أحمد (ط . الحلبى) ٢٨٦/٤ عن البراء ابن عازب رضى الله عنه ولفظه « .... إن أوسط عرى الإيمان أن تحب فى الله وتبغض فى الله .... » . وحسنه الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » ١٨١/٢ وقال السيوطى : « حم (أحمد فى مسنده) ، ش (مصنف ابن أبى شيبة) ، هب (البيهقى فى شعب الإيمان) عن البراء » . وقال السيوطى فى « الجامع الكبير » : « أوثق عرى الإيمان الموالاة فى الله والحب فى الله والبغض فى الله » – (طب) = الطبرانى فى المعجم الكبير عن ابن عباس » .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ٢٥٦) .

(٣) زدت كلمة « الإنسان » ليستقيم الكلام .

(٤) زدت كلمة « يقول » ليستقيم الكلام .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] أى يحبونهم كما يحبون الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله منهم ، لأنهم أخلصوا لله ، فلم يجعلوا المحبة مشتركة بينه وبين غيره ، فإن الاشتراك فيها يوجب [(١)] نقصها ، والله لا يتقبل ذلك ، كما فى الحديث الصحيح يقول الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء ، وهو كله للذى أشرك » [(٢)] .

فالمؤمن – الذى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما – لابد أن يكون ما أحبه الله ورسوله أحب إليه مما لم يحبه الله ورسوله ، وأن يبغض ما يبغضه الله ورسوله ، فلا يكون ذلك البغيض أحب إليه من محبوب الله ورسوله .

والحب التام منا مستلزم للإرادة التامة الموجبة للفعل مع القدرة ، والبغض التام منا مستلزم للكراهة التامة المانعة للقدرة . فإذا كان العبد قادرا على محبات الحق ولا يفعلها فلضعف محبتها فى قلبه ، أو وجود ما يعارض الحق ، مثل محبته لأهله وماله ، فإن ذلك قد يمنعه عن فعل محبوب الحق .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقال ﷺ : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من

---

(١) فى الأصل : توجب .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٨٨٩/٤ (كتاب الزهد ، باب من أشرك فى عمله غير الله) ؛ سنن ابن ماجه ١٤٠٥/٢ (كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة) ؛ المسند (ط . المعارف) – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – ١٥٥/١٥ .

ولده ووالده والناس أجمعين » [(١)] . وقال له عمر : والله يارسول الله لأنت أحب إلىَّ من كل شيء إلا من نفسى . فقال : لا ياعمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فأنت أحب إلىَّ من نفسى . قال : الآن ياعمر » [(٢)] وهذان الحديثان فى الصحيح .

فإن كانت واجبات نقص من درجة [(٣)] المقتصدين من أصحاب اليمين حتى يتوب أو يمحوها بشيء آخر ، وإن كانت نوافل – فإنها [(٤)] من القُرَب – بحسب ذلك . وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بعضها فى قلبه ، أو لقوة محبتها التى تغلب بعضها . فالإنسان لا يأتى شيئا من المحرَّمات – كالفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق ، والشرك بالله مالم ينزل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم – إلا لضعف الإيمان فى أصله أو كماله ، أو ضعف / العلم والتصديق ، وإما ضعف المحبة والبغض .

ظ ١٧١

الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته

لكن إذا كان أصل الإيمان صحيحا ، وهو التصديق ، فإن هذه المحرمات [يفعلها المؤمن مع كراهته] وبغضه لها [(٥)] ، فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه ، فلابد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها ، وفيه خوف من عقاب الله عليها ، وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها ، إما بتوبة ، وإما حسنات ، وإما عفو ، وإما دون ذلك ، وإلا فإذا لم يبغضها ، ولم يخف الله فيها ، ولم يرج رحمته ، فهذا لا يكون مؤمنا بحال ، بل [هو] [(٦)] كافر أو منافق .

---

(١) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ – ١٩٩ ، ٢٤٣) .

(٣) فى الأصل : من حد . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : فإنه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل جاءت هذه العبارات محرفة هكذا : لكن إذا كان إيمانكم صحيحا وهو تصديقه فإن هذه المحرمات وبغضه لها . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٦) زدت « هو » ليستقيم الكلام .

فكل سيئة يفعلها المؤمن لا بد أن تقترن بها حسنات له ، لكن قوة شهوته للسيئة وما زُيِّن له فيها ، حتى ظن أنها مصلحة له ، أوجب وقوعها ، وهو اتّباع الظن وما تهوى الأنفس ، وهذا القدر عَارَضَ بعض إيمانه فترجَّح عليه ، حتى ما هو ضد لبعض الإيمان ، فلم يبق مؤمنا الإيمان الواجب . كما قال النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) ، وهو فيما يفعله متبع للشيطان فيما زيَّنه له حتى رآه حسنا ، وفيما أمره به فأطاعه ، وهذا من الشرك بالشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِى آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة يس : ٦٠ ، ٦١] .

ولهذا لم يخلص من الشيطان إلا المخلصون لله ، كما قال تعالى عن إبليس : ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل ٩٩ ، ١٠٠] .

فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا على من أشرك به ، فكل من أطاع الشيطان فى معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه ، وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك .

---

(١) مضى الحديث من قبل (ص : ٢٥٩ ، ٢٧٧) .

والشيطان يوالى الإنسان بحسب عدم إيمانه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۞ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۞ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ [سورة الزخرف : ٣٦ - ٣٨] وقال تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] .

ويشهد لهذا ما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ : « إن الشيطان ينتصب عرشه على البحر ، ويبعث [1] سراياه [2] » .

فجميع ما نهى الله عنه [هو] [3] من شعب الكفر وفروعه ، كما أن كل ما أمر الله به هو من الإيمان والإخلاص / لدين الله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] . ص ١٧٢

لكن قد يكون ذلك شركا أكبر ، وقد يكون شركا أصغر ، بحسب مايقترن [4] به من الإيمان ، فمتى اقترن بما نهى الله عنه الإيمان لتحريمه وبغضه وخوف

---

(١) فى الأصل : ويبث . والذى أثبته هو لفظ الحديث .

(٢) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ولكن جاء بثلاث روايات أولها : « سمعت النبى ﷺ يقول : إن عرش إبليس على البحر ، فيبعث سراياه فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة » . والرواية الثالثة موافقة للرواية الأولى من قوله : « فيبعث ... إلخ » وأما الرواية الثانية فهى مطولة أولها : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ... الحديث . وجاء الحديث برواياته فى مسلم ٢١٦٧/٤ (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب تحريش الشيطان ....) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣١٤/٣ ، ٣٣٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٤ .

(٣) زدت « هو » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : ما يفترون ، وهو تحريف .

العقاب ورجاء الرحمة لم يكن شركا أكبر ، وأما إن اتخذ [الإنسان مايهواه] [١] إلٰهًا من دون الله وأحبه [٢] كحب الله فهذا شرك أكبر ، والدرجات فى ذلك متفاوتة .

وكثير من الناس يكون معه من الإيمان بالله وتوحيده ماينجيه من عذاب الله ، وهو يقع فى كثير من هذه الأنواع ، ولا يعلم أنها شرك ، بل لا يعلم أن الله حرَّمها ، ولم تبلغه فى ذلك رسالة من عند الله ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] ، فهؤلاء يكثرون جدا فى الأمكنة والأزمنة التى تظهر فيها فترة الرسالة بقلة القائمين بحجة الله ، فهؤلاء قد يكون معهم من الإيمان ما يُرحمون به ، وقد لا يُعذَّبون بكثير مما يُعذَّب [به] [٣] غيرهم ممن كانت عليه حجة الرسالة .

تزيين الشيطان لكثير من الناس أنواعا من الحرام ضاهوا بها الحلال

فينبغى أن يعرف أن استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة فى أصل الدين وفروعه ، ولهذا لما كثر الجهل وانتشر ، زيَّن الشيطان لكثير من الناس أنواعا من المحرمات ضاهوا [٤] بها الحلال ، وقد لا يعلمون أنها محرَّمة بغيضة إلى الله ، بل قد يظنون أن ذلك محبوب لله مأمور به ، وقد يظنون أن فيها هذا وهذا ، وهم فى ذلك يتّبعون الظن وما تهوى الأنفس . وقد يعلمون تحريم ذلك ، ويظهرون عدم الوجه المحرم خداعا ونفاقا . فهؤلاء غير المؤمن الذى يحب الله ورسوله ويأتى بالمحرم معتقدا أنه محرَّم ، وهو مبغض له [٥] ، خائف راج [٦] .

---

(١) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : وأحب .
(٣) زدت « به » ليستقيم الكلام .
(٤) فى الأصل : ظاهوا .
(٥) فى الأصل : يبغض له ، وهو تحريف .
(٦) فى الأصل : راجى ، وهو خطأ .

وهذه الأمور توجد فى الأقسام الثلاثة . ونحن نذكر أمثلة ذلك فى المحرَّمات التى ذكرها الله فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَابَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣] فالله سبحانه قد حرَّم الفواحش كما ذكر .

وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥ ، ٦] ، فلم تُبح إلا المرأة التى هى زوج أو ملك يمين . وقد ذكر ما اشترطه فى الحلال بقوله : ﴿ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [سورة النساء : ٢٥][(١)] ، وقوله ﴿ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥] .

كما فى الصحيح عن عائشة قالت : كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء [(٢)] : وذكرت أصحاب الرايات ، وهن المسافحات ، وأن إلحاق النسب فى

---

(١) قال الطبرى فى تفسيره (ط . المعارف) ١٩٣/٨ : « غير مسافحات ولا متخذات أخدان : ذات الخليل الواحد . قال (أى ابن عباس رضى الله عنهما) : المسافحات : المعالنات بالزنا ....كان أهل الجاهلية يحرِّمون ما ظهر من الزنا ، ويستحلّون ما خفى ، يقولون : أما ما ظهر منه فهو لؤم ، وأما ما خفى فلا بأس بذلك » . وفى تفسير ابن كثير للآية : « وقال الضحاك : ولا متخذات أخدان : ذات الخليل الواحد المقرّة به » .

(٢) هذا الأثر عن عائشة رضى الله عنها جاء فى مواضع منها فى : البخارى ١٥/٧ - ١٦ (كتاب النكاح ، باب من قال : لا نكاح إلا بولى ....) ؛ سنن أبى داود ٣٧٧/٢ - ٣٧٨ (كتاب النكاح ، باب فى وجوه النكاح التى كان يتناكح بها أهل الجاهلية) . ونص هذا الأثر فى البخارى : « .... أخبرنى عروة ابن الزبير أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرته أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء ، فنكاح منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليَّته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها .

ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . =

وطئهن كان بالقافة [١] ، وذكرت التى يطأها جماعة محصورة [٢] ، وأن الإلحاق كان بتعيين المرأة . وذكرت نكاح الاستبضاع [٣] ، وهو غير [٤] نكاح ذوات الأخدان . وذكرت النكاح الرابع ، وهو النكاح المعروف ، الذى أحلّه الله .

ظ ١٧٢ فالشيطان جعل من الحرام / ما فيه مضاهاة للحلال ، وإن سُمِّىَ باسم آخر ، لكن المعنى فيه اشتراك ، فالله أباح للرجل امرأته ومملوكته [٥] ، وكل من الرجل والمرأة زوج الآخر [٦] ، فذوات الأخدان بينهن [وبين أخدانهن] [٧] نوع ازدواج واقتران كذلك ، ولهذا ميّز الله بين هذا وهذا .

= ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ، تُسمّى من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل .

ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا لها القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاط به ودُعى ابنه لا يمتنع من ذلك .

فلما بُعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله ، إلا نكاح الناس اليوم » .

(١) قال ابن حجر فى « فتح البارى ١٨٥/٩ » : « القافة : جمع قائف بقاف ثم فاء ، وهو الذى يعرف شَبَهُ الولد بالوالد بالآثار الخفية » .

(٢) فى الأصل : محضورة ، ولعل الصواب ما أثبته ، وانظر قول عائشة رضى الله عنها فى التعليق السابق : « يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها » .

(٣) فى الأصل : الاستمتاع ، وهو تحريف وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته ، وانظر خبر عائشة السابق رضى الله عنها .

(٤) فى الأصل : وهى من ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته . وقد ذكر ابن حجر فى « فتح البارى » ١٨٤/٩ : « قوله (أربعة) : قال الداودى وغيره : بقى عليها (أى على عائشة رضى الله عنها) أنحاء لم تذكرها : الأول : نكاح الخدن ، وهو قوله تعالى : ﴿ولا متخذات أخدان﴾ [سورة النساء : ٢٥] . وانظر التفسير السابق لآية ٢٥ من سورة النساء .

(٥) فى الأصل : ومملوكيه .

(٦) فى الأصل : آخر .

(٧) فى الأصل : فذوات الأخدان بينهما ... إلخ . ولعل الصواب ما أثبته .

وأخفى [(١)] من ذلك مؤاخاة كثير من الرجال لكثير من النساء أو لكثير من الصبيان ، وقولهم : إن هذه مؤاخاة لله إذا لم تكن [(٢)] المؤاخاة على فعل الفاحشة كذوات الأخدان ؛ فهذا الذى يظهرونه للناس الذين يوافقونهم ويقرّونهم على ذلك ، ويرَوْن كلهم أن من أحب صبيا – أو امرأة – لصورته وحسنه من غير فعل فاحشة ، فإن هذا محبة لله .

فهذا من الضلال والغىّ وتبديل الدين ، حيث جعل ماكرهه الله محبوبا لله ، وهو نوع من الشرك ، والمحبوب المعظّم بذلك طاغوت .

وذلك أن اعتقاد أن التمتع بالمحبة والنظر أو نوع من المباشرة إلى المرأة الأجنبية والصبيان هو لله وهو حب فى الله ، كفر وشرك ، كاعتقاد أن محبة الأنداد حب لله ، وأن الاجتماع على الفاحشة تعاون على البر والتقوى ، وأن الإقامة على ذلك بالعبادة [(٣)] هى عبادة لله ، ونحو ذلك .

فاعتقاد أن هذه الأمور التى حرمها الله ورسوله تحريما ظاهرا : أنها دين الله ومحبة الله ، نوع من الشرك والكفر .

ثم قد يكون منها – من خفيِّها – أشياء تروج على من لم يبلغه العلم ، كما اشتبه على كثير من العلماء والعباد أن استماع أصوات الملاهى تكون عبادة لله ، واشتبه [(٤)] على من هو أضعف علما وإيمانا أن التمتع بمشاهدة هذه الصور يكون عبادة لله .

ثم بعد هذا الضلال ومافيه من الغى هم أربعة أقسام :

---

(١) فى الأصل : واخفا .

(٢) فى الأصل : لم يكن .

(٣) فى الأصل : بالقيادة .

(٤) فى الأصل : اشتبه .

قوم يعتقدون أن هذا لله ويقتصرون عليه ، كما يوجد مثل ذلك فى كثير من الأجناد والمتنسكة والعامة .

وقوم يعلمون أن هذا ليس لله ، وإنما يظهرون هذا الكلام نفاقاً وخداعا ، لئلا يُنكر عليهم ، وهؤلاء من وجه أمثل ، لما يُرجى لهم من التوبة ، ومن جهة أخبث ، لأنهم يعلمون التحريم ويأتون المحرم .

وقوم مقصودهم ماوراء ذلك من الفاحشة الكبرى ، فتارة يكونون من أولئك الظالمين الذين يعتقدون أن هذه المحبة التى لاوطء فيها لله ، فيفعلون شيئا لله ، ويفعلون هذا لغير الله ، وتارة يكونون (١) من أولئك الغاوين المنافقين الذين يظهرون أن هذه المحبة لله ، وهم يعلمون أنها للشيطان ، فيجمع هؤلاء بين هذا الكذب وبين الفاحشة الكبرى . وهؤلاء فى هذه المخادنة (٢) والمؤاخاة يضاهون النكاح (٣) ، فإنه يحصل بين هذين من الاقتران والازدواج مايشبه اقتران الزوجين ، ويزيد عليه تارة ، وينقص عنه أخرى . وما يشبه اقتران المتحابين فى الله والمتآخين (٤) فى الله ، لكن الذين / آمنوا أشد حبا لله . ص ١٧٣

فالمتحابان فى الله يعظم تحابهما ويقوى ويثبت ، بخلاف هذه المؤاخاة الشيطانية ، فإنه يترتب عليها أنواع من الفساد . ثم هذا قد يظهر وينتشر حتى قد يسمونه زواجا ، ويقولون (٥) : تزوج هذا بهذا ، كما يفعل ذلك بعض المستهزئين

---

(١) فى الأصل : يكون ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : المحادثة ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : يظاهون للنكاح ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : المتواخيين .

(٥) فى الأصل : ويقول ، وهو تحريف .

بآيات الله من فجّار الفساق [١] والمنافقين ، ويقرّه الحاضرون على ذلك ويضحكون ، وربما أعجبهم مثل هذا المزاح .

كما أن اعتقاد أن هذه المحبة لله أوجب لمن كان من فجّار الفساق والمنافقين أن يقول لهم : الأمرد حبيب الله ، والملتحى عدو الله ، وذلك يعجبهم ويضحكون منه ، وحتى اعتقد كثير من المردان أن هذا حق ، وهو داخل فى قول النبى ﷺ : « إذا أحب الله العبد نادى فى السماء : يا جبريل إنى أحب فلانا [٢] » ، فيصير يعجبه أن يُحب ويعتقد الغاوى أنه محبوب .

وذلك أن من فقهاء الكوفة من لا يوجب فى اللوطية الحد بل التعزير ، إلا إذا أسرف [٣] فيه فإنه يبيح قتله سياسة ، ومن الفقهاء من يوجب فيه حد الزانى ، كأشهر قَوْلى الشافعى ، وإحدى الروايتين عن أحمد ، وقول أبى يوسف ومحمد . وأكثر فقهاء الحجاز وأهل الحديث يوجبون قتلهما جميعا ، كمذهب مالك ، وظاهر مذهب أحمد .

وزعم بعض الفقهاء أن فجور [الرجل] بمملوكه [٤] شبهة فى درء [٥] الحد ، وهو موجب للتعزير ، كما هو أحد القولين فى وطء أمته المحرَّمة عليه برضاع

---

(١) فى الأصل : من فجار الفجار ، وستتكرر العبارة بعد قليل كما أثبتها هنا .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله فى : البخارى ١١١/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة) ، وبقية الحديث فيه : « .... فلانا فأحببه فيحبه جبريل ، فينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » . والحديث أيضا فى : البخارى ١٤/٨ (كتاب الأدب ، باب المقه من الله تعالى) ، ١٤٢/٩ (كتاب التوحيد ، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة) ؛ مسلم ٢٠٣٠/٤ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده) ؛ سنن الترمذى ٣٧٨/٤ (كتاب تفسير القرآن ، سورة مريم) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٨/١٤ ، ٢٠٩/١٦ ، ٨١/١٨ – ٨٢ ، (ط . الحلبى) ٥١٤/٢ .

(٣) فى الأصل : أشرف ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : أن الفجور بمملوكه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : دار ، وهو تحريف .

أو محرَّمته . وأيضا فالعقوبة بالقتل إنما تكون فى حق البالغ (١ ، وأما الصبى – وأمثاله – فيجوز قتله إذا قاتل مع الكفار ١) ، فأما بمجرد فعله هو بنفسه فلا يقتل بل يعاقب بما يزجره (٢) .

وكذلك النوع الثانى من الحلال ، وهو ملك اليمين ، فإن المرأة قد تملك الرجل ، والرجل قد يملك الصبى ، وقد يكون فى هذا الملك نوع من ملك الرجل الأمة ، فربما استمتعت المرأة بمملوكها بمقدمات النكاح ، أو بالنكاح ، مضاهاة لاستمتاع الرجل بمملوكته (٣) ، وربما تأوَّلت القرآن على ذلك ، واعتقدت أن ذلك داخل فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦] ، كما رفع إلى عمر ابن الخطاب امرأة تزوجت عبدها ، وتأوَّلت هذه الآية ، ففرَّق بينهما ، وأدَّبه ، وقال : ويحك إنما هذه للرجال لا للنساء (٤) .

وكذلك كثير من جهَّال الترك وغيرهم قد يملك من الذكران من يحبهم ويستمتع بهم ، وقد يتأوَّل بعضهم على ذلك : ﴿ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦] ، ومن المعلوم أن هذا كفر بإجماع المسلمين ، فالاعتقاد بأن (٥) الذكران حلال – بملك أو غير ملك – باطل وكفر بإجماع المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم .

(١ – ١) : هذه العبارات مضطربة محرفة فى الأصل ، وكذا استظهرتها .

(٢) انظر فى حكم اللواط : المغنى لابن قدامة ٣١/٩ – ٣٢ (ط . مطبعة العاصمة ، القاهرة ، بدون تاريخ) ؛ نيل الأوطار للشوكانى ٢٨٦/٧ – ٢٨٨ (ط . المنيرية ، ١٣٤٤) ؛ المحلّى لابن حزم ٣٨٠/١١ – ٣٨٦ (ط . المنيرية ، ١٣٥٢) .

(٣) فى الأصل : بمملوكه ، وهو تحريف .

(٤) انظر : تفسير الطبرى (دار المعارف) ٥٨٦/٩ ؛ تفسير ابن كثير ٤٥٧/٥ وقال ابن كثير عن هذا الأثر : « هذا أثر غريب منقطع » .

(٥) فى الأصل : فاعتقاد بيان ، وهو تحريف .

ثم من هؤلاء من يتأول هذه الآية ، ومنهم من يتأول : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢١] ولا يفرق بين المنكوح والناكح ، كما سألنى مرة بعض الناس عن هذه الآية ، وكان ممن يقرأ القرآن ويطلب العلم ، وقد ظن أن معناها إباحة ذكران المؤمنين .

وآخرون قد يجتمع بهم من يقول لهم : إن فى هذه المسألة [١] خلافا ، ويكذب / أئمة المسلمين الذين لاتكون مذاهبهم ظاهرة فى بلاده ، مثل من يكون بأرض الروم فيكذب على مذهب مالك ويقول : هو مباح فى مذهب مالك ، ومنهم من يقول : هذا مباح للضرورة ، مثل أن يبقى الرجل أربعين يوما [٢] ، إلى أمثال هذه الأمور التى خاطبنى فيها ، وسألنى عنها ، طوائف من الجند والعامة والفقراء ، وكان عندهم من هذه الاعتقادات الفاسدة ألوان مختلفة ، قد صدتهم عن سبيل الله .

ظ ١٧٣

ومنهم من قد بلغه خلاف بعض العلماء فى وجوب الحد فى بعض الصور ، فيظن أن ذلك خلاف فى التحريم ، فربما قال ذلك أو اعتقده ، ولا يفرِّق بين الخلاف على الحد المقدَّر والتحريم ، وأن الشيء قد يكون من أعظم المحرَّمات ، كالدم والميتة ولحم الخنزير ، وليس فيه حدٌّ مقدر .

ثم ذلك الخلاف قد يكون قولا ضعيفا [٣] ، فيتولد من ذلك القول الضعيف – الذى هو خطأ بعض المجتهدين [٤] ، وهذا [٥] الظن الفاسد الذى هو خطأ بعض الجاهلين – ومن الكذب الذى هو فرية بعض الظالمين ، تبديل

---

(١) فى الأصل : المسلمة .
(٢) أربعين يوما : كذا بالأصل . والمقصود أن يبقى الرجل أربعين يوما بدون نكاح .
(٣) فى الأصل : معينا ، وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : المجتهد ، وهو تحريف .
(٥) فى الأصل : وهو .

الدين ، وطاعة الشياطين ، وسخط رب العالمين ، حتى نُقل أن كثيرا من المماليك يتمدّح بأنه لا يعرف إلا سيده ، كما تتمدح الأمة بأنها لا تعرف إلا سيدها وزوجها ، وكذلك كثير من المردان [١] الأحداث يتمدّح بأنه لا يعرف إلا خدينه وصديقه أو مؤاخيه ، كما تتمدح المرأة بأنها لاتعرف إلا زوجها . وكذلك كثير من الزناة بالمماليك والأحداث من الصبيان ، قد يتمدح بأنه عفيف عمَّا سوى خدنه ، الذى هو قرينة كالزوجة ، أو عمَّا سوى مملوكه الذى هو قرينه [٢] ، كما يتمدح المؤمن بأنه عفيف [إلا] [٣] عن زوجته أو ما ملكت يمينه .

ولا ريب أن الكفر والفسوق والعصيان درجات ، كما أن الإيمان والعمل الصالح درجات : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٣] . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [سورة التوبة : ٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف : ٥] ، كما قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٧] وقال ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ [سورة المائدة : ٦٨] ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ ﴾ [سورة الرعد : ٣٦] .

فالمتخذ خدنا من الرجل والنساء أقل شرا من المسافح ، لأن الفساد فى ذلك أقل ، والمستخفى بما يأتيه أقل إثما من المجاهر المستعلن ، كما فى الحديث عن

---

(١) فى الأصل كأنها : اللصفا . ولعل الصواب ما أثبته . وانظر : إغاثة اللهفان لابن القيم ، ١٤٦/٢ (ط . الفقى ، القاهرة ١٩٣٩/١٣٥٨) .

(٢) فى الأصل الكلمة غير واضحة كأنها « كربنه » ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

النبى ﷺ أنه قال : « من ابتلى من هذه القاذورات بشىء فليستتر بستر الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب الله » (١) .

وقد قال ﷺ : « من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة » (٢) .

ص ١٧٤ وفى الحديث : / « إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها ، ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت الجماعة (٣) » .

وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يبيت (٤) الرجل على الذنب وقد ستره الله ، فيصبح فيتحدث بذنبه (٥) ، ويقول : يا فلان فعلت الليلة كيت وكيت » ، أو كما قال (٦) .

---

(١) الحديث عن زيد بن أسلم رضى الله عنه فى : الموطأ ٢/٨٢٥ (كتاب الحدود ، باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا) ولفظه : أن رجلا اعترف على نفسه بالزنا .... فأمر به رسول الله ﷺ فجلد . ثم قال : أيها الناس ، قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله . من أصاب من هذه القاذورات .... الحديث .

(٢) الحديث بهذا اللفظ جزء من حديث طويل عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٤/٢٠٧٤ (كتاب الذكر ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن) وأوله : « من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا .... الحديث . وهو – مع اختلاف فى اللفظ – فى : سنن أبى داود ٤/٣٩٣ (كتاب الأدب ، باب فى المعونة للمسلم) ؛ سنن ابن ماجة ١/٨٢ (المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم) ٢/٨٥٠ (كتاب الحدود ، باب الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات) ؛ سنن الترمذى ٢/٤٣٩ (كتاب الحدود ، باب ما جاء فى الستر على المسلم) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٣/١٦١ ، ١٥/٨٦ وفى مواضع أخرى فيه .

(٣) ذكر السيوطى فى « الجامع الكبير » هذا الحديث بلفظ : « الخطية إذا أخفيت لا تضر إلا صاحبها ، وإذا ظهرت فلم تغيّر ضرت العامة » ثم قال السيوطى : « الديلمى عن أبى هريرة » .

(٤) فى الأصل : أن سبب (بغير نقط) .

(٥) فى الأصل : سيه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٨/١٩ – ٢٠ (كتاب الأدب ، باب ستر المؤمن على نفسه) ونصه : « كل أمتى معافىً إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، =

فالإقلال والاستخفاء خير من هذه الوجوه ، ولكن قد يقترن بها ما يكون أعظم من بعض المسافحة والمجاهرة ، وهى المحبة والتعظيم التى توجب محبة ما يحبه الخدن ، وتعظيم مايعظمه ، وموالاة من يواليه ، ومعاداة من يعاديه ، والاستسرار بذلك والنفاق فيه ، فقد تكون فى هذه الموالاة والمعاداة والنفاق من العدوان والضرر على المسلمين ، أعظم مما فى المجاهرة والمسافحة ، ويكون [١] ذلك بمنزلة الكافر المعلن كفره ، وهذا بمنزلة المنافق . فأما إذا لم يكن عدوان على الناس وتضييع لحقوقهم لانتفاء المحبة أو لغير ذلك ، فالأول أخبث وأفحش . وتفاوت الشرور فى القدر والصفة كثير ، كما يتفاضل الخير أيضا فى القدر والوصف ، والواجب استعمال [٢] الكتاب والسنة فى جميع الأمور [٣] .

ولا ريب أن هذه المخادنة وملك اليمين ونحو ذلك مما فيه اشتراك فى محرم مضاد للحلال ، لابد أن يتضمن من [٤] المباح ما يصير فيه من الشبه بالحلال ، و [من] التمييز [٥] عن الحرام المحض مايكون فيه رواج له ، إذ الحرام المحض من كل وجه لا يشتبه بالحلال المحض من كل وجه ، بل يقتنى [٦] الرجل المملوك لنوع من الاستخدام ، ويضم إلى ذلك الاستمتاع ، وقد يكون هذا أغلب فى نفسه من

= ثم يصبح وقد ستره الله ، فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » . والحديث أيضا فى : مسلم ٢٢٩١/٤ (كتاب الزهد ، باب النهى عن هتك الإنسان ستره) .

(١) فى الأصل الكلمة غير واضحة كأنها : مراده . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : واستعمال .

(٣) فى الأصل كأنها : والدارين .

(٤) فى الأصل : فى ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : والتمييز . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : يقى . ولعل الصواب ما أثبته .

الآخر ، وقد يكون بالعكس . وذلك الاستخدام قد يكون مباحا فى الشريعة ، وقد يكون فيه نوع من الظلم والعدوان ، إما باسترقاق الأحرار ، وإما باشتراء المماليك لنفسه بالمال المغصوب (١) من بيت المال أو غيره ، وإما فى استخدامهم على وجه الكبرياء والعلو فى الأرض بإذلاله لهم (٢) فى غير طاعة الله ، وإذلال الناس بهم فى غير طاعة الله ، إلى أمثال ذلك من الوجوه التى يكون فيها من الظلم والعدوان أمور عظيمة ، وينضم إلى ذلك الفاحشة .

وكذلك فى المخادنة التى صورتها مؤاخاة ، قد تكون لأجل الاستئجار لصناعة ونحوها ، وقد تكون لتعلم صناعة أو كتابة أو قراءة أو علم أو تأديب وتنوير ، وغير ذلك من الأمور المباحة والمستحبة والواجبة فى الدين ، وقد تكون لكفالة وتربية ، إما ليتم ذلك الصبى أو غربته ، أو لقرابة بينهما ، أو غير ذلك ، وقد يكون اشتراكا محضا فى صناعة أو تجارة أو بحمل مال ، أو مجاورة وصلة (٣) ، أو تعلم أو تأدب أو غير ذلك مما يشترك الناس فيه لغير فاحشة بشركة مباحة أو مأمورٍ بها أو منهىٍّ (٤) عنها ، ويكون بينهم فى ذلك من التعاقد والتحالف ما يكون بين المشتركين فى الأمور ، وقد يسمى ذلك صديقا ورفيقا ، وسمى بالتركية / خوشداشا وغير ذلك ، وهو من قسم التحالف ، فيكون بين المشتركين فى الحلال والحرام (٥) من المعاوضة والمشاركة ، [إما] (٦) على غير فاحشة ، وإما (٧)

ظ ١٧٤

---

(١) فى الأصل : المال لنفسه المغضوب ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بإذلالهم له ، وهو خطأ . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل الكلمة غير واضحة وكذا استظهرتها .

(٤) فى الأصل : أو منهيا ، وهو خطأ .

(٥) فى الأصل : فى المشتركين فى الحرم ، والكلام ناقص ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) زدت « إما » ليستقيم الكلام .

(٧) فى الأصل : إما .

معاوضة بتلك ، فتكون شبهة مع الشهوة . فغالب وقوع المحرمات من هذا الباب ، وقد لُبِّس فيه الحق بالباطل ، وأُشْرِك [(١)] فيه الحق بالباطل .

موقف المؤمن من الشرور والخيرات وما يجب عليه حيالها

والمؤمن ينبغى له أن يعرف الشرور الواقعة ، ومراتبها فى الكتاب والسنة ، كما يعرف الخيرات الواقعة ، ومراتبها فى الكتاب والسنة ، فيفرِّق [بين] [(٢)] أحكام الأمور الواقعة الكائنة ، والتى يُراد إيقاعها فى الكتاب والسنة ، ليقدِّم ما هو أكثر خيراً وأقل شرًّا على ما هو دونه ، ويدفع أعظم الشرين باحتمال أدناهما ، ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما ، فإن من لم يعرف الواقع فى الخلق ، والواجب فى الدين ، لم يعرف أحكام الله فى عباده ، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل ، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وإذا عَرَف ذلك فلابد أن يقترن بعلمه العمل الذى أصله محبته لما يحبه الله ورسوله ، وبغضه لما يبغضه الله ورسوله . وما اجتمع فيه الحبيب والبغيض ، المأمور به والمنهى عنه ، أو الحلال والمحظور [(٣)] ، أعطى كل ذى حق حقه ليقوم الناس بالقسط ، فإن الله بذلك أنزل الكتاب ، وأرسل الرسل ، فالعلم بالعدل قبل فعل العدل .

فإذا علم وأحب [(٤)] ، كان من تمامه الجهاد عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] [(٥)] ، والعلم

---

(١) فى الأصل : وأشركه .

(٢) زدت « بين » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : والمحضور .

(٤) فى الأصل : واجب .

(٥) جاءت الآية فى الأصل محرّفة .

هو طريق إلى العمل وسبب ، كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ [سورة الكهف : ٨٤] أى علما .

فالعلم بالخير سبب إلى فعله ، والعلم بالشر سبب إلى منعه ، هذا مع حسن النية ، وإلا فالنفس الأمَّارة بالسوء قد يكون علمها [1] بالسوء سبب لفعله ، وبالخير سبب لمنعه ، وكذلك الإثم والبغى بغير الحق ، مثل الخمر الذى اتُّخذ منه أنواع من المسكرات ، وقيل : إنها حلال ، وسُمِّيت بغير أسماء الخمر ، وهى من الخمر .

وكذلك ظلم العباد فى النفوس والأموال والأعراض ، فيه ما قد سمى حقًّا وعدلاً [2] وشرعا وسياسة وجهادا فى سبيل الله ، وهو من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يحصيه إلا الله . وكذلك الإشراك بالله بغير حق ، والقول بما لا يُعلم ، مثل أنواع الغلو فى الدين ، واتخاذ العلماء والعباد أربابا من دون [الله ، والقول] [3] بتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ، وأنواع الإشراك بالمخلوقات : عبادة لها ، واستعانة بها ، وغُلُوا فيها ، وقولا على الله فى أسمائه وصفاته وأحكامه ما [4] قد دخل فى ذلك من الباطل الذى سُمِّىَ بأسماء محمودة أو غير مذمومة : كالعبادة ، والزهادة ، والتحقيق ، وأصول الدين ، والفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والكلام ، / والفقر والتصوف ما لا يحصيه إلا الله [5] . ص ١٧٥

ومما ينبغى أن يُعرف أن كل تبديل يقع فى الأديان ، بل كل اجتماع فى العالم ، لابد فيه من التحالف ، وهو الاتفاق والتعاقد على ذلك ، من اثنين فصاعدا .

---

(١) فى الأصل : عملها ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : وعده . ولعل الصواب ما أثبته .
(٣) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .
(٤) بعد « ما » كتب « وبها » ويبدو أنها زائدة ، ونسى الناسخ حذفها .
(٥) فى أعلى صفحة ١٧٥ إلى اليسار كتب : الرابع .

بنو آدم لا يمكن عيشهم إلا بالتعاقد والتحالف

فإن بنى آدم لا يمكن [١] عيشهم إلا بما يشتركون فيه من جلب منفعتهم ودفع مضرتهم . فاتفاقهم على ذلك هو التعاقد والتحالف .

ولهذا كان الوفاء بالعهود من الأمور التى اتفق أهل الأرض على إيجابها لبعضهم على بعض ، وإن كان منهم القادر الذى لا يوفِّى بذلك ، كما اتفقوا فى إيجاب العدل والصدق ، فإذا اتفقوا وتعاقدوا على اجتلاب الأمر الذى يحبونه ، ودفع الأمر الذى يكرهونه ، أعان بعضهم بعضا على اجتلاب المحبوب ، ونصر بعضهم بعضا على دفع المكروه ، ولو لم يتعاقدوا بالكلام ، فنفس اشتراكهم فى أمر يوجب عليهم اجتلاب ما يصلح ذلك الأمر المشترك ، ودفع ما يضره ، كأهل النسب الواحد ، وأهل البلد الواحد ، فإن التناسب والتجاور يوجب التعاون على جلب المنفعة المشتركة ، ودفع الضرر المشترك .

فصار الاشتراك بينهم تارة يثبت بفعلهم ، وهو التعاقد على ما فيه خيرهم [٢] ، وتارة يثبت بفعل الله تعالى . وقد جمع الله عز وجل هٰذين الأصلين فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ [سورة النساء : ١] ، وذكر فى هذه السورة [الأمور] [٣] التى بينهم من جهة الخلق ، وهى من جهة العقود ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْرًا ﴾ [سورة الفرقان : ٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [سورة الرعد : ٢٠ ، ٢١] الآية .

---

(١) فى الأصل : لا تمكن .

(٢) بعد كلمة « التعاقد » يوجد فى المصورة كلمات غير واضحة كأنها : لعطارد عنها . ولعل ما أثبته يستقيم به المعنى .

(٣) زدت « الأمور » ليستقيم الكلام .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفَاسِقِينَ ۔ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦ ، ٢٧] .

وإذا كان لابد فى كل ما يشتركون فيه ، من تحالف وغير تحالف ، من التعاون على جلب المحبوب ، والتناصر لدفع المكروه ، فالمحبوب هو الموالى ، والمكروه هو المعادى ، فلابد لكل بنى آدم من ولاية وعداوة ، ولهذا جميعهم يتمادحون بالشجاعة والسماحة ؛ فإن السماحة إعانة على وجود المحبوب بالأموال والمنافع وغير ذلك ، والشجاعة نصر لدفع المكروه بالقتال وغيره ، ولا قوام لشيء من أمور بنى آدم إلا بذلك ، ومبنى ذلك بينهم على العدل فى المشاركات والمعاوضات .

فظهر أن جميع أمور بنى آدم لابد فيها من تعاون بينهم ، ودفع ومنع لغيرهم ، فلابد لهم من عقد وقدرة ، والعقد أصله الإرادة كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾ [سورة النساء : ١] / أى يتعاهدون ويتعاقدون [١] ، والقدرة : القدرة . ظ ١٧٥

ومعلوم أنه لابد فى كل فعل من إرادة وقدرة ، والمشتركون لابد من اتفاقهم فى إرادة وفى قدرة . فالذى يناله بعضهم من جلب محبوب ودفع مكروه من بعض ، هو بالإرادة والطوع ، والذى ينالونه من غيرهم من جلب محبوب ودفع مكروه ، وهو بالقدرة على ذلك العدو المكروه منه ، كما أن [٢] الوطء [٣] بملك النكاح الذى هو عقد ، أصله الإرادة والطوع ، وبملك اليمين ، الذى هو قهر بالقدرة على سبيل الكره ، واشتراكهم فى الجلب والدفع إما أن يكون تبعا لتعاقدهم ، وإما أن

(١) فى تفسير الطبرى للآية عن الضحاك والربيع : اتقوا الله الذى به تعاقدون وتعاهدون .
(٢) فى الأصل : كما لو أن ....
(٣) فى الأصل : الوطى .

يكون بأمر آمر مطاع فيهم ، فالأول : هو التحالف . والثانى : ما يطاع بغير تحالف ، سواء كانت طاعته بحق أو بغير حق .

فالذى بحق ما أمر الله بطاعته من أنبيائه وأولى الأمر من المؤمنين ، وطاعة الوالدَيْن ، ونحو ذلك ، وما يُجاب به بعضهم إلى مراد بعض بحق ، فإن ذلك هو معنى الطاعة ، إذ المقصود بها موافقة المطلوب .

وأما بغير حق فكطاعة الطواغيت ، وهو كل ما عُظِّم بباطل .

التحالف يكون وفقا الشريعة منزلة أو شريعة غير منزلة أو سياسة

وكل قوم لا تجمعهم طاعة مطاع فى جميع أمورهم ، فلابد لهم من التعاقد والتحالف فيما لم يأمرهم به المطاع .

ولهذا كانت الشريعة المنزَّلة من عند الله الأفعال فيها التى تجب لله ، وتجب لبعض الناس على بعض : تارة تجب بإيجاب الله ، وتارة تجب بالعقد : كالنذر ، وكعقود المفاوضات والمشاركات ، فلا واجب فى الشريعة إلا بشرع أو عقد .

وإذا لم يكونوا على شريعة منزَّلة من عند الله ، فإما أن يكونوا على شريعة [غير] (١) منزَّلة أو سياسة وضعها بعض المعظَّمين (٢) فيهم بنوع قدرة وعلم ونحو ذلك ، وما بقدرة من هذه الأمور الجامعة أوجب التحالف بينهم ، فإنه لا ينتظم لهم أمر إلا بطاعة آمرٍ متحالفون عليه ، أو يأمرهم به من يطيعونه ، ولهذا أُنكر التحالف فى الأمم الخارجة عن الشريعة ، وفى الخارجين عنها ، وفى الأمور التى لا تُرَدُّ إلى الشريعة ، وإنما يظهر ذلك حيث تدرس آثار النبوة المطاعة ، فيتحالف قوم على طاعة مَلِك أو شيخ ، أو طاعة بعضهم لبعض فى (٣) أمور

---

(١) زدت « غير » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : المعضمين .

(٣) فى الأصل : من .

يتفقون عليها ويتحالفون ، كما كان العرب فى جاهليتهم [(١)] يتحالفون . ومنه الحليف الذى يكون فى القبيلة / فيصير منهم . ص ١٧٦

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [سورة النساء : ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩١ ، ٩٢] .

وكذلك ما يوجد من التحالف بالتآخى وغير التآخى للملوك والمشايخ وأهل الفتوة ورماة البندق ، وسائر المتفقين على بعض الأمور ، هو داخل فى هذا . وأيْمان [(٢)] التعاقد والتحالف عام لبنى آدم ، وهم فى جاهليتهم تارة يتحالفون تحالفاً يحبه الله ، كما قال النبى ﷺ : « لقد شهدت حلفا مع عمومتى [(٣)] فى دار عبد الله بن جُدْعَان ما يسرنى بمثله حُمْر النَّعَم ، أو قال : [ما] [(٤)] يسرنى حُمْر النَّعَم وأن أنقضه [(٥)] ، ولو دُعيت إلى مثله فى الإسلام لأجبت » [(٦)] .

---

(١) فى الأصل : كما كان فى العرب جاهليتهم ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ... هذا إيمان .

(٣) فى الأصل : فى عمومتى . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته . وعبارة « مع عمومتى » جاءت فى حديث آخر ، كما سوف أبينه بعد قليل إن شاء الله .

(٤) زدت « ما » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : وإن نقضه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) لم أجد هذا الحديث فى كتب السنة ، ولكن جاء فى سيرة ابن هشام ١٤١/١ – ١٤٢ =

وفى مثل هذا ما رواه [مسلم] عن [جبير بن مطعم ، عن] النبى ﷺ (١) أنه [قال :] (٢) « لا حلف فى الإسلام ، وما كان من حلف فى الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة » (٣) .

= ونصه : « قال ابن إسحاق : فحدثنى محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمى أنه سمع طلحة بن عبد الله ابن عوف الزهرى يقول : قال رسول الله ﷺ : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لى به حُمْر النَّعم ، ولو أُدعى به فى الإسلام لأجبت » .

وذكر الخبر ابن سعد فى « الطبقات الكبرى » ١/١٢٨ - ١٢٩ (ط . بيروت ، ١٣٧٦/١٩٥٧) ونصه فيه : « قال : وأخبرنا محمد بن عمر قال : فحدّثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى عن طلحة بن عبد الله بن عوف عن عبد الرحمن بن أزهر عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : ما أحب أن لى بحلف حضرته بدار ابن جُدعان حُمْرَ النَّعَم وأنى أغدر به ، هاشم وزُهرة وتَيْم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بَلَّ بحر صوفة ، ولو دُعيت به لأجبت . وهو حلف الفضول » .

(١) فى الأصل : ما رواه (كذا) عن جابر عن النبى ﷺ . وكتبت كلمة « كذا » فوق البياض . والصواب ما أثبته إن شاء الله .

(٢) زدت « قال » ليستقيم الكلام .

(٣) الحديث عن جبير بن مطعم رضى الله عنه فى : مسلم ٤/١٩٦٠ (كتاب فضائل الصحابة ، باب مؤاخاة النبى ﷺ بين أصحابه رضى الله تعالى عنهم) ونصه فيه : « لا حلف فى الإسلام ، وأيّما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » . والحديث أيضا فى : سنن أبى داود ٣/١٧٧ - ١٧٨ (كتاب الفرائض ، باب فى الحلف) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٤/٨٣ .

على أن هذا الحديث يقابله حديث آخر عن أنس رضى الله عنه جاء فى : البخارى ٣/٩٦ (كتاب الكفالة ، باب قول الله تعالى : والذين عاقدت أيمانكم ....) ونصه : « ... حدثنا عاصم ، قال : قلت لأنس رضى الله عنه : أبلغك أن النبى ﷺ قال : لا حلف فى الإسلام ؟ فقال : قد حالف النبى ﷺ بين قريش والأنصار فى دارى » . وجاء هذا الحديث أيضا فى : سنن أبى داود ٣/١٧٨ (كتاب الفرائض ، باب فى الحلف) وفى مواضع أخرى فى كتب السنة .

وقال النووى فى شرحه على مسلم ١٦/٨١ - ٨٢ : « قال القاضى : قال الطبرى : لا يجوز الحلف اليوم ، فإن المذكور فى الحديث والموارثة به وبالمؤاخاة كله منسوخ لقوله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾[سورة الأنفال : ٧٥] . وقال الحسن : كان التوارث بالحلف ، فنسخ بآية المواريث . قلت : أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء . وأما المؤاخاة فى الإسلام ، والمحالفة على طاعة الله تعالى ، والتناصر فى الدين ، والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق ، فهذا باقٍ لم ينسخ » .

وهذا الحلف يسمى حلف المُطَيِّبين [١] ، كان يقدم إلى مكة من يظلمه بعض أكابرها ، فيستصرخ فلا ينصره أحد ، حتى أنشد بعض القادمين :

يا آل مكة مظلوم بضاعته ببطن مكة بين الركن والحجر

وكان عبد الله بن جدعان [٢] من خيارهم ، فاجتمعت قبائل من قريش فى بيته على التحالف للتعاون على العدل ونصر المظلوم ، ووضعوا أيديهم فى قصعة فيها طيب ، فسمى حلف المطيِّبين [٣] .

---

(١) جاء ذكر حلف المطيبين فى مسند أحمد فى موضعين الأول ١٢١/٣ - ١٢٢ (ط . المعارف) ونصه : « ... عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف عن النبى ﷺ قال : شهدت حِلف المُطَيِّبين مع عمومتى وأنا غلام ، فما أحب أن لى حُمْر النَّعَم وأنى أنكثه . قال الزهرى : قال رسول الله ﷺ : لم يُصب الإسلام حلفا إلا زاده شدة ، ولا حلف فى الإسلام ، وقد ألف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار » . والحديث الثانى ١٣٦/٣ (ط . المعارف) وهو مختصر للحديث الأول وصحح الشيخ أحمد شاكر الحديثين (والقسم الذى يبدأ بكلام الزهرى مرسل) ، وذكر أن الحديث فى مجمع الزوائد ١٧٢/٨ وأن ابن كثير نقله فى تاريخه ٢٩٠/٢ - ٢٩١ وأن ابن كثير نقل عن البيهقى قوله : « وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفُضُولِ ، فإن النبى ﷺ لم يدرك حلف المطيبين » ووافق ابن كثير البيهقى (انظر كلامه فى ذلك) ، ولكن الشيخ أحمد شاكر رحمه الله خالفه وقال : « ولا شك أن الحلف الذى كان عقيب موت قصى قديم ، ولكن هذا لا ينفى أن يسمى الحلف الذى شهده رسول الله « حلف المطيبين » فهو حلف آخر كان قبل البعثة ، ولعله كان توكيداً للحلف القديم . انظر : النهاية ٢٤٩/١ - ٢٥٠ وفيها : « وكان رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه من المطيبين ، وكان عمر رضى الله عنه من الأحلاف » . ونحو هذا فى قاموس الفيروزابادى فى مادة (ط ى ب) » .

(٢) انظر ما ذكره ابن كثير فى تاريخه من أخبار عبد الله بن جُدْعان ٢١٧/٢ - ٢١٨ = ١١٦/١ - ١١٧ (السيرة النبوية لابن كثير ، تحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد ، ط . عيسى الحلبى ، ١٩٦٤/١٣٨٤) .

(٣) قال ابن كثير فى تاريخه ٢٩١/٢ - ٢٩٢ = السيرة النبوية ٢٥٨/١ - ٢٥٩ : « قالوا : وكان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة فى شهر ذى القعدة ، وكان بعد حرب الفِجار بأربعة أشهر ، وذلك لأن الفجار كان فى شعبان من هذه السنة . وكان حلف الفُضُول أكرم حلف سُمِع به ، وأشرفه فى العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب . وكان سببه أن رجلا من زَبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف : عبد الدار =

فأما إذا كان القول على الشريعة التى بعث الله بها رسوله فى دينهم ودنياهم فإن ذلك يغنيهم عن [١] التحالف إلا عليها ، فعليها يكون تحالفهم وتعاقدهم وتعاونهم وتناصرهم ، كما وصف الله به المحبين المحبوبين فى قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] .

وعلى ذلك يُبَايَعُ المطاعون [٢] فيهم من الأمراء والعلماء وغيرهم ، كما قال أبو بكر الصديق فى خطبته للمسلمين : « أطيعونى ما أطعت الله [ورسوله] [٣] ، فإذا عصيت الله [ورسوله] [٣] فلا طاعة لى عليكم » [٤] .

= ومخزوماً وجُمحاً وسهماً وعدىَّ بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل ، وزبروه – أى انتهروه – فلما رأى الزبيدى الشر أوفى على أبى قُبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فنادى بأعلى صوته :

يا آل فِهْر لمظلوم بضاعتــه ... ببطن مكة نائى الدار والنفَرِ
ومُحرمٍ أشعثٍ لم يقْضِ عُمْرته ... يا للرجال وبين الحجر والحِجرِ
إن الحرام لمَنْ تمَّت كرامتــه ... ولا حَرَام لثوب الفاجر الغَدِرِ

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مَتْرك . فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرَّة فى دار عبد الله بن جُدعان فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدىّ إليه حقه ما بَلَّ بحرٌ صوفةً ، ومارسى ثَبير وحِرَاء مكانها ، وعلى التآسى فى المعاش . فسمت قريش ذلك الحلفَ حلفَ الفضول ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضلٍ من الأمر ... » .

(١) فى الأصل : يعنيهم على . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : الطاعون ، وهو تحريف ظاهر .

(٣) ورسوله : ساقطة من الأصل ، وهى من تمام خطبة أبى بكر رضى الله عنه .

(٤) فى الأصل : فيكم ، وهو خطأ . وقد أورد ابن كثير فى « تاريخه » ٦/٣٠١ الخطبة كاملة وسندها : « وقال محمد بن إسحاق بن يسار ، حدثنى الزهرى ، حدثنى أنس بن مالك قال ... » وأول الخطبة : « أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم .... » وقال ابن كثير : « وهذا إسناد صحيح » .

وبذلك أمر الله ورسوله فى طاعة أولى الأمر ، فقال النبى ﷺ : « على المرء المسلم السمع والطاعة : فى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه [١] ، ما لم يؤمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية / الله فلا سمع ولا طاعة » [٢] . وقال النبى ﷺ : « إنما الطاعة فى المعروف » [٣] ، و « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » [٤] .

ظ ١٧٦

وفى الصحيح أن عبد الله بن عمر كتب بيعته إلى عبد الملك بن مروان لما اجتمع الناس عليه : « لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين ، إنى قد أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت ، وقد أقرَّ بَنِيَّ لما أقررت به » [٥] فأخبره أنه يعاقده على ما أمر الله به من الطاعة له فى طاعة الله بحسب قدرته ، وهذا واجب عليه بالشرع .

---

(١) فى الأصل : ومكروهه . والمثبت هو لفظ الحديث .

(٢) جمع ابن تيمية هنا بين حديثين . الأول عن ابن عمر رضى الله عنهما ونصه (فى مسلم) : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . وسبق هذا الحديث فى المجموعة الأولى ، ص ٢٧٤ ت ٣ . والحديث الثانى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ونصه فى مسلم ١٤٦٧/٣ ، (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية ....) : « عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك » ، وهو فى : سنن النسائى ١٢٦/٧ (كتاب البيعة ، باب البيعة على الأثرة) .

(٣) سبق ورود هذا الحديث فى المجموعة الأولى من « جامع الرسائل » ص ٢٧٤ وذكرت نصه وتكلمت عليه فى (ت ١) . والحديث أيضا عن علىّ رضى الله عنه فى : البخارى ١٦١/٥ (كتاب المغازى ، باب بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى خزيمة) ، ٨٨/٩ (كتاب الآحاد ، باب ما جاء فى إجازة خبر الواحد الصدوق فى الآذان والصلاة ....) ؛ سنن أبى داود ٥٥/٣ (كتاب الجهاد ، باب فى الطاعة) ؛ سنن النسائى ١٤٢/٧ (كتاب البيعة ، جزاء من أمر بمعصية فأطاع) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٦/٢ ، ٩٨ ، ٢٢١ .

(٤) مضى الحديث من قبل فى المجموعة الأولى ، ص ٢٧٤ ت ٢ فارجع إليه .

(٥) فى الأصل : وقد أمرتنى لما أقررت به . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته . وجاء هذا الأثر مرتين فى : صحيح البخارى ٧٧/٩ ، ٧٨ (كتاب الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس) عن عبد الله ابن دينار عن عبد الله بن عمر أنه كتب « إنى أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت ، وإنَ بَنِيَّ قد أقروا بذلك » . وجاء الأثر بمعناه فى : الموطأ ٩٨٣/٢ (كتاب البيعة ، باب ما جاء فى البيعة) .

فهو تعاقد على ما أمر الله بمنزلة نفس الدخول فى الإسلام ، وبيعة النبى ﷺ ، كما بايعه الأنصار ، وكما بايعه المسلمون تحت الشجرة ، وكما كان يبايع المسلمين على السمع والطاعة ويلقّنهم : فيما استطعتم [١] .

وطاعة الرسول واجبة على الخلق بإيجاب الله بمعاقدتهم على ذلك : معاقدة على طاعة الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨١] .

لكن هذا إنما كان ظاهرا فى أيام الخلفاء الراشدين ، وبعدهم كثرت العقود الموافقة للشريعة تارة ، والمخالفة لها أخرى ، فلا جرم كان الحكم العام فى جميع هذه العقود أنه يجب الوفاء فيها بما كان طاعةً لله ، ولا يجوز الوفاء فيها بما كان معصية لله ، كما قال النبى ﷺ فى الأحاديث الصحيحة : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ، ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرطٍ . كتاب الله [٢] أحق ، وشرط الله أوثق » [٣] وقال ﷺ : « من نذر أن

(١) جاءت أحاديث متعددة ذكر فيها أن النبى ﷺ كان يقول لصحابته إذا بايعوه على السمع والطاعة (أو يلقنهم) : « فيما استطعت » أو « فيما استطعتم » وللنساء : « فيما استطعتن وأطقتن » . وانظر هذه الأحاديث المتعددة التى جاءت عن عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وأميمة بنت رُقَيْقَة رضى الله عنهم جميعا فى : البخارى ٩/٧٧ ، ٧٨ (كتاب الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس) ؛ مسلم ٣/١٤٩٠ (كتاب الإمارة ، باب البيعة على السمع والطاعة) ؛ سنن النسائى ٧/١٣٦ – ١٣٧ (كتاب البيعة ، باب البيعة فيما يستطيع الإنسان) ؛ سنن ابن ماجة ٢/٩٥٨ (كتاب الجهاد ، باب البيعة) ؛ الموطأ ٢/٩٨٢ – ٩٨٣ (كتاب البيعة ، باب ما جاء فى البيعة) ؛ المسند (ط . المعارف) ٧/١٩٣ ، ٢٨٨ – ٢٨٩ ، ٨/١٣٠ ، ٩/١١٢ .

(٢) فى الأصل : ما به من شرط كان الله . والتصحيح من روايات الحديث الصحيحة .

(٣) هذا جزء من حديث عن عائشة رضى الله عنها وأوله (وهذا لفظ البخارى ١/٩٤) عن =

يطيع [الله] [١] فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » [٢] ، وفى السنن « المسلمون على شرطهم ، إلا شرطا أحلَّ حراما أو حرَّم حلالا » [٣] .

فأما أمر الدين وما يحبه الله ويقرِّب إليه ، فليس لعقود بنى آدم فيه أثر ، بل المرجع فى ذلك إلى أمر الله ورسوله ، فلا دين إلا ما أمر الله به ، ومن اتّبع فى ذلك عقود بنى آدم ، فهم الذين اتّبعوا شركاءهم ، الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن الله / به ، وهذه حال جميع ما ابتُدع من الدين ، فإن الذى ابتدعه وافقه عليه غيره وحالفه ، فاتخذوه دينا ، فتدين هذا فيه يظهر حال جميع [أهل] [٤] البدع المخالفة للكتاب والسنة وأن [٥] الموافقة عليها هى من هذا الباب .

ص ١٧٧

= عائشة قالت : أتتها بريرة تسألها فى كتابتها . فقالت : إن شئت أعطيت أهلك ويكون الولاء لى .... فلما جاء رسول الله ﷺ ذكرته ذلك ، فقال : « ابتاعيها فأعتقيها ، فإن الولاء لمن أعتق » ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر ... الحديث . وهو فى : البخارى ٩٤/١ (كتاب الصلاة ، باب ذكر البيع والشراء على المنبر فى المسجد) وهو فى مواضع أخرى فى البخارى ١٢٤/٨ ؛ مسلم ١١٤٢/٢ – ١١٤٣ (كتاب العتق ، باب إنما الولاء لمن أعتق) ؛ سنن أبى داود ٢١/٤ (كتاب العتق ، باب فى بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة) ؛ سنن النسائى ٢٦٨/٧ (كتاب البيوع ، باب بيع المكاتب) ؛ سنن ابن ماجة ٨٤٢/٢ – ٨٤٣ (كتاب العتق ، باب المكاتب) ؛ الموطأ ٧٨٠/٢ – ٧٨١ (كتاب العتق ، باب مصير الولاء لمن أعتق) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٨٢/٦ .

(١) لفظ الجلالة غير موجود بالأصل .

(٢) الحديث عن عائشة رضى الله عنها فى : البخارى ١٤٢/٨ (كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر فى الطاعة ، باب النذر فيما لا يملك وفى معصية) ؛ سنن أبى داود ٢٣٢/٣ (كتاب الأيمان والنذور ، باب ما جاء فى النذر فى المعصية) ؛ سنن النسائى ١٦/٧ (كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر فى الطاعة ، باب النذر فى المعصية) ؛ سنن ابن ماجة ٦٨٧/١ (كتاب الكفارات ، باب النذر فى المعصية) ؛ الموطأ ٤٧٦/٢ (كتاب النذور ، باب ما لا يجوز من النذور فى معصية الله) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٦/٦ ، ٤١ ، ٢٢٤ .

(٣) هذا جزء من حديث عن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٤٠٣/٢ (كتاب الأحكام ، باب ما ذكر عن رسول الله ﷺ فى الصلح بين الناس) . وأول الحديث : « الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرّم حلالا أو أحل حراما ، والمسلمون على شروطهم ... الحديث . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » وذكر المباركفورى فى شرحه ٥٨٤/٤ – ٥٨٥ (ط . السلفية ، المدينة المنورة ، ١٩٦٥/١٣٨٥) أقوال العلماء فى هذا التصحيح وخلاصتها أن طرق الحديث يشهد بعضها لبعض وأقل أحوالها أن يكون المتن الذى اجتمعت عليه حسنا .

(٤) زدت « أهل » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : أن .

وأكثر ما ينفق بين المسلمين ما فيه حق وباطل ، إذ الباطل المحض لا يبقى بينهم ، وذلك يتضمن التحالف على غير ما أمر الله به ، والتبديل لدين الله بما لُبِّس من الحق بالباطل ، وهذه حال اليهود والنصارى وسائر أهل الضلال ، فإنهم عدلوا عمَّا أمرهم الله باتّباعه ، فلبَّسوه بباطل ابتدعوه ، بدَّلوا به دين الله ، وتحالفوا على ذلك الذى ابتدعوه .

وأما المعاملات فى الدنيا فالأصل فيها أنه لا يَحْرُم منها إلا ما حرَّمه الله ورسوله ، فلا حرام إلا ما حرَّم الله ، ولا دين إلا ما شرعه . وإذا لم يَحْرُم إلا ما حرَّمه الله ورسوله فكأنّ ما كان بدله بدون التعاقد يجب بالتعاقد ، فإن العقد يوجب على كل واحد من المتعاوضين والمتشاركين ما أوجبه الآخر على نفسه له ، ولهذا قال النبى ﷺ : « المسلمون على شروطهم إلا شرطا أحلَّ حراما ، أو حرَّم حلالا » .

المسلمون على شروطهم إلا شرطا أحلّ حراما أو حرّم حلالا

وهذا الموضع كثر [١] فيه غلط كثير من الفقهاء بتحريم عقود وشروط لم يحرِّمها الله ، كما كثر [٢] فى الأول غلط كثير من العبَّاد والعلماء بابتداع دين لم يشرعه الله ، وإيجابه بالتعاقد عليه ، حتى يوجبون طاعة شخص معين ميتٍ أو حيٍّ من العلماء فى كل شيء ، ويحرِّمون طاعة غيره فى كل شيء نازعه فيه ، لمجرد عقد العامى الذى انتسب إلى هذا دون هذا .

وكذلك فى المشايخ ، حتى قد يأمرونه بمخالفة ما تبيَّن له من الشريعة لأجل العقد الذى التزمه للمذهب والطريقة ، فيشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ، ويأمرون بطاعة المخلوق فى معصية الخالق ، وأكثر ذلك يدخله نوع من الاجتهاد

---

(١) فى الأصل : كبير ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : كبر ، وهو تحريف .

الظاهر الذى فيه نوع من اتّباع الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى .

والواجب فى جميع هذه الأمور أن ما يتبين أنه طاعة لله ورسوله وجب اتّباعه ، وما اشتبه على الإنسان حاله سلك فيه مسلك الاجتهاد بحسب قدرته ، ولا يكلّف الله نفسا إلا وسعها ، واجتهاد العامة هو طلبهم للعلم من العلماء بالسؤال والاستفتاء بحسب إمكانهم .

فإذا كان جميع ما عليه بنو [1] آدم لابد فيه من تعاون وتناصر ، وفيه ما هو شرك بالله ، وفيه ما هو قول على الله بغير علم ، وفيه ما هو إثم وبغى ، وفيه ما هو من الفواحش – علم أنه لابد فى الإيمان من التعاون والتناصر على فعل ما يحبه الله تعالى ، ودفع ما يبغضه الله تعالى ، وهذا / هو الجهاد فى سبيله ، وأن أمر الإيمان لا يتم بدون ذلك ، كما لا يتم غير الإيمان إلا بما هو من نوع ذلك . ظ ١٧٧

فكل المتعاونين المتناصرين يجاهدون ، ولكن فى سبيل الله تارة ، وفى سبيل غير الله تارة ، ولا صلاح لبنى آدم إلا بأن يكون الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هى العليا .

قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] وهؤلاء الذين تولوا الله فتولاهم [2] الله ، والذين يدينون لغير الله هم ظالمون بتولّى بعضهم بعضا ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الجاثية :

---

(١) فى الأصل : بنى .
(٢) فى الأصل : يولاهم .

١٨ ، ١٩] ، ولا يتم لمؤمن ذلك إلا بأن يجمع بين ما جمع الله بينه ، ويفرق بين ما فرّق الله بينه ، وهذه حقيقة الموالاة والمعاداة ، التى مبناها على المحبة والبغضة .

فالموالاة تقتضى التحاب [1] والجمع ، والمعاداة تقتضى التباغض والتفرق . والله سبحانه قد ذكر الموالاة والجمع بين المؤمنين ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٥] . وذكر العداوة بينهم وبين الكفار فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥١] ثم ذكر حال المستنصرين بهم [2] فإن الموالاة موجبها التعاون والتناصر .

فلا يُفرَّق بين المؤمنين لأجل ما يتميز به بعضهم عن بعض ، مثل الأنساب والبلدان ، والتحالف على المذاهب والطرائق والمسالك والصداقات وغير ذلك ، بل يُعطَى كلٌّ من ذلك حقه ، كما أمر الله ورسوله ، ولا يُجمع بينهم وبين الكفار الذين قطع الله الموالاة بينهم وبينه ، فإن دين الله هو الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

والله سبحانه أرسل رسله بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، فيحتاج المؤمن إلى معرفة العدل ، وهو الصراط المستقيم ، وإلى العمل به ، وإلا وقع إما فى جهل وإما فى ظلم .

---

(١) فى الأصل : التجات ، وهو تحريف .

(٢) وهو قوله تعالى فى الآية التالية : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٢] . وانظر تفسير الطبرى للآية ١٠/٤٠٢ – ٤٠٧ (ط . المعارف) .

وذلك إنما وقع من التبديل والعقود الفاسدة ، كما ذكرنا من لبس الحق بالباطل ، حيث صارت المحرَّمات : من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير / الحق ، والإشراك بالله ما لم يُنزِّل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم – قد لُبِّس بها من الحق المأذون فيه ما صارت بسببه شبيهة [١] للحق الحسن ، وإن كانت مشتملة مع ذلك على الباطل السيئ ، وإن صار أصحابها بين عمل صالح وآخر سيئ ، فقوم ينكرون ذلك كله لما علموا فيه من المنكر البغيض ، وأقوام يقرُّون ذلك كله لما فيه من المحبوب .

ص ١٧٨

وهذه القاعدة قد ذكرناها غير مرة ، وهى اجتماع الحسنات والسيئات ، والثواب والعقاب ، فى حق الشخص الواحد ، كما عليه أهل جماعة المسلمين من جميع الطوائف ، إلا من شذَّ عنهم من الخوارج والوعيدية ، من المعتزلة ونحوهم ، وغالب المرجئة .

فإن هؤلاء ليس للشخص عندهم إلا [أن] [٢] يثاب أو يُعاقب ، محمود من كل وجه ، أو مذموم من كل وجه . وقد بيَّنا فساد هذا فى غير هذا الموضع ، بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ، وذكرنا أيضا الكلام [٣] فى الفعل الواحد نوعا وشخصا [٤] .

والغرض هنا أن هؤلاء الذين لبَّسوا الحق والباطل ، حصل فى مقابلتهم من أعرض [٥] عن الحق والباطل جميعا ، فصار هؤلاء مذمومين على فعل السيئات ،

---

(١) فى الأصل : سببه شبهه . ولعل الصواب ما أثبته .
(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .
(٣) فى الأصل : فى الكلام .
(٤) انظر ما ذكره ابن تيمية فى ذلك فى كتابه « الإيمان » .
(٥) فى الأصل : مع من أعرض .

محمودين على فعل الحسنات ، وأولئك يُذمُّون على ترك الحسنات الواجبات ، ويمدحون على ما قصدوا تركه لله من السيئات .

وسبب ذلك أن الإنسان فيه ظلم وجهل ، فإذا غلب عليه رأى أو خُلُق ، استعمله فى الحق والباطل جميعا ، لم يحفظ حدود الله . ولهذا يأمر الله بحفظ حدوده .

مثال ذلك أن من الناس من يكون فى خلقه سماحة ولين ومحبة ، فيسمح بمحبته و بتعظيمه و نفعه و ماله للحَسَن الذى يحبه الله و يأمر به ، كمحبة الله و رسوله وأوليائه المؤمنين ، والإنفاق فى سبيله ، ونحو ذلك . ويسمح أيضا بمحبة الفواحش والإنفاق [فيها] [١] ، فتجده [٢] يحب الحق والباطل جميعا ، ويصدِّق بهما ، ويعين عليهما .

ومنهم من يكون فى خلقه قوة ، فيمتنع من فعل الفواحش ويبغضها ، ويمتنع مع ذلك من محبة نفع الناس والإحسان إليهم والحلم عن سيئاتهم ، فتجده يبغض الحق والباطل جميعا ، ويكذِّب بهما ، ولا يعين على واحد منهما ، بل ربما صدَّ عنهما .

وذلك لأن النفس أمَّارة بالسوء ، والشيطان يزيِّن للمرء سوء عمله فيراه حسنا ، وهو متبع هواها . وما فيها من العلم والإيمان [يدعوه إلى الخير حتى] تذهب الحسنات بالسيئات [٣] ، وإنما يفعل من الحسنات ما أقبلت عليه [٤] إرادته ومحبته / دون ما أبغضته . ظ ١٧٨

(١) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فيجده .

(٣) فى الأصل : .... والإيمان يجب أن تذهب الحسنات بالسيئات . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٤) فى الأصل : ما تيسر عليها . ولعل الصواب ما أثبته .

وفى الإنسان قوتان : قوة الحب ، وقوة البغض . وإنما خلق ذلك فيه ليحب الحق الذى يحبه الله ، ويبغض الباطل الذى يبغضه الله ، وهؤلاء هم الذين يحبهم الله ويحبونه .

والنفس تميل إلى الإشراك بحسب الإمكان ، فإذا غلب على النفوس قوة المحبة لما يناسبها ، فأحبت الحق ، فقد تنجذب [1] بسبب ذلك إلى محبة ما يقارنه من الباطل .

ومن هنا مال كثير من النساك إلى محبة الأصوات والصور وغير ذلك ، بسبب ما فيهم من المحبة ، التى فيها ما هو لله ، لكن لبَّسوا فيها الحق بالباطل . وكذلك قد يكون الشخص بالمحبة يميل إلى شهوات الغى فى بطنه وفرجه وإنفاق الأموال فيها ، ثم إنه بسبب ما فيه من الحب والدين يحب الحق وأهله ويعظمهم . فتجد [1] كثيرا من أهل الشهوات ، وفيهم من المحبة لله ورسوله ما لا يوجد فى كثير من النساك ، كما قال النبى ﷺ فى حمار الذى كان يشرب الخمر كثيرا : « لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » والحديث فى صحيح البخارى وغيره [2] .

فصل

المقصود الأول من كل عمل هو التنعم واللذة

وإذا كان كل عمل أصله المحبة والإرادة ، والمقصود [منه] التنعم [3] بالمراد المحبوب ، فكل حى إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته ، فالتنعّم هو المقصود الأول من كل قصد ، كما أن التعذّب والتألم هو المكروه أولا [وهو سبب] كل بغض [4] وكل

---

(١) فى الأصل : فيجرا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) مضى الحديث فى هذه القاعدة من قبل (ص : ٢٥٨ - ٢٥٩) .

(٣) فى الأصل : والمقصود والتنعم . وكتب كلمة « كذا » فوق كلمة « التنعم » . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : أولا فكل بغض .... إلخ . ولعل الصواب ما أثبته .

حركة امتناع . لكن وقع الجهل والظلم فى بنى آدم ، فعمدوا إلى الدين الفاسد [١] والدنيا الفاجرة : طلبوا بهما النعيم ، وفى الحقيقة فإنما فيهما [٢] ضده .

وبيان ذلك أن الأعمال التى يعملها جميع بنى آدم إما أن يتخذونها دينا ، أو لا يتخذونها دينا . والذين يتخذونها دينا إما أن يكون الدين بها دين حق ، أو دين باطل . فنقول [٣] : النعيم التام هو [٤] فى الدين الحق .

النعيم التام هو فى الدين الحق

فأهل الدين الحق هم الذين لهم النعيم الكامل ، كما أخبر الله بذلك فى كتابه فى غير موضع ، كقوله : ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الفاتحة : ٦ ، ٧] .

وقوله عن المتقين المهتدين : ﴿ أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ [سورة طه : ١٢٣ - ١٢٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٨] .

---

(١) فى الأصل العبارة مضطربة ومحرفة كأنها : .... فى بنى آدم يحتسين بالدين الفاسد ... إلخ . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٢) فى الأصل : فيها .

(٣) فى الأصل : فيقول .

(٤) فى الأصل : هى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [سورة الانفطار : ١٣ ، ١٤] .

ص ١٧٩

ووَعْدُ أهل الإيمان والعمل / الصالح بالنعيم التام فى الدار الآخرة ، ووعد الكفار بالعذاب التام فى الدار الآخرة أعظم من أن [١] يذكر هنا ، وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام .

من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور

ولكن تذكر [٢] هنا نكتة نافعة ، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام فى الدنيا من المصائب ، وما يصيب كثيرا من الكفار والفجار فى الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك ، فيعتقد أن النعيم فى الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ، وأن المؤمنين ليس لهم فى الدنيا ما يتنعَّمون به إلا قليلا ، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين . وإذا سمع ما جاء فى القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للتقوى ، وقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة الصافات : ١٧٣] وهو ممن يصدِّق بالقرآن — حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط ، وقال : أما الدنيا فما نرى بأعيننا [إلا] [٣] أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين ، ولهم العزة والنصرة ، والقرآن لا يَرِدُ بخلاف المحسوس ، ويعتمد على هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين ، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى ، فيرى أن صاحب الباطل قد علا [٤]

---

(١) فى الأصل : أعظم ممن .

(٢) فى الأصل : يذكر .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : على .

على صاحب الحق ، فيقول : أنا على الحق وأنا مغلوب ، وإذا ذكره [إنسان] (١) بما وعده الله من حسن (٢) العاقبة للمتقين ، قال : هذا فى الآخرة فقط . وإذا قيل له : كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور ؟ قال : يفعل ما يشاء ، وربما قال بقلبه أو لسانه ، أو كان حاله يقتضى أن هذا من نوع الظلم ، وربما ذكر قول بعضهم : ما على الخلق أضر من الخالق ، لكن يقول : يفعل الله ما يشاء . وإذا ذُكِّر برحمة الله وحكمته لم يقل (٣) إلا أنه يفعل ما يشاء . فلا يعتقدون أن (٤) صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيد (٥) ، بل [يعتقدون أن الله] (٦) يفعل ما يشاء .

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين : إحداهما : حسن ظنه بدين نفسه / نوعا أو شخصا (٧) واعتقاد أنه قائم (٨) بما يجب عليه ، وتارك ما نهى عنه فى الدين الحق ، واعتقاده فى خصمه ونظيره خلاف ذلك : أن (٩) دينه باطل نوعا أو شخصا ، [لأنه] (١٠) ترك المأمور وفعل المحظور . ظ ١٧٩

والمقدمة الثانية : أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره . وقد لا يجعل له العاقبة فى الدنيا ، فلا ينبغى الاغترار بهذا .

---

(١) زدت « إنسان » ليستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : حق ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : لم يستعد .
(٤) فى الأصل : فلا يعتمدون على . ولعل الصواب ما أثبته .
(٥) فى الأصل : موبدا ، وهو تحريف .
(٦) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .
(٧) فى الأصل : تسوعا أو سحضا ، وهو تحريف .
(٨) فى الأصل : قائما ، وهو خطأ .
(٩) فى الأصل : أنه .
(١٠) زدت « لأنه » ليستقيم الكلام .

المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام فى الآخرة

ومن المعلوم أن العبد وإن أقر بالآخرة فهو يطلب حسن [(١)] عاقبة الدنيا ، فقد يطلب ما لابد منه من دفع الضرر ، وجلب المنفعة ، وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظن أنه مباح ، فإذا اعتقد أن الدين الحق قد ينافى ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة فى كمال الدين الحق ، وفى حال السابقين والمقربين ، بل قد يعرض عن حال المقتصدين أصحاب اليمين ، فيدخل مع الظالمين ، بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعلنين بالكفر ، وإن لم يكن هذا فى أصل الدين كان فى كثير من أصوله وفروعه ، كما قال النبى ﷺ : « يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » [(٢)] ، وذلك إذا اعتقد أن الدين لا يحصل إلا بفساد دنياه ، ولذلك فإنه يفرح بحصول الضرر له ويرجو ثواب ضياع ما لابد له من المنفعة [(٣)] .

وهذه الفتنة التى [(٤)] صدت أكثر بنى آدم عن تحقيق الدين ، وأصلها الجهل بحقيقة الدين ، وبحقيقة النعيم ، الذى هو مطلوب النفوس فى كل وقت ، إذ قد ذكرنا أن كل عمل فلابد فيه من إرادة به لطلب ما ينعِّم ، فهناك عمل يُطلب به النعيم ، ولابد أن يكون المرء عارفا [(٥)] بالعمل الذى يعمله ، وبالنعيم الذى يطلبه .

---

(١) فى الأصل : من . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه وأوله (فى مسلم) : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل ... الحديث وهو فى : مسلم ١/١١٠ (كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٥/١٧٩ - ١٨٠ ، (ط . الحلبى) ٢/٣٧٢ .

(٣) فى الأصل العبارة سقيمة ونصها : .... دنياه لحصول ضرره يحتمل ثواب ما لابد منه من المنفعة . وأرجو أن تكون العبارات التى أثبتها أقرب شىء إلى ما قصده ابن تيمية .

(٤) فى الأصل : الذى .

(٥) فى الأصل : فالذى يطلب به النعيم فلابد أن يكون المرء عارف .... ، ولعل الصواب ما أثبته .

ثم إذا عَلِمَ هذين الأصلين ، فلابد أن تكون فيه إرادة جازمة على العمل بذلك ، وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة (١) . والإرادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر : ١ - ٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة السجدة : ٢٤] .

فاليقين هو العلم الثابت المستقر ، والصبر [لابد منه لتحقيق الإرادة الجازمة] (٢) .

والمقدمتان اللتان (٣) التى بنيت عليهما هذه البليّة مبناهما (٤) على الجهل بأمر الله ونهيه ، / وبوعده ووعيده . فإن صاحبهما (٥) إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق ، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور (٦) ، تارك للمحظور ، [وهو على العكس من ذلك] (٧) ، وهذا يكون من جهله بالدين الحق .

ص ١٨٠

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله فى الدنيا ، بل قد تكون العاقبة فى الدنيا للكفار على المؤمنين ، ولأهل الفجور على أهل البر - فهذا من جهله بوعد الله تعالى .

من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار فى الدنيا ولا ينصر المؤمنين

---

(١) فى الأصل : .... وبطريقه لا يحصله إن لم يعلم ، وهو كلام لا يستقيم ، ولعل ما أثبته أقرب شىء إلى المقصود .

(٢) فى الأصل : والصبر الصبر . ولعل ما أثبته بين معقوفتين يستقيم به الكلام .

(٣) فى الأصل : والمقدمتان المقدمتان التى ، وهو تحريف ، ولعل الصواب نا أثبته .

(٤) فى الأصل : مبناها .

(٥) فى الأصل : صاحبها .

(٦) فى الأصل : فقد اعتقد أنه قائم بالأمور ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٧) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

أما الأول ، فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها ، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها ، بل ما أكثر من يعبد الله بما حَرَّم ويترك ما أوجب ، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه ، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ، ومع خصمه نوع من الحق والعدل .

وحبك الشيء يعمى ويصم ، والإنسان مجبول على محبة نفسه ، فهو لا يرى إلا محاسنها ، ومبغض لخصمه ، فلا يرى إلا مساوئه . وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم ، فإن الإنسان ظلوم جهول .

وأكثر ديانات الخلق إنما هى عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم ، وتقليدهم فى التصديق والتكذيب ، والحب والبغض ، والموالاة والمعاداة .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة لقمان : ٢١] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ ۝ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ﴾ [سورة الأحزاب : ٦٦ ، ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [سورة الشورى : ١٤] (١) .

وأما الثانى ، فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق فى الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه ، بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى وسبيل آخر ، ويكذِّب بوعد الله بنصرهم .

---

(١) جاءت الآيات السابقة فى الأصل محرفة .

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [سورة غافر : ٥١] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة الصافات : ١٧١ - ١٧٣] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [سورة المجادلة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [سورة المجادلة : ٢٠ ، ٢١] .

/ وقال تعالى فى كتابه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٥ ، ٥٦] . ظ ١٨٠

وذم من يطلب النصرة بولاء غير هؤلاء ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥١ - ٥٣] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٨ ، ١٣٩] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة المنافقون : ٨] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [سورة فاطر : ١٠] .

وقال فى كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ [سورة الفتح : ٢٨] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِها الْأَنْهارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَّائِفَةٌ مِّن بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [سورة الصف : ١٠ - ١٤] .

ص ١٨١ وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٥] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً . سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [سورة الفتح : ٢٢ ، ٢٣] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ [سورة الحشر : ٢] إلى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الحشر : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٩] .

وَقَالَ تعالى لما قص قصة نوح ، وهى نصره على قومه فى الدنيا ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [سورة طه : ١٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ [سورة آل عمران : ١١٨] إلى قوله ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٥] .

وقال يوسف وقد نصره الله فى الدنيا لما دخل عليه إخوته : ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِى قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٠] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ [سورة الطلاق ٢ ، ٣] .

وقد روى عن أبى ذر عن النبى ﷺ أنه قال : « لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم » رواه ابن ماجة وغيره (١) .

وأخبر أن ما يحصل له من مصيبة انتصار العدو وغيرها ، إنما هو بذنوبهم ، / فقال تعالى فى يوم أحد : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٥] . ظ ١٨١

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] .

---

(١) الحديث عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١٤١١/٢ (كتاب الزهد ، باب الورع والتقوى) ونصه : « حدثنا هشام بن عمار وعثمان بن أبى شيبة ... عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعرف كلمة (وقال عثمان : آية) لو أخذ الناس كلهم بها لكفتهم » قالوا : يا رسول الله ، أية آية ؟ قال : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » . قال المعلق : « فى الزوائد : هذا الحديث رجاله ثقات ، غير أنه منقطع ، وأبو السليل لم يدرك أبا ذر ، قاله فى التهذيب » . وذكر ابن كثير الحديث فى تفسير الآية وزاد : « قال : فجعل يتلوها ويرددها على حتى نعست . ثم قال : « يا أبا ذر كيف تصنع إذا خرجت من المدينة ؟ .... الحديث » .

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [سورة الروم : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [سورة الشورى : ٣٤] .

وذم فى كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين ، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۞ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ١٠ – ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٤] .

[وقال تعالى :] (١) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ

(١) زدت عبارة « وقال تعالى » ليستقيم الكلام .

الْمُجْرِمِينَ . لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٩ - ١١١] .

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم ، وهو طاعته ، وهو المقدمة الأولى . وأمرهم / بانتظار وعده ، وهى المقدمة الثانية . وأمرنا بالاستغفار والصبر ، لأنهم لابد أن يحصل لهم تقصير وذنوب [١] فيزيله الاستغفار ، ولابد مع انتظار الوعد من الصبر ، فبالاستغفار تتم الطاعة ، وبالصبر [٢] يتم اليقين بالوعد ، وإن كان هذا كله يدخل فى مسمى الطاعة والإيمان .

ص ١٨٢

قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ١٠٩] .

وقال [٣] تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٩] .

وأمرهم أيضا بالصبر إذا أصابتهم مصيبة بذنوبهم ، مثل ظهور العدو ، وكما قال تعالى فى قصة أُحد : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ

(١) فى الأصل : من نصر وسكون ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فالاستغفار يتم الطاعة ، والصبر ...

(٣) فى الأصل : قال .

الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٩ – ١٤١] .

وأيضا فقد قص سبحانه فى كتابه نصره لرسله ولعباده المؤمنين على الكفّار فى قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة يوسف : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [سورة النور : ٣٤] .

ما سبق يتبين بأصلين : الأصل الأول : حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لا ينافى وقوع القتل أو الأذى

وهذا يتبين بأصلين : أحدهما أن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافى ما يقع فى خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى ، وذلك أن الخلق كلهم يموتون ، فليس فى قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبنى آدم ، فمن عد القتل فى سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس ، بل الفتن التى تكون بين الكفار وتكون بين المختلفين من أهل القبله ليس مما يختص بالقتال ، / فإن الموت يعرض لبنى آدم بأسباب عامة ، وهى المصائب [١] التى تعرض لبنى آدم من مرض بطاعون وغيره ، ومن جوع وغيره ، وبأسباب خاصة ، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل ، بل الأمر بالعكس ، كما قد جرَّبه الناس .

ظ ١٨٢

ثم موت الشهيد من أيسر الميتات ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً ﴾ [سورة الأحزاب : ١٦ ، ١٧] .

---

(١) فى الأصل : وهى الطوفات . ولعل الصواب ما أثبته .

فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع ، فلا فائدة فيه ، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلا ، إذ لا بد من الموت .

وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله [أحد] (١) إن أراد به سوءا أو أراد به رحمة ، وليس له من دون الله ولى ولا نصير ، فأين نفر من أمره وحكمه ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ، قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُم مِّنهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٠] وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته ، كما قال أبو حازم الحكيم : « لما يلقى الذى لا يتقى الله من معالجه الخلق أعظم مما يلقاه الذى يتقى الله من معالجة التقوى » .

والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم بلاء ، كما قيل للنبى ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خُفِّف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة » (٢) .

ومن هذا أن الله شرع من عذاب الكفّار بعد نزول التوراة بأيدى المؤمنين فى الجهاد ما لم يكن قبل ذلك ، حتى إنه قيل : لم ينزل بعد التوراة عذاب عام من السماء للأمم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا

---

(١) زدت كلمة « أحد » ليستقيم الكلام .

(٢) الحديث – مع اختلاف فى الألفاظ – عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٢٨/٤ (كتاب الزهد ، باب الصبر على البلاء) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » ؛ سنن ابن ماجة ١٣٣٤/٢ (كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء) ؛ سنن الدارمى ٣٢٠/٢ (كتاب الرقاق ، باب فى أشد الناس بلاء) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٥/٣ – ٤٦ ، ٥٢ ، ٧٨ ، ٩٧ . وجعل البخارى أحد عناوين كتاب الطب (المرضى) فى صحيحه ١١٥/٧ : باب أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة القصص : ٤٣] .

فإنه قبل (١) ذلك قد أهلك قوم فرعون وشعيب ولوط وعاد وثمود وغيرهم ، ولم يهلك الكفار بجهاد المؤمنين . ولما كان موسى أفضل من هؤلاء ، وكذلك محمد ، وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ [سورة المزمل : ١٥] . / وقال تعالى : ﴿ قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ ﴾ [سورة القصص : ٤٨] إلى قوله ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ ﴾ [سورة القصص : ٤٩] . ص ١٨٣

وأمر الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين . وشريعة محمد ﷺ أكمل ، فلهذا كان الجهاد فى أمته أعظم منه فى غيرهم .

قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] .

وقال (٢) تعالى : ﴿ وَلَوْ يَشَاءَ اللهُ لاَنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [سورة محمد : ٤] .

وقال تعالى للمنافقين : ﴿ وَنَحْن نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِه أَوْ بَأَيْدِينا ﴾ [سورة التوبة : ٥٢] .

---

(١) فى الأصل : قيل .
(٢) فى الأصل : قال .

فالجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماءٍ من وجوه : أحدها : أن ذلك أعظم فى [١] ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم ، لما يفعلونه من الجهاد فى سبيل الله ، لأن تكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله .

الثانى : أن ذلك أنفع للكفار أيضا ، فإنهم قد يؤمنون من الخوف ، ومن أُسر منهم وسيم [٢] من الصغار يُسلم أيضا ، وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] قال أبو هريرة : « وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم فى الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة » [٣] فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأفلح بذلك المقاتلون ، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا من معنى كون محمد ﷺ ما أُرسل إلا رحمة للعالمين ، فهو رحمة فى حق كل أحد بحسبه حتى المكذِّبين له ، هو فى حقهم رحمة أعظم مما كان غيره .

ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال : « لا ، استأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له » [٤] .

---

(١) فى الأصل : من .

(٢) فى الأصل : وستى .

(٣) ورد هذا الأثر فى : البخارى ٣٧/٦ - ٣٨ (كتاب التفسير ، سورة آل عمران ، باب كنتم خير أمة أخرجت للناس) ونصه فيه : « .. عن أبى هريرة رضى الله عنه : كنتم خير أمة أخرجت للناس . قال : خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام » . وانظر تفسير ابن كثير للآية ٧٧/٢ (ط . دار الشعب) .

(٤) هذه العبارة بمعنى جزء من حديث ورد فى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها ونصه فى : البخارى ١١٥/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء ...) عن عائشة : « ... أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت =

الوجه الثالث : أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله ، وأكثر لهم ، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك ، وأمر المنافقين والفجار بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو من تمام الجهاد ، وكذلك إقامة الحدود .

ومعلوم أن فى الجهاد وإقامة / الحدود من إتلاف النفوس والأطراف والأموال ما فيه ، فلو بلغت هذه النفوس [النصر] (١) بالدعاء ونحوه من غير جهاد ، لكان (٢) ذلك من جنس نصر (٣) الله للأنبياء المتقدمين من أممهم لمَّا أهلك نفوسهم وأموالهم . ظ ١٨٣

وأما النصر بالجهاد وإقامة الحدود فذلك من جنس نصر الله لما يختص به رسوله ، وإن كان محمد ﷺ وأمته منصورين بالنوعين جميعا ، لكن يُشرع فى الجهاد باليد ما لا يشرع فى الدعاء (٤) .

الأصل الثانى : التنعم إما بالأمور الدنيوية وإما بالأمور الدينية

وأما الأصل الثانى : فإن التنعم [إما] (٥) بالأمور الدنيوية ، وإما بالأمور الدينية .

١ - الدنيوية

فأما الدنيوية فهى الحسية : مثل الأكل والشرب والنكاح واللباس وما يتبع ذلك ، والنفسية : وهى الرياسة والسلطان .

فأما الأولى ، فالمؤمن والكافر والمنافق مشتركون فى جنسها ، ثم يُعلم أن

= رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال ، فسلم علىَّ ، ثم قال : يا محمد ، فقال : ذلك فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبى ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا » . والحديث فى : مسلم ٣/١٤٢٠ - ١٤٢١ (كتاب الجهاد ، باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين) .

(١) زدت كلمة « النصر » ، ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : لكن ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : انتصار .

(٤) فى الأصل : فى الدعاء فى الجهاد باليد ، ويبدو أن عبارة « فى الجهاد باليد » المكررة زائدة .

(٥) زدت « إما » ليستقيم الكلام .

التنعيم بها ليس هو حقيقة واحدة مستوية فى بنى آدم ، بل هم متفاوتون فى قدرها ووصفها تفاوتا عظيما .

فإن من الناس من يتنعّم بنوع من الأطعمة والأشربة الذى يتأذَّى بها غيره ، إما لاعتياده ببلده ، وإما لموافقته مزاجه ، وإما لغير ذلك [1] .

ومن الناس من يتنعَّم بنوع من المناكح لا يحبها غيره ، كمن سكن البلاد الجنوبية فإنه يتنعّم بنكاح السُّمر ، ومن سكن البلاد الشمالية فإنه [2] يتنعّم بنكاح البيض .

وكذلك اللباس والمساكن ، فإن أقواما يتنعّمون من البُرد بما يتأذَّى به غيرهم ، وأقواما يتنعمون [من المساكن] [3] بما يتأذَّى به غيرهم ، بحسب العادة والطباع .

وكذلك الأزمنة ، فإنه [فى] الشتاء [4] يتنعّم الإنسان بالحر ، وفى الصيف يتنعّم بالبرد .

وأصل ذلك أن التنعّم فى الدنيا بحسب الحاجة إليها والانتفاع بها ، فكل ما كانت الحاجة أقوى والمنفعة أكثر كان التنعّم واللذة أكمل ، والله قد أباح للمؤمنين الطيبات .

فالذين يقتصدون فى المآكل نعيمهم بها أكثر من نعيم المسرفين [5] فيها ، فإن أولئك إذا أدمنوها وألفوها لا يبقى لهذا عندهم كبير لذة ، مع أنهم قد لا يصبرون عنها ، وتكثر [6] أمراضهم بسببها .

---

(١) فى الأصل : وإما لغير الله ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فإن .

(٣) زدت عبارة « من المساكن » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : فإن الشتاء .

(٥) فى الأصل : المشرفين ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : وتكبر .

٢ - الدينية

وأما الدين [١] فجماعه شيئان : تصديق الخبر ، وطاعة الأمر .

ومعلوم أن التنعّم بالخبر بحسب شرفه وصدقه ، والمؤمن معه من الخبر الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره ، فهو من أعظم الناس نعيما بذلك ، بخلاف من يكثر فى أخبارهم الكذب .

ص ١٨٤

وأما طاعة الأمر ، فإن من كان ما يؤمر به صلاحا / وعدلا ونافعا يكون تنعّمه به أعظم من تنعّم [٢] من يؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع .

وهذا من الفرق بين الحق والباطل ، فإن الله سبحانه يقول فى كتابه : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١ - ٣] .

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [سورة النور : ٣٩] .

وتفصيل ذلك أن الحق نوعان : حق موجود ، وحق مقصود . وكل منهما ملازم للآخر .

فالحق الموجود هو الثابت فى نفسه ، فيكون العلم به حقا ، والخبر عنه حقا .

والحق المقصود هو النافع ، الذى إذا قصده الحى انتفع به ، وحصل له النعيم .

---

(١) يقصد ابن تيمية ، وأما الدينية ، وسبق أن ذكر أن التنعم إما بالأمور الدنيوية وإما بالأمور الدينية ، وتكلم فيما سبق على الأمور الدنيوية ، وهو يتكلم هنا على الأمور الدينية .

(٢) فى الأصل : ينعم .

فصل

ومما يُظهر الأمر ما ابتَلَى الله به عباده فى الدنيا من السراء والضراء ، وقال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ * كَلاَّ ﴾ [سورة الفجر : ١٥ – ١٧] .

يقول الله سبحانه ليس الأمر كذلك ، ليس إذا ما ابتلاه فأكرمه ونعمه يكون ذلك إكراما مطلقا ، وليس إذا [ما] قدر [١] عليه رزقه يكون ذلك إهانة ، بل هو ابتلاء فى الموضعين ، وهو الاختبار والامتحان ، فإنْ شَكَرَ الله على الرخاء ، وصبر على الشدة ، كان كل واحد من الحالين خيرا له [٢] ، كما قال النبى ﷺ : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سرَّاء فشكر كان خيرا [٣] له ، وإن أصابته ضرَّاء فصبر كان خيرا [٣] له » [٤] . وإن لم يشكر ولم يصبر كان كل [٥] واحد من الحالين شرًّا له .

---

(١) فى الأصل : إذا بقدر .... ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : خبر له ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : خير ، وهو خطأ .

(٤) الحديث عن صهيب رضى الله عنه فى : مسلم ٢٢٩٥/٤ (كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير) ولفظه فيه : « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن .... إن أصابته سراء شكر .... الحديث . وهو فى المسند ٣٣٢/٤ ، ٣٣٣ ، ١٥/٦ وأول الحديث فى الموضعين الأوليين : « وعجبت من أمر (لأمر) المؤمن .... وفى الموضع الأخير : عجبت من قضاء الله للمؤمن ، على أن القسم الأول من كلام ابن تيمية جاء فى حديث آخر عن أنس رضى الله عنه فى المسند (ط : الحلبى) ١١٧/٣ ولفظه : « عجبت للمؤمن إن الله لم يقض قضاء إلا كان خيرا له » ، ١٨٤/٣ ولفظه : « عجبت للمؤمن إن الله لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له » ، وقال الألبانى عن الحديث فى « سلسلة الأحاديث الصحيحة » ٢٨/٤ : إنه صحيح .

(٥) فى الأصل : كان على .... ، وهو تحريف .

تنازع الناس فيما ينال الكافر فى الدنيا من التنعّم ، هل هو نعمة فى حقه أم لا ؟

وقد تنازع الناس فيما ينال الكافر فى الدنيا من التنعّم ، هل هو نعمة فى حقه أم لا ؟ على قولين . وكان (١) أصل النزاع بينهم هو النزاع فى القدرة .

ظ ١٨٤

والقدرية الذين / يقولون : لم يرد الله لكل أحد إلا خيرا له بخلقه وأمره ، وإنما العبد هو الذى أراد لنفسه الشر بمعصيته ، وبترك (٢) طاعته التى يستعملها بدون مشيئة الله وقدرته أراد لنفسه الشر .

وهؤلاء يقولون : ما نُعِّم به الكافر فهو نعمة تامة ، كما نُعِّم به المؤمن سواءً ، إذ عندهم ليس لله نعمة خص بها المؤمن دون الكافر أصلا ، بل هما فى (٣) النعم الدينية سواء ، وهو ما بيَّنه (٤) من أدلة الشرع والعقل ، وما خلقه من القدرة والألطاف ، ولكن أحدهما اهتدى بنفسه بغير نعمة أخرى خاصة من الله ، والآخر ضل بنفسه من غير خذلان يخصه من الله . وكذلك النعم الدنيوية هى فى حقهما (٥) على السواء .

والذين ناظروا هؤلاء من أهل الإثبات ربما زادوا فى المناظرة نوعا من الباطل ، وإن كانوا فى الأكثر على الحق . فكثيرا ما يرد مناظر المبتدع باطلا عظيما بباطل دونه .

ولهذا كان أئمة السنة ينهَوْن عن ذلك ، ويأمرون بالاقتصاد ولزوم السنة المحضة ، وأن لا يُرد باطل بباطل (٦) .

---

(١) فى الأصل : وكل . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ونزل . ولعل ما أثبته هو الصواب .

(٣) فى الأصل : من . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) أى ما بيّنه الله تعالى لهم .

(٥) فى الأصل : فى حقها ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : وأن لا يرد بباطل بباطل ، وهو تحريف .

فقال كثير من هؤلاء : ليس لله على الكافر نعمة دنيوية ، كما ليس له عليه نعمة دينية تخصه [(١)] ، إذ اللذة المستعقبة ألما أعظم منها ليست بنعمة ، كالطعام المسموم ، وكمن أعطى غيره أموالا ليطمئن ثم يقتله أو يعذبه .

قالوا : والكافر كانت هذه النعم سببا فى عذابه وعقابه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [سورة القلم : ٤٤ ، ٤٥] .

وخالفهم آخرون من أهل الإثبات للقدر أيضا ، فقالوا : بل لله على الكافر نعم دنيوية .

والقولان فى عامة أهل الإثبات من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

قال هؤلاء : والقرآن قد دل على امتنانه على الكفار بنعمه ، ومطالبته إياهم بشكرها ، فكيف يقال ليست نعما ؟ / قال تعالى [(٢)] : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا ص ١٨٥

(١) فى الأصل : تخصهم ، وهو تحريف .

(٢) فى أعلى هذه الصفحة إلى اليسار كتب : « الخامس » .

نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٨ ، ٢٩] إلى قوله . ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٢] إلى قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٤] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [سورة الإنسان : ٣] ، وكيف يكون كفورا من لم ينعم عليه بنعمه ؟

فالمراد لازم قول هؤلاء : أن الكفار لم يجب عليهم شكر الله إذ لم يكن قد أنعم عليهم عندهم . وهذا القول يُعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام ، فإن الله ذم الإنسان بكونه كفورا غير شكور ، إذ يقول : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [سورة العاديات : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [سورة هود : ٩ ، ١٠] .

وقد قال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ﴾ [سورة النحل : ١١٢] .

[وقال] (١) الأولون : قد قال تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

---

(١) زدت « وقال » ليستقيم الكلام .

والكفار لم يدخلوا فى هذا العموم ، فعُلم أنهم خارجون عن النعمة . وقال [١] تعالى فى خطابه للمؤمنين : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [سورة طه : ٨١] وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً ﴾ [سورة آل عمران ١٠٣] ، ﴿ واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ ﴾ [سورة المائدة : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٢] .

ظ ١٨٥ وأما الكفَّار فخوطبوا بها من جهة / ما هى تنعّم ولذة وسرور ، ولم تسم [٢] فى حقهم نعمة على الخصوص ، وإنما تسمى نعمة باعتبار أنها نعمة فى حق عموم بنى آدم ، لأن المؤمن سعد بها فى الدنيا والآخرة ، والكافر يُنعَّم بها فى الدنيا .

وذلك أن كفر الكافر نعمة فى حق المؤمنين ، فإنه لولا وجود الكفر والفسوق والعصيان لم يحصل [جهاد المؤمنين للكفار وأمرهم الفساق والعصاة بالمعروف ونهيهم إياهم عن المنكر] [٣] ، ولولا وجود شياطين الإنس والجن لم يحصل للمؤمنين من بعض هذه الأمور ومعاداتها ومجاهداتها ومخالفة الهوى فيها ما ينالون به أعلى الدرجات وأعظم [٤] الثواب .

والإنسان فيه قوة الحب والبغض ، وسعادته فى أن يحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه الله ، فإن لم يكن فى العالم ما يبغضه ويجاهد أصحابه لم يتم إيمانه وجهاده ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] .

---

(١) فى الأصل : قال .

(٢) فى الأصل : ولم يسم .

(٣) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : وعظم .

قالوا : ولو كانت هذه اللذات نعما مطلقة لكانت نعمة الله على أعدائه فى الدنيا أعظم من نعمته على أوليائه . قالوا : ونعمة الله التى بدَّلوها كفرا هى إنزال الكتاب وإرسال الرسول ، حيث كفروا بها وجحدوا أنها حق ، كما قال عليه السلام (١) : « ألا [لا] (٢) فخر إنى (٣) من قريش » (٤) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ [سورة النحل : ١١٢] ، هم الذين كفروا بما أنزل الله من الكتاب والرسل ، وتلك نعمة الله المعظَّمة . وقال تعالى : ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٤] .

رأى ابن تيمية

وحقيقة الأمر أن هذه الأمور فيها من التنعم باللذة والسرور فى الدنيا ما لا نزاع فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [سورة غافر : ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ

---

(١) فى الأصل : كما قال على عليه السلام ، وهو تحريف .

(٢) زدت « لا » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : إن ، وهو تحريف .

(٤) لم أجد حديثا بهذا اللفظ ، ولكن جاءت أحاديث كثيرة فيها النص على أن النبى ﷺ من قريش ، منها الحديث الذى جاء فى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع (كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبى ﷺ ....) ، يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وأورد هذا الحديث الترمذى فى سننه ٥/٢٤٤ - ٢٤٥ (كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ : باب ما جاء فى فضل النبى ﷺ) كما أورد أحاديث أخرى بنفس المعنى فى نفس الباب . وأورد الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/٢١٤ - ٢١٩ (كتاب علامات النبوة ، باب فى كرامة أصله ﷺ) عدة أحاديث تنص على أن النبى ﷺ كان من قريش .

الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [سورة الأحقاف : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ [سورة المزمل : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ [سورة الحجر : ٣] ، / وقال تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٠] ، وهذا أمر محسوس . ص ١٨٦

لكن الكلام فى أمرين : أحدهما : هل هى نعمة أم لا ؟ والثانى : أن جنس تنعم المؤمن فى الدنيا بالإيمان وما يتبعه : هل هو مثل تنعّم الكافر ، أو دونه ، أو فوقه ؟ وهذه هى المسألة المقدّمة .

فأما الأول فيقال : اللذات فى أنفسها ليست نفس فعل العبد ، بل قد تحدث عن فعله مع سبب آخر ، كسائر المتولدات التى يخلقها الله تعالى بأسباب منها فعل العبد .

لكن اللذات تارة تكون بمعصية من ترك مأمور ، أو فعل محظور ، كاللذة الحاصلة بالزنا ، وبموافقة [الفسّاق] (١) ، وبظلم الناس ، وبالشرك ، والقول على الله بغير علم . فهنا المعصية هى سبب للعذاب الزائد على لذة الفعل . لكن ألم العذاب قد يتقدم ، وقد يتأخر ، وهى تشبه أكل الطعام الطيب الذى فيه من السموم ما يُمرض أو يقتل . ثم ذلك العذاب يمكن دفعه بالتوبة وفعل حسنات أخر ، لكن يقال : تلك اللذة الحاصلة بالمعصية لا تكون معادلة (٢) لها ما فى التوبة عنها والأعمال الصالحة من المشقة والألم . ولهذا قيل : ترك الذنب أمرّ من التماس التوبة ، وقيل : رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا .

---

(١) زدت كلمة « الفسّاق » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : معاومة ، ولعل الصواب ما أثبته .

لكن فعل التوبة والحسنات الماحية قد يُوجب من الثواب أعظم من ثواب ترك الذنب أولا ، فيكون ألم التائب أشد من التارك إذا استويا من جميع الوجوه ، وثوابه أكثر . وكذلك لما [١] يكفِّر الله به الخطايا من المصائب مرارة تزيد [٢] على حلاوة المعاصى .

وتارة تكون اللذات بغير معصية من العبد ، لكن عليه أن يطيع الله فيها ، فيتجنب [٣] فيها ترك مأموره وفعل محظوره [٤] ، كما يؤتاه العبد من المال والسلطان ، ومن المآكل والمناكح التى ليست بمحرَّمة .

والله سبحانه أمر مع أكل الطيبات بالشكر ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٢] وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » [٥] . وفى الأثر : « الطاعم الشاكر كالصائم الصابر » رواه ابن ماجة عن النبى ﷺ [٦] .

---

(١) فى الأصل : ما . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : يزيد .

(٣) فى الأصل : فيعصيه ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : ونقل محضوره ، وهو تحريف .

(٥) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – فى : مسلم ٢٠٩٥/٤ (كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب) ؛ سنن الترمذى ١٧٢/٣ (كتاب الأطعمة ، باب فى الحمد على الطعام إذا فرغ منه) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٠٠/٣ ، ١١٧ .

(٦) جاءت عبارات هذا الحديث عنوانا لأحد أبواب كتاب الأطعمة فى البخارى ٨٢/٧ (كتاب الأطعمة ، باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر) وقال البخارى بعد ذلك : « فيه عن أبى هريرة عن =

وقد قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة التكاثر : ٨] .

ولما ضاف النبى ﷺ أبا الهيثم بن التّيّهان وجلسوا فى الظل ، وأطعمهم فاكهة ولحما ، وسقاهم ماء باردا ، قال : « هذا من / النعيم الذى تسألون عنه » [١] . ظ ١٨٦

والسؤال عنه لطلب شكره ، لا لإثم فيه . فالله تعالى يطلب من عباده شكر نعمه ، وعليه [٢] أن لا يستعين بطاعته على معصيته ، فإذا ترك ما وجب عليه فى [٣]

= النبى ﷺ » ، وشرح ابن حجر هذا الكلام فى فتح البارى ٥٨٢/٩ – ٥٨٣ فقال : « هذا الحديث من الأحاديث المعلقة التى لم تقع فى هذا الكتاب موصولة ، وقد أخرجه المصنف فى « التاريخ » والحاكم فى « المستدرك » من رواية سليمان بن بلال ..... ولفظه : « إن للطاعم الشاكر من الأجر مثل ما للصائم الصابر » » . ونص ابن حجر بعد ذلك على أن الحديث أخرجه من طرق مختلفة ابن ماجة وابن خزيمة والترمذى وابن حبان . والحديث فى : سنن ابن ماجة ٥٦١/١ (كتاب الصيام ، باب فيمن قال : الطاعم الشاكر كالصائم الصابر) عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » وعن سنان بن سَنَّة الأسلمى رضى الله عنه ولفظه : « الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر » .

(١) هذا جزء من حديث طويل عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ١٦٠٩/٣ – ١٦١٠ (كتاب الأشربة ، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك .....) وفى حديثه أن المضيف هو « الأنصارى » أو « رجل من الأنصار » . والحديث فى : سنن الترمذى ١٣/٤ – ١٤ (كتاب الزهد ، باب ما جاء فى معيشة أصحاب النبى ﷺ) . وأورد المنذرى الحديث فى الترغيب والترهيب ١٦٦/٥ – ١٦٧ وقال : « رواه مالك بلاغا باختصار ومسلم ، واللفظ له والترمذى بزيادة ، والأنصارى المبهم هو أبو الهيثم بن التيهانى بفتح المثناة فوق وكسر المثناة تحت وتشديدها ، كذا جاء مصرحا به فى الموطأ والترمذى ، وفى مسند أبى يعلى ومعجم الطبرانى من حديث ابن عباس أنه أبو الهيثم ، وكذا فى المعجم أيضا من حديث ابن عمر . وقد رويت هذه القصة من حديث جماعة من الصحابة مصرّح فى أكثرها بأنه أبو الهيثم ، وجاء فى معجم الطبرانى الصغير والأوسط وصحيح ابن حبان من حديث ابن عباس وغيره أنه أبو أيوب الأنصارى . والظاهر أن هذه القصة اتفقت مرة مع أبى الهيثم ، ومرة مع أبى أيوب ، والله أعلم » .

(٢) أى وعلى العبد .

(٣) فى الأصل : من .

نعمته من حق ، واستعان بها على محرّم ، صار فعله بها وتركه لما فيها سببا للعذاب أيضا ، فالعذاب استحقه – بترك المأمور وفعل المحظور – على النعمة التى هى من فعل الله تعالى ، وإن كان فعله وتركه بقضاء الله وقدره : بعلمه ومشيئته وقدرته وخلقه .

فإن حقيقة الأمر أنه نعَّم العبد تنعيما ، وكان ذلك التنعيم سببا لتعذيبه أيضا ، فقد اجتمع فى حقه تنعيم وتعذيب ، ولكن التعذيب إنما كان بسبب معصيته ، حيث لم يؤد حق النعمة ، ولم يتّق الله فيها .

وعلى هذا ، فهذه التنعّمات هى نعمة من وجه دون وجه ، فليست من النعم المطلقة ، ولا هى خارجة عن جنس النعم مطلقها ومقيّدها . فباعتبار ما فيها من التنعّم يصلح أن يُطلب حقها من الشكر وغيرها ، ويُنهى عن استعمالها فى المعصية ، فتكون نعمة فى باب الأمر والنهى ، والوعد والوعيد .

وباعتبار [(١)] أن صاحبها يترك فيها المأمور ويفعل فيها المحظور الذى يزيد عذابه على نعمها كانت وبالا عليه ، وكان أن لا يكون ذلك من حقه خيرا له من أن يكُون ، فليست نعمة فى حقه فى باب القضاء والقدر ، والخلق والمشيئة العامة ، وإن كان ذلك يكون نعمة فى حق عموم الخلق والمؤمنين ، وعلى هذا يظهر ما تقدّم من خيرات الله [(٢)] ، فإن ذلك استدراج ، ومكر ، وإملاء .

وهذا الذى ذكرناه من ثبوت الإنعام بها من وجه ، وسلبه من وجه آخر ، مثل ما ذكر الله فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ

---

(١) فى الأصل : وباعتبار بها ، ورأيت أن « بها » زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : ما يقدم من خير الله . ولعل الصواب ما أثبته .

فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ * كَلاَّ ﴾ [سورة الفجر : ١٥ – ١٧] ، فإنه قد أخبر أنه أكرمه ، وأنكر قول المبتلى : رَبِّى أَكْرَمَنِ ، واللفظ الذى أخبر الله به مثل اللفظ الذى أنكره الله من كلام المبتلى ، لكن المعنى مختلف . فإن المبتلى اعتقد أن هذه كرامة [١] مطلقة ، وهى النعمة : التى يقصد بها [أن] [٢] النِّعَمَ إكرامٌ له [٣] ، والإنعام بنعمة لا يكون سببا لعذاب أعظم منها ، وليس الأمر كذلك ، بل الله تعالى ابتلاه بها ابتلاءً ، ليتبين هل يطيعه فيها أم يعصيه ، مع علمه بما سيكون من الأمرين ، لكن العلم بما سيكون شيء ، وكون الشيء / والعلم به شيء . ص ١٨٧

وأما قوله تعالى : ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ فإنه تكريم بما فيه من اللذات ، ولهذا قرنه بقوله : (ونَعَّمَهُ) ، ولهذا كانت [٤] خوارق العادات التى تسميها العامة « كرامة » ليست عند أهل التحقيق كرامة مطلقا ، بل فى الحقيقة الكرامة هى : لزوم الاستقامة ، وهى طاعة الله ، وإنما هى مما يبتلى الله به عبده ، فإن أطاعه بها رفعه [٥] ، وإن عصاه بها خفضه [٦] ، وإن كانت من آثار طاعة أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ [سورة الجن : ١٦ ، ١٧] .

---

(١) فى الأصل : هذا اكرامه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : إكرام عليه .

(٤) فى الأصل : كان .

(٥) فى الأصل : رفعة .

(٦) فى الأصل : حفظة .

وإذا كان فى النعمة والكرامة هذان الوجهان (١) ، فهى من باب الأمر والشرع نعمة [يجب] (٢) الشكر عليها ، وفى باب الحقيقة القدرية لم تكن (٣) لهذا الفاجر بها إلا فتنة ومحنة استوجب بمعصية الله فيها العذاب ، وهى فى ظاهر الأمر قبل أن يعرف حقيقة الباطن ابتلاء وامتحان ، يمكن أن تكون (٤) من أسباب سعادته ، ويمكن أن تكون من أسباب شقاوته ، وظهر بها جانب الابتلاء بالمر ، فإن الله يبتلى بالحلو والمر ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٥] ، وقال : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٨] .

فمن ابتلاه الله بالمر : بالبأساء والضراء والبأس ، وقدر عليه رزقه ، فليس ذلك إهانة له ، بل هو ابتلاء . فإن أطاع الله فى ذلك كان سعيدا ، وإن عصاه فى ذلك كان شقيا ، كما كان مثل ذلك (٥) سبباً للسعادة فى حق الأنبياء والمؤمنين ، وكان شقاءً وسببا للشقاء فى حق الكفّار والفجّار .

وقال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٧] وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ [سورة البقرة : ٢١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى

---

(١) فى الأصل : هذين الوجهين ، وهو خطأ .

(٢) زدت « يجب » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : يكن ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : يكون .

(٥) فى الأصل : كما كان ذلك مثل ذلك .

النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة التوبة : ١٠١] وقال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة السجدة : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٧٦] .

وكما أن الحسنات ، وهى المسار [1] الظاهرة التى يبتلى بها العبد ، تكون عن طاعات فعلها العبد ، فكذلك السيئات ، وهى المكاره التى يُبتلى بها العبد ، تكون عن معاصى فعلها العبد . كما قال تعالى : ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ ﴾ [سورة النساء : ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ [سورة الشورى : ٤٨] .

ثم تلك المسار ، التى هى من ثواب طاعته ، إذا عصى الله فيها كانت / سببا لعذابه ، والمكاره التى هى عقوبة معصيته إذا أطاع الله فيها كانت سببا   ظ ١٨٧

---

(١) فوق كلمة « المسار » كتب فى الأصل : « كذا » . والمقصود بها الأمور السارة .

لسعادته ، فتدبر هذا لتعلم أن الأعمال بخواتيمها ، وأن ما ظاهره نعمة هو لذة عاجلة قد تكون سببا للعذاب ، وما ظاهره عذاب وهو ألم [١] عاجل قد يكون [٢] سببا للنعيم . وما هو طاعة - فيما يرى الناس - قد يكون سببا لهلاك العبد برجوعه عن الطاعة ، إذا ابتُلى فى هذه [٣] الطاعة ، وما هو معصية - فيما يرى الناس - قد يكون سببا لسعادة العبد بتوبته منه ، وتصبّره على المصيبة ، التى [هى] [٤] عقوبة ذلك الذنب .

فالأمر والنهى يتعلق بالشيء الحاصل ، فيؤمر العبد بالطاعة مطلقا ، وينهى عن المعصية مطلقا ، ويؤمر بالشكر على كل ما يتنعم به .

وأما القضاء والقدر ، وهو [٥] علم الله وكتابه ، وما طابق ذلك من مشيئته وخلقه ، فهو باعتبار الحقيقة الآجلة ، فالأعمال بخواتيمها ، والمنعَم عليهم فى الحقيقة هم الذين يموتون على الإيمان .

وقد يُذكر تنازع الناس فى هذا الباب :

فالمثبتة للقضاء والقدر من متكلمة أهل الإثبات وغيرهم يلاحظون القدر من علم الله وكتابه ومشيئته وخلقه ، وقد يعرضون عمّا جاء به الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، وعن الحكمة العامة ، وما فى تفصيل ذلك من الحكم الخاصة .

---

(١) فى الأصل : المر . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته ، أو يكون : مر .

(٢) فى الأصل : تكون .

(٣) فى الأصل : فى بره ، وهو تحريف .

(٤) زدت « هى » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : هو .

وأما من لم يلاحظ إلا الأمر والنهى والوعد والوعيد فقط من القدرية ومن ضاهاهم فى حاله ، فقد كفر بما وجب عليه الإيمان به من خلق الله وكتابه ومشيئته ، وتدبيره لعباده المؤمنين الذين سبقت لهم منه الحجة بتدبير [(١)] خاص ، ومن قضائه على الكفار بما هو فيه عدل سبحانه ، كما فى الحديث المرفوع : « ماضٍ فينا أمرك ، عدلٌ فينا قضاؤك » [(٢)] ، ولا يظلم ربك أحدا .

وإذا عُرف أن كل واحد من الابتلاء بالسراء والضراء قد يكون فى باطن الأمر مصلحة للعبد أو مفسدة له ، وأنه إن أطاع الله بذلك كان مصلحة له ، وإن عصاه كان مفسدة له — تبيّن أن الناس أربعة أقسام : منهم من يكون صلاحه على السراء ، ومنهم من يكون صلاحه على الضراء ، ومنهم من يصلح على هذا وهذا ، ومنهم من لا يصلح على واحد منهما .

---

(١) فى الأصل : بتدبر .

(٢) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ، ولكن جاء الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى المسند مرتين (ط . المعارف) ٢٦٧/٥ — ٢٦٨ ، ١٥٣/٦ — ١٥٤ ، ونصه فى الموضع الأول « .... عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حَزَنٌ فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىَّ حكمُك ، عدلٌ فىَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيْتَ به نفسَك ، أو علّمتَه أحداً من خلقك ، أو أنزلتَه فى كتابك ، أو استأثرتَ به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همّى ، إلا أذهب الله همّه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجا » . قال : فقيل : يا رسول الله ألا نتعلمها ؟ فقال : « بلى ، ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » .

وصحح الشيخ أحمد شاكر الحديث وأشار إلى وجوده فى مجمع الزوائد ١٣٦/١٠ وفى المستدرك للحاكم ٥٠٩/١ — ٥١٠ . وانظر بقية ما ذكره الشيخ أحمد شاكر عن الحديث .

وأول الحديث فى الموضع الثانى ١٥٣/٦ — ١٥٤ : « ما قال عبد قط إذا أصابه همٌّ وحَزَنٌ .... إلخ وذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٣٦/١٠ — ١٣٧ الحديث بمعناه عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه وأوله : « من أصابه هم أو حزن ..... الحديث وقال عنه : « رواه الطبرانى وفيه من لم أعرفه » ونقل الناشر فى الهامش تعليق ابن حجر : « قلت : هذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى من رواية عبد الجليل بهذا الإسناد ، فلا وجه لاستدراكه — ابن حجر » .

والإنسان الواحد قد تجتمع له هذه الأحوال الأربعة فى أوقات متعددة ، أو فى وقت واحد باعتبارها [١] أنواع يبتلى بها .

وقد جاء فى الحديث المرفوع :« إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا السقم ، ولو أصححته لأفسده ذلك ، وذلك أنى أدبر عبادى ، إنى بهم خبير بصير » [٢] .

فكما أن التنعم العاجل ليس بنعمة فى / الحقيقة ، قد يكون فى الحقيقة بلاء وشرا باعتبار [٣] المعصية فيه . والطاعة المتقدمة قد تكون حابطة وسببا للشر باعتبار ما يعقبها [٤] من ردة وفتنة [٥] ، فكذلك التألم العاجل قد يكون [٦] فى الحقيقة خيرا أو نعمة ، والمعصية المتقدمة قد تكون سببا للخير باعتبار التوبة والصبر على ما تعقبه من مصيبة [٧] ، لكن تتبدل [٨] الطاعة والمعصية . ص ١٨٨

وهذا يقتضى أن العبد محتاج فى كل وقت إلى الاستعانة بالله على طاعته ، وتثبيت قلبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) فى الأصل : با غيار .

(٢) لم أجد هذا الحديث .

(٣) فى الأصل : فاعتبار ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : ما يتعقبه ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : وفتنته ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : تكون .

(٧) فى الأصل : محبة ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : تبدل . ولعل الصواب ما أثبته .

حال الإنسان عند السراء والضراء

وذلك أن الإنسان [(١)] هو كما وصفه الله بقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۞ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [سورة هود : ٩ ، ١٠] . وقال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة هود : ١١] .

فأخبر أنه عند الضراء بعد السراء ، ييأس من زوالها فى المستقبل ، ويكفر بما [(٢)] أنعم الله به عليه قبلها ، وعند النعماء بعد الضراء يأمن من عود [الضراء] [(٣)] فى المستقبل ، وينسى ما كان فيه بقوله : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [سورة هود : ١٠] : على غيره ، يفخر عليهم بنعمة الله عليه .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [سورة المعارج : ١٩ - ٢١] فأخبر أنه جزوع عند الشر لا يصبر عليه ، منوع عند الخير يبخل به .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [سورة العاديات : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ١٠٠] ، وقال : ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [سورة فصلت : ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٦٧] .

---

(١) فى الأصل : الاثنين ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ما .

(٣) زدت كلمة « الضراء » لتستقيم العبارة .

حال المؤمن عندهما

وقد وصف المؤمنين بأنهم صابرون فى البأساء والضراء وحين البأس ، والصابرون فى النعماء أيضا بقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [سورة هود : ١١] والصبر فى السراء قد يكون أشد ، ولهذا قال من قال من الصحابة : « ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر » .

وكان النبى ﷺ يستعيذ بالله من فتنة الفقر وشر فتنة الغنى [(١)] . وقال لأصحابه : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها ، وتهلككم كما أهلكتهم » [(٢)] .

---

(١) أورد ابن الأثير الجزرى فى « جامع الأصول » ١٢٢/٥ (ط . السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٠ / ١٩٥٠) عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهَرَم والمَغْرَم ، ومن فتنة القبر وعذاب القبر ، ومن فتنة النار وعذاب النار ، ومن شر فتنة الغِنى ، ومن شر فتنة الفقر .... الحديث ، وقال ابن الأثير إن الحديث رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وذكر أن فى رواية أبى داود : أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات : « اللهم إنى أعوذ بك من فتنة النار وعذاب القبر ، ومن شر الغنى والفقر » .

(٢) الحديث عن عمرو بن عوف رضى الله عنه ونصه فى : البخارى ٩٠/٨ (كتاب الرقاق ، باب ما يُحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ..... أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها ، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين وأمّر عليهم العلاء بن الحضرمى ، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدومه ، فوافته صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ ، فلما انصرف تعرضوا له ، فتبسم حين رآهم ، وقال : « أظنكم سمعتم بقدوم أبى عبيدة وأنه جاء بشىء ؟ » قالوا : أجل يا رسول الله . قال : « فأبشروا وأمّلوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنى أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم » . وجاء الحديث عنه أيضا فى : البخارى ٩٦/٤ - ٩٧ (كتاب الجزية ، باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب) ، ٨٤/٥ - ٨٥ (كتاب المغازى ، باب حدثنى خليفة حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى) ؛ مسلم ٢٢٧٣/٤ - ٢٢٧٤ (كتاب الزهد والرقائق ، الباب الأول) ؛ سنن الترمذى ٥٦/٤ (كتاب صفة القيامة ، باب حدثنا أبو حصين عبد الله بن أحمد بن يونس .....) ؛ سنن ابن ماجة ١٣٢٤/٢ - ١٣٢٥ (كتاب الفتن ، باب فتنة المال) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٣٧/٤ ، ٣٢٧ .

فمن لم يتصف بحقيقة الإيمان هو إما قادر وإما عاجز . فإن كان قادرا أظهر ما فى نفسه بحسب قدرته من : الفواحش ، والإثم ، والبغى ، والإشراك بالله ، والقول عليه بغير علم ، ومن ترك القسط ، وترك إقامة الوجه عند كل / مسجد ، ودعاء الله مخلصا له الدين ، ثم يكون شرهم بحسب كل منهم ، من حيث نفوسهم وقدرتهم [١] ، فإن العبد لا يفعل إلا بقدرة وإرادة ، فمن كان أقدر وأفجر كان أمره أشد ، كفرعون وأمثاله من الجبَّارين المتكبرين ، لا يصبرون عن أهوائهم ، ولا يتقون الله .

ظ ١٨٨

وأما المؤمن فإنه مع قدرته يفعل ما أُمر الله به من البر والتقوى ، دون ما نَهى عنه من الإثم والعدوان .

ثم أولئك الذين لم يتصفوا بحقيقة الإيمان – بل فيهم من الفجور كفر أو نفاق أو فسوق ما فيهم – إذا كانوا عاجزين عن إرادتهم ، لا يقدرون على أهوائهم بنوع من أنواع القدرة ، تجدهم أذل الناس وأطوع الناس لمن [٢] يستعملهم فى أغراضهم ، وأجزع الناس لما أصابهم ، ذلك أنه ليس فى قلوبهم من الإيمان ما يعتاضون به ، وتستغنى به نفوسهم ، ويصبرون به عمَّا لا يصلح لهم .

وهذه حال الأمم البعيدين عن العلم والإيمان ، كالترك التتار [والعرب] [٣] فى جاهليتهم ، فإنهم أعز الناس إذا قدروا ، وأذل الناس إذا قُهروا .

---

(١) فى الأصل : بحسب أمر من حيث نفوسهم وقدرتهم . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : من .

(٣) زدت كلمة « والعرب » لتستقيم العبارة .

وأما المؤمنون ، فكما قال تعالى لهم وقد غلبوا : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٩] ، فهم الأعلون إذا كانوا مؤمنين ولو غلبوا .

وقال كعب بن زهير [(١)] فى صفة الصحابة :

ليسوا مفاريحَ إنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمُ يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلُوا [(٢)]

ولهذا كان المشروع فى حق كل ذى إرادة فاسدة من الفواحش والظلم والشرك والقول بلا علم – أحد أمرين : إما إصلاح إرادته ، وإما منع قدرته ، فإنه إذا اجتمعت القدرة مع إرادته الفاسدة حصل الشر .

وأما ذو الإرادة الصالحة فتؤيد قدرته حتى يتمكن من فعل الصالحات ، وذو القدرة الذى لا يمكن سلب قدرته يُسعى فى إصلاح إرادته بحسب الإمكان .

فالمقصود تقوية الإرادة الصالحة والقدرة عليها بحسب الإمكان ، وتضعيف الإرادة الفاسدة والقدرة معها بحسب الإمكان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

المؤمن أرجح فى النعيم واللذة من الكافر فى الدنيا قبل الآخرة وإن كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

وهذا مما يظهر به حسن حال المؤمن وترجحه فى النعيم واللذة على الكافر فى الدنيا قبل الآخرة ، وإن كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

---

(١) فى الأصل : ابن مالك ، والتصويب فى هامش الأصل : « صوابه ابن زهير » .

(٢) البيت فى شرح ديوان كعب بن زهير ، صنعة أبى الحسن بن الحسين السكرى ، ص ٢٥ ، ط . دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٩/١٩٥٠ ولكنه فيه :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

وأورد ابن تيمية البيت فى كتاب « الاستقامة » ٢٧٤/٢ (وانظر ت ٢) .

فأما ما وُعد به المؤمن بعد الموت من كرامة الله [فإنه] [(١)] تكون الدنيا [(٢)] بالنسبة إليه سجنا ، وما للكافر بعد الموت من عذاب الله [فإنه] [(٣)] تكون الدنيا جنة [(٤)] بالنسبة إلى ذلك .

وذلك أن الكافر صاحب الإرادة الفاسدة إما عاجز وإما قادر ، فإن كان عاجزاً تعارضت إرادته [وقدرته] حتى لا يمكنه الجمع بينهما ، [وإن كان قادرا أقبل على الشهوات وأسرف فى] التذاذه بها ولا يمكنه تركها [(٥)] .

ص ١٨٩ / ولهذا تجد القوم [(٦)] من الظالمين أعظم الناس فجوراً وفساداً [(٧)] وطلبا لما يروِّحون به أنفسهم من مسموع ومنظور ومشموم ومأكول ومشروب ، ومع هذا فلا تطمئن [(٨)] قلوبهم بشىء من ذلك ، هذا فيما ينالونه [(٩)] من اللذة ، وأما

---

(١) زدت « فإنه » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : تكون فى الدنيا .

(٣) زدت « فإنه » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : تكون فى الدنيا جنته .

(٥) فى الأصل اضطربت السطور الأخيرة وجاء الكلام فيها ناقصا محرفا هكذا : « وذلك أن الكافر صاحب الإرادة الفاسدة إما قادر وإما عاجز (وتحتهما علامة التقديم والتأخير) فإن كان قادرا تعارضت إرادته حتى لا يمكنه الجمع بينهما وسهاون حتى يقلد التذاذه بها أو يعدم ولا يمكنه تركها » . ولعل ما أثبته هو أقرب شيء إلى الصواب إن شاء الله .

(٦) فى الأصل : القول ، وهو تحريف .

(٧) فى الأصل : صحو وبلا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : بتطمين ، وهو تحريف .

(٩) فى الأصل : يتاولونه ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

ما يخافونه من الأعداء ، فهم أعظم الناس خوفا ، ولا عيشة لخائف . وأما العاجز منهم فهو فى عذاب عظيم ، لا يزال فى أسف على ما فاته وعلى ما أصابه .

وأما المؤمن فهو مع مقدرته له من الإرادة الصالحة والعلوم النافعة ما يوجب طمأنينة قلبه وانشراح صدره بما يفعله من الأعمال الصالحة ، وله من الطمأنينة وقرة العين ما لا يمكن وصفه ، وهو مع عجزه أيضا [له] [(١)] من أنواع الإرادات الصالحة والعلوم النافعة التى يتنعَّم بها ما لا يمكن وصفه .

لذات أهل البر أعظم من لذات أهل الفجور

وكل هذا محسوس مجرَّب ، وإنما يقع غلط أكثر الناس أنه قد أحس بظاهرٍ من لذات أهل الفجور وذاقها ، ولم يذق لذات أهل البر ولم يخبرها ، ولكن أكثر الناس جهال ، كما لا يسمعون ولا يعقلون ، وهذا الجهل لعدم شهود حقيقة الإيمان ووجود حلاوته وذوق طعمه ، انضم إليه أيضا جهل كثير من المتكلمين فى العلم بحقيقة ما فى أمر [الله] [(٢)] من المصلحة والمنفعة ، وما فى خلقه أيضا لعبده المؤمن من المنفعة والمصلحة ، فاجتمع الجهل [(٣)] بما أخبر الله به من خلقه وأمره ، وما أشهده عباده من [حقيقة الإيمان] ووجود [حلاوته] [(٤)] مع ما فى النفوس من الظلم ، مانعاً للنفوس من عظيم نعمة الله وكرامته ورضوانه ، موقعاً لها فى بأسه وعذابه وسخطه .

---

(١) زدت « له » ليستقيم الكلام .

(٢) زدت لفظ الجلالة لتستقيم العبارة .

(٣) فى الأصل : فاجتمع أهل الجهل ، وهو خطأ .

(٤) فى الأصل العبارات محرفة مضطربة هكذا : « وما أشهده عباده من موجوده بمكان هذا الجهل » ولعل الصواب ما أثبته .

لما خاض الناس فى مسائل القدر ابتدع طوائف منهم مقالات مخالفة للكتاب والسنة : بدع القدرية

وذلك أن الناس لما خاضوا فى مسائل القدر ، ولِم يخلق الله ويأمر ، ونحو ذلك ، بغير هدًى من الله ، فرَّقوا دينهم وكانوا شيعا .

فزعم فريق أنه لا يخلق أحدا من الأشخاص إلا لأجل مصلحة المخلوق / ولا يأمره إلا لأن أمره مصلحة له أيضا ، وإنما العبد هو الذى صرف عن نفسه المصلحة وفعل المفسدة [١] بغير قدرة الرب وبغير مشيئته ، وهم إنما قصدوا بها تنزيه الرب عن الظلم والعيب ، ووصفه بالحكمة والعدل والإحسان ، لكن سلبوه علمه [٢] وقدرته وكتابته [٣] وخلقه ، ونفوا [٤] مشيئته وعمومها .

فقال قوم منهم : إنه لا يعلم ولا يكتب ما يكون من العباد حتى يفعلوه [٥] .

وقال آخرون : بل علم ذلك وعلم أنهم لا يطيعونه ، ولا يفعلون إلا ما يضرهم ، ومع هذا فقصد تعريفهم بالخلق والأمر للمنفعة الخالصة الدائمة .

فقال لهم الناس : من علم أن مقصوده من الخير لا يكون ، وقد سعى فى حصوله بمنتهى قدرته ، كان من أجهل الفاعلين وأسفههم ، فنزهوه عن قليل من السفه بالتزام ما هو أكثر منه ، وزعموا أنه لا يقدر إلا على ما فعل بهم ، فسلبوه قدرته .

---

(١) فى الأصل : « وإنما العبد هو الذى صرف عن نفسه مصلحة وفعل مفسد مشقة » وهى عبارات محرفة ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : عمله ، وهو تحريف ، واحسب أن الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : وكتابه ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : ونقود ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : حتى فعلوه ، وهو خطأ .

بدع طائفة من أهل الإثبات

فرد على هؤلاء طائفة من أهل الإثبات ، فأثبتوا عموم قدرته وعموم مشيئته وخلقه وعلمه القديم ، وكل هذا حسن موافق للكتاب والسنة ، وهو مع تمام الإيمان القدر : بعلم الله القديم ، ومشيئته ، وخلقه ، وقدرته على كل شيء ، لكن ضموا إلى ذلك أشياء ليست من السنة .

فإنه من السنة أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وألا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، وأنه يأمر العباد بطاعته ، ومع هذا يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة يونس : ٢٥] .

فزعموا مع ذلك أنه يخلق الخلق لا لحكمة فى خلقهم ، ولا لرحمته لهم ، بل قد يكون خلقهم ليضرهم [(١)] كلهم ، وهذا عندهم حكمة ، فلم ينزهوه عما نزَّه [عنه] [(٢)] نفسه من الظلم ، حيث أخبر أنه إنما يجزى الناس بأعمالهم ، وأنه لا يزر وازرة وزر أخرى ، وأنه من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما .

بل زعموا أن كل مقدور عليه فليس بظلم ، مثل تعذيب الأنبياء والمرسلين ، وتكريم الكفار والمنافقين ، وغير ذلك مما نزَّه الله نفسه عنه ، فلم يكن الظلم الذى نزّه الله نفسه عنه حقيقة عند هؤلاء ، إذ كل ما يمكن ويقدر عليه فليس بظلم . فقوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ [سورة غافر : ٣١] / عندهم : لا يريد [(٣)] ما لا يكون ممكنا مقدورا عليه ، وهو عندهم [(٤)] لا يقدر

ص ١٩٠

---

(١) فى الأصل : لنصرهم ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « عنه » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : عندهم فقوله قوله لا يريد . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : وهو عندهم عليه وهو عندهم .... ولعل الصواب ما أثبته .

على الظلم حتى يكون تاركا له ، وزعموا أنه قد يأمر العباد بما لا يكون مصلحة لهم ولا لواحد منهم ، لا يكون الأمر مصلحة ، ولا يكون فعل المأمور به مصلحة ، بل قد يأمرهم بما إن فعلوه [١] كان مضرة لهم ، وإن لم يفعلوه عاقبهم [به] [٢] ، فيكون العبد فيما يأمره به بين ضررين : ضرر إن أطاع ، وضرر إن عصى . ومن كان كذلك كان أمره للعباد مضرة لهم ، لا مصلحة لهم .

وقالوا : يأمر بما يشاء ، وأنكروا أن يكون فى الأحكام الشرعية من العلل المناسبة للأحكام من جلب المنافع ودفع المضار ما تبقى [الأحكام] الشرعية [٣] ممكنة به ، حتى كان منهم من دفع علل الأحكام بالكلية ، ومنهم من قال : العلل مجرد علامات ودلالات على الحكم ، لأنها أمور تناسب الحكم وتلائمه ، وهو يجوِّزون مع هذا ألاَّ يكون للعبد ثواب ومنفعة فى فعل المأمور به ، لكن لما جاءت الشريعة بالوعد قالوا [٤] هو موعود بالثواب الذى وُعد به ، وربما قالوا : إنه فى الآخرة فقط ، فإن الفعل المأمور به قد [٥] لا يكون [فيه] [٦] مصلحة للعباد ولا منفعة لهم بحال ، ولا يكون فيه [٧] تنعم لهم ولا لذة بحال ، بل قد يكون مضرة لهم ومفسدة فى حظهم ، ليس فيه ما ينفعهم [٨] ، ومعلوم أنه إذا اعتقد المرء

---

(١) فى الأصل : بما به إن فعلوه .

(٢) زدت « به » لتستقيم العبارة .

(٣) فى الأصل : ما هى الشرعية . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : قال .

(٥) فى الأصل : فقد .

(٦) زدت « فيه » لتستقيم العبارة .

(٧) فى الأصل كأن العبارة : فلا يكون لله ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل كأنها : يؤلمهم ، ولعل الصواب ما أثبته .

[أن] [١] طاعة الله ورسوله فيما أمراه [به] [٢] قد لا يكون [فيها] [٣] مصلحة له ولا منفعة ، ولا فيها تنعم ولا لذة [٤] ولا راحة ، بل يكون [فيها] [٥] مفسدة له ومضرة عليه ، وليس فيها إلا ألمه [٦] وعذابه – كان هذا من أعظم الصوارف له عن فعل ما أمر الله به ورسوله ، ثم إن كان ضعيف الإيمان بالوعيد والوعد ترك الدين بالكلية ، وإن كان مؤمنا بالوعيد صارت دواعيه مترددة بين هذا العذاب وذلك العذاب ، وإن كان مؤمنا بوعد الآخرة فقط اعتقد أنه لا تكون له [٧] فى الدنيا مصلحة ولا منفعة [٨] ، بل [لا] [٩] تكون المصلحة والمنفعة فى الدنيا إلا لمن كفر أو فسق وعصى .

ظ ١٩٠ وهذا أيضا وإن كان / هو غاية حال هؤلاء ، فهو مما يصرف النفوس عن طاعة الله ورسوله ، ويبقى العبد المؤمن متردد الدواعى بين هذا وهذا . وهو لا يخلو من أمرين : إما أن يرجّح جانب الطاعة التى يستشعر أنه ليس فيها طول عمره له مصلحة ولا منفعة ولا لذة ، بل عذاب وألم ، بل مفسدة ومضرة ، وهذا لا يكاد يصبر عليه أحد .

الرد عليهم

---

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فيما أمره ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : لعذه ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٦) فى الأصل كأنها : ليس فيها إله ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٧) فى الأصل : فى الآخرة فقط ثم فرح أنه يكون له ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : مصلحة بلا منفعة ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٩) زدت « لا » ليستقيم الكلام .

وإما أن يرجح جانب المعصية تارة أو تارات أو غالبا ، ثم إن أحسن أحواله مع ذلك أن ينوى التوبة قبيل موته .

ولا ريب إن كان ما قاله هؤلاء حقا فصاحب هذه الحال أكيس وأعقل ممن محَّض طاعة الله طول عمره ، إذ أن هذا [١] سلم من عذاب ذلك المطيع فى الدنيا ، ثم إنه بالتوبة أحبط عنه العقاب ، وأبدل الله سيئاته بالحسنات ، فصارت جميع سيئاته حسنات ، فصار ثوابه فى الآخرة قد يكون أعظم وأعظم من ثواب ذلك المطيع الذى محَّض الطاعة ، ولو كان ثوابه دون ثواب ذلك [٢] لم يكن التفاضل بينهم إلا كتفاضل أهل الدرجات فى الجنة ، وهذا مما يختاره أكثر الناس على مكابدة العذاب والشقاء والبلاء بطول العمر ، إذ هو أمر لا يصبر عليه أحد ، فإن مصابرة العذاب ستين أو سبعين سنة بلا مصلحة ولا منفعة ولا لذة أمر ليس هو من جِبِلَّة الأحياء ، إذا جوَّزوا أن لا يكون فى شىء من طاعة الله مصلحة ولا منفعة طول عمره .

وهؤلاء يجعلون العباد مع الله بمنزلة الأُجراء مع المستأجرين ، كأن الله استأجرهم طول مقامهم فى الدنيا ليعملوا ما لا ينتفعون به ، ولا فيه لربهم منفعة ، ليعوضهم مع ذلك بعد الموت بأجرتهم ، وفى هذا من تشبيه الله [٣] بالعاجز الجاهل السفيه ما يجب تنزيه الله عنه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

---

(١) فى الأصل : إذا أهنا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ولو كان ثوابه دون ذلك ثواب ذلك . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : أمر السنة لله ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

المقالة الصحيحة لأهل السنة والجماعة
ص ١٩١

والحق الذى يجب اعتقاده أن الله سبحانه إنما أرسل رسوله رحمة للعالمين ، وأن إرسال الرسل وإنزال الكتب / رحمة عامة للخلق أعظم من إنزال المطر وإطلاع البذر ، وإن يحصل بهذه الرحمة ضرر لبعض النفوس [(١)] .

ثم إنه سبحانه – كما قال قتادة وغيره من السلف : لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه [(٢)] ، بل أمرهم بما فيه صلاحهم ، ونهاهم عما فيه فسادهم .

وفى الحديث الصحيح ، حديث أبى ذر عن النبى ﷺ : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد يسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئا إلا كما ينقص البحر إذا غُمس فيه المخيط غمسة واحدة ، يا عبادى إنما هى أعمالكم ترد عليكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » [(٣)] .

---

(١) فى الأصل : وأن يحصل بهذه الرحمة نصر (بدون نقط) وبعض النفوس ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بخلافه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) الحديث عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى : مسلم ٤/١٩٩٤ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم) ، وسبق هذا الحديث فى المجموعة الأولى ، ص ١٤٨ وعلقت عليه هناك (ت ١) .

رفع الله الحرج عن المؤمنين

وقال تعالى فى وصف النبى الأمى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٧] .

وقال تعالى لما ذكر [١] الوضوء : ﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٦] . فأخبر أنه لا يريد أن يجعل علينا من حرج فيما أمرنا به ، وهذه نكرة مؤكدة بحرف « مِنْ » [٢] ، فهى تنفى كل حرج ، وأخبر أنه إنما يريد تطهيرنا وإتمام نعمته علينا .

وقال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [سورة الحج : ٧٨] ، فقد أخبر أنه ما جعل علينا فى الدين من حرج نفيا عاما مؤكدا ، فمن اعتقد أن فيما أمر الله به مثقال ذرة من حرج فقد كذَّب الله ورسوله ، فكيف بمن اعتقد [أن] [٣] المأمور به قد يكون فسادا وضرراً لا منفعة فيه ولا مصلحة لنا ، ولهذا [لمَّا] [٤] لم يكن فيما أمر الله ورسوله حرج علينا ، لم يكن الحرج من ذلك إلا من النفاق ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٥] .

ظ ١٩١

---

(١) فى الأصل : لما ذكروا .

(٢) فى الأصل : وهذه يكره موركده بحترف من . وفوق حرف « من » كتب « كذا » . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٤) زدت « لما » لتستقيم العبارة .

وقال الله تعالى فيما أمر به من الصيام : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] ، فإذا كان لا يريد فيما أمرنا به ما يعسر علينا ، فكيف يريد ما يكون ضررا وفسادا لنا بما أمرنا به إذا أطعناه فيه ؟

الإيمان والطاعة خير من الكفر والمعصية للعبد فى الدنيا والآخرة

ثم إنه يكون قد أخبر أن الإيمان والطاعة خير من الكفر والمعصية للعبد فى الدنيا والآخرة ، وإن كان لجهله يظن أن ذلك خير له [١] فى الدنيا ، كما يقوله هؤلاء الذين فيهم جهل ونفاق ، الذين قد يقولون : إن المأمور به قد لا يكون فيه للعبد مصلحة ولا منفعة طول عمره ، بل يكون ذلك فى المنهى عنه ، فقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] .

وقال تعالى عن الذين اتبعوا : ﴿ ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] فأخبر أنهم يعلمون أن هذه الأمور لا تنفع [٢] بعد الموت ، بل لا يكون لصاحبها نصيب فى الآخرة ، وإنما طلبوا بها منفعة الدنيا ، وقد يسمون ذلك العقل المعيشى ، أى العقل الذى يعيش به الإنسان فى الدنيا عيشة طيبة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنِدِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٣] ، فأخبر أن أولياءه [٣] الذين آمنوا وكانوا يتقون ، ينبههم [٤] على

(١) فى الأصل : خيرا له ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : لا ينفع .

(٣) فى الأصل : أوليائه ، وهو خطأ .

(٤) فى الأصل : يبهم ، وهو تحريف .

[أن فى] [(١)] ذلك ما هو خير لهم مما طلبوه فى الدنيا لو كانوا يعلمون ، فيحصل لهم فى الآخرة [(٢)] من الخير الذى هو المنفعة ودفع المضرة ما هو أعظم مِمَّا يحصلوه / بذلك من خير الدنيا . ص ١٩٢

كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٥٦] ، ثم قال : ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٧ ، ١٤٨] [(٣)] .

وقال عن إبراهيم : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة النحل : ١٢٢] .

وقد قال تعالى ما يبين به أن فعل المكروه من المأمور خير من تركه فى الدنيا أيضا . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً . وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً . وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٦ - ٦٨] .

---

(١) زدت عبارة « أن فى » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فى الدنيا ، وهو خطأ . وأجوا أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) سقطت كلمة « الكافرين » من الأصل .

وهذا فى سياق حال ﴿ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [سورة النساء : ٦٠] ، وهؤلاء منافقون من أهل الكتاب .

والمشركون حالهم أيضا شبيه (١) بحال الذين نبذوا كتاب الله وراءهم ظهريا كأنهم لا يعلمون : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] ، فإن أولئك عدلوا عمَّا فى كتاب الله إلى اتباع الجبت ، والطاغوت ، والسحر ، والشيطان . وهذه حال الذين أوتوا نصيبا من الكتاب الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت ، وحال الذين يتحاكمون إلى الطاغوت من المظهرين [للإيمان] (٢) بالله ورسله فيها من حال هؤلاء .

والطاغوت كل معظم ومتعظم بغير طاعة الله ورسوله ، من إنسان أو شيطان أو شىء من الأوثان .

وهذه حال كثير ممن يشبه اليهود من المتفقهة والمتكلمة وغيرهم ممن فيه نوع نفاق من هذه الأمة ، الذين يؤمنون بما خالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أنواع الجبت والطاغوت ، والذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ظ ١٩٢

---

(١) فى الأصل : شبههم ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت كلمة « للإيمان » لتستقيم العبارة .

ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ﴾ [سورة النساء : ٦١ ، ٦٢] [١] أى هؤلاء لم يقصدوا ما فعلوه من العدل عن طاعة الله ورسوله إلى اتّباع ما اتبعوه من الطاغوت إلا لما ظنوه من جلب منفعة لهم ودفع مضرة عنهم ، مثل طلب علم وتحقيق ، كما يوجد فى صنف المتكلمة ، ومثل طلب أذواق ومواجيد ، كما يوجد فى صنف المتعبدة ، ومثل طلب شهوات ظاهرة وباطنة ، كما يوجد فى صنف الذين يريدون العلو ، والذين يتبعون شهوات الغى [٢] .

قال تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [سورة النساء : ٦٠] أى ضلوا عن مطلوبهم الذى هو جلب المنفعة ودفع المضرة ، فإن ذلك إنما هو فى طاعة الله ورسوله دون اتباع الطاغوت ، فإذا عاقبهم الله بنقيض مقصودهم فى الدنيا فأصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، قالوا : ما أردنا بما فعلناه [٣] إلا إحسانا : أى أردنا الإحسان إلى نفوسنا لا ظلمها ، وتوفيقا : أو جمعا بين هذا وهذا ، لتجتمع الحقائق والمصالح .

قال تعالى : ﴿ أُوَلَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة النساء : ٦٣] من الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة : الظن وما تهوى الأنفس ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ [سورة النساء : ٦٣] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً

---

(١) فى الأصل جاءت آيتا سورة النساء ناقصتين محرفتين .

(٢) فى الأصل : الغنى ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : ما أردنا إلا بما فعلناه ، وهو خطأ .

رَّحِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٤] فدعاهم سبحانه بعد ما فعلوه من النفاق إلى التوبة ، وهذا من كمال رحمته بعباده ، يأمرهم قبل المعصية بالطاعة ، وبعد المعصية بالاستغفار ، وهو رحيم بهم فى كلا الأمرين : بأمره لهم بالطاعة أولا برحمته ، وأمرهم بالاستغفار من رحمته ، فهو سبحانه رحيم بالمؤمنين الذين أطاعوه أولا ، والذين استغفروه ثانيا .

فإذا كان رحيما بمن يطيعه ، والرحمة توجب إيصال [1] ما ينفعهم إليهم ، ودفع ما يضرهم عنهم ، فكيف يكون المأمور به مشتملا على ضررهم دون منفعتهم ؟

معنى المجىء إلى الرسول ﷺ بعد مماته

وقوله : (فجاؤوك) : المجىء إليه فى حضوره معلوم كالدعاء إليه ، وأما فى مغيبه ومماته [2] فالمجىء إليه كالدعاء إليه والرد إليه . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ [سورة النساء : ٦١] وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [سورة النساء : ٥٩] / وهو الرد والمجىء إلى ما بُعث به من الكتاب والحكمة ، وكذلك المجىء إليه [3] لمن ظلم نفسه هو الرجوع إلى ما أمره به ، فإذا رجع إلى ما أمره به فإن الجائى إلى الشىء فى حياته ممن ظلم نفسه يجىء إليه داخلا فى طاعته ، راجعا عن معصيته ، كذلك فى مغيبه ومماته .

ص ١٩٣

واستغفار الله موجود فى كل مكان وزمان ، وأما استغفار الرسول فإنه أيضا

---

(١) فى الأصل : أفعال ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : وماته ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : المحبة إليه ، وهو تحريف . والإشارة هنا إلى قوله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ...) الآية .

يتناول الناس فى مغيبه وبعد مماته ، فإنه أُمر بأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وهو مطيع لله (١) فيما أمره به . والتائب داخل فى الإيمان ، إذ المعصية تنقص (٢) الإيمان ، والتوبة من المعصية تزيد فى الإيمان بقدرها ، فيكون له من استغفار النبى ﷺ بقدر ذلك .

فأما مجىء الإنسان إلى [الرسول ﷺ] (٣) عند قبره ، وقوله : استغفر لى ، أو سل لى ربك ، أو ادعو لى ، أو قوله فى مغيبه : يا رسول الله ادع لى ، أو استغفر لى ، أو سل لى ربك كذا وكذا ، فهذا لا أصل له (٤) ، ولم يأمر الله بذلك ، ولا فعله واحد من سلف الأمة المعروفين فى القرون الثلاثة ، ولا كان ذلك معروفا بينهم ، ولو كان هذا مما يستحب لكان السلف يفعلون ذلك ، ولكان ذلك معروفا فيهم ، بل مشهورا بينهم ، ومنقولا عنهم . فإن مثل هذا إذا كان طريقا إلى غفران السيئات وقضاء الحاجات ، [لكان] (٥) مما تتوفر (٦) الهمم والدواعى على فعله وعلى نقله ، لا سيما فيمن كانوا أحرص الناس على الخير ، فإذا لم يعرف أنهم كانوا يفعلون ذلك ، ولا نقله أحد عنهم ، [عُلم] (٧) أنه لم يكن مما يستحب ويؤمر به .

---

(١) فى الأصل : الله .

(٢) فى الأصل : ينقص .

(٣) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : فهذا الأصل له ، وهو تحريف .

(٥) زدت « لكان » ليستقيم الكلام .

(٦) فى الأصل : يتوفر .

(٧) زدت كلمة « علم » لتستقيم العبارة .

بل المنقول الثابت عنه ما أمر الله به النبى ﷺ من نهيه عن اتخاذ قبره عيدا ووثنا ، وعن اتخاذ القبور مساجد [١] .

وأما ما ذكره بعض الفقهاء من حكاية العتبى عن الأعرابى الذى أتى قبر النبى ﷺ وقال : « يا خير البرية : إن الله يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية [سورة النساء : ٦٤] ، وإنى قد جئت » [٢] وأنه رأى النبى ﷺ / فى المنام وأمره أن يبشر الأعرابى [٣] – فهذه الحكاية ونحوها مما يذكر فى قبر النبى ﷺ وقبر غيره

ظ ١٩٣

---

(١) وردت أحاديث كثيرة نهى فيها النبى ﷺ عن اتخاذ قبره عيدا ووثنا ، وعن اتخاذ القبور مساجد ، منها عن أبى هريرة رضى الله عنه قوله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » وهو فى : سنن أبى داود ٢/٢٩٣ (كتاب المناسك ، باب زيارة القبور) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢/٣٦٧ .

ومنها عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم حديث النبى ﷺ : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وهو فى : البخارى ١/٩١ (كتاب الصلاة ، باب حدثنا أبو اليمان) ؛ مسلم ١/٣٧٧ (كتاب المساجد ، باب النهى عن بناء المساجد على القبور) .

ومنها حديث : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وهو فى الموطأ ١/١٧٢ (كتاب قصر الصلاة فى السفر ، باب جامع الصلاة) عن عطاء ابن يسار ؛ المسند (ط . المعارف) ١٣/٨٦ – ٨٩ عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) فى الأصل كتب فوق كلمة « جئت » : « كذا » .

(٣) قال ابن كثير فى تفسير آية ٦٤ من سورة النساء : « وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الدباغ فى كتابه « الشامل » الحكاية المشهورة عن العتبى قال : كنت جالسا عند قبر النبى ﷺ فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) وقد جئتك مستغفرا لذنبى مستشفعا بك إلى ربى ، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابى ، فغلبتنى عينى فرأيت النبى ﷺ فى النوم ، فقال : يا عتبى الحق الأعرابى فبشّره أن الله قد غفر له ..... » .

من الصالحين ، فيقع مثلهما لمن فى إيمانه ضعف ، وهو جاهل بقدر الرسول وبما أمر به ، فإن لم يُعف [عن] مثل هذا (١) لحاجته ، وإلا اضطرب إيمانه ، وعظم نفاقه ، فيكون فى ذلك بمنزلة المؤلفة بالعطاء فى حياة النبى ﷺ ، كما قال : « إنى لأتألف (٢) رجالا بما فى قلوبهم من الهلع والجزع ، وأَكِلُ رجالا إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير » (٣) ، مع أن أخذ ذلك المال مكروه لهم ، فهذه أيضا مثل هذه الحاجات .

وأما المشروع الذى وردت به سنته فهو دعاء المسلم ربه ، متوسلا به ، لا دعاؤه (٤) فى مماته ومغيبه ، وهو أن يفعل (٥) كما فى الحديث الذى رواه الترمذى وصححه أن النبى ﷺ علَّم رجلا أن يقول : « اللهم إنى أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ، نبى الرحمة ، يا محمد يا نبى الله : إنى أتوسل بك إلى ربى فى حاجتى

---

(١) فى الأصل كأنها : فإن لم يسعف مثل هذا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : لأنلف (بدون نقط) ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته . ولفظ الحديث : إنى لأعطى ...

(٣) الحديث عن عمرو بن تغلب رضى الله عنه ونصه فى البخارى : « ..... حدثنا عمرو بن تغلب أن رسول الله ﷺ أتى بمال أو سبى فقسمه فأعطى رجالا وترك رجالا ، فبلغه أن الذين ترك عتبوا ، فحمد الله ثم أثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد فوالله إنى لأعطى الرجل وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلىّ من الذى أعطى ، ولكن أعطى أقواما لما رأى فى قلوبهم من الجزع والهلع ، وأَكِلُ أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ، فيهم عمرو بن تغلب » فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ » .

والحديث فى : البخارى ١٠/٢ - ١١ (كتاب الجمعة ، باب من قال فى الخطبة بعد الثناء : أما بعد) ، ١٥٦/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : إن الإنسان خلق هلوعا .....) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٦٩/٥ .

(٤) فى الأصل : لا دعاه .

(٥) فى الأصل بعد عبارة « أن يفعل » كرر الناسخ عبارة : « ولا دعاه فى مماته ومغيبه » .

ليقضيها ، اللهم شفّعه فيَّ »[(١)] . وذلك أن الله يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] وقال تعالى : ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ [سورة السجدة : ٤] ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٥] .

فأقسم بنفسه على أنه نفى إيمان من لم يجمع أمرين : تحكيمه فيما شجر بينهم ، ثم أن لا يجد فى نفسه حرجا . وهذا يوجب أنه ليس فى أمره ونهيه ما يوجب الحرج لمن امتثل ذلك ، فإن حكمه لابد فيه من أمر ونهى ، وإن كان فيه إباحة أيضا ، فلو كان المأمور به والمنهى عنه مضرة للعبد ومفسدة ، وألما بلا لذة راجحة ، لم يكن العبد ملوما على وجود الحرج فيما هو مضرة له ومفسدة .

على المؤمن أن يحب ما أحب الله ويبغض ما أبغضه الله ويرضى بما قدّره الله

ولهذا لم يتنازع العلماء أن الرضا بما أمر الله به ورسوله واجب محبب ، لا يجوز كراهة ذلك وسخطه ، وأن محبة ذلك واجبة ، بحيث يبغض ما أبغضه الله ،

---

(١) الحديث عن عثمان بن حُنَيْف رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١/٤٤١ - ٤٤٢ (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء فى صلاة الحاجة) ونص الحديث : عن عثمان بن حنيف أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : ادع الله لى أن يعافينى . فقال : « إن شئت أخرت لك وهو خير ، وإن شئت دعوت » . فقال : ادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويصلى ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بمحمد نبى الرحمة ، يا محمد إنى قد توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتُقضى . اللهم فشفِّعه فِيَّ » . وقال ابن ماجة : « قال أبو إسحاق : هذا حديث صحيح » . وذكر الحديث الترمذى فى سننه (تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للمباركفورى ، تحقيق محمد عبد الرحمن عثمان ، ط . المدينة المنورة) ١٠/٣٢ - ٣٣ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر ، وهو غير الخطمى » . وقال المباركفورى فى شرحه : « وأخرجه النسائى وزاد فى آخره : فرجع وقد كشف الله عن بصره . وأخرجه أيضا ابن ماجة وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وزاد فيه : فدعا بهذا الدعاء ، فقام وقد أبصر . وأخرجه الطبرانى ...... » .

ويسخط ما أسخطه الله من المحظور ، ويحب ما أحبه ، ويرضى ما رضيه الله من المأمور .

وإنما تنازعوا فى الرضا بما يقدِّره الحق من الألم بالمرض والفقر . فقيل : هو واجب ، وقيل هو مستحب وهو أرجح . والقولان فى أصحاب الإمام أحمد وغيرهم . وأما الصبر على ذلك فلا نزاع أنه واجب .

وقد قال تعالى فى الأول : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٥٨ ، ٥٩] .

فجعل من المنافقين من سخط فيما منعه الله إياه ورسوله ، وحضهم [١] بأن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله . والذى آتاه الله ورسوله يتناول ما أباحه دون ما حظره ، / ويدخل [فى] [٢] المباح العام ما أوجبه وما أحبه . ص ١٩٤

وإذا كان الصبر على الضراء ونحو ذلك مما أوجبه الله وأحبه ، كما أوجب الشكر على النعماء وأحبه ، كان كل من الصبر والشكر مما يجب محبته وعمله [٣] . فيكون ما قُدِّر للمؤمن من سرَّاء معها شكر وضراء معها صبر خيراً له ، كما قال النبى ﷺ : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، أن أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان

---

(١) فى الأصل : وخصهم ، وهو تحريف .

(٢) زدت « فى » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : وعلمه .

خيرا له » (١) . وإذا كان خيرا فالخير هو المنفعة والمصلحة الذى فيه النعيم واللذة كما تقدم .

فيكون كل مقدور قُدِّر للعبد إذا عمل فيه بطاعة الله ورسوله خيرا له ، وإنما يكون شرا له لمن عمل بمعصية (٢) الله ورسوله ، ومثل ذلك فهو – بحسبه (٣) ونيته – بلاء (٤) قد يعمل فيه بطاعة الله ، وقد يعمل فيه بمعصية الله ، فلا يوصف بواحد (٥) من الأمرين .

فصل

جميع الحركات ناشئة عن الإرادة والاختيار

وإذا كان كل حركة فى الوجود فلا تخلو من أن تكون إرادية أو طبعية أو قسرية ، وتبين أن الطبعية والقسرية فرع (٦) وتبع للإرادية – فثبت أن جميع الحركات ناشئة عن الإرادة والاختيار ، وذلك يبطل أن يضاف خلق شىء من المخلوقات إلى الطبع الذى فى الأجسام ، مثل (٧) أن يكون الخالق للأجنة فى الأرحام هو طبع ، أو الخالق (٨) للنبات هو طبع ، لأن الطبع لا يكون مبدءاً لحركة

---

(١) مضى الحديث من قبل فى هذه المجموعة قبل صفحات (ص : ٣٤٢) .

(٢) فى الأصل : معصية .

(٣) فى الأصل : يحبه .

(٤) فى الأصل : وبلاء .

(٥) فى الأصل : بأحد .

(٦) فى الأصل : نوع ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٧) فى الأصل : قبل ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : أو خالق .

[الجسم] (١) وانتقال أصله ، إلا إذا أُخرج عن طبعه بغير طبعه ، كما يُجمع بين الأجسام بالمزج والخلط ، فتنتقل عن مراكزها ومحالها المخالف لمقتضى طبعها (٢) ، وعند التحقيق يعود الطبع إلى أنه ليس فيها سبب للحركة عن حالها وسكونها ، فيكون الطبع بمنزلة السكون وعدم الحركة ، أو أمراً (٣) وجوديا منافيا للحركة ، فالحركة الواردة عليها مخالفة له (٤) ، والطبع جمود (٥) ، وهى [تنتقل] (٦) عن إرادة وحركة ، فعلم بطلان إصابة شيء من الحوادث العرضية (٧) عن مجرد الطبع الذى فى الموات ، فكيف بالحوادث الجوهرية ؟!

والإرادة والاختيار مستلزمة للحياة والعلم ، كما أن الحياة أيضا مستلزمة للعلم وللإرادة ، بل وللإرادة والحركة ، كما قرر ذلك عثمان بن سعيد (٨) وغيره من أئمة السنة .

---

(١) زدت كلمة « الجسم » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فينقل عن مراكها ومحالها المخالف ليقضى طبعها ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : أو أمر ، وهو خطأ .

(٤) أى للطبع .

(٥) فى الأصل الكلمة غير واضحة ، وكأنها : جسمه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) زدت كلمة « تنتقل » ليستقيم الكلام .

(٧) فى الأصل : الفرضية ، وهو تحريف .

(٨) يقول ابن تيمية فى كتاب « الاستقامة » ١/٧٠ ، ٧١ (ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتحقيقى ، الرياض ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣) : « وكذلك لفظ الحركة أثبته طوائف من أهل السنة والحديث ، وهو الذى ذكره حرب بن إسماعيل الكرمانى فى السنة التى حكاها عن الشيوخ الذين أدركهم ..... وكذلك هو الذى ذكره عثمان بن سعيد الدارمى فى نقضه على بشر المريسى ، وذكر =

وكما أن الحركة مستلزمة للإرادة والحياة ، فالحياة أيضا مستلزمة للحركة والإرادة ، ولهذا كان أعظم آية فى القرآن : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] . فالاسم الحىّ مستلزم لصفاته وأفعاله ، وهو من أعظم / البراهين العقلية على ثبوت صفات الكمال ، والمصحح لها ، والمستلزم ثبوتها ونفى نقيضها ، كالعلم والكلام والسمع والبصر وغير ذلك ، كما هو مبين فى موضعه . ظ ١٩٤

فصل

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَـٰؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ

= أن ذلك مذهب أهل السنة » ويقول الدارمى فى كتابه « رد الإمام الدارمى عثمان بن سعيد على بشر المريسى العنيد » ص ١٩ ، بتحقيق محمد حامد الفقى ، ط . أنصار السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٥٨ : « وأما دعواك : أن تفسير « القيوم » الذى لا يزول عن مكانه فلا يتحرك . فلا يقبل مثل هذا التفسير إلا بأثر صحيح ، مأثور عن رسول الله ﷺ ، أو عن بعض أصحابه أو التابعين . لأن الحى القيوم يفعل ما يشاء ، ويتحرك إذا شاء ، وينزل ويرتفع إذا شاء ؛ ويقبض ويبسط ، ويقوم ويجلس إذا شاء ، لأن أمارة ما بين الحى والميت التحرك . كل حى متحرك لا محالة ، وكل ميت غير متحرك لا محالة » .

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥١ – ٥٦] .

أصل الموالاة الحب وأصل المعاداة البغض

وأصل الموالاة هى المحبة ، كما أن أصل المعاداة البغض ، فإن التحاب يوجب التقارب والاتفاق . والتباغض يوجب التباعد والاختلاف ، وقد قيل : المولى من الْوَلْىُ : وهو القرب ، وهذا يلى هذا ، أى هو يقرب منه [١] .

والعَدُوُّ من العُدَواء وهو البعد [٢] ، ومنه العُدْوَة [٣] . والشيء إذا ولى الشيء ودنا منه وقرب إليه اتصل به ، كما أنه إذا عُدِّى عنه ، ونأى عنه ، وبعد منه ، كان ماضيا عنه [٤] .

فأولياء الله ضد أعدائه ، يقرِّبهم منه ويدنيهم إليه ، ويتولاهم ويتولونه ، ويحبهم ويرحمهم ، ويكون عليهم منه صلاة ، وأعداؤه [٥] يبعدهم ويلعنهم ، وهو إبعاد منه ومن رحمته ، ويبغضهم ويغضب عليهم ، وهذا شأن المتوالين والمتعادين [٦] . فالصلاة ضد اللعنة ، والرحمة والرضوان ضد الغضب ، والسخط والعذاب ضد النعيم .

ص ١٩٥

قال تعالى فى حق الصابرين : ﴿ أُوْلَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥٧][٧] .

---

(١) فى « لسان العرب » : « والوَلْىُ : القرب والدنو .... ويقال : تباعدنا بعد وَلْىٍ ، ويقال منه . وَلِيَه يَلِيه ، بالكسر فيهما ، وهو شاذ ..... وكل مما يليك : أى مما يقاربك » .

(٢) فى الأصل : وهو البعد منه ، والظاهر أن « منه » زيادة من الناسخ . وفى اللسان « العُدَواء : بعد الدار ، والعَدَاء البعد « وفيه أيضا : وطالت عُدَواؤهم أى تباعدهم وتفرقهم » .

(٣) فى اللسان : « العُدْوَة : المكان المتباعد » وهى عدوة الوادى .

(٤) فى اللسان : « العِدَى : التباعد . وقوم عِدًى إذا كانوا متباعدين لا أرحام بينهم ولا حلف . وقومٌ عِدًى إذا كانوا حربا .... والعَدُوُّ : ضد الصديق ..... قال الجوهرى : العَدُوُّ ضد الوَلِىِّ » .

(٥) فى الأصل : وأعدائه ، وهو خطأ .

(٦) فى الأصل : المتواليين والمتعاديين .

(٧) فى أعلى ص ١٩٥ من الأصل إلى اليسار كتب « السادس » .

وقال تعالى فى حق المنافقين : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [سورة الفتح : ٦] .

وقال تعالى فى حق المجاهدين : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ٢١] .

وقال تعالى فى قاتل المؤمن متعمدا : ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [سورة النساء : ٩٣] .

والمتلاعنان يقول الرجل فى الخامسة : ﴿ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة النور : ٧] وذلك يكون قاذفا . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٢٣] ، وتقول المرأة فى الخامسة : ﴿ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة النور : ٩] ، لأنه إذا كان صادقا كانت زانية فاستحقت الغضب الذى هو ضد الرحمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [سورة النور : ٢] ، فنهى عن الرأفة بهما فى دين الله .

والمؤمن يغار ، والله يغار ، وغيرة الله أعظم ، كما قد استفاض عن النبى ﷺ فى الصحيح من غير وجه أنه قال : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » (١) .

---

(١) الحديث – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ٥٧/٦ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام ، باب ولا تقربوا الفواحش) ، ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ، ١٢٠/٩ (كتاب التوحيد ، باب قوله الله تعالى : ويحذركم الله نفسه) ، ١٢٣/٩ =

وفى بعض [(١)] الأحاديث الصحاح : « لا أحد أَغْيَر من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته » [(٢)] وفى بعضها « إن الله يغار ، وغَيْرته أن يأتى العبد ما حرَّم عليه » [(٣)] .

والغَيْرة فيها من البغض والغضب ما يدفع به [الإنسان] [(٤)] ما غار منه ، فالزنا وإن كان صادرا عن الشهوة والمحبة منهما ، أو من أحدهما ، فإن ذلك مقابل [بضرورة التنزّه عن الفواحش ، والتورع عن المحرمات] [(٥)] . فأمر الله أن

= (كتاب التوحيد ، باب لا شخص أغير من الله) ؛ مسلم ٢١١٣/٤ - ٢١١٤ (كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى .....) ؛ سنن الترمذى ٢٠٠/٥ - ٢٠١ (كتاب الدعوات ، باب حدثنا محمد بن بشار) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٩/٥ - ٢٢٠ ، ٥٦/٦ - ٥٧ ، ٥٩ ؛ سنن الدارمى ١٤٩/٢ (كتاب النكاح ، باب فى الغيرة) .

(١) فى الأصل : وبعض .

(٢) الحديث عن عائشة رضى الله عنها فى : البخارى ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ولفظه فيه : « يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته يزنى . يا أمة محمد ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » . وجاء الحديث عنها رضى الله عنها مطولا وأوله : خسفت الشمس فى عهد رسول الله .... الحديث ومنه : فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ..... ثم قال : يا أمة محمد والله ما من أحد أغير .... الحديث ، وهو مع اختلاف يسير فى الألفاظ فى : البخارى ٣٤/٢ (كتاب الكسوف ، باب الصدقة فى الكسوف) ؛ مسلم ٦١٨/٢ (كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف) ؛ سنن النسائى ١٠٨/٣ (كتاب الكسوف ، باب نوع آخر منه (من صلاة الكسوف) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٦٤/٦ .

(٣) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ؛ مسلم ٢١١٤/٤ (كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى ، وتحريم الفواحش) ؛ سنن الترمذى ٤١٧/٢ (كتاب الرضاع ، باب ما جاء فى الغيرة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٤٣/٢ ، ٥٣٩ .

(٤) زدت كلمة « الإنسان » لتستقيم العبارة .

(٥) فى الأصل : مقابل بصدق . ولعل ما أثبته من كلام زدته بين المعقوفتين تستقيم به العبارة .

لا تأخذنا [١] بهما رأفة فى دين الله ، فنهانا عن أن تكون [٢] منا رأفة تدفع العذاب عنهما ، فضلا عن أن يكون محبة لذلك الفعل . ولهذا أخبرنا به بأنه لا يحب ذلك أصلا ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٨] ، وما لا يأمر به لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب لا يحبه ، قال لوط عليه السلام : ﴿ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ١٦٨] والقِلى : بغضه وهجره [٣] ، والأنبياء أولياء الله ، / يحبون ما يحب الله ويبغضون ما يبغض . ظ ١٩٥

وربما قيل : القلى أشد البغض ، فالله سبحانه يبغض ذلك ، وهو سبحانه يبغض كل ما نهى عنه ، كما أنه يحب كل ما أمر به . بل الغَيْرة مستلزمة لقوة البغض ، إذ كل من يغار يبغض ما غار منه ، وليس كل من يبغض شيئا يغار منه ، فالغيرة أحض وأقوى .

ولا ريب أن المرأة المزوَّجة الزانية استحقت الغضب لشيئين : لأجل ما فى الزنا من التحريم . ولأنها [٤] اعتدت فيه على الزوج فأفسدت فراشه . ولهذا كان للزوج [٥] إذا قذف امرأته ولم يأت بأربعة شهداء : أن [٦] يلاعنها ، لما له فى ذلك من ا لحق ، ولأنه مظلوم إذا كان صادقا ، وعليه فى زناها من الضرر ما يحتاج إلى

---

(١) فى الأصل : يأخذنا .

(٢) فى الأصل : يكون .

(٣) أى بغض العمل وهجره .

(٤) فى الأصل : ولهذا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : الزوج ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : أى . ولعل الصواب ما أثبته .

دفعه بما شرعه الله ، كالمقذوف الذى له أن يستوفى حد القذف من القاذف الذى ظلمه فى عرضه ، فكذلك الزوج له أن يستوفى حد الفاحشة من البغى الظالمة له ، المعتدية عليه . كما قال النبى ﷺ فى حق الرجل على امرأته « وأن لا يوطئن فرشكم من تكرهونه » [١] ، فلهذا كان له أن يقذفها ابتداءً ، [وقذفها] [٢] إما مباح له وإما واجب عليه إذا احتاج إليه لنفى النسب ، ويضطرها بذلك إلى أحد أمرين : إما أن تعترف [٣] فيقام عليها الحد ، فيكون قد استوفى حقه ، وتطهرت هى أيضا من الجزاء لها والنكال [فى الآخرة] [٤] بما [٥] حصل ، وإما أن تبوء بغضب الله عليها وعقابه فى الآخرة الذى هو أعظم من عقاب الدنيا ، فإن الزوج مظلوم معها ، والمظلوم له استيفاء حقه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة [٦] ، قال الله تعالى :

---

(١) فى الأصل : من يكرهونه ، وهذه العبارة جزء من حديث جاء عن عمرو بن الأحوص رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٤١٥/٢ (كتاب الرضاع ، باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها) وأوله : عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال حدثنى أبى أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ ...... فذكر فى الحديث قصة فقال : « ألا واستوصوا بالنساء خيرا ..... فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ..... الحديث وقال عنه الترمذى :« هذا حديث حسن صحيح » ، وهو فى : سنن ابن ماجة ٥٩٤/١ (كتاب النكاح ، باب حق المرأة على الزوج) . وجاءت هذه العبارة أيضا ضمن حديث مطول عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ورد فى كتب السنن ، وهو فى : سنن ابن ماجة ١٠٢٢/٢ - ١٠٢٧ (كتاب المناسك ، باب حجة رسول الله ﷺ) ؛ سنن الدارمى ٤٤/٢ - ٤٩ (كتاب المناسك ، باب فى سنة الحاج) كما جاءت نفس العبارة فى حديث ثالث عن أبى حرة الرقاشى عن عمه رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٧٢/٥ - ٧٣ .

(٢) زدت « وقذفها » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : يعترف .

(٤) زدت عبارة « فى الآخرة » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : ما .

(٦) بعد كلمة الآخرة توجد فى الأصل عبارة « بخلاف الزوج » وهى عبارة مقحمة وبحذفها يستقيم الكلام .

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [سورة النساء : ١٤٨] [بخلاف غير الزوج] [١] فإنه ليس له حق الافتراش ، فليس له قذفها ، ولا أن يلاعن إذا قذفها ، لأنه غير محتاج إلى ذلك [مثل] [٢] الزوج ، ولا هو مظلوم فى فراشها ، لكن يحصل بالفاحشة من ظلم غير الزوج ما لا يحتاج إلى اللعان ، فإن فى الفاحشة إلحاق عار بالأهل ، والعار يحصل بمقدمات الفاحشة .

فإذا لم تكن الفاحشة معلومة بإقرار ولا بيِّنة كان عقوبة ما ظهر منها كافيا فى استيفاء الحق ، مثل الخلوة والنظر ونحو ذلك من الأسباب التى نهى الله عنها ، وهذا من محاسن الشريعة .

وكذلك كثيرا ما يقترن بالفواحش من ظلم غير الزانيين ، فإنه إذا حصل بينهما محبة ومودة فاحشة كان ذلك موجبا لتعاونهما على أغراضهما ، فيبقى [٣] كل منهما يعين الآخر على أغراضه التى يكون [٤] فيها ظلم الناس ، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما / فى القبيح ، وتعاونهما [٥] بذلك على الظلم ، كما جرت العادة فى البَغِيِّ من النساء والصبيان أن خدنه أو المسافح به يحصل له منه من الإكرام والعطاء والنصر والمعاونة ما يوجب استطالة ذلك الفاجر بترك حقوق الخلق والعدوان عليهم .

ص ١٩٦

---

(١) زدت عبارة « بخلاف غير الزوج » ليستقيم الكلام ، والمقصود غير الزوج من أهل الزوجة أو أهل الزوج مثلا .

(٢) زدت كلمة « مثل » لتستقيم العبارة .

(٣) فى الأصل : بقى .

(٤) فى الأصل : تكون .

(٥) فى الأصل : ويعاونهما .

وأيضا [فإن] محبته له قد تحمل [(١)] الطالب الراغب على أخذ أموال الناس بغير حق ليعطيه ذلك [(٢)] ، وتحمله أيضا على ترك حقوق الناس وقطيعة رحمه [(٣)] لأجل ذلك الشخص ، فإنه لا يمكن الجمع بين الأمرين . ويحمله أيضا على الانتصار له بالعدوان .

ففى الجملة المحبة توجب موافقة المحب للمحبوب . فإذا كانت المحبة فاسدة لا يحبها الله ولا يرضاها ، إذا لم يتعد ضررها للاثنين ، تكون العقوبة لهما حقا لله ، لكن هى فى الغالب ، بل فى اللازم ، يتعدى ضررها إلى الناس ؛ فإن كل واحد من الشخصين عليه حقوق للناس ، وهو يُنهى عن العدوان عليهم ، فإذا تحابا وتعاونا لم يتمكن كل منهما من القيام بحقوق الناس ، واحتاج إلى أن يعتدى عليهم .

ولا ينبغى للإنسان أن يعتبر بظاهر ما يُقال : إن الإنسان إذا فعل فاحشة فإن الإثم عليه خاصة ، وليس ذلك بظلم للغير [(٤)] ، فإن ذلك إنما هو فى الفاحشة المحضة ، مثل الزنا المحض [(٥)] ، الذى لم يتعلق به حق الغير ، فأما زنا الزوجة ففيه ظلم بالاتفاق كما بيناه .

وكذلك المحبة والعشق الفاسد ، فإن هذا أعظم ضررا من الزنا مرة واحدة ،

---

(١) فى الأصل : أيضا محبته له قد يحمل ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ليطيعه ذلك ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : ويطيعه رجمه ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : الغير . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : المختص ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

فإن الرجل إذا زنا مرة أو مرتين حصل غرضه ، وكذلك المرأة ، ثم إنه قد يكون بِعِوَضٍ (١) من أحدهما للآخر وقد لا يكون ، فربما كان فيه ظلم للغير .

وأما المحبة والعشق ، فإن ذلك مستلزم للعدوان على غيرهما فى العادة ، فإن المحبة توجب أن يُعْطَى المحبوب من المنافع والأموال ما يوجب حرمان الغير والعدوان عليه ، ويوجب من الانتصار للمحبوب والدفع عنه ما فيه أيضا ترك حق الغير والعدوان عليه . ألا ترى أن الرجل إذا أحب غير امرأته ، أو المرأة [إذا] (٢) أحبت غير زوجها ، قصَّر كل منهما فى حقوق الآخر واعتدى عليه . بل إذا أحب الرجل امرأةً أو صبيا قصَّر فى حقوق أهله وأصدقائه ممن (٣) له عليه حق ، بل وظلمهم أيضا ، كما يظلم غيرهم لأجله ؟! وهذا سوى ما فى ذلك من حق الله الذى يوجب غليظ عقابه . وإن كان الرجل العاقل قد يقوم / من الحقوق بما يمكن ، ويدع الظلم بحسب الإمكان ، إلا أن هذا مظنة وسبب لذلك ، وهذا مما يوجب تحيّر الرجل وتردده وتلومه إلى الحق تارة وإلى الباطل أخرى ، وهذا مرض عظيم ، كما ذكر الله تعالى ذلك فى قوله : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٢] . وأما ما فى ذلك من ظلم كل منهما لنفسه ولخدنه فذاك ظاهر ، لكنهما (٤) ظلما أنفسهما ، فهما الظالمان المظلومان . وأما الغير فظلماه بغير رضاه ولا اختياره .

ظ ١٩٦

وكذلك ما تفضى إليه هذه المحبة الباطلة من ظلم كل منهما للآخر ، إما بقتله ، وإما بتعذيبه بغير الحق ، وإما منعه من الاتصال بالناس ، وفعل ما يختار

---

(١) فى الأصل : ثم إنه كان يعوض . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « إذا » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : من .

(٤) فى الأصل : ممكنهما .

من مصلحة وغيرها . ففيها هذه المفاسد كلها وأكبر منها ، لكن ذلك ظلم منهما لأنفسهما مبدؤه [١] المحبة الفاسدة .

ولهذا أمر سبحانه أن لا تأخذنا [٢] بهما رأفة فى دين الله ، فإن الرأفة والرحمة توجب أن توصِّل للمرحوم [٣] ما ينفعه ، وتدفع عنه ما يضره ، وإذا رأف بهما أحد [٤] لأجل ما [فى] [٥] قلوبهما من الشهوة والمحبة وغير ذلك ، وترك عذابهما [٦] ، كان ذلك جالبا لما يضرهما ودافعا لما ينفعهما ، فإن ذلك مرض فى قلوبهما . والمريض [٧] الذى يشتهى ما يضره ليس دواؤه [٨] إعطاءه [٩] المشتهى الضار ، بل دواؤه [١٠] الحِمْيَة وإن آلمته ، وإعطاؤه [١١] ما ينفعه ، وتعويضه عن ذلك الضار بما أُمر مما لا يضر .

فهكذا أهل الشهوات الفاسدة ، وإن أضرمت قلوبهم نار الشهوة ليس رحمتهم والرأفة بهم تمكينهم [١٢] من ذلك ، أو ترك عذابهم ، فإن ذلك يزيد

---

(١) فى الأصل : مبدأه .

(٢) فى الأصل : يأخذ .

(٣) فى الأصل : المرحوم .

(٤) فى الأصل : دب ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) زدت « فى » ليستقيم الكلام .

(٦) فى الأصل : عذابها .

(٧) فى الأصل : والمرض . ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : دواه .

(٩) فى الأصل : أعطاه .

(١٠) فى الأصل : دواه .

(١١) فى الأصل : وأعطاه .

(١٢) فى الأصل : تمكنهم .

بلاءهم [١] وعذابهم ، والحرارة التى فى قلوبهم مثل حرارة المحموم ، متى مُكِّن المحموم مما يضره ازداد مرضه ، أو انتقل إلى مرض شر منه .

فهذه حال أهل الشهوات ، بل تُدفع تلك الشهوة الحلوة بضدها ، والمنع من موجباتها ، ومقابلتها بالضد من العذاب المؤلم ونحوه الذى [٢] يخرج المحبة من القلب كما قيل :

فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فإذا كان يحصل بالمحبة ونيل الشهوة أمر مما يزيد ألمه على لذتها انكفّت النفس . وكذلك إذا حصل بدله أمر لذيذ أطيب منه اغتاظت النفس . فاللذيذ يُترك لما يرجح عليه من لذيذ وأليم ، كما أن الأليم محتمل لما يرجح عليه من لذيذ وأليم . وإذا تكافئا تقابلا ، فلم يغلب أحدهما الآخر ، بل تبقى الأمور على ما هو عليه إذا استوت الدواعى والصوارف ، / واحتمال الأليم وفوت اللذيذ وإن كان فيه مرارة ، فذلك يُدفع به ما هو أمر منه ، ويُجلب به ما هو أرجح منه من الحلو . ص ١٩٧

ولكن هذا من محبة بنى آدم وفتنتهم التى لابد منها ، وهى مخالفة الأهواء ، فلا تقوم مصلحة أحد من بنى آدم بدون ذلك أبدا ، لا مصلحة دنياه ولا مصلحة دينه ، كما قال إبراهيم الحربى [٣] : « أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، ولابد من الصبر فى جميع الأمور ، قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ

---

(١) فى الأصل : بلادهم ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : التى .

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله البغدادى الحربى ، من أعلام المحدثين ومن الزهاد ، ولد سنة ١٩٨ وتوفى سنة ٢٢٥ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الحنابلة ٨٦/١ - ٩٣ ؛ تاريخ بغداد ٢٧/٦ - ٤٠ ؛ صفة الصفوة ٢٢٨/٢ - ٢٣٢ ؛ الأعلام ٢٤/١ - ٢٥ .

الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر : ١ - ٣] » .

فلابد من التواصى بالحق والصبر ، إذ أهل الفساد والباطل لا يقوم باطلهم إلا بصبر عليه أيضا ، لكن المؤمنون يتواصون بالحق والصبر ، وأولئك يتواصون (١) بالصبر على باطلهم ، كما قال قائلهم (٢) : ﴿ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [سورة ص : ٦] .

فالتواصى بالحق بدون الصبر ، كما يفعله الذين يقولون آمنا بالله فإذا أُوذِى أحدهم فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، والذين يعبدون الله على حرف ، فإن أصاب أحدهم خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة .

والتواصى بالصبر بدون الحق ، كقول الذين قالوا : أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، كلاهما موجب للخسران . / وإنما نجا (٣) من الخسران الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وهذا موجود فى كل من خرج عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة ، وأهل الشبهات الفاسدة ، أهل الفجور ، وأهل البدع .

ظ ١٩٧

وما ذكرناه من أن المحبة الفاسدة توجب ظلم المتحابَّيْن (٤) لأنفسهما

---

(١) فى الأصل : يتواصو .

(٢) فى الأصل : كما قال تعالى قاتلهم ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل نجوا .

(٤) فى الأصل : المعانين . وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

ولغيرهما موجود فى كل محبة يبغضها الله ، كمحبة الأنداد والشركاء من دونه ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] وقال تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] وكمحبة أهل الشهوات لجنس [١] الفواحش ، ومحبة أهل الظلم ، والقائلين على الله ما لا يعلمون ، فإن المحبة توجب تعاون المتحابَّيْن واتفاقهما ، فلابد أن يبغضا ويعاديا [٢] من يبغض ذلك منهما ويخالفهم فيه .

ومعلوم أن كل مؤمن فإنه يبغض ما يبغضه الله ، ويحب ما يحبه الله ؛ فلابد أن يكون التحاب الذى يبغضه الله موجباً لنوع بُغض المؤمنين بحسبه .

فصل

تقسيم العلم إلى فعلى وانفعالى

قد كتبت فى غير هذا الموضع أن الناس وإن تنازعوا فى العلم : هل هو صفة انفعالية تابعة للمعلوم ، كما قد يطلقه كثير من أهل الكلام ؟ أو هو صفة فعلية مؤثِّرة فى المعلوم ، كما يقوله طوائف من المتفلسفة ؟

فإن الصواب أنه ينقسم إلى النوعين جميعا . فمنه ما هو تابع للمعلوم غير مؤثر فيه بحال ، وهو العلم النظرى القولى الخبرى المحض ، كعلمنا بما لا تأثير لنا فى وجوده ، كالعلم بالخالق سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه وأنبيائه وسائر مخلوقاته .

ومنه ما هو فعلى [٣] له تأثير فى المعلوم ، كعلمنا بأفعالنا الاختيارية [٤] وما يترتب عليها / من حصول منفعة ودفع مضرة .

ص ١٩٨

---

(١) فى الأصل : فى جنس ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : وتعاونا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : فعل .

(٤) فى الأصل : الاختياره .

وهذا التقسيم ثابت فى علم الله تعالى ، فإنه يعلم نفسه ويعلم مخلوقاته أيضا . والأول علم بموجود ، والثانى علم بمقصود .

لكن العلم بالموجود المستغنى عن أفعالنا يتبع العلم به حبه تارة وبغضه أخرى ، فيكون العلم به سببا لأفعال لنا متعلقة به ، فيكون هذا العلم الانفعالى فعليا مؤثرا من هذا الوجه ، وعلمنا بالحسنات والسيئات التى فى أفعال غيرنا من هذا الوجه .

علم الرب بأفعال عباده الصالحة والسيئة يستلزم حبه للحسنات وبغضه للسيئات

وعلم الرب سبحانه بأفعال عباده الصالحة والسيئة مستلزم أيضا حبه للحسنات وبغضه للسيئات . والعلم بالمقصود من أفعالنا ، وإن كان مؤثرا فى المعلوم ، وهو سبب فى حصوله ، فلا يكون إلا بعد علم بأمور موجودة أوجب قصدا أو اختيارا [1] لتلك الأفعال ، فإن الفعل الاختيارى يتبع الإرادة ، والإرادة تتبع المراد ، فلابد أن يتصور الفاعل المراد قبل قصد الفعل الذى هو سبب إليه ، كما يقال : آخر الفكرة أول العمل [2] ، وتسمى العلة الغائية . [فلابد من تصور] ذلك المراد [3] ، وأن يكون ما يترتب على الفعل من لذة تجلب منفعة وتدفع [4] مضرة ، فاللذة مشروطة بالإحساس باللذيذ ، والإنسان لا يفعل ابتداءً لطلب لذيذ إلا أن يكون قد أحسَّه قبل ذلك فأحبه واشتهاه واشتاق إليه ، وذلك علم بأمر موجود تابع للمعلوم ، تبعه علم بأمر مقصود تابع للعلم . وإن كانت اللذة

---

(١) فى الأصل : أو إخبارا ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : أول الفكر آخر العمل ، وهو خطأ ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : ..... الغائية وذلك المراد . ووجدت أن العبارة غير مستقيمة ، ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٤) فى الأصل : ودفع .

قد تحصل ابتداءً لا عن شوق ، كمن يذوق الشىء الطيب الذى لم يكن يعرفه فيحبه بعد ذلك ، لكن هذا لم يتقدم منه طلب وفعل فى حصول هذا المحبوب ، بخلاف من ذاقه ابتداءً فأحبه ، ثم سعى فى تحصيل نظائر ما حصل له ابتداءً .

فقد تبين أن كلاًّ من العلمين : الفعلى والانفعالى مستلزم للآخر ، وكذلك علم الرب سبحانه / وتعالى بنفسه مستلزم لعلمه بصفاته وأفعاله ومفعولاته ، وهو سبحانه يحمد نفسه ويثنى عليها ، فلا نحصى ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وعلمه [1] بأفعاله ومفعولاته مستلزم لعلمه بنفسه ، وعلمه بالمخلوقات وأفعالها يتبعه حبه وبغضه ، وأمره ونهيه ، وعلمه بما يفعله بعباده من ثواب وعقاب وغير ذلك تابع لعلمه بما هى عليه ، وقد تكلمنا على نحو هذا فى غير هذا الموضع .

ظ ١٩٨

وإنما المقصود فى هذا المكان أن هذا التقسيم الوارد فى العلم يرد نحوه فى الإرادة والمحبة ونحو ذلك .

الإرادة والمحبة ينقسمان أيضا إلى فعليتين وانفعاليتين

فإن الإرادة والمحبة تنقسم أيضا إلى فعلية مؤثرة فى المراد المحبوب ، وهى إرادة الفعل وحبه [وإن كان المراد المحبوب تابعا مفعولا معدوما] [2] ، وقد ظن بعض الناس أن الإرادة والمحبة ليست إلا هذا النوع ، حتى قال : لا تتعلق الإرادة والمحبة إلا بالمعدوم دون الموجود ، وبالمحدَث دون القديم ، وهذا قول طوائف من أهل الكلام . وأكثر هؤلاء هم أكثر القائلين بأن العلم لا يكون إلا انفعاليا [3] ،

---

(١) فى الأصل : وعلم .

(٢) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : إلا غالبا ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

فيجعلون العلم لا يتعلق فى الحقيقة إلا بمعلوم متبوع كالموجود ، ويجعلون الإرادة لا تتعلق إلا بمراد تابع كالمفعول المعدوم .

وتنقسم إلى انفعالية تابعة للمراد المحبوب ليست مؤثرة فى وجوده أصلا ، بل يكون المحبوب المراد موجودا بدون الإرادة ، وإنما يحب المحب ذلك الموجود ويريده ، ويقال فى كثير من أنواع ذلك : يهواه ويعشقه ، ونحو ذلك من العبارات .

وهذا القسم فى الحقيقة هو الأصل فى القسم الأول ، كما قد تكلمنا عليه فى بعض القواعد المتقدمة من سنين [١] ، وذكرنا أن العلم – والإرادة – إنما يتعلق أولا بالموجود ، وأن تعلقه بالمعدوم تابع لتعلقه بالموجود ، وذكرنا أن الإنسان لا يحب الشيء ويريده حتى يكون له به شعور أو إحساس أو معرفة ونحو ذلك ، ويكون مع ذلك بنفسه إليه ميل [٢] وفيها له حب ، وكل واحد من هاتين الفرقتين فى [٣] فطرته وجبلته المعرفة والمحبة ، ولهذا كان كل / مولود يولد على الفطرة : فطرة الإسلام ، وهى عبادة الله وحده ، وأصل ذلك معرفته ومحبته . والنفس لا تحس العدم [٤] المحض ، وإنما تعرف العدم بنوع من القياس المقدَّر على الوجود ، كما يقدِّر فى نفسه جبل ياقوت وبحر زئبق ، فنزَّل ذلك مما علمه من الجبل ومن الياقوت ، ثم ينفى [٥]

ص ١٩٩

---

(١) بعد كلمة « السنين » توجد عبارة غير واضحة كأنها « المستلزمة الاعتراف » والكلام يستقيم بدونها .

(٢) فى الأصل : مثل .

(٣) فى الأصل : هو فى .

(٤) فى الأصل : القدم ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : يبقى ، وهو تحريف ، والسياق يدل على صواب ما أثبته .

ذلك المقدَّر فى ذهنه أن يكون موجودا فى الخارج ، وهو لم يحكم على نفيه حتى صار موجودا فى نفسه وجودا تقديريا [١] .

الحب يتبع الإحساس والإحساس يكون بموجود لا بمعدوم

فإذا كان الحب يتبع الإحساس ، والإحساس لا يكون إلا بموجودٍ ما ، [فإن ما] [٢] يُحب لا يكون إلا بموجود . وأيضا فإن الإحساس لا يكون أولا إلا لموجود ، فكذلك الحب فى نفسه لا يكون إلا لموجود أو محبوب [٣] ، وإن كان يحب وجود المعدوم [فهو] [٤] لا شىء ، وما ليس بشىء لا يكون محبوبا ، وإن كان يحب وجود المعدوم ويريده [٥] ، فلابد أن يكون قبل ذلك قد ذاقه والتذ به موجودا حتى أحبه بعد ذلك ، أو ذاق والتذ [٦] بنظيره أو بما [٧] يشبهه كما ذلك فى العلم ، وهذا مذكور فى غير هذا الموضع .

ولا يرد على هذا ما يوجد من بكاء الصبى حين يولد قبل أن يذوق طعم اللبن ، فإذا ذاق اللبن التذ به وسكن ، فإن الصبى قبل ذوقه اللبن لم يكن يحبه ويشتهيه ، ولكن يجد ألم الجوع فيبكى من ذلك الألم . فلما ذاق اللبن ووجد لذته ، وأنه أذهب ألم الجوع أحبه من حينئذ ، ومن حينئذ صار يشتهيه ويحبه . وهكذا كل

(١) فى الأصل : تقديرا ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « فإن ما » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : موجودا ومحبوبا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) زدت « فهو » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : ويراد . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : واليد ، وهو تحريف .

(٧) فى الأصل : أو لما .

من جاع فإنه لا يشتهى شيئا معينا إلا أن يكون ذاقه قبل ذلك ، ولكن يجد طلبا لما يزيل به ألم الجوع ، ولهذا إذا حضر عنده ما قد ذاقه قبل ذلك ، وما لم يذقه قبل ذلك ، اشتاق إلى الأول وأحبه ، وكان شوقه إلى الثانى ومحبته إياه مشروطا بذوقه إياه وسماع وصفه ممن يخبره ، [فإن سماع الوصف] [1] يورث المحبة والشوق كما يورث العلم ، كما قيل :

والأذن تعشق قبل العين أحيانا

لكون النفس ذاقت طعم الحب لما هو من نظير لذلك أو شبيه به ولو من وجه بعيد ، فكما أن الشيء لا يتصور إلا [بعد] الحس به [2] ، أو بما فيه شبه به من بعض / الوجوه ، فكذلك لا يحب كذلك . ظ ١٩٩

الأمور الغائبة لا تعرف ولا تحب وتبغض إلا بنوع من القياس والتمثيل

ولهذا ضُربت الأمثال للتعريف والترغيب والترهيب ، فإن الأمور الغائبه عن المشاهدة والإحساس لا تُعرف وتُحب وتبغض إلا بنوع من التمثيل والقياس ، سواء كان الغائب أكمل فى الصفات المطلوبة [3] المشتركة ، كالموعود به من أمر الجنة والنار ، وكما يصف به الرب نفسه سبحانه وتعالى ، أو ما كان دون ذلك ، كما مثَّل من الأمور بما هو أكمل منه .

ومن هنا ضل من ضل من الصابئة المتفلسفة ، ومن أضلوه من أهل الملل ، حيث ظنوا أن ما وصف الله به الجنة والنار إنما هى أمثال مضروبة لتفهيم المعاد الروحانى من غير أن تكون حقائق . وضل من رد عليهم من نفاة أهل الكلام . كما

---

(١) زدت عبارة « فإن سماع الوصف » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : إلا الحسن به . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) كتب فى الأصل فوق كلمة « المطلوبة » : « كذا » .

أصاب الفريقين مثلُ ذلك فى أمر النفس الناطقة ، حيث تقابلوا [١] بالنفى والإثبات ، وحيث اتفق الفريقان على مثل هذا الضلال فى صفات ذى الجلال ، فخاضوا فى باب الإيمان بالله واليوم الآخر خوضا ليس هذا موضع بسط الكلام فيه ، وإن كان كل ذى مقالة فلابد أن تكون فى مقالته [٢] شبهة من الحق ، ولولا ذلك لما راجت واشتبهت .

وإن كانت الإرادة والمحبة تنقسم إلى متبوعة للمراد تكون له كالسبب الفاعل ، وإلى تابعة للمراد يكون هو لها كالسبب الفاعل ، وتكون [٣] عنه كالمسبب المفعول ، وهذا هو الأصل .

وإذا [٤] عُلم أن جميع حركات العالم صادرة عن محبة وإرادة ، ولا بد للمحبة والإرادة من سبب فاعل يكون هو المحبوب المراد – عُلم بذلك أنه لا بد لجميع الحركات من إلٰه يكون المعبود المقصود المراد المحبوب لها [٥] ، وأنها دالة على الإلٰه الحق من هذا الوجه ، وأنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وهذا غير هذا الوجه الذى دلت منه على ربوبيته . وقد بسطنا الكلام على ذلك فى مواضع متعددة ، إذ هو أجل العلم الإلاهى [٦] وأشرفه . وإنما كان المقصود هنا التنبيه على أن الإرادة نوعان كالعلم ، والله أعلم .

---

(١) فى الأصل : تقاتلوا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل العبارة محرفة هكذا : وإن كان حال ذى مقاله فلابد من مقاليه فى ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : ويكون .

(٤) فى الأصل : وقد ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : بها .

(٦) فى الأصل : إذ هو احد العلم اللاهى ، وهو تحريف .

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

رقم السورة	السورة	الآية	الصفحة
٩	التوبة	٢٤	٢٧٤
		٢٤	٢٨٠
		٢٤	٢٨٩
		٢٩	٢٢٣
		٣٧	٣٠١
		٥٢	٣٣٧
		٥٨ ، ٥٩	٣٨٠
		٥٩	٨٦
		٧٩	٢٨٠
		١٠١	٣٥٣ ، ٣٥٤
		١٠٥	١٥
		١٠٥	٥٤
		١٢٢	٢٢٤
		١٢٤ ، ١٢٥	٢٧٨
١٠	يونس	١٤	١٦
		٢٥	٣٦٥
		١٠٩	٣٣٤
١١	هود	١ – ٣	٢٨٦
		٧	٢٢
		٧	٢٢٦
		٩ ، ١٠	٣٤٥
		٩ ، ١٠	٣٥٨

رقم السورة	السورة	الآية	الصفحة
١٥	الحجر	٧٢	٢٤٤
		٧٢	٢٦٨
		٧٥	٩٤
		٩٩	٧٥
		٩٩	١٣١
		٩٩	١٨٦
١٦	النحل	٣٦	٧٦
		٣٦	٢٨٤
		٤٨ – ٥٠	٢١٢
		٩١ ، ٩٢	٣١٠
		٨٩ – ١٠٠	٢٦٣
		٩٩ ، ١٠٠	١٨٢
		٩٩ ، ١٠٠	٢٩١
		١٠٠	٢٦٥
		١٠٠	٢٧٠
		١١٢	٣٤٥
		١١٢	٣٤٧
		١٢٢	٣٧٢
١٧	الإسراء	١	١٣١
		١	٢٦٥
		١٥	٢٩٣
		١٦	١٣

رقم السورة	السورة	الآية	الصفحة
١٧	الإسراء	١٦	١٤
		١٩	١٢١
		٤٤	٢١٣
		٥٤	٦١
		٦٧	٣٥٨
		١٠٠	٣٥٨
١٨	الكهف	١	٥٨
		٢٣، ٢٤	١٣
		٥٠	٢٧٠
		٥٠	٢٩١
		٥١	٥٨
		٨٤	٣٠٦
		١٠٢ - ١٠٤	٢٨٦
		١٠٩	٢٢
		١١٠	١٤٦
١٩	مريم	٦٤، ٦٥	١٩٦
		٨٨ - ٩٥	٢١٣ - ٢١٤
٢٠	طه	١٤	٧٧
		٤٦	١٦
		٨١	٣٤٦
		٨٥	٢٧٤
		١٢٢ - ١٢٤	٢٠٥

رقم السورة	السورة	الآية	الصفحة
٣٢	السجدة	١٣	٣٨
		١٧	٢٤٩
		٢١	٣٥٤
		٢٤	٣٢٧
٣٣	الأحزاب	١٠ – ١٤	٣٣٣
		١٥ ، ١٦	٣٣١
		١٦ ، ١٧	٣٣٥
		٢٩	١٢١
		٣٢	٢٤٢ ، ٣٩١
		٦٦ ، ٦٧	٣٢٨
		٧٢	١٨٠
		٧٢	٣٥٨
٣٤	سبأ	٦	٢٠٤
٣٥	فاطر	١٠	١٨٩
		١٠	٣٣٠
		٣٢	١٨٤
٣٦	يٓس	٩ ، ١٠	٢٩
		٦٠ ، ٦١	٢٦٤
		٦٠ ، ٦١	٢٩١
		٨٢	١٣
		٨٢	٣٩
٣٧	الصافات	٨٥ – ٨٧	٥٣

رقم السورة	السورة	الآية	الصفحة
٣٧	الصافات	٩٥ – ٩٦	٥٣
		١٧١ – ١٧٣	٣٢٩
		١٧٣	٣٢٤
٣٨	ص	٦	٣٩٤
		١٨ ، ١٩	٢١٤
		٢٦	٤٧
		٢٦	٢٠٥
		٣٩	٨٨
		٤٥	١٨٨
		٤٥	٢٦٥
		٧٥ – ٨٥	٢٦٤
٣٩	الزمر	٢	١٢١
		٧	١٥
		٧	١٠٦
		١٤	١٢١
٤٠	غافر	٣١	٣٦٥
		٣٤ ، ٣٥	٢٦٢
		٣٧	٢٨٦
		٥١	٣٢٩
		٧٥	٣٤٧
٤١	فصلت	٣٧ ، ٣٨	٢١٣
		٤٩	٣٥٨

رقم السورة	السورة	الآية	الصفحة
٤٢	الشورى	١٣	١٩٧ ، ١٩٨
		١٣	٢٢٥
		١٤	٣٢٨
		١٥	٢٥٤
		٣٠	٣٣٢
		٣٠	٣٥٤
		٣٤	٣٣٣
		٤٨	٣٥٤
		٥١	٩٦
		٥٢	٩٦
٤٣	الزخرف	٢٤	٥٦
		٢٦ ، ٢٧	٨٤
		٣٦ – ٣٨	٢٩٢
		٤٥	٧٦
		٤٥	٢٨٨
		٥٥	١٥
		٦٧ – ٦٩	٢٦٥
٤٥	الجاثية	٥	٢١٥
		١٨	٢٢٧
		١٨ ، ١٩	٣١٨
		١٩	٢٠٧
٤٦	الأحقاف	٢٠	٣٤٨
		٣٣	٢٩
٤٧	محمد	١ – ٣	٣٤١

فهرس الأحاديث النبوية والقدسية والآثار

رقم مسلسل	الحديث	الصحابى الراوى	الصفحة
٧٨	عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك	أبو هريرة	٣١٤
	(ف)		
٧٩	فحج آدم موسى	أبو هريرة	١٣٤
٨٠	فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش	عائشة	١٩
٨١	فى بضع أحدكم صدقة .... أوله : أوليس قد جعل الله لكم	أبو ذر الغفارى	٨١ ، ١٧٠
٨٢	فيما استطعتم	جماعة من الصحابة	٣١٥
	(ق)		
٨٣	قال الله : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه	أبو هريرة وأنس	٢٧
٨٤	قد كان فى الأمم قبلكم محدثون	عائشة	٩٩
	(ك)		
٨٥	كان خلقه القرآن	أثر عن عائشة	١٣٢
٨٦	كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء	أثر عن عائشة	٢٩٤
٨٧	كل أمتى معافى إلا المجاهرين	أبو هريرة	٣٠٢
٨٨	كل أمر ذى بال لا يبدأ بالحمد فهو أجذم	بمعناه عن أبى هريرة	٦٧
٨٩	كل شىء بقدر حتى العجز	ابن عمر	١٣٥
٩٠	كل مولود يولد على الفطرة	أبو هريرة	٨٥ ، ١١٣ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ٢٣٠ ، ٢٧٢

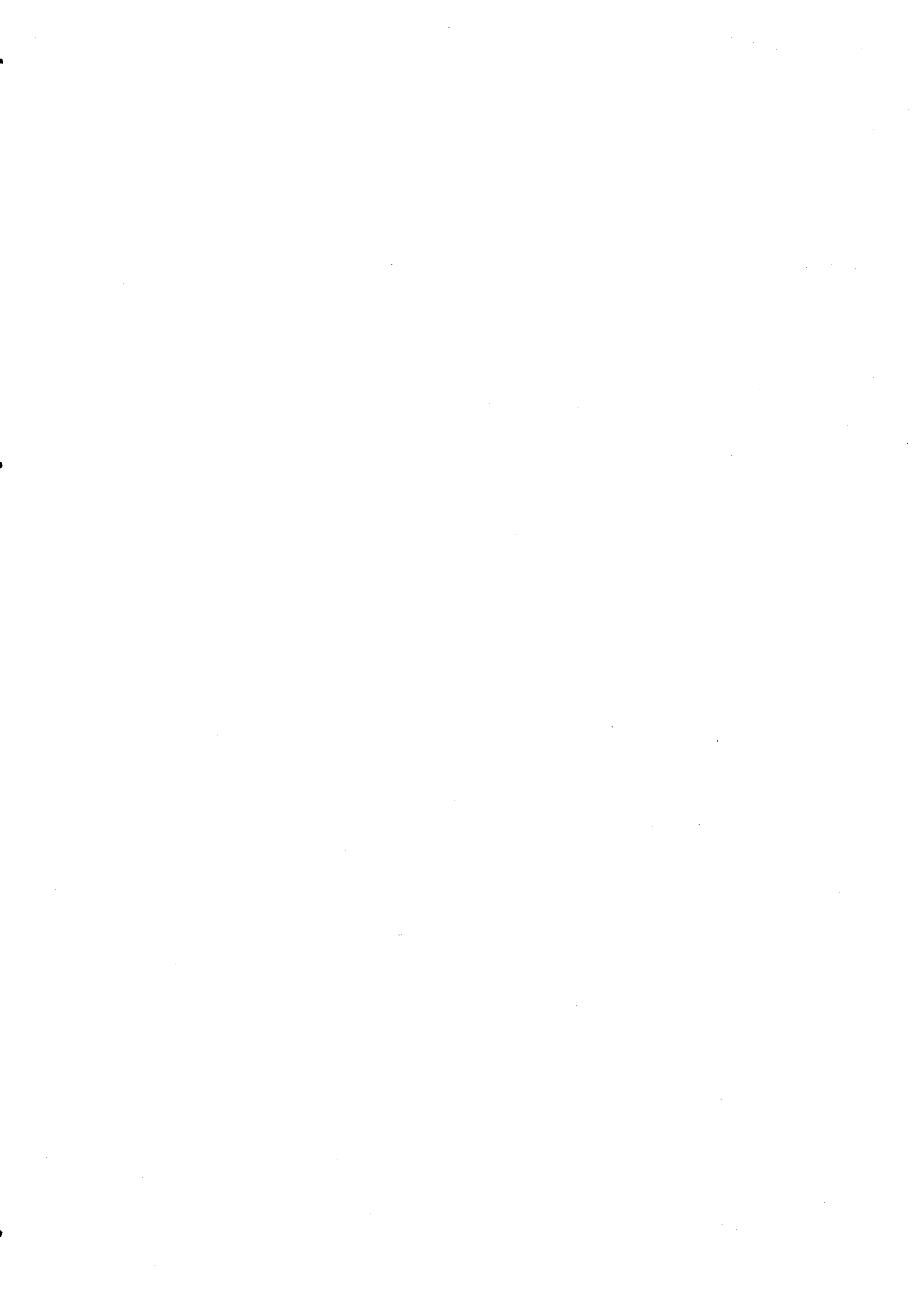
رقم مسلسل	الحديث	الصحابى الراوى	الصفحة
١٥٣	يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة	ابن مسعود	٣٠
١٥٤	يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان	جماعة من الصحابة	٢٥٢ – ٢٥٣
١٥٥	يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا : أوله : بادروا بالأعمال	أبو هريرة	٣٢٦
١٥٦	يقول الله : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت	أبو هريرة	٢٤٩
١٥٧	يقول الله : خلقت عبادى حنفاء	عياض بن حمار	٨٦ ، ٢٣٠
١٥٨	يقول الله : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى	أبو هريرة	٢٤ – ٢٥ ، ٥٦
١٥٩	يقول الله : ما ترددت عن شيء أنا فاعله . وأوله : إن الله قال من عادى لى وليا	أبو هريرة وعائشة	١٠٨ ، ٢٥٧
١٦٠	ينزل ربنا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل ..	أبو هريرة	٢٥
١٦١	اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون	عدى بن حاتم	١٢٧

فهرس اللغة

مسائل لغوية :

فهرس الشعر

أول البيت	القافية	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة	التعليق
يا آل مكة	والحجر	البسيط	١	بعض التابعين	٣١٢	
ليسوا	نيلوا	البسيط	١	كعب بن زهير	٣٦١	٢
سكران	سكران	الكامل	١	رجل	٢٦٩	
قالت العشق	بالمجانين فى الحين	البسيط	٢	الصيدلانى	٢٦٨ - ٢٦٩	٢



فهرس الأعلام

فهرس الطوائف والقبائل والفرق

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس المصطلحات والبحوث الفرعية (*)

(أ)

(ت)

(*) هذا الفهرس يتضمن بعض المصطلحات والبحوث التى لم يشر إليها فى فهرس الموضوعات .

التفسير :

(د)

الدين :

(ذ)

(س)

السلوك :

(ص)

صفات الله :

(ع)

العالم :

فهرس أسماء الكتب

فهرس مراجع التحقيق (*)

(أ)

أخبار الرجال ، لمحمد بن عمر بن عبد العزيز الكشى ، بمبىء محلة جبور كلى ، إيران ، ١٣١٧ .

الأسماء والصفات ، لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى ، بتحقيق الكوثرى ، ط . السعادة ، القاهرة ، ١٣٥٨ .

اصطلاحات الصوفية ، لابن عربى (طبعت مع كتاب التعريفات للجرجانى) ، ط . مصطفى الحلبى ١٩٣٨/١٣٥٧ .

اصطلاحات الصوفية ، لكمال الدين عبد الرزاق القاشانى ، تحقيق الدكتور محمد كمال جعفر ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، للقاضى أبى بكر محمد ابن الطيب الباقلانى ، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، نشر عزت العطار ، القاهرة ، ١٩٥٠/١٣٦٩ .

(ب)

بروكلمان ، انظر : المراجع الأجنبية : GAL .

(ت)

تفسير ابن كثير ، ط . الشعب ، القاهرة ، ١٩٧١/١٣٩٠ .

تكملة الفهرست لابن النديم = طبع مع الفهرست لابن النديم ، ط . التجارية ، القاهرة ، ١٣٤٨ .

(*) ذكرت هنا فقط أسماء المراجع التى لم أذكرها من قبل فى فهرس المجموعة الأولى ويستطيع القارىء أن يراجع فهرس المجموعة الأولى لمعرفة المراجع الأخرى .

تلبيس إبليس ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، الطبعة . الثانية ، المطبعة المنيرية ، القاهرة ، ١٣٦٨ .

(ح)

حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق الأستاذ محمود حسن ربيع ، ط . مكتبة الأزهر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٥٧/١٩٣٨ .

حلية الأولياء ، لأبي نعيم الأصبهانى ، ط . الخانجى ، القاهرة ، ١٣٥١/١٩٣٢ .

(د)

دائرة المعارف الإسلامية ، ط . كتاب الشعب ، القاهرة .

دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد وآخرين ، ط . القاهرة .

درء تعارض العقل والنقل ، لأبي العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣/١٩٨٢ .

دستور العلماء ، للقاضى عبد النبى بن عبد الرسول الأحمدنكرى ، ط . حيدر آباد ، ١٣٢٩ .

ديوان الأعشى ، تحقيق رودلف جابر ، ط . فينا ، ١٩٢٧ .

(ذ)

ذم الهوى ، لأبي الفرج عبد بن الجوزى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ومراجعة محمد الغزالى ، ط . القاهرة ، ١٣٨١/١٩٦٢ .

(ر)

الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، محمود بن الشريف . نشر دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٣٨٥/١٩٦٦ .

(س)

سنن الترمذى ، لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (بشرح ابن العربى) ط . المطبعة المصرية بالأزهر ، القاهرة ١٣٥٠/١٩٣١ .

طبعة أخرى ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (ط . المدنى بالقاهرة) ، ١٣٨٤/١٩٦٤ .

سير أعلام النبلاء ، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ، يخرجه معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، ط . المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

سيرة الغزالى ، للدكتور عبد الكريم عثمان ، ط . دار الفكر ، دمشق ، بدون تاريخ .

(ش)

شطحات الصوفية ، للدكتور عبد الرحمن بدوى ، ط . النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٩ .

(ص)

صحيح الجامع الصغير ، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ، منشورات المكتب الإسلامى ، ط . الأولى ١٣٨٨/١٩٦٩ .

صحيح مسلم ، لأبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، ط . عيسى الحلبى ، ١٣٧٤/١٩٥٥ .

طبعة أخرى = الجامع الصحيح ، استانبول ، ١٣٢٩ – ١٣٣٣

صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام للسيوطى ، تحقيق الدكتور النشار ، والسيدة سعاد عبد الرازق ، ط . مجمع البحوث الإسلامية ، ١٣٨٩/١٩٧٠ .

طبعة أخرى : صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام ، للسيوطى ، تحقيق الدكتور على سامى النشار ، ط . الخانجى ١٣٦٦/١٩٤٦ .

(ط)

طائفة الإسماعيلية ، للدكتور محمد كامل حسين ، ط . القاهرة ، ١٩٥٩ .

(ف)

فتح البارى بشرح البخارى ، لابن حجر العسقلانى ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز ، ط . السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٠ .

فتوح الغيب ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٣٠ ، على هامش كتاب « بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى بعض مناقب عبد القادر الجيلانى » تأليف على بن يوسف بن جرير اللخمى الشطنوفى .

فخر الدين الرازى وآراؤه الكلامية والفلسفية ، لمحمد صالح الزركان ، ط . دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .

الفرق بين الفرق ، لابن طاهر البغدادى ، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط . صبيح ، بدون تاريخ .

طبعة أخرى ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، نشر عزت الحسينى ، القاهرة ، ١٣٦٧/١٩٤٨ .

فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، للقاضى عبد الجبار ، تحقيق فؤاد سيد ، ط . تونس ، ١٣٩٣/١٩٧٤ .

الفهرست ، لابن النديم ، ط . التجارية ، القاهرة ، ١٣٤٨ .

طبعة أخرى : تحقيق جوستاف فلوجل (مصوره عن طبعة ليبزيج ، ألمانيا ، ١٨٧١) ، ط . بيروت ، ١٩٦٤ .

فهرست الطوسى ، لمحمد بن الحسن الطوسى ، المكتبة المرتضية بالنجف ، العراق ، ١٣٥٦/١٩٣٧ .

(م)

مسند الطيالسى = منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى ، لأحمد بن عبد الرحمن البنا ، ط . المنيرية بالأزهر ، ١٣٥٣/١٩٣٤ .

معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحاله ، نشر المثنى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١٣٧٦/١٩٥٧ .

منازل السائرين ، تحقيق دى بوركى الدومنكى ، ط . المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

Brockelmann (K) GAL : Geschichte der Arabischen Litteratur, 5 Vols, Leiden, 1937-49.

فهرس الموضوعات

الفهارس ٤٠٣

للدكتور محمد رشاد سالم

المؤلفات

١ – المدخل إلى الثقافة الإسلامية الطبعة السادسة دار القلم الكويت ١٤٠٤/١٩٨٤
٢ – مقارنة بين الغزالى وابن تيمية دار القلم الكويت ١٣٩٥/١٩٧٥

فى مجال التحقيق

١ – منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية
الجزء الأول ، ط . دار العروبة ، القاهرة ١٣٨٢/١٩٦٢
٢ – الجزء الثانى ، ط . دار العروبة ، القاهرة ، ١٣٨٤/١٩٦٤
٣ – جامع الرسائل لابن تيمية المجموعة الأولى ، ط . المدنى ، ١٣٨٩/١٩٦٩
٤ – درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٩٠/١٩٧٠
٥ – كتاب الصفدية لابن تيمية ، الجزء الأول ، ط . حنيفة ، الرياض ، ١٩٣٦/١٩٧٦
٦ – درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١١ جزءاً ، ط . مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض ، السعودية ، ١٣٩٩/١٩٧٩ – ١٤٠٣/١٩٨٣
٧ – مسألة فيما إذا كان فى العبد محبة لابن تيمية ضمن كتاب « دراسات عربية وإسلامية » ط . المدنى ، القاهرة ١٤٠٣/١٩٨٢
٨ – الاستقامة لابن تيمية جزءان ، ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٤/١٩٨٣
٩ – جامع الرسائل لابن تيمية المجموعة الثانية ، ط . المدنى ، ١٤٠٥/١٩٨٤

تحت الطبع

١ – منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية ، ٩ أجزاء ، ط . مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، السعودية
٢ – كتاب الصفدية لابن تيمية ، الجزء الثانى ، ط . الرئاسة العامة للبحوث العلمية والافتاء والارشاد ، الرياض ، السعودية

